الحياة في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

احزمي سامعون جزولي

الجزء الأول

الناشر

دار طوق للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحياة في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

١

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

ⓒ دار طويق للنشر والتوزيع ، ١٤١٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

جزولي، احزمي سامعون
الحياة في القرآن الكريم : دراسة موضوعية ـ الرياض .
٠٠٠ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك ١ ـ ٣٥ ـ ٦٤٦ ـ ٩٩٦٠
١ ـ القرآن ـ مباحث عامة أ ـ العنوان
ديوي ٢٢٩ ١٧/٠٢٩٩٠

رقم الإيداع : ١٧/٢٩٩٠
ردمك : ١ ـ ٣٥ ـ ٦٤٦ ـ ٩٩٦٠

دار طويق للنشر والتوزيع
الرياض ـ الناصرية ـ شمال مبنى وزارة الخارجية
ص ب ٣١٩٣٤ ـ الرياض ١١٤١٨
هاتف : ٤٠٤٢٥٥٥ ـ فاكس : ٤٠٣٤٢٣٨

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[2].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[3].

أما بعد...

فإن القرآن الكريم هو الكتاب الحكيم، الذي دعانا لما فيه الحياة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٢) سورة النساء: ١.

(٣) سورة الأحزاب: ٧٠.

(٤) سورة الأنفال: ٢٤.

وإنه منهج حياة يدعو المؤمنين إلى تحقيق الحياة الإيمانية التي تستغرق الإنسان كله بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعًا، يتوجه بهذا كله إلى الله عز وجل.

وإنه يدعوهم إلى توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض أمانة الاستخلاف. إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنما هي قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والفوضى، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان.

إن القرآن الكريم يدعو الناس إلى معرفة الغاية من حياتهم، سواءً كانت حياة فرد أم جماعة، حياة دولة أم عالم، أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها. تلك الغاية هي التي تتمثل في وظيفة؛ من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها أو نكل عنها قد أبطل غاية وجوده، وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل.

هذه الوظيفة المعينة هي العبادة لله وحده، وذلك بأن يكون هناك عبد ورب، عبد يَعبد، وربٌّ يُعبد، وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار.

إن القرآن الكريم يعلم الناس الميزان الدقيق للحياة والقيم كلها. فهذه الحياة الدنيا في عمومها ليست إلا لهوًا ولعبًا حين لا ينظَر فيها إلى الآخرة،

حين تكون هي الغاية العليا للناس. حين يصبح المتاع فيها هو الغاية من الحياة.

فأما الحياة الآخرة فهي الحياة الفائضة بالحيوية، هي «الحيوان» لشدة ما فيها من الحيوية.

لذلك كله، فإني لراغب في أن أكتب رسالة «الدكتوراه» فيما يتعلق بالحياة في القرآن الكريم.

وأما أهمية الموضوع فكما يلي:

١ - إن أمتنا الإسلامية اليوم وصلت إلى الأحوال والظروف التي لم يرض بهــا الله عز وجل من الذل والهوان والفرقة التي يشعلها الأعداء فيما بينهم لإضعافهم أمام العدو، فلكي تحيا أمتنا الإسلامية حياة عزة وسيادة يجب أن ترجع إلى كتاب دينها العظيم فتجعل - من عقائده وعبادته وأحكامه وتشريعاته وآدابه وأخلاقه - منهاجًا يعصمها من الفشل والخطل . . ولكي تحصل على علاج لما تعانيه من متاعب الحياة وآلامها يجب أن تجعل أحكام القرآن دستوراً يهيمن على سلوكها في شتى ميادين الحياة.

٢ - حقًا إن القرآن الكريم منهج حياة، ولذلك فإن صحابة الرسول - ﷺ - لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع، لم يكن أحدهم يتلقى القرآن لمجرد تلك الأغراض. وإنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن المجتمع الذي يعيش فيه، وشأن الحياة التي حياها هو ومجتمعه، يتلقى هذا الأمر ليحيا ويعمل به فور سماعه. وفي ضوء هذا الموضوع القرآني يرجى من أمتنا الإسلامية اليوم والغد أن تحيا بالقرآن الكريم كما طبقه الصحابة - رضوان الله عليهم - في واقع حياتهم.

٣ - وإذا قرأنا وتدبرنا القرآن الكريم وجدنا الآيات الكثيرة التي تتحدث عن

الحياة بكل أنواعها وحقائقها وقيمها وغايتها ومواقف الناس منها. كل ذلك يدل على أن الحياة موضوع من الموضوعات القرآنية التي هي جديرة بالبحث والدراسة.

٤ ـ إن هذا الموضوع ـ فيما أعلم ـ لم يكتب فيه من قبل، مما يدل على أنه موضوع جديد. وبعد الاستفسار من بعض الأساتذة الفضلاء ـ جزاهم الله خيراً ـ يتقوى عزمي على كتابة هذا البحث.

لهذا كله، فقد رأيت ـ مستعينًا بالله العزيز الحكيم ـ أن أتناول هذا الموضوع الحي القرآني. بما يستحقه من البحث والدراسة تناولاً تتجلى منه حقيقته العظيمة وغايته النبيلة.

منهجي في البحث :

١ ـ الاعتماد على المراجع القديمة الأصيلة، والمراجع الحديثة المفيدة.

٢ ـ ترقيم الآيات وذكر سورها في القرآن الكريم.

٣ ـ عزو الأحاديث إلى مصادرها، مشيراً إلى الجزء والصفحة والكتاب والباب والرقم إن وجد.

٤ ـ إذا كان الحديث المستشهد به في أكثر من مصدر، فإني قد أكتفي بعزوه إلى بعض مصادره.

٥ ـ عزو ما نقلته إلى مصدره حرفيًا أو تصرفًا.

٦ ـ لم أذكر ـ في بعض الأحيان ـ اسم الكتاب أو مؤلفه الذي نقلت منه الكلام لينسجم مع سابقه، ولكني أشير في الهامش إلى مصدره.

٧ ـ وضعت ترجمة موجزة للأعلام التي لم تكن مشهورة.

٨ ـ شرح المفردات التي تحتاج إلى ذلك .

خطة البحث :

اشتملت خطة البحث على المقدمة، والتمهيد، وثلاثة أبواب، والخاتمة .

أما المقدمة فقد تناولت فيها أهمية الموضوع، وسبب الاختيار، ومنهج البحث .

وأما التمهيد فقد تكلمت فيه عن معنى الحياة، ويكون دراسة لغوية حول المصطلح .

الباب الأول: حقيقة الحياة:

وقد اشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : حقيقة الحياة الدنيا :

وتحته مباحث :

المبحث الأول : سنن الله تعالى في الحياة الدنيا.

من خلال تدبري القرآن الكريم استنتجت هذه السنن في الحياة الدنيا :

أولاً : السنن الكونية مرتبطة بالسنن في حياة الناس .

ثانيـاً : سنة الله في تغير حال الناس .

ثالثـاً : سنة الله في مداولة الأيام بين الناس .

رابعـاً : سنة الله في إهلاك الأمم .

خامسًا : سنة الله في عدم إهلاك الأمم إلا بعد إنذار .

سادسًا : سنة الله في النصر لأوليائه .

سـابعًا : سنة الله في إقامة الحق .

المبحث الثـاني : استخلاف الله للإنسـان في الحياة الدنيـا، وتحدثت عنه في العناصر التالية :

١ ـ المراد بالخلافة في القرآن الكريم .

٢ ـ أقوال العلماء في المراد بـ «خليفة» في قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] .

٣ـ عناصر الاستخلاف .

٤ ـ هل يجوز أن يقال : إن الإنسان خليفة ا أو خليفة عن الله في أرضه؟

٥ ـ مفاهيم حول الخلافة .

المبحث الثالث : تمكين الله تعالى للإنسان في الحياة الدنيا.

وبتدبر القرآن الكريم فيما يفيدنا في هذا المبحث يتبين لنا جملة أشياء جعلها الله عز وجل في هذه الحياة وبثها فيها ليتحقق هذا التمكين في الأرض، وتصلح حياة الإنسان على الحال الذي أنشأها الله عليه .

وهذه الأشياء هي :

١ ـ تهيئة الأرض للحياة .

٢ ـ الشمس والقمر .

٣ـ الأنعام .

المبحث الرابع : قيمة الحياة الدنيا وما فيها. ويشمل ما يلي :

---

(١) سورة البقرة : ٣٠ .

١ ـ قيمة الحياة الدنيا وما فيها في ميزان الله تعالى .

٢ ـ وصف الحياة الدنيا في القرآن الكريم .

٣ ـ قيمة الحياة الدنيا الطيبة .

٤ ـ قيمة العمل الصالح .

المبحث الخامس : متاع الحياة الدنيا وما فيها. ويتضمن ما يلي :

١ ـ أنواع متاع الحياة الدنيا .

٢ ـ متاع الحياة الدنيا للناس أجمعين ، مؤمنيهم وكافريهم .

المبحث السادس : الابتلاء في الحياة الدنيا وما فيها. وتكلمت فيه عن الأمور الآتية :

١ ـ معنى الابتلاء .

٢ ـ ابتلاء المؤمنين في الحياة الدنيا أمر لابد منه .

٣ ـ فوائد الابتلاء .

٤ ـ نماذج من ابتلاء الرسل والأمم السابقة .

٥ ـ نماذج من ابتلاء الرسول ـ ﷺ ـ وأمته .

الفصل الثاني : حقيقة الحياة الآخرة :

وتحته مباحث :

المبحث الأول : وصف الحياة الآخرة في القرآن الكريم.

المبحث الثاني : خلود الحياة الآخرة. ذكرت فيه ما يلي :

١ ـ معنى الخلود.

٢ ـ خلود أهل الدارين .

٣ ـ خلود نعيم الجنة .

٤ ـ خلود النار .

٥ ـ أهل النار المخلدون فيها .

٦ ـ أكبر جرائم الخالدين في النار .

المبحث الثالث : عذاب الحياة الآخرة. ذكرت فيه أن الله عز وجل قد وصف في القرآن عذاب الحياة الآخرة بأوصاف كثيرة متنوعة.

المبحث الرابع : نعيم الحياة الآخرة. ويتطرق إلى ما يلي :

١ ـ فضل نعيم الآخرة على متاع الدنيا .

٢ ـ أنواع نعيم الحياة الآخرة .

٣ ـ أكبر نعيم الحياة الآخرة .

الفصل الثالث : الحياة دليل القدرة الإلهية :

وتحته مباحث :

المبحث الأول : في أن الله تعالى هو مبدع الحياة. وفيه ما يلي :

١ ـ تدبير العناصر اللازمة لحياة الكائنات الحية .

٢ ـ الآيات الإلهية في إخراج الحي من الميت ، والميت من الحي .

المبحث الثاني : في البرهان الحسي على إعادة الحياة. وفيه ما يلي :

١ ـ الآيات الإلهية في البرهان الحسي على إعادة الحياة .

٢ ـ براهين أخرى تتعلق بالبرهان الحسي على إعادة الحياة .

المبحث الثالث : حياة الأرض. تكلمت فيه عن الأمور الآتية :

١ ـ في خلق الأرض نعمة ربانية وحكمة بالغة .

٢ ـ إعداد الأرض للحياة .

٣ ـ الآيات الربانية التي تدبر الأمر في الأرض لإعدادها للحياة .

المبحث الرابع : نشأة الحياة من الماء. وتحدثت فيه عما يلي :

١ ـ حكمة خلق الماء .

٢ ـ الماء ونشأة الحياة .

٣ ـ الأدلة المرتبطة بالخصائص الحيوية للماء .

٤ ـ الماء آية القدرة الإلهية .

الباب الثاني : أنواع الحياة :

ويتألف هذا الباب من ستة فصول :

الفصل الأول : حياة المؤمنين في الدنيا :

وتحته مباحث :

المبحث الأول : نظرة المؤمنين إلى الحياة الدنيا، ويتضمن ما يلي :

١ ـ تحذير المؤمنين من فتنة متاع الحياة الدنيا وزينتها .

٢ ـ تحذير المؤمنين فتنة متاع الحياة الدنيا وزينتها لا يستلزم تركها .

٣ ـ نظرة المؤمنين إلى المال .

٤ ـ الطريق الواحد لصلاح الدنيا والآخرة .

المبحث الثاني : صفات المؤمنين في الحياة الدنيا.

المبحث الثالث : موقف المؤمنين من الكافرين في الحياة الدنيا، تكلمت

فيه عما يلي :

١ ـ موقف المؤمنين من الكافرين المحايدين .

٢ ـ توجيه المؤمنين للتسامح مع غير المسلمين .

٣ ـ موقف المؤمنين من الكفار المحاربين .

المبحث الرابع : حياة المؤمنين الطيبة وسبيلها، ويشمل ما يلي :

١ ـ أقوال المفسرين في المراد بالحياة الطيبة في الآية .

٢ ـ الحياة الطيبة حياة إنتاج وجمال .

٣ ـ سبيل الحياة الطيبة .

المبحث الخامس : سعي المؤمنين في الحياة الدنيا للآخرة ومقتضياته، ويتطرق إلى النقاط التالية :

١ ـ لا يحصل الإنسان من الأجر إلا ما سعى هو لنفسه .

٢ ـ مقتضيات سعي المؤمنين في الحياة الدنيا للآخرة ، وهي :

أ ـ تحرير المؤمن من خوف الموت ، ويقينه الكامل بأن الحياة الدنيا هي طريق إلى الحياة الآخرة .

ب ـ النجاح في الدنيا والآخرة بالعمل .

ج ـ تكريم الإسلام للعمل والعامل ونفرته من التعطيل والكسل .

د ـ عمارة الأرض .

هـ ـ المؤمنون لا يرون في الحياة مكانًا للعبث أو اللعب .

الفصل الثاني : حياة المؤمنين في الآخرة :

وتحته مباحث :

المبحث الأول : حياة المؤمنين في البرزخ. ذكرت فيه ما يلي :

١ ـ المراد بالبرزخ.

٢ ـ أرواح المؤمنين تتلاقى وتتزاور وتتذاكر في البرزخ.

٣ ـ حياة المؤمنين في القبر وأنواع نعيمه.

٤ ـ الأسباب المنجية من عذاب القبر.

المبحث الثاني : حياة الشهداء. وتحدثت فيه عن الأمور التالية :

١ ـ معنى الشهادة.

٢ ـ أقوال العلماء في تسمية الشهيد شهيداً.

٣ ـ الشهداء أحياء لا أموات.

٤ ـ منزلة الشهداء في الآخرة.

٥ ـ جماعة الشهداء الآخرين في الآخرة.

المبحث الثالث : حياة المؤمنين في منازل يوم القيامة. ويتضمن ما يلي :

١ ـ البعث وصفته.

٢ ـ حالة المؤمنين في البعث.

٣ ـ الحشر وصفته.

٤ ـ الحساب.

٥ ـ إيتاء المؤمنين كتبهم.

٦ ـ الميزان، دقته وعدالته.

٧ ـ الحوض .

٨ ـ الصراط ومرور المؤمنين عليه .

٩ ـ الشفاعة .

المبحث الرابع : حياة المؤمنين في الجنات. ويشمل ما يأتي :

١ ـ معنى الجنة .

٢ ـ أول من يدخل الجنة .

٣ ـ آخر من يدخل الجنة .

٤ ـ درجات الجنة وأصحابها .

٥ ـ صفة الجنة .

الفصل الثالث : حياة الكافرين في الدنيا :

وتحته مباحث :

المبحث الأول : نظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا.

بعد التدبر والتأمل في كتاب الله العزيز نجد أن نظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا تتمثل في أمور كالتالي :

١ ـ إنهم مخدوعون بزينة الحياة الدنيا .

٢ ـ إنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا .

٣ ـ نظرة الكافرين إلى المال .

المبحث الثاني : صفات الكافرين في الحياة الدنيا.

المبحث الثالث : سعي الكافرين في الحياة الدنيا ومقتضياته. ويتضمن ما يلي :

١ - سعي الكافرين في آيات الله معاجزين .

٢ - سعيهم في الأرض فساداً ، مع ذكر صور إفسادهم وإهلاكهم فيها .

٣ - سعيهم في خراب مساجد الله .

٤ - أكلهم أموال الناس بالباطل .

المبحث الرابع : حرص الكافرين على الحياة الدنيا ووسائلهم في ذلك.

ذكرت فيه الأمور التالية :

١ - الرضا والفرح بالحياة .

٢ - إيثار الحياة الدنيا على الآخرة .

٣ - الإخلاد إلى الأرض .

٤ - إنهم لا يرجون نشوراً ولا حسابًا ولا لقاء الله عز وجل .

كما ذكرت فيه وسائل الكافرين في حرصهم على الحياة الدنيا ، فمنها :

١ - جمع الأموال والاستكثار منها .

٢ - اتخاذ المصانع .

٣ - اشتراء الحياة الدنيا بالآخرة .

٤ - البخل .

٥ - التخلف عن القتال في سبيل الله .

المبحث الخامس : عداوة الكافرين للمسلمين في الحياة الدنيا.

ذكرت فيه أن موقف الكافرين من المسلمين هو موقف كراهية وعداء ، وإرادة تكفير ومحاولات تضليل ، ويرافق ذلك حقد وتغيظ . فهم بذلك يتخذون الوسائل المختلفة ، منها :

١ ـ إخراج الرسل والذين آمنوا معهم من ديارهم .

٢ ـ تحويل المسلمين من الإيمان إلى الكفر .

٣ ـ القتال .

المبحث السادس : تعذيب الكافرين في الحياة الدنيا.

تحدثت فيه عن أنواع العذاب التي تحيق بالكافرين في الحياة الدنيا ، مع ذكر أنواع التعذيب، وهي :

١ ـ التعذيب بالضيق والحرج في صدورهم .

٢ ـ التعذيب بالخزي والهزيمة أمام المؤمنين .

٣ ـ التعذيب بالقوارع .

٤ ـ التعذيب بإلقاء العداوة والبغضاء بينهم .

٥ ـ التعذيب بالأموال والأولاد .

٦ ـ التعذيب بالإهلاك العام والتدمير الشامل .

الفصل الرابع : حياة الكافرين في الآخرة :

وتحته مباحث :

المبحث الأول : حياة الكافرين في البرزخ.

المبحث الثاني : حياة الكافرين في منازل يوم القيامة. ويشمل ما يلي :

١ ـ تخاصم الكافرين في المحشر .

٢ ـ حالة الكافرين عند الحساب .

٣ـ حشر الكافرين إلى النار .

المبحث الثالث : حياة الكافرين في النار.

الفصل الخامس : حياة المنافقين في الدنيا والآخرة :

وتحته مباحث :

المبحث الأول : النفاق وخطورته في الحياة. ويحتوي على ما يلي :

١ ـ تعريف النفاق .

٢ ـ تقسيم النفاق .

٣ـ خطورة النفاق في الحياة . وتتجلى في الأمور الكثيرة، منها : تحذير المؤمنين من المنافقين، وأن النفاق إفساد في هذه الحياة بجوانبها المختلفة، من : الحياة الاجتماعية، والحياة السياسية، والحياة الاقتصادية .

المبحث الثاني : ولاء المنافقين بعضهم لبعض في الحياة الدنيا.

إن القرآن الكريم يذكر صوراً كثيرة من ولاية المنافقين بعضهم لبعض، وتناصرهم بينهم في تحقيق السلوك النفاقي في الحياة، فمن تلك الصور الخبيثة .

١ ـ أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف .

٢ ـ مشاركتهم في إثارة الشُبَه بشأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام .

٣ـ بناء مسجد الضرار .

٤ ـ حديث الإفك .

٥ ـ ولاؤهم ليهود بني نضير .

المبحث الثالث : عداوة المنافقين للمؤمنين في الحياة الدنيا.

إن المنافقين هم العدو الحقيقي للمؤمنين، وقد استخدموا في تحقيق عداوتهم للمؤمنين أساليب مختلفة، منها: السخرية بالمؤمنين، والإفساد بينهم، والشماتة بهم، وتخذيلهم، والتربص بهم، والتعرض بالأذى لنسائهم، وغير ذلك.

المبحث الرابع: نماذج من حياة المنافقين الدنيوية:

تحدثت في هذا المبحث عن نماذج من حياة المنافقين الدنيوية كما ذكرها القرآن الكريم، فمنها: ادعاء الإيمان، والحلف الكاذب، والخداع والرياء، واللدد في الخصومة والعزة بالإثم، وعدم الوفاء بالعهد، وتواصيهم بترك الجهد، والتحاكم إلى الطاغوت، والذبذبة، وغير ذلك.

المبحث الخامس: حياة المنافقين في النار.

الفصل السادس: أنواع أخرى للحياة كما ورد ذكرها في القرآن الكريم:

وتحته مباحث:

المبحث الأول: الحياة الإيمانية:

ذكرت فيه ثمرات الحياة الإيمانية وآثارها في معالجة النفوس، وشفائها من العلل والأمراض وما أحدثته من تخريب للأفراد والأسر والمجتمع.

المبحث الثاني: الحياة القلبية:

ذكرت في هذا المبحث أن الحياة القلبية شرط لصلاح الإنسان في هذه الحياة، وأن لها أهميتها الكبيرة في حياة الإنسان، فمن تلك الأهمية:

١ - إنها حاجة روحية.

٢ - إنها إشراق وهدى ووسيلة لفلاح الإنسان وسعادته في هذه الحياة.

٣ ـ ضرورة الحياة القلبية كعامل من عوامل التسامي والتكامل والتقدم .

كما ذكرت فيه مظاهر الحياة القلبية ، وهي : التفكر في عظمة قدرة الله عز وجل ، والمراقبة والمحاسبة ، وذكر الله وغير ذلك .

المبحث الثالث : الحياة في القصاص :

ذكرت فيه دعوة القرآن إلى المحافظة على حياة الإنسان .

المبحث الرابع : الحياة في سبيل الله :

نريد «سبيل الله» هنا الشيء الخاص ، وهو الجهاد في سبيل الله، فهو فيه الحياة . . وتحدثت في هذا المبحث عن أهداف الجهاد وغايته ، فمنها :

١ ـ حماية حرية العقيدة .

٢ ـ حماية الشعائر والعبادات .

٣ ـ دفع الفساد عن الأرض .

٤ ـ الابتلاء والتربية والإصلاح .

٥ ـ إرهاب الكفار وإذلالهم وتوهين كيدهم .

٦ ـ كشف المنافقين .

الباب الثالث : الغاية من الحياة وثمراتها ، وفيه فصلان:

الفصل الأول : الغاية من حياة الإنسان :

وهو يشتمل على ما يلي :

١ ـ الغاية من حياة الفرد .

٢ ـ الغاية من حياة الأسرة .

٣ ـ الغاية من حياة المجتمع .

الفصل الثاني : ثمرات الحياة في الدنيا والآخرة في ضوء القرآن الكريم.

وتحته مباحث :

المبحث الأول : النصر من عند الله.

المبحث الثاني : التمكين في الأرض.

المبحث الثالث : إقامة العدل.

المبحث الرابع : حياة السعادة.

المبحث الخامس : حياة العزة.

المبحث السادس : تكفير السيئات والمغفرة من الله.

المبحث السابع : دخول الجنة.

المبحث الثامن : رضوان الله.

الخاتمة : وفيها أهم نتائج البحث وثمراته.

وقد ذيلت البحث بدليل اشتمل على ما يلي :

١ ـ فهرس الآيات القرآنية .

٢ ـ فهرس الأحاديث والآثار .

٣ ـ فهرس الأعلام .

٤ ـ فهرس المصادر والمراجع .

٥ ـ فهرس الموضوعات .

وفي ختام هذه المقدمة أقول : إنني لم أبلغ في عملي هذا الغاية والكمال، وإنما مجرد عرض ما بذلت من جهد مقل، قليل البضاعة، ضعيف القدرة، يتيم الخبرة في هذا الشأن.

فالرسالة في أمس الحاجة إلى الملحوظات والتوجيهات والإرشادات من لجنة المناقشة ـ حفظهم الله ـ، لا سيما أن صاحبها أعجمي، ليس عنده شيء إلا محبته للقرآن الكريم، وليس عنده رغبة إلا في الحياة مع القرآن الكريم في عالم الواقع . . فالتوجيه من أصحاب الفضيلة الأساتذة ـ حفظهم الله ـ ذو أهمية في مستقبل الباحث للانتقال من ضيق الحياة النظرية إلى سعة الحياة الواقعية القرآنية.

واستجابة لقوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾[1]، يجب علي أن أشكر الله عز وجل على نعمه التي لا تحصى، ومن أعظمها نعمة الإيمان والإسلام، ونعمة التفقه في الدين.

ثم يسرني أن أتقدم بجزيل الشكر والدعاء الخالص بالتوفيق والسداد للمسؤولين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ولأعضاء قسم القرآن وعلومه، ومجلس كلية أصول الدين الذين تفضلوا بالموافقة على هذا الموضوع، ولأساتذتي الأفاضل الذين أدين لهم بالفضل في إخراج هذه الرسالة إلى حيز الوجود.

وأخص بشكري فضيلة الأستاذ الدكتور / محمد السيد بنداري مرسي ـ حفظه الله ـ المشرف على هذه الرسالة الذي وهبني أوقاته الغالية، وأحاطني بعطف أبوته، فبذل جهده بكل إخلاص، وشجعني على متابعة البحث بكل جد ونشاط، ولم يأل جهداً في التوجيه والنصح، فقد كان لي المعلم ونعم المشرف. كما أشكر فضيلة الأستاذ الدكتور / حسن أحمد جبر ـ حفظه الله ـ الذي تفضل بالإشراف على هذه الرسالة في بداية أمرها.

---

(١) سورة إبراهيم : ٧.

وأخص بشكري أيضًا فضيلة الدكتور / محمد عبد العال شافع .

وفضيلة الدكتور / الحسن الخلوي موكلي - حفظهما الله - على ما تفضلا به من مناقشة هذه الرسالة ، وإعطاء ملاحظاتهما الغالية وتعليقهما عليها .

كما أشكر كل من قدم لي خدمةً أو توجيهًا من المشايخ والأصدقاء .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه الفقير إلى الله :

أحزمي سامعون جزولي

التمهيد

في معنى الحياة دراسة لغوية حول المصطلح

لقد ورد لفظ «الحياة» في القرآن الكريم مائة وسبعًا وسبعين مرة (١٧٧)، فمرة بفعل ماض، ومرة أخرى بفعل مضارع، حينًا بالمفرد، وحينًا آخر بالجمع، كما أنه ورد بصيغة المصدر تارة، وتارة أخرى باسم الفاعل[١] .

والحيّ ضد الميّت، والحيّ بالكسر والحيوان ـ محرّكة ـ والحياة والحَيَوْة بفتح الياء وسكون الواو: نقيض الموت[٢] .

ولفظ الحياة يستعمل في القرآن الكريم على ثمانية أوجه :

الأول : الحياة بمعنى الخلق الأول.

قال تعالى: ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[٣] .

فقوله: ﴿ **فَأَحْيَاكُمْ** ﴾ أي: لم تكونوا فخلقكم الخلق الأول.

وقال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ**

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص: ٢٢٣ ـ ٢٢٥ .

(٢) بصائر ذوي التمييز ٢/ ٥١٢ ، معجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية ١/ ٣٢٤ ، الألفاظ والأعلام القرآنية ص: ١٥٤ ، القاموس المحيط ٤/ ٣٢٣ ، لسان العرب ١٤/ ٢١١ .

(٣) سورة البقرة: ٢٨ .

لَكَفُورٌ﴾[١] ، يعني : خلقكم .

وقال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[٢] أي قل الله خلقكم ، يعني : بدء الخلق[٣] .

الثاني : الحي ، يعني : المؤمن المهتدي .

قال تعالى : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[٤] يعني مؤمنًا مهتديًا في علم الله عز وجل .

وقال تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٥] يعني : هديناه .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾[٦] يعني : المؤمنين والكافرين[٧] .

الثالث : الإحياء : الإبقاء ، والحياة : البقاء .

قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٨]

---

(١) سورة الحج : ٦٦ .
(٢) سورة الجاثية : ٢٦ .
(٣) قاموس القرآن ص : ١٥٠ ، وراجع العمدة في غريب القرآن لمكي بن أبي طالب ٧٢ ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ٤٤ ، وتفسير الطبري ١/ ٤١٨ تحقيق محمود شاكر .
(٤) سورة يس : ٧٠ .
(٥) سورة الأنعام : ١٢٢ .
(٦) سورة فاطر : ٢٢ .
(٧) تفسير غريب القرآن ١٥٩ ، قاموس القرآن ص : ١٥٠ .
(٨) سورة البقرة : ١٧٩ .

يعني: البقاء.

وقال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[1] يعني: من أبقاها.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[2] أي يستبقون[3].

الرابع: الحياة: حياة الأرض ونماؤها بالنبات.

قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾[6]، أي أرضًا جدبة لا نماء فيها أصلاً، بأن جعلناها بحيث ربت وأنبتت أنواع النبات

(١) سورة المائدة: ٣٢.
(٢) سورة البقرة: ٤٩.
(٣) تفسير الطبري ٢/ ٤٦، قاموس القرآن ١٥٠ ـ ١٥١.
(٤) سورة فاطر: ٩.
(٥) سورة الروم: ٢٤.
(٦) سورة ق: ١١.

والأزهار، فصارت تهتز بها بعد ما كانت جامدة هامدة[١] .

الخامس: الإحياء للعبرة قبل يوم القيامة من غير رزق ولا أثر في الدنيا .

قال تعالى: ﴿ **وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[٢]، فكان عيسى ـ عليه السلام ـ يحيي الموتى بإذن الله تعالى؛ ليكون عبرة لبني إسرائيل، فأحيا سام بن نوح، وكلم الناس، ووقع ميتًا فكان كما كان[٣] .

السادس: الحياة الدنيا .

قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ** ﴾[٤] .

وقال تعالى: ﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾[٥]، يقول: يا محمد، لتجدن أشد الناس حرصًا على الحياة في الدنيا، وأشدهم كراهة للموت؛ اليهود[٦] .

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ١٢٧، وراجع المفردات في غريب القرآن ص: ١٣٨، قاموس القرآن ١٥١، بصائر ذوي التمييز ٢/ ٥١٢ .

(٢) سورة آل عمران: ٤٩ .

(٣) قاموس القرآن ١٥١، تفسير أبي السعود ٢/ ٣٩ .

(٤) سورة الرعد: ٢٦ .

(٥) سورة البقرة: ٩٦ .

(٦) تفسير الطبري ٢/ ٣٦٩، راجع معنى هذا النص: بصائر ذوي التمييز ٢/ ٥١٣، تفسير ابن كثير ١/ ١١٥، تفسير فتح القدير ١/ ١١٥ ـ ١١٦، وتفسير الكشاف ١/ ٢٩٨ .

السابع: الحياة الأخروية الأبدية.

قال تعالى: ﴿**يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**﴾[١]، والمعنى: يتمنى أنه قدم الخير والعمل الصالح، واللام في «الحياة» بمعنى: لأجل حياتي، والمراد: حياة الآخرة، فإنها الحياة بالحقيقة، لأنها دائمة غير منقطعة.

وقال تعالى: ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[٢]، وقد نبه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**لَهِيَ الْحَيَوَانُ**﴾ أن الحيوان الحقيقي السرمدي الذي لا يفنى، لا ما يبقى مدة ويفنى بعد مدة[٣].

الثامن: الحياة التي يوصف بها الباري.

قال تعالى: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾[٤].

فإنه إذا قيل فيه تعالى: «هو حي» فمعناه: لا يصح عليه الموت، وليس ذلك إلا لله عز وجل[٥].

* * *

(١) سورة الفجر: ٢٤.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٤.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ١٣٩، بصائر ذوي التمييز ٢/ ٥١٤، تفسير غريب القرآن ٣٣٩.

(٤) سورة آل عمران: ٢.

(٥) المفردات في غريب القرآن ص: ١٣٩.

الباب الأول

حقيقة الحياة

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : حقيقة الحياة الدنيا.

الفصل الثاني : حقيقة الحياة الآخرة.

الفصل الثالث : الحياة دليل القدرة الإلهية.

الفصل الأول

حقيقة الحياة الدنيا

وتحته مباحث :

المبحث الأول : سنن الله تعالى في الحياة الدنيا.

المبحث الثاني : استخلاف الله للإنسان في الحياة الدنيا.

المبحث الثالث : تمكين الله للإنسان في الحياة الدنيا.

المبحث الرابع : قيمة الحياة الدنيا وما فيها.

المبحث الخامس : متاع الحياة الدنيا.

المبحث السادس : الابتلاء في الحياة الدنيا.

المبحث الأول
سنن الله تعالى في الحياة الدنيا

قد تكرر في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف ذكر السنة وما يتصرف منها. والسنن جمع سنة، والسنة: الصورة وما أقبل عليك من الوجه. والأصل فيها الطريقة والسيرة، ومنه قوله ـ ﷺ ـ: **«من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»**(١) .

وسنة الله قد تقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته، وقوله تعالى: ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾(٢) ، وقوله تعالى: ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾(٣) ، تنبيه أن فروع الشرائع وإن اختلفت صورها، فالغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدل، وهو تطهير النفس وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى ومرضاته وجواره(٤) .

---

(١) انظر: لسان العرب ١٣/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥، وتاج العروس ١٨/ ٣٠٠.
والحديث المذكور رواه مسلم في صحيحه عن المنذر بن جرير عن أبيه، في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، رقم الحديث: ٦٩ (١٠١٧)، صحيح مسلم بشرح النووي ٧/ ١٠٤.

(٢) سورة الأحزاب: ٦٢.

(٣) سورة فاطر: ٤٣.

(٤) المفردات في غريب القرآن ص: ٢٤٥، بصائر ذوي التمييز ٣/ ٢٦٧.

وورد في معجم ألفاظ القرآن أن السنة : الطريقة والخطة المتبعة ، وسنة الله ما جرى به نظامه في خلقه[١] .

وقال محمد إسماعيل إبراهيم : «وسنة الله : شريعته وطريقته وما جرى من نظامه في خلقه ، وسنن الأولين : وقائع نزلت بهم»[٢] .

فنعني بسنن الله تعالى في الحياة الدنيا : طرق الله تعالى وخططه المتبعة التي لا تتبدل ، ولا تتغير ، وما جرى من نظامه في خلقه في الحياة الدنيا .

من خلال تدبري القرآن الكريم استنتجت هذه السنن في الحياة الدنيا :

أولاً : السنن الكونية مرتبطة بالسنن في حياة الناس .

ثانيًا : سنة الله في تغير حال الناس .

ثالثًا : سنة الله في مداولة الأيام بين الناس .

رابعًا : سنة الله في إهلاك الأمم .

خامسًا : سنة الله في عدم إهلاك الأمم إلا بعد إنذار .

سادسًا : سنة الله في النصر لأوليائه .

سابعًا : سنة الله في إقامة الحق .

سنن الله تعالى في الحياة الدنيا :

وإذا تدبرنا القرآن الكريم نجد آيات كثيرة تتحدث عن سنن الله تعـالى ، وذلك للاستدلال والتأكد من فاعليتها ، وعدم تخلفها ، حتى نجعلها خطة

---

(١) معجم ألفاظ القرآن ١/ ٦٢٤ .

(٢) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ص : ٢٥٤ .

متبعة، وطريقة نسير عليها في الحياة الدنيا، فمن هذه السنن ما يلي :

أولاً : السنن الكونية مرتبطة بالسنن في حياة الناس :

قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** ﴾[1] .

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام - وهي من السنن الكونية -، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكن الناس في الليل، وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مُضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك[2] .

فالسنة الكونية التي تحكم الليل والنهار يرتبط بها سعي الناس للكسب وعلم السنين والحساب، ويرتبط بها كسب الإنسان من خير وشر، وجزاؤه على الخير والشر، وترتبط بها عواقب الهدى والضلال، وفردية التبعة فلا تزر وازرة وزر أخرى، ويرتبط بها وعد الله ألا يعذب حتى يبعث رسولاً، وترتبط بها مصائر الذين يطلبون العاجلة والذين يطلبون الآخرة وعطاء الله لهؤلاء وهؤلاء في الدنيا والآخرة . . . كلها تمضي وفق نظام ثابت، وسنن لا تتبدل، فليس شيء من هذا كله جزافًا[3] .

وهناك آيات أخرى تتحدث عن ارتباط السنن الكونية بحياة الناس،

---

(١) سورة الإسراء : ١٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٦، تفسير فتح القدير ٣/ ٢١٢ - ٢١٣ .

(٣) في ظلال القرآن - بتصرف - ٤/ ٢٢١٦ .

فمنها: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١) .

قال العوفي عن ابن عباس: «سأل الناس رسول الله ـ ﷺ ـ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾، يعلمون بها حل دينهم، وعدة نسائهم، ووقت حجهم»(٢) .

قال الربيع: «ذكر لنا أنهم قالوا للنبي ـ ﷺ ـ: لم خلقت الأهلة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾؛ جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم، ولحجهم ومناسكهم، وعدة نسائهم، وحل ديونهم»(٣) .

قال ابن جريج: «قال الناس: لم خلقت الأهلة؟ فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، لصومهم وإفطارهم، وحجهم ومناسكهم، قال: قال ابن عباس: ووقت حجهم، وعدة نسائهم، وحل دينهم»(٤) .

عن الضحاك: «﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ يعني: حل دينهم، ووقت حجهم، وعدة نسائهم»(٥) .

وما ورد في سبب النزول من السؤال والجواب يدل على أن السنن الكونية ترتبط بحياة الناس، وذلك لأن الجواب يدل على واقع حياة الناس العملي، لا

(١) سورة البقرة: ١٨٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٩٧ .

(٣) تفسير الطبري ٣/ ٥٥٣، وقال محمود محمد شاكر: هكذا جاء في هذه الآثار «حل ديونهم» . . . وهذه الرواية قاضية على صحة هذا المصدر .

(٤) المرجع السابق ٣/ ٥٥٣ .

(٥) المرجع السابق ٣/ ٥٥٣ .

على مجرد العلم والنظري[١] ، بحيث تكون الأهلة معالم للناس يوقتون بها أمورهم الدنيوية ، فيعلمون أوقات زروعهم ومتاجرهم ، وآجال عقودهم في المعاملات ، ومعالم للعبادات المؤقتة ، فيعرفون بها أوقاتهم كالصيام والإفطار ، ولاسيما الحج ، فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء ، ولو كان الهلال ملازمًا حالاً واحدة لم يتيسر التوقيت به[٢] .

ومن تلك الآيات التي تدل على ارتباط السنن الكونية بحياة الناس ، قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾[٥] .

إن السنة الكونية التي تحكم الليل والنهار ، ترتبط بها حياة الناس ، وذلك حين يشتاق الناس إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلاً في أيام الشتاء ، ويحنون إلى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحاب ! فكيف بهم

(١) انظر : في ظلال القرآن - بتصرف - ١/ ١٨٠ .
(٢) تفسير المراغي ١/ ٨٤ .
(٣) سورة يونس : ٥ .
(٤) سورة القصص : ٧١ - ٧٣ .
(٥) سورة النحل : ١٦ .

لو فقدوا الضياء، ولو دام عليهم الليل سرمداً إلى يوم القيامة؟ ذلك على فرض أنهم ظلوا أحياء. وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار، لو لم يطلع عليها النهار!، وكذلك لو ظل النهار سرمداً إلى يوم القيامة. فالليل سكينة وقرار، والنهار نشاط وعمل، والمتجه فيه إلى فضل الله، فما يعطي الناس إلا من فضله، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ما يسره الله لكم من نعمة ومن رحمة، وما دبره لكم واختاره من توالي الليل والنهار، ومن كل سنن الحياة التي لم تختاروها، ولكن اختارها الله عن رحمة وعن علم وعن حكمة . . . »[(١)] .

ثانيًا: سنة الله في تغير حال الناس:

فمن سنن الله تعالى في الحياة الدنيا، سنته في تغير حال الناس، وذلك حيث جرت سنة الله ألا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال التي استحقوا بها تلك النعمة.

قال تعالى: ﴿ **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[(٢)] .

قال السدي: «نعمة الله على قريش محمد ـ ﷺ ـ فكفروا به، فنقل إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب»[(٣)] .

وقال صاحب المحرر الوجيز: «ومعنى هذه الآية: الإخبار بأن الله عز

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٠٨ .

(٢) سورة الأنفال: ٥٢ ـ ٥٣ .

(٣) تفسير القرطبي ٨/ ٢٩، تفسير فتح القدير ٢/ ٣١٨ .

وجل إذا أنعم على قوم فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها حتى يجيء ذلك منهم بأن يغيروا حالهم التي تراد وتحسن منهم، فإن فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم؛ غير الله نعمته عليهم بنقمته منهم، ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد ـ ﷺ ـ، فكفروا وغيروا ما كان يجب أن يكونوا عليه، فغير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار، وأحل بهم عقوبته»[١] .

أنواع التغيير :

والتغيير ليس شرًا محضًا، بل هو قسمان :

القسم الأول: التغيير إلى الأفضل، وهو التغيير المطلوب، وهو الإصلاح، وهذا هو الأصل، قال تعالى: ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٢] ، وصلاح الأرض يكون بطاعة الله واتباع دينه، وفسادها يكون بالإعراض عن شريعته.

وهذا النوع من التغيير يكون في حياة الأفراد بالاستقامة والصلاح والثبات على الهدى والإيمان، قال تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[٣] ، ويمثله التوبة الصادقة النصوح، كلما قصر الفرد في الطاعات أو انتهك المحرمات ليبقى على الهدى المستقيم، وهذا الصنف من الناس هم الذين أثنى عليهم الله وبشرهم بالجنة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا**

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٦/ ٣٤٤، وانظر: التفسير الكبير ١٥/ ١٨١ .

(٢) سورة الأعراف: ٥٦ .

(٣) سورة هود: ١١٢ .

وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[١] .

ويكـون التغـيير أيضًا في حياة المجتمعات باستقامة المجتمع وتلاحمه، وذلك كما كانت الحال في المجتمع الأول الذي قال الله عز وجل فيهم : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢] .

وصور هذا النوع من التغيير كثيرة، وحسبنا هنا أن نكتفي بذكر صورة عامة وفق التتبع الزمني في حياة الأمة، فمن أمثلة ذلك :

١ ـ إرسال الرسل، فهو صورة من صور التغيير .

قال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣] .

٢ ـ ظهور الإسلام كرسالة خاتمة ونسخه للرسالات قبله صورة أخرى من

---

(١) سورة فصلت : ٣٠ .

(٢) سورة الحشر : ٨ ـ ١٠ .

(٣) سورة البقرة : ٢١٣ .

صور التغيير التي اقتضتها حكمة المولى سبحانه وتعالى .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾[2] .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونُصرتُ بالرعب بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة**»[3] .

٣ ـ تغير المجتمع الجاهلي إلى المجتمع الإسلامي الذي ملك الدنيا وقاد الأمم هو صورة تدعو إلى التفكر فيها وفي أبعادها ؛ لمعرفة طرق الإصلاح التي يتم بها التغير في حياة المجتمعات ، وطرق التربية التي قد تستغرق زمنًا ليس بالقصير لتكوين القاعدة الصلبة التي تقوم عليها الدعوة إلى الإصلاح .

وهذا المثال يصلح من جميع الجوانب أن يكون مثالاً أساسيًا لتغيير المجتمعات بعده ، إذ إن مجتمع الصحابة الكرام يمثل المنارة المشرقة والغرة

---

(١) سورة آل عمران : ١٩ .

(٢) سورة آل عمران : ٨٥ .

(٣) الحديث رواه مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، رقم الحديث : ٣ (٥٢١) ، صحيح مسلم بشرح النووي ٥/ ٣ ـ ٤ ؛ ورواه البخاري عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، في كتاب التيمم ، رقم الحديث : ٣٣٥ ، فتح الباري ١/ ٥١٩ .

الوضاءة في جبين التاريخ، ولذلك يعتبر المقياس الصحيح الذي يجب أن تتطلع إليه المجتمعات التي تنشد التغيير إلى الأفضل. . .[(١)].

٤ ـ وجود المجددين المصلحين كلما ابتعد الناس عن منهاج النبوة وقل الخير، وعز أهله، وكثر الشر ودعاته، كما ورد في الحديث: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[(٢)(٣)].

القسم الثاني: التغيير المرفوض، وهو الخروج عن الفطرة، والإفساد في الأرض، ويكون هذا الانحراف في حياة الأفراد والمجتمعات:

ـ ففي بيان الانحراف الفردي يقول الله عز وجل: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ**

---

(١) مقدمة في ظاهرة التغيير، للدكتور إبراهيم عباس، ص: ١٦.

(٢) الحديث رواه أبو داود عن أبي هريرة في كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، رقم الحديث: ٤٢٩١.

قال السيوطي في مرقاة الصعود: اتفق الحفاظ على تصحيح هذا الحديث، منهم الحاكم في المستدرك والبيهقي في المدخل. وممن نص على صحته من المتأخرين: الحافظ ابن حجر. انتهى.

وقال العلقمي في شرح الجامع الصغير: قال شيخنا: اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح، وممن نص على صحته من المتأخرين أبو الفضل العراقي، وابن حجر. ومن المتقدمين: الحاكم في المتدرك، والبيهقي في المدخل. انتهى.

وقال المناوي في فيض القدير: أخرجه أبو داود في الملاحم، والحاكم في الفتن وصححه، والبيهقي في كتاب المعرفة، كلهم عن أبي هريرة.

قال الزين العراقي وغيره: سنده صحيح. انتهى. عون المعبود شرح أبي داود لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ١١/ ٣٩٦.

(٣) إنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة وهو متجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد. . .، فعلى هذا كل من كان متصفًا بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد، سواء تعدد أم لا (فتح الباري ١٣/ ٢٩٥).

إيمانه إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(١) ، ويقول تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾(٢) .

ـ وفي بيان انحراف المجتمعات ذكر الله عز وجل قصص أقوام كذبوا رسلهم ، وأعرضوا عن شرع الله ، فكان عاقبتهم الدمار . قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾(٣) .

وذكر أقوامًا آخرين بدلوا نعمة الله كفرًا فكان جزاؤهم زوال هذه النعم ، قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾(٤) .

والنتيجة التي نريد الوصول إليها أن التغيير بقسميه إنما يحدث وفق سنن إلهية قدرها المولى عز وجل ، وذلك يتضح بالوقوف على أمور منها :

١ ـ إن التغيير بقسميه السابقين ، سواء في حياة الأفراد أم في حياة المجتمعات يرتبط ارتباطًا وثيقًا بإصلاح النفوس أو إفسادها . قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ

---

(١) سورة النحل : ١٠٦ .

(٢) سورة الأعراف : ١٧٥ .

(٣) سورة الأنفال : ٥٣ ـ ٥٤ .

(٤) سورة النحل : ١١٢ .

اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ**﴾(٢) .

وفي الآية إيماء إلى أن نعم الله على الأمم والأفراد منوطة ابتداء ودوامًا بأخلاق وصفات وأعمال تقتضيها ، فما دامت هذه الشؤون ثابتة لهم متمكنة منهم ، كانت تلك النعم ثابتة لهم ، والله لا ينتزعها منهم بغير ظلم منهم ولا جرم ، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق ، وما يلزم ذلك من محاسن الأعمال ، غيّر الله حالهم ، وسلب نعمتهم منهم ، فصار الغني فقيراً ، والعزيز ذليلاً ، والقوي ضعيفًا(٣) .

نعم ، لم يكن لآل فرعون وأمثالهم حال مرضية ، فيغيروها إلى حال مسخوطة . ولكن كما تتغير الحال المرضية إلى المسخوطة ، تتغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها . ومشركو مكة كانوا قبل بعثة الرسول - ﷺ - إليهم كفرة عبدة أصنام ، فلما بعث إليهم بالآيات فكذبوه وسعوا في إراقة دمه ، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت ، فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال ، وعاجلهم بالعذاب(٤) .

وإنها لحقيقة تلقي على البشر تبعة ثقيلة ؛ فقد قضت مشيئة الله وجرت سنته أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر ؛ وأن تنفذ فيهم سنته

(١) سورة الأنفال : ٥٣ .

(٢) سورة الرعد : ١١ .

(٣) تفسير المراغي ٤/ ١٧ .

(٤) الأساس في التفسير ٤/ ٢١٨٨ - ٢١٨٩ .

بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم . والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل[١] .

٢ ـ إن نتيجة التغيير في الدنيا مرتبطة بمقدار الجهد المبذول ـ بغض النظر عن نوع التغيير سواء كان من الحسن إلى السيئ أو العكس ـ ، قال تعالى : ﴿ **كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** ﴾[٢] .

أما في الآخرة فتختلف النتائج بحسب نوع التغيير ، قال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[٣] .

وبهذا نعلم أن الذين يحسنون التغيير في الجانب المادي فقط ، ويهملون الجانب الروحي فإن هذا لا ينفعهم ماداموا معرضين عن شريعة الله عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾[٤] .

٣ ـ إن تغيير المجتمع المسلم من الضعف إلى القوة مرهون بالتمسك بشرع الله ، وليس بكثرة العدد والعدة ، كما ورد في حديث ثوبان ، قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**، قال : قلنا : يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ قال : أنتم

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٤٩ .

(٢) سورة الإسراء : ٢٠ .

(٣) سورة هود : ١٥ ـ ١٦ .

(٤) سورة الأنعام : ٤٤ . مبلسون : متحسرون غاية الحسرة آيسون من كل خير واجمون (تفسير أبي السعود ٣/ ١٣٤ ، تفسير الكشاف ٢/ ١٨) .

يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن، قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: **حب الحياة وكراهية الموت**»[1] .

٤ ـ إن حالات الفتن التي تنتشر فيها هذه الظاهرة كثيرة ويكون فيها التغيير سريعًا، كما ورد في صحيح مسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بادروا بالأعمال[2] **فتنًا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[3] .

وسائل التغيير إلى الأفضل :

١ ـ العلم :

وأعني به العلم الشرعي والعلم المادي والعلم بالواقع، وحالنا الذي صرنا إليه خير شاهد . . . يوم فقد التعليم أهدافه السامية وغاياته العظيمة .

ولقد لاحظنا زمنًا طويلاً تكاد تكون فيه مقررات العلوم الشرعية معدومة

---

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده ٥/ ٢٧٨ . قال محمد ناصر الدين الألباني: أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٨، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٦٢/ ١)، ومحمد بن محمد بن مخلد البزار في «حديث ابن السماك» (١٨٢ ـ ١٨٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٨٢)، عن المبارك بن فضالة ثنا مرزوق أبو عبد الله الحمصي أنا أبو أسماء الرحبي. قلت: وهذا سند جيد، رجاله ثقات، والمبارك إنما يخشى منه التدليس، أما وقد صرح بالتحديث فلا ضير منه، فالحديث صحيح عندي، والله أعلم (سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم الحديث: ٩٥٨ ـ ٢/ ٦٨٤).

(٢) معنى الحديث: الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والانشغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم (شرح مسلم للنووي ٢/ ١٣٣).

(٣) الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم الحديث ١٨٦ (١١٨)، (صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ١٣٣).

في كثير من بلدان العالم الإسلامي إلا من رحم الله وقليل ما هم .

أما عن العلم المادي فلا يخفى علينا حالة أوربا في العصور الوسطى ، والتي يطلقون عليها هم أنفسهم بأنها عصور الظلمات والجهل ، ثم إذا بهم اليوم قادة ينظر إليهم كثير من أبناء الإسلام بعين الإجلال والإكبار .

فهل نحسب أن هذا التغيير حدث بدون جهد مبذول ، أو بدون علم مكتسب ، وإن كانوا كما قال الله عز وجل عنهم : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾[١] ، إلا أنهم غيروا من أنفسهم عبر هذه القناة التي هي من أهم قنوات التغيير[٢] .

ونحن الأمة التي لم يحارب دينها العلم ، بل يأمر به ويحث عليه ، ويجعله فرضًا .

ـ ولحكمة عظيمة يبدأ الوحي الإلهي بـ ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[٣] .

ـ ويقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم ، فيقول : ﴿ **نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾[٤] .

ـ ثم يمتن على الإنسان بالتعليم ، فيقول : ﴿ **الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾[٥] .

---

(١) سورة الروم : ٧ .
(٢) مقدمة ظاهرة التغيير ص : ٢٥ .
(٣) سورة العلق : ١ ـ ٥ .
(٤) سورة القلم : ١ .
(٥) سورة الرحمن : ١ ـ ٤ .

ـ ويجعل العلم الحقيقي هو العلم الذي يدعو إلى الإيمان، فيقول تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾(١).

ـ ويرفع من قدر طلاب العلم، فيقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾(٢).

ـ ويميز بين من أوتوا حظًا من العلم النافع وبين من حرموا بركة هذا المورد الزلال، فيقول تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾(٣).

وبهذا يتبين لنا أننا أمة العلم، وأننا أحق بالحضارة، كما أننا أحق بالسيادة.

٢ ـ الأخذ بالسنن الكونية في الآفاق، والسنن الاجتماعية في الأنفس:

قال تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾(٥).

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.
(٢) سورة المجادلة: ١١.
(٣) سورة الزمر: ٩.
(٤) سورة فصلت: ٥٣.
(٥) سورة الذاريات: ٢٠ـ٢١.

٣ ـ استغلال الملكات والقدرات :

من المؤسف جداً أننا نملك الكثير من القدرات، ولا نقوم إلا بأقل القليل من الواجبات. أقل ما نملك الوقت والفراغ والصحة والشباب والأمن والخيرات . . . وكل هذه القدرات لابد أن تستغل استغلالاً طيبًا موفقًا من أجل التغيير والإصلاح.

ـ ومن رحمته تعالى بالمسلمين أنه لم يطلب منهم الاستعداد بالقوة المكافئة لقوة الكافرين، بل قال تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾[1] ؛ وإن (ما) في الآية تفيد العموم، أي كل ما في استطاعتكم دون تقصير، ولا يكون ترهيب العدو إلا بقوة تحقق ذلك.

ـ ويذكرنا الرسول ـ ﷺ ـ بالقدرات التي يجب أن ننتهزها لإحداث أقصى ما نستطيع من التغيير والإصلاح، فيقول: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**»[2] .

٤ ـ التربية :

ما أحلى تربية الجيل وتربية الشباب خاصة على الجدية والشجاعة والبناء واستغلال الوقت واستعماره في الصلاح، فلننظر إلى تربية الرعيل الأول على يد المربي القدوة محمد ـ ﷺ ـ، ولننظر إلى من قال الله عز وجل فيهم :

---

(١) سورة الأنفال: ٦٠ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الرقاق، رقم الحديث: ٦٤١٢ (فتح الباري ١١/ ٢٢٩).

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ[١] فَآزَرَهُ[٢] . . . فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ[٣] . . . عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٤] .

٥ ـ المجاهدة والوقوف عند حدود الله بفعل الواجبات وترك المنهيات :

مما لاشك فيه أن تغيير النفوس وإصلاح القلوب وتوجيه الأعمال وتنظيف الأفكار وتطهير الأدران، كل ذلك لا يحصل بضغط شيء من تلك الأشياء وطردها بسهولة وبدون جهد، ذلك في التعامل مع الآلات الجوامد، أما في التعامل مع النفوس البشرية فالأمر يحتاج إلى مجاهدة ومجالدة، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٥] . فالهداية لا تأتي فلتة عارضة من السماء، بل هي متعلقة بالمجاهدة، وأعظم الناس هداية أكثرهم مجاهدة لنفسه[٦] .

٦ ـ تدبر القرآن الكريم منهج من عند الله يهدي للتي هي أقوم ، فهو منهج

---

(١) شطأه: طرفه.

(٢) فآزره: قواه وأعانه وشده.

(٣) فاستوى على سوقه: فاستقام على أعواده؛ وهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبي ـ ﷺ ـ وأنهم يكونون في الابتلاء قليلاً، ثم يزدادون ويكثرون ويقوون كالزرع، فإنه يكون في الابتداء ضعيفًا ثم يقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ ساقه (تفسير فتح القدير ٥/ ٥٦، تفسير أبي السعود ٨/ ١١٥).

(٤) سورة الفتح: ٢٩.

(٥) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٦) انظر: مقدمة ظاهرة التغيير لإبراهيم عباس ص: ٣١.

الأمة الخالد ، وطريقها القويم ، وحري بنا أن نتدبر آياته ، لأنه هدى ورحمة للمؤمنين ، ولأنه شفاء لما في الصدور ، وإذا شفيت هذه القلوب فأبشر بحسن التغيير .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا ﴾[٣] .

٧ ـ الغنى وكثرة المال :

المال نعمة إذا لم تشكر حق الشكر فإنها تكون سببًا للطغيان والفساد ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾[٥] .

---

(١) سورة الإسراء : ٩ .

(٢) سورة ص : ٢٩ .

(٣) سورة الإسراء : ٨٢ .

(٤) سورة الشورى : ٢٧ .

(٥) سورة القصص : ٧٦ .

ولكنا لا نشك في أن الوسيلتين - الغنى وكثرة المال - من أهم وسائل التغيير إذا وفق المسلم لاستخدامها في طاعة الله.

٨ - الدعوة إلى الله عز وجل :

الدعوة إلى الله من أهم وسائل التغيير التي تؤدي إلى استقامة الناس، وأنها من أهم وسائل الفلاح، كما أنها أحسن قول، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾(٢).

٩ - الجهاد في سبيل الله :

الجهاد في سبيل الله سنام الإسلام، وهو من أسباب كسب العزة، وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا، والصراع بين الحق والشر، والكفر والإيمان، قائم إلى قيام الساعة، ليبتلي الله المؤمنين وليمحص صفوفهم، ويمحق الكافرين، ويبين كذب المنافقين.

قال تعالى: ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾(٣).

---

(١) سورة فصلت: ٣٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٣) سورة آل عمران: ١٧٩.

١٠ ـ الشكر :

فالشكر سبب للتغيير إلى ما هو أحسن، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[١] .

والشكر المطلوب هو الشكر الكامل الذي يكون باللسان والقلب والجوارح، وبهذا يكون معنى الدين كله، كما قال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[٢] : إن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية[٣] .

ثالثًا : سنة الله في مداولة الأيام بين الناس :

فمن سنن الله تعالى في الحياة الدنيا، سنته تعالى في مداولة الأيام بين الناس، حيث إنها سنة من سنن الله في المجتمع البشري، فمرة تكون الدولة للمبطل، والأخرى للمحق، ولكن العاقبة دائمًا لأصحاب الحق. قال تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ[٤] ... مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا[٥] ... بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ

---

(١) سورة إبراهيم : ٧ .

(٢) سورة سبأ : ١٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٥١، وانظر : تفسير فتح القدير ٤/ ٣١٧، وتفسير السعدي ٦/ ٢٦٧ .

(٤) القرح : الأثر من الجراحة من شيء يصيبه من خارج، وقد يقال : القرح للجراحة، والقرح للألم (المفردات في غريب القرآن ص : ٤٠٠) .

(٥) نداولها : نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى (تفسير أبي السعود ٢/ ٨٩) .

الْكَافِرِينَ﴾[١] .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : «لما كان قتال أحد وأصاب المسلمين ما أصاب، صعد النبي - ﷺ - الجبل، فجاء أبو سفيان فقال : يا محمد! يا محمد! ألا تخرج؟ ألا تخرج؟ الحرب سجال : يوم لنا ويوم لكم. فقال رسول الله - ﷺ - لأصحابه : **أجيبوه**. فقالوا : لا سواء، لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار! فقال أبو سفيان : لنا عزّى ولا عزى لكم. فقال رسول الله - ﷺ - : قولوا : **الله مولانا ولا مولى لكم**. فقال أبو سفيان : اعْلُ هُبَل! فقال رسول الله - ﷺ - قولوا : **الله أعلى وأجل!** فقال أبو سفيان : موعدكم وموعدنا بدر الصغرى، قال عكرمة : وفيهم أنزلت **﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾**»[٢] .

قيل : هذا في الحرب، تكون مرة للمؤمنين لينصر الله عز وجل دينه، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون ليبتليهم ويمحص ذنوبهم، فأما إذا لم يعصوا فإن حزب الله هم الغالبون.

وقيل : **﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾** من فرح وغم وصحة وسقم وغنى وفقر[٣] .

وقال الحجاج : «إن الأرض ستدال منا كما أدلنا منها، **﴿وَنُدَاوِلُهَا﴾** إنما هو بتخفيف المحنة تارة، وتشديدها أخرى بدليل **﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾**، ولو كانت المداولة بالنصر لا محاولة، للمؤمنين تارة وللكافرين تارة، لكان

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) تفسير الطبري : ٧/ ٢٤٠ .

(٣) تفسير القرطبي ٤/ ٢١٨، وانظر : تفسير الطبري ٧/ ٢٤٠، تفسير الكشاف ١/ ٤٦٦، والدولة : الكَرَّة .

محبهم من حيث ناصر لهم»[١] .

ففي غزوة أحد درس وعبرة للمسلمين حيث أصابهم ما أصابهم في نهاية المعركة، جزاءً وفاقًا لهذا الاختلاف وذلك الخروج، وتحقيقًا لسنة من سنن الله التي لا تتخلف، إذ كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشئين من الطمع في الغنيمة. والله قد كتب النصر في معارك الجهاد لمن يجاهدون في سبيله، لا ينظرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيد، وتحقيقًا كذلك لسنة أخرى من سنن الله في الأرض، وهي مداولة الأيام بين الناس - وفقًا لما يبدو من عمل الناس ونيتهم - فتكون لهؤلاء يومًا ولأولئك يومًا. ومن ثَمّ يتبين المؤمنون ويتبين المنافقون، كما تتكشف الأخطاء، وينجلي الغبش[٢] .

ومما سبق يتضح لنا أن الدولة تكون لمن عرف أسباب النجاح ورعاها حق رعايتها، كالاتفاق وعدم التنازع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة والصبر، وأخذ الأهبة وإعداد ما يستطاع من القوة، قال تعالى:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾[٣] .

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا

---

(١) تفسير التبيان ٢/ ٦٠٢، المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٨٠.
(٣) سورة الأنفال: ٦٠.

وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[١] .

رابعًا : سنة الله عز وجل في إهلاك الأمم :

فمن سنن الله تعالى في الحياة الدنيا، سنته عز وجل في إهلاك الأمم، مرة يهلكهم الله بعذاب الاستئصال - بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام - ، ومرة يهلكهم بالسنين ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، كما حدث كذلك لأقوام، ومرة يهلكهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض، فيعذب بعضهم بعضًا، ويدمر بعضهم بعضًا، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ** ﴾[٢] .

قال أبو جعفر الطبري: «أمطرت فأخرجت لهم الأشجار ثمارها، وأعطتهم الأرض ريْع نباتها، وجابوا صخور جبالها، ودرَّت عليهم السماء بأمطارها، وتفجرت من تحتهم عيون المياه بينابيعها بإذني، فغمطوا نعمة ربهم، وعصوا رسول خالقهم، وخالفوا أمر بارئهم، وبغوا حتى حق عليهم قولي، فأخذتهم بما اجترحوا من ذنوبهم، وعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم، وأهلكت بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصيحة، وغير ذلك من أنواع العذاب»[٣] .

---

(١) سورة الأنفال: ٤٥-٤٧ .
(٢) سورة الأنعام: ٦ .
(٣) تفسير الطبري: ٥/ ١٤٩ .

فإن قيل : ليس في هذا الكلام إلا أنهم هلكوا، إلا أن الهلاك غير مختص بهم، بل الأنبياء والمؤمنون كلهم أيضًا قد هلكوا، فكيف يحسن إيراد هذا الكلام في معرض الزجر عن الكفر أنه مشترك فيه بين الكافر وبين غيره؟

والجواب : ليس المقصود منه الزجر بمجرد الموت والهلاك، بل المقصود أنهم باعوا الدين بالدنيا ففاتهم، وبقوا في العذاب الشديد بسبب الحرمان عن الدين. وهذا المعنى غير مشترك فيه بين الكافر والمؤمن(١) .

وإذا تدبرنا القرآن الكريم نجد آيات كثيرة تكشف عن أسباب هلاك الأمم - وإن كان السبب الإجمالي هو الذنوب والمعاصي -، قال تعالى :

- ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾(٢) .

- وقال تعالى : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾(٣) .

- وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾(٤) .

- وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا

---

(١) التفسير الكبير : ١٢/ ١٥٩ .

(٢) سورة الأنعام : ٦ .

(٣) سورة الأنفال : ٥٤ .

(٤) سورة الإسراء : ١٧ .

بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[١] .

أي : إن صنيع هؤلاء في تكذيبهم بمحمد ـ ﷺ ـ وكفرهم بشريعته ، كدأب آل فرعون مع موسى ـ عليه السلام ـ ، ودأب من قبلهم من الأمم ، كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم ، فأهلكهم ، ونصر الرسل ومن آمن معهم ، ولم يجدوا من بأس الله محيصًا ولا مهربًا ، إذ عقابه أثر طبيعي لاجتراح الذنوب وارتكاب الموبقات[٢] .

ثم تهددهم وتوعدهم بالعقاب في الدنيا قبل الآخرة فقال : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾[٣] .

وهو مثل مضى في التاريخ مكرراً ، وقصة الله في هذا الكتاب تفصيلاً ، وهو يمثل سنة الله في المكذبين بآياته ، يجريها حيث يشاء . فلا أمان إذن ولا ضمان لمكذب بآيات الله : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٤] .

فالسنة الإلهية هي التي تحكم الحياة . وهي التي قررتها المشيئة الطليقة ، فما وقع منها في غير زمانكم فسيقع مثله ـ بمشيئة الله ـ في زمانكم ، وما انطبق منها على مثل حالكم فهو كذلك سينطبق على حالكم .

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، فالأرض كلها وحدة ، والأرض كلها مسرح

---

(١) سورة آل عمران : ١٠ ـ ١١ .

(٢) تفسير المراغي ١/ ١٠٥ .

(٣) سورة آل عمران : ١٢ .

(٤) سورة آل عمران : ١٣٧ ـ ١٣٨ .

للحياة البشرية . والأرض والحياة فيها كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصائر ، ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وهي عاقبة تشهد بها آثارهم في الأرض ، وتشهد بها سيرهم التي يتناقلها خلفهم هناك . ولقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من هذه السير ومن هذه الآثار في مواضع منه متفرقة ، بعضها حدد مكانه وزمانه وشخوصه ، وبعضها أشار إليه بدون تحديد ولا تفصيل . وهناك يشير هذه الإشارة المجملة ليصل منها إلى نتيجة مجملة : إن ما جرى للمكذبين بالأمس سيجري مثله للمكذبين اليوم وغداً . ذلك كي تطمئن قلوب الجماعة المسلمة إلى العاقبة من جهة ، وكي تحذر الانزلاق مع المكذبين من جهة أخرى . . . »[1] .

ولهذه الأهمية فقد أمرنا القرآن الكريم بالتأمل في مسيرة المكذبين في آيات كثيرة متفرقة منها :

- قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[2] .

- وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[3] .

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٧٩ .

(٢) سورة الأنعام : ١١ .

(٣) سورة النحل : ٣٦ .

ـ وقوله تعالى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[١].

أما أنواع الذنوب التي أهلك الله الأمم بها فكما يلي:

١ ـ الظلم:

والظلم يقال: في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال: فيما يكثر، وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير[٢].

قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٣]. وإياه قصد بقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[٤].

والثاني: ظلم بينه وبين الناس، وإياه قصد بقوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[٥].

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ

---

(١) سورة الزخرف: ٢٥.
(٢) المفردات: ٣١٥.
(٣) سورة لقمان: ١٣.
(٤) سورة هود: ١٨.
(٥) سورة الشورى: ٤٠.

بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾[١] .

وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس، فإن الإنسان في أول ما يهُمُّ بالظلم، فقد ظلم نفسه، فإذًا الظالم أبدًا مبتدئ في الظلم بنفسه؛ ولهذا قال تعالى في غير موضع: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٢]. ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٣][٤] .

وقد وردت آيات كثيرة تتحدث عن سنة الله في إهلاك الأمم بظلمهم فمنها:

ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[٥] .

ـ وقوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾[٦] .

ـ وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾[٧] .

ـ وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم

---

(١) سورة فاطر: ٣٢.
(٢) سورة آل عمران: ١١٧.
(٣) سورة البقرة: ٥٧.
(٤) المفردات: ٣١٦، وانظر معنى هذا النص بتوسع في القاموس القرآني ٣٠٨ـ٣١٠.
(٥) سورة يونس: ١٣.
(٦) سورة الأعراف: ٤ـ٥.
(٧) سورة الأنعام: ٤٧.

مَّوْعِدًا﴾[١] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ **فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ**﴾[٢] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**﴾[٣] .

إن الظلم جريمة كبيرة تهلك أصحابها ، وأن الله هو الذي يهلك الظالمين بظلمهم ، وأن هذه سنة ماضية ـ ولو لم يرها فرد في عمره القصير ، أو جيل في أجله المحدود ـ ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين يفشو فيها الظلم ، وحين تقوم حياتها على الظلم .

والأمة التي تسمح للأفراد منها بالظلم في صورة من صوره ، ولا تقف في وجه الظالمين ، ولا تأخذ الطريق على المفسدين . . أمة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين . . فالإسلام منهج تكافلي إيجابي لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد والمنكر يشيع (فضلاً على أن يروا دين الله لا يتبع ، بل يروا ألوهية الله تنكر وتقوم ألوهية العبيد مقامها !) وهم ساكتون . ثم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله من الفتنة ، لأنهم هم في ذاتهم صالحون طيبون![٤] . قال تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**

---

(١) سورة الكهف : ٥٩ .

(٢) سورة الحج : ٤٥ .

(٣) سورة القصص : ٥٩ .

(٤) في ظلال القرآن بتصرف ٣/ ١٤٩٦ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[١] .

٢ ـ الفسق :

فمن الأسباب التي أهلك الله الأمم بها الفسق، وهو الخروج عن حَجْر الشرع، والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير، ولكن تُعُورِفَ فيما كان كثيراً[٢] .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾[٣] .

أي إذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك أي قرية بعذاب الاستئصال لما ظهر منها من المعاصي ودنست به أنفسها من الآثام ـ لم نعالجها بالعقوبة، بل نأمر مترفيها بالطاعة، فإذا فسقوا عن أمرنا وتمردوا حق عليهم العذاب جزاءً وفاقًا لاجتراحهم السيئات وارتكابهم كبائر الإثم والفواحش فدمرنا تلك القرية تدميراً ولم نبق منها ديَّارًا ولا نافخ نار[٤] .

فالفسق يهلك أصحابه، وأن الله هو الذي يهلك الفاسقين بفسقهم، وأن هذه سنة ماضية، وسنة باقية لا تتغير، قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[٥] .

---

(١) سورة الأنفال : ٢٥ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٣٨٠ .

(٣) سورة الإسراء : ١٦ .

(٤) تفسير المراغي ٥/ ٢٥ ـ ٢٦ ، تفسير ابن كثير ٣/ ٣١ ، تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٢ .

(٥) سورة الأحقاف : ٣٥ .

إن النصوص القرآنية - التي تتحدث عن هلاك الأمم بسبب ذنوبهم - وما يماثلها، وهي تتكرر كثيراً في القرآن الكريم، إنما تقرر حقيقة، وتقرر سنة، وتقرر طرفًا من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ، كما أنها من آيات الله عز وجل، لنجعلها تذكرة لنا وعبرة في الحاضر والمستقبل، وفي ذلك يقول تعالى:

- في سورة الشعراء: ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[1] .

- ويقول في سورة القصص: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾[2] .

- ويقول في سورة السجدة: ﴿ **أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ** ﴾[3] .

- ويقول تعالى في سورة يس: ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾[4] .

- ويقول تعالى في سورة الزخرف: ﴿ **فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ** ﴾[5] .

- ويقول تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ**

---

(١) سورة الشعراء: ١٣٩ .

(٢) سورة القصص: ٤٣ .

(٣) سورة السجدة: ٢٦ .

(٤) سورة يس: ٣١ .

(٥) سورة الزخرف: ٨ .

وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[١] .

ـ ويقول تعالى في سورة ق : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[٢] .

خامسًا : سنة الله في عدم إهلاك الأمم إلا بعد إنذار :

فمن سنن الله تعالى في الحياة الدنيا ورحمته بخلقه ؛ ألا يعذبهم قبل أن يعذر إليهم ، ويقيم الحجة عليهم . فقد أخبر الله أنه لا يهلك القرى قبل ابتعاث المنذرين من الرسل ، وعد منه ، ولا خلف في وعده ، فقال عز وجل :

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٣] .

ومن المعلوم أن رسالة الرسل يعارضها دائمًا المترفون والكبراء وغيرهم لهم تبع ، والقول الذي يحق هنا ماض في الأمم من قبل ، ومضى فيها من بعد : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾[٤] .

فالرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ يذكرون قومهم وينذرونهم ، فإذا نسوا ما ذكروا به وعاشوا في غيهم سادرين قطع دابرهم ، وتلك سنة الله فيمن أرسل إليهم . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ

---

(١) سورة الأحقاف : ٢٧ .

(٢) سورة ق : ٣٦ـ٣٧ .

(٣) سورة الإسراء : ١٥ .

(٤) سورة الإسراء : ١٧ .

وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] .

والنصوص القرآنية التي تتحدث عن هذه السنة الإلهية ـ في أنه لا إهلاك إلا بعد إنذار ـ كثيرة منها :

ـ قوله تعالى : ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[2] .

ـ وقوله تعالى : ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3] .

وفي كيفية الإنذار وطريقته أخبار كثيرة ، منها :

١ ـ روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : لما أنزل الله عز وجل : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أتى النبي ـ ﷺ ـ الصفا ، فصعد عليه ثم نادى : «يا صباحاه» ، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ قالوا :

---

(١) سورة الأنعام : ٤٢ ـ ٤٥ .

(٢) سورة الشعراء : ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٣) سورة الشعراء : ٢١٣ ـ ٢٢٠ .

نعم، قال: **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**، فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[١] .

٢- روى الإمام مسلم عن عائشة قالت: لما نزلت ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ قام رسول الله - ﷺ - على الصفا فقال: «**يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئًا سلوني من مالي ما شئتم**»[٢] .

٣- روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ دعا رسول الله - ﷺ - قريشًا فاجتمعوا فعم وخص، فقال: «**يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مُرّةَ بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رَحِمًا سأبُلُّها ببلاها**[٣]»[٤] .

---

(١) الحديث رواه البخاري في الجنائز (١٣٩٤)، وفي المناقب (٣٥٢٥)، وفي التفسير (٤٨٠١، ٤٩٧٢، ٤٩٧٣).

ورواه مسلم في الإيمان (٣٥٥، ٣٥٦/ ٢٠٧) صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ٨٢-٨٣.

ورواه أحمد في مسنده ١/ ٢٨١، ٣٠٧، تفسير روح المعاني ١٠/ ١٣٥، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٩/ ٧٤، أسباب نزول القرآن ص٤٩٨-٤٩٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾، ٣٥ (٢٠٥) صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ٨٠.

(٣) والبلال: الماء، ومعنى الحديث: سأصلها، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة (صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ٨٠).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾: ٣٤٨ (٢٠٤) بشرح النووي ٣/ ٧٩-٨٠.

٤ ـ روى الإمام مسلم عن قبيصة بن المخارق وزهير بن عمرو قالا: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ قال[١] انطلق نبي الله ـ ﷺ ـ إلى رضمة[٢] من جبل فعلا أعلاها حجرًا ثم نادى: «**يا بني منافاه إني نذير إنما مَثَلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدوّ، فانطلق يربأ[٣] أهله فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف يا صباحاه**»[٤].

دروس وعبر من الآيات والأحاديث السابقة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ خصهم لنفي التهمة، إذ الإنسان يساهل قرابته، أو ليعلموا أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا، وأن النجاة في اتباعه دون قربه[٥].

٢ ـ إن البدء بإنذار الأقربين علامة على صدق الداعية في دعوته، وعلامة على جديته فيها، ثم إنه هو الطريق الفطري للدعوة؛ ومن ثم فعلى الداعية أن يعطي دعوة الأقربين جزءًا من وقته وعمله[٦].

٣ ـ وهذه النذارة الخاصة جزء من النذارة العامة التي بعث بها صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٧]، وقال:

---

(١) قال: المراد أن قبيصة وزهير قالا، ولكن لما كانا متفقين وهما كالرجل الواحد أفرد فعلهما (شرح النووي ٣/ ٨٢).

(٢) الرضمة واحدة الرضم والرضام وهي صخور عظام بعضها فوق بعض (شرح النووي ٣/ ٨٢، النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٣١).

(٣) يربأ: يحفظ ويحذر (لسان العرب ١/ ٨٢).

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾: ٣٥٣ (٢٠٧) بشرح النووي ٣/ ٨١.

(٥) تفسير القرآن الجليل لأبي البركات النسفي ٣/ ٤٢٥.

(٦) الأساس في التفسير ٧/ ٣٩٦٩.

(٧) سورة الأنعام: ٩٢.

﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[١] .

٤ ـ إن على الداعية أن يهتم بأقربائه، فيبلغهم دعوة الإصلاح، فإذا أعرضوا كان له عذو أمام الله والناس عما هم عليه من فساد وضلال[٢] .

٥ ـ إن رسول الله ـ ﷺ ـ حينما صدع بالدعوة إلى الإسلام في قريش وعامة العرب، فاجأهم بما لم يكونوا يتوقعونه أو يألفونه، نجد ذلك واضحًا في رد أبي لهب عليه، ثم في اتفاق معظم المشركين من زعماء قريش على معاداته ومقاومته.

وفي ذلك الردُّ القاطع على من يحاولون تصوير هذا الدين بشرعته وأحكامه ثمرة من ثمار القومية، ويدعون أن محمدًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما كان يمثل بدعوته التي دعا إليها آمال العرب ومطامحهم في ذلك الحين[٣] .

٦ ـ وحين يكون الرسول ـ ﷺ ـ متوعدًا بالعذاب مع المعذبين، لو دعا مع الله إلهًا آخر، وهذا محال، لكنه فرض للتقريب. فكيف يكون غيره؟ وكيف ينجو من العذاب من يدعو هذه الدعوة من الآخرين؟! وليس هنالك محاباة، والعذاب لا يتخلف حتى عن الرسول، ولو ارتكب هذا الإثم العظيم[٤] .

وهكذا جرت سنة الله تعالى ألا يهلك الأمم قبل إنذارهم، لكي تكون هذه السنة الإلهية تذكرة وعبرة لنا في الحياة الدنيا، فإن كثيرًا من الأمم قبلنا

---

(١) سورة مريم: ٩٧.
(٢) السيرة النبوية دروس وعبر ص: ٥٠.
(٣) فقه السيرة للبوطي ص: ١٠٠.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦١٩.

أهلكهم الله، فاستغاثوا حين حل بهم العذاب، فلم يغن ذلك عنهم شيئًا، فقد فات الأوان وحل البأس، فليس الوقت وقت فرار وهرب من العقاب، قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۝٥٨ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[2] .

عدم عذاب الاستئصال من رحمة الله بأمة محمد - ﷺ - :

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[3] .

قال البخاري: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله - ﷺ -: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قال رسول الله - ﷺ -: «هذه أهون - أو: أيسر -»[4] .

وإنما كانت هاتان أهون أو أيسر، لأن المستعاذ منه قبلهما هو عذاب

---

(١) سورة ص: ٣ - ٤.

(٢) سورة القصص: ٥٨ - ٥٩.

(٣) سورة الأنعام: ٦٥.

(٤) رواه البخاري عن جابر في كتاب التفسير، باب ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ الآية، رقم الحديث: ٤٦٢٨ (فتح الباري ٨/ ١٤١).

الاستئصال بإحدى الخصلتين الأولين، حتى لا يبقى من الأمة أحد[١] .

روى مسلم بسنده عن ثوبان قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«إن الله زَوَى[٢] لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض[٣] ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم[٤] ، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من أقطارها ـ** أو قال: **مَنْ بين أقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويَسْبِي بعضهم بعضًا»**[٥] .

الإنذار عن هلاك هذه الأمة بعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ :

لقد حذر الله تعالى عباده المؤمنين فتنة يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي، ولا من باشر الذنب، بل يعمها لم تدفع وترفع[٦] ، قال تعالى: **﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾**[٧] .

---

(١) تفسير المراغي ٣/ ١٥٥ .

(٢) زوى: جمع (صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/ ١٣).

(٣) قال العلماء: المراد بالكنزين الذهب والفضة، والمراد كنزي كسرى وقيصر، ملكي العراق والشام (صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/ ١٣).

(٤) بيضتهم: جماعتهم (المصدر السابق).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، ١٩ (٢٨٨٩) بشرح النووي ١٨/ ١٣ـ١٤ .

(٦) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥٩ .

(٧) سورة الأنفال: ٢٥ .

روى الإمام أحمد بسنده عن أم سلمة زوج النبي - ﷺ - قالت: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «**إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده**» قلت: يا رسول الله، أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «**بلى**»، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «**يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان**»[١].

والأمة التي تسمح لفريق منها بالظلم في صورة من صوره - وأظلم الظلم نبذ شريعة الله ومنهجه للحياة - ولا تقف في وجه الظالمين؛ ولا تأخذ الطريق على المفسدين . . . أمة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين، فالإسلام منهج تكافلي إيجابي لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد والمنكر يشيع . . . وهم ساكتون. ثم هم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله من الفتنة، لأنهم هم في ذاتهم صالحون طيبون![٢].

قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾[٣].

ولم يقل: صالحون، وإنما قال: مصلحون، نزه ذاته تعالى عن الظلم، وجعل من الظلم أن يهلك قرية وأهلها مصلحون، ومن تتبع ما حلّ بالبلاد والقرى خلال العصور من عذاب؛ فإنه يجد العذاب مرافقًا للفساد[٤].

---

(١) مسند أحمد ٦/ ٣٠٤.
(٢) في ظلال القرآن باختصار يسير ٣/ ١٤٩٦.
(٣) سورة هود: ١١٧.
(٤) الأساس في التفسير ٥/ ٢٦٠٩.

ولهـذا أمـر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من ينذر ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[١] .

روى الإمام أحمد بسنده . . . عن قيس قال: قام أبو بكر - رضي الله عنه - فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يأيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ . . . ﴾[٢] ، وإنا سمعنا رسول الله - ﷺ - يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقابه**»[٣] .

سادسًا : سنة الله في النصر لأوليائه :

ومن سننه تعالى في الحياة الدنيا، سنته في النصر لأوليائه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾[٤] .

لقد كتب الله على نفسه النصر لأوليائه من الرسل والمؤمنين، وهم حملة رايته، وأصحاب عقيدته، ولكن علق هذا النصر بكمال طاقتهم، وببذل الجهد الذي في وسعهم ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا

(١) سورة آل عمران : ١٠٤ .
(٢) سورة المائدة : ١٠٥ .
(٣) مسند أحمد ١ / ٢ . قال أحمد محمد شاكر : إسناده صحيح، قيس هو ابن أبي حازم (المسند للإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر ١ / ٢١).
(٤) سورة غافر : ٥١ـ٥٢ .

تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾[١] .

فهذه سنة الله، وسنته لا تحابي أحدًا، فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير. فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن لهم وإبطال الناموس. فإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن، ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس . . .

وبهذا الوضوح والصرامة معًا يأخذ الله الجماعة المسلمة، وهو يرد على تساؤلها ودهشتها مما وقع، ويكشف عن السبب القريب، كما يكشف عن الحكمة البعيدة من قدره ـ سبحانه ـ ويواجه المنافقين بحقيقة الموت، التي لا يعصم منها حذر ولا قعود[٢] ، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٣] .

حكمة النصر وقصده :

إن النصر من عند الله، لتحقيق قَدَر الله، «وليعرف المؤمنين نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته»[٤] . قال: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ

---

(١) سورة الأنفال: ٦٠.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٥١٣.

(٣) سورة آل عمران: ١٦٥ ـ ١٦٨.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥٧، وتفسير الطبري ٦/ ٢٠٤.

رميت ولكن الله رمىٰ وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسنًا إن الله سميع عليم ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وما جعله الله إلا بشرىٰ ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾(٢) .

فالنصر إذًا قدر الله يتحقق بحركة رجاله ، وبالتأييد من عنده ، لتحقيق حكمة الله من ورائه وقصده ، وهذه الحكمة تتجلى فيما يلي :

١ ـ إهلاك طائفة من الكافرين ونقصهم :

فينقص من عددهم بالقتل ، أو ينقص من أرضهم بالفتح ، أو ينقص من سلطانهم بالقهر ، أو ينقص من أموالهم بالغنيمة ، أو ينقص من فاعليتهم في الأرض بالهزيمة .

٢ ـ خزي الكافرين وغيظهم :

فإن النصر يصرف الكافرين مهزومين أذلاء ، فيعودوا خائبين مقهورين ، منقطعي الآمال غير فائزين من مبتغاهم بشيء كما في قوله تعالى : ﴿ وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزًا ﴾(٣) .

٣ ـ توبة الله عليهم :

فإن انتصار المسلمين قد يكون للكافرين عظة وعبرة ، وقد يقودهم إلى الإيمان والتسليم ، فيتوب الله عليهم من كفرهم ، ويختم لهم بالإسلام

---

(١) سورة الأنفال : ١٧ .

(٢) سورة الأنفال : ١٠ .

(٣) سورة الأحزاب : ٢٥ .

والهداية.

٤ ـ تعذيب الكفار بسبب ظلمهم :

يعذب الله الكافرين بنصر المسلمين عليهم، أو بأسرهم، أو بموتهم على الكفر الذي ينتهي إلى العذاب، جزاءً لهم على ظلمهم بالكفر، وظلمهم بفتنة المسلمين، وظلمهم بالفساد في الأرض، وظلمهم بمقاومة الصلاح الذي يمثله منهج الإسلام للحياة وشريعته ونظامه، إلى آخر صنوف الظلم الكامنة في الكفر والصد عن سبيل الله، وفي تلك الحكم والغايات يقول تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾(١) .

ثمرات النصر، وهي في نفس الوقت أسباب دوامه :

وإذا كان نصر الله لأوليائه سنة من سننه تعالى، فما ثمراته في واقع حياتهم ؟ أو بتعبير آخر: ما أسباب دوامه؟

إن ثمرات النصر وأسباب دوامه تتمثل في سمات أولياء الله وعلامات دولتهم، وهي :

١ ـ إقامة الصلاة : إن أولياء الله يعرفون ثمرات النصر، فهم يقيمون الصلاة على النحو الذي طلبه، ويوثقون صلتهم بالله، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين.

٢ ـ إيتاء الزكاة : والذين نصرهم الله هم الذين يحافظون على أداء حق

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٦ ـ ١٢٨.

المال، وينتصرون على شح النفس ويتطهرون من الحرص، ويغلبون وسوسة الشيطان، ويسدون خلة الجماعة، ويكفلون الضعاف فيها والمحاويج.

٣ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ومن ثمرات النصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو تكليف ليس بالهين ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ومصالح بعضهم الفاسدة، ومنافعهم الضالة، وغرور بعضهم. فهؤلاء الذين يعرفون تلك الثمرات السابقة الإجمالية هم الذين يحافظون على أسباب دوام النصر، إذ ينصرون منهج الله الذي أراده للناس في الحياة، معتزين بالله وحده دون سواه. وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾(١).

قال ابن كثير: «روى ابن أبي حاتم قال عثمان بن عفان: فينا نزلت: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا: ربنا الله، ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور فهي لي ولأصحابي. وقال أبو العالية: هم أصحاب

---

(١) سورة الحج: ٣٨ـ٤١.

محمد ـ ﷺ ـ»[١] .

أقــول: ولله عـاقبة الأمـور فيمنح ذلك لكل المسلمين في كل العصـور إذا حققوا الشروط ـ والله أعلم ـ.

وهكذا، فقد سبقت كلمة الله، ومضت إرادته بوعده، وثبتت سنته تعالى في النصـر لأوليـائه من المرسلين والمسلمين، وسنتـه لا تتـخلف ولا تتبـدل: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾[٢] .

سابعًا: سنة الله في إقامة الحق:

ومن سـنن الله في الحياة الدنيا ألا يقـوم الحق وحده، وإنما ينهض بالرجال الكبـار الذين يقـومـون بالجهاد في سبيل الله، وهؤلاء لهم مـزايا وخصـائص، منها:

١ ـ الثبات على الحق والاعتصام به:

فمـا شرفت النفس بمثل معرفتها بالحق، واستمساكها به، فهو الذي يعلي قدرها ويرفع شأنها، يقـول الله تعـالى: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[٣] .

وقـــد أثنى الله على المستمسكين بالحق، الذين يعتصمون بعروته، ولا

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٦ .

(٢) سورة الصافات: ١٧١ ـ ١٧٦ .

(٣) سورة الزخرف: ٤٣ ـ ٤٤ .

يخالفون عن أمره، وأخبر أنه لا يضيع شيئًا من أجورهم، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾[1] .

٢ ـ الشجاعة :

ومن المزايا أن يكون لهم من الشجاعة ما يحملهم على الجهر بالحق، والإعلان عنه دون خوف أو جبن، لأنهم مختارون من قبل الله لإشاعة هذا النور، والإذاعة به في العالمين.

قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2] .

والجهر بالحق من أعظم الفضائل، لأنه لا قيام للباطل إلا في غفلة الحق، فما دام الدعاة إلى الله يجهرون بالحق، ويدعون إليه، ويعملون على نشره، فسوف يتوارى الباطل وينكمش. ويوم تفقد الأمة هؤلاء يكون ذلك إيذانًا بغروب شمسها، وتنكيس أعلامها، يقول الرسول ـ ﷺ ـ: «**إذا رأيتم أمتي تهاب الظالم أن تقول له: إنك أنت ظالم؛ فقد تودع منهم**»[3] .

ودعاة الحق من واجبهم ألا يخشوا إلا الله، وألا يخافوا أحدًا سواه، لأن

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٠ .

(٢) سورة آل عمران: ١٠٤ .

(٣) الحديث رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو ٢/ ١٦٣ . قال أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح، والحديث رواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٩٦ من طريق سفيان الثوري عن الحسن بن عمرو عن محمد بن مسلم بن السائب عن عبد الله بن عمرو، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (مسند أحمد تحقيق أحمد محمد شاكر ١٠/ ٢٩ـ٣٠).

الجهر بالحق لا ينقص رزقًا، ولا يقدم أجلاً، فإن الآجال بيد الله، والأرزاق في قبضته، يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾(١) .

ويقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢) .

٣ـ احتمال تبعات الحق مما يعمق جذوره، ويمكن له :

وهذه التبعات تقتضي الصبر، واحتمال الألم، واستعذاب العذاب، كما تقتضي التضحية بالنفس والمال والجهد والوقت والعرق والدموع :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾(٣) .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾(٤) .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٩.

(٢) سورة المائدة: ٥٤.

(٣) سورة العنكبوت: ٢ـ٣.

(٤) سورة آل عمران: ١٤٢.

إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(١) .

هذه هي سنة الله في الرجال الذين ينهض الحق بهم، فهم أصحاب الرسالة السامية في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان.

وبما سبق يتضح لنا أن مشيئة الله في خلقه تسير على سنن حكيمة لا تغيير فيها ولا تبديل. من سار عليها ظفر، ومن تنكبها خسر، وعلى هذا فلا مجاملة ولا محاباة في سنة الله الثابتة.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾(٢) .

ونكتفي بما ذكرنا، وهو من باب ذكر الأمثلة لا الحصر، وإلا فسنن الله تعالى في الحياة الدنيا كثيرة، والتوسع فيها قد يؤدي إلى الخروج عن موضوع الرسالة.

* * *

---

(١) سورة البقرة : ٢١٤ .

(٢) سورة النساء : ١٢٣ .

المبحث الثاني
استخلاف الله للإنسان في الحياة الدنيا

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1] .

المراد بالخلافة في القرآن الكريم :

لقد ورد في القرآن الكريم لفظ «خليفة» مرتين[2] ، ولفظ «خلائف» أربع مرات[3] ، ولفظ «خلفاء» ثلاث مرات[4] ، ولفظ «استخلف» مرة واحدة[5] ، ولفظ «يستخلف» أربع مرات[6] ، ولفظ «مستخلفين» مرة واحدة[7] .

ويأتي لفظ «الخليفة» في القرآن الكريم بثلاثة أوجه :

فوجه منها: الخليفة النبي، قوله تعالى في سورة ص: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[8] .

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.
(٢) في سورة البقرة: ٣٠ بالنسبة لآدم، وفي سورة ص: ٢٦ بالنسبة لداود.
(٣) سورة الأنعام: ١٦٥، وسورة يونس: ١٤، ٧٣، وسورة فاطر: ٣٩.
(٤) في سورة الأعراف: ٦٩، ٧٤، وسورة النمل: ٦٢.
(٥) في سورة النور: ٥٥.
(٦) سورة الأنعام: ١٣٣، وسورة الأعراف: ١٢٩، وسورة هود: ٥٧، وسورة النور: ٥٥.
(٧) في سورة الحديد: ٧.
(٨) سورة ص: ٢٦.

والثاني : الخليفة : آدم ـ عليه السلام ـ، قوله سبحانه : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾[(١)] . أي : خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ وصاياه[(٢)] .

الثالث : الخليفة : الساكن، قوله عز وجل في سورة الأعراف : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[(٣)] ، أي ويسكنكم في الأرض. كقوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ ﴾[(٤)] يعني سكانها[(٥)] .

و«خليفة» على وزن «فعيلة»، ويجمع على التأنيث «خلائف» ككرائم وصحائف، لأن وزن «فعيلة» لا يجمع على «فعلاء» ولكن «خليفة» جمعت على «خلفاء» لأن اللفظ مذكر المعنى، و«خلفاء» جمع «خليف»[(٦)] .

والتاء في «خليفة» للمبالغة في الدلالة على عظم حاله وأوصافه، وأنه الغاية في ذلك كعلامة[(٧)] .

أقوال العلماء في المراد بـ «خليفة» في قوله تعالى: ﴿ ... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ :

لقد اختلف العلماء في تحديد معنى «خليفة» في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ

---

(١) سورة البقرة : ٣٠ .
(٢) تفسير البغوي ١/ ٧٩ .
(٣) سورة الأعراف : ١٢٩ .
(٤) سورة الأنعام : ١٦٥ .
(٥) قاموس القرآن ص : ١٦٢ .
(٦) مختار الصحاح مادة (خلف) ص : ١٨٦ ، لسان العرب ١/ ٨٨٣ ، النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٦٩ ، ومعجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا ٢/ ٣٢٣ ، وقاموس المحيط ٣/ ١٤٢ .
(٧) الكليات، لأيوب الحسيني ٢/ ٣٠٠ .

ربُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾[١] على أقوال، وهي:

١ ـ آدم ـ عليه السلام ـ :

فإن «خليفة» على وزن «فعيلة» بمعنى «مفعول» أي: يخلفه من كان بعده من ذريته، وهو لم يخلف غيره[٢].

كما أن آدم ـ عليه السلام ـ وهو في الملأ الأعلى ـ هو الذي علم مسميات الأشياء كلها، وسجدت له الملائكة تكريمًا له، وهو الذي فاز على الملائكة في المناظرة معهم.

قال تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ ... إلى قوله تعالى: ﴿ ... **أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾[٣].

وقد سمى الله عز وجل آدم خليفة، لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين من خلقه، وهو المروي عن ابن مسعود[٤]. أي: يقوم بإقامة حكم الله وشرعه ودينه على عباد الله.

٢ ـ ذرية آدم ـ عليه السلام ـ :

قوله تعالى: ﴿ **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ...** ﴾[٥]

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.
(٢) التفسير الكبير ٢/ ١٨٠، فتح القدير ١/ ٦٢، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٢٥.
(٣) سورة البقرة: ٣١ ـ ٣٤.
(٤) تفسير الطبري ١/ ٤٥٢، والتفسير الكبير ٢/ ١٦٥.
(٥) سورة البقرة: ٣٠.

يشير إلى من يخلفون آدم - عليه السلام ، وهم ذريته الذين يتصور منهم مثل ذلك[١] .

والذين قالوا المراد ولد آدم فقالوا إنما سماهم خليفة لأنهم يخلف بعضهم بعضًا وهو قول الحسن، ويؤكده قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ** ﴾[٢]، والخليفة اسم يصلح للواحد والجمع، كما يصلح للذكر والأنثى[٣] .

٣ - آدم - عليه السلام - وكل نبي :

إن المراد بـ «خليفة» في قوله تعالى: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ ... خَلِيفَةً ...** ﴾[٤]، هو آدم - عليه السلام -، وهو نبي .

روى الإمام أحمد عن أبي عمر والشامي عن عبيد بن الخشنحاش عن أبي ذر قال: « . . . قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: آدم، قلت: أو نبي كان يا رسول الله؟ قال: **نبي مكلم**، قلت: فكم المرسلون يا رسول الله؟ قال: **ثلثمائة وخمسة عشر جمًا غفيرًا**»[٥] .

وقال تعالى: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)** ﴾[٦] .

---

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٨٢، والجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٢٥ .

(٢) سورة الأنعام: ١٦٥ .

(٣) التفسير الكبير ٢/ ١٦٦، وانظر: تفسير الطبري ١/ ٤٥١ .

(٤) سورة البقرة: ٣٠ .

(٥) مسند الإمام أحمد ٥/ ١٧٩ .

(٦) سورة ص: ٢٦ .

أي جعلناك خليفة لمن قبلك من الأنبياء لتحكم بالحق ولا تتبع الهوى[١] .

فكل نبي هو خليفة الله تعالى في إجراء أحكامه، وتنفيذ إرادته في عمارة الأرض وسياستها، فهم نائبون عن الله تعالى لا لحاجة له، ولكن لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه تعالى، وتلقي أمره سبحانه بغير وسيط[٢] .

وبعد ذكر أقوال العلماء في المراد بالخليفة يتبين لنا أن المراد بـ «الخليفة» هو النوع الإنساني، فيدخل آدم وغيره من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فيه دخولاً أوليًا. وإن كان المراد ـ بـ «خليفة» آدم ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[٣] ، فإن ذلك إنما اكتفاء بذكره عليه السلام عن ذكر أبنائه وذريته، لأن ذكره يشملهم، ويدل عليهم كقولك: «قبيلة مضر» أي بنو مضر.

فإن الله تعالى لم يرد آدم ـ عليه السلام ـ وحده، إنما أراد النوع الإنساني[٤] .
وهذا القول محور بحثي في هذا المبحث، كما أنه هو الراجح ـ والله أعلم ـ لما جاء في طائفة من النصوص القرآنية التي تدل على تداول الاستخلاف. فلنتدبر الآيات القرآنية فيما يلي :

١ ـ قال الله تعالى خطابًا للناس جميعًا: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا**

---

(١) تفسير فتح القدير ٤/ ٤٢٩، انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص: ٦٠٢، الكشاف ٣/ ٣٧٢، التفسير الكبير ٢٦/ ١٩٩ .

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ١٩٩، تفسير أبي السعود ٧/ ٢٢٣ .

(٣) سورة البقرة: ٣٠ .

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٦٥، تفسير فتح القدير ١/ ٦٣، الكشاف ١/ ٢٧١، تفسير المراغي ١/ ٨٠، ومجموع الفتاوى ٣٥/ ٤٢ .

يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا ﴾[١] .

أي يخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم[٢] . فبين الله في هذه الآية أن الناس خلائف في الأرض، أي يتعاقبون عليها، فيخلف بعضهم بعضًا، وكل خلف فيها سيصير سلفًا، وكل سلف سيلحقه خلف، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

٢ ـ وقال تعالى خطابًا للناس بعد بعثة محمد ـ ﷺ ـ : **﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾**[٣] . أي استخلفناكم في الأرض بعد تلك القرون التي تسمعون أخبارها وتنظرون آثارها[٤] .

٣ ـ وأبان الله عز وجل أن هذه هي سنته في البشر جميعًا، إنها قصة التاريخ الإنساني :

(أ) نوح ومن نجا معه في الفلك جعلهم الله خلائف .

(ب) عاد جعلهم الله خلفاء من بعد نوح .

(ج) ثمود جعلهم الله خلفاء من بعد عاد .

وهكذا يتداول الاستخلاف .

ـ ففي شأن نوح ومن نجا معه في الفلك قال الله تعالى : **﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ**

(١) سورة فاطر : ٣٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٨ .

(٣) سورة يونس : ١٣ ـ ١٤ .

(٤) تفسير فتح القدير ٢/ ٤٣٠ ، تفسير أبي السعود ٤/ ١٢٧ .

وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾[١] .

أي أنه سبحانه جعل نوحًا ومن نجا معه في الفلك خلفاء يسكنون الأرض التي كانت للمهلكين بالغرق ويخلفونهم فيها[٢] . ثم توالدوا، فصار بعضهم يخلف بعضًا .

ـ وفي شأن عاد، قال الله تعالى حكاية لما قاله هود ـ عليه السلام ـ لهم : ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٣] .

أي : اذكروا إذ جعلكم الله خلفاء في الأرض من بعد انقراض عصر نوح وملحقاته .

ـ وفي شأن ثمود، قال الله تعالى ـ أيضًا ـ حكاية لما قاله صالح ـ عليه السلام ـ لهم ـ : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[٤] .

وكان استخلاف ثمود تحقيقًا لما أنذر به هود قومه عادًا، إذ قال لهم كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا

---

(١) سورة يونس : ٧٣ .

(٢) انظر : تفسير فتح القدير ٢/ ٤٦٣ ، وتفسير الكشاف ٢/ ٢٤٦ .

(٣) سورة الأعراف : ٦٩ .

(٤) سورة الأعراف : ٧٤ .

غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[١] .

أي: فان تستمروا على الإعراض عن الإجابة والتصميم على ما أنتم عليه من الكفر، فقد أديت وظيفتي فيكم، إذ أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، وسيهلككم الله وينزل بكم عذابه، ويستخلف قومًا غيركم في دياركم وأموالكم[٢] . وبمثل هذا الإنذار أنذر الله عز وجل الذين كفروا بمحمد ـ ﷺ ـ إذ خاطبهم بقوله: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾**[٣] .

إنها طرقات قوية وإيقاعات عنيفة على قلوب الظالمين من شياطين الإنس والجن الذين يمكرون ويتطاولون، ويحرمون ويحللون، ويجادلون في شرع الله بما يشرعون . . وهم هكذا في قبضة الله يبقيهم كيف شاء، ويذهب بهم أنى شاء، ويستخلف من بعدهم ما يشاء، كما أنها إيقاعات من التثبيت والطمأنينة والثقة في قلوب العصبة المسلمة التي تلقى العنت من كيد الشياطين ومكرهم، ومن أذى المجرمين وعدائهم، فهؤلاء هم في قبضة الله ضعافًا حتى وهم يتجبرون في الأرض ويمكرون[٤] .

وهكذا عرض الله عز وجل لنا من خلال تلك النصوص القرآنية قصة هذا الإنسان أنه خليفة في الحياة الدنيا، «وأنه خالف ومخلوف على هذه الأرض،

---

(١) سورة هود: ٥٧ .
(٢) انظر: تفسير فتح القدير ٢/ ٥٠٥ .
(٣) سورة الأنعام: ١٣٣ ـ ١٣٤ .
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٠ .

فالأجيال تتعاقب خلائف وخلفاء ومستخلفين»[١] . فليس الخليفة هو آدم ـ عليه السلام ـ فقط ، أو الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فحسب ، بل الخليفة يشتمل على النوع الإنساني ، كما أن الآيات القرآنية يفسر بعضها بعضًا مما يدل على صحة هذا القول ـ والله أعلم ـ ، ولاشك في أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هم قدوة الناس وأئمتهم في القيام بواجبات الخلافة .

عناصر الاستخلاف :

كما ذكرنا فيما سبق أن «الخليفة» على وزن «الفعيلة» ، إما بمعنى فاعل ، فيكون الخليفة هو الخالف الذي يخلف من قبله ، وإما بمعنى مفعول فيكون الخليفة بمعنى مخلوف أي يخلفه غيره ، وفي كل من المعنيين تقتضي تلك اللفظة إقامة آخر يقوم مقام المستخلف أو مقام غيره على شيء حسبما يقرر الراغب الأصفهاني[٢] .

وبناء على هذا فكلمة «خليفة» تستدعي مستخلفًا وهو السابق ، ومستخلفًا وهو النائب الذي حل محل السابق ، ومهمة محددة يقوم بها الخليفة المختار ، وتلك هي العناصر الثلاثة المستفادة من المعنى اللغوي للكلمة .

العنصر الأول : السابق :

تتعدد الآراء حول تحديد المستخلَف الذي جاء الإنسان خليفة له ، على ما يلي :

---

(١) انظر : مجلة أم القرى ص : ٤١ ، مقال عن : «الخلافة والخليفة» لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني .

(٢) انظر : المفردات في غريب القرآن ص : ١٥٥ـ١٥٦ .

١ ـ الملائكة :

إن الخليفة يخلف الملائكة[١] الذين في الأرض قبله، لأنهم خلقوا قبل آدم ـ عليه السلام ـ، بدليل أن الله تعالى قد أعلن ذلك لهم قبل خلقه عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[٣] .

٢ ـ الجن :

إن الخليفة يخلف الجن الذين سكنوا الأرض قبله[٤] ، فإن الجن قد خلقوا قبل آدم ـ عليه السلام ـ، قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾[٥] . فإن تقديم الجن على الإنس إنما هو لتقدم وجودهم على الإنس[٦] .

٣ ـ الله تعالى :

---

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٦٢، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٢٥، تفسير الزمخشري (الكشاف) ١/ ٢٢٥.

(٢) سورة ص: ٧١ـ٧٢.

(٣) سورة البقرة: ٣٠.

(٤) تفسير الطبري تحقيق محمود محمد شاكر ١/ ٤٥٠.

(٥) سورة الذاريات: ٥٦.

(٦) تفسير أبي السعود ٨/ ١٤٤.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[(١)] .

وإذ كانت الآية لم تذكر المستخلف له، فإن ما يتبادر إلى ذهن السامع مباشرة، هو أنه خليفة لله تعالى، وليس هنالك ما يصرفه عن هذا المعنى من آيات قرآنية أو أحاديث نبوية صحيحة[(٢)] . وينسبه صاحب هذا الرأي إلى ما ذهب إليه ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ[(٣)] .

فبعد ذكر الأقوال نرى أننا لا نعرف بطريق القطع شيئًا عن وجود كائنات لهم صلات عمرانية بالكون نشأ عنها نوع من التحضر، كما أن الله عز وجل لم يذكر شيئًا في كتابه يدل على أنه ولى أحدًا على هذا العالم بأي صيغة من صيغ النيابة، ولم يرد ما يشير إلى أي صورة من صور الاستخلاف لموجودات ما، أو للملائكة، أو للجن، فإذا ما قال للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[(٤)] فالأولى أن تنصرف عملية الاستخلاف إلى الإنسان.

العنصر الثاني: اللاحق:

لا خلاف على أن الإنسان هو المعني بالخلافة، وهي إما عامة في أفراد الإنسانية: آدم ـ عليه السلام ـ وذريته، فكل فرد من أفراد الإنسانية له نصيب من تلك الخلافة، وهو مسؤول أمام الله عز وجل عن نصيبه طبقًا للتكليف الإلهي في الاستخلاف والاستعمار، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[(٥)] ، وكل له نشاط يؤديه في نطاق

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.
(٢) الإنسان وجوده وخلافته في الأرض لعبد الرحمن المطرودي، ص: ٣٤٠.
(٣) انظر: تفسير الطبري ١/ ٤٥٠، وتفسير ابن كثير ١/ ٦٥.
(٤) سورة البقرة: ٣٠.
(٥) سورة يونس: ١٤.

المهمة الاستخلافية العامة، وكل يخلف بعضه بعضًا فيها .

وإما خاصة في حالة ما إذا اختير إنسان ما خليفة على جماعة بعينها، فهذا المستخلف من قبل البشر قد حاز درجتين من الخلافة :

ـ درجة عامة باعتباره أحد أفراد الإنسانية المكلفين بمهام الخلافة .

ـ ودرجة أخرى خاصة بصفة اعتبارية أسندت إليه بعقد الجماعة الخاص، وتفويضه نيابة عنهم في إدارة شؤونهم، وعلى هذا فجميع الأفراد خلفاء بالمعنى العام، وتزداد التبعة على من ألقيت إليه درجة أخرى من قبل البشر أنفسهم(١) . وهذه التبعة من باب تأدية الأمانات إلى أهلها، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾(٢)، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾(٣) .

العنصر الثالث : المهمة الاستخلافية :

هذا هو العنصر المهم في تلك العملية، وهو الغاية الحقيقية وراء الاستخلاف الإنساني من بدايته، وتشير الدلائل القرآنية إلى أن تلك المهمة تتجلى في أمور، منها :

١ ـ أهمية العمل :

إن التمكن والبقاء والانتشار الإنساني على هذا الكون ليس سلبيًا، ولم

---

(١) انظر : التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، لعثمان جمعة، ص : ١٠ .
(٢) سورة النساء : ٥٨ .
(٣) سورة الأنفال : ٢٧ .

يخلق الكائن البشري بملكاته الواعية وطاقاته الهائلة ليعيش عالة على بقول الأرض وفطرياتها النباتية أو الحيوانية، ولا ليقتات ما يجده سهلاً أو مصادفة، بل ولم يجعل الله سبحانه هذا الكون يخرج كنوزه، ويكشف عنها بطريقة تلقائية، وإنما ارتبط البقاء الإنساني في هذا الوجود، وارتبطت أرزاقه ومعايشه ومطالبه كلها فيه بالجهد الشاق، والنصب الدائم، وهناك نصوص كثيرة تستحث الإنسان وتستنفر هممه نحو العمل والمشي في مناكب الأرض، والضرب في فجاجها، فمن تلك النصوص ما يلي :

١ ـ قوله تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾(١) .

أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئًا إلا أن ييسره الله لكم، ولهذا قال تعالى : ﴿**وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾، فالسعي في السبب لا ينافي التوكل(٢) ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا حيوة أخبرني بكر بن عمرو أنه سمع عبد الله بن هبيرة يقول : إنه سمع أبا سهم الجيشاني يقول : إنه سمع عمر بن الخطاب يقول : إنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»(٣) .

---

(١) سورة الملك : ١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤٧ .

(٣) رواه أحمد في مسنده ١/ ٣٠، ٥٢، ورواه الترمذي في كتاب الزهد : ٣٣، وقال : حسن صحيح .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] .

وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي ، التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض من عمل وكد ونشاط وكسب ، وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر ، وهي ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى . وذكر الله لابد منه في أثناء ابتغاء المعاش ، والشعور بالله فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة ، ولكنه ـ مع هذا ـ لابد من فترة للذكر الخالص ، والانقطاع الكامل ، والتجرد المحض[2] .

٢ ـ النظر والتفكير :

ومن الأمور التي تتجلى فيها مهمة الاستخلاف : اختلاف العمل الإنساني عن الجهد الحيواني ، فالحيوان عندما يقوم بعمل ما لا يستطيع التفكير في طرائق بديلة عن الطريقة التي دربه عليها الإنسان ، ولا يدرك غاية وراء عمله ، بخلاف الكائن البشري فإن أعماله ذات طابع فكري قبل أن تبدو في صورتها العملية المحسوسة ، وهي أعمال معلولة وغائية ، ومن ثم فالنظر والتفكير من أدق الخصائص التي تميز هذا الكائن عن بقية الكائنات .

والله سبحانه عندما يوجد شيئًا ، أو يمنح ميزة معينة لا يقبل أن تنزوي الموجودات في أركان الدعة والكسل ، وإنما يجب أن يقوم كل موجود بعمل يتناسب مع طاقاته وملكاته ، فالكائنات المحسوسة والجسد الإنساني تؤدي

---

(١) سورة الجمعة : ١٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٧٠ .

عملاً مشاهداً، وحركة مستمرة، وعلى وسائل الإدراك الإنساني الحسية والعقلية والقلبية أن تقوم بمهام النظر والتأمل والتفكر والتفقه، «وسيسأل العبد عنها يوم القيامة وتسأل عنه عما عمل فيها»[١] .

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[٣] .

٣ـ القيام بشرع الله :

وأخيراً فإن مراحل الاستخلاف ابتداءً من العمل والجهد البدني وانتهاءً بالخضوع لدين الله الذي ارتضاه لعباده وألزمهم إياه، وإقامة شرعه سبحانه والعمل في إقامة العدل الإلهي، لا يتأتى للإنسان أن يسير بين درجات هذه المهمة متنقلاً فيها بمفرده أو مستنداً على تفكيره وحده، بل لابد له من الرسالة المبصرة، وإلى الكتاب المنزل[٤] .

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧ .

(٢) سورة الإسراء: ٣٦ .

(٣) سورة الأحقاف: ٢٦ .

(٤) انظر: الدعوة والإنسان، لعبد الله يوسف الشاذلي، ص: ٢٣٦ .

ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز ﴾[١] .

فالرسالة واحدة في جوهرها، جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها . . . والنص يقول: ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ بوصفهم وحدة، وبوصف الكتاب وحدة كذلك، إشارة إلى وحدة الرسالة في جوهرها. ﴿ والميزان ﴾ مع الكتاب، فكل الرسالات جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزانًا ثابتًا ترجع إليه البشرية، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال.

هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف، ومصطخب المنافسة وحب الذات، فلابد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ . . . فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته لا يهتدي الناس إلى العدل، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء[٢] .

هل يجوز أن يقال : إن الإنسان خليفة الله أو خليفة عن الله في أرضه ؟

وإذا كان المراد بـ «الخليفة» أنه خلف من كان قبله من الخلق[٣] ، أو أنه من يخلف غيره وينوب عنه، وبتعبير آخر هو القائم مقام غيره في الأمر الذي

---

(١) سورة الحديد: ٢٥.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩٤، وانظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٢٧٦، وتفسير أبي السعود ٨/ ٢١٢.

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣٥/ ٤٣.

جعل إليه[١] ، فهل يجوز أن يقال: يا خليفة الله؟، اختلف العلماء في ذلك كما يلي:

١ - جوزه بعض العلماء وذلك لقيامه بحقوقه في خلقه، ولقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾[٢]. ويقول ابن خلدون: «والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي - أي الخلافة - في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»[٣].

٢ - وامتنع جمهور العلماء من جواز ذلك، ونسبوا قائله إلى الفجور، وقالوا: يستخلف من يغيب أو يموت، والله لا يغيب ولا يموت، وقد قيل لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه -: يا خليفة الله، فقال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله - ﷺ -[٤][٥].

ويؤكد جمهور العلماء[١] ما ذهبوا إليه من عدم جواز ذلك بتعليقات،

---

(١) تفسير البحر المحيط ١/ ١٤.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٥.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص: ١٧٩.

(٤) الأثر رواه أحمد في مسنده ١/ ١١.

(٥) قال القلقشندي في مآثر الإنافة عن معالم الخلافة ١/ ١٤ - ١٧: «وأما من تكون عنه الخلافة فللعلماء فيه ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: أن الخلافة تكون عن الله تعالى، فيقال في الخليفة: يا خليفة الله، وهو ما حكاه الماوردي في «الأحكام السلطانية» عن بعضهم لقيامه بحقوقه تعالى، احتجاجًا بقوله =

فقالوا : إنا نلاحظ أن القول بجواز ذلك ذو إشكال كبير في مفاهيم العقيدة الإسلامية ، وبيان ذلك فيما يلي :

إن الاستخلاف يتضمن معنى تفويض المستخلف لخليفته ، وهذا التفويض :

- إما أن يكون تفويضًا في الخلق .

- أو تفويضًا في الحكم والأمر والنهي .

= تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ﴾ ثم قال : وامتنع جمهور الفقهاء . . . [ثم قال] : وذكر الشيخ محيي الدين النووي - رحمه الله - في كتابه «الأذكار» نحوه . وقال : ينبغي أن لا يقال للقائم بأمر المسلمين : خليفة الله . ويؤيد ذلك ما حكي أنه قيل لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - : يا خليفة الله ، فقال : لست بخليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله - ﷺ - . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : يا خليفة الله ، فقال : ويلك لقد تناولت متناولاً بعيدًا ، إن أمي سمتني عمر ، فلو دعوتني بهذا الاسم قبلت ، ثم كبرت فكنيت أبا حفص ، فلو دعوتني به قبلت ، ثم وليتموني أموركم فسميتموني أمير المؤمنين ، فلو دعوتني بذلك كفاك .

وأجاز البغوي ذلك في حق آدم وداود - عليهما السلام - دون غيرهما ، محتجًا بقوله تعالى في حق آدم : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ، وبقوله في حق داود : ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ ، قال : ولا يسمى أحد خليفة الله بعدهما .

وأجاز الزمخشري في تفسيره (١/ ٢٠٩) ذلك في سائر الأنبياء - عليهم السلام - .

المذهب الثاني : أن الخلافة تكون عن رسول الله - ﷺ - ، فيقال فيه : خليفة رسول الله - ﷺ - ، لأنه خلفه في أمته .

المذهب الثالث : أن الخلافة قد تكون عن الخليفة قبل ذلك الخليفة ، فيقال : فلان خليفة فلان ، واحدًا بعد واحد ، حتى ينتهي إلى أبي بكر - رضي الله عنه - ، فيقال : خليفة رسول الله - ﷺ - ، وعلى ذلك خوطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وفي أول أمره : خليفة خليفة رسول الله - ﷺ - . اهـ . (وانظر : منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ١٨٣ - ١٨٤ ، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص : ٢٧) .

(١) ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - (انظر : مجموع الفتاوى ٣٥/ ٤٤ - ٤٥) .

ـ أو تفويضًا في العمل والتصرفات.

أما التفويض في الخلق فالمقرر في العقائد بداهة أن الخلق كله لله، والله تعالى لم يفوض أحدًا بأن يخلق شيئًا، فليس لله خليفة في الخلق، قال تعالى: ﴿ **قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾[2].

وأما التفويض في الحكم والأمر والنهي عن الله فله عقلاً وشرعًا، وإن الحاكمية لله وحده، فمن له الخلق هو الذي له الأمر، وكون الحاكمية لله وحده هو من عناصر توحيد الألوهية. قال تعالى: ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾[4].

والرسول مبلغ عن الله شرائعه لعباده، وحين يعطي الله رسوله تفويضًا في الاجتهاد لاستنباط أحكام الله، فإنه عز وجل يتابعه بالتعديل والتصحيح إذا أخطأ؛ لأن الناس يؤمنون بأن ما يحكم به الرسول هو حكم الله، وما دام الرسول موجودًا فالوحي لم ينقطع، والمتابعة قائمة، فما يحكم به الرسول اجتهادًا منه، ويقره الله عليه دون تعديل فهو حكم الله.

فالتفويض في الأحكام لا يكون إلا لنبي معصوم عن مخالفة شرع الله، ومراداته في التكاليف، وإذا لم يكن معصومًا عن الخطأ في الاجتهاد فهو متابع

---

(١) سورة الرعد: ١٦.

(٢) سورة الزمر: ٦٢.

(٣) سورة يوسف: ٤٠.

(٤) سورة يوسف: ٦٧.

بالتصحيح والتعديل. ولا يصلح الناس بشكل عام لمثل هذا التفويض، ففيهم العصاة، وفيهم الكفرة، وإذا أخطأ صالحوهم في اجتهاداتهم لم نجد وحيًا يصححها لهم ويبين فيها حكم الله، لانقطاع الوحي، وانتهاء النبوات.

أما التفويض في العمل والتصرفات فهو يتضمن إباحة كل تصرف وعمل يصدر عن الإنسان، وهذا خلاف الواقع، إذ الإنسان موضوع موضع التكليف والمسؤولية، والمكلف مأمور، تجب عليه الطاعة وهو مسؤول عن عمله، وليس بمفوض، إنه عبد مبتلى، وليس خليفة عن الله سبحانه، لقد تعالى الله عن ذلك وتنزه.

أما التمكين القدري للإنسان من العمل فيما سخر الله له ليبلوه في ظروف هذه الحياة، فليس تفويضًا ولا استخلافًا عن الله. هذا ما عليه عقيدة السلف الصالح[١].

فالله لا يجوز له خليفة، بل هو سبحانه يكون خليفةً لغيره، قال النبي ـ ﷺ ـ: «**اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا**»[٢] ؛ وذلك لأن الله حي، شهيد، مهيمن، قيوم، رقيب، حفيظ، غني عن العالمين، ليس له شريك، ولا ظهير، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه. والخليفة إنما يكون عند عدم المستخلف بموت أو غيبة، ويكون لحاجة المستخلف إلى الاستخلاف[٣].

---

(١) انظر: المقال لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، مجلة أم القرى ص: ٣٣.

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب الحج، باب استحباب الذكر إذا ركب دابته متوجهًا لسفر حج أو غيره وبيان الأفضل من ذلك الذكر، حديث رقم ٤٢٥ (١٤٤٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٩/ ١١٠. ورواه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٢٥٦، ٣٠٠، ٢/ ١٤٤، ١٥٠، ٤٠١، ٤٣٣.

(٣) مجموع الفتاوى ٣٥/ ٤٥.

وبعد ذكر أقوال العلماء فيما سبق، يتضح لي أن الكلام في ذلك يحتاج إلى تحديد وتدقيق؛ وذلك فيما يلي:

- إذا كان المراد بـ «خليفة الله» أنه الخليفة عن الله على الإطلاق، فهذا لا يجوز؛ اتقاءً مما يوقع في مخالفة العقيدة، بل إن هذا الأمر مستحيل.

- أما إذا جاء في صيغ تبعد عن هذا اللبس، فهذا هو الذي قال به بعض العلماء في بيان الخلافة عن الله في تنفيذ حكمه وأوامره على عباد الله. وهذا - والله أعلم - أمر لا شيء فيه، بل واجب على كل من تولى أمر المسلمين بالقيام بذلك.

مفاهيم حول الخلافة:

وجود الإنسان على وجه الأرض يعتبر أهم حدث كوني يسجله القرآن الكريم في إخباره عن قصة الخلق، فلقد حدث في السماوات ما لم يحدث من قبل، بسبب هذا الأمر الجليل، فالله عز وجل ينبئ ملائكة السماء بهذا الحدث قبل وقوعه، فلكي يكون الإنسان على المستوى المطلوب من المسؤولية عن هذه الأمانة الكبرى أمانة الاستخلاف، يحسن بنا أن نعرض بعض المفاهيم حول الخلافة، وهي كما يلي:

أولاً: الخلافة تكريم الله للإنسان في الملأ الأعلى:

قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[١].

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[١] .

قال ابن كثير في تفسيره : «وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم ـ عليه السلام ـ امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم»[٢] .

وإذا كان استخلاف الله للإنسان تكريمًا له ، وإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى ، فهناك التكريمات الربانية الأخرى التي تتجلى في حياة الإنسان ، وهي كما يلي :

١ ـ لقد كرم الله سبحانه وتعالى هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه ؛ كرمه بخلقته على تلك الهيئة الحسنة ، وعلى العناية الربانية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق ، سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد ، أم في تكوينه العقلي الفريد ، أم في تكوينه الروحي العجيب .

قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٣] .

٢ ـ وقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة ، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

---

(١) سورة البقرة : ٣٤ .
(٢) تفسير ابن كثير : ١/ ٦٩ .
(٣) سورة التين : ٤ .

الْخَالقِينَ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾**[2] .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾**[3] .

٣ ـ وقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك .

قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾**[4] .

وقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾**[5] .

---

(١) سورة المؤمنون : ١٢ ـ ١٤ .

(٢) سورة السجدة : ٧ ـ ٩ .

(٣) سورة الحجر : ٢٦ ـ ٢٩ .

(٤) سورة لقمان : ٢٠ .

(٥) سورة إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٣ .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

٤ ـ ومن التكريم الرباني للإنسان أن يكون قيمًا على نفسه، محتملاً تبعة اتجاهه وعمله. فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنسانًا؛ حرية الاتجاه وفردية التبعة. وبها استخلف في دار العمل، فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب.

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[3] .

وهكذا كرم الله سبحانه وتعالى بني آدم بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض . . . القرآن.

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[4] .

«والحمل في البر والبحر يتم بتسخير النواميس وجعلها موافقةً لطبيعة

---

(١) سورة النحل: ١٤.

(٢) سورة الحج: ٣٧.

(٣) سورة الإسراء: ٧١ـ٧٢.

(٤) سورة الإسراء: ٧٠.

الحياة الإنسانية وما ركب فيها من استعدادات، ولو لم تكن هذه النواميس موافقة للطبيعة البشرية لما قامت الحياة الإنسانية، وهي ضعيفة ضئيلة بالقياس إلى العوامل الطبيعبة في البر والبحر . ولكن الإنسان مزود بالقدرة على الحياة فيها، ومزود كذلك بالاستعدادات التي تمكنه من استخدامها، وكله من فضل الله»[١] .

ثانيًا : الخلافة تكليف وأمانة :

ومن المفاهيم التي ينبغي أن يتذكرها كل إنسان أن الخلافة تكليف وأمانة من الله عز وجل عليه .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾[٢] .

قال ابن كثير في تفسيره ـ بعد ذكر أقوال العلماء في المراد بالأمانة في هذه الآية ـ: «وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله، وبالله المستعان»[٣] .

فالخلافة هي تكليف الإنسان بعمارة الكون باعتباره سيدًا لهذا الكون، إذ

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٤١ .

(٢) سورة الأحزاب : ٧٢ـ٧٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٥ ، وانظر : تفسير فتح القدير ٤/ ٣٠٨ـ٣٠٩ ، وتفسير السعدي ٦/ ٢٥٤ ، وتفسير المراغي ٨/ ٤٦ .

جعل كل ما فيه مسخراً لخدمته.

ومن أجل ذلك فقد جهز هذا المخلوق بمجموعة من الملكات والصفات لابد منها لتتكامل لديه القدرة على إدارة أمر هذا الكون وتعميره واستخدامه، فبث فيه صفة العقل وما يتفرع عنها من العلم والإدراك والقدرة على تحليل الأشياء، وبث فيه معنى الأنانية وما يتفرع عنها من النزوع إلى الأثرة والتملك، وبث فيه أسباب القوة ومقومات التدبير وما يتفرع عنها من النزوع إلى السيطرة والعظمة والجاه، ثم بث فيه مجموعة من العواطف والانفعالات.

وتعتبر هذه الملكات والصفات هي الأمانة التي اؤتمن عليها الإنسان؛ لأنها كلها تعتبر أسلحة ذات حدين يمكن أن يستخدمها الإنسان في إعمار الكون، ويمكن أن يستخدمها في إشاعة الفوضى والهلاك . . . »[1] .

ثالثًا : الخلافة عبودية وسيادة :

ومن المفاهيم التي ينبغي أن ترسخ في ذهن الإنسان أن الخلافة عبودية وسيادة، وذلك لأن الخلافة ذات علاقة بين الإنسان وهو الخليفة، وبين الله عز وجل الذي جعل الإنسان في هذه الحياة خليفة، فالإنسان عبد الله.

قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم**

---

(١) انظر : كبرى اليقينات الكونية، لمحمد سعيد البوطي، ص: ٦٩، وانظر : الإنسان في القرآن لمحمد الشيخ عايد ص: ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) سورة الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١] .

وكذلك أن الخلافة ذات علاقة أخرى، وهي العلاقة بين الإنسان الخليفة وبين كل ما استخلفه الله في الأرض من جهة أخرى.

والعلاقة الأولى، التي هي بين الإنسان وبين ربه، ذات طبيعة خاصة ومختلفة عن العلاقة الثانية التي لها طبيعتها الخاصة أيضًا، هذه العلاقة التي تقوم بين الإنسان وبين ما سوى الإنسان من أشياء وأحياء في الأرض.

أما الأولى فهي تتمثل فيما يلي :

١ ـ طاعة الخليفة لربه :

قال تعالى: **﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾**[٢] .

وقال تعالى: **﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾**[٣] .

٢ ـ استجابة الخليفة لنداء ربه :

قال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾**[٤] .

وقال تعالى: **﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا**

---

(١) سورة البقرة: ٢١ ـ ٢٢ .

(٢) سورة آل عمران: ٣٢ .

(٣) سورة آل عمران: ١٣٢ .

(٤) سورة الأنفال: ٢٤ .

لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾[١] .

٣ ـ خضوع الخليفة وتسليمه[٢] لربه :

قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

---

(١) سورة الشورى : ٤٧ .

(٢) هناك فرق بين الطاعة والاستجابة والتسليم :
ـ فأما الطاعة فهي مثل الطوع ، وهو الانقياد ، وضد الكره ، قال تعالى : ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ ـ سورة فصلت : ١١ ـ . لكن أكثر ما يقال في الائتمار فيما أمر . وقوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ ـ سورة محمد : ٢١ ـ ، أي : أطيعوا ، أي : ليكن منكم طاعة معروفة بلا إثم .
والتطوع في الأصل تكلف الطاعة ، وهو في التعارف التبرع بما لا يلزم كالتنفل ، قال تعالى : ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ ـ سورة البقرة : ١٨٤ ـ (انظر : المفردات في غريب القرآن ص : ٣١٠ ـ ٣١١ ، وبصائر ذوي التمييز ٣/ ٥١٩) .
ـ وأما الاستجابة فقيل : هي الإجابة ، وحقيقتها هي التحري للجواب والتهيؤ له ، لكن عبّر به عن الإجابة لقلة انفكاكها منها . قال تعالى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ـ سورة الأنفال : ٢٤ ـ (المفردات في غريب القرآن ص : ١٠٢ ، وبصائر ذوي التمييز ٢/ ٤٠٨) .
ـ والتسليم هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر ، أو شهوة تعارض الأمر ، أو إرادة تعارض الإخلاص ، أو اعتراض يعارض القدر والشرع . وبهذا تبين أن التسليم محض الصدّيقية (بصائر ذوي التمييز ٢/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨) .

(٣) سورة الحج : ٣٤ .

(٤) سورة الزمر : ٥٤ .

يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴾[٢] .

هكذا يجب أن تكون العلاقة بين الإنسان الخليفة وبين ربه ، وبكلمة واحدة نعبر بها عن هذه العلاقة نقول : إنها عبودية .

وأما العلاقة الثانية من علاقتي الخلافة فإنها تتمثل في سيطرة الإنسان الخليفة وهيمنته واستغلاله وتسخيره لكل ما استخلفه الله عليه ؛ أي لكل ما في الأرض وما عليها وما في باطنها من أشياء وأحياء ، وبكلمة واحدة نقول : إن الإنسان سيد عليها ، أي أن هذه العلاقة تسمى : سيادة . وهذه السيادة وعد من الله عز وجل لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

قال تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[٣] .

وهكذا تكون الخلافة عبودية وسيادة ، فإذا لم يحقق الإنسان عبوديته لله فإنه يضيع سيادته في الأرض ؛ لأنه إذا لم يحقق عبوديته لله وحده فإنه سيسقط بالضرورة في عبوديته لغير الله ، ومن ثم يفقد سيادته على هذا الغير ، وإذا لم يحقق الإنسان سيادته على كل شيء وحي في الأرض ، فإنه بالتالي يصعب

(١) سورة النساء : ٦٥ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٦ .

(٣) سورة النور : ٥٥ .

عليه أن يكون عبدًا لله عز وجل وحده .

والمثل الواضح على هذا هو الوثني الذي يتوسل إلى الله بأحياء أو بأشياء مادية ، فإن هذا التوسل أو التزلف بها إلى الله هو المانع الأول والحقيقي لسيادة الإنسان عليها مادام يعتقد أنها أفضل منه وأقرب إلى الله عز وجل ، فكيف يمكنه أن يسخرها لنفسه؟

وهذا التوسل شرك بالله عز وجل ، ومن ثم فالشرك أو الكفر فقد للسيادة في نفس الوقت الذي هو فيه فقد للعبودية ، ويعتبر التوحيد تحقيقًا للسيادة الذي هو في نفس الوقت تحقيق لعبودية الله وحده ؛ لأن معنى إفراد الله بالعبادة استعلاء الموحد على كل ما سوى الإنسان في الأرض ، وهذا هو معنى السيادة[١] .

وبعد ذكر المفاهيم السابقة التي تشتمل على أن الخلافة تكريم رباني ، وأنها تكليف ومسؤولية ، كما أنها عبودية وسيادة ، يتضح لنا أن خلافة الإنسان في الحياة الدنيا لا تتحقق إلا إذا كان الإنسان واعيًا وعاملاً بمقتضيات تلك المفاهيم وترجمتها في واقع حياته ، فمن مقتضياتها :

١ ـ الإيمان بالله :

قال تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[٢] . والإيمان الذي يتحقق به وعد الله ـ وهو

(١) استخلاف الإنسان في الأرض ، لفاروق أحمد دسوقي ، ص : ١٣ ـ ١٤ .
(٢) سورة النور : ٥٥ .

الاستخلاف ـ هو الإيمان الذي ليس مجرد عمل لساني ولا عمل بدني ولا عمل ذهني، وإنما الإيمان في حقيقته عمل نفسي يبلغ أغوار النفس، ويحيط بجوانبها كلها من إدراك وإرادة ووجدان :

ـ فلابد أن يبلغ الإيمان درجة اليقين الجازم، الذي لا يزلزله شك ولا شبهة. قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ (١) .

ـ ولابد أن يصحب هذه المعرفة الجازمة إذعان قلبي، وانقياد إرادي، يتمثل في الخضوع والطاعة لحكم من آمن به مع الرضا والتسليم .

قال تعالى: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾(٢) .

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾(٣) .

ـ ولابد أن يتبع تلك المعرفة، وهذا الإذعان حرارة وجدانية قلبية، تبعث على العمل بمقتضيات الإيمان، والالتزام بمبادئه الخلقية والسلوكية والجهاد في سبيله بالمال والنفس .

قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا**

---

(١) سورة الحجرات: ١٥ .

(٢) سورة النساء: ٦٥ .

(٣) سورة النور: ٥١ .

رزقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[٣] .

٢ ـ العمارة والإصلاح والعمل :

ويتحقق الاستخلاف في الحياة الدنيا بالقدرة على العمارة والإصلاح والعمل، لا على الهدم والإفساد، وبالقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر.

قال تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾[٤] .

---

(١) سورة الأنفال: ٢ ـ ٤ .
(٢) سورة المؤمنون: ١ ـ ١١ .
(٣) سورة الحجرات: ١٥ .
(٤) سورة هود: ٦١ .

فالإسلام لا يعرف المؤمن إلا كادحًا عاملاً مؤديًا دوره في الحياة، آخذًا منها معطيًا لها. وعقيدة الإسلام لا تعرف يومًا من أيام الأسبوع، يخلص للعبادة، وينقطع الناس فيه عن أعمال الحياة - كما تعرف اليهودية مثلاً - ولكن الأيام جميعها في الإسلام أيام عمل، والعمل الدنيوي في الإسلام يمكن أن يكون عبادة بصدق النية وموافقة الشرع.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[١].

فهذه حياة المسلم في يوم الجمعة، عمل وبيع وتجارة قبل الصلاة، ثم سعي إلى ذكر الله والصلاة، ثم انتشار في الأرض وابتغاء من فضل الله بعد انقضاء الصلاة[٢].

وهكذا تتحقق الخلافة بالإيمان الصادق، وبالطاعة والعبادة، وبعمارة الأرض وإصلاحها، والعدل والطمأنينة.

* * *

---

(١) سورة الجمعة: ٩ - ١٠.

(٢) الإيمان والحياة، ليوسف القرضاوي، ص: ٢٦١.

المبحث الثالث
تمكين الله للإنسان في الحياة الدنيا

إن خالق الحياة وخالق الإنسان، هو الذي مكّن لهذا الجنس البشري في الحياة الدنيا. وهو الذي أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التي تسمح بحياة الإنسان، بما فيها من أسباب الرزق والمعايش. وهو الذي جعل هذا الجنس سيد مخلوقات هذه الأرض قادراً على تطويعها واستخدامها. قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى ممتنًا على عبيده فيما مكّن لهم من أنه جعل الأرض قراراً، وجعل فيها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا أباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معايش، أي: مكاسب وأسبابًا يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك»[٢].

إن الله سبحانه و تعالى قد أنعم على الإنسان بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، وقد نبه عز وجل في كتابه الكريم إلى كثير من النعم، فأكثر الحديث عنها، ووجه الأنظار، وقرر عباده بها ليدفعهم إلى التفكير في مصدرها، وأنه

---

(١) سورة الأعراف: ١٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ١٧٦.

جدير بالعبادة، ولما يثير شكر هذه النعم في أنفسهم من محبة لبارئها؛ ولاسيما أن هذه النعم ليست في طاقة البشر، ولكن الله مكّن لهم في هذه الحياة الدنيا.

وبتدبر القرآن الكريم فيما يفيدنا في هذا المبحث يتبين لنا جملة أشياء جعلها الله تعالى في هذه الحياة وبثها فيها ليتحقق هذا التمكين في الأرض، وتصلح حياة الإنسان على الحال الذي أنشأها الله عليه.

وهذه الأمور هي:

الأول: تهيئة الأرض للحياة.

الثاني: الشمس والقمر.

الثالث: الأنعام.

الأول: تهيئة الأرض للحياة:

لقد كانت حكمة الله العزيز الحكيم في تهيئة الأرض للحياة، وذلك بأن جعلها الله للإنسان ولغيره من المخلوقات، كالفراش ممهدة وموطأة ومستقرة، وجعل للأرض دورتين مختلفتين يتوقف عليهما نظام الحياة، للإنسان والحيوان والنبات، ولولاهما لما كانت الحياة، وهما:

١ - دورة يومية حول محورها، يكون بها الليل والنهار.

٢ - ودورة سنوية حول الشمس، تكون بها الفصول السنوية.

ولو لم تكن للأرض دورة حول محورها لقابلت الشمس بوجه واحد فقط، ولكان لهذا الوجه نهار دائم لا تغيب عنه الشمس، ولكان للوجه الآخر ليل دائم لا تظهر عليه الشمس فتشتد في الوجه المقابل الحرارة، فتجف فيه المياه، وسائر الرطوبات، وتنقطع الحياة، وتشتد في الوجه الآخر

البرودة، وتجمد المحيطات وتراكم الثلوج، كجبال ثلجية هائلة، وتنعدم الحياة.

فكانت حكمة الله تعالى بدوران الأرض دورتين يومية وسنوية، تتغير فيهما الأجواء من ظلام إلى ضياء، وتتبدل فيهما الطبائع من حرارة إلى برودة إلى اعتدال، وتنتظم فيهما ضروريات الحياة من غذاء وماء وهواء، ومن كساء وفاكهة ودواء، ومن نشاط وقوة ونماء[١] .

ثم انتظام الأرض في حركتها المستمرة، والتوازن التام بين أطرافها، بحيث كانت البحار الغامرة في ناحية، والجبال الرواسي في ناحية، جعل التعادل فيها متكاملاً بتمامه، فلم يكن بذلك ارتجاج ولا اضطراب، بل تكون الأرض مستقرة، ثابتة، فكانت الحياة بذلك هادئة براحة وهناءة[٢] ، وكان بذلك تمكينٌ للإنسان في الحياة الدنيا.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى تلك النعمة العظيمة ـ نعمة تهيئة الأرض للحياة ـ في آيات كثيرة، منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾[٣] .

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ**

---

(١) معالم القرآن في عوالم الأكوان، لأحمد محيي الدين العجوز، ص: ٤٨، وراجع معنى النص: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، لمحمد أحمد ملكاوي، ص: ٢٣٧، والمنهج الإيماني للدراسات الكونية، لعبد العليم عبد الرحمن خضر، ص: ٢٦٩.

(٢) المرجع السابق ص: ٤٩.

(٣) سورة البقرة: ٣٦.

فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[١] .

والتعبير عن كونهم في الأصلاب أو فوق الأرض بالاستقرار لأنهما مقرهم الطبيعي ، كما أن التعبير عن كونهم في الأرحام أو تحت الأرض بالاستيداع لما أن كلاً منهما ليس بمقرهم الطبيعي[٢] .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٣] .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾[٤] .

٥ ـ قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ ﴾[٥] .

٦ ـ قوله تعالى : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[٦] .

---

(١) سورة الأنعام : ٩٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣/ ١٦٥ ، وانظر : تفسير فتح القدير ٢/ ١٤٣ ـ ١٤٤ .

(٣) سورة الرعد : ٣ ـ ٤ .

(٤) سورة الحجر : ١٩ ـ ٢٠ .

(٥) سورة طه : ٥٣ ـ ٥٤ .

(٦) سورة النمل : ٦١ .

٧ ـ قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذي جعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قرارًا والسَّماءَ بناءً وصوَّركُم فأحْسن صُوركُمْ ورزقَكُم مّنَ الطَّيّبات ذلكُمُ اللَّهُ ربُّكُمْ فتبارَكَ اللَّهُ ربُّ الْعالمينَ ﴾[١] .

٨ ـ قوله تعالى : ﴿ والأَرْض مددْناها وأَلْقينا فيها رواسي وأَنبتْنا فيها من كُلِّ زوْجٍ بهيجٍ ۝ تبْصرةً وذكْرىٰ لكُلِّ عبْدٍ مُّنيبٍ ﴾[٢] .

وتتعلق بتهيئة الأرض للحياة أمور أخرى تصلح بها حياة الإنسان، وهي :

(أ) الجبال :

لقد أنعم الله عز وجل على الناس فيما مكن لهم من أنه جعل الجبال رواسي وأوتادًا . فهي ثابتة مستقرة على الأرض .

وإذا تدبرنا القرآن الكريم نجد في آياته المتعددة التي تتحدث عن الجبال ودورها، ثلاث كلمات تحدد دور الجبال ووظائفها، وهذه الكلمات : رواسي، أن تميد، أوتادًا .

يقول الراغب في شرح هذه الكلمات : «رسا، يقال : رسا الشيء يرسو : ثبت، قال تعالى : ﴿ رواسي شامخاتٍ ﴾[٣] أي : جبالاً ثابتات . ﴿ والْجبال أرْساها ﴾[٤] ، وذلك إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ والْجبال أوْتادًا ﴾[٥]»[٦] .

ويقول في «ميد» : «الميد : اضطراب الشيء العظيم كاضطراب الأرض،

(١) سورة غافر : ٦٤ .

(٢) سورة ق : ٧ـ٨ .

(٣) سورة المرسلات : ٢٧ .

(٤) سورة النازعات : ٣٢ .

(٥) سورة النبأ : ٧ .

(٦) المفردات ص : ١٩٦ .

قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً ﴾[١]»[٢] .

فدور الجبال يبرز في ترسية الأرض وتثبيتها من الميدَان وهو الاضطراب ، فهي كالأوتاد التي تمسك الخيمة من الاضطراب والسقوط . ويفسر العلم الحديث هذا الدور فيقول : تقرر الحقيقة العلمية القاطعة أن توزيع الجبال على الكرة الأرضية إنما قصد به حفظها من أن تميد إلى الشمس أو تحيد عنها ، وأنها فعلاً السبب الأول والرئيسي لحفظ توازن الأرض ، فكأن الجبال هي أوتاد للأرض تحفظها في مكانها وتحفظ عليها حركتها»[٣] .

وقد سجل القرآن الكريم دور الجبال في حفظ توازن الأرض ، وترسيتها في آيات كثيرة ، منها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[٤] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٥] .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا[٦]

(١) سورة النحل : ١٥ .
(٢) المفردات ص : ٤٧٧ .
(٣) الآيات العلمية ، لعبد الرزاق نوفل ، ص : ٥٦ ـ ٥٧ ؛ وراجع : الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم ، لنذير حمدان ، ص : ٣٧٩ .
(٤) سورة الحجر : ١٩ .
(٥) سورة النحل : ١٥ .
(٦) «أكنان» جمع «كنّ» ، وهو ما يستكن به من البيوت المنحوتة في الجبال والغيران والكهوف . (راجع : تفسير الكشاف ٢/ ٤٢٢ ، وتفسير أبي السعود ٥/ ١٣٣) .

وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ (١) تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾(٢) .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾(٣) .

٥ ـ قوله تعالى : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾(٤) .

٦ ـ قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾(٥) .

٧ ـ قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾(٦) .

٨ ـ قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾(٧) .

---

(١) «سرابيل» جمع «سربال»، وهو القميص من أي جنس كان. (المفردات ٢٩٩، وراجع: تفسير الكشاف ٢/ ٤٢٣، وتفسير أبي السعود: ٥/ ١٣٣).

(٢) سورة النحل: ٨١.

(٣) سورة الأنبياء: ٣١.

(٤) سورة النمل: ٦١.

(٥) سورة لقمان: ١٠.

(٦) سورة فصلت: ١٠.

(٧) سورة ق: ٧.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴾[١].

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[٢].

هذه الحقيقة التي ذكرها القرآن الكريم أدركها علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) في العصر الحديث، ولنسمع ما يقوله أهل الاختصاص في هذا الشأن:

«لو كانت الأرض بحجمها الحالي مكونة من الماء لبلغ وزنها خمس ما هي عليه، ولما أمكنها حفظ نسبة بعدها عن الشمس، بل لانجذبت إليها، ولو كانت مكونة كلها من اليابس لبلغت ضعف ما هي عليه، ولبعدت عن الشمس البعد الذي لا تتحقق معه الحياة»[٣].

(ب) الرياح وأهميتها:

ومن صور تمكين الله عز وجل للإنسان في الحياة الدنيا أن يرسل هذه الرياح بشراً بين يدي رحمته. وأنها آثار الربوبية في الكون؛ آثار الفاعلية والسلطان والتدبير والتقدير.

وكلها من صنع الله، الذي لا ينبغي أن يكون للناس رب سواه. وهو الخالق الرازق بهذه الأسباب التي ينشئها برحمته للعباد.

من خلال بيان القرآن الكريم للرياح، تتضح لنا أهميتها في أمور، وهي:

---

(١) سورة المرسلات: ٢٧.

(٢) سورة النبأ: ٦ ـ ٧.

(٣) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، للدكتور مصطفى مسلم، ص: ١٨١.

(١) لواقح :

قال تعالى : ﴿ **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** ﴾[١] .

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ** ﴾ : «أي : تلقح السحاب فتدر ماءً ، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها . وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج ؛ بخلاف الريح العقيم ، فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج ؛ لأنه لا يكون إلا بين شيئين فصاعداً»[٢] .

قال ابن مسعود في تفسير هذه الآية : «يبعث الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء وتمجه في السحاب ، ثم إنه يعصر السحاب ويدره كما تدر اللقحة ، فهذا هو تفسير إلقاحها للسحاب»[٣] .

وقال المراغي في تفسير هذه الآية : «أي إن من فضله على عباده وإحسانه إليهم أن أرسل إليهم الرياح لواقح ، ويكون ذلك على ضروب :

١ ـ أن يرسلها حاملات للسحاب ، فتلقّح بها الأشجار بما تنزل عليها من الأمطار ، فتغيرها من حال إلى حال ، فتعطيها حياة جديدة ؛ إذ تزدهر أزهارها ، وتثمر أغصانها ، بعد أن كانت قد ذبلت وصوّحت[٤] ، وأصبحت في مرأى العين كأنها ميتة لا حياة فيها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ**

---

(١) سورة الحجر : ٢٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٤ .

(٣) التفسير الكبير ١٩/ ١٧٥ ، وانظر : الدر المنثور ٤/ ١٧٩ .

(٤) ذبلت : ذويت ويبست . (القاموس المحيط ٣/ ٣٨٩) ، وصوّح : تم يبسه . (لسان العرب : ٢/ ٥١٩).

الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾[١] .

٢ ـ أن يرسلها ناقلة لقاح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث لتخرج الثمر والفواكه للناس .

٣ ـ أن يرسلها لتزيل عن الأشجار ما علق بها من الغبار ، لينفذ الغذاء إلى مسامّها[٢] ، فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع كرياضة الحيوان»[٣] .

مما سبق من أقوال المفسرين في «لواقح» دلالة واضحة على توحيد الله ، وقدرته ورحمته بعباده ، حيث مكّن لهم في الحياة الدنيا برعاية حاجاتهم وضروراتهم فيها .

(٢) إثارة السحاب :

قال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ** ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾[٥] .

قال ابن كثير : «يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء ،

---

(١) سورة الأعراف : ٥٧ .

(٢) المسام : الثقب . (لسان العرب ١٢/ ٣٠٣) .

(٣) تفسير المراغي ٥/ ١٧ ـ ١٨ .

(٤) سورة فاطر : ٩ .

(٥) سورة الروم : ٤٨ .

فقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا** ﴾ ، إما من البحر ، كما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله عز وجل ﴿ **فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾ ، أي : يمده فيكثره وينميه ويجعل من القليل كثيراً ، ينشئ سحابة ترى في رأي العين مثل الترس[1] ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالاً مملوءة ، كما قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ** ﴾[2]»[3] .

وقال ابن القيم : « . . . ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض كيف ينشئه سبحانه بالرياح فتثيره كسفًا ، ثم يؤلف بينه ويضم بعضه إلى بعض ، ثم تلقحه الريح وهي التي سماها سبحانه لواقح ، ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه ، فإذا علاها واستوى عليها أهراق ماءه عليها ، فيرسل سبحانه الرياح وهو في الجو فتذروه وتفرقه ، لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته ، حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه ، أقلع عنها وفارقها فهي روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح»[4] .

إن في قوله تعالى عن الرياح : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا** ﴾ لمعجزة من معجزات القرآن . فلو أن إنسانًا استطاع أن يرى الرياح وهي تثير ذرات البخار ، ولو استطاع أن يرى ذرات البخار أول أخذ الرياح لها ، لما رأى أشبه منها بذرات الغبار وهي تثيرها الرياح ، فاستعمال لفظ «تثير» في هذا

---

(١) التُرُس : خشبة توضع خلف الباب يُضبَّب بها السرير . (لسان العرب ٦/ ٣٢) .

(٢) سورة الأعراف : ٥٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٤ .

(٤) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٠١ـ٢٠٢ .

المقام معجزة لمن تأمل[١] .

إن الحقائق التي ذكرتها آيات القرآن الكريم عامة وما يتعلق منها بتأثير الرياح في إنشاء السحب وتلقيحها وتشكيلها ، ثم نزول المطر أو البرد منها ، هذه الحقائق من أعجب الأمور وأدقها التي توصل إليها العلم الحديث ، فلو لم يكن في القرآن الكريم إلا هذه الحقائق لكانت كافية في تعريفنا بأن منزل القرآن هو خالق السماوات والأرض ومصرف الرياح ومنزل الماء من السماء يحيي به الأرض بعد موتها[٢] .

(٣) جريان الفلك :

قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[٣] .

ومن دلالات بديع قدرته إرسال الرياح مبشرات بالمطر ، وليذيقكم من الغيث والخصب ، فيحيي به العباد والبلاد ، ولتجري الفلك في البحر عند هبوبها[٤] ، ولتبتغوا الرزق بالتجارة التي تحملها السفن ، والمعايش والسير من إقليم إلى إقليم وقطر إلى قطر ، ولعلكم تشكرون الله على ما امتن به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة ، فتفردون الله بالعبادة وتستكثرون من الطاعة[٥] .

قال سيد قطب في ظلال قوله تعالى : ﴿ **وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ** ﴾ : «سواء

(١) الأساس في التفسير ٨/ ٤٢٩١ .

(٢) مباحث في إعجاز القرآن ص : ١٨٧ .

(٣) سورة الروم : ٤٦ .

(٤) هبت الريح : ثارت وهاجت . (لسان العرب ١/ ٧٧٨) .

(٥) انظر : تفسير فتح القدير ٤/ ٢٩٩ ، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٣ .

بدفع الرياح لها ؛ أو بتكوين الأنهار من الأمطار فتجري السفن فيها ، وهي تجري - مع هذا - بأمر الله. ووفق سنته التي فطر عليها الكون ؛ وتقديره الذي أودع كل شيء خاصيته ووظيفته ، وجعل من شأن هذا أن تخف الفلك على سطح الماء فتسير ، وأن تدفعها الرياح فتجري مع التيار وضد التيار . وكل شيء عنده بمقدار . . . »[١] .

وهكذا تتجلى رحمة الله بعباده في إرسال الرياح وما فيها من منافع لهم فيها ينزل المطر الذي هو مصدر الرزق ، وسبب حياة كل حي في هذه الأرض ، وفي ذلك عظيم الدلالة على قدرته تعالى على تمكينه للناس في الحياة الدنيا .

(ج) البحر :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٧٤ .
(٢) سورة البقرة : ١٦٤ .
(٣) سورة المائدة : ٩٦ .

تَشْكُرُونَ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[٢] .

في هذه الآيات الكريمة يتحدث سبحانه وتعالى عن نعم البحر على الإنسان، لكي يتحقق بها تمكينه عز وجل له في الحياة الدنيا. وهذه النعم تتجلى في صورها المختلفة :

(أ) نعمة تسيير الفلك فيه :

إن تسيير الفلك في البحر نعمة كبرى، فيها منافع عظيمة للعباد، وفقدانها يقلل سبل الحياة، ويحصل لهم ضيق في أمورهم التجارية، ولذلك يمتن الله على عباده بتسخيره البحر المتلاطم الأمواج وتذليله لعباده لركوبه وقضاء مصالحهم بحمله السفن التي تمخره[٣] ؛ لأنها تشق الرياح والماء بصدرها المسنم[٤] الذي أرشد الله عباده إلى صنعه وهداهم لذلك إرثًا عن أبيهم نوح - عليه السلام - الذي علمه الله صنع السفينة، ثم أخذها الناس عنه قرنًا بعد قرن، وجيلاً بعد جيل يسيرون من بلد لآخر، يجلبون البضائع والأرزاق، ويسيرون للسياحة ورؤية مظاهر الكون على اختلاف الأصقاع، مما يرشد إلى باهر القدرة، ووافر النعمة عليهم، إنه بهم رحيم؛ إذ سهل ما فيه الفوائد

---

(١) سورة النحل: ١٤ .

(٢) سورة فاطر: ١٢ .

(٣) مخرت السفينة: جرت تشق الماء مع صوت. (لسان العرب ٥/ ١٦٠).

(٤) المسنم: المرتفع. (القاموس المحيط ٤/ ١٣٥).

المرجوة، ومكّن لهم في هذه الحياة الدنيا .

وفي ذلك يقول الله تعالى في آيات كثيرة، منها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١) .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴾(٢) .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٣) .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾(٤) .

٥ ـ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي

---

(١) سورة البقرة : ١٦٤ .

(٢) سورة إبراهيم : ٣٢ .

(٣) سورة النحل : ١٤ .

(٤) سورة الإسراء : ٦٦ .

الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

٦ ـ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2] .

٧ ـ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[3] .

٨ ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[4] .

٩ ـ قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾[5] .

١٠ ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾[6] .

١١ ـ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾[7] .

---

(١) سورة الحج : ٦٥ .
(٢) سورة الروم : ٤٦ .
(٣) سورة لقمان : ٣١ .
(٤) سورة فاطر : ١٢ .
(٥) سورة يس : ٤١ .
(٦) سورة غافر : ٨٠ .
(٧) سورة الزخرف : ١٢ .

١٢ ـ قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[(١)] .

(ب) نعمة استخراج اللحم الطري :

قال تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا[(٣)] وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[(٤)] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[(٥)] .

قال ابن كثير : «هذه نعمة عظيمة من الله حيث جعل البحر مستودعًا لا ينضب لمادة غذائية تعتبر شيئًا أساسيًا في حياة معظم الشعوب ، يتناولونها من البحر دون أن يخسروا مالاً وجهدًا في تربيتها ، ولولا ذلك لضاقت معيشة أكثر

---

(١) سورة الجاثية : ١٢ .

(٢) سورة المائدة : ٩٦ .

(٣) لحمًا طريًا : غضًا جديدًا من الطراء والطراوة . (المفردات في غريب القرآن ص : ٣٠٣) .

(٤) سورة النحل : ١٤ .

(٥) سورة فاطر : ١٢ .

الناس؛ حيث إن عليها اعتمادهم في الغذاء، وبها يتجرون ويتكسبون، ومن رحمة الله إباحتها حية وميتة في الحل والإحرام»(١) .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال في ماء البحر: «**هو الطهور ماؤه والحلال ميتته**»(٢) .

قال الشيخ المراغي: «وفي وصفه بالطراوة تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله، لأنه يسرع إليه الفساد والتغير، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء، فسبحان الخبير بخلقه، ومعرفة ما يضر استعماله وما ينفع، وفيه أيضًا إيماء إلى كمال قدرته تعالى في خلقه الحلو الطري في الماء المر الذي لا يشرب»(٣) .

جاء في كتاب «الماء والحياة بين العلم والقرآن»: «إذا كانت ضروب التقدم في صنع الأغذية كيميائيًا تتيح التطلع إلى ابتكار صناعات غذائية جديدة كل الجدة، فإنه من المؤكد أن استغلال موارد [المحيطات] في العالم يوفر إمكانيات مباشرة للتطور في هذا المجال، فسوف يكون البحر في المستقبل المرتقب موردًا للأغذية الغنية بالبروتينات.

ومن رأي البروفيسور [جون ألا جولاند] ـ رئيس قسم تقويم الثروة السمكية التابع لمنظمة الأغذية والزراعة العالمية ـ: «إن المحيطات تنتج في كل سنة ١٣٠ ألف مليون طن من النباتات التي أهمل الإنسان ـ حتى الآن ـ

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٨٨، وانظر: عقيدة التوحيد ص: ٢٤١ .
(٢) مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٣٧، ٣٦١ .
(٣) تفسير المراغي ٥/ ٦١، وراجع معنى هذا النص في تفسير فتح القدير ٣/ ١٥٣، وتفسير أبي السعود ٥/ ١٠٣ .

استخدامها في الطعام .

ورغم أن المحيطات تنتج حوالي ٢٣ ألف مليون طن من الأسماك والقشريات والرخويات كل عام، فإن الإنسان مازال لا يقوى على استخراج ما يقرب من ٦٠ مليون طن فقط منها سنويًا .

وتعتبر الأسماك بحق أساس الثروة المائية، وأولى الكائنات المائية بالدراسة والتعمق . فهي عند البعض غذاء، وهي عند آخرين مورد هام من موارد البلاد الاقتصادية . وعلى وجه العموم فإن بلاد نصف الكرة الجنوبية تكون المصايد فيها أقل أهمية من البلاد في النصف الشمالي . والأسماك هي أحد المنابع الرئيسية للبروتينات الغذائية» . اهـ[1] .

(ج) نعمة استخراج الحلي :

قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾[4] .

---

(١) الماء والحياة بين العلم والقرآن، للدكتور عبد العليم خضر، ص : ٩٠، نقلاً عن ويلبرت ماكلويد تشابمان ـ مصايد أسماك العالم ـ ترجمة ميشيل تكلا ص : ٤٦٠ .

(٢) سورة النحل : ١٤ .

(٣) سورة فاطر : ١٢ .

(٤) سورة الرحمن : ٢٢ ـ ٢٣ .

قال ابن منظور: «اللُّؤْلُؤَة: الدُرّة، والجمع اللُّؤلؤ واللآلِئُ»[١].

وقال الراغب الأصفهاني: «والمرجان: صغار اللؤلؤ»[٢]. وقيل: كباره وجيده[٣].

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية: «وإنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب، لأنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما، كذا قال الزجاج وغيره. وقال أبو علي الفارسي: هو من باب حذف المضاف: أي من أحدهما، كقوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٤]. وقال الأخفش: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب، وقيل: هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ، ومن الآخر المرجان، وقيل: هما بحر السماء وبحر الأرض، فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤًا فصار خارجًا منهما»[٥].

قلت: الجدير بالذكر في هذا الصدد - والله أعلم - ليس اختلاف العلماء في خروج اللؤلؤ والمرجان، هل يخرج ذلك من المالح أو من العذب؟ وإنما إبراز نعمة الله على عباده، حيث يمتن الله عليهم بهما، ويمكّن لهم في هذه الحياة الدنيا لعلهم يشكرون.

(د) نعمة عدم اختلاص الماءين المالح والعذب:

قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ**

---

(١) لسان العرب ١/ ١٥٠.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص: ٤٦٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٣٩.

(٤) سورة الزخرف: ٣١.

(٥) تفسير فتح القدير ٥/ ١٣٤، وإذا أردت التوسع في هذه القضية فارجع إلى التفسير الكبير ٢٩/ ١٠١.

وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان (١٩) بينهما برزخ لا يبغيان (٢٠) فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾[٣] .

والبحران المشار إليهما هما البحر المالح والبحر العذب ، ويشمل الأول البحار والمحيطات ، ويشمل الثاني الأنهار . ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان ، ولكنهما لا يبغيان ، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر ، ووظيفته المقسومة ، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله .

وتقسيم الماء على هذا النحو في الكرة الأرضية لم يجئ مصادفة ولا جزافًا . فهو مقدر تقديراً عجيبًا . الماء الملح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ، ويشغل اليابس الربع . وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائمًا صالحًا للحياة[٤] .

---

(١) سورة الفرقان : ٥٣ .

(٢) سورة النمل : ٦١ .

(٣) سورة الرحمن : ١٩ - ٢١ .

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٥٢ . وللتوسع في هذا الموضوع فليرجع إلى كتاب : مباحث في إعجاز القرآن ص : ١٨٤ - ١٨٦ . وأهم ما في الموضوع أن العلم الحديث قد توصل إلى صور شتى وحالات متعددة لا يتجاوز فيها ماء أحد البحرين على الآخر ولا يتعدى الحاجز الموضوع للفصل بينهما . فمن هذه الصور :

١ - إن مستوى سطح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر ، ومن ثم لا يبغي البحر على الأنهار التي تصب فيه ، ويغير مجاريها بمائه الملح فيحولها عن وظيفتها ويبغي على =

الثاني : الشمس والقمر :

ومن نعم الله عز وجل على الناس نعمة الشمس والقمر وما فيها من مصالح وتمكين لهم في الحياة الدنيا ، قال تعالى : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾(٣) .

في هذه الآيات الكريمة يتحدث سبحانه وتعالى عن نعمة الشمس والقمر وما فيهما من مصالح لعباده مبينًا أنه تعالى وحده هو الذي جعل شعاع الشمس الصادر عنها ضياءً ، وجعل شعاع القمر نورًا ، ففاوت بينهما حيث جعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ، فبالشمس تعرف الأيام والشهور والأعوام ، ولولا ذلك لفسدت الحياة على الأرض ، ولما عاشت

= طبيعتها ، وبينهما دائمًا هذا البرزخ من صنع الله فلا يبغيان .

٢ـ إن هنالك حاجزًا بين البحار أنفسها يمكن تمييز خاصيات ماء كل بحر على جانبي الحاجز ، وكذلك ما فيها من معادن وكائنات حية .

٣ـ إن هنالك حاجزًا من نوع آخر أيضًا وفي داخل المحيطات ؛ إذ ثبت أن أعظم الأنهار على الإطلاق موجودة داخل البحار . (نقلاً عن كتاب «كل شيء عن البحر» ترجمة محمود محمد رمضان ص : ٤١) .

(١) سورة الأنعام : ٩٦ .

(٢) سورة يونس : ٥ .

(٣) سورة الفرقان : ٤٥ـ٤٦ .

الكائنات جميعها، فإن أحداً لا ينكر ما للشمس من أهمية كبيرة في حياة النبات والحيوان فضلاً عن الإنسان.

ويتعلق بنعمة الشمس نعمة الظل، وقد نبه سبحانه وتعالى عباده لهذه النعمة لما فيها من الفوائد للكائنات جميعها مما يستوجب على الناس الشكر للمنعم، لأنه لو شاء سكون الظل وعدم تحوله لفعل، ولما استطاع أحد تحويله.

كما نبه على ما تتم به فائدة الظل وهو قبضه تدريجيًا، ولولا ذلك لم ينتفع به أهله، لأن في مده وتحوله من مكان إلى مكان، ثم قبضه شيئًا فشيئًا من المصالح والمنافع مما لا يحصى، وبسكونه دائمًا أو قبضه دفعة واحدة تتعطل المرافق والمصالح[1].

الشمس والقمر صفتهما ووظيفتهما :

ـ الحرارة والضياء :

الشمس جرم فضائي كروي ناري وهاج، تضيء عليها نهاراً بنورها، وليلاً بواسطة القمر. قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا** ﴾[2].

ويقال لنورها: ضياء؛ لأنه منبعث بحرارة شديدة بسبب اشتعالها، بخلاف القمر، فإن جرمه بارد، لا حرارة فيه، ونوره من الشمس[3].

---

(١) أخذت هذا المعنى من: تفسير الطبري ١١/ ١٤٠، التفسير القيم ٣٩١، تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥١، فتح القدير ٤/ ٧٩ـ ٨٠.

(٢) سورة النبأ: ١٣.

(٣) معالم القرآن ص: ٧٢.

قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً** ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا** ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا** ﴾[٣].

إن الآيات الكريمة تفرق بدقة متناهية بين صفة كل من الشمس والقمر، ووظيفة كل منهما. فالشمس سراج وهاج يعطي الضوء من ذاته . . . والقمر كالمرآة التي تعكس الضوء الساقط على سطحها نوراً يبدد به الظلام.

يقول العلم الحديث: «إن الطاقة الحرارية في الشعاع الشمسي هي النقطة الأساسية التي جعلها الله تعالى مبعث الحياة العامة، ومثار النمو والنشاط والترعرع. ولولاها لما كان ذلك، ولعمت البرودة، وجمدت البحار والمحيطات وانتفت الحياة بالكلية، ولما كان صيف ولا خريف، ولا شتاء ولا ربيع.

تكوين السحب:

فبالشعاع الشمسي وحرارته تتبخر الأرض، وكثير من مياه العيون والأنهار والبحار والمحيطات وتزول العفونات[٤]، وترتفع تلك الأبخرة في الفضاء لخفتها، فتشكل السحب والغيوم الكثيرة، وتسوقها الرياح في الطبق

---

(١) سورة يونس: ٥.
(٢) سورة الفرقان: ٦١.
(٣) سورة نوح: ١٦.
(٤) العفونة: الشيء الذي فيه نُدُوَّةٌ ويحبس في موضع مغموم فيعفَن ويفسد. (لسان العرب ١٣/ ٢٨٨).

الهوائي إلى كثير من جهات الأرض ونواحيها، لسقيها حسب مشيئة الله تعالى، لتنبت الأرض ما شاء الله من نبات شتى، ينعم بها الإنسان والحيوان وتزدهر بها الحياة[١] .

قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[٢] .

إن الشمس تبعد عن الأرض حوالي (٩٣) مليون ميل، ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاحترقت الأرض وانصهرت أو استحالت بخاراً يتصاعد إلى الفضاء. ولو كانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ما على الأرض من حياة، إذ الذي يصل إلينا من حرارة الشمس لا يتجاوز جزءاً من مليون جزء من حرارتها. وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا، ولو كانت الشعرى بضخامتها وبإشعاعها هي التي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية وذهبت بدداً.

وكذلك القمر في حجمه وبعده عن الأرض، فلو كان أكبر من هذا لكان المد الذي يحدثه في بحار الأرض كافياً لغمرها بطوفان يعم كل ما عليها، وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسبانه الذي لا يخطئ مقدار شعرة.

وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في وزن وضعها وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب، والذي تجري فيه مجموعتنا

---

(١) معالم القرآن ص: ٧٤.
(٢) سورة الأعراف: ٥٧.

الشمسية كلها بسرعة ألف ميل في اتجاه واحد نحو (برج الجبار)[١] ، ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين[٢] .

قال تعالى: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[٣] .

فسبحان الخالق العظيم، والمدبر الحكيم الذي مكّن للإنسان بتلك النعمة العظيمة في الحياة الدنيا.

وبهذا يتبين لنا أن الشمس والقمر ضرورتان لحياة الإنسان، وأن حياته واستمرارها ترتبط بوجودهما.

الثالث: الأنعام:

قال تعالى: ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤] .

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ

---

(١) الجبار أو الجوزاء كوكبة نجوم جنوبية الموقع تمتد إلى ما فوق خط الاستواء بالقرب من برج الثور، عدد نجومها ٧٨، وهي على صورة رجل قائم في ناحية الجنوب بيده عصا وعلى وسطه سيف. والعرب تسمي الكواكب الثلاثة التي على الوجه «الهنعة». والنيّر الأعظم الذي على منكبه اليمنى «منكب الجوزاء». والثلاثة المنحدرة المتقاربة «سيف الجبار». والنير العظيم الذي على قدمه اليسرى «رجل الجبار». والكوكبان اللذان يتقدمان الرجل «الناعقان». وتسمى التسعة المقسومة التي على الكم «تاج الجوزاء». وتحت منطقة الجوزاء ينتشر سديم الجوزاء. (انظر: صور الكواكب الثمانية والأربعين، لأبي الحسين عبد الرحمن الرازي ص: ٢٦٤-٢٦٨، والموسوعة في علوم الطبيعة، لإدوار غالب ١/ ٣٥٠).

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٤٨، وانظر: لفتات علمية من القرآن، ليعقوب صروف: ص: ٣٥.

(٣) سورة الرحمن: ٥.

(٤) سورة النحل: ٥-٧.

فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾[(١)] .

يقرر القرآن الكريم حقائق عن الأنعام لا تقل في الأهمية والدقة عن الحقائق التي يقررها في كل جانب من جوانب الكون والحياة، فهو يلفت النظر تارة إلى المنافع التي يحصل عليها الإنسان من تسخير هذه الدواب ركوبًا وحملاً ولباسًا وطعامًا وشرابًا وزينة، فهي مسخرة للإنسان مذللة له منقادة.

إن ظاهرة انقياد الأنعام للإنسان ظاهرة تستدعي شكر المنعم الذي جعل فيها هذه الطبائع، ولولا وجود هذا الطبع فيها لما استطاع الإنسان إلى التغلب عليها سبيلاً[(٢)] .

قال تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾**[(٣)] .

يقول الإمام الغزالي: «اعلم - وفقك الله وإيانا - أن الله خلق البهائم لمنافع العباد وامتنانًا عليهم . . . فخلقها سميعة بصيرة ليبلغ الإنسان حاجته، لأنها لو كانت عمياء صماء لم ينفع بها الإنسان ولا وصل بها إلى شيء من مآربه. ثم منعت العقل والذهن حكمة من الله، لتذل للإنسان فلا تمتنع عليه إذا أكدّها عند حاجته إلى إكدادها في الطحن وحمل الأثقال إلى غير ذلك[(٤)] .

---

(١) سورة النحل: ٦٦ .

(٢) مباحث في إعجاز القرآن ص: ١٩١ .

(٣) سورة يس: ٧١-٧٣.

(٤) الحكمة في مخلوقات الله ص: ١١٢ ، وانظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٢٣٤-٢٥١ .

وقد فصل القرآن الكريم هذه النعم والمنافع في آيات كثيرة، منها:

أ ـ نعمة التذليل :

قال تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ**﴾[١] .

النعمة الأولى في الأنعام هي نعة تذليلها، لأن الله وحده هو الذي جعلها مقهورة ذليلة لا تمتنع على صاحبها عند الحاجة إليها في تسييرها وتوجيهها للرعي أو للطريق أو للحمل أو للوقوف، ولو جاء طفل إلى بعير لأناخه وإذا شاء أقامه ومشى بمشيه القافلة كلها. فهذا التذليل ضروري لتمام الانتفاع بالأنعام، وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئًا، وما يملكون أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له. وما يملكون أن يذللوا ذبابة لم يركب الله في خصائصها أن تكون ذلولاً لهم[٢] .

ب ـ نعمة الركوب والحمل :

وعبرة أخرى يلفت القرآن الكريم الأنظار إليها في الأنعام وهي نعمة الركوب والحمل، فهي تحمل أمتعة الناس وأحمالهم من بلد إلى آخر لم يكونوا بالغيه بدونها إلا بكلفة ومشقة وجهد شديد، فيستطيع الإنسان السير في المصالح البعيدة كالحج والغزو والتجارة بلا مشقة. ويربط السياق القرآني بين حمل الإنسان على الأنعام وحمله على الفلك، بوصفهما مسخرين بنظام الله الكوني.

---

(١) سورة يس: ٧١ـ٧٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩٥، في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٦، عقيدة التوحيد ٢٤٨.

وفي ذلك يقول الله تعالى في آيات كثيرة، منها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾[٢] .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾[٣] .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[٤] .

٥ ـ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾[٥] .

ج ـ نعمة الجلد وما فيه من صوف ووبر وشعر :

قال تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ[٦] . . . .

---

(١) سورة النحل : ٧ـ٨ .

(٢) سورة المؤمنون : ٢١ـ٢٢ .

(٣) سورة يس : ٧٢ .

(٤) سورة غافر : ٧٩ .

(٥) سورة الزخرف : ١٢ـ١٤ .

(٦) الدفء خلاف البرد، وهو ما يدفأ به فيقي من البرد . (المفردات ص : ١٧٠ ، وتفسير أبي السعود ٥/ ٩٦، ولسان العرب ١/ ٧٥) .

وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾**[٢] .

فهذه نعمة عظيمة أن نتخذ من جلود الأنعام بيوتًا خفيفة الحمل . ويريد الإسلام من البيت مكانًا للسكينة النفسية والاطمئنان الشعوري . هكذا يريده مريحًا تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة ، أو باطمئنان من فيه بعضهم لبعض ، ويسكن مَنْ فيه كل إلى الآخر ، فليس البيت مكانًا للنزاع والشقاق والخصام ، إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام .

وكذلك أن نتخذ من أصواف الضأن ، وأوبار الإبل ، وأشعار المعز أثاثًا لبيوتنا ومتاعًا من مال وتجارة إلى أجل مسمى .

فهذا كله يستعرض من نعمة الأنعام ما يلبي الضرورات وما يلبي الأشواق ، فيذكر المتاع ، إلى جانب الأثاث ، والمتاع ولو أنه يطلق على ما في الأرحال من فرش وأغطية وأدوات ، إلا أنه يشي بالتمتع والارتياح[٣] .

د ـ نعمة اللبن :

قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ**

---

(١) سورة النحل : ٥ .

(٢) سورة النحل : ٨٠ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٢/ ٥٠١ ، وفي ظلال القرآن ٤/ ٢١٨٧ ، وتفسير المراغي ٥/ ١٢١ ، وتفسير فتح القدير ٣/ ١٨٤ .

فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾[١] .

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾[٣] .

اللبن نعمة لا توصف على هذه البشرية، لأن مصالح العباد كلهم قائمة عليه في معظم وجباتهم الغذائية وخاصة الصغار.

وإنها معجزة زائدة على الإعجاز العام الموجود في هذا القرآن، هذه المعجزة تتمثل في كون القرآن تحدث عن موضوع لم يعرف بمنتهى الدقة العلمية على ما حدّث به القرآن إلا بعد قرون، فالحديث عنه في القرآن بهذه الدقة يدل على أن هذا القرآن من عند الله، فلنر الموضوع:

إن آلية تشكل الحليب كما يتحدث عنه العلم الحديث على الشكل التالي: بعد أن يتمثل الطعام، ويصل إلى الأمعاء تمتص الزغيبات المعوية ما فيه من غذاء، مبقية الفضلات وهي الفرث في الأمعاء، فيلقى الغذاء في الدم، وهذه أول تصفية، ثم يمر الدم وهو يحمل الغذاء على الغدد اللبنية فتفرز هذه الغدد الحليب من الدم ليذهب إلى الثدي، وتلك التصفية الثانية، وهكذا من بين فرث ودم يخرج الحليب، هذا الذي ذكره القرآن قبل أن يصل العلم إلى مثل هذه الدقة في تحديد آلية الوصول إلى الحليب يدل بما لا يقبل جدلاً على أن منزل هذا القرآن هو العليم بكل شيء[٤] .

---

(١) سورة النحل: ٦٦.

(٢) سورة المؤمنون: ٢١.

(٣) سورة يس: ٧٣.

(٤) الأساس في التفسير ٦/ ٢٩٦٥، وتفسير فتح القدير ٣/ ١٧٤، وتفسير المراغي ٥/ ١٠٣.

هـ ـ نعمة اللحم :

هذه النعمة من النعم التي في الأنعام، فرغم تعدد منافع الأنعام في حياتها فهي كذلك يؤكل لحمها، وهو أعلى أنواع الأطعمة، وعليه اعتماد كبير في حياة الناس، بل إن شعوبًا كثيرة تعيش على الرعي والتجارة بالأنعام اللاحمة.

وقد أحل الله للإنسان أكل الأنعام، وهي الإبل والبقر والضأن والمعز، ولم يحل له تعذيبها ولا التمثيل بها، لأن الأكل يحقق فائدة ضرورية في نظام الحياة. فأما التعذيب والتمثيل فهما من قسوة القلب، وفساد الفطرة، وليس وراءهما فائدة للأحياء[١].

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه النعمة في آيات كثيرة، منها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[٢].

٢ ـ قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٣].

---

(١) عقيدة التوحيد ص : ٢٥١، في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٦٢.

(٢) سورة المائدة : ١.

(٣) سورة الأنعام : ١٤٢ـ ١٤٤.

٣ـ قوله تعالى : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[١] .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾[٢] .

٥ ـ قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾[٣] .

٦ ـ قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[٤] .

٧ـ قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[٥] .

إضافة إلى تلك النعم الكثيرة التي في الأنعام، فهناك نعمة أخرى في الأنعام وهي نعمة الزينة والجمال، حيث خلق الله عز وجل الأنعام زينة للإنسان، فهي زينة مستحبة مستلذة، وليست مستقذرة ولا كريهة. والتعبير القرآني لا يدعو إلى استقذارها وكراهيتها، إنما يدعو فقط إلى معرفة طبيعتها وبواعثها، ووصفها في مكانها لا تتعداه، ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى. والتطلع إلى آفاق أخرى بعد أخذ الضروري من تلك الزينة التي

---

(١) سورة النحل : ٥ .

(٢) سورة الحج : ٢٨ .

(٣) سورة الحج : ٣٠ .

(٤) سورة المؤمنون: ٢١ .

(٥) سورة غافر : ٧٩ .

يراعيها الإسلام للفطرة البشرية وقبولها بواقعها، في غير استغراق ولا إغراق.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[٢].

وقدمت الإراحة وهي مؤخرة في الواقع على السرح وهو مقدم في الواقع؛ لأن الأنعام في وقت الإراحة وهي ردها عشيًا إلى المراح تكون أجمل وأحسن؛ لأنها تقبل ملأى البطون، حافلة الضروع، متهادية في مشيتها، يتبع بعضها بعضًا، بخلاف وقت السرح وهو إخراجها إلى المراعي، فإن كل هذه الأمور تكون ضد ذلك. وخصص هذين الوقتين بالذكر، لأن الأفنية تتزين بها ويتجاوب ثُغاؤها ورغاؤها حين الذهاب والإياب، فيعظم أربابها في أعين الناظرين إليها[٣].

وهذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة. فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة، وليست النعمة هي مجرد الضرورات من طعام وشراب وركوب، بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات، تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان

---

(١) سورة آل عمران: ١٤.

(٢) سورة النحل: ٦.

(٣) تفسير الرازي المسمى بـ«أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل» ص: ٢٥٥، تفسير أبي السعود ٥/ ٩٧.

وحاجة الحيوان[١] .

وبهذا كله يتضح لنا تمكين الله عز وجل للإنسان في الحياة الدنيا، وذلك بأن جعل للإنسان فيها وطنًا يتبوؤها ويستقر فيها، وجعل له فيها معايش يعيش بها أيام حياته.

وهذه المعيشة تشتمل على ما يحصل بخلق الله ابتداءً كالأشياء التي ذكرناها فيما سبق من ضمن النعم التي أنعم الله عز وجل على الإنسان بها، كما أنها تشتمل على ما يحدث بالاكتساب وكلاهما إنما يحصل بفضل الله وإقداره وتمكينه، فيكون الكل إنعامًا من الله، ذلك مما يوجب طاعته ترجمة حية لدوره خليفة في الأرض.

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ** ﴾[٣] .

وقال تعالى: ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾[٤] .

وقال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا** ﴾[٥] .

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٦١ .
(٢) سورة الأعراف: ١٠ .
(٣) سورة الحجر: ٢٠ .
(٤) سورة الزخرف: ٣٢ .
(٥) سورة النبأ: ١٠-١١ .

وختامًا لهذا المبحث يحسن بنا أن ننظر للإنسان من حيث إن الله قد مكّن له في الحياة الدنيا بجملة اعتبارات ذات قيمة كبيرة، ومن أهمها :

١ ـ إن الإنسان سيد هذه الأرض، ومن أجله خلق كل شيء فيها، فهو إذن أعز وأكرم وأغلى من كل شيء مادي، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعًا، ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي، لا يجوز أن يعتدى على أي مقوم من مقومات إنسانيته الكريمة، ولا أن تهدر أية قيمة من قيمه لقاء تحقيق أي كسب مادي، أو إنتاج أي شيء مادي، أو تكثير أي عنصر مادي. فهذه الماديات كلها مخلوقة ـ أو مصنوعة ـ من أجله. من أجل تحقيق إنسانيته. من أجل تمكينه في الحياة الدنيا. فلا يجوز إذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الإنسانية، أو نقص مقوم من مقومات كرامته.

٢ ـ إن دور الإنسان في الأرض هو الدور الأول. فهو الذي يغير ويبدل في أشكالها وفي ارتباطاتها، وهو الذي يقود اتجاهاتها ورحلاتها. وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج، هي التي تقود الإنسان وراءها ذليلاً سلبيًا كما تصوره المذاهب المادية التي تحقر من دور الإنسان وتصغر، بقدر ما تعظم في دور الآلة وتكبر.

إن تمكين الله للإنسان في الحياة الدنيا يتعلق بارتباطات شيء مع الأرض والجبال والرياح والأمطار، ومع البحار والأنعام . . وكلها ملحوظ في تصميمها وهندستها تمكين للإنسان في الحياة الدنيا، وتمكين قيام هذا الإنسان بالخلافة، مما يدعو ذلك كله إلى شكر الله الوهاب المنان، وعدم اتباع خطوات الشيطان.

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾(٣) .

* * *

(١) سورة البقرة : ٢٩ .
(٢) سورة الأعراف : ١٠ .
(٣) سورة الأنعام : ١٤٢ .

المبحث الرابع
قيمة[١] الحياة الدنيا وما فيها

إن القيم لا تستقيم ما لم يكن مصدرها هو الكتاب الإلهي الجامع العام، فنحن في حاجة دائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة، ليظل كل واحد منا على يقين أن هواه لم يخدعه، ولم يضلله، كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه. وبذلك يظل قريبًا من الله، يهتدي بهديه، ويستضيء بالنور الذي أمده به في الحياة الدنيا.

وقد سمى الله عز وجل كتابه الذي هو مصدر القيم نوراً، تتجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة؛ ويبدو مفرق الطريق بين القيم الصحيحة والقيم الزائفة محدداً مرسومًا.. في داخل النفس وفي واقع الحياة سواء.. حيث تجد النفس من هذا النور ما ينير جوانبها أولاً؛ فترى كل شيء فيها ومن حولها واضحًا، حيث يتلاشى الغبش وينكشف؛ وحيث تبدو الحقيقة بسيطة كالبديهية، وحيث يعجب الإنسان من نفسه كيف كان لا يرى هذا الحق وهو بهذا الوضوح وبهذه البساطة؟.

وفي تسمية الله سبحانه كتابه نوراً آيات كثيرة، منها:

---

(١) والقيمة: واحدة القيم، وهي ثمن الشيء بالتقويم. تقول: تقاوموه فيما بينهم، وإذا انقاد الشيء واستمرت طريقته فقد استقام لوجهه. وما له قيمة: إذا لم يدم على شيء. (لسان العرب ١٢/ ٥٠٠). وقال الراغب: «وتقويم السلعة: بيان قيمتها». (المفردات في غريب القرآن ص: ٤١٨).

ـ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾[1] .

ـ قوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2] .

ـ قوله سبحانه : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[3] .

قيمة الحياة الدنيا وما فيها في ميزان الله :

إن القيم في ميزان الله ليست هي المال، وليست هي الجاه، وليست هي السلطان، كذلك ليست هي اللذائذ والمتاع في هذه الحياة الدنيا . . . إن هذه كلها قيم زائفة وقيم زائلة. والإسلام لا يحرم الطيب منها، ولكنه لا يجعل منها غاية لحياة الإنسان. فمن شاء أن يتمتع بها فليتمتع، ولكن ليذكر الله الذي أنعم بها، وليشكره على النعمة بالعمل الصالح، فالباقيات الصالحات خير وأبقى.

قال تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾[4] .

---

(١) سورة النساء : ١٧٤ .

(٢) سورة الأعراف : ١٥٧ .

(٣) سورة التغابن : ٨ .

(٤) سورة الكهف : ٤٦ .

وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[١].

«هذه هي القيمة المطلقة الأخيرة في ميزان الله للحياة الدنيا وللدار الآخرة.. وما يمكن أن يكون وزن ساعة من نهار، على هذا الكوكب الصغير، إلا على هذا النحو، حين توازن بذلك الأبد الأبيد في ذلك الملك العريض. وما يمكن أن تكون قيمة نشاط ساعة في هذه العبادة إلا لعبًا ولهوًا حين تقاس إلى الجد الرزين[٢] في ذلك العالم الآخر العظيم.

هذا تقييم مطلق.. ولكنه في التصور الإسلامي لا ينشئ إهمالاً للحياة الدنيا ولا سلبية فيها ولا انعزالاً عنها.. وليس ما وقع من هذا الإهمال والسلبية والانعزال ـ وبخاصة في بعض حركات التصوف الانعزالي ـ[٣] بنابع من التصور الإسلامي أصلاً. إنما هو عدوى من التصورات الكنسية الرهبانية، ومن التصورات الفارسية، ومن بعض التصورات الإشراقية الإغريقية المعروفة بعد انتقالها للمجتمع الإسلامي!

إنما أفادهم هذا التقييم الرباني للحياة الدنيا وللدار الآخرة، أنهم لم

---

(١) سورة الأنعام: ٣٢.

(٢) الرزين: الثقيل من كل شيء. (لسان العرب ١٣/ ١٧٩).

(٣) التصوف الانعزالي ليس زهدًا. فالزهد له مفهومه في الإسلام، وهو حال السلف الصالح. قال أحمد بن قدامة المقدسي: «اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوبًا فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوبًا فيه ولا مطلوبًا في نفسه لم يسم زاهدًا، كمن ترك التراب لا يسمى زهدًا، وكان بعض السلف يقول: الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن. (مختصر منهاج القاصدين ص: ٣٠٨ـ٣٠٩).

يصبحوا عبيداً للدنيا . لقد ركبوها ولم تركبهم! وعبدوها فذللوها لله ولسلطانه ولم تستعبدهم! ولقد قاموا بالخلافة فيها بكل ما تقتضيه الخلافة من تعمير وإصلاح، ولكنهم كانوا يبتغون في هذه الخلافة وجه الله، ويرجون الدار الآخرة. فسبقوا أهل الدنيا في الدنيا، ثم سبقوهم كذلك في الآخرة!»[١] .

وصف الحياة الدنيا في القرآن الكريم :

ولتكون الحياة الدنيا وما فيها واضحة لنا، فيحسن بنا أن نذكر الآيات القرآنية التي تتحدث بوضوح وجلاء عن أوصاف الحياة الدنيا، منها :

(١) اللهو واللعب :

قال تعالى : ﴿ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾[٤] .

هذه الآيات الكريمة توضح لنا بجلاء قيمة الحياة الدنيا بأنها لهو ولعب، بمعنى أن الله تعالى جعل أعمال الدنيا المحضة لعبًا ولهوًا واشتغالاً بما لا يعني،

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٧٢ .

(٢) سورة الأنعام : ٣٢ .

(٣) سورة العنكبوت : ٦٤ .

(٤) سورة الحديد : ٢٠ .

ولا يعقب منفعة دائمة، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة، أما الطاعة وكل ما يعين عليها فمن أمور الآخرة. واللعب عمل يشغل النفس ويفترها عما ينتفع به، واللهو صرفها عن الجد إلى الهزل.

فالحياة الدنيا دائرة بين عمل لا يفيد في العاقبة كلعب الأطفال، وعمل له فائدة عاجلة سلبية كفائدة اللهو وهو دفع الهموم والآلام، ومن ثم قال بعض الحكماء: إن جميع لذات الدنيا سلبية، إذ هي إزالة للآلام، فلذة الطعام في إزالة ألم الجوع، وبقدر هذا الألم تعظم اللذة في إزالته، ولذة شرب الماء هي إزالة العطش، وهكذا[1].

«وفي الآيات الكريمة تقديم اللعب على اللهو في الأكثر؛ وذلك لأن اللعب زمانه الصبا، واللهو زمانه الشباب، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب، يبينه ما ذكر في سورة الحديد: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ**﴾ كلعب الصبيان ﴿**وَلَهْوٌ**﴾ كلهو الشباب . . .»[2].

وفي الآيات دليل على أن ما سوى أعمال المتقين لعب ولهو، كما أن الحياة الدنيا لعب ولهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى. حين تعاش لذاتها مقطوعة عن منهج الله فيها. ذلك المنهج يجعلها مزرعة الآخرة، ويجعل إحسان الخلافة فيها هو الذي يستحق وراثة الدار الباقية.

(٢) الزينة:

الحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٣/ ١٢٦، وتفسير فتح القدير ٢/ ١١١، وتفسير المراغي ٣/ ١٠٧، المفردات ص: ٤٥٥، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٢/ ٣٩١.

(٢) البرهان في متشابه القرآن ص: ١٦٩.

الحس أمرًا عظيمًا هائلاً . ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئًا زهيدًا تافهًا . وهي هنا في هذا التصوير تبدو زينة بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة وزينتها .

فالحياة الدنيا وما فيها من المال والبنين والنساء والذهب والفضة والأنعام وغيرها إنما هي زينة وليست قيمة ، وإنها وسائل لا غايات .

أما الباقيات الصالحات فإنها قيمة وغاية وحقائق ، فهي التي توزن بها الرجال والأعمال وبها تدرك الغايات والثوابت ، وهي الذخر والكنز الذي يبقى مع صاحبه إلى دار القرار .

وفي ذلك يقول الله تعالى في آيات كثيرة ، منها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾(١) .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾(٢) .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾(٣) .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ**

(١) سورة البقرة : ٢١٢ .
(٢) سورة آل عمران : ١٤ .
(٣) سورة الكهف : ٧ .

عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[١] .

٥ ـ قوله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾[٢] .

٦ ـ قوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[٣] .

(٣) الغرور :

لقد وصف الله سبحانه وتعالى الحياة الدنيا بأنها الغرور ؛ وذلك لأنها تخدع الناس ، فيميلوا إليها ويدَعوا الاستعداد لما فيه خلاصهم من عقاب الله في الآخرة .

وقد نبه الله تعالى علينا ما اغتُرّ به من الحياة الدنيا وزينتها ولذاتها ، لنكون على حذر وبصيرة بهذه الخطورة ، وذلك في آيات مختلفة ، منها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[٤] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

---

(١) سورة الكهف : ٢٨ .

(٢) سورة الكهف : ٤٦ .

(٣) سورة الحديد : ٢٠ .

(٤) سورة آل عمران : ١٨٥ .

وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا[1] بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾[2] .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾[3] .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[4] .

٥ ـ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾[5] .

٦ ـ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾[6] .

٧ ـ قوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ

---

(١) أبسلوا : حرموا الثواب . وقيل : السجن والارتهان . وأصله من البسل وهو المنع والحرام . (المفردات في غريب القرآن ص : ٤٧ ، تفسير التحرير والتنوير ٧/ ٢٩٧) .

(٢) سورة الأنعام : ٧٠ .

(٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .

(٤) سورة الأعراف : ٥١ .

(٥) سورة لقمان : ٣٣ .

(٦) سورة فاطر : ٥ .

مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[١] .

هذه الآيات الكريمة تبين لنا بوضوح أن الحياة الدنيا التي نعيشها ونستمتع بها باللذات الجسدية من طعام وشراب، وباللذات المعنوية من جاه ومنصب وسمو، ما هي إلا كالمتاع المشتري بخداع وغرور، ثم يتبين فساده ورداءته؛ لأن صاحبه دائمًا مغرور مخدوع بها، أو لأنها حقيرة متروكة فانية زائلة. وهذا لمن فضل الدنيا على الآخرة، فأما من طلب الآخرة بها، فإنها متاع بلاغ، وليست متاع الغرور.

(٤) العرض :

قال تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾**[٢] .

وقال تعالى : **﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾**[٣] .

وقال تعالى : **﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ**

---

(١) سورة الحديد : ٢٠ .

(٢) سورة النساء : ٩٤ .

(٣) سورة الأعراف : ١٦٩ .

تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] .

هذه الآيات الكريمة تعطينا صورة واضحة من قيمة الحياة الدنيا بأنها عرض. والعرض ما لا يكون ثبات ولا بقاء. فالحياة الدنيا عرض حاضر تنبيهًا أن لا ثبات لها، وأنها حطام سريع النفاد[٣] .

وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس**»[٤] .

إضافة إلى ما سبق بق من أوصاف الحياة الدنيا فإن القرآن الكريم يصفها بأنها تفاخر وتكاثر. وذلك بأن يتفاخر كل واحد من أهلها بالخلقة والقوة، والأنساب والأحساب وغيرها، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها. كما أن كل واحد منهم يريد أن يكون هو المكاثر لغيره في المال والولد مباهاة بكثرة العُدد والعَدد، فيتطاول بذلك على

---

(١) سورة الأنفال: ٦٧.

(٢) سورة النور: ٣٣.

(٣) انظر: المفردات ص: ٣٣١، والقاموس القرآني ٣٢٢، وتفسير الكشاف ١/ ٥٥٥، ولسان العرب ٧/ ١٧٠.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، الرقم ١٢٠ (١٠٥١) ٧/ ١٤٠.

غيره[١].

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٢].

وهذا مصداقه، وقوعه من محبي الدنيا، والمطمئنين إليها، بخلاف من عرف الحياة الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً ولم يجعلها مستقراً. فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى دار كرامته. وإذا رأى من يكاثره وينافسه في الأموال والأولاد، نافسه بالسعي بأسباب المغفرة من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النافع.

قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٣].

قيمة الحياة الدنيا الطيبة :

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ

---

(١) انظر: تفسير فتح القدير ٥/ ١٧٥، وتفسير السعدي ٧/ ٢٩٦، وتفسير المراغي ٩/ ١٧٦.
(٢) سورة الحديد: ٢٠.
(٣) سورة الحديد: ٢١.

ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1] .

هذه الآية الكريمة تشتمل على أنواع الخير الواسعة[2] التي تبين لنا قيماً طيبة في الحياة الدنيا، وهي تجعل لها هذا الوزن في ميزان الله الثابت . وهذه القيم تتمثل في أمور تالية :

١ ـ قيمة الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين :

ـ إن الإيمان بالله هو نقطة التحول في حياة البشرية من العبودية لشتى القوى، وشتى الأشياء . . إلى عبودية واحدة لله تتحرر بها النفس من كل عبودية، وترتفع بها إلى مقام المساواة مع سائر النفوس في الصف الواحد أمام المعبود الواحد. ثم الإيمان بالله تتجلى قيمته الغالية حينما يكون نقطة التحول كذلك من القلق وعدم الاستقرار وتمزق الاتجاهات في هذه الحياة، إلى راحة الاستقامة والمعرفة واليقين، وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق . قال تعالى : **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾**[3] .

ـ والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء؛ وبأن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى بغير ميزان . وبأن

---

(١) سورة البقرة : ١٧٧ .

(٢) قال الراغب الأصفهاني : «البر التوسع في فعل الخير» . (المفردات ص : ٤٠)، وقال الثوري عند قوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ الآية : «هذه أنواع البر كلها» . (تفسير ابن كثير ١/ ١٨٢).

(٣) سورة الزمر : ٢٩ .

الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا أنه في هذه الأرض لا يلقى الجزاء .

إن الذي يؤمن بعدالة الإله الواحد يدرك قيمة الإيمان باليوم الآخر ، بل يطلب أن توجد دار أخرى يجزى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؛ فهذا ما تنطق به الحكمة السارية في كل ذرة في السماوات والأرض .

ـ قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾[١] .

ـ وقال عز وجل : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[٢] .

ـ وقال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[٣] .

ـ والإيمان بالملائكة أصل للإيمان بالوحي والنبوة واليوم الآخر ، فمن أنكرها أنكر كل ذلك ، لأن ملك الوحي هو الذي يفيض العلم بإذن الله على النبي بأمور الدين ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ

(١) سورة ص : ٢٧ ـ ٢٨ .
(٢) سورة الجاثية : ٢١ ـ ٢٢ .
(٣) سورة النجم : ٣١ .
(٤) سورة الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥ .

أَمْرٍ ﴾[١] .

ـ والإيمان بالملائكة طرف من الإيمان بالغيب الذي هو مفرق الطريق بين إدراك الإنسان وإدراك الحيوان، وتصور الإنسان لهذا الوجود وتصور الحيوان. الإنسان الذي يؤمن بما وراء الحس والحيوان المقيد بحسه لا يتعداه.

ـ والإيمان بالكتاب والنبيين هو الإيمان بالرسالات جميعًا وبالرسل أجمعين، وهو الإيمان بوحدة البشرية، ووحدة إلهها، ووحدة دينها، ووحدة اتجاهها، ووحدة منهجها الإلهي. ولهذا الشعور قيمة في شعور المؤمن الوارث لتراث الرسل والرسالات[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾[٣] .

إضافة إلى ذلك كله، فإن الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين شرط جوهري للقيمة؛ أي الثواب، على العبادات والفضائل جميعًا، والقيمة الأخروية هي الغاية القصوى لعمل المسلم كله عبادات ومعاملات.

وفيما يلي نصوص قرآنية تبين هذه الشرطية :

ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٤] .

ـ وقوله عز وجل : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ

---

(١) سورة القدر : ٤ .

(٢) استفدنا في هذا الموضوع من «في ظلال القرآن» ١/ ١٥٩، وتفسير المراغي ١/ ٥٥، والإيمان والحياة، ليوسف القرضاوي ص : ٣٥ .

(٣) سورة المؤمنون : ٥٢ .

(٤) سورة المائدة : ٥ .

كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾[١] .

ـ وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[٢] .

٢ ـ قيمة المال :

إن المال إذا استخدم في سبيل الله فهو ذو قيمة طيبة ، بل ينظر الإسلام إلى المال على أنه عصب الحياة وقوامها ، وضرورة من ضروراتها ، لا تستغني عنه الأفراد ، ولا الجماعات . فالمال تتجلى قيمته في نقاط تالية :

ـ لقد سماه الله خيراً في كتابه ، فيقول تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾[٣] . ويقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[٤] .

ـ وأضافه إلى نفسه سبحانه ، فقال : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾[٥] .

ـ وأن الله سبحانه أرشد المؤمنين إلى مسؤوليتهم عن منع السفهاء من التصرف في الأموال ، كيلا يضار المجتمع بتصرفاتهم السيئة ، فقال عز وجل : ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾[٦] .

---

(١) سورة الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٥ .
(٢) سورة النساء : ١٢٤ .
(٣) سورة البقرة : ١٨٠ .
(٤) سورة العاديات : ٨ .
(٥) سورة النور : ٣٣ .
(٦) سورة النساء : ٥ .

قيمة إيتاء المال على حبه لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب :

- إن قيمته هي الانعتاق من ربقة الحرص والشح والضعف والأثرة . . . فهي قيمة روحية يشير إليها ذلك النص على حب المال .

- وقيمة شعورية أن يبسط الإنسان يده وروحه فيما يحب من مال . لا في الرخيص منه ولا الخبيث . فيتحرر من عبودية المال ، هذه العبودية التي تستذل النفوس ، وتنكس الرؤوس . ويتحرر من الحرص . والحرص يذل أعناق الرجال .

- وهي قيمة إنسانية كبرى في حساب الإسلام ، الذي يحرر دائمًا الإنسان من وساوس نفسه وحرصها وضعفها قبل أن يحاول تحريره من الخارج في محيط الجماعة وارتباطاتها ، يقينًا منه بأن عبيد أنفسهم عبيد الناس ؛ وأن أحرار النفوس من الشهوات هم أحرار الرؤوس في المجتمعات .

- هذه الصلة لذوي القربى فيها تحقيق لمروءة النفس ، وكرامة الأسرة ، ووشائج القربى . والأسرة هي النواة الأولى للجماعة . ومن ثم هذه العناية بها وهذا التقديم . كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿ **وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا** ﴾[1] .

روى الإمام أحمد بسنده عن سلمان بن عامر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : «**إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر، فإن لم يجد فليفطر بماء؛ فإن الماء طهور**» ، وقال : «**الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم**

---

(١) سورة الإسراء : ٢٦ .

اثنتان، صدقة وصلة»[١] .

ـ وهي لليتامى تكافل بين الكبار والصغار في الجماعة، وبين الأقوياء فيها والضعفاء؛ وتعويض لهؤلاء الصغار عن فقدان الحماية والرعاية الأبويتين، وحماية للأمة من تشرد صغارها، وتعرضهم للفساد، وللنقمة على المجتمع الذي لم يقدم لهم براً ولا رعاية.

وقد اهتم القرآن الكريم بأمور اليتامى وإصلاح أموالهم في آيات كثيرة، منها:

ـ قوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴾[٢] .

وقوله عز وجل: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[٣] .

ـ وقوله سبحانه: ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** ﴾[٤] .

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ١٨، ٢١٤، ٢٩٩. وانظر: «صحيح سنن الترمذي ـ باختصار السند» رقم (٥٣١) وقال الترمذي: حديث حسن. و«صحيح سنن أبي داود ـ باختصار السند» رقم (٢٠٦٥). و«صحيح سنن ابن ماجه ـ باختصار السند» رقم (١٤٩٤).

(٢) سورة البقرة: ٢١٥.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٠.

(٤) سورة النساء: ٢.

- وهي للمساكين[1] الذين لا يجدون ما ينفقون احتفاظ لهم بكرامة نفوسهم، وصيانة لهم من البوار؛ إذ هم أعضاء من جسم الأمة، ومن مصلحة أفرادها التعاون والتآزر حفظًا لكيانها.

- وهي لابن السبيل - المنقطع عن ماله وأهله - واجب للنجدة في ساعة العسرة، وانقطاع الطريق دون الأهل والمال والديار؛ وإشعار له بأن الإنسانية كلها أهل، وبأن الأرض كلها وطن، يلقى فيها أهلاً بأهل، ومالاً بمال.

- وهي للسائلين إسعاف لعوزهم، وكف لهم عن المسألة التي يكرهها الإسلام. وفي الإسلام لا يسأل من يجد الكفاية أو من يجد عملاً، فهو مأمور من دينه أن يعمل ولا يسأل، وأن يقنع ولا يسأل. فلا سائل إلا حيث يعييه العمل والمال.

- وهي في الرقاب إعتاق وتحرير لمن أوقعه سوء عمله في الرق بحمل السيف في وجه الإسلام حتى يسترد حريته وإنسانيته الكريمة.

٣ - قيمة إقامة الصلاة :

إنها توجه الإنسان بكليته إلى ربه، ظاهرًا وباطنًا، جسمًا وعقلاً وروحًا. إنها ليست مجرد أقوال وأفعال. فالصلاة التي يريدها القرآن أن يصلي المؤمن على أقوم وجه، ولا يتحقق ذلك بأداء أفعال الصلاة وأقوالها فحسب، بل إنما يكون بوجود سر الصلاة وروحها، ومن آثارها تحلي المصلي بالأخلاق الفاضلة، وتباعده من الرذائل، فلا يفعل فاحشة ولا منكرًا، كما قال تعالى مبينًا فوائدها: ﴿ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ**

---

(١) إن المراد بالمساكين هنا الفقراء والمساكين، لأنهما إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا.

﴿الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[١] .

ولا يكون هلوعًا جزوعًا إذا مسه الضر، ولا بخيلاً منوعًا إذا ناله الخير، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[٢] .

٤ ـ إيتاء الزكاة :

إنه الوفاء بفريضة الإسلام الاجتماعية التي جعلها الله حقًا في أموال الأغنياء للفقراء؛ بحكم أنه هو صاحب المال، وهو الذي ملكه للفرد بعقد منه، من شروطه إيتاء الزكاة. هذه الفريضة التي كثيرًا ما تقرن بالصلاة، يجب أن يكون شأن المسلمين فيها، أو شأنها عندهم جميعًا كشأنهم في الصلاة، وشأن الصلاة فيهم تحديد بيّن واضح، لا لبس فيه[٣] .

٥ ـ الوفاء بالعهد :

إنه سمة الإسلام التي يحرص عليها، ويكررها القرآن الكريم كثيرًا. والوفاء بالعهد تتجلى قيمته الغالية حينما يكون ضروريًا لإيجاد جو من الثقة والطمأنينة في علاقات الأفراد وعلاقات الجماعات وعلاقات الأمم والدول تقوم ابتداءً على الوفاء بالعهد مع الله. وبغير هذه السمة يعيش كل فرد مفزعًا قلقًا لا يركن إلى وعد، ولا يطمئن إلى عهد، ولا يثق بإنسان. ولقد بلغ الإسلام من الوفاء بالعهد لأصدقائه وخصومه على السواء قمة لم تصعد إليها البشرية في تاريخها كله، ولم تصل إليها إلا على نور الإسلام وهديه[٤] .

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٥ .
(٢) سورة المعارج: ١٩ ـ ٢٣ .
(٣) انظر: الإسلام عقيدة وشريعة، لمحمود شلتوت، ص: ٩٧ .
(٤) انظر: في ظلال القرآن ١/ ١٦١ .

وقد أمر الله عز وجل بالوفاء بالعهد أمرًا صريحًا في عدد من آيات القرآن الكريم :

- قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾(١) .

- وقال عز وجل : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(٢) .

- وقال سبحانه : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾(٣) .

٦ - قيمة الصبر في البأساء والضراء وحين البأس :

إن الصبر هو الإعداد للشجاعة ، هو المقدمة لها ، والسبيل المفضي إلى لحظتها ، والشرط لاحتمال مشاق نتائجها . إنه تربية للنفوس ، كي لا تذهب حسرة مع كل فاجعة . إنه الرجاء في الله والثقة بالله والاعتماد على الله .

فالإنسان يرى قيمة الصبر واضحة جلية عندما يعلم فضيلة الصبر والصابرين عند الله ، وهذه الفضيلة تتمثل فيما يلي :

أ - أن الصبر ذو مكانة عظيمة عند الله ، فقد أعلن سبحانه أنه يحب الصابرين .

---

(١) سورة النحل : ٩١ .
(٢) سورة الأنعام : ١٥٢ .
(٣) سورة التوبة : ٤ .

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾(١) .

ب ـ أنه تعالى يمد الصابرين بعونه وتأييده :

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٢) .

وقال عز وجل: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٣) .

وقال سبحانه: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٤) .

ج ـ أنه سبحانه وتعالى يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب :

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٥) .

د ـ أن الصبر من الشروط التي تؤهل لمرتبة القيادة العامة والإمامة الدينية؛ وذلك لكثرة ما يتعرض له الإمام أو القائد من أمور تتطلب منه صبراً، فإذا لم يصبر فشل وسقط عن مرتبة الإمامة أو القيادة :

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٦ .
(٢) سورة البقرة: ١٥٣ .
(٣) سورة البقرة: ٢٤٩ .
(٤) سورة الأنفال: ٦٦ .
(٥) سورة الزمر: ١٠ .

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾[١] .

«فدل هذا النص القرآني على أن الصبر قد أهّل أربابه لمرتبة الإمامة الدينية إذ كانوا مهديين بهدي كتاب الله، ولذلك جعل الله منهم أئمة يهدون بأمره»[٢] .

أما تخصيص هذه المواطن الثلاثة ـ في البأساء والضراء وحين البأس ـ مع أن الصبر محمود في جميع الأحوال؛ لأن من صبر فيها كان في غيرها أصبر[٣] . «ولابد لأمة تناط بها القوامة على البشرية، والعدل في الأرض والصلاح، أن تهيأ لمشاق الطريق ووعثائه بالصبر في البأساء والضراء وحين الشدة. الصبر في البؤس والفقر. الصبر في المرض والضعف. والصبر في القلة والنقص والصبر في الجهاد والحصار. والصبر على كل حال. كي تنهض بواجبها الضخم، وتؤدي دورها المرسوم، في ثبات وفي ثقة وفي طمأنينة وفي اعتدال»[٤] .

وفي الصبر حين البأس تتجلى لنا قيمة الجهاد في سبيل الله، حيث اشترى الله ـ وهو واهب الأنفس والأموال ـ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بثمن غال، وهو الجنة، وذلك من رحمة الله حيث جعل للصفقة ثمنًا، وإلا فهو مالك الأنفس والأموال. قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي**

---

(١) سورة السجدة : ٢٣ ـ ٢٤ .

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٣١٥ .

(٣) انظر : تفسير المراغي ١/ ٥٩ .

(٤) في ظلال القرآن ١/ ١٦١ .

التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١] .

وبهذه القيمة الغالية في الجهاد في سبيل الله، وفي الصبر حين البأس، يمكننا أن نقول: إن الثبات يوم الزحف هو أكبر ضروب الشجاعة شيوعًا وأعلاها قيمة؛ لذلك أمر الله عز وجل المؤمنين بالثبات يوم الزحف ومجابهة الأخطار، حيث يكون المؤمنون حينئذ في سبيل خير أعظم من الحياة، وهو الدين.

قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾**[٢] . فيدل هذا النص أيضًا على أن الفرار من الزحف من الكبائر.

روى الإمام مسلم بسنده.. عن أبي هريرة، أن رسول الله - ﷺ - قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**، قيل: يا رسول الله، وما هنّ؟ قال: **الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[٣] .

قيمة العمل الصالح:

وبعد أن ذكرنا بعض القيم الطيبة في الحياة الدنيا - وإنما ذكرناها من باب المثال لا الحصر - نعرض هنا ذكر قيمة العمل الصالح كخاتمة لهذا المبحث.

---

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) سورة الأنفال: ١٥-١٦.

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب الكبائر وأكبرها، رقم الحديث: ١٤٥ (٨٩)، شرح النووي ٢/ ٨٣.

والمقصود بالعمل الصالح الصحيح، وهو ما كان موافقًا لشرع الله، والعمل الخالص لوجه الله تعالى. وهذان ركنا العمل المتقبل[١]. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[٢].

وللعمل الصالح في الإسلام مكانة عظيمة، وفي الحياة قيمة كبيرة؛ لأنه ثمرة الإيمان بالله وباليوم الآخر وبرسوله محمد ـ ﷺ ـ، وبه يظهر معنى الشهادتين بالعمل والسلوك، ولأهميته في الدين والحياة جاءت الآيات الكثيرة به، فمرة تقرنه بالإيمان، ومرة تبين جزاءه الحسن، وأخرى تصرح بأن ما ينفع الإنسان في آخرته هو الأعمال الصالحة، وأن الله تعالى لا يضيع أجر من عملها وقام بها، وتارة تبين الآيات أن الأعمال الصالحات سبب لتكفير السيئات وغفران الذنوب، وأن الخسارة تلحق الإنسان لا محالة إلا من آمن وعمل الصالحات.

ومن هذه النصوص القرآنية التي وضحت هذه المعاني:

ـ قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[٣].

ـ وقوله عز وجل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٩٦.
(٢) سورة الكهف: ١١٠.
(٣) سورة المائدة: ٩.
(٤) سورة النحل: ٩٧.

- وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾[١] .

- وقوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾[٢] .

- وقوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٣] .

- وقوله سبحانه: ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[٤] .

والعمل الصالح كذلك مظهر يعبر عن قيمة الإنسان ومكانته بين جميع أنواع الخلق، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[٥] .

يخبر تعالى في هذه الآية عن تكريمه لبني آدم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، وعن رفع مكانتهم بين جميع أنواع الخلق بالعقل والشرع، فاهتدوا إلى الأعمال الصالحات بأنواعها من الأمور الدينية والدنيوية. كما أنه تعالى يخبر عن حملهم في البر على الدواب، وفي البحر أيضًا على السفن الكبار والصغار، وأنه رزقهم من الطيبات وهي: زروع، وثمار، ولحوم،

(١) سورة الكهف: ٣٠.

(٢) سورة مريم: ٧٦.

(٣) سورة العنكبوت: ٧.

(٤) سورة العصر: ١-٣.

(٥) سورة الإسراء: ٧٠.

وألبان من سائر أنواع الطعوم، والألوان المشتهاة اللذيذة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي[١].

ولاشك أن قيمة العمل الصالح تتوقف على الرغبة فيه والشعور بضرورته، أو الثقة بما يحققه للإنسان من نفع وخير. وهذه المعاني هي التي تكون الطاقة الدافعة إليه. أو الإرادة المصممة عليه، وهي لا تكون بدون الإيمان.

وقد وسع الإسلام مجال العمل الصالح، ومد أنظار المسلمين إلى أبعد من هذه الحياة، ليكون عملهم لها ولما بعدها أضخم وأعظم، فينفعهم في الدنيا، وينفعهم في الآخرة. قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴾[٢].

وبما سبق يتضح لنا أن الاستنامة إلى الأماني والخيال لا تجدي في تحقيق الأماني ولا ينفع معها الخيال، وإنما يجدي وينفع العمل الصالح القائم على الإيمان بالله، والثقة في عدله، والأمل في فضله. قال تعالى: ﴿ **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً** ﴾[٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧، وتفسير المراغي ٥/ ٧٥.

(٢) سورة آل عمران: ٣٠.

(٣) سورة النساء: ١٢٣ ـ ١٢٤.

«وهكذا تتجلى قيمة الحياة الدنيا الطيبة للذين يتصلون بالله العليم الخبير الذي وضع الميزان الثابت. فيعرفون هذا الميزان الصحيح الذي يقوّمون به الحياة، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والجاه والمتاع. وهم أعلى نفسًا، وأكبر قلبًا من أن يتهاوَوا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعًا. ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد. وهؤلاء هم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾. العلم الصحيح الذي يقوّمون به الحياة حق التقويم.

والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون . . . الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم. الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها. الصابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون. وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة؛ درجة الاستعلاء على كل ما في الأرض، والتطلع إلى ثواب الله في رضى وثقة واطمئنان»[(١)] .

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾[(٢)] .

* * *

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٣ .

(٢) سورة القصص: ٧٨ ـ ٨٠ .

المبحث الخامس
متاع الحياة الدنيا

لقد وصف الله سبحانه وتعالى الحياة الدنيا في مواضع كثيرة من كتابه العزيز بأنها متاع[١] . والمتاع : ما يتمتع به الإنسان وينتفع به ، ثم يزول ولا يبقى ، كذا قال أكثر المفسرين[٢] .

فمتاع الحياة الدنيا في جنب الآخرة قليل لا يعتد به ، وقد صرح بذلك القرآن الكريم في آيات كثيرة منها :

١ - قوله تعالى : ﴿ **لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾[٣] .

٢ - قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا** ﴾[٤] .

---

(١) أفردت هذا الموضوع مع أن له صلة وثيقة بالمبحث الرابع ، وذلك لأهميته ، ولكثرة وروده في القرآن الكريم ، كما أن التركيز في المبحث الرابع على الحياة الدنيا وما فيها من حيث قيمتها ، بخلاف هذا المبحث ، فإن التركيز فيه على الحياة الدنيا من حيث إنها متاع .

(٢) انظر : تفسير فتح القدير ١/ ٤٠٨ ، وتفسير ابن عطية ٣/ ٤٦ ، المفردات ص : ٤٦١ ، لسان العرب ٨/ ٣٢٩ .

(٣) سورة آل عمران : ١٩٦ - ١٩٧ .

(٤) سورة النساء : ٧٧ .

٣ - قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾(١) .

٤ - قوله تعالى: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٢) .

أنواع متاع الحياة الدنيا :

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾(٣) .

يخبر تعالى في آية واحدة عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع متاعها، وأحب شهواتها إلى نفس الإنسان: النساء والبنين والأموال المضعفة من الذهب والفضة والخيل الراعية في المروج والمسارح، والأنعام والحرث . . . وهي خلاصة للرغائب الأرضية. إما بذاتها، وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى.

ولكي يكون على بصيرة بذلك المتاع، فيحسن بنا أن نذكر في هذا الصدد كل نوع من أنواع متاع الحياة الدنيا مع تدبر وتأمل :

---

(١) سورة التوبة: ٣٨.

(٢) سورة النحل: ١١٦ - ١١٧.

(٣) سورة آل عمران: ١٤.

(١) النساء :

فالنساء موضع الرغبة ومطمح الأنظار، وقد جعل الله فيهن سكنًا للنفس، وراحة للجسم والقلب، واستقرارًا للحياة والمعاش، وأنسًا للأرواح، كما قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[١] .

وإذا كانت النساء موضع الرغبة ومطمح الأنظار، فالله سبحانه وتعالى - في آية واحدة - يحذر المؤمنين منهن، حيث قد تكون النساء عدوًا وسببًا للاشتغال واللهو عن ذكر الله، كما أنهن قد تسببن دافعًا للتقصير في تبعات الإيمان للمتاعب التي تحيط بهن لو قام المؤمنون بواجباتهم، فلقوا ما يلقاه المجاهدون في سبيل الله. والمجاهدون في سبيل الله يتعرضون لخسارة الكثير، وتضحية الكثير، كما يتعرضون هم وأهلهم للعنت. وقد يحتملون للمشقة في أنفسهم، ولايحتملونه في أزواجهم. فيبخلون ويجبنون ليوفروا لهن الأمن والقرار أو المتاع والمال، فتكون النساء عدوًا لهم، لأنهن صددنهم عن الخير.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[٢] .

ولذلك، فإن الله سبحانه وتعالى بدأ بالنساء - في بيان أنواع متاع الحياة الدنيا - لأن الفتنة بهن أشد، ولعراقتهن في معنى الشهوة، وكذلك فإن حب النساء قد يؤدي إلى الغلو والإسراف، فكم من رجل جنى حبه للمرأة على

---

(١) سورة الروم: ٢١.

(٢) سورة التغابن: ١٤.

أولاده، فكثير ممن تزوجوا بما فوق الواحدة، وأفرطوا في حب واحدة وملوا أخرى أهملوا تربية أولاد المبغوضة وحرموهم سعة الرزق وقد وسعوه على أولاد المحبوبة، إضافة إلى عدم العدل؛ وكم من غني عزيز يعيش أولاده عيشة الذل والفقر، وليس لهذا من سبب إلا حب والدهم لغير أمهم، فهو يفعل ذلك للتقرب وابتغاء الزلفى إليها[١] . ومن هنا يتضح سر تقديم النساء على البنين في الآية[٢] ، والله أعلم.

لقد ثبت في الصحيح من سنن ابن ماجه أنه ـ ﷺ ـ يقول: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»[٣] .

فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب، مرغوب فيه مندوب إليه، قال رسول الله ـ ﷺ ـ في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو: «**الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»[٤] .

وروى الإمام أحمد بسنده . . عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يأمر بالباءة، وينهى عن التبتل نهيًا شديدًا، ويقول: «**تزوجوا الودود الولود إني مكاثر الأنبياء يوم القيامة**»[٥] .

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣٠٣، وتفسير فتح القدير ١/ ٣٢٣، وتفسير أبي السعود ٢/ ١٤، وتفسير المراغي ١/ ١٠٩ .

(٢) سورة آل عمران: ١٤ .

(٣) رواه ابن ماجه في سننه عن أسامة بن زيد، باب فتنة النساء، وقال الألباني: صحيح (٣٩٩٨)، صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣٦٦، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٣).

(٤) رواه مسلم كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ٦٤ (١٤٦٧) (صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٥٦).

(٥) مسند أحمد ٣/ ١٥٨، ٢٤٥، ورواه أبو داود في سننه كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء (٢٠٤٩) ٢/ ٥٤٢، ورواه النسائي في سننه كتاب النكاح، باب كراهية تزويج العقيم (٣٢٢٧) (سنن النسائي بشرح السيوطي ٦/ ٦٦).

(٢) البنون :

والبنون جمع ابن، وهم الأولاد ذكورًا وإناثًا، وذكر البنين يشعر بأن الذكور هم المشتهون بالطباع أولاً، أو لعدم الاطراد في حبهن[١] .

وحب البنين أقوى من حب البنات لأسباب كثيرة منها :

١ ـ أنهم عمود النسب الذي به تتصل سلسلة النسب، وبه يبقى ما يحرص عليه الإنسان من بقاء الذكر وحسن الأحدوثة بين الناس .

٢ ـ أمل الوالد في كفالتهم له حين الحاجة إليه لضعف أو كبر .

٣ ـ أنه يرجى بهم من الشرف ما لا يرجى من الإناث؛ كنبوغ في علم أو عمل أو رياسة أو قيادة جيش للدفاع عن الوطن وحفظ كيان الأمة .

٤ ـ الشعور بأن الأنثى حين الكبر تنفصل من عشيرتها وتتصل بعشيرة أخرى[٢] .

والإسلام في هذه المسألة يدعو إلى العدل الشامل، لم يفرق في المعاملة الرحيمة، والعطف الأبوي، بين ذكر وأنثى، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ **اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾[٣] ، وتنفيذًا لأمر رسول الله ـ ﷺ ـ القائل في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن النعمان بن بشير: «**اعدلوا بين أولادكم، اعدلوا بين أولادكم، اعدلوا بين أولادكم**»[٤] .

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٢/ ١٤، وتفسير فتح القدير ١/ ٣٢٣، وتفسير المراغي ١/ ١٠٩ .

(٢) تفسير المراغي: ١/ ١١٠ .

(٣) سورة المائدة: ٨ .

(٤) مسند أحمد ٤/ ٢٧٥، ٢٨٨، ٣٧٥، وصححه الألباني . (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٢٤٤).

وإذا وجد في المجتمع الإسلامي آباء ينظرون إلى البنت نظرة تمييز عن الولد، فالسبب في هذا يعود إلى البيئة الفاسدة التي رضعوا منها أعرافًا ما أنزل الله بها من سلطان، بل هي أعراف جاهلية محضة، وتقاليد اجتماعية بغيضة، يتصل عهدها بالعصر الجاهلي الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾[١] .

ولكي يقتلع رسول الله ـ ﷺ ـ من بعض النفوس الضعيفة جذور الجاهلية، خص البنات بالذكر، وأمر المربين بحسن صحبتهن، والعناية بهن، ليستأهلوا دخول الجنة، ورضوان الله تعالى، وبالتالي حتى تكون تربية البنات وتحقيق الخير لهن على الوجه الذي يرضي الله سبحانه[٢] . ففي صحيح مسلم عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين** ـ وضم أصابعه ـ»[٣] .

(٣) القناطير المقنطرة من الذهب والفضة :

والقناطير المقنطرة وهو العقدة الكبيرة من المال، والمقنطرة مأخوذة منه على سبيل التوكيد، وقد جرت عادة العرب بأن يصفوا الشيء بما يشتق منه مبالغة، كما قالوا: ألوف مؤلفة، وقال الربيع: معناه المال الكثير بعضه فوق بعض. وقال السدي: معنى المقنطرة: المضروبة حتى صارت دنانير أو

---

(١) سورة النحل: ٥٨، ٥٩ .

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، لعبد الله ناصح علوان ١/ ٥٨ .

(٣) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم الحديث ١٤٩ (٢٦٣١). بشرح النووي ١٦/ ١٨٠ .

دراهم[١] .

وهذا التعبير يشعر بالكثرة التي تكون مظنة الافتتان، والتي تشغل القلب للتمتع بها، وتستغرق في تدبيرها الوقت الكثير حتى لا يبقى بعد ذلك منفذ للشعور بالحاجة إلى نصرة الحق والاستعداد لأعمال الآخرة .

وحب المال مما أودع في غرائز البشر واختلط بلحمهم ودمهم، وسر هذا أنه وسيلة جلب الرغائب، وسبيل إلى نيل اللذات والشهوات، ورغبات الإنسان غير محدودة، ولذاته لا عدّ لها ولا حصر، وكلما حصل على لذة طلب المزيد منها، وما وصل إلى غاية في جمع المال إلا تاقت نفسه إلى ما فوقها، حتى لقد يبلغ به النهم في جمعه أن ينسى أن المال وسيلة لا مقصد، فيفتنّ في الوصول إليه الفنون المختلفة، والطرق التي تعنّ له، ولا يبالي أمن حلال كسب أم من حرام؟[٢] .

وقد حذر الله سبحانه وتعالى المؤمنين من فتنة الأموال واشتغالهم بها عن طاعة ربهم في آيات كثيرة منها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾[٣] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن**

(١) انظر : تفسير المحرر الوجيز ٣/ ٣٩، وزاد المسير ١/ ٥٨، وفتح القدير ١/ ٣٢٣، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٩ تحقيق محمود محمد شاكر، وتفسير المراغي ١/ ١١٠، فهذه الكتب تتحدث عن معاني القناطير المقنطرة بالتوسع مع ذكر أقوال المفسرين فيها .
(٢) تفسير المراغي ١/ ١١٠ .
(٣) سورة الأنفال : ٢٨ .

ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١) .

٣ ـ قوله تعالى : **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**(٢) .

كما وردت أحاديث كثيرة تتحدث عن فتنة الأموال، وهلاك طالبها الحريص على جمعها، منها :

١ ـ ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال : «**تعس**(٣) **عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة**(٤) ، **إن أعطى رضي وإن لم يعط لم يرض**»(٥) .

٢ ـ ما رواه عبد الله بن الشِّخِّير ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : أتيت النبي ـ ﷺ ـ وهو يقرأ : **﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾** قال : «**يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدقت فأمضيت**»(٦) .

٣ ـ ما رواه كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

---

(١) سورة المنافقون : ٩ .

(٢) سورة التغابن : ١٥ .

(٣) تعس : هلك .

(٤) القطيفة : هي كساء له خمل، أي الذي يعمل لها ويهتم بتحصيلها، والخميصة : ثوب خزّ أو صوف مُعْلَم، وقيل : لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعلمة. (لسان العرب ٩/ ٢٨٦، ٧/ ٣١).

(٥) الحديث رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٥) فتح الباري ٦/ ٨١ .

(٦) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، ٣ (٢٩٥٨)، صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/ ٩٤ .

«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[١] .

(٤) الخيل المسومة :

والخيل كانت ـ وما تزال حتى في عصر الآلة المادي اليوم ـ زينة محببة مشتهاة. ففي الخيل جمال وفتوة وانطلاق وقوة. وفيها ذكاء وألفة ومودة. وحتى الذين لا يركبونها فروسية، يعجبهم مشهدها، ما دام في كيانهم حيوية تجيش لمشهد الخيل الفتية[٢] .

قال تعالى: ﴿ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[٣] .

قال ابن كثير: «وحب الخيل على ثلاثة أقسام:

ـ تارة يكون ربطها أصحابها معدّة لسبيل الله، متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون. قال تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾[٤] .

ـ وتارة تربط فخراً ونواءً لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد (٢٤٨٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. ورواه أحمد في مسنده ٣/ ٤٥٦، وإسناده صحيح، انظر: تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط، رياض الصالحين ٢٣٢.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٤.

(٣) سورة النحل: ٨.

(٤) سورة الأنفال: ٦٠.

ـ وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها، فهذه لصاحبها ستر»[١] .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**الخيل لثلاثة؛ لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال بها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفًا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له فهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنيًا وتعففًا ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر. ورجل ربطها فخرًا ورياءً ونواءً فهي على ذلك وزر**»[٢] .

(٥) الأنعام :

والأنعام هي الأصناف الأربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز. فهي مال أهل البادية، ومنها تكون ثروتهم ومعايشهم، وبها تفاخرهم وتكاثرهم[٣] .

وقد امتن الله بالأنعام على عباده في آيات كثيرة، منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ**

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٠٤.

(٢) رواه البخاري كتاب الجهاد، باب الخيل ثلاثة، وقول الله عز وجل: (٨ النحل)، (٢٨٦٠)، فتح الباري ٦/ ٦٣. ورواه ابن ماجه في سننه، باب ارتباط الخيل في سبيل الله (٢٧٨٨)، وقال الألباني: صحيح. (صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ١٢٧). ورواه أحمد في مسنده ١/ ٣٩٥.

(٣) تفسير ابن عطية ٣/ ٤٦، وتفسير المراغي ١/ ١١١.

تكونوا بالغيه إلاَّ بشق الأنفس إنَّ ربكم لرءوف رحيم ﴾[١] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون (٧١) وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾[٢] .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ﴾[٣] .

(٦) الحرث :

وعلى الحرث قوام حياة الإنسان والحيوان في البدو والحضر، وإنه شهوة بما فيه من مشهد الإنبات والنماء . وإن تفتح الحياة في ذاته لمشهد حبيب فإذا أضيفت إليه شهوة الملك كان الحرث شهوة .

وهذه الشهوات التي ذكرت هنا هي نموذج لشهوات النفوس، يمثل شهوات البيئة التي كانت مخاطبة بهذا القرآن، ومنها ما هو شهوة كل نفس على مدار الزمان .

والقرآن يعرضها ثم يقرر قيمتها الحقيقية لتبقى في مكانها هذا لا تتعداه، ولا تطغى على ما سواه . ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ أي ذلك كله عرضه من اللذائذ المحببة ـ وسائر ما يماثله من اللذائذ والشهوات ـ متاع الحياة الدنيا . لا الحياة الرفيعة، ولا الآفاق البعيدة . . متاع هذه الأرض القريب[٤] .

---

(١) سورة النحل : ٥ ـ ٧ .

(٢) سورة يس : ٧١ ـ ٧٢ .

(٣) سورة النحل : ٨٠ .

(٤) انظر : تفسير المراغي ١/ ١١٢ ، وفي ظلال القرآن ١/ ٣٧٥ .

متاع الحياة الدنيا للناس أجمعين، مؤمنيهم وكافريهم :

قال تعالى : ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(١) .

قال الشيخ ابن عاشور في تفسيره : «والمتاع والتمتع : نيل الملذات والمرغوبات غير الدائمة، ويطلق المتاع على ما يتمتع به وينتفع به من الأشياء .

الحين : المدة من الزمن، طويلة أو قصيرة، ونكر هنا ولم يحدد لاختلاف مقداره باختلاف الأجناس والأفراد، والمراد به زمن الحياة الدنيا التي تخول صاحبها إدراك اللذات، وفيه يحصل بقاء اللذات غير متفرقة ولا متلاشية ولا معدومة، وهذا الزمان المقارن لحالة الحياة والإدراك هو المسمى بالأجل، أي المدة التي يبلغ إليها الحي - المؤمن أو الكافر - بحياته في علم الله تعالى وتكوينه، فإذا انتهى الأجل وانعدمت الحياة انقطع المستقر والمتاع، وهذا إعلام من الله بما قدره للنوعين، وليس فيه امتنان ولا تنكيل بهم»(٢) .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة أنه يعطي متاع الحياة الدنيا لمن يشاء من المؤمنين والكافرين على سواء، فمنها :

١ - قوله تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(٣) .

---

(١) سورة الأعراف : ٢٤ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير : ٨/ ٦٩ .

(٣) سورة المائدة : ٩٦ .

قـوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ أي منفعة وقوتًا لكم أيها المخاطبون . و﴿ لِلسَّيَّارَةِ ﴾ وهم جمع سيار، قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر والسفر[١]؛ مما يدل ذلك على أن متاع الدنيا يعطيه الله عز وجل للمؤمن وللكافر على السواء.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾[٢] .

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾[٣] .

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾[٤] .

متاع الحياة الدنيا للكفار :

لقد ذكرنا فيما سبق أن الله عز وجل يعطي متاع الحياة الدنيا لمن يشاء من الناس مؤمنيهم وكافريهم على سواء. ومن جانب آخر فقد وردت آيات كثيرة تتحدث عن إعطاء الله عز وجل متاع الحياة الدنيا للكفار، وذلك لأسباب، منها:

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٩٠.
(٢) سورة النحل: ٨٠.
(٣) سورة النازعات: ٢٧ ـ ٣٣.
(٤) سورة عبس: ٢٤ ـ ٣٢.

١ ـ الاستدراج لهم والإمهال :

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾[١] .

قال ابن كثير : « . . . وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجًا لهم وإمهالاً »[٢] ، كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾[٣] .

٢ ـ اضطرارهم إلى عذاب النار :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[٤] .

والكفر وإن لم يكن سببًا للتمتيع المطلق، لكنه يصلح سببًا لتقليله وكونه موصولاً بعذاب النار[٥] .

وقال تعالى : ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾[٦] .

---

(١) سورة الرعد : ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٢ .

(٣) سورة المؤمنون : ٥٥ ـ ٥٦ .

(٤) سورة البقرة : ١٢٦ .

(٥) انظر : تفسير روح المعاني ١/ ٣٨٢، وتفسير أبي السعود ١/ ١٥٩ .

(٦) سورة يونس : ٧٠ .

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[2].

يقول تعالى: أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو ممتع في الحياة الدنيا أيامًا قلائل، ثم ها هو ذا في الآخرة محضراً إحضاراً للحساب. والتعبير يوحي بالإكراه (من المحضرين) الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين؛ لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد![3].

٣ - التهديد لهم:

قال الراغب الأصفهاني: «وكل موضع ذكر فيه (تمتعوا في الدنيا) فعلى طريق التهديد»[4].

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[5].

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٠.
(٢) سورة القصص: ٦١.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٠، وفي ظلال القرآن ٥/ ٢٧٠٥.
(٤) المفردات: ٤٦١.
(٥) سورة هود: ٦٥.

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(٢) .

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(٣) .

أي فتمتعوا بما آتيناكم من الرخاء، وسعة النعمة في الدنيا، فما هي إلا أويقات قصيرة تمضي كلمح البصر. ثم هددهم أشد التهديد بقوله: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وهو تهديد ملفوف، هائل مخيف. وإن الإنسان ليخاف من تهديد حاكم أو رئيس، فكيف وهذا التهديد من فاطر هذا الكون الهائل، الذي أنشأه كله بقوله: كن!.

روي عن بعض السلف أنه قال: والله لو توعدني حارس درب لخفت منه، فكيف والمتوعِّدُ هو الله الذي يقول للشيء كن فيكون؟(٤) .

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٠.
(٢) سورة النحل: ٥٣ـ٥٥.
(٣) سورة الروم: ٣٣ـ٣٤.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧١، تفسير المراغي ٧/ ٤٩.

٤ ـ الضلال والإعراض عن طاعة الله :

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾[١] .

قال الرازي : «معنى الآية أنك يا إلهنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم من النعم، وهي توجب الشكر والإيمان لا الإعراض والكفران، والمقصود من ذلك بيان أنهم ضلوا من عند أنفسهم لا بإضلالنا، فإنه لولا عنادهم الظاهر، وإلا فمع ظهور هذه الحجة لا يمكن الإعراض عن طاعة الله تعالى. وقال آخرون: إن هذا الكلام كالرمز فيما صرح به موسى ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾[٢] ، وذلك لأن المجيب قال: إلهي أنت الذي أعطيته جميع مطالبه من الدنيا حتى صار كالغريق في بحر الشهوات، واستغراقه فيها صار صاداً له عن التوجه إلى طاعتك والاشتغال بخدمتك، فإن هي إلا فتنتك»[٣] .

فهذا المتاع الموروث ـ على غير معرفة بواهب النعمة ولا توجه ولا شكر ـ قد ألهى الكفار وأنساهم ذكر النعم، فانتهت قلوبهم إلى الجدب والبوار. كالأرض البور لا حياة فيها ولا زرع ولا ثمار. والبوار الهلاك، ولكن اللفظ يوحي كذلك بالجدب والخواء، جدب القلوب، وخواء الحياة[٤] .

---

(١) سورة الفرقان: ١٧ ـ ١٨ .
(٢) سورة الأعراف: ١٥٥ .
(٣) التفسير الكبير ٢٤/ ٦٣ .
(٤) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٥٥ .

متاع الحياة الدنيا للمؤمنين :

وإذا كان متاع الحياة الدنيا الذي أعطى الله عز وجل للكافرين يؤديهم إلى الضلال والإعراض عن طاعة الله والشكر له، فليس ذلك في أحوال المؤمنين، بل إنهم يمتعهم الله سبحانه وتعالى متاعًا حسنًا، وذلك بسبب إيمانهم وطاعتهم لله، ومعرفتهم حقه تعالى. فإن الله منعم يحب الشاكرين، وأهل الشكر في مزيد من الله، وذلك قضاؤه الذي قضى[1] .

قال تعالى: ﴿ **الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ** ﴾[2] .

قال عبد الكريم الخطيب في تفسيره: «وفي قوله تعالى: ﴿ **يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ بيان لثمرة الإيمان بالله، ودوام الاتصال بالاستغفار والتوبة، ففي ذلك ضمان لسلامة الإنسان، وإمساك به على طريق الحق والخير، فيكون بذلك محفوفًا برحمة الله، مستوجبًا لرضاه، قرير العين، مطمئن القلب، بالاستظلال بظله، فيعيش عمره المقدور له في هذه الدنيا سعيدًا هانئًا، يجني أطيب الثمرات، لما غرس من خير، وما قدم من إحسان. فهو بهذا ممتع متاعًا حسنًا»[3] .

وفي آية أخرى نموذج حي من قوم يونس ـ عليه السلام ـ، وذلك لما نزل

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٥٧٨ .

(٢) سورة هود: ١ ـ ٣ .

(٣) التفسير القرآني للقرآن ٦/ ١١٠١ ـ ١١٠٢ .

بهم العذاب جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم، فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا: علمنا دعاءً ندعو به، لعل الله أن يكشف عنا العذاب، فقال: قولوا: يا حيّ حين لا حيّ، يا حيّ محي الموتى، يا حي لا إله إلا أنت، فكشف عنهم العذاب، ومتعهم إلى وقت آجالهم(١) .

قال تعالى: ﴿ **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾(٢) .

وقال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ**(٣) **(١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ**(٤) **(١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾(٥) .

وهكذا متع الله عز وجل المؤمنين متاعًا حسنًا، بأن صرف الله عنهم العذاب، بعدما انعقدت أسبابه من الإيمان، والاستغفار، وطلب العفو من الله، وطاعته، والشكر على نعمه.

وبما سبق يتضح لنا أن متاع الحياة الدنيا لا يذم لذاته، بل يقع الذم لمعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما شدة حرصه أو تناوله من غير حله، أو حبسه عن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٣٧٣، والدر المنثور ٣/ ٥٧٣، وتفسير فتح القدير ٢/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦.
(٢) سورة يونس: ٩٨.
(٣) المدحضون: المغلوبون.
(٤) اليقطين هو القرع، وقيل: كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين (انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢).
(٥) سورة الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨.

حقه، أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به، ولهذا قال الله تعالى:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[١].

كما أن متاع الحياة الدنيا ينبغي أن يمدح؛ لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سمى الله تعالى الأموال - وهي من متاع الحياة الدنيا - خيرًا، وهو قوام الآدمي، قال تعالى:

﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾[٢].

وقال سعيد بن المسيب[٣] - رحمه الله -: «لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي منه حقه».

وقال أبو إسحاق السبيعي[٤]: «كانوا يرون السعة عونًا على الدين».

---

(١) سورة الأنفال: ٢٨.

(٢) سورة النساء: ٥.

(٣) هو: سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي، أبو محمد المدني، سيد التابعين، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب، وقيل: لأربع سنين، وكان أفقه التابعين. مات سنة أربع وتسعين في خلافة الوليد بن عبد الملك وهو ابن خمس وسبعين سنة. وقيل: كان مبلغ عمره ثمانين سنة إلا سنة. وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء لكثرة من مات منهم فيها (انظر: تهذيب الكمال ٧/ ٢٩٧ - ٣٠٣).

(٤) هو: أبو إسحاق السبيعي الهمداني الكوفي، اسمه: عمرو بن عبد الله. ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان، وهو كوفي، تابعي، ثقة، سمع ثمانية وثلاثين من أصحاب النبي - ﷺ - مات سنة سبع وعشرين ومائة، وقيل: مات وهو ابن ست وتسعين (انظر: تهذيب الكمال ١٤/ ٢٦٥ - ٢٧٠، وتهذيب التهذيب ٨/ ٥٨ - ٥٩).

وقال سفيان الثوري[١] : «المال في زماننا هذا سلاح المؤمنين» .

وحاصل الأمر ، أن المال ـ وهو من متاع الحياة الدنيا ـ مثل حية فيها سم وترياق[٢] ، فترياقه فوائده ، وغوائله سمه ، فمن عرف فوائده وغوائله ، أمكنه أن يحترز من شره ، ويستدر من خيره[٣] .

* * *

---

(١) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أبو عبد الله الكوفي . ولد سنة سبع وتسعين ، وكان ثقة مأمونًا ، عابدًا ثبتًا ، وكان إمامًا من أئمة المسلمين وعلمًا من أعلام الدين ، مجمعًا على أمانته بحيث يستغنى عن تزكيته مع الإتقان والحفظ ، والمعرفة والضبط ، والورع والزهد ، توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة (انظر : تهذيب التهذيب ٤/ ١٠١ ـ ١٠٢ ، وتهذيب الكمال ٧/ ٣٥٣ ـ ٣٦٤) .

(٢) الترياق : ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين (لسان العرب ١٠/ ٣٢) .

(٣) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة : ١٨٥ .

المبحث السادس
الابتلاء في الحياة الدنيا

من سنن الله تعالى في خلقه الابتلاء، «ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة البشر فيها تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته. فكم يخفق له عمل، أو يخيب له أمل، أو يموت له حبيب، أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال، أو . . . إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة . . .»[١].

هذه سنة الله تعالى في الحياة الدنيا، وهو سبحانه خلق السماوات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزين الأرض بما عليها؛ لابتلاء عباده وامتحانهم، ليعلم من يريده ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[٣].

قال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾: «اللام

---

(١) كتاب الإيمان والحياة ص: ١٧٨.

(٢) سورة هود: ٧.

(٣) سورة الملك: ١ ـ ٢.

متعلقة بخلق؛ أي: خلق الموت والحياة، ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملاً، فيجازيكم على ذلك، وإيراد صيغة التفضيل، مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح، لا إلى الحسن والأحسن فقط، للإيذان بأن المراد بالذات، والمقصد الأصلي من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين»(١) .

وقال ابن كثير: «ولم يقل: (أكثر عملاً)، بل أحسن عملاً، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله عز وجل، على شريعة رسول الله ـ ﷺ ـ؛ فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشطرين حبط وبطل»(٢) .

وقدم الموت على الحياة، لأن أقوى الناس داعيًا إلى العمل من نصب موته بين عينيه، فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم(٣) .

معنى الابتلاء :

البلاء والابتلاء يلتقيان في معنى الاختبار والامتحان. وهما اسمان من بلاه يبلوه وابتلاه، أي جربّه. يقال: «بلوت الرجل بلواً وبلاءً وابتليته: اختبرته، وبلاه يبلوه بلوًا، إذا جرّبه واختبره»(٤) .

ورد في لسان العرب: «وقال ابن الأعرابي: أبلى بمعنى أخبر. وابتلاه الله: امتحنه، والاسم: البَلوَى والبِلوَةُ والبِليَة والبَلِيّة والبلاء، وبُلِيَ بالشيء بلاءً وابْتُلِيَ»(٥) .

---

(١) تفسير فتح القدير ٥/ ٢٥٨ـ٢٥٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٧٧.

(٣) تفسير الكشاف ٤/ ١٣٤، وانظر قريبًا من هذا المعنى: تفسير أبي السعود ٩/ ٢ـ٣.

(٤) لسان العرب ١٤/ ٨٣.

(٥) المرجع السابق ١٤/ ٨٤.

وقال الفيروز آبادي: «وابتليته: اختبرته. وابتليت الرجل فأبلاني: استخبرته فأخبرني، وامتحنته واختبرته، كبلوته بلواً وبلاءً. والاسم: البَلوَى والبليـة والبلوَة ـ بالكسر ـ. والبلاء: الغم كأنه يبلي الجسم. والتكليف بلاء؛ لأنه شاق على البدن، أو لأنه اختبار. والبلاء يكون منحة ويكون محنة[١]»[٢].

وفي المعجم الوسيط: «ابتلاه: جرّبه وعرفه. والبلاء: الحادث ينزل بالمرء ليختبر به، والبلاء: الغم والحزن، والبلاء: مبالغة الجهد في الأمر. البلَى: القدَم: والتقرب إلى الفناء. البلوى: المصيبة. البَلِيُّ: الشديد البلَى. البلِية: المصِيبة، وجمعها بلايا. البلية في الجاهلية: الناقة يموت صاحبها فتحبس على قبره حتى تموت»[٣].

وقد أشار الراغب الأصفهاني إلى أن البلاء يكون منحة ويكون محنة، وذكر أسباب تسمية التكليف بلاءً، فقال: «وسمي التكليف بلاءً من أوجه:

ـ أحدها: أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاءً.

ـ والثاني: أنها اختبارات؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ**﴾[٤].

ـ والثالث: أن اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسارِّ ليشكروا، وتارة بالمضارِّ ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعًا بلاءً، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة

---

(١) وفي مختار الصحاح ص: ٦١٧: (المحنة) واحدة (المحن) التي يمتحن بها الإنسان من بلية.

(٢) القاموس المحيط ٤/ ٣٠٦.

(٣) المعجم الوسيط ١/ ٧٠.

(٤) سورة محمد: ٣١.

مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر: «بُلينا بالضراء فصبرنا، وبُلينا بالسراء فلم نصبر»»[١] .

هذا، وقد بين الراغب الأصفهاني الفرق بين فعل الله تعالى وفعل الإنسان عند إطلاق الفعل «ابتلى» فقال: «وإذا قيل: ابتلى فلان كذا وأبلاه، فذلك يتضمن أمرين:

أحدهما: تعرف حاله والوقف على ما يجهل من أمره.

والثاني: ظهور جودته ورداءته.

وربما قصد به الأمران. وربما يقصد به أحدهما. فإذا قيل في الله تعالى: بلى كذا أو أبلاه، فليس المراد منه إلا ظهور جودته ورداءته دون التعرف لحاله والوقوف على ما يجهل من أمره، إذ كان الله سبحانه علام الغيوب، وعلى هذا قوله عز وجل: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ** ﴾[٢] . ويقال: أبليت فلانًا يمينًا: إذا عرضت عليه اليمين لتبلوه بها»[٣] .

وقد وضح القرطبي أيضًا استعمال الفعل: بلى يبلو وابتلى، فقال: «وقال ابن كيسان: ويقال في الخير: أبلاه الله وبلاه؛ وأنشد:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم ... وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو[٤]

فجمع بين اللغتين، والأكثر في الخير: ابتليته، وفي الشر: بلوته، وفي

(١) المفردات: ٦١.

(٢) سورة البقرة: ١٢٤.

(٣) المفردات: ٦١-٦٢.

(٤) قائله زهير، قاله القرطبي في تفسيره ١/ ٣٨٧.

الاختبار: ابتليته وبلوته؛ قاله: النحاس»[١].

ويبدو مما سبق ذكره من الأقوال: أن البلاء هو الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان، أي: استخراج ما عند المبتلى وتعرف حاله في الطاعة والمعصية بتحميله المشقة أو بتحميله المكاره والمشاق. وأن التكليف يسمى بلاءً، وأن البلاء أصله المحنة، وأنه يكون حسنًا ويكون سيئًا، يكون منحة ويكون محنة[٢].

ابتلاء المؤمنين في الحياة الدنيا أمر لابد منه:

قال تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾[٣].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾ استفهام إنكار، ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبتلي عباده المؤمنين، بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له البلاء**»[٤].

ثم قال: «ولهذا قال ههنا: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾، أي: الذين صدقوا في دعوى الإيمان، ممن هو كاذب في قوله ودعواه؛ والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة، وبهذا

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣٨٧.

(٢) الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين ص: ١٩.

(٣) سورة العنكبوت: ٢-٣.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٦، والحديث رواه أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص ١/ ١٨٥.

يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله: ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ : إلا لنرى؛ وذلك لأن الرؤية، إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود»[١] .

قال صاحب الظلال: «إن الإيمان ليس كلمة تقال، إنما هو حقيقة ذات تكاليف؛ وأمانة ذات أعباء؛ وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا، وهم لا يتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها، ويخرجوا منها صافية عناصرهم، خالصة قلوبهم. كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به- وهذا هو أصل الكلمة اللغوي، وله دلالته وظله وإيحاؤه- وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب.

ثم قال: والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء؛ ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم، لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم. وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره، وبما حققه فعله. فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه! .

إن الإيمان أمانة الله في الأرض، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص. وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى المتاع والإغراء. وإنها لأمانة الخلافة في الأرض، وقيادة الناس إلى طريق الله، وتحقيق كلمته في عالم

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٤٦ .

الحياة. فهي أمانة كريمة؛ وهي أمانة ثقيلة؛ وهي من أمر الله يضطلع بها الناس؛ ومن ثم يحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء»[١] .

فوائد الابتلاء :

يبدو لنا ـ والله أعلم ـ أن هناك فوائد لابتلاء المؤمنين تعود عليهم، وعلى الناس أيضًا إن هم اتعظوا واعتبروا، وهذه الفوائد أذكرها على سبيل المثال لا الحصر :

الفائدة الأولى : تكفير السيئات :

إن الإنسان إذا ابتلاه الله لمصيبة تصيبه في أهله أو جسده أو ماله، فصبر على هذا الابتلاء، واحتسب فيه، فإن الله عز وجل يكفر عنه سيئاته، ويتجاوز عن هفواته، وييسر له الخير.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حزن حتى الهمّ يهُمُّه إلا كُفّر به سيئاته**»[٢] .

الفائدة الثانية : رفع المنزلة والدرجة عند الله تبارك وتعالى :

إن المؤمن إذا ابتلاه الله فصبر على بلواه، لا تكفر عنه سيئاته فحسب، بل يجزل الله له في الثواب، ويعظم له في الأجر، ويرفع مكانته عند الناس وفي الجنة.

«عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن الطاعون،

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٢٠.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض . . .، رقم الحديث: ٥٢ (٢٥٧٣)، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/ ١٣٠.

فأخبرها أنه كان عذابًا يبعثه الله تعالى على من يشاء ، فجعله رحمة للمؤمنين ، فليس من عبد يقع في الطاعون ، فيمكث في بلده صابرًا محتسبًا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد»[١] .

الفائدة الثالثة : المكافأة في الدنيا :

ومن كرم الله تبارك وتعالى على عباده الذين يبتليهم أنه يكافئهم في هذه الحياة الدنيا ، ويعوضهم على ما فقدوه ، ومن هذا القبيل ما حدث لأيوب - عليه السلام - ، فقد أعاد الله له أهله ومثلهم ، وكذلك ما حدث لأم سليم زوج أبي طلحة ، حينما صبرت على فقد ولدها ، واستقلبت زوجها بالرضا والتسليم ، وحدث بينهما ما يحدث بين الزوجين ، فحملت ، وأنجبت ولدًا لأبي طلحة سماه عبد الله ، فكان له تسعة من الأبناء يقرأون القرآن[٢] .

الفائدة الرابعة : إخلاص النفوس لله ، وخلوصها من كل شائبة تكدر صفو الإيمان :

إن الابتلاء من شأنه أن ينقي النفوس من الشوائب ، والقلوب من الرياء ، والعمل من الشرك ، ويوجهها نحو الإخلاص ، بل يصهرها في بوتقة الإخلاص ، بحيث تبتغي في قولها وعملها رضا الله تبارك وتعالى وثوابه[٣] .

الفائدة الخامسة : تربية المؤمنين وثناء من الله عليهم :

قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء ، رقم الحديث : (٣٤٧٤) ، فتح الباري ٦/ ٥١٣ .

(٢) انظر : تهذيب الكمال ٢٢/ ٤٧٥ ، وأسد الغابة : ٧/ ٣٤٥ .

(٣) الابتلاء والمحن في الدعوات : لمحمد عبد القادر أبي فارس ، ص : ٣٨ .

وَالأنفُسِ وَالثَّمرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[١] .

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾: أي ثناء من الله عليهم[٢] .

قال سيد قطب في ظلال هذه الآية: «ولابد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات . . . لابد من هذا البلاء؛ ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف. والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى. فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين. وكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها . . كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها. كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها . . إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم: لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء، ولا صبروا عليه . . وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها . . وعندئذ يجيء نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجًا . . »[٣] .

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٧٣ .

(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٤٥ .

الفائدة السادسة : تطهير الصف المؤمن من أدعياء الإيمان من المنافقين والذين في قلوبهم مرض :

قال تعالى : ﴿ **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً** ﴾[١] .

قال ابن كثير : «يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله ـ ﷺ ـ بين أظهرهم أنهم ابتلوا، واختبروا، وزلزلوا زلزالاً شديداً، فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم : ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً** ﴾، أما المنافق فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حسكة لضعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه، لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . . »[٢] .

إن شدة الخوف والهلع الذي تمكن في قلوبهم مع خبث طويتهم، وإضمارهم النفاق تحملهم على الإشراك بالله والرجوع إلى دينهم عند أدنى صدمة تحصل لهم من العدو؛ فإيمانهم طلاء ظاهري، لا أثر له في نفوسهم بحال، فلا عجب إذا هم تسللوا لواذاً، وبلغ الخوف من نفوسهم كل مبلغ[٣] .

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة، وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء. فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان![٤] .

---

(١) سورة الأحزاب: ١١ ـ ١٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٤ .
(٣) تفسير المراغي ٧/ ١٤٢ .
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٣٨ .

وذلك بخلاف المؤمنين، فإنهم عندما اشتد الكرب، وتفاقمت الشدائد، صار إيمانهم عين اليقين، وأنهم استمروا على العهد والميثاق، فمنهم من لقيه، ومنهم من ينتظر أن يلقاه. قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[١] .

الفائدة السابعة: الاقتداء بالصابرين:

حين يبتلي الله تبارك وتعالى أناسًا ويصبرون وينالون من المكافأة والرفعة عند الله تبارك وتعالى، يكون هذا حافزًا للمؤمنين أن يصبروا ويصابروا ويحتملوا كما صبر أولئك المؤمنون حقًا، فنالوا ما نالوا من الرضا والقبول والرضوان والنعيم المقيم في الآخرة، والعزة في الدنيا[٢] .

قال تعالى: **﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾**[٣] .

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٢-٢٤.

(٢) الابتلاء والمحن في الدعوات ص: ٣٩.

(٣) سورة الأحقاف: ٣٥.

نماذج من ابتلاء الرسل والأمم السابقة :

إن الذي يتأمل ويتدبر قصص الأنبياء والمرسلين يجد أن حياتهم مليئة بالابتلاءات والمحن، وجدير بالمؤمنين أن يتأملوها وأن يدرسوها وأن يستفيدوا منها.

وسأذكر في هذا الصدد نماذج من ابتلاء الرسل والأمم السابقة، على سبيل المثال لا الحصر :

أولاً : ابتلاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ[١] (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾[٢] .

قال ابن كثير : «وإنما أعلم ابنه بذلك، ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أي : امض لما أمرك الله من ذبحي. ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ

---

(١) ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ : صرعه على شقه، فوقع جبينه على الأرض؛ وهو أحد جانبي الجبهة. (تفسير أبي السعود ٧/ ٢٠١).

(٢) سورة الصافات : ٩٩ـ١١٣ .

الصَّابِرِينَ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق - صلوات الله وسلامه عليه - فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾(١) »(٢).

قال الألوسي في قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾: «من الرأي؛ وإنما شاوره في ذلك وهو حتم، ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله عز وجل، فيثبت قدمه إن جزع، ويأمن عليه إن سلم، وليوطن نفسه عليه فيهون عليه ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله، وليكون سنة في المشاورة . . . »(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ يصور مرحلة تنفيذ الأمر. قال صاحب الظلال: «وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا. كانا قد أسلما. كانا قد حققا الأمر والتكليف. ولم يكن باقيًا إلا أن يذبح إسماعيل ويسيل دمه وتزهق روحه. . وهذا أمر لا يعني شيئًا في ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما.

كان الابتلاء قد تم، والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت، وغاياته قد تحققت، ولم يعد إلا الألم البدني، وإلا الدم المسفوح، والجسد الذبيح. والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء، ولا يريد دماءهم وأجسامهم في شيء. ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا وقد حققوا التكليف، وقد

---

(١) سورة مريم: ٥٤ - ٥٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٦.

(٣) تفسير الألوسي ٢٣/ ١٢٩.

جازوا الامتحان بنجاح»[(١)] .

دروس وعبر من قصة ابتلاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

١ ـ إن الله تبارك وتعالى يبتلي عباده الصالحين : الذين أحبهم ، فيعرضهم للمحن لا لينتقم منهم ، وإنما لأنه يحبهم ، ولا يدرك هذا إلا المؤمنون .

٢ ـ أمر الله لا يتقدم عليه أمر : إن المسلم لا يقدم بين يدي الله ورسوله ، بل ينصاع إلى الأمر ، وينقاد له ، ويرضى به ، وإن كان مؤلمًا لنفسه ، محزنًا لقلبه .

٣ ـ ثمرة حسن التربية : لقد ربى إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولده إسماعيل على تقوى الله عز وجل ولزوم طاعته في كل أمر من الأمور . ولما أمره ربه بذبح ولده إسماعيل ـ عليه السلام ـ لم يجد ممانعة منه ، وعصيانًا ، بل استسلم للأمر .

٤ ـ إن الذي يعيش لله لن يتخلى عنه : هذه الحقيقة ينبغي أن تنقش في قلب كل مؤمن ومؤمنة ، كما نقشت في قلب إبراهيم ـ عليه السلام ـ؛ إذ كان دائمًا يجد الله عنده ، فيصبره ، ويعينه على لأواء الطريق ، ويلهمه الصبر على المحنة ، وييسر له من الأسباب ما لا تخطر على باله ، ترى حينما صمم على ذبح ولده امتثالاً لأمر ربه ، هل كان يتوقع أن يفدي الله ولده بكبش عظيم؟ لقد كان ذلك مفاجأة لم يتوقعها ، ومكافأة لم تدر بخلده[(٢)] .

ثانيًا : ابتلاء يوسف ـ عليه السلام ـ :

إن الذي يتأمل ويتدبر سورة يوسف ، ويتابع أحداث القصة فيها ينتهي إلى أن يوسف ـ عليه السلام ـ قد عاش منذ نعومة أظفاره في محن وفتن

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٩٦ .

(٢) الابتلاء والمحن في الدعوات ، باختصار ص : ٣٥ .

وابتلاءات. ولا أذكر كلها، وإنما أذكر بعضها خشية الإطالة، ومحافظة على موضوع الرسالة.

وهذه بعض المحن والفتن والابتلاءات التي مرت على يوسف ـ عليه السلام ـ يمكن تلخيصها وحصرها في ثلاثة عناصر كما يلي:

ـ يوسف ـ عليه السلام ـ وتآمر إخوته عليه وكيدهم له.

ـ امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه.

ـ الحكم على يوسف بالسجن ظلماً وعدواناً، وتنفيذ ذلك الحكم الجائر.

(أ) يوسف ـ عليه السلام ـ ومكائد إخوته له:

قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾[1].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، اعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه وتخلوا أنتم بأبيكم، ﴿**وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ**﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب»[2].

وقال ابن إسحاق يصف بشاعة مؤامرتهم ومكيدتهم لأخيهم يوسف

---

(١) سورة يوسف: ٧ـ١٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٠٦.

ـ عليه السلام ـ : «لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير، الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني، ذي الحق والحرمة والفضل ـ والده ـ، ليفرقوا بينه وبين ابنه على صغر سنه، وحاجته إلى لطف والده، وسكونه إليه، يغفر الله لهم!»[١] .

قال سيد قطب: «هكذا ينزغ الشيطان، وهكذا يسول للنفوس عندما تغضب وتفقد زمامها، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث. وهكذا لما غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا . . والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات! وليست التوبة هكذا. إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر، حتى إذا تذكر ندم، وجاشت نفسه بالتوبة. أما التوبة الجاهزة! التوبة التي تعدّ سلفًا قبل ارتكاب الجريمة؛ لإزالة معالم الجريمة، فليست بالتوبة. إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان!»[٢] .

(ب) امرأة العزيز تراود يوسف ـ عليه السلام ـ عن نفسه :

وهذه فتنة شديدة على الرجال، كما قال ـ ﷺ ـ: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»[٣] .

إن يوسف ـ عليه السلام ـ قد أصبح رجلاً قد استكمل الرجولة والفحولة، كان في عنفوان شبابه، وكان في قمة نضجه الجسمي والعقلي والجنسي، يعاني من مشاهدة حياة القصور المترعة بالفسق والفجور، والعبث والمجون

---

(١) تفسير القاسمي ٩/ ١٩٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٧٣ .

(٣) رواه ابن ماجه في سننه عن أسامة بن زيد، باب فتنة النساء، وقال الألباني: صحيح (٣٩٩٨)، صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣٦٦ .

والانحراف، فيكبت نفسه، ويأخذها بالحزم والضبط.

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحال من الابتلاء، لقد بلغ الأمر مبلغًا لم يكن بالحسبان، إذ برزت إليه امرأة العزيز بأبهى حلة، متعطرة متبهرجة، كما تحفل بزوجها، وتبدي مفاتنها له، وهذا وحده كاف لإثارة يوسف ـ عليه السلام ـ، ولكن بعون الله لم يأبه له، فغلقت الأبواب ودعته بصريح العبارة المغرية، فأبى واستعصم، ورفض المراودة والإغراء، ولكنها أصرت بعناد على أن ينفذ أمرها وهي السيدة وهو الخادم، ولكنه أيضًا يثبت أمام الإغراء والتهديد ويصر بعناد رافضًا أمرها، وقد ألفت غير ذلك؛ أن تأمر فتطاع في كل أمر، فكيف بهذا الخادم يرفض أمرها ؟!.

فمدت يدها إليه لتؤدبه لينصاع إلى أمرها ويزاول ما تطلبه منه. ونسيت أن يوسف ـ عليه السلام ـ وإن كان خادمًا في بيتها، ولكنه حرّ عزيز يأبى أن يلطم لطم العبيد، وتأبى عزته عليه أن يذل إذلال العبيد، فيعرض عنها إعراض العقلاء عن السفهاء، لا يأبه بها وبتهديدها، فتلحق به تشد قميصه فتشقه من الخلف[1]. قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦)

---

(١) الابتلاء والمحن في الدعوات ص: ١٤٤ ـ ١٤٥.

وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[١] .

«من مواضع العبرة في هذه الآيات الكريمة؛ رعاية الله عز وجل ليوسف وعنايته به وتمكينه في الأرض وصرفه عن السوء والفحشاء؛ لأنه كان مخلصًا له، محسنًا في أعماله ونواياه. وتنويهه به لأنه ثبت أمام التجربة، فلم ينزلق في المهاوي المهلكة؛ اتقاء لغضب الله واستشعارًا بواجب الحق والوفاء، حيث ينطوي في ذلك حث على التمسك بأهداف الفضيلة والصدق والأمانة والاستقامة والوفاء، وإشارة إلى ما يناله أصحاب هذه الأخلاق من تكريم الله ورعايته»[٢] .

قال أبو حيان: «وما أحسن هذا التنصل[٣] من الوقوع في السوء: استعاذ أولاً بالله الذي بيده العصمة وملكوت كل شيء، ثم نبّه على أن إحسان الله أو إحسان العزيز الذي سبق منه لا يناسب أن يجازى بالإساءة. ثم نفى الفلاح عن الظالمين؛ وهو الظفر والفوز بالبغية، فلا يناسب أن أكون ظالمًا أضع الشيء غير موضعه وأتعدى ما حدّه الله تعالى لي»[٤] .

قال الرازي: «فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات: أولها: قوله: ﴿**لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ**﴾، واللام للتأكيد والمبالغة. والثاني: قوله: ﴿**وَالْفَحْشَاءَ**﴾ أي كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء. والثالث:

---

(١) سورة يوسف: ٢٢-٢٩.

(٢) التفسير الحديث، لمحمد عزة دروزة، ٤/ ١٠٩ .

(٣) التنصل: شبه التبرؤ من جناية أو ذنب (لسان العرب ١١/ ٦٦٤).

(٤) تفسير البحر المحيط ٥/ ٢٩٤ .

قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[١]. والرابع: قوله: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان: تارة باسم الفاعل، وأخرى باسم المفعول. فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيًا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص. ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته، وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهًا عما أضافوه إليه»[٢].

ج ـ حياة يوسف ـ عليه السلام ـ في السجن :

كل تلك المحن التي ابتلي بها يوسف ـ عليه السلام ـ والحبائل التي نصبت له، والأقاويل التي نسجت حوله، خرج منها عفيف النفس، طاهر الذيل. فقد افتنت امرأة العزيز في مراودته، ولكن لم يكن لذلك أدنى أثر في جذب خلسات[٣] نظره ولا خفقات[٤] قلبه، بل ظل معرضًا عنها متجاهلاً لها، حتى إذا ما صارحته بكلمة اقشعر جلده واستعاذ بربه، وأنف أن يخون بعلها. واتهمته بالخيانة والسوء، فشهد شاهد من أهلها أسقط حجتها، وأوهى كلامها. واجتمع حوله النسوة يفتنّه فما نقضن له مرَّة، ولا حولن له قلبًا.

ظهرت هذه العلامات دالة على براءته، شاهدة على نزاهته وأمانته، وعلمها العزيز واستيقنتها نفسه، ولكن امرأته ـ وقد عيل صبرها، وانقطع من

---

(١) سورة الفرقان: ٦٣.

(٢) التفسير الكبير ١٨/ ١١٦ـ١١٧.

(٣) الخلس: الأخذ في نُهْزة ومخاتلة (لسان العرب ٦/ ٦٥).

(٤) الخفقات: اضطراب القلب، وهي خفّة تأخذ القلب (تاج العروس ١٣/ ١١٦).

يوسف رجاؤها - فزعت إليه، وكان مطواعًا لها، وجملاً ذلولاً في يدها، وقالت له: إن يوسف قد فضحني في أمري، وافترى عليّ الزور في شرفي، وما أرى إلا أن تسجنه، فتأخذ لشرفي، وتشفي من غيظي. فانقاد لقولها، وصدع بأمرها، ودفع بيوسف إلى السجن، بريئًا من ذنبه كما كان الذئب بريئًا من دمه، فاستقبل فيه محنة جديدة، تلقاها بقلب الصابرين، وعزم المؤمنين»[١] .

قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[٢] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «. . . وذلك أن يوسف - عليه السلام - عصمه الله عصمة عظيمة وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال، إنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفًا من الله ورجاء ثوابه»[٣] .

وهكذا كان أثر الابتلاء في حياة يوسف - عليه السلام - واضحًا. لقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه بالأحداث التي مر بها، والابتلاءات التي اجتازها. وقد

---

(١) قصص القرآن، لمحمد أحمد جاد المولى ص: ٨٦.
(٢) سورة يوسف: ٣٢-٣٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٤١٢.

كانت تلك المحن والابتلاءات في حياته ـ عليه السلام ـ عبارة عن تربية ربانية لشخصيته، وإعداداً من الله تعالى ليمكن له في الأرض، وليقوم بالدعوة إلى دين الله وهو ممكن له في الأرض، وهو قابض على مقاليد الأمور في الشؤون المالية في مصر[١].

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[٢].

ثالثًا: ابتلاء سحرة فرعون:

حقًا إن العقيدة السليمة إذا رسخت في النفوس، وتمكنت من القلوب لا تزحزحها جميع قوى الشر والعدوان، ولا ألوان الابتلاءات والشدائد والآلام. يبدو ذلك واضحًا في ثبوت سحرة فرعون على الإيمان عندما تلقوا تهديد فرعون ووعيده التعذيب والقتل والتصليب.

قال تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[٣].

---

(١) الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين ص: ٢٤٦.
(٢) سورة يوسف: ٥٦ ـ ٥٧.
(٣) سورة الأعراف: ١٢٠ ـ ١٢٦.

وقال تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) .

يتضح من هذه الآيات الكريمة أن المعركة بين السحرة الذين أصبحوا يؤمنون بالله وبين فرعون هي معركة العقيدة ، وأنه لا ينقم منهم إلا إيمانهم برب العالمين .

«إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية . هذا الذي كان بين فرعون وملئه ، والمؤمنين من السحرة السابقين .

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية . بانتصار العقيدة على الحياة . وانتصار العزيمة على الألم . وانتصار الإنسان على الشيطان!

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية . بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية . فما

---

(١) سورة طه : ٧٠ـ٧٣ .

(٢) سورة الشعراء : ٤٦ ـ ٥١ .

الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة. والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب، وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح. ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب»[١].

هكذا واجهت نفوس هذه الفئة المؤمنة الأذى والكرب والضيق والتعذيب، فاستعلوا بقوة العقيدة على ذلك كله، ورغبت قلوبهم في جوار الله تعالى، واعتصمت به، ورغبت عما يملك فرعون من الدنيا وزخرفها ومتاعها. ثم أقبلوا صابرين محتسبين على التنكيل والتصليب، فنفّذ فرعون ما هددهم به، واتبع في ذلك أشد أساليب العقاب قسوة وأبعدها من معنى الكرامة الإنسانية. فقتلهم شر قتلة، ثم صلبهم على جذوع النخل، فماتوا شهداءً أبرارًا ـ رضي الله عنهم ـ[٢].

رابعًا: ابتلاء أصحاب الأخدود:

من صور الابتلاء ما حدث في أصحاب الأخدود، فهم قد تعرضوا للأذى والموت حرقًا بأيدي أعدائهم البغاة الطغاة المفسدين، الذين أرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ويتركوا عقيدتهم. ولكن المؤمنين وقفوا بإيمانهم كالجبال، متحدين الطغاة القساة الشريرين، مستعدين لكل شر يصيبهم في سبيل الله، على الرغم من أنهم لم يجدوا النصير الذي يساندهم ويدفع عنهم. فضحوا بحياتهم راضين، واحتملوا العذاب والألم ثابتين صابرين مطمئنين؛ من أجل انتصار عقيدتهم، وإيثارهم رضوان الله تبارك وتعالى على متاع الحياة الدنيا في ظل العبودية والارتداد عن الدين.

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٥٣.

(٢) الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين ص: ٤٢٣.

قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾[١] .

قال القرطبي : «قال علماؤنا : أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ما كان يلقاه مَن وحّد قبلهم من الشدائد؛ يؤنسهم بذلك . وذكر لهم النبي - ﷺ - قصة الغلام[٢] ؛ ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها؛ ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره . وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار . وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم . قال ابن العربي : وهذا منسوخ عندنا، حسب ما تقدم بيانه في سورة النحل[٣] .

---

(١) سورة البروج : ١ - ١١ .

(٢) هذه القصة وردت في حديث طويل رواه مسلم بسنده عن صهيب، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والغلام، ٧٣ (٣٠٠٥)، صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/ ١٣٠ - ١٣٣ .

(٣) يشير بذلك إلى الآية : ١٠٦ من سورة النحل : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، وانظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ٣٧٤ .

قلت: ليس بمنسوخ عندنا، وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى، قال الله تعالى مخبراً عن لقمان: ﴿ **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾[١]. وروى أبو سعيد الخدري أن النبي - ﷺ - قال: «**إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**» خرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب. قال علماؤنا: ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي - ﷺ - بالقتل والصلب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك»[٢].

نماذج من ابتلاء الرسول - ﷺ - وأمته :

إن الذي يتدبر ويتأمل سيرة رسول الله - ﷺ - يجد أن حياته - ﷺ - مليئة بالابتلاءات والمحن؛ وذلك منذ أن نشأ على اليتم والفقر وآلام الحياة. فقد توفي والده عبد الله بن عبد المطلب وهو حمل في بطن أمه. فوُلد الرسول الكريم يتيم الأب، محرومًا من تربيته وعطفه وحنانه. ثم اغترب عن أمه بنت وهب حين أخذته حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية لترضعه عند أهلها في البادية.

«وقد ذكر رواة السيرة أن بادية بني سعد كانت تعاني إذ ذاك سنة مجدبة قد جف فيها الضرع ويبس الزرع، فما هو إلا أن صار محمد - ﷺ - في منزل حليمة، واستكان إلى حجرها وثديها حتى عادت منازل حليمة من حول خبائها ممرعة خضراء، فكانت أغنامها تروح منها عائدة إلى الدار شباعًا ممتلئة الضرع.

وقد حصلت أثناء وجوده - ﷺ - في بادية بني سعد (حادثة شق

---

(١) سورة لقمان: ١٧.

(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٣.

الصـدر)[١] التي رواها مسلم[٢] ، ثم أعيد بعدها إلى أمه وقد تم له من العمر خمس سنوات . ولما أصبح له من العمر ست سنوات ماتت أمه آمنة ، وما إن تحول الرسول إلى كفالة جده عبد المطلب حتى وافته هو الآخر منيته فمات وقد تم للنبي - ﷺ - ثمان سنوات ، فكفله عمه أبو طالب»[٣] .

وسأذكر - في هذ الصدد - صورة قصيرة من صور ابتلاء الرسول - ﷺ - بالعرض السريع ، وهذه الصورة تتعلق بصور عنيفة لمواقف الكافرين من الرسول - ﷺ - ودعوته .

كانت مواقف الكافرين من النبي - ﷺ - ودعوته مواقف سلبية وعدوانية طيلة العهد المكي . فقد أخذت الدعوة منذ البداية تصطدم بالإنكار والاستنكار والصد والتكذيب ، ولقي الرسول - ﷺ - في سبيلها أشد العنت وأقسى الأذى ، وهو صابر على المكروه ، ثابت على الحق ، ولم يجزع ولم يمل ، بل تحمل كل شيء في هذا السبيل ، مرضاة لله تعالى . وسنرى في كل موقف نقدمه من مواقف الذين كفروا من الرسول ودعوته في مكة شاهد صدق على هذا الذي قلناه[٤] .

بعض مواقف أبي جهل من النبي - ﷺ - :

١ - التصدي للنبي - ﷺ - ونهيه عن الصلاة والدعوة :

قال تعالى : ﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ**

---

(١) والابتلاء ليس في حادثة شق الصدر ، وإنما في موت أمه وجده - ﷺ - وهو صغير السن .

(٢) راجع قصة استرضاعه في بادية بني سعد وخبر شق الصدر في : تهذيب السيرة ص : ٣٦ ، أو في سيرة ابن هشام ١/ ١٦٤ ، وانظر : صحيح مسلم ١/ ١٠١ - ١٠٣ .

(٣) فقه السيرة للبوطي ص : ٥٠ .

(٤) الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين ص : ٤٤٢ .

الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾[١] .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفِّر[٢] محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته أو لأعفِّرنَّ وجهه في التراب. قال: فأتى رسول الله - ﷺ - وهو يصلي، زعم ليطأنّ على رقبته، قال: فما فجئهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه. قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهَوْلاً وأجنحة. فقال رسول الله - ﷺ -: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ إلى آخر السورة[٣] .

قال القرطبي: «قال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزّل: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[٤] قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدهم - أي: العدد - والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم! قال السدي: فقال أبو الأسود ابن كلدة الجمحي: لا يهولنكم التسعة أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من

---

(١) سورة العلق: ٦-١٩.
(٢) يعفر: يسجد ويلصق وجهه بالعفر وهو التراب (صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٣٩).
(٣) صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾، رقم الحديث: ٣٨ (٢٧٩٧)، بشرح النووي ١٧/ ١٣٩-١٤٠.
(٤) سورة المدثر: ٣٠.

الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة؛ يقولها مستهزئًا. وفي رواية: أن الحارث بن كلدة قال: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين. وقيل: إن أبا جهل قال: أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار؟ فنزل قوله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً** ﴾[١] الآية»[٢].

٢ ـ كيد أبي لهب وامرأته لرسول الله ـ ﷺ ـ :

روى البخاري بإسناده عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾[٣] ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ـ ﷺ ـ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه. فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: **فإني نذير لكم بين يَدَيْ عذاب شديد**. قال أبو لهب: تبًا لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام. فنزلت: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ﴾[٤][٥].

قال ابن إسحاق: «فذكر لي: أن أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ـ ﷺ ـ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر من حجارة، فلما

---

(١) سورة المدثر: ٣١.

(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٨٠ ـ ٨١، وانظر: الدر المنثور ٦/ ٤٥٦.

(٣) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٤) سورة المسد: ١ ـ ٥.

(٥) صحيح البخاري كتاب التفسير، رقم الحديث (٤٩٧١)، فتح الباري ٨/ ٦٠٩.

وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله - ﷺ - فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مذممًا عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: ما **رأتني لقد أخذ الله ببصرها عني**»[١].

حقًا لقد واجه رسول الله - ﷺ - في تلك الفترة العصيبة في حياة الدعوة في مكة العناد والتكذيب والتحدي والمكابرة، والأساليب النفسية الخسيسة المقرونة بالتهم والشائعات وحملات السخرية والاستهزاء والاستخفاف. ولقد جاء ذلك في آيات كثيرة، فمنها:

- قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ** ﴾[٢].

- وقوله تعالى: ﴿ **بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ** ﴾[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦.
(٢) سورة الحجر: ٦-٨.
(٣) سورة الأنبياء: ٥-٨.

ـ وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾[١] .

ابتلاء الرسول ـ ﷺ ـ والمؤمنين في غزوة الخندق :

وإذا كان الرسول ـ ﷺ ـ يواجه الابتلاءات والمحن في تلك الفترة العصيبة في حياة الدعوة في مكة ، فإنه كذلك يواجه هو وأصحابه الابتلاءات والامتحانات في عهدهم المدني . فمن تلك المحن والابتلاءات غزوة الخندق . ويقال لها أيضًا : غزوة الأحزاب . وهي الغزوة التي ابتلاهم سبحانه وتعالى فيها وزلزلهم ، وثبّت الإيمان في قلوب أوليائه المتقين ، وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق والشقاق والمعاندون .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾[٢] .

---

(١) سورة الفرقان : ٧ ـ ١٠ .

(٢) سورة الأحزاب : ٩ ـ ١٣ .

قال المقريزي[(١)] يصوّر المسلمين في الخندق: «ثم وافى المشركون سَحَرًا، وعَبَّأَ رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه، فقاتلوا يومهم إلى هويٍّ من الليل، وما يقدر رسول الله ـ ﷺ ـ ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من موضعهم، وما قدر ـ ﷺ ـ على صلاة ظهر ولا عصر ولا مغرب ولا عشاء، فجعل أصحابه يقولون: يا رسول الله، ما صلينا. فيقول: **ولا أنا، والله ما صليت**، حتى كشف الله المشركين، ورجع كل من الفريقين إلى منزله. وقام أسيد بن حضير في مائتين على شفير الخندق، فكرَّت خيل المشركين يطلبون غرَّة وعليها خالد بن الوليد فناوشهم[(٢)] ساعة، فزرق[(٣)] وحشي الطفيلَ بن النَعمان بن خنساء الأنصاري السلمي بمزراقه، فقتله كما قتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ بأحد، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ يومئذ: «**شغلنا المشركون عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا**».

وخرجت طليعتان للمسلمين ليلاً فالتقتا ولا يشعر بعضهم ببعض ولا يظنون إلا أنهم العدو، فكانت بينهم جراحة، وقتل، ثم نادوا شعار الإسلام

---

(١) هو: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد المقريزي (وهي نسبة لحارة في بعلبك، تعرف بحارة المقارزة)، الحنفي البعلي الأصل المصري المولد والدار والوفاة. ولد بعد سنة وستين وسبعمائة، ونشأ بالقاهرة. ألف كتبًا كثيرة، حتى قيل: إنها زادت على مائتي مجلدة كبار. من تصانيفه: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، مجمع الفوائد ومنبع الفوائد، إمتاع الأسماع، وغيرها. توفي بالقاهرة في ١٦ رمضان سنة خمس وأربعين وثمانمائة (شذرات الذهب ٧/ ٢٥٤، معجم المؤلفين ١/ ٢٠٤).

(٢) التناوش، بلا همز: الأخذ من قرب، والتناوش، بالهمز، من بعد (لسان العرب ٦/ ٣٦١).

(٣) فزرق: أي فطعنه أو رماه به. والمزراق من الرماح: رمح قصير وهو أخف من العَنَزَة (لسان العرب ١٠/ ١٣٩).

(حم، لا ينصرون) فكف بعضهم عن بعض، وجاؤوا فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**جراحكم في سبيل الله، ومن قتل منكم فإنه شهيد**»[(١)] .

كان تجمع الأحزاب على المدينة وحصارها مثار قلق واضطراب، ومبعث بلاء وشدة وخوف، فانتابتهم الظنون، وأظهر المنافقون كثيراً مما يسرون، فمنهم من قال: إن بيوتنا عورة، فلننصرف إليها، فإنا نخاف عليها، ومنهم من قال: ما وعدنا الله ورسوله من الظفر والنصر على العدو إلا وعداً باطلاً يغرّنا به ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به.

فالمنافقون لهم خصال اجتماعية وشخصية قبيحة ومذمومة، فهم بخلاء على المسلمين فيما يحقق المصلحة العامة، بخلاء بأنفسهم وأموالهم، جبناء يخافون من لقاء الشجعان، سليطو اللسان، يؤذون غيرهم بالكلام يتفاخرون بما هو كذب وزور، والحقيقة أنهم كفرة، لم يؤمنوا بقلوبهم، وإن كان ظاهرهم الإسلام[(٢)] .

نتيجة :

وبما سبق ذكره في هذا المبحث يتضح لنا أن أحوال الناس في مراحل حياتهم المختلفة، والجماعات الإنسانية، والمجتمعات البشرية في الحقب الزمنية المختلفة، لا تخلو ولا تفر من الابتلاء، وأن الله خلق كل الناس ليبتليهم. قال تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً**﴾[(٣)] .

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٢٣٢ـ ٢٣٤ بتصرف.

(٢) انظر: التفسير المنير ٢١/ ٢٨٥، وتفسير المراغي ٧/ ١٤١.

(٣) سورة الإنسان: ٢.

كما يبدو لنا بما سبق أن الدنيا من مبتداها إلى منتهاها دار ابتلاء، وليست دار جزاء، إنما الدار الآخرة هي دار الجزاء، يعجل للصالح والفاسد في الدنيا بعض جزاء عمله، لكن الجزاء الأوفى في الآخرة.

وعلى هذا فغاية المؤمن في هذه الحياة الدنيا إرضاء الله تبارك وتعالى، وذلك بالتزام أوامره سبحانه، فيحل حلاله ويحرم حرامه، والكف عن معاصيه، والعمل الدؤوب لاجتياز الاختبار بالإقبال على فعل الخيرات والإقلاع عن السيئات وما يؤدي إليها، فيفوز بالنجاح الحقيقي[١]. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٢].

* * *

(١) الابتلاء والمحن في الدعوات ص: ١٦.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٥.

الفصل الثانى

حقيقة الحياة الآخرة

وتحته مباحث :

المبحث الأول : وصف الحياة الآخرة في القرآن الكريم.

المبحث الثاني : خلود الحياة الآخرة.

المبحث الثالث : عذاب الحياة الآخرة.

المبحث الرابع : نعيم الحياة الآخرة.

تمهيد

إن الحياة في مفهومها الإسلامي ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد وعمر الأمة من الناس ، كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا .

إن الحياة في مفهومها الإسلامي تمتد في الزمان ، فتشمل هذه الفترة المشهودة ـ فترة الحياة الدنيا ـ وفترة الحياةالآخرة ؛ والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار . وتمتد في المكان ، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر ، داراً أخرى : جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ، وناراً تسع الكفرة من جميع القرون .

وتمتد الحياة في حقيقتها ، فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا ، إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الآخرة . . . في الجنة وفي النار سواء . وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا .

هذه لمحة قصيرة عن الحياة في مفهومها الإسلامي ، وأنها تمهيد لبيان حقيقة الحياة الآخرة التي ستأتي تفاصيلها ـ إن شاء الله ـ في المباحث التالية .

* * *

المبحث الأول
وصف الحياة الآخرة في القرآن الكريم

لقد وصف الله سبحانه وتعالى الحياة الآخرة في القرآن الكريم بأوصاف تبين للناس حقيقتها، لكي يكونوا على بصيرة في معرفتها، فيؤثروا الحياة الآخرة الباقية على الحياة الدنيا الفانية، ومن هذه الصفات:

الأولى: الحيوان:

قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1].

عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾، يقول: لا موت فيها[2].

يقول ابن جرير ـ في تفسير هذه الآية ـ: «وإن الدار الآخرة لفيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها، ولا انقطاع، ولا موت معها»[3].

وقال أبو عبيدة: «. . . والحيوان والحياة واحد؛ لهي دار الحياة التي لا موت فيها، ولا تنغيص يشوبها كما يشوب الحياة في الدنيا»[4].

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٤.

(٢) تفسير مجاهد: ٢/ ٤٩٧.

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٩.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٨٣.

و(الحيوان) مصدر «حي»، وقياسه حييان، فقلبت الياء الثانية واواً، وفي بناء «الحيوان» زيادة معنى - ليس في بناء الحياة، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب، كالنزوان والنغضان واللهبان وما أشبه ذلك، والحياة حركة، كما أن الموت سكون، فمجيئه على بناء دالّ على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة؛ ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضي للمبالغة[(١)] .

وقال عبد الكريم الخطيب: «وفي قوله تعالى: ﴿ **لَهِيَ الْحَيَوَانُ** ﴾ بدلاً من (لهي الحياة) إشارة إلى أن الحياة الآخرة هي الحياة، بل هي أصل الحياة، وما سواها من حيوات ظل لها، أو فرع منها.

وقوله تعالى: ﴿ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ . . اتهام لهؤلاء المشركين بالجهل والغباء، وأنهم لو كانوا على شيء من العلم لما عموا عن هذه الحقيقة، ولما آثروا الفانية على الباقية، ولما اشتروا الظلالة بالهدى . . فإن العاقل العالم من شأنه أن يميز الخبيث من الطيب، ويفرق بين الغث والثمين»[(٢)] .

وذكر الشيخ عبد الرحمن السعدي أن الحياة الآخرة هي الحياة الكاملة، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ** ﴾ : أي: الحياة الكاملة التي من لوازمها أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذة، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المآكل

---

(١) تفسير الكشاف ٣/ ٢١١ - ٢١٢، وانظر: تفسير أبي السعود ٧/ ٤٧، وتفسير النسفي ٤/ ١٠١ .

(٢) التفسير القرآني للقرآن ١١/ ٤٦٧ .

والمشارب والمناكح وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[(١)] .

ومما سبق يتضح لنا حقيقة الحياة الآخرة بأنها الحياة الدائمة التي لا موت فيها، وأنها الحياة الكاملة لما فيهامن الحيوية. فاقتضى ذلك أن الذين يعلمون لابد أن يؤثروا الحياة الآخرة على الحياة الدنيا، لما يعلمونه من صفاتهما المختلفة، وإلا فعلمهم بالحياة الآخرة ادعاء بلا شهادة، وفي ذلك يعجب كل العجب.

الثانية : دار القرار :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[(٢)] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : «يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي الجبار الأعلى، فقال لهم : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾، لا كما كذب فرعون في قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾[(٣)] ، ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروا على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أي : قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل، ﴿ وَإِنَّ

---

(١) تفسير السعدي ٦/ ١٠٦ .

(٢) سورة غافر : ٣٨ ـ ٤٠ .

(٣) سورة غافر : ٢٩ .

الآخِـرَةَ هِيَ دَارُ الْقَـرَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها، ولا ظعن عنها إلى غيرها، إما نعيم وإما جحيم؛ ولهذا قال جلت عظمته: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ أي: واحدة مثلها، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا يتقدر بجزاء، بل يثيبه الله عز وجل ثوابًا كثيرًا، لا انقضاء له، ولا نفاد، والله تعالى الموفق للصواب»[1].

وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة ـ رضي الله عنه ـ: ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾: استقرت الجنة بأهلها، واستقرت النار بأهلها[2].

الجنة والنار مستقرتان:

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى صفة الجنة بأنها مستقرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[4].

كما ذكر الله عز وجل صفة النار بأنها مستقرة، وأنها بئس القرار لمن أراد الله به النكال والوبال، فقال في آيات كثيرة منها:

ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[5].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٧٣.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٦٥٨.

(٣) سورة الفرقان: ٢٤.

(٤) سورة الفرقان: ٧٥ ـ ٧٦.

(٥) سورة إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩.

- وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾(١) .

- وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾(٢) .

وهكذا يتجلى لنا أن الحياة الآخرة هي دار القرار ؛ فهي الأصل وإليها النظر والاعتبار، وهي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي للعاقل أن يؤثرها، ويسعى لها سعيها، فيسعده فيها .

الثالثة : دار الجزاء :

ومن صفات الآخرة التي لابد أن نؤمن بها أنها دار الجزاء، وهذا الجزاء هو الجزاء الحقيقي ؛ لأنه جاء من الملك الحق الذي لا يملك أحد معه في الحياة الآخرة حكمًا كملكهم في الدنيا . قال تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾(٣) .

«والدين : الجزاء والحساب، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾(٤) ، وقال : ﴿ أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾(٥) أي : مجزيون محاسبون»(٦) .

«إن جزاء الله هو الجزاء الحقيقي، وهو الجزاء المتفرد بالعدل، الذي يفرق بين المسيئين والمحسنين في الدنيا أو الآخرة ؛ والذي يعلق الجزاء بالعمل، على

---

(١) سورة الفرقان : ٦٥-٦٦ .

(٢) سورة ص : ٦٠ .

(٣) سورة الفاتحة : ٤ .

(٤) سورة النور : ٢٥ .

(٥) سورة الصافات : ٥٣ .

(٦) تفسير ابن كثير ١/ ٢٥ .

أساس العدل الدقيق، ففي حياة الآخرة لا تبخس نفس جزاء ما عملت من خير أو شر، ولا يحمل عليها وزر غيرها، بل توفى كل نفس ما عملت من صالح، ولا تعاقب إلا بما اكتسبت من طالح، جزاءً وفاقًا لما عملت في الدنيا»(١) . وقد ذكر القرآن الكريم جزاء الله العادل في آيات كثيرة، منها:

- قوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾(٢) .

- وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾(٣) .

- وقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(٤) .

وهكذا يتجلى لنا جزاء الله العادل الذي يمثل الكلية الضخمة العميقة التأثير في الحياة البشرية كلها، وأن الإيمان بيوم الجزاء كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض.

---

(١) تفسير المراغي: ٨/ ٢١.
(٢) سورة يس: ٥٤ـ٥٩.
(٣) سورة السجدة: ١٨ـ٢٠.
(٤) سورة غافر: ١٧.

الرابعة : الحياة الآخرة خير للمتقين :

قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾[١] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : « . . . ثم أخبر بأن دار الآخرة خير ، أي : من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ... ﴾ الآية[٢] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾[٣] . وقال تعالى : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[٤] . وقال لرسوله ـ ﷺ ـ : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾[٥] . ثم وصف الدار الآخرة ، فقال : ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾[٦] »[٧] .

وقد أكد الله سبحانه وتعالى أن الحياة الاخرة خير للمتقين في آيات كثيرة ، منها :

ـ قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٨] .

---

(١) سورة النحل : ٣٠ .
(٢) سورة القصص : ٨٠ .
(٣) سورة آل عمران : ١٩٨ .
(٤) سورة الأعلى : ١٧ .
(٥) سورة الضحى : ٤ .
(٦) سورة النحل : ٣٠ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٩٠ .
(٨) سورة الأعراف : ١٦٩ .

ـ وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(١) .

ـ وقوله تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(٢) .

إن الذي يتأمل في هذه الآيات ويتدبرها، يجد أن الله سبحانه وتعالى قد كرّر فيها ذكر الآخرة والتقوى، وذلك مما يدل على أهميتهما؛ لأن قضية الآخرة وقضية التقوى قضيتان أساسيتان في العقيدة وفي الحياة. كما كرّر الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات ذكر العقل، وجعله رأسًا لكل آية؛ لكي يعقل ويعلم كل إنسان ـ علم اليقين ـ بأن الحياة الآخرة خير من الحياة الدنيا.

يقول صاحب الظلال: «لاشيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم(٣) والهائج(٤) وفي هذه المعركة الكبرى؛ إلا اليقين في الآخرة، وأنها خير للذين يتقون، ويعفون ويترفعون، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن، ويمضون في الطريق لا يلتفتون، مطمئنين واثقين، ملء قلوبهم اليقين.

وهذه الدار الآخرة غيب من الغيب الذي يريد دعاة «الاشتراكية العلمية»

---

(١) سورة يوسف: ١٠٩.

(٢) سورة الأنعام: ٣٢.

(٣) قال الأصمعي: الخضم هو الأكل بجميع الفم (لسان العرب ١٢/ ١٨٣).

(٤) والهيج والهياج والهيجا والهيجاء: الحرب (لسان العرب ٢/ ٣٩٥).

أن يلغوه من قلوبنا ومن عقيدتنا ومن حياتنا، ويحلوا محله تصوراً كافراً جاهلاً مطموساً يسمونه: «العلمية»..

ومن أجل هذه المحاولة البائسة تفسد الحياة، وتفسد النفوس، وينطلق السعار المجنون الذي لا يكبحه إلا ذلك اليقين.. ينطلق سعار الرشوة والفساد والطمع والطغيان. وينتشر داء الإهمال وقلة المبالاة والخيانة في كل مجال.

إن «العلمية» التي تناقض «الغيبية» جهالة من جهالات القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر. جهالة يرجع عنها العلم البشري ذاته، ولا يبقى من يرددها في القرن العشرين الذي يهدد البشرية بالدمار.

ولأن قضية الآخرة وقضية التقوى قضيتان أساسيتان في العقيدة وفي الحياة، يحيل السياق القرآني المخاطبين الذين يتهافتون على عرض هذا الأدنى.. عرض الحياة الدنيا.. إلى العقل: ﴿**وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[1].

ولو كان العقل هو الذي يحكم الهوى، ولو كان العلم الحق لا الجهالة التي تسمى العلم هو الذي يقضي.. لكانت الدار الآخرة خيراً من عرض هذا الأدنى. ولكانت التقوى زاداً للدين والدنيا جميعًا»[2].

أما وصف الآخرة بكونها خيراً فقد ذكر الفخر الرازي وجوهًا، فقال:

«وصف الآخرة بكونها خيرًا، ويدل على أن الأمر كذلك حصول التفات بين أحوال الدنيا وأحوال الآخرة في وجوه:

---

(١) سورة الأعراف: ١٦٩.

(٢) في ظلال القرآن: ٣/ ١٣٨٧ـ ١٣٨٨.

الأول : أن خيرات الدنيا ليست إلا قضاء الشهوتين، وهو في نهاية الخساسة[١] ، بدليل أن الحيوانات الخسيسة تشارك الإنسان فيه؛ بل ربما كان أمر تلك الحيوانات فيها أكمل من أمر الإنسان . .

الثاني : أن هذين النوعين تشاركا في الفضل والمنقبة[٢] ، إلا أن الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد القيامة معلوم قطعًا . وأما الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد الدنيا في آخر ذلك اليوم، وكم من أمير كبير أصبح في الملك والإمارة، أمسى أسيرًا حقيرًا، وهذا التفاوت أيضًا يوجب المباينة بين النوعين .

الثالث : هب أنه وجد الإنسان بعد هذا اليوم يومًا آخر في الدنيا، إلا أنه لا يدري هل يمكنه الانتفاع بما جمعه من الأموال والطيبات واللذات أم لا؟ أما كل ما جمعه من موجبات السعادات، فإنه يعلم قطعًا أنه ينتفع به في الدار الآخرة .

الرابع : هب أنه ينتفع بها إلا أن انتفاعه بخيرات الدنيا لا يكون خاليًا عن شوائب المكروهات، وممازجة المحرمات المخوفات . . .

الخامس : هب أنه ينتفع بتلك الأموال والطيبات في الغد، إلا أن تلك المنافع منقرضة ذاهبة باطلة، وكلما كانت تلك المنافع أقوى وألذ وأكمل وأفضل، كانت الأحزان الحاصلة عند انقراضها وانقضائها أقوى وأكمل .

فثبت بما ذكرنا أن سعادات الدنيا وخيراتها موصوفة بهذه العيوب

---

(١) الخسيس : الدنيء (لسان العرب ٦/ ٦٤) .

(٢) المنقبة : كرم الفعل (لسان العرب ١/ ٧٦٨) .

العظيمة، والنقصانات الكاملة، وسعادات الآخرة مبرأة عنها، فوجب القطع بأن الآخرة أكمل، وأفضل وأبقى وأتقى وأحرى وأولى»[١] .

* * *

(١) التفسير الكبير ١٢/ ٢٠١-٢٠٢ باختصار.

المبحث الثاني
خلود الحياة الآخرة

معنى الخلود :

قال الراغب : «الخلود : هو تبرِّئ الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها»[1] .

وقال صاحب لسان العرب : «الخلد : دوام البقاء في دار لا يخرج منها . خَلَدَ : يخْلُدُ خُلْداً وخلوداً : بقي وأقام . ودار الخلد : الآخرة ؛ لبقاء أهلها فيها»[2] .

خلود أهل الدارين :

قال تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾[3] .

قال ابن كثير : « . . . ثم قال تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ** ﴾ أي : أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿ **إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ** ﴾ أي : فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كلٌّ إلى ما صار إليه مخلداً فيه ، ﴿ **وَهُمْ** ﴾ أي : اليوم ﴿ **فِي غَفْلَةٍ** ﴾ عما

(١) المفردات في غريب القرآن ص : ١٥٤ .
(٢) لسان العرب : ٣/ ١٦٤ .
(٣) سورة مريم : ٣٩ .

أنذروا به يوم الحسرة والندامة، ﴿ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: لا يصدقون به»[١] .

روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح[٢] ، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبُّون[٣] وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلهم قد رآه. فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، يا أهل النار، خلود فلا موت. ثم قرأ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[٤] »[٥] .

خلود نعيم الجنة :

قال الراغب: «والخلود في الجنة بقاء الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها، قال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٦] »[٧] .

وسأذكر في هذا الصدد ـ من باب ذكر المثال لا الحصر ـ بعض نعيم الجنة؛

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٧ .

(٢) الكبش الأملح: هو الأبيض الخالص، قاله ابن الأعرابي. وقال الكسائي: هو الذي فيه بياض وسواد، وبياضه أكثر (شرح النووي لصحيح مسلم ١٧/ ١٨٥).

(٣) فيشرئبون: بالهمز، أي يرفعون رؤوسهم إلى المنادي (المصدر السابق).

(٤) سورة مريم: ٣٩.

(٥) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ رقم الحديث: ٤٧٣٠، فتح الباري ٨/ ٢٨٢ . وصحيح مسلم كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم الحديث: ٤٠ (٢٨٤٩)، بشرح النووي ١٧/ ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٦) سورة البقرة: ٨٢ .

(٧) المفردات في غريب القرآن: ص: ١٥٤ .

لنكون على إيمان عميق، واعتقاد جازم بأن الحياة الآخرة هي الحياة الخالدة، فمن هذه النعم :

الأولى : أنهار الجنة :

قال تعالى : ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ** ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ** ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة : يعني غير متغير . وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني : غير منتن . والعرب تقول : أسن الماء : إذا تغير ريحه . . وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ** ﴾ أي : بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة . وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ** ﴾ أي : ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل . وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى** ﴾ أي : وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح(٢) .

روى البخاري بسنده . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها**، قالوا : يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال : **إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله**، ما

---

(١) سورة محمد : ١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٥٦ ، وانظر : الدر المنثور ٦/ ٢٥ ، وتفسير فتح القدير ٥/ ٣٤ ، وتفسير السعدي ٧/ ٧٠ ـ ٧١ .

بين الدرجتين كما بين السماء والأرض؛ فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[(١)] .

وقد وردت في القرآن الكريم ثمان وثلاثون آية[(٢)] تصف الجنة التي تجري من تحتها الأنهار، كقوله تعالى: ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[(٣)] .

وصورة الأنهار الجارية الخالدة هي التي تكمل صورة الطبيعة الرائعة في القرآن الكريم، وقد ذكر صاحب الكشاف هذا بقوله: «لولا أن الماء الجاري من النعمة واللذة الكبرى، وأن الجنان والرياض وأن أنقى شيء وأحسنه لا تروق النواظر، ولا تبهج الأنفس، ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الماء. وإلا كان الأنس الأعظم فائتًا والسرور الأوفر مفقودًا، وكانت كتماثيل لا روح فيها، وصور لا حياة لها لما جاء الله بذكر الجنان مشفوعًا بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قِران واحد كالشيئين لابد لأحدهما من صاحبه»[(٤)] .

ولاريب أن للأنهار منظرًا يروق العين، ويثلج الصدر، ويبهج النفس، فضلاً عن أن الماء يوحي بمعنى الحياة والاطمئنان إليها، لذلك جسد القرآن الكريم هذه الصورة الرائعة للجنة التي أعدها للمؤمنين، بما فيها من الأنهار

---

(١) صحيح البخاري كتاب التوحيد، باب ﴿وكان عرشه على الماء، وهو رب العرش العظيم﴾، رقم الحديث ٧٤٢٣، فتح الباري ١٣/ ٤١٥ .

(٢) المعجم المفهرس: ٧١٩-٧٢٠ .

(٣) سورة البقرة: ٢٥ .

(٤) تفسير الكشاف ١/ ٢٥٧-٢٥٨ .

الجارية، والمياه الوفيرة[١] .

وفي الآيات التي وردت فيها الجنة غير مقترنة بالأنهار نجدها مقرونة بالعيون المتفجرة بالمياه، قال تعالى: ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾[٢] . وقال تعالى: ﴿ **مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾[٣] . وقال تعالى: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ** ﴾[٤] .

وإذا كانت عيون وآبار الحياة الدنيا معرضة للجفاف والنفاد، فإن عيون الجنة وفيرة المياه خالدة التفجير: ﴿ **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا** ﴾[٥] .

فاقتران عين الجنة بالتفجير يبين ميزتها وجمالها، بأنها خالدة التفجير غير مقترنة بزمن معين[٦] .

الثانية: أشجار الجنة وثمارها:

أشجار الجنة كثيرة طيبة خالدة، وقد أخبرنا الله عز وجل أن في الجنة أشجار العنب والنخل والرمان، كما فيها أشجار السدر والطلح .

---

(١) الدار القرار في البيان القرآني، للدكتور حامد صادق قنيي، ص: ١٠٥ .
(٢) سورة الرحمن: ٤٦ ـ ٥١ .
(٣) سورة الرحمن: ٦٤ ـ ٦٧ .
(٤) سورة الغاشية: ٨ ـ ١٢ .
(٥) سورة الإنسان: ٦ .
(٦) الدار القرار في البيان القرآني ص: ١٠٧ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[٣] .

«إن سدر الدنيا كثير الشوك، قليل الثمر، وفي الآخرة على العكس من هذا لاشوك فيه. والطلح: شجر عظام يكون بأرض الحجاز من شجر العضاه، واحدته طلحة، وهو شجر كثير الشوك، ولكنه في الجنة منضود، وهو الذي لا شوك له، وأن طلعه منضود، وهو كثرة ثمره»[٤] .

وأشجار الجنة دائمة العطاء، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطي في وقت دون وقت، وفصل دون فصل، بل هي دائمة الإثمار والظلال، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾[٦] .

«أي: لا تنقطع شتاءً وصيفًا، كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض الأوقات،

---

(١) سورة النبأ: ٣١-٣٢.

(٢) سورة الرحمن: ٦٨ .

(٣) سورة الواقعة: ٢٧-٣٢.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٢٥٣ .

(٥) سورة الرعد: ٣٥.

(٦) سورة الواقعة: ٣٢-٣٣.

بل أكلها دائم مستمر أبدًا مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء»[١].

وفي الجنة شجرة خالدة، هائلة لا يقدر قدرها إلا الذي خلقها، قال تعالى: ﴿ **وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ** ﴾[٢]. قال الرازي: «ممدود زمانًا، أي: لا زوال له فهو دائم، كما قال تعالى: ﴿ **أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا** ﴾[٣]»[٤].

وقد بين الرسول - ﷺ - عظم هذه الشجرة بأن أخبر أن الراكب لفرس من الخيل التي تعد للسباق يحتاج إلى مائة عام حتى يقطعها إذا سار بأقصى ما يمكنه؛ ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام وما يقطعها**»[٥].

وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾**[٦]»[٧].

ورواه مسلم عن أبي هريرة وسهل بن سعد عن رسول الله - ﷺ - قال: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها**»[٨].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٢٥٥، وتفسير فتح القدير ٥/ ١٥٣.
(٢) سورة الواقعة: ٣٠.
(٣) سورة الرعد: ٣٥.
(٤) التفسير الكبير ٢٩/ ١٣٤.
(٥) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة، فتح الباري ١١/ ٤١٦.
(٦) سورة الواقعة: ٣٠.
(٧) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري ٦/ ٣١٩.
(٨) رواه مسلم في كتاب الجنة، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، رقم الحديث: ٨ (٢٨٢٧)، صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٦٧.

وروى ابن المبارك عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال : «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين - أو قال: مائة - سنة، وهي شجرة الخلد**»[١] .

الثالثة : الحور العين :

ومن صور الحياة الآخرة الخالدة أن هيأ الله في الجنة للمؤمنين من النعم ما لا يعرفه البشر ، ولم يروه في الحياة الدنيا ، ومن ذلك الحور العين ، وهن نساء أهل الجنة ، قال تعالى : ﴿**كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ**﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿**وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٣] . قال ابن جرير : «والحور: جماعة حوراء ، وهي النقية بياض العين ، الشديدة سوادها . والعِين : جمع عيناء ، وهي النجلاء العين في حسن»[٤] .

وقد أخبرنا رسول الله - ﷺ - أن الحور العين في الجنان خالدات ، آمنات ، مقيمات ، ففي معجم «الطبراني الأوسط» بإسناد صحيح عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - قال : «**إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط. إن مما يغنين: نحن الخيّرات الحسان، أزواج قوم كرام، ينظرن بقرة أعيان. وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا يمتنه، نحن الآمنات فلا يخفنه، نحن المقيمات فلا يظعنه**»[٥] .

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٦٣٨ ، رقم الحديث (٣٣٣٧٤) .

(٢) سورة الدخان : ٥٤ .

(٣) سورة الواقعة : ٢٢ - ٢٤ .

(٤) تفسير الطبري ٢٧/ ١٠٥ .

(٥) صحيح الجامع الصغير ٢/ ٤٨ ، ورقم الحديث : ١٥٥٧ ، وعزاه الشيخ ناصر إلى الطبراني في الأوسط .

وعن علي قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**إن في الجنة لمجتمعًا للحور العين يُرفّعن بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها، قال: يقلن نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبؤس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له**»[1].

ونساء الجنة لسن كنساء الدنيا، فإنهن مطهرات من القذر والأذى، والبصاق والمخاط والبول والغائط، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[2].

«وقوله تعالى: ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ**﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى. وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام[3] والبزاق والمني والولد. وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم.

وقوله تعالى: ﴿**وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا

---

(١) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في كلام الحور العين، رقم الحديث: ٢٦٨٩، وقال: وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد وأنس. حديث علي حديث غريب. أما حديث أبي هريرة فأخرجه البيهقي عنه موقوفًا، قال: إن في الجنة نهرًا طول الجنة حافتاه العذارى قيام متقابلات يغنين بأحسن أصوات يسمعها الخلائق حتى ما يرون أن في الجنة لذة مثلها. قلنا: يا أبا هريرة، وما ذاك الغناء؟ قال: إن شاء الله التسبيح والتحميد والتقديس وثناء على الرب عز وجل. أما حديث أبي سعيد فلينظر من أخرجه. وأما حديث أنس فأخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني عنه مرفوعًا، ولفظه: «**إن الحور في الجنة يغنين يقلن: نحن الحور الحسان هدينا لأزواج كرام**». قال المنذري: وإسناده مقارب (تحفة الأحوذي ٧/ ٢٨٧).

(٢) سورة البقرة: ٢٥.

(٣) النخمة: ضرب من خشام الأنف، وهو ضيق في نفسه (لسان العرب ١٢/ ٥٧٢).

النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع، فلا آخر له ولا انقضاء، بل نعيم سرمدي أبدي على الدوام»(١) .

الرابعة : الولدان المخلدون :

ومن أنواع الحياة الآخرة طواف ولدان أهل الجنة عليهم للخدمة، فهم مخلدون على حالة واحدة، لا يتغيرون عنها، ولا يموتون، قال تعالى : ﴿ **وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا** ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ **يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ** ﴾(٣) .

عن مجاهد : ﴿ **يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ** ﴾ يقول : «لا يموتون ولا يكبرون»(٤) .

وقال ابن جرير : «واختلف أهل التأويل في تأويل قوله : ﴿ **مُّخَلَّدُونَ** ﴾ فقال بعضهم : عنى بذلك : أنهم ولدان على سن واحدة لا يتغيرون ولا يموتون. وقال آخرون : عنى بذلك أنهم مقرطون مسورون. والذي هو أولى بالصواب في ذلك قول من قال : معناه أنهم لا يتغيرون ولا يموتون؛ لأن ذلك أظهر معنييه، والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط(٥) : إنه لمخلد، وإنما هو مفعل من الخلد»(٦) .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٩، وانظر : الدر المنثور ١/ ٨٣ـ٨٤، وتفسير فتح القدير ١/ ٥٥ .

(٢) سورة الإنسان : ١٩ .

(٣) سورة الواقعة : ١٧ـ١٨ .

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٦٤٦ .

(٥) والشمط : بياض شعر الرأس يخالط سواده (لسان العرب ٧/ ٣٣٩) .

(٦) تفسير الطبري ٢٧/ ١٠٠ .

وقال الرازي: «وفي قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ وجهان:

الوجه الأول: أنه من الخلود والدوام، وعلى هذا الوجه يظهر وجهان آخران:

- أحدهما: أنهم مخلدون ولا موت لهم ولا فناء.

- وثانيهما: لا يتغيرون عن حالهم ويبقون صغاراً دائمًا لا يكبرون ولا يلتحون.

والوجه الثاني: أنه من الخلدة، وهو القرط، بمعنى: في آذانهم حلق.

والأول أظهر وأليق»[1].

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن، ومن فسرهم بأنهم مخرصون في آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك؛ لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير»[2].

وبهذا يتبين لنا خلود الحياة الآخرة وما فيها من الجنة وأهلها ونعيمها، فإنهم يصحون فلا يسقمون، ويحيون فلا يموتون أبدًا، ويشبُّون فلا يهرمون أبدًا... وقد أخبرنا بذلك رسول الله - ﷺ - في حديث رواه الإمام مسلم بسنده. عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال: «**ينادي منادٍ إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبدًا، فذلك قوله**

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ١٤٩-١٥٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٩.

عز وجل: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١] »[٢] .

خلود النار :

ومن حقائق الحياة الآخرة الخالدة خلود النار، فإنها تدوم ولا تفنى، وإنها تبقى ولا تبيد، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[٣] .

قال الشوكاني في تفسيره: «ومعنى دار الخلد: دار الإقامة المستمرة التي لا انقطاع لها»[٤] .

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾: «أي: الخلود الدائم الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينصرون»[٥] .

وقال الطحاوي في عقيدته: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان ولا تبيدان»[٦] .

ونقل ابن حزم اتفاق الأمة على ذلك، فقد جاء في كتابه «الملل والنحل»

---

(١) سورة الأعراف: ٤٣ :

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، وقوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، رقم الحديث: ٢٢ (٢٨٣٧)، صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٣) سورة فصلت: ٢٨ .

(٤) تفسير فتح القدير: ٤/ ٥١٤ .

(٥) تفسير السعدي ٦/ ٥٧٢ .

(٦) شرح الطحاوي ص: ٤٧٦ .

قوله: «اتفقت فرق الأمة كلها على أن لا فناء للجنة ولا لنعيمها، ولا للنار ولا لعذابها، إلا الجهم بن صفوان»[١] . وجاء في كتابه «مراتب الإجماع» قوله: «. . . وأن النار حق، وأنها دار عذاب لا تفنى، ولا يفنى أهلها بلا نهاية»[٢] .

أهل النار المخلدون فيها :

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة أن أهل النار الخالدين فيها الذين لا يرحلون ولا يبيدون هم الكفرة والمشركون، فمن هذه الآيات البينات:

- قوله تعالى: ﴿ **والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[٣] .

- قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ** ﴾[٤] .

- قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ** ﴾[٥] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ -

---

(١) الملل والنحل ٤/ ٨٣.

(٢) مراتب الإجماع ص: ١٧٣ .

(٣) سورة البقرة: ٣٩.

(٤) سورة البقرة: ١٦١ - ١٦٢ .

(٥) سورة التوبة: ١٧ .

قـال : «يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النـار، ثم يقوم مـؤذن بينهم: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت خلود»[١] .

أكبر جرائم الخالدين في النار :

إن الذي يتدبر القرآن الكريم يجد في آيات كثيرة أن الله عز وجل قد ذكر أسباب جرائم الخالدين الذين استحقوا بها الخلود في النار ، فمن أهمها :

١ ـ الكفر والشرك :

قـال تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾[٢] .

وقـال تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[٣] .

وقال تعـالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، فتح الباري ١١/٤٠٦ .

(٢) سورة البينة : ٦ .

(٣) سورة غافر : ٦٩ ـ ٧٦ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] .

٢ ـ طاعة قرناء السوء :

«يحفل تاريخ الدعوات على مر العصور بنماذج من العتاة المجرمين أصحاب الجاه والبطر، الذين يتصدرون المجتمعات، يرهبون الضعفاء بما لهم من نفوذ وسيطرة فيتبعونهم اتباع الخائف الذليل الذي لا حول ولا طول، وهؤلاء هم الذين سخروا من الأنبياء، وحرضوا السفهاء عليهم، وأغروهم بهم، وقد فضح القرآن بعض هؤلاء؛ كفرعون موسى، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وأبي لهب وامرأته، وقد نزل فيهم من آيات الله المتلوة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ليزيد عذابهم قبل ورودهم النار .

هؤلاء الزعماء الذين أضلوا أقوامهم، وقادوهم إلى محاربة الأنبياء والرسل، ووقفوا لدعاة الحق بالمرصاد، يؤتى بهم يوم القيامة مقرنين في الأصفاد، عليهم سيما الذل والصغار، ويجللهم العار أمام كل الناظرين، ولهم جهنم خالدين فيها جزاء ما اكتسبوا»[2] .

وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا**

---

(١) سورة الرعد : ٥ .

(٢) مشاهد القيامة في الحديث النبوي ص : ١٩٣ .

يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[١] .

ويقول تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا**﴾[٢] .

وقد نبه رسول الله ـ ﷺ ـ أمته إلى اختيار الصاحب المؤمن ، والابتعاد عن قرناء السوء ؛ لأن لكل عملاً وخلقًا ويؤثر على مقارنه ، وقد روى الترمذي في سننه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[٣] .

٣ ـ النفاق :

النفاق انحراف خُلُقي خطير في حياة الفرد ، وفي حياة الأمم ، وتبدو خطورته الكبيرة حينما نلاحظ آثاره على الحركات الإصلاحية الخيرة ، إذ يقوم بعمليات الهدم الشنيع من الداخل ، وصاحبه آمن مستأمَن ، لا تراقبه الأعين ، ولا تحسب حسابًا لمكره ومكايده[٤] .

---

(١) سورة فصلت : ٢٥ ـ ٢٨ .

(٢) سورة الأحزاب : ٦٤ ـ ٦٨ .

(٣) سنن الترمذي ، باب الزهد ، رقم الحديث : ٢٤٨٤ . وقال : هذا حديث حسن غريب . قال صاحب المشكاة بعد ذكر هذا الحديث : رواه أحمد والترمذي وأبو داود والبيهقي في شعب الإيمان ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب . وقال النووي : إسناده صحيح ، انتهى (تحفة الأحوذي ٧/ ٤٩) .

(٤) ظاهرة النفاق لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، ١/ ١٣ .

«المنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، المنافقون في كل زمان وفي كل مكان تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد؛ سوء الطوية ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة؛ تلك سماتهم الأصيلة . . .»(١) .

وهؤلاء المنافقون والمنافقات توعدهم الله بالنار، وهو وعد قطعه الله عز وجل على نفسه، فويل لهم مما كسبت أيديهم، وويل لهم مما يصنعون؛ ووعده عز وجل لهم بخلودهم في النار، قال تعالى:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾(٢) .

وقال تعالى: **﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾**(٣) .

وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أن موقع المنافقين في النار دركاتها السفلى، وهي بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم(٤) . وأن وعيده عز وجل للمنافقين في القرآن أكثر وأشد من وعيده للكفار؛ ذلك لأن كفرهم أسوأ الكفر لما حفّ به من الرذائل(٥) .

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٣ .

(٢) سورة التوبة: ٦٨ .

(٣) سورة الفتح: ٦ .

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٩ .

(٥) انظر: تفسير التحرير والتنوير ٥/ ٢٤٤ .

٤ ـ الكبر :

هذه صفة يتصف بها عامة أهل النار، وهي صفة ذميمة يكرهها الإسلام، ويبغضها الناس؛ لأنها تصادم الفطرة السليمة، وما منع الكافرين الإيمان بالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إلا الكبر، فجعلهم من الخالدين في نار جهنم، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ **قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾[2] .

وقال تعالى: ﴿ **ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾[3] .

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده. عن حارثة بن وهب أنه سمع النبي ـ ﷺ ـ يقول: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعِّف. لو أقسم على الله لأبره**[4] ، **ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتلٍّ**[5] **جوّاظ**[6] **مستكبر**»[7] .

---

(١) سورة الأعراف: ٣٦.

(٢) سورة الزمر: ٧٢.

(٣) سورة غافر: ٧٥ـ٧٦.

(٤) معناه: لو حلف يمينًا طمعًا في كرم الله تعالى بإبراره لأبره (صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٨٧).

(٥) عتل: الجافي الشديد الخصومة بالباطل (المصدر السابق).

(٦) الجوّاظ: الجموع المنوع (المصدر السابق).

(٧) صحيح البخاري في تفسير سورة «ن»، باب قوله تعالى: ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ ٨/ ٦٦٢، صحيح مسلم كتاب صفة الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم الحديث: ٤٦ (٢٨٥٣)، بشرح النووي ١٧/ ١٨٦.

وفي رواية لمسلم: «كل جوّاظ زنيم[(١)] متكبر»[(٢)].

خلود عذاب الآخرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[(٣)].

قال ابن جرير: «قالوا: وأما جلود أهل الكفر من أهل النار فإنها لا تحرق؛ لأن في احتراقها إلى حال إعادتها فناءها، وفي فنائها راحتها، قالوا: وقد أخبر الله تعالى ذكره عنها أنهم لا يموتون، ولا يخفف عنهم من عذابها، قالوا: وجلود الكفار أحد أجسامهم، ولو جاز أن يحترق منها شيء فيفنى ثم يعاد بعد الفناء في النار، جاز ذلك في جميع أجزائها، وإذا جاز ذلك وجب أن يكون جائزًا عليهم الفناء، ثم الإعادة والموت الإحياء، وقد أخبر الله عنهم أنهم لا يموتون، قالوا: وفي خبره عنهم أنهم لا يموتون دليل واضح أنه لا يموت شيء من أجزاء أجسامهم، والجلود أحد تلك الأجزاء.

وأما معنى قوله: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ فإنه يقول: فعلنا ذلك بهم ليجدوا ألم العذاب وكربه وشدته بما كانوا في الدنيا يكذبون آيات الله ويجحدونها»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ قال الرازي: «يعني كلما ظنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك أعطيناهم

---

(١) الزنيم: الدعي في النسب الملصق بالقوم وليس منهم.

(٢) صحيح مسلم كتاب صفة الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم الحديث: ٤٧ (٢٨٥٣)، بشرح النووي ١٧/ ١٨٧.

(٣) سورة النساء: ٥٦.

(٤) تفسير الطبري ٥/ ٩١.

قوة جديدة من الحياة، بحيث ظنوا أنهم الآن حدثوا ووجدوا، فيكون المقصود بيان دوام العذاب وعدم انقطاعه»[١] .

وهكذا يتجلى لنا خلود عذاب الآخرة، فكلما حاول الكفار الهرب من جهنم والخروج منها حين يلحقهم عظيم عذابها أعيدوا فيها وضربوا بسياط من حديد، وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق. قال تعالى :

﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿ **فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[٣] .

ومما سبق يتضح لنا خلود الحياة الآخرة بما فيها من نعيمها وعذابها. تلك الحياة التي تبقى فيها الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها. وإنما ذكرنا ـ في هذا المبحث ـ بعض نعيم الآخرة وعذابها؛ لتكون دليلاً قاطعًا على أن الحياة الآخرة هي الحياة الخالدة، ولنعلم بذلك علم اليقين بأن الحياة الدنيا فانية، فنؤثر الحياة الخالدة الباقية على الحياة الفانية. أما عذاب الحياة الآخرة ونعيمها في صورتها الحقيقية والتفصيلية فسيأتي بيانها ـ إن شاء الله ـ في المبحثين الثالث والرابع من هذا الفصل .

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ١٦٤ .

(٢) سورة الحج: ١٩ ـ ٢٢ .

(٣) سورة السجدة: ١٤ .

المبحث الثالث
عذاب الحياة الآخرة

«إن الإيمان بعذاب الحياة الآخرة من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر. كما أنه إيمان بالمنهج الرباني في الحياة؛ وذلك لأن المنهج الرباني يتعامل مع الناس جميعًا. مع الطبيعة البشرية. والله يعلم من هذه الطبيعة حاجتها إلى هذا الوعد بالمغفرة والأجر العظيم. وحاجتها كذلك إلى معرفة جزاء الكافرين المكذبين! إن هذا وذلك يرضي هذه الطبيعة. يطمئنها على مصيرها وجزائها؛ ويشفي غيظها من أفاعيل الشريرين»[(١)].

قال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾[(٢)].

إن الذي يتأمل ويتدبر القرآن الكريم يجد في آيات كثيرة أن الله سبحانه وتعالى قد وصف عذاب الحياة الآخرة بأوصاف كثيرة متنوعة، مما يدل على عظمة عذابها وشدته، فمن هذه الأوصاف ما يلي:

١ ـ أنه أشق وأشد:

قال تعالى: ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ**﴾[(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٥٤.
(٢) سورة المائدة: ٩ ـ ١٠.
(٣) سورة الرعد: ٣٤.

قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ **وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ** ﴾ أي : المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿ **أَشَقُّ** ﴾ أي : من هذا بكثير ، كما قال رسول الله - ﷺ - للمتلاعنين : «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة** ...»[١] ، وهو كما قال - صلوات الله وسلامه عليه - فإن عذاب الدنيا له انقضاء ، وذاك دائم أبدًا في نار ، هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفًا ، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته ، كما قال تعالى : ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ** ﴾[٢] »[٣] .

ومما سبق يتضح لنا أن تعذيب الله عز وجل الكفار في الحياة الآخرة أشد من تعذيبه إياهم في الحياة الدنيا وأشق ، لشدته ودوامه وبقائه ، وقد صرح بذلك القرآن الكريم في آيات كثيرة ، منها :

- قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ** ﴾[٤] .

- قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾[٥] .

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه كتاب اللعان، رقم الحديث ٤ (١٤٩٣)، صحيح مسلم بشرح النووي ١٠/ ١٢٥ .
(٢) سورة الفجر : ٢٥-٢٦ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٦-٤٤٧ .
(٤) سورة طه : ١٢٧ .
(٥) سورة البقرة : ٨٥ .

ـ قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾(١) .

٢ ـ غرام :

وصف الله عز وجل أن عذاب الحياة الآخرة كان غرامًا. فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾(٢) .

قال الحسن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾: «كل شيء يصيب ابن آدم لم يدم عليه فليس بغرام، إنما الغرام اللازم له مادامت السموات والأرض»(٣) .

«والغرام: اللازم الدائم، ومنه سمي الغريم لملازمته، ويقال: فلان مغرم بكذا، أي: ملازم له ومولع به، هذا معناه في كلام العرب، كما ذكره ابن الأعرابي وابن عرفة وغيرهما، ومنه قول الأعشى:

إن يعاقب يكن غرامًا وإن يعـ ... ـط جزيلاً فإنه لا يبالي»(٤)

وقال محمد بن كعب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾: «يعني: ما نعموا في الدنيا، إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه فأغرمهم فأدخلهم النار»(٥) .

---

(١) سورة التوبة: ٨١.

(٢) سورة الفرقان: ٦٥.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٤٢، تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٩ـ ٢٨٠.

(٤) تفسير فتح القدير ٤/ ٨٦، وانظر: تفسير الكشاف ٣/ ١٠٠، وديوان الأعشى الكبير، لميمون بن قيس الأعشى ١/ ٤٥.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٠.

وبما سبق يعرف بأن عذاب الحياة الآخرة كان هلاكًا دائمًا، وخسرانًا ملازمًا، لا يتحول عن صاحبه ولا يفارقه ولا يقيله؛ فهذا ما يجعله مخيفًا شنيعًا.

٣ ـ العذاب المهين :

ومن أوصاف عذاب الحياة الآخرة أنه عذاب مهين، قال تعالى: ﴿ **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ **وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾؛ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾(٢) أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين(٣).

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، حدثنا ابن عجلان، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صدر الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا في جهنم يقال له: بُولَسُ، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار**»(٤).

---

(١) سورة البقرة: ٩٠.

(٢) سورة غافر: ٦٠.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ١١٢، وانظر: تفسير أبي السعود ٧/ ٢٨٢.

(٤) قال أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح. ونقله ابن كثير في التفسير ٧/ ٣١٠ عن هذا الموضع من المسند. وذكره ابن رجب في كتاب التخويف من النار (ص: ٧٠)، وقال: خرجه الإمام أحمد والنسائي والترمذي، وقال: حسن، وروي موقوفًا على عبد الله بن عمرو. وكذلك ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ١٨ ـ ١٩، ونسبه للنسائي والترمذي، وقال: حسن. =

وقد ورد في آيات كثيرة تنبيه الله عز وجل على الناس بأن عذاب الحياة الآخرة هو عذاب مهين، فمن هذه الآيات البينات :

ـ قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾[١] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾[٢] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾[٣] .

٤ ـ العذاب الأخزى :

ومن الأوصاف لعذاب الآخرة أنه عذابٌ أخزى، قال تعالى : ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ**[٤] **لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ** ﴾[٥] .

قال الراغب الأصفهاني : «خَزِيَ الرَّجُلُ : لحقه انكسار، إما من نفسه،

= ونسبه السيوطي في زيادات الجامع الصغير (٣/ ٤١٥ ـ ٤١٦ من الفتح الكبير) لأحمد والترمذي. (المسند للإمام أحمد، تحقيق : أحمد محمد شاكر ١٠/ ١٥٧).

(١) سورة النساء : ١٤ .

(٢) سورة النساء : ٣٧ .

(٣) سورة الأحزاب : ٥٧ .

(٤) نحسات : أي مشؤومات ذوات نحوس (تفسير فتح القدير ٤/ ٥١١). وأصل النحس أن يحمرّ الأفق فيصير كالنحاس، أي : لهب بلا دخان، فصار ذلك مثلاً للشؤم (المفردات في غريب القرآن ص : ٤٨٥).

(٥) سورة فصلت : ١٦ .

وإما من غيره. فالذي يلحقه من نفسه هو الحياء المفرط، ومصدره الخزاية، ورجل خَزْيان، وامرأةٌ خَزْيَى، وجمعه خَزَايَا. والذي يلحقه من غيره يقال: هو ضرب من الاستخفاف، ومصدره الخِزْيُ، ورجل خزي.. وأخزى من الخزاية والخزي معًا»[١].

وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى ﴾: «وهو من الإسناد المجازي، ووصف العذاب بالخزي أبلغ من وصفهم به؛ ألا ترى إلى البون بين قوليك: هو شاعر، وله شعر شاعر»[٢].

ولخزي عذاب الآخرة فقد ارتجف أولو الألباب من ذلك العذاب ـ وهم الذين ينظرون ويستفيدون ويهتدون ويستحضرون عظمة الله، ويتذاكرون حكمته وفضله وجليل نعمه في جميع أحوالهم من قيام وقعود واضطجاع ـ ودعوا ربهم أن يقيهم دخول النار، ثم إنهم يتوجهون إليه قائلين: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾[٣]، مما يدل ذلك كله على عظم هذا العذاب وشدته وهو الخزي والفضيحة. وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[٤].

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص: ١٤٧.
(٢) تفسير الكشاف ٣/ ٤٤٩، انظر: تفسير فتح القدير ٤/ ٥١١.
(٣) سورة آل عمران: ١٩٢.
(٤) سورة آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٢.

وفي ظلال هذه الآية يقول سيد قطب: «إنها تشي بأن خوفهم من النار إنما هو خوف ـ قبل كل شيء ـ من الخزي الذي يصيب أهل النار. وهذه الرجفة التي تصيبهم هي أولاً رجفة الحياء من الخزي الذي ينال أهل النار. فهي ارتجافة باعثها الأكبر الحياء من الله، فهم أشد حساسية به من لذع النار! كما تشي بشعور القوي بأنه لا ناصر من الله، وأن الظالمين ما لهم من أنصار»[1].

٥ ـ أن عذاب الآخرة هو العذاب الأليم:

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾[4].

٦ ـ أن عذاب الحياة الآخرة هو العذاب العظيم:

لقد وردت نصوص كثيرة تدل على أن عذاب الآخرة هو العذاب العظيم،

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٤٧.

(٢) سورة يونس: ٤.

(٣) سورة التوبة: ٧٤.

(٤) سورة المزمل: ١٢ ـ ١٣.

فمن تلك النصوص القرآنية :

ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(١) .

ـ وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٢) .

ـ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٣) .

٧ ـ العذاب السيئ :

ومن الأوصاف لعذاب الحياة الآخرة أنه العذاب السيء ، الشديد النكاية .

قال تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾(٥) .

---

(١) سورة البقرة : ١١٤ .

(٢) سورة ال عمران : ١٧٦ .

(٣) سورة المائدة : ٣٣ .

(٤) سورة الأنعام : ١٥٧ .

(٥) سورة الزمر : ٢٤ .

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾(١) .

٨ ـ العذاب الأكبر :

ومن الأوصاف لعذاب الحياة الآخرة أنه عذاب أكبر، فهو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) .

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(٣) .

وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾(٤) .

نماذج من عذاب الحياة الآخرة :

تحدث القرآن الكريم كثيراً عن عذاب الحياة الآخرة وما فيه من شقاء دائم ينتظر من كفر بالله واستكبر، واتبع الشيطان فكان من الخاسرين. وقد ورد ذكر ألوان العذاب المختلفة وصوره المتنوعة في آيات كثيرة، لنكون على بصيرة من أمرنا بأن لكل نوع من أنواع التكاليف الشرعية في الحياة الدنيا ما يقابله في الحياة الآخرة من ثواب أو عقاب، ولنكون على إيمان عميق بأن عذاب الحياة الآخرة دركات، بعضها أشد عذابًا وهولاً من بعض. فمن تلك النماذج من

(١) سورة الزمر: ٤٧.
(٢) سورة الزمر: ٢٥، ٢٦.
(٣) سورة القلم: ٣٣.
(٤) سورة الغاشية: ٢١ـ٢٤.

عذاب الحياة الآخرة ما يلي :

أولاً : لهيب النار وشررها :

تلتهب نيران جهنم بوقود من الناس والحجارة، وقد صور القرآن الكريم شدة لهيب هذه النيران وشررها تصويراً رهيباً، فهو تارة خالص لا يشوبه دخان، وتارة يلف المعذبين بدخان أسود. قال تعالى:

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾(١) .

قال ابن كثير في قوله تعالى: **﴿فِي سَمُومٍ﴾**: «وهو الهواء الحار، و**﴿حَمِيمٍ﴾** وهو: الماء الحار، **﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾** قال ابن عباس: الدخان. . .، وهذه كقوله تعالى: **﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (٣٠) لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾**(٢) . ولهذا قال ههنا: **﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾** وهو: الدخان الأسود، **﴿لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾** أي: ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر . . .»(٣) .

وقد أخبرنا الرسول ـ ﷺ ـ عن شدة حر النار وشرارها فقال: «**نارنا جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم**، قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال:

---

(١) سورة الواقعة: ٤١ـ٤٨.

(٢) سورة المرسلات: ٢٩ـ٣٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٥٨.

فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا، كلهن مثل حرها»[1] .

«وهكذا يعبر القرآن الكريم عن عذاب الحياة الآخرة الرهيب، فكأنما نحن اليوم أمام المشهد الحاضر في الآخرة، وكأنما الدنيا ماض بعيد، يذكره الذاكرون. وفي هذا استحضار للمشهد وإحياء عميق التأثير في النفوس»[2] .

ثانيًا : الصهر :

من صور عذاب الآخرة صب الحميم على رؤوسهم، والحميم هو ذلك الماء الذي انتهى حره، فلشدة حره تذوب أمعاؤهم وما حوته بطونهم، قال تعالى: ﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ** ﴾[3] .

أخرج عبد بن حميد والترمذي وصححه، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن جرير وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وأبو نعيم في الحلية، وابن مردويه، عن أبي هريرة أنه تلا هذه الآية فقال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «**إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة، حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدمه وهو الصهر، ثم يعاد كما كان**»[4] .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، فتح الباري ٦/ ٣٣٠. ورواه مسلم في صحيحه كتاب الجنة، باب شدة حر النار، رقم الحديث: ٣٠ (٢٨٤٣)، صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٧٩ .

(٢) مشاهد القيامة في القرآن ص: ١١١ .

(٣) سورة الحج: ١٩ ـ ٢٠ .

(٤) تفسير الدر المنثور ٤/ ٦٢٩ . أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٨٧، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .

ثالثًا : أنواع العذاب الذي يتعلق بالوجوه :

أكرم ما في الإنسان وجهه، ولذلك نهانا رسول الله ـ ﷺ ـ عن ضرب الوجه[(١)]، ومن إهانة الله لأهل النار أنهم يحشرون في الحياة الآخرة على وجوههم بالصور الرهيبة المهينة، وذلك ليزيد عليهم التبكيت والتوبيخ، فمن تلك الصور :

١ ـ أنهم يحشرون على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا** ﴾[(٢)].

قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا إسماعيل عن نفيع، قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «**الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم**»[(٣)].

هذه الصورة الرهيبة تعرضهم محشورين على وجوههم يوم القيامة ـ وقد ذكرت صور الحشر على الوجوه في سورة طه[(٤)] ـ، ولكنهم في هذه المرة ليسوا

---

(١) روى أحمد عن عبد الله بن عمر: أنه كان يكره العَلَم في الصدرة، وقال: نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن ضرب الوجه (مسند أحمد ٢/ ١١٨)، وقال أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح (تحقيق مسند أحمد ٨/ ١٨٩).

(٢) سورة الإسراء: ٩٧.

(٣) مسند أحمد ٢/ ٣٥٤، ورواه مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين، باب يحشر الكافر على وجهه، رقم الحديث ٥٤ (٢٨٠٦)، بشرح النووي ١٧/ ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٤) سورة طه: ١٢٤ ـ ١٢٥.

عميانًا فحسب كما شهدناهم فيما مضى، إنما هم كذلك بكم وصم، زيادة في قسوة الحشر والسحب في النار. فالمسحوب أعمى أبكم أصم يلقى من الاصطدامات والآلام حين يسحب أضعاف ما يلقاه المبصر المتكلم السامع. وجهنم هنا دائمة التسعر ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾»[١]. «وهذا يكون في حال دون حال ؛ جزاءً لهم كما كانوا في الدنيا بكمًا وعميًا وصمًا عن الحق، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه»[٢].

٢ ـ أنهم يكبون[٣] في النار على وجوههم، قال تعالى: ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٤].

«وهو مشهد مفزع، وهم يكبون في النار على وجوههم. ويزيد عليهم التبكيت والتوبيخ. فقد تنكبوا الهدى وأشاحوا عنه بوجوههم؛ فهم يجزون به كبًا لهذه الوجوه في النار وقد أعرضت من قبل عن الحق الواضح وضوح الليل والنهار»[٥].

٣ ـ اللفح[٦]:

إن النار تلفح وجوههم وتغشاها أبدًا لا يجدون حائلاً يحول بينهم

---

(١) انظر: مشاهد القيامة في القرآن ص: ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٩.

(٣) الكب: إسقاط الشيء على وجهه (المفردات في غريب القرآن ص: ٤٢٠).

(٤) سورة النمل: ٩٠.

(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٦٩.

(٦) لفحته النار تلفحه لفحًا ولفحانًا: أصابت وجهه، إلا أن النفح أعظم تأثيرًا منه (لسان العرب ٢/ ٥٧٨).

وبينها، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾[١] .

قال أبو السعود في قوله تعالى: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ : «يحرقها، واللفح كالنفخ إلا أنه أشد تأثيرًا منه. وتخصيص الوجوه بذلك؛ لأنها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السر في تقديمها على الفاعل»[٢] .

ثم إن وجوههم تعلوها، وتحيط بها وتسعر أجسامهم المسربلة بالقطران[٣] ، قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾[٤] .

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا ﴾[٥] .

إنه مشهد بائس أليم حين تغشاهم النار من كل جهة، فالتعبير على هذا النحو يراد به تصوير الحركة وتجسيمها، والحرص على أن تصل النار إلى كل صفحة من صفحات وجوههم زيادة في النكال![٦] .

---

(١) سورة المؤمنون: ١٠٣ ـ ١٠٤ . والكلوح: تقلص الشفتين عن الأسنان (تفسير أبي السعود ٦/ ١٥١).

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٥١ .

(٣) القطران: النحاس المذاب الذي قد أنِيَ حرّها (انظر: المفردات في غريب القرآن ص: ٤٠٧).

(٤) سورة إبراهيم: ٤٩ ـ ٥٠ .

(٥) سورة الأحزاب: ٦٦ .

(٦) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٨٣ .

٤ ـ السحب :

ومن أنواع العذاب الأليم سحب الكفار في النار على وجوههم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ[1] ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾[2] .

ويزيد من آلامهم إهانتهم حال سحبهم في النار أنهم مقيدون بالقيود والأغلال والسلاسل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[3] . قال قتادة: يسحبون مرة في النار وفي الحميم مرة[4] .

٥ ـ تسويد الوجوه :

ومن ألوان عذاب الحياة الآخرة تسويد الوجوه، وذلك لما ترى من سوء العاقبة وما يحل بها من النكال والوبال، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[5] . وهو سواد شديد؛ «كأنما ألبست وجوههم قطعًا من أديم الليل حال كونه حالكًا مظلمًا لا بصيص فيه من نور القمر الطالع ولا النجم الثاقب، فتشققها قطعة بعد قطعة، فصارت ظلمات متراكمة فوق

---

(١) أي: عذاب وعناء وشدة، وقال أبو عبيدة: «والسعر: الجنون يذهب كذا وكذا لما يلتهب به من الحدة» (تفسير فتح القدير ٥/ ١٢٦).

(٢) سورة القمر: ٤٧ ـ ٤٨ .

(٣) سورة غافر: ٦٩ ـ ٧٢ .

(٤) التخويف من النار، ص: ١٤٧ .

(٥) سورة آل عمران: ١٠٦ .

بعض»[١] . قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[٢] .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ** ﴾[٤] .

تلك وجوه أهل النار التي تغشاها ظلمة وانكدار ، ويبدو عليها مضض[٥] وإرهاق ، فإنها ليست كالحة فحسب ، ولكن يخالجها التوجس[٦] أن تنزل بها داهية تقصم[٧] الفقار[٨] ، والتوجس شر من وقوع العذاب[٩] .

رابعًا : إنضاج الجلود :

من ألوان عذاب الآخرة إنضاج جلود أهل النار ، والجلد موضع الإحساس بألم الاحتراق ، ولذلك فإن الله يبدل لهم جلودًا أخرى غير تلك

(١) تفسير المراغي : ٤/ ٩٦ .
(٢) سورة يونس : ٢٧ .
(٣) سورة القيامة : ٢٤ـ٢٥ .
(٤) سورة عبس : ٤٠ـ٤٢ .
(٥) المضض : وجع المصيبة (لسان العرب ٧/ ٢٣٣) .
(٦) التوجس : التسمّع إلى الصوت الخفي (المصدر السابق ٦/ ٢٥٣) .
(٧) القصم : كسر الشيء الشديد حتى يبين (المصدر السابق ١٢/ ٤٨٥) .
(٨) الفقار : الظهر (المصدر السابق ٥/ ٦١) .
(٩) انظر : مشاهد القيامة في القرآن ص : ٦٢ ، ٦٨ .

التي احترقت، لتحترق من جديد، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[١] .

قال ابن عمر: «إذا احترقت جلودهم بدلناهم جلودًا بيضاء أمثال القراطيس. وقال يحيى بن يزيد الحضرمي أنه بلغه في الآية: قال: يجعل للكافر مائة جلد بين كل جلدين لون من العذاب. وقال الحسن: تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة»[٢] .

روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**ضِرْسُ الكافر أو ناب الكافر مثل أُحُدٍ، وغَلَظُ جلده مسيرة ثلاث**»[٣] .

إن هذه الصورة من أشد الصور قبحًا وألمًا وبشاعةً، فكيف يحتمل إنسان أن يكون له جلد في هذا الغلظ، ومساحة هذا الجلد وما يمكنه أن ينال بسببه من عذاب.

خامسًا: بعض شراب أهل النار:

إنه لا رحمة لأهل النار، ولا يفيض أهل الجنة عليهم شيئًا من الماء أو مما رزقهم الله، حتى إذا بلغ الظمأ بأهل النار مداه، وتقطعت أمعاؤهم لهفًا على الشراب، سقوا ما أعد لهم من الشراب الحار الذي صوره القرآن بعدة صور

---

(١) سورة النساء: ٥٦.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٤٤١، والدر المنثور ٢/ ٣١١، وتفسير فتح القدير ١/ ٤٨٠.

(٣) صحيح مسلم كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم الحديث: ٤٤ (٢٨٥١)، صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٨٦. والضرس: السن (لسان العرب ٦/ ١١٦).

مفزعة، فمن تلك الصور ما يلي :

١ ـ الحميم :

ورد الحميم في القرآن الكريم محوطًا بسياق عام يعرض عذاب جهنم الأليم، ولظاها المحرق. ففي سورة الواقعة نجد وصفًا دقيقًا لهذا الشراب المؤذي الذي يلجأ إليه المجرمون بعد أن يحرق الزقوم ـ طعامهم في النار ـ بطونهم، فيشربون من الحميم فلا يرتوون، بل يزداد أذاهم وعطشهم. وفي ذلك يقول تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾[١] .

ويقول تعالى : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾[٢] .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[٣] .

لقد فسر المفسرون الحميم في الآيات السابقة بأنه الماء الحار المغلي الذي

---

(١) سورة الواقعة : ٥١ ـ ٥٦ .

(٢) سورة الصافات : ٦٢ ـ ٦٨ .

(٣) سورة الدخان : ٤٣ ـ ٤٩ .

تناهى حره، وبلغ أقصى الدرجات[١]، «والآيات تصور عذاب المجرمين حين تشوبهم النار بلظاها فيتمنون ماء يطفئون به غيلهم، ويخففون به شدة الحر وعذاب النار، فإذا بهم يسقون ماءً بلغ أقصى درجات الحرارة، فهو لا يبرد غلة، ولا يروي ظمأ، بل يقطع الأمعاء، ويزيد العذاب»[٢].

٢ ـ الغساق:

ومن شراب أهل النار الغساق، قال تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا﴾[٤].

والغساق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه[٥].

قال الإمام أحمد: «حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) تنوير المقباس ص: ٨٩، مجاز القرآن ١/ ٢٧٤، تفسير الطبري ١٧/ ١٣٣، تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٥.

(٢) انظر: الدار القرار في البيان القرآني ص: ٨٦.

(٣) سورة ص: ٥٥ ـ ٥٨.

(٤) سورة النبأ: ٢١ ـ ٢٦.

(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

أنه قال : «**لو أن دلواً من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا**»[١] .

وقال ابن عباس : «الحميم : الحار الذي يحرق ، والغساق : الزمهرير البارد»[٢] . وقيل : «الغساق هو الزمهرير أو البرد الذي لا يطاق ، فالحميم يحرق بحره ، والغساق يحرق ببرده»[٣] ، فهو ضد الحميم ، وهو لشدة برده المؤلم لا يستطاع ، ولا يواجه من نتنه .

وكأن القرآن الكريم خوف بزمهرير الثلج ، كما خوف بلهيب النار ، وبذلك يسقط قول بعض أعداء الإسلام بأن حر الجزيرة هو الذي جعل العذاب في الدين الحنيف مقصوراً على النار ، ولعل مما يشهد لهذا التفسير أن الله عز وجل وصف طقس الجنة بأنه معتدل لا حر فيه كحر النار ، ولا برد فيه كبرد الصقيع ؛ إذ يقول عن أهلها وما هم فيه من نعيم : ﴿**مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا**﴾[٤][٥] .

٣ـ الصديد :

والصديد وصف لما يسيل بين جلد الكافر ولحمه[٦] ، قال تعالى : ﴿**وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن**

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٢٨ .

(٢) الدر المنثور ٦/ ٥٠٣ .

(٣) تفسير الكشاف ٣/ ٣٧٩ .

(٤) سورة الإنسان : ١٣ .

(٥) الدار القرار في البيان القرآني ص : ٨٧ .

(٦) انظر : الدر المنثور ١٤/ ١٣٨ ، المفردات في غريب القرآن ص : ٢٧٦ ، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٥٥ .

وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾[(١)] .

روى الإمام مسلم بسنده . . عن جابر، قال رسول الله - ﷺ -: «كل مسكر حرام، **إن على الله عز وجل عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال**، قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: **عَرَقُ أهل النار أو عُصارة أهل النار**»[(٢)] .

«قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنا صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بشر، عن أبي أمامة - رضي الله عنه -، عن النبي - ﷺ - في قوله: ﴿ **وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ⟨١٦⟩ يَتَجَرَّعُهُ** ﴾[(٣)] قال: «**يقرب إليه فيتكرهه فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شرب قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره**» يقول الله عز وجل: ﴿ **وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ** ﴾[(٤)] ، ويقول الله: ﴿ **وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ** ﴾[(٥)] »[(٦)] .

هذه المشاهد كلها تجتمع لتصور شراب أهل النار على أنه وسيلة من وسائل العذاب إضافة إلى معاناة لهب النار ولظاها المحرق، ومن الواضح أن

---

(١) سورة إبراهيم: ١٥ - ١٧ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، رقم الحديث: ٧٢ (٢٠٠٢)، صحيح مسلم بشرح النووي ١٣/ ١٧١ .

(٣) سورة إبراهيم: ١٦ - ١٧ .

(٤) سورة محمد: ١٥ .

(٥) سورة الكهف: ٢٩ .

(٦) مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٦٥ . قال أحمد بن عبد الرحمن البنا: الحديث رجاله ثقات، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره، وعزاه للإمام أحمد وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأورده البغوي أيضاً (الفتح الرباني ١٨/ ١٨٧) .

إطلاق الشراب على هذا الضرب من العذاب إنما صدر عن سخرية لاذعة بالمجرمين، حين تقطع أمعاؤهم عطشًا، فيغاثون بماء كالمهل لا يروون غلتهم، ولا يفيد فائدة، ولكنهم يشربون منه؛ لأنهم لا يجدون شرابًا غيره؛ ولأن الطعام الذي يزدردونه دونه يزيد عطشهم ويحرق بطونهم، فيشربون من هذا الشراب دون أن يجدوا فيه لذة الشراب ونعيم الماء[(١)] .

سادسًا : طعام أهل النار :

لقد صور القرآن الكريم طعام أهل النار بصور عدة، هي: الضريع، والزقوم، وغيرها، وكلها تجتمع ملامحها لتثير جوًا رهيبًا لمشهد آخر من عذاب الحياة الآخرة :

١ ـ الضريع :

قال تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ** ﴾[(٢)] .

اختلف المفسرون في المراد بالضريع، فقال قتادة: الشبرق شر الطعام وأبشعه وأخبثه. وقال عكرمة: الضريع: الشبرق شجرة ذات شوك لاطئة[(٣)] بالأرض. وقال أبو الجوزاء: الضريع السلم، وهو الشوك، وكيف يسمن من كان طعامه الشوك؟[(٤)] .

---

(١) الدار القرار في البيان القرآني ص: ٩٠.
(٢) سورة الغاشية: ٢ ـ ٧.
(٣) أي لازقة (لسان العرب ١/ ١٥٣).
(٤) انظر: الدر المنثور ٦/ ٥٧٣، وتفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٩.

وعن ابن عباس أنه قال: «الضريع من أقوات الأنعام لا الناس، فإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع، وهلكت هزلاً.

قال الهذلي :

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضريع فكلها حدباءُ داميةُ اليدين حرودُ»[١]

وإذا كان طعام أهل النار من الضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، والذي إذا أكلته الإبل هزلت قواها، فإن هذا الطعام يؤدي حتمًا إلى ضعف قواهم وهزالهم، وإنما سمي طعامًا «من حيث يستطعم»[٢] . أو «أريد أنه لا طعام لهم أصلاً؛ لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس؛ لأن الطعام ما أشبع، أو أسمن، وهو منهما بمعزل، كما تقول: ليس لفلان ظل إلا الشمس، تريد نفي الظل على التوكيد»[٣] .

٢ ـ الزقوم :

ومن طعام أهل النار شجرة الزقوم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ** ﴾[٤] .

وتأتي بشاعة الزقوم من وصفها هذا الوصف الرهيب: ﴿ **أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا**

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٣٠، والبيت لقيس بن خويلد بن العيزارة، شاعر جاهلي من بني هذيل (انظر: أشعار الهذليين ٢/ ٤٨٩، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٦٩).

(٢) تنزيه القرآن ص: ٣٥٣.

(٣) تفسير الكشاف ٤/ ٢٤٦.

(٤) سورة الدخان: ٤٣ ـ ٤٧.

أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾[١] .

وتشبيه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين أثار نقاشًا بين المفسرين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ «لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر، وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات رؤوسها بشعة، وقيل: جنس من النبات طلعه في غاية الفحاشة، وفي هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير، والأول أقوى وأولى، والله أعلم»[٢] .

وقد صور لنا الرسول ـ ﷺ ـ شناعة الزقوم وفظاعته، فقال: «**لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟!**»، رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح[٣] .

وردّ الجاحظ على الذين أنكروا تشبيه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين، وزعموا أنه شيء غير معروف بقوله: «قلنا: وإن كنا نحن لم نر شيطانًا قط، ولا صور رؤوسها لنا صادق بيده، ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان، حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين: أحدهما أن يقولوا: لهو أقبح من الشيطان، والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانًا على جهة التطير له . . . ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب

---

(١) سورة الصافات: ٦٢ـ٦٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٢، وانظر: تفسير فتح القدير ٤/ ٣٩٧ـ٣٩٨، وتفسير أبي السعود ٧/ ١٩٤ .

(٣) مشكاة المصابيح ٣/ ١٠٥، وسنن الترمذي، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، رقم الحديث: ٢٧١١، تحفة الأحوذي ٧/ ٣٠٧ .

المثل بقبح الشيطان، دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح، والكتاب إنما أنزل على هؤلاء الذين قد ثبت في طبائعهم بغاية التثبيت»[١] .

* * *

(١) الحيوان ٦/ ٢١٢ ـ ٢١٣، تحقيق عبد السلام محمد هارون.

المبحث الرابع
نعيم الحياة الآخرة

متاع الحياة الدنيا واقع مشهود، ونعيم الحياة الآخرة غيب موعود، والناس يتأثرون بما يرون ويشاهدون، ويثقل على قلوبهم ترك ما بين أيديهم إلى شيء ينالونه في الزمن الآتي، فكيف إذا كان الموعود لا ينال إلا بعد الموت؟ من أجل ذلك قارن الله سبحانه وتعالى بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة، وبين أن نعيم الآخرة خير من متاع الدنيا وأكبر، وأطال في ذم الدنيا وبيان فضل الآخرة، وما ذلك إلا ليجتهد العباد في طلب الحياة الآخرة ونيل نعيمها.

فضل نعيم الآخرة على متاع الدنيا :

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن

---

(١) سورة آل عمران: ١٤ ـ ١٥.

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾**[2] .

هذه الآيات تتحدث عن فضل نعيم الحياة الآخرة على متاع الحياة الدنيا . «وهذا المتاع الأخروي الذي تذكر الآيات هنا ، ويؤمر الرسول ـ ﷺ ـ أن يبشر به المتقين ، هو نعيم حسي في عمومه . . لكنّ هنالك فارقًا أساسيًا بينه وبين متاع الدنيا . .

ـ إنه متاع لا يناله إلا الذين اتقوا . الذين كان خوف الله وذكره في قلوبهم . وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعًا . وشعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات ، وأن تنساق فيها كالبهيمة . فالذين اتقوا ربهم حين يتطلعون إلى هذا المتاع الحسي الذي يبشرون به يتطلعون إليه في شفافية مبرأة من غلظة الحس ! وفي حساسية مبرأة من بهيمة الشهوة ! ويرتفعون بالتطلع إليه ـ وهم في هذه الأرض ـ قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى قرب الله .

ـ وفي هذا المتاع النظيف العفيف عوض كامل عن متاع الدنيا . . وفيه زيادة .

ـ فإذا كان متاعهم في الحياة الدنيا حرثًا معطيًا مخصبًا ، ففي الحياة الآخرة جنات كاملة تجري من تحتها الأنهار . وهي فوق هذا خالدة وهم خالدون فيها ،

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٦ ـ ١٩٨ .

(٢) سورة الأعراف : ١٦٩ .

لا كالحرث المحدود الميقات!

ـ وإذا كان متاعهم في الدنيا نساء وبنين، ففي الآخرة أزواج مطهرة. وفي طهارتها فضل وارتفاع على شهوات الأرض في الحياة!

ـ فأما الخيل المسومة والأنعام، وأما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، فقد كانت في الحياة الدنيا وسائل لتحقيق متاع. فأما في نعيم الآخرة فلا حاجة إلى الوسائل لبلوغ الغايات!

ـ ثم.. هنالك ما هو أكبر من كل متاع.. هنالك ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾، رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الآخرة كليهما.. ويرجح.. ورضوان بكل ما في لفظه من نداوة. وبكل ما في ظله من حنان..»[١].

إذًا، لو ذهبنا نبحث في سر أفضلية نعيم الحياة الآخرة على متاع الحياة الدنيا لوجدناه وجوهًا متعددة، منها:

١ ـ متاع الحياة الدنيا قليل:

قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً** ﴾[٢].

وقد صور لنا رسول الله ـ ﷺ ـ قلة متاع الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة بمثال ضربه فقال: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه**

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٣٧٥.

(٢) سورة النساء: ٧٧.

هذه - وأشار يحيى بالسبابة - في اليم فلينظر بم يرجع»[١] .

ولما كان متاع الدنيا قليلاً، فقد عاتب الله عز وجل الذين رضوا بلذات الدنيا الناقصة الفانية بدلاً من نعيم الحياة الدنيا الكامل الباقي، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾[٢] .

٢ - الجنة خالية من شوائب الدنيا وكدرها :

إن طعام أهل الدنيا وشرابهم يلزم منه الغائط والبول، والروائح الكريهة، وإذا شرب المرء خمر الدنيا فقد عقله، ونساء الدنيا يحضن ويلدن، والمحيض أذى، والجنة خالية من ذلك كله؛ فأهلها لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يبصقون ولا يتفلون، وخمر الجنة كما وصفها خالقها: ﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ** ﴾[٣] .

- وماء الجنة غير متغير الطعم والرائحة، ولبنها لم يتغير طعمه بحموضة ولا غيرها كألبان الدنيا، قال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ** ﴾[٤] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا، رقم الحديث: ٥٥ (٢٨٥٨)، صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٩٢ .

(٢) سورة التوبة: ٣٨ .

(٣) سورة الصافات: ٤٥ - ٤٧ .

(٤) سورة محمد: ١٥ .

ـ ونساء أهل الجنة مطهرة غاية التطهر، فليس فيهن ما يُعَبْنَ عليه من خَبَث جسدي مما عليه النساء في الدنيا كالحيض والنفاس، أو نفسي كالكيد والمكر وسائر مساوئ الأخلاق(١) . قال تعالى: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾(٢) . وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٣) .

ـ وقلوب أهل الجنة صافية، وأقوالهم طيبة، وأعمالهم صالحة، فلا تسمع في الجنة كلمة نابية تكدر الخاطر، وتعكر المزاج، وتستثير الأعصاب، فالجنة خالية من باطل الأقوال والأعمال، قال تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾(٤) . وقال تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾(٥) .

وقد صور هذه القلوب الصافية الطيبة رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «**لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًا**»(٦) .

---

(١) تفسير المراغي ١/ ٦٩ .
(٢) سورة آل عمران: ١٥ .
(٣) سورة البقرة: ٢٥ .
(٤) سورة النبأ: ٣٥ .
(٥) سورة الواقعة: ٢٥ـ٢٦ .
(٦) الحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري ٦/ ٣١٨ .

إن أهل الجنة قد وصلت قلوبهم إلى منتهى صفائها، ينزع أصل الإحساس بالغل من صدورهم؛ ولا يكونون إلا الأخوة الصافية الودود، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[١].

٣ ـ متاع الحياة الدنيا زائل، ونعيم الحياة الآخرة باق مستمر:

ولذلك سمى الله سبحانه وتعالى ما زين للناس من زهرة الدنيا متاعًا، «لأنه يتمتع به الإنسان وينتفع به، ثم يزول ولا يبقى»[٢]، أما نعيم الحياة الآخرة فهو باق، قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٥].

وما تقدم من ذكر أفضلية نعيم الحياة الآخرة على متاع الحياة الدنيا إنما ذكرناه من باب ذكر المثال لا الحصر، وإلا فالوجوه من تلك الأفضلية كثيرة.

---

(١) سورة الحجر: ٤٥ ـ ٤٧.

(٢) انظر: تفسير فتح القدير ١/ ٤٠٨، وتفسير ابن عطية ٣/ ٤٦، المفردات ص: ٤٦١.

(٣) سورة القصص: ٦٠.

(٤) سورة الشورى: ٣٦.

(٥) سورة النحل: ٩٦.

وإذا كان نعيم الحياة الآخرة - وهو باق سرمدي - خيراً وأفضل من متاع الحياة الدنيا فالفوز بذلك النعيم الخالدي لا يستلزم ترك متاع الدنيا .

«ظن الرهبان وكثير من عباد هذه الأمة أن نعيم الآخرة لا يمكن أن ينال إلا إذا رفض العبد طيبات الدنيا وملاذها ، ولذلك ترى هؤلاء يعذبون أجسادهم ، ويشقُّون على أنفسهم فيديمون الصيام والقيام ، وقد يحرّم بعضهم الطيبات من الطعام والشراب واللباس ، وقد يتركون العمل والزواج ، وهذه فكرة خاطئة ، فإن الله خلق الطيبات للمؤمنين ، وذم من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾[(١)]»[(٢)] .

أنواع نعيم الحياة الآخرة :

إن الله عز وجل قد أعد لعباده الصالحين في الحياة الآخرة الجنة ونعيمها . والحياة في الجنة حياة خالدة باقية هانئة ناعمة ، حياة لا تشوبها منغصات الدنيا ، ولا تعتريها هموم الحياة الأولى .

إنها حياة شباب دائم ، ونعيم مقيم ، وصحة لا يصل إليها مرض ، وعمر لا يعرف الانتهاء بالموت .

فالجنة كلمة تحمل كل معنى جميل يطوف بخاطر الإنسان ، ولا يتأتى لبشر أن يحصر ما أعده الله لعباده الصالحين في الجنة من أنواع النعيم ولو أجهد نفسه العمر كله .

---

(١) سورة الأعراف : ٣٢ .

(٢) اليوم الآخر الجنة والنار ، للدكتور عمر سليمان الأشقر ، ص : ٢٦٤ .

فالله عز وجل يقول في حديثه القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فاقرأوا إن شئتم: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾**[١] »[٢] .

لقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن نعيم الحياة الآخرة، فنجد في حديثه في قصار السور التي نزلت في مكة عن الجنة ونعيمها الإيجاز والإجمال. كما نجد في كثير من سور القرآن غير هذه السور القصار أنواعًا مفصلة لنعيم الجنة. فمن تلك الأنواع من نعيم الحياة الآخرة ما يلي:

أولاً: شراب وأنهار الجنة:

وبينما أهل النار في النار يشوون ويشربون الماء الحار، فلا يروون منه أبدًا.. إذ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يحشرون في جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار:

أ ـ أنهار الماء:

قال تعالى: **﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**[٣] .

وذكر الرسول ـ ﷺ ـ هذه الأنهار في شيء من التعريف، فقد روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**سيحان وجيحان والفرات والنيل كل**

---

(١) سورة السجدة: ١٧ .

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم الحديث: ٣١٢ (١٨٩) بشرح النووي ٣/ ٤٦ .

(٣) سورة البقرة: ٢٥ .

من أنهار الجنة»[١] .

وأشهر أنهار الجنة الكوثر، وهو نهر أعطاه الله تعالى لرسوله محمد - ﷺ -، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** ﴾[٢] .

روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - قال: «**بينما أنا أسير في الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طيبه - أو طينه - مسك أذفر**»[٣] .

أما كئوس شراب أهل الجنة فقد وصف القرآن الكريم بأنها ممزوجة بالزنجبيل، قال تعالى: ﴿ **وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا** ﴾[٤] .

قال الشوكاني: «والمعنى: أن أهل الجنة يسقون في الجنة كأسًا من الخمر، ممزوجة بالزنجبيل، وقد كانت العرب تستلذ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته. وقال مقاتل: هو زنجبيل لا يشبه زنجبيل الدنيا»[٥] .

«وهذا الماء الذي يشربونه هو كالينبوع المتدفق: ﴿ **فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ** ﴾[٦]

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة، رقم الحديث: ٢٦ (٢٨٣٩)، صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٧٦ .

(٢) سورة الكوثر: ١ .

(٣) صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن، باب حديث الكوثر، رقم الحديث: ٤٩٦٥، ٤٩٦٦، فتح الباري ١١/ ٤٦٤ .

(٤) سورة الإنسان: ١٥-١٨ .

(٥) تفسير فتح القدير ٥/ ٣٥٠-٣٥١ .

(٦) سورة الغاشية: ١٢ .

وهو يجمع إلى الري الجمال؛ جمال الحركة والتدفق والجريان. والماء الجاري يجاوب الحس بالحيوية وبالروح التي تنتفض وتنبض[١]! وهو متعة للنظر والنفس من هذا الجانب الخفي، الذي يتسرب إلى أعماق الحس»[٢].

ب ـ أنهار اللبن:

وإلى جانب أنهار المياه التي تجري نجد وصفًا آخر لأنهار من اللبن، قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ**﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿**وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ**﴾ أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة[٤]. «قال ابن عباس: لم يحلب. وقال سعيد بن جبير: لم يخرج من بين فرث ودم»[٥].

قال حامد صادق قنيني: «وإذا كان اللبن في الدنيا يمثل شراب الفطرة، فإن لبن الجنة هو شراب الخير الطبيعي الدائم، ومن هنا تتضح لنا الصورة الجميلة لأنهار اللبن في الجنة بالإضافة إلى أنهار توفر للمؤمنين الشراب المفضل اللذيذ؛ لأنها تؤكد لهم فكرة الخير المطلق والبركة الدائمة التي

---

(١) نبض: تحرك وضرب (لسان العرب ٧/ ٢٣٥).
(٢) اليوم الآخر في ظلال القرآن، ص: ٣١٩، وانظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٩٧.
(٣) سورة محمد: ١٥.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٦.
(٥) تفسير الدر المنثور ٦/ ٢٥.

يطلبونها، فهم يجدونها في الجنة موفورة، وإضافة إلى هذا يمتعون أنظارهم بمشهد جري اللبن في أنهار جميلة رائعة»[١] .

جـ- أنهار الخمر :

قال تعالى : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ أي : ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل[٢] .

وقد وصف الله عز وجل خمر الجنة في صورة أخرى بقوله : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[٣] . وبقوله تعالى : ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾[٤] .

قال الضحاك عن ابن عباس : «في الخمر أربع خصال : السكر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال، كما ذكر في سورة الصافات»[٥] .

وبهذا يتضح لنا أنه ليس في خمر الجنة شيء من أنواع المفاسد التي تكون حين شرب الخمر في الدنيا، فهي لا تحدث صداعًا ولا خمارًا وسكرًا ولا بولاً، ولا نحو ذلك مما هو لازم لخمور الدنيا، وتلك أجمل أوصاف الشراب التي تحقق لذته، فلا انقطاع يذهب بلذة المتاع .

---

(١) الدار القرار في البيان القرآني، ص : ١٠٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٥٦ .

(٣) سورة الصافات : ٤٥-٤٧ .

(٤) سورة الواقعة : ١٩ .

(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٩، وانظر : الدر المنثور ٥/ ٥١٧ .

د ـ أنهار العسل :

قال تعالى : ﴿ **وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى** ﴾[١] أي : وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح[٢] .

وقد ذكرت هذه الأنهار الجارية في الجنة لتزيد متعة المؤمنين بعد الحساب ، تلك المتعة التي تشترك فيها الناحيتان : النفسية في كون العسل شفاء وعافية ، والمادية بكونه شرابًا لذيذًا يتمتع به المؤمنون ، إلى جانب النعم الأخرى التي وفر الله عز وجل في الجنة .

هذه هي صور الأنهار المتعددة التي تجري في الجنة ، فيتمتع بشربها وبمنظرها المؤمنون ، وأنها ليست ماء فحسب ، بل منها الماء ، ومنها الخمر ، ومنها العسل المصفى .

وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ـ ﷺ ـ قال : «**إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد**»[٣] .

ثانيًا : طعام أهل الجنة :

لقد تحدث القرآن الكريم كثيرًا عن طعام أهل الجنة ، فذكر الفواكه والطيور واللحوم وغيرها من المطاعم التي تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وأن طعوم هذه

---

(١) سورة محمد : ١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٥٦ .

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٦٩٩ ، وقال : حديث حسن صحيح . وجامع الأصول ١٠/ ٥٠٧ ، وقال المحقق : رواه الترمذي في صفة أنهار الجنة ، ورواه أيضًا الدارمي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

المطاعم مختلفة عن طعومها في الدنيا، فلا ريب أن ما في الجنة من لذائذ لا يشبه ما في الدنيا إلا في الأسماء، وأن ما ادخره الله للمؤمنين لن يدركه العقل البشري المحدود.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾[٢].

وقال عز وجل: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾[٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾[٦].

---

(١) سورة المرسلات: ٤١ ـ ٤٤.
(٢) سورة الحاقة: ١٩ ـ ٢٤.
(٣) سورة الرعد: ٣٥.
(٤) سورة الطور: ٢٢.
(٥) سورة الواقعة: ٢٧ ـ ٣٣.
(٦) سورة الواقعة: ٢٠ ـ ٢١.

وقال عز وجل: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(١) .

قال ابن عباس: «ليس في الدنيا مما في الجنة شيء إلا الأسماء»(٢) .

وقال ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله تعالى: ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ يعني: في اللون والمرأى، وليس يشتبه في الطعم(٣) .

ثم إذا تدبرنا الآيات السابقة نجد أن القرآن الكريم يذكر الفاكهة كثيرًا، مع أن القرآن الكريم قد أشار إلى أن في الجنة من كل الثمرات، ويذكر اللحم، وذلك ـ والله أعلم ـ يشير إلى ما يكون فيه أهل الجنة من الترف والنعيم، فالمعتاد أن هذين النوعين من الطعام يسعد بهما الأغنياء المترفون. ويحسن أن نتوقف عند ما ذكر الله جل شأنه من وصف نعيم الجنة، ولاريب أنه أعلى وأرفع من كل نعيم نتصوره في دنيانا(٤) .

ثالثًا: نساء أهل الجنة:

أعد الله سبحانه وتعالى في الجنة للمؤمنين من النعم ما لا يعرفه البشر، ولم يروه في الدنيا، ومن ذلك الحور العين، وهن نساء الجنة.

وقد وصفهن الله عز وجل بأوصاف كثيرة:

---

(١) سورة البقرة: ٢٥.
(٢) تفسير الدر المنثور ١/ ٨٢، وانظر: الأساس في التفسير ١/ ٩٧.
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٩.
(٤) انظر: الدار القرار في البيان القرآني، ص: ١١٦.

١ ـ الكواعب الأتراب :

قال تعالى : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾[١] .

قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : «﴿كَوَاعِبَ﴾ أي : نواهد[٢] ، يعنون : أن ثديهن نواهد لم يتدلين[٣] ؛ لأنهن أبكار عرب[٤] »[٥] .

«والأتراب : هن اللواتي على ميلاد واحد وسن واحد . وقال مجاهد : أترابًا أمثالاً وأشكالاً»[٦] . وقال الراغب الأصفهاني في قوله تعالى : ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾[٧] «أي : لدّات تنشأن معًا ، تشبيهًا في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر ، أو لوقوعهن معًا على الأرض ، وقيل : لأنهن في حال الصبا يلعبن بالتراب معًا»[٨] .

٢ ـ الأبكار :

قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾[٩] .

«وكونهن أبكارًا يقضي أنه لم ينكحهن قبلهم أحد ، كما قال تعالى :

---

(١) سورة النبأ : ٣١ ـ ٣٣ .
(٢) يقال : نهد الثدي إذا ارتفع عن الصدر وصار له حجم (لسان العرب ٣/ ٤٢٩) .
(٣) التدلي : النزول من العلو (لسان العرب ١٤/ ٢٦٧) .
(٤) العُرُب جمع العروب ، وهي المتحببة إلى زوجها (تفسير فتح القدير ٥/ ١٥٣) .
(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٦ ، وانظر : الدر المنثور ٦/ ٥٠٤ ، وتفسير فتح القدير ٥/ ٣٦٩ .
(٦) تفسير فتح القدير ٥/ ١٥٣ .
(٧) سورة ص : ٥٢ .
(٨) المفردات في غريب القرآن ص : ٧٤ .
(٩) سورة الواقعة : ٣٥ ـ ٣٦ .

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾[1] ، وهذا ينفي قول من قال : إن المراد بالزوجات اللواتي ينشئهن الله في الجنة زوجاتهم في الدنيا إذ يعيدهن شباباً بعد الكهولة والهرم ، وهذا المعنى صحيح ، فالله يدخل المؤمنات الجنة في سن الشباب ، ولكنهن لسْنَ الحور العين اللواتي ينشئهن الله إنشاءً»[2] .

٣ ـ تشبيههن باللؤلؤ والياقوت والمرجان :

وقد حدثنا القرآن الكريم عن جمال نساء الجنة فقال :

﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾[3] . أي : كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه[4] . وقال الشوكاني : «ثم شبههن سبحانه باللؤلؤ المكنون ، وهو الذي لم تمسه الأيدي ولا وقع عليه الغبار ، فهو أشد ما يكون صفاءً»[5] .

وشبههن عز وجل في موضع آخر بالياقوت والمرجان ، فقال : ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾[6] . «فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه»[7] . وأما المرجان فهو صغار اللؤلؤ[8] . وبهذا يتجلى جمال الحور العين وحسنهن ؛ وذلك لأن الياقوت والمرجان

(١) سورة الرحمن : ٥٦ .
(٢) اليوم الآخر الجنة والنار ، ص : ٢٤٧ .
(٣) سورة الواقعة : ٢٢ ـ ٢٣ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٥٢ .
(٥) تفسير فتح القدير ٥/ ١٥٠ .
(٦) سورة الرحمن : ٥٦ ـ ٥٨ .
(٧) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٤٤ .
(٨) انظر : المفردات في غريب القرآن ، ص : ٤٦٥ .

حجران كريمان فيهما جمال، ولهما منظر حسن بديع، وحسبك أن الله قد شهد بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال: ﴿ **فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ** ﴾[(١)] .

إضافة إلى تلك الصفات الجميلة للحور العين فإن الله عز وجل قد وصفهن بأنهن مطهرة، فقال: ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[(٢)] .

قال ابن قيم الجوزية: «المطهرة: من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل ما قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاء، وطهر طرفها من أن تطمح به إلى غير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ»[(٣)] .

وقد حدثنا رسول الله ـ ﷺ ـ عن جمال نساء أهل الجنة وحسنهن، فذكر في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألُوَّةُ**[(٤)] ، **ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم**

---

(١) سورة الرحمن: ٧٠ ـ ٧٢ .

(٢) سورة البقرة: ٢٥ .

(٣) حادي الأرواح، ص: ١٧٣ .

(٤) الألوة بفتح الهمزة وضم اللام، أي: العود الهندي الذي يتبخر به، فارسي معرَّب (انظر: لسان العرب ١٤/ ٤١، وصحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٧٢).

زوجتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن»[١] .

وذكر ـ ﷺ ـ جمالهن في حديث آخر حيث يقول: **«ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»**[٢] .

٤ ـ قاصرات الطرف :

قال تعالى: ﴿**وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ**﴾[٣] .

وقال عز وجل: ﴿**وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ**﴾[٤] .

وقال سبحانه: ﴿**فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ**﴾[٥] .

قال ابن عباس وقتادة وعطاء وابن زيد في قوله تعالى: ﴿**قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ**﴾: أي: غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئًا في الجنة أحسن من أزواجهن[٦] . «فهذا دليل على الحياء والعفاف والتقوى، كما هو دليل

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري ٦/ ٣١٨. ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب أول زمرة تدخل الجنة، رقم الحديث: ٣٨٣٤، صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٧١ ـ ١٧٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب وزوجناهم بحور عين (فتح الباري ٦/ ١٥). والنصيف: الخمار (انظر: القاموس المحيط ٣/ ٢٠٦).

(٣) سورة الصافات: ٤٨.

(٤) سورة ص: ٥٢.

(٥) سورة الرحمن: ٥٦.

(٦) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٤٤، وانظر: الدر المنثور ٦/ ٢٠٥.

على شدة المحبة لأزواجهن وكمال الإعجاب بهم»[١] .

رابعًا : لباس أهل الجنة وزينتهم :

وتناول القرآن الكريم ما يلبس أهل الجنة من ثياب من الحرير والاستبرق، وقد وصفت بالخضرة دون سائر الألوان لما لهذا اللون من قبول جميل لدى النفوس، قال تعالى: ﴿ **أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾[٢] .

قال الزمخشري: «وتنكير (أساور) لإبهام أمرها في الحسن. وجمع بين السندس وهو ما رقّ من الديباج وبين الإستبرق وهو الغليظ منه جمعًا بين النوعين. وخص الاتكاء؛ لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرَّتهم»[٣] .

وخص الخضرة؛ لأنها من الألوان التي تجذب الأنظار إليها والتي يميل إليها الإنسان بطبعه، لانتشارها تحت بصره في الطبيعة، وثياب أهل الجنة من حرير، ومن إستبرق منسوج بالذهب، وهي ثياب خضر كخضرة الزروع، خضرة تأخذ بالألباب[٤] .

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** ﴾[٥] .

---

(١) الإيمان في القرآن، للدكتور مصطفى عبد الواحد، ص: ٢٠٥ .
(٢) سورة الكهف: ٣١ .
(٣) تفسير الكشاف ٢/ ٤٨٣ .
(٤) انظر: الدار القرار في البيان القرآني، ص: ١١٦ .
(٥) سورة الحج: ٢٣ .

والحرير محرم على الرجال من المسلمين، وهو نوع ترف لا يليق بالرجال العاملين المجاهدين، وإنما يعوضهم الله به في الجنة، إذ أنها دار النعيم والجزاء والثواب، فمن ترك شيئًا لله عوضه الله عنه خيراً، وآتاه ما هو أفضل منه.

وقد حدثنا الرسول - ﷺ - عن ذلك في الحديث الذي رواه البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: أتي رسول الله - ﷺ - بثوب من حرير، فجعلوا يعجبون من حسنه ولينه، فقال رسول الله - ﷺ -: **«لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أفضل من هذا»**(١) .

وثياب أهل الجنة وحليهم لا تبلى ولا تفنى، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: **«من يدخل الجنة ينعُم لا يبْأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»**(٢) .

خامسًا: فرش أهل الجنة:

أعد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين قصوراً في الجنة، وأماكن الجلوس في حدائقها، بألوان فاخرة رائعة من الفرش للجلوس والاتكاء ونحو ذلك، فالسرر كثيرة راقية، والفرش عظيمة القدر بطائنها من الإستبرق، فما بالك بظاهرها، وهناك ترى النمارق مصفوفة على نحو يسر الخاطر، ويبهج النفس، والزرابي مبثوثة على شكل منسق متكامل.

قال تعالى: **﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾**(٣) .

---

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة والنار (فتح الباري ٦/ ٣١٩).

(٢) صحيح مسلم كتاب الجنة، باب في دوام نعيم الجنة، رقم الحديث ١٢ (٢٨٣٦)، بشرح النووي ١٧/ ١٧٤.

(٣) سورة الغاشية: ١٣-١٦.

وقال تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[١] .

وقال عز وجل : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾[٢] .

وقال سبحانه : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾[٣] .

والمراد بالنمارق : «الوسائد جمع نمرقة ، والزرابي : بسط فاخرة جمع زربية»[٤] .

وقوله : ﴿ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ قال مجاهد : فضول الفرش . ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ قال : الديباج الغليظ[٥] .

وقد ذكر سبحانه كل ما سلف تصويراً لترف أهل الجنة تصويراً يقربه من عقولهم ، ويستطيعون به إدراكه وفهمه ، وإلا فإن نعيم الجنة مما يسمو على الفكر ويعلو فوق متناول الإدراك ؛ فالأشياء التي عددها سبحانه تتشابه مع نظائرها التي في هذه الحياة بأسمائها ، فأما حقائقها وذواتها فليست مثلها ولا قريبًا منها ، كما أثر عن ابن عباس أنه قال : ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء[٦] .

---

(١) سورة الرحمن : ٥٤

(٢) سورة الواقعة : ١٣-١٦ .

(٣) سورة الرحمن : ٧٦ .

(٤) تفسير أبي السعود ٩/ ١٥٠ .

(٥) تفسير الدر المنثور ٦/ ٢١٣ .

(٦) تفسير المراغي ١٠/ ١٣٥ .

سادسًا : خدم أهل الجنة :

قال تعالى : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾[١] .

وقال عز وجل : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾[٢] .

قال ابن كثير : «يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان أهل الجنة ، ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي : على حالة واحدة مخلدون عليهم ، لا يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن ، ومن فسرهم بأنهم مخرصون ، في آذانهم الأقرطة ، فإنما عبر عن المعنى ؛ لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير . وقوله تعالى : ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي : إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم ، حسبتهم لؤلؤًا منثورًا ، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن»[٣] .

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي : «وهذا من تمام لذة أهل الجنة ، أن يكون خدامهم الولدان المخلدون ، الذين تسر رؤيتهم ، ويدخلون في مساكنهم ، آمنين من تبعتهم ، ويأتونهم بما يدعون ، وتطلبه نفوسهم»[٤] .

---

(١) سورة الواقعة : ١٧ ـ ١٨ .
(٢) سورة الإنسان : ١٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٩ .
(٤) تفسير السعدي ٧/ ٥٣٦ .

أكبر نعيم الحياة الآخرة :

أكبر نعمة يمن الله بها على عباده المؤمنين في الحياة الآخرة رضوان الله والنظر إلى وجهه الكريم ، وقد صرح الحق تبارك وتعالى بذلك فقال :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[١] .

روى الإمام مسلم بسنده: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأيّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»[٢] .

قال صاحب الظلال : «وإن الجنة بكل ما فيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى في هالات ذلك الرضوان الكريم ، ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ .

إن لحظة اتصال بالله. لحظة شهود لجلاله ، لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج[٣] ، ومن ثقلة هذه الأرض وهمومها القريبة ، لحظة تنبثق فيها في أعماق القلب البشري شعاعة من ذلك النور الذي لا تدركه الأبصار ، لحظة إشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله . . إن لحظة واحدة من هذه

---

(١) سورة التوبة : ٧٢ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدًا ، رقم الحديث : ٩ (٢٨٢٩) ، بشرح النووي ١٧/ ١٦٨ .

(٣) وأمشاج البدن طبائعه ، واحدها مَشْجٌ ومَشَجٌ ومَشِجٌ (لسان العرب ٢/ ٣٦٨) .

اللحظات التي تتفق للندرة القليلة من البشر في ومضة صفاء، ليتضاءل إلى جوارها كل متاع، وكل رجاء.. فكيف برضوان من الله يغمر هذه الأرواح، وتستشعره بدون انقطاع؟»[١] .

وأعظم النعيم النظر إلى وجه الله الكريم، وقد صرح سبحانه وتعالى برؤية عباده لخالقهم في الحياة الآخرة، فقال:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٣] .

روى الإمام مسلم عن صهيب الرومي - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهَنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار؟ . قال: «فيكشف الحجابَ، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى»**، زاد في رواية: ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٤] »[٥] .

ورؤية الله عز وجل في الحياة الآخرة رؤية حقيقية. يقول صاحب العقيدة الطحاوية: «والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٦] . وتفسيره على ما

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٦ .

(٢) سورة القيامة: ٢٢-٢٣ .

(٣) سورة يونس: ٢٦ .

(٤) سورة يونس: ٢٦ .

(٥) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم، رقم الحديث: ٢٩٧ (١٨١) و٢٩٨ (. . .)، بشرح النووي ٣/ ١٧ .

(٦) سورة القيامة: ٢٢-٢٣ .

أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله - ﷺ - فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله - ﷺ - ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه»(١) .

«إن رؤية الله تعالى في الآخرة هي الغاية القصوى في نعيم الآخرة، والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة»(٢) .

أما الكفار والمكذبون فهم يحرمون من هذا النعيم العظيم، والدرجة الرفيعة، قال تعالى: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** ﴾(٣) .

ونكتفي بهذا القدر في بيان حقيقة الحياة الآخرة وما يتعلق بها من وصف الحياة الآخرة، وخلودها، وعذابها، ونعيمها، ليعطينا ذلك البيان الأخروي درسًا مهمًا، وموعظةً غاليةً، بأن الإنسان في الحياة الآخرة مسؤول عن جوارحه، وحواسه، وعقله، وقلبه، ويسأل عنها، عما عمل فيها في الحياة الدنيا. حتى ليبدو أن ذلك هو المقصود الأساسي من ذكر الآخرة وما فيها، ومن ذكر مقدماتها ونتائجها. قال تعالى: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾(٤) .

* * *

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص: ٢٠٣ـ٢٠٤.
(٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول ١٠/ ٥٥٧.
(٣) سورة المطففين: ١٥.
(٤) سورة الإسراء: ٣٦.

الفصل الثالث

الحياة دليل القدرة الإلهية

وتحته مباحث :

المبحث الأول : في أن الله تعالى مبدع الحياة.

المبحث الثاني : في البرهان الحسي على إعادة الحياة.

المبحث الثالث : حياة الأرض.

المبحث الرابع : نشأة الحياة من الماء.

تمهيد

إذا تدبرنا القرآن الكريم نجد فيه آيات كثيرة توجه النظر إلى دلائل القدرة الإلهية في تلك الظاهرة الكونية المكررة التي يمر عليها الناس غافلين . ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة . وحسبنا في ذلك أن ذكر الله عز وجل في آيات كثيرة قدرته على كل شيء ، وختمها بها ، حيث يقول : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ ، ويقول سبحانه : ﴿ **وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ . وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم (٣٤) مرة[١] . كما ورد ذكر قدرته تعالى بعبارات قريبة منها في مواضع كثيرة .

قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ** ﴾[٣] .

«ومنذ البدء أخرج الله الحي من الميت . فقد كان هذا الكون ـ أو على الأقل كانت هذه الأرض ـ ولم يكن هناك حياة . . ثم كانت الحياة . . أخرجها الله من الموت . . كيف؟ لا ندري! وهي منذ ذلك الحين تخرج من الميت ؛ فتتحول

---

(١) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص : ٥٣٧ .
(٢) سورة فصلت : ٣٩ .
(٣) سورة الأنعام : ٩٥ .

الذرات الميتة في كل لحظة - عن طريق الأحياء - إلى مواد عضوية حية تدخل في كيان الأجسام الحية؛ وتتحول - وأصلها ذرات ميتة - إلى خلايا حية . . والعكس كذلك . . في كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة؛ إلى أن يتحول الكائن الحي كله ذات يوم إلى ذرات ميتة!

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾

ولا يقدر إلا الله أن يصنع ذلك . . لا يقدر إلا الله أن ينشئ الحياة منذ البدء من الموات . ولا يقدر إلا الله أن يجهز الكائن الحي بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية. ولا يقدر إلا الله على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة . . في دورة لم يعلم أحد يقينًا بعد متى بدأت، ولا كيف تتم . . وإن هي إلا فروض ونظريات واحتمالات !!!»[1] .

* * *

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٥٤ .

المبحث الأول
في أن الله تعالى مبدع الحياة

قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾[١] .

قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ : «ومعنى الآية : أنه أوجد الخلائق من العدم . . كما قال تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾[٢] ، فسمى الحال الأول وهو العدم موتًا ، وسمى هذه النشأة حياة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾[٣] »[٤] .

وقال الرازي : «اعلم أن الحياة هي الأصل في النعم ، ولولاها لم يتنعم أحد في الدنيا ، وهي الأصل أيضًا في نعم الآخرة ، ولولاها لم يثبت الثواب الدائم . . »[٥] .

وإذا كانت الحياة هي الأصل في النعم الدنيوية والأخروية ، فالحياة أيضًا من دلائل كمال قدرة الله تعالى وبالغ حكمته عز وجل . فلننظر تلك القدرة الإلهية التي تتجلى في الحياة ومظاهرها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ

---

(١) سورة الملك : ١ ـ ٢ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨ .

(٣) سورة البقرة : ٢٨ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤٦ .

(٥) التفسير الكبير ٣٠/ ٥٥ .

وَالنَّوَىٰ[١] يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[٢] .

قال ابن عباس والضحاك ومقاتل في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ أي: خالق الحب والنوى[٣] . قال الواحدي: ذهبوا بفالق مذهب فاطر، وأقول: الفطر هو الشق، وكذلك الفلق، فالشيء قبل أن يدخل في الوجود كان معدومًا محضًا ونفيًا صرفًا، والعقل يتصور من العدم ظلمة متصلة لا انفراج فيها ولا انفلاق ولا انشقاق، فإذا أخرجه المبدع الموجد من العدم إلى الوجود، فكأنه بحسب التخيل والتوهم شق ذلك العدم وفلقه، وأخرج ذلك المحدث من ذلك الشق. فبهذا التأويل لا يبعد حمل الفالق على الموجد والمحدث والمبدع»[٤] .

وقال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾: «هذا شروع في تعداد عجائب صنعه تعالى، وذكر ما يعجز آلهتهم عن أدنى شيء منه . . »[٥] .

ومن تلك عجائب صنعه تعالى ما ورد في ظلال القرآن من اعتراف متخصص في علم الأحياء، في مقال «العلوم تدعم إيماني بالله» حيث يقول:

« . . . وقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء. وهو من الميادين العلمية

---

(١) النَّوَى: جمع، مفرده نواة، وهو العَجَم (المصباح المنير للمقريزي ٢/ ١٣٠)، والعجم: كل ما كان في جوف مأكول (معجم الصحاح للجوهري ٥/ ١٩٨٠).

(٢) سورة الأنعام: ٩٥.

(٣) انظر: الدر المنثور ٣/ ٦٠.

(٤) التفسير الكبير ١٣/ ٨٩-٩٠.

(٥) تفسير فتح القدير ٢/ ١٤٢.

الفسيحة التي تهتم بدراسة الحياة. وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التي تسكن هذا الكون.

انظر إلى نبات برسيم[1] ضئيل. وقد نما على أحد جوانب الطريق. فهل تستطيع أن تجد له نظيراً في روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة؟ إنه آلة حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار، بآلاف من التفاعلات الكيموية والطبيعية؛ ويتم كل ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم - وهو المادة التي تدخل في تركيب جميع الكائنات الحية -.

فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة؟ إن الله لم يصنعها هكذا وحدها، ولكنه خلق الحياة، وجعلها قادرة على صيانة نفسها، وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل. مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التي تعيننا على التمييز بين نبات وآخر. . إن دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء، وأكثرها إظهاراً لقدرة الله. . إن الخلية التناسلية التي ينتج عنها النبات الجديد، تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث يصعب مشاهدتها إلا باستخدام المجهر المكبر. ومن العجيب أن كل صفة من صفات النبات: كل عرق، وكل شعيرة، وكل فرع على ساق، وكل جذر أو ورقة، يتم تكوينها تحت إشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغاً كبيراً، فاستطاعوا العيش داخل الخلية التي ينشأ منها النبات. . تلك الفئة من المهندسين هي فئة الكروموسومات (ناقلات الوراثة)[2] .

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ﴾ مبدع هذه المعجزة المتكررة المغيبة السر. . هو الله. . وهو

---

(١) والبرسيم بالكسر: حبُّ القُرط شبيه بالرطبة أو أجل منها (القاموس المحيط ٤/ ٨٠).

(٢) بإذن الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. وبقدر الله الذي تتم به كل حركة في الوجود كله . . . (حاشية الظلال ٢/ ١١٥٦).

ربكم الذي يستحق أن تدينوا له وحده . . بالعبودية والخضوع والاتباع»[١] .

﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي : كيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون معه غيره[٢] .

تدبير العناصر اللازمة لحياة الكائنات الحية :

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٣] .

قال ابن كثير : «المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل ، أن تتخذ من الجبال بيوتًا تأوي إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها[٤] ورصّها[٥] ، بحيث لا يكون في بيتها خلل ، ثم أذن لها تعالى إذنًا قدريًا تسخيريًا أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها - أي مسهلة عليها - حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٥٦ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ١٣٨ .
(٣) سورة النحل : ٦٦-٦٩ .
(٤) سدّست الشيءَ تسديسًا : جعلته على ستة أركان ، أو ستة أضلاع (تاج العروس ٨/ ٣١٦) .
(٥) وكل ما أحكم وضُمَّ فقد رُصَّ (لسان العرب ٧/ ٤٠) .

إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ[١] وعسل، فتبني الشمع[٢] من أجنحتها وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها»[٣] .

لقد دبر الله سبحانه ذلك كله، ودبر العناصر اللازمة لحياة الكائنات الحية، فمن هذه العناصر: الماء والهواء والتربة الصالحة والضوء والغذاء، وفي كل منها من الآيات ما لا يتناهى في دلالته على قدرة مبدع الحياة.. رب الكون وخالقه سبحانه.

ولنبصر في الهواء الذي خلقه الله سبحانه، وجعله عنصراً أساسيًا من العناصر اللازمة لحياة الكائنات الحية، قال تعالى: ﴿ **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** ﴾[٤] .

قال الإمام الغزالي: «اعلم ـ رحمك الله ـ أن الهواء في خلقه تتخلله الرياح: ولولا ذلك لهلك جميع حيوان البر، وباستنشاقه تعتدل الحرارة في أجسام جميع الحيوانات؛ لأنه لهم مثل الماء لحيوان البحر، فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه، لانصرفت الحرارة التي في الحيوانات إلى قلبها، فكان هلاكها بسبب ذلك».

«.. ثم انظر إلى ما في الهواء من اللطافة والحركة، التي تتخلل أجزاء

---

(١) الفراخ جمع الفَرْخ وهو: ولد الطائر، وكل صغير من الحيوان والنبات (القاموس المحيط ١/ ٢٧٥).

(٢) الشمع: موم العسل الذي يستصبح به (لسان العرب ٨/ ١٨٥).

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٩٧.

(٤) سورة الحجر: ٢٢.

العالم، فينقّي بحركته عَفَن[1] الأرض، فلولاه لعفنت المساكن، وهلك الحيوان بالوباء والعلل.. ثم انظر كيف يتفرق المطر بسبب حركة الهواء، فيقع على الأرض قطرات، فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل انصبابة واحدة، فيهلك ما يقع عليه، ثم يجتمع بلَلُ القطرات، فيجتمع أنهاراً وبحاراً على وجه الأرض من غير تضرّر، ويحصل بذلك مقصودهم على أحسن وجه؛ فانظر إلى أثر رحمة الله، فسبحان اللطيف بخلقه، المدبر لملكه»[2] .

وقال صاحب كتاب «العلم يدعو للإيمان»: «إن الهواء سميك[3] بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيموي التي يحتاج إليها الزرع، والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات، دون أن تضر بالإنسان، إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم. وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهر - ومعظمها سام - فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان.

وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء، أي: المحيط الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنباتات، وأخيراً الإنسان نفسه. فدع الذي يدرك ذلك يقف في روعة أمام عظمته، ويقر بواجباته شكرًا!»[4] . قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ

(١) العفن: كلمة تدل على فساد كل شيء من ندى، يقال: عفن الشيء يعفَنُ عفنًا (معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ٥٦).

(٢) الحكمة في مخلوقات الله، ص: ٤٨ ـ ٥٠.

(٣) السميك: المرتفع (انظر: لسان العرب ١٠/ ٤٤٣).

(٤) العلم يدعو إلى الإيمان، تأليف ا. كريسي كوريسون، ترجمة محمود صالح الفلكي، ص: ٦٦.

وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

الآيات الإلهية في إخراج الحي من الميت، والميت من الحي:

قال تعالى: ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2] .

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[3] .

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[4] .

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[5] .

أقوال المفسرين :

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ : «يخرج النطفة الميتة من الحي، ثم يخرج من النطفة بشراً حيًا» .

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٠ .

(٢) سورة آل عمران: ٢٧ .

(٣) سورة الأنعام: ٩٥ .

(٤) سورة يونس: ٣١ - ٣٢ .

(٥) سورة الروم: ١٩ .

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾: «الناس الأحياء من النطف، والنطف ميتة تخرج من الناس الأحياء، ومن الأنعام والنبات كذلك».

وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾: «هي البيضة تخرج من الحي وهي ميتة، ثم يخرج منها الحي»[(١)] .

وقد توسع ابن كثير في تفسير هذه الآية فقال: «وقوله تعالى: ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أي: تخرج الزرع من الحب، والحب من الزرع، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء»[(٢)] .

وقال المراغي: «والتفسير الحقيقي هو (إخراج الحي من الميت) كما يحصل يوميًا من أن الحي ينمو بأكل أشياء ميتة، فالصغير يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره، والغذاء شيء ميت، ولاشك في أن القدرة على تحويل الشيء الميت الذي يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه، هو أهم علامة تفصل الجسم الحي من الجسم الميت، وقد كتب علماء الحيوان فقالوا: إن النعجة مثلاً تتغذى بالنبات وتحوله إلى لحمها، وهذه أهم علامة على أنها حية، وكذلك الطفل يتغذى باللبن الميت ويحوله إلى جسمه الحي.

وأما إخراج الميت من الحي، فهو الإفرازات[(٣)] مثل اللبن (وإن شئت

---

(١) تفسير الدر المنثور ٢/ ٢٧، وانظر: تفسير فتح القدير ٢/ ٣٣٠ـ٣٣١، وتفسير مراح لبيد ١/ ٩٤.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣٠٧.

(٣) الإفراز: عزلة الشيء وتمييزه عن غيره (انظر: لسان العرب ٥/ ٣٩١).

فلحوم الحيوانات أيضًا والنبات) ، فإن اللبن سائل ليس فيه شيء حي ، بخلاف النطفة فإن فيها حيوانات حية ، وهذه تخرج من الحيوان الحي ، وهكذا ينمو الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، والله أعلم بمراده ، اهـ.

وقد استعمل القرآن لفظ الحياة فيما يقابل الموت ، سواء أكانت الحياة حسية أم معنوية ، وسواء أكان لفظ الحياة مما يعيش ويحيا مثله أم لا»[1] .

وفي ظلال هذه الآية يقول سيد قطب : «كذلك الحياة والموت ، يدب أحدهما في الآخر في بطء وتدرج . كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة ، ويأكل منه الموت وتبني فيه الحياة! خلايا حية منه تموت وتذهب ، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل . وما ذهب منه ميتًا يعود في دورة أخرى إلى الحياة . وما نشأ فيه حيًا يعود في دورة أخرى إلى الموت . . هذا في كيان الحي الواحد . . ثم تتسع الدائرة فيموت الحي كله ، ولكن خلاياه تتحول إلى ذرات تدخل في جسم حي فتدب فيها الحياة . . وهكذا دورة دائبة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار . . . ولا يدعي الإنسان أنه هو الذي يصنع من هذا كله شيئًا . ولا يزعم عاقل كذلك أنها تتم هكذا مصادفة بلا تدبير ! .

حركة في كيان الكون كله وفي كيان كل حي كذلك . حركة خفية عميقة لطيفة هائلة . تبرزها هذه الإشارة القرآنية القصيرة للقلب البشري والعقل البشري ؛ وهي تشي بيد القادر المبدع اللطيف المدبر . . فأنى يحاول البشر أن ينعزلوا بتدبير شأنهم عن اللطيف المدبر؟ وأنى يختارون لأنفسهم أنظمة من صنع أهوائهم وهم قطاع من هذا الكون الذي ينظمه الحكيم الخبير؟»[2] .

---

(١) تفسير المراغي ١/ ١٣٣ ـ ١٣٤ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٨٥.

كلام علم الأحياء :

يقول صاحب كتاب «القرآن يتحدى» : «وإخراج الحي من الميت مثل إخراج الحي من سلالة من طين، فكل كائن حي إنما جمعت عناصره من نبات خرج من الأرض أو من حيوان تغذى على نبات، ثم تحلل هذا وذاك وتحول إلى خلايا حية تحفظ حياة صاحبها. فالطعام تأكله مطبوخًا ليست فيه خلية واحدة حية، وإذا به يتحول إلى ملايين الخلايا الحية، يتكرر ذلك فينا يوميًا ولا نلقي إليه بالاً لتعودنا على أداء الخلايا والأعضاء لوظائفها بكل دقة دون تدخل منا.

وإخراج الميت من الحي لابد منه لحياة الكائن، ويتمثل ذلك في تجهيزه بالقدرة على طرد الخلايا الميتة والمحترقة، ولولا هذا لمات الكائن الحي.

إن عمليات الحياة والموت تدور باستمرار في الكائن الحي بشكل يأخذ بالألباب، وهي تشمل :

- انقسام الخلايا إلى مئات البلايين، ويتم ذلك دون خطأ في هندسة بناء الخلية أو بناء العضو الداخلة في تركيبه، أو الكائن الحي نفسه، أو إخلال بشكله، أو ترابط أعضائه.

- تنوع الخلايا أثناء عمليات الانقسام إلى أنواع تتناسب مع وظائف الأعضاء التي تبنيها.

- تجدد الخلايا بدقة مقننة بالقدر الذي يحفظ حياة الكائن الحي.

- التخلص من المواد المستهلكة أو المؤذية للكائن الحي.

ويتم تجديد كرات الدم الحمراء مرة كل مائة يوم، ويحتفظ الطحال[1] بالحديد الذي فيها، وتتحول بقية الهيموجلوبين إلى صبغ يفرزه الكبد مع الصفراء.

وفي كل ثانية يستهلك جسم الإنسان البالغ خمسين مليونًا من الخلايا التي تقوم باقي خلايا الجسم بتعويضها عن طريق الغذاء والتنفس بمثل عددها ونوعها دون شعور من الكائن الحي بحدوث هذه الآيات. ويتم تجديد خلايا فترة قدرها عشر سنوات: بمعنى أن الجسم المادي للكائن الحي يتجدد تمامًا بعد هذه الفترة مع عدم المساس بشخصية صاحبه.

آيات باهرة تجري في الإنسان كل لحظة، ومع ذلك لا يواري الملحد وجهه خجلاً، حينما يناصب خالقه العداء، ويطلب البراهين ليستدل بها على وجود خالقه!! وما أبعد عماه عن شهود ملايين الآيات ـ التي تجري فيه هو ـ برهان»[2].

وهكذا يتجلى لنا أن الحياة هي الأصل في النعم، وأنها هي المصدر للوعي والشعور، وهي التي تجعلنا ندرك صنع الله سبحانه ويبهرنا جماله. وأن بلايين الآيات تلاحقنا في كل لحظة، لتهدينا وتذكرنا بالحكيم الذي لا نهاية لحكمته، وبالمبدع الذي لا نهاية لإبداعه. ﴿ **فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ** ﴾[3].

* * *

---

(١) الطحال: لحمة سوداء عريضة في بطن الإنسان وغيره عن اليسار لازقة بالجنب (لسان العرب ١١/ ٣٩٩).

(٢) القرآن يتحدى، لأحمد عز الدين عبد الله خلف الله، ص: ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٣) سورة الأعلى: ٩.

المبحث الثاني
في البرهان الحسي على إعادة الحياة

ونقصد بإعادة الحياة هنا، البعث الذي هو الإحياء بعد الموت، قال صاحب لسان العرب: «البعث أيضًا: الإحياء من الله للموتى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[1] أي: أحييناكم»[2]. وقال الرازي: «أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾[3] فالمعنى: ثم أحياه، . . . وإنما قال: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، ولم يقل: ثم أحياه؛ لأن قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ يدل على أنه عاد كما كان أولاً حيًا عاقلاً فهمًا مستعدًا للنظر والاستدلال في المعارف الإلهية، ولو قال: ثم أحياه، لم تحصل هذه الفوائد»[4].

وإذا تدبرنا القرآن الكريم نجد أن هناك آيات كثيرة تتحدث عن البعث أو إعادة الحياة، مما يدل على أن القرآن الكريم يهتم بقضية البعث؛ وذلك لأنه ذو وشيجة وطيدة بتحقيق أهدافه ومقاصده التي سعى إليها، فالقرآن إذ حث الإنسان على الإيمان بالله وتوحيده وتصديق رسوله، وإقامة شريعة الله في الأرض والاستجابة لأحكامه، ونحو ذلك من أهداف سامية، أراد أن يضمن تنفيذ هذا الذي بيّنه له، فربط بين سلوك الإنسان وعمله باليوم الآخر،

---

(١) سورة البقرة: ٥٦.

(٢) لسان العرب ٢/ ١١٧.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ٢٥٩.

(٤) التفسير الكبير ٧/ ٣٢.

وأوضح له أن حياته هذه التي يحياها، ليست هي النهاية، وإنما هي مقدمة لحياة أخرى، وأنه إذ يرقد في مثواه فسيبعث من جديد ليلقى ما عملت يداه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

الآيات الإلهية في البرهان الحسي على إعادة الحياة :

هناك آيات كثيرة تبرهن برهانًا حسيًا على إعادة الحياة، فمن هذه الآيات الإلهية :

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١) .

إن الله سبحانه لم يذكر في هذه الآية اسم الرجل أو القرية؛ لأن العبرة في المضمون. لو شاء الله لذكر، ولو كانت حكمة النص لا تتحقق إلا بهذا الذكر ما أهمله القرآن(٢) .

قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: فعلنا ما فعلنا من إحيائك وإحياء حمارك، وحفظ ما معك من الطعام والشراب، لنزيل تعجبك، ونريك آياتنا في نفسك وطعامك وشرابك، ولنجعلك آية للناس.

أما كونه آية له فواضح، وأما كونه آية للناس فلأن علمهم بموته مائة عام،

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٩ .

(٢) انظر: الأساس في التفسير ١/ ٦٠٩، وفي ظلال القرآن ١/ ٣٠١ .

ثم بحياته بعد ذلك يكون من أكبر الآيات التي يهتدي بها من يشاهدها، إلى كمال قدرة الله وعظيم سلطانه»[١] .

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ «أي: أنا عالم بهذا، وقد رأيته عيانًا فأنا أعلم أهل زماني بذلك»[٢] .

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، يقول سيد قطب: «لم يقل له كيف. إنما أراه في عالم الواقع كيف! فالمشاعر والتأثرات تكون أحيانًا من العنف والعمق بحيث لا تعالج بالبرهان العقلي، ولا حتى بالمنطق الوجداني؛ ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذي يراه العيان.. إنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة التي يمتلئ بها الحس، ويطمئن بها القلب، دون كلام..»[٣] .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤] .

روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم ـ ﷺ ـ إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾»[٥] .

---

(١) تفسير المراغي ١/ ٢٤.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٢٧٢.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٠٠.

(٤) سورة البقرة: ٢٦٠.

(٥) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، رقم الحديث: ٢٣٨ (١٥١)، بشرح النووي ٢/ ١٨٣.

قال ابن كثير : «فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده، بلا خلاف»[١] .

قال النووي : «اختلف العلماء في معنى : «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» على أقوال كثيرة، أحسنها وأصحها ما قاله الإمام أبو إبراهيم المزني صاحب الشافعي، وجماعات من العلماء : معناه أن الشك مستحيل في حق إبراهيم، فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقًا إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به من إبراهيم، وقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أن إبراهيم - عليه السلام - لم يشك، وإنما خص إبراهيم - ﷺ - لكون الآية قد يسبق إلى بعض الأذهان الفاسدة منها احتمال الشك، وإنما رجح إبراهيم على نفسه - ﷺ - تواضعًا وأدبًا . . .»[٢] .

إن البرهان الحسي على إعادة الحياة يتجلى لنا في هذه الآية من سؤال إبراهيم - عليه السلام - ربه بقوله : ﴿ **أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ** ﴾ .

فكان جواب الله له : ﴿ **فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ** ﴾ بمعنى : أن يقطعها إبراهيم إلى أجزاء صغيرة يختلط بعضها ببعض خلطًا غير قابل للتجزئة والتمييز، ﴿ **ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا** ﴾ .

«حيث يميز الله تعالى أجزاء كل طير عن صاحبه، وتجمع أجزاء كل واحد منها مستقلاً عن الباقي، فإذا اكتملت لكل طائر هيئته الخاصة به أودع فيه الحياة، حتى يطمئن إبراهيم إلى هذه الحقيقة، ويتحقق علمه، وينتقل من معالجة الفكر والنظر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة وانكشاف المعلوم

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٧٢ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ١٨٣ .

انكشافًا لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال ودفع الشبه عن العقل»[١] .

وهو برهان حسي أراه به إحياء الموتى رأي العين، وأراه السر الإلهي يقع بين يديه، وهو السر الذي يقع في كل لحظة، ولا يرى الإنسان إلا آثاره بعد تمامه، إنه سر هبة الحياة؛ الحياة التي جاءت أول مرة بعد أن لم تكن؛ والتي تنشأ مرات لا حصر لها في كل حي جديد.

رأى إبراهيم ـ عليه السلام ـ هذا السر يقع بين يديه. . طيور فارقتها الحياة، وتفرقت مزقها في أماكن متباعدة تدب فيها الحياة مرة أخرى، وتعود إليه سعيًا.

ومن الآيات الإلهية التي تبرهن برهانًا حسيًا على إعادة الحياة ما ورد في قصة أصحاب الكهف[٢] ، حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾[٣] .

«ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة. وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك»[٤] .

وقال الشوكاني في قوله تعالى: **﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا**

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٣/ ٣٩.

(٢) تمام القصة ورد في سورة الكهف من الآية: ٩ إلى الآية: ٢٧.

(٣) سورة الكهف: ٢١.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٩، وانظر: تفسير فتح القدير ٣/ ٢٧٧.

رَيْبَ فِيهَا ﴾ : «أي : ليعلم الذين أعثرهم الله عليهم أنَّ وعد الله بالبعث حق . . . وليعلموا أن القيامة لاشك في حصولها ، فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث»[١] .

وقال المراغي : «ذاك أن حال هؤلاء الفتية في تلك الحِقْبة الطويلة ، وقد حبست عن التصرف نفوسُهم ، وعُطّلت مشاعرهم وحواسَهم ، وحُفظت من التحلل والتفتت أبدانُهم ، وبقيت على ما كانت عليه من الطراوة والشباب ، ثم رجعت بعدئذ تلك المشاعر والحواس إلى حالها ، وأطلقت النفوس من عقالها ، وأرسلت إلى تدبير أبدانها ، فرأت الأمور كما كانت ، والأعوان هم الأعوان ، ولم تنكر شيئًا عهدته في مدينتها ، ولم تتذكر حبسها المدى الطويل عن التصرف في شؤونها - وحال الذين يقومون من قبورهم بعدما تعطلت مشاعرهم وحبست نفوسهم - من واد واحد في الغرابة ، ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند ، ووقوع الأول يزيل الارتياب في إمكان وقوع الثاني ، ولا يبقى بعد ذلك شك في أن وعد الله حق ، وأن الله سيبعث من في القبور . . . »[٢] .

إن العبرة في خاتمة هؤلاء الفتية دلالتها على البعث بمثل واقعي قريب محسوس ، يقرب إلى الناس قضية البعث ، فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق ، وأن الساعة لا ريب فيها . وعلى هذا النحو بعث الله الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم[٣] .

---

(١) تفسير فتح القدير ٣/ ٢٧٧ .
(٢) تفسير المراغي ٥/ ١٣٣ .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٦٤ .

براهين أخرى تتعلق بالبرهان الحسي على إعادة الحياة:

إن الذي يتدبر القرآن الكريم يجد أنه قد برهن على إعادة الحياة أو البعث بطرق متفاوتة، وأساليب متنوعة، ويمكننا أن نجملها في النقاط الرئيسية التالية:

١- البرهان بالنشأة الأولى.

٢- البرهان بأحوال السماوات والأرض.

٣- البرهان بإحياء الأرض بعد موتها.

٤- البرهان بأحوال النبات والشجر.

٥- البرهان بأحوال الحيوان والطير.

٦- البرهان بأحوال الليل والنهار.

وسنتحدث عن هذه الأساليب واحدًا واحدًا، وذلك كما يلي:

أولاً: البرهان بالنشأة الأولى:

وحاصل هذا البرهان الاستدلال بمبدأ الإنسان على معاده، وبالنشأة الأولى على إمكان النشأة الآخرة، وهو برهان من القوة والوضوح بحيث لايحتاج من الإنسان إلى إعمال الفكر أو مزيد بحث ونظر، بل يكفيه أن يتذكر النشأة الأولى ليدرك المدلول من الدليل.

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ** ﴾(١).

---

(١) سورة الواقعة: ٦٢.

ومنشأ القوة في هذا الدليل نابع من أن الله يقيم الحجة على منكري البعث بالبدء على الإعادة، وهم يقرون بالبدء ويعترفون به، لأنه أمر معاين محسوس لا سبيل لإنكاره ـ وكل عاقل يعلم ضرورة أن من قدر على البدء فهو على الإعادة أقدر ـ، وأنه سبحانه لو كان عاجزاً عن الإعادة لكان عن البدء أعجز ـ فإن الإعادة أهون من الابتداء، وذلك بحسب مقاييسنا البشرية ـ أما بالنسبة لله فالكل سواء لعموم قدرته تعالى وشمولها لجميع المقدورات»[1].

قال ابن القيم: «وقد أعاد سبحانه هذا المعنى وأبداه في كتابه بأوجز العبارات وأدلها وأفصحها وأقطعها للعذر، وألزمها للحجة، كقوله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾[2].

فدلهم بالنشأة الأولى على الثانية، وأنهم لو تذكروا لعلموا أن لا فرق بينهم في تعلق القدرة بكل واحدة منهما. وقد جمع سبحانه بين النشأتين في قوله: ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ**

---

(١) إطلالة على عقيدة البعث في الإسلام، للدكتور عبد الحميد على عز العرب، ص: ١٠٨.
(٢) سورة الواقعة: ٥٨ ـ ٦٢.

وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1] .

فتضمنت هذه الآيات عشرة أدلة :

منها : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ . . . ﴾ فذكره بمبدأ خلقه ليدله به على النشأة الثانية ، ثم أخبر أن الجاحد لو ذكر خلقه لما ضرب المثل . بل نسي خلقه ضرب المثل . « . . . ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمن أبلغ الدليل على ثبوت ما جحده فقال : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، فهذا جواب واستدلال قاطع . ثم أكد هذا المعنى بالإخبار بعموم علمه بجميع الخلق . فإن تعذر الإعادة عليه إنما يكون لقصور في علمه أو قصور في قدرته . ولاقصور في علم من هو بكل خلق عليم ، ولاقدرة فوق قدرة من خلق السماوات والأرض . وإذا أراد شيئا قال له : كن فيكون ، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء ، فكيف تعجز قدرته وعلمه عن إحيائكم بعد مماتكم ، ولم تعجز عن النشأة الأولى ، ولا عن خلق السماوات والأرض؟ . . . »[2] .

ثانيا: البرهان بأحوال السماوات والأرض:

والقرآن الكريم إذ يتحدث عن إعادة الحياة أو البعث ويوليه اهتمامه ، فإنه يبرهن بخلق السماوات والأرض على تحققه ووقوعه . . . بإبداع الله سبحانه ، وإيجاده لهذه الأجرام الضخمة ، والعناصر الجسيمة الكثيرة المنتشرة . فهو

---

(١) سورة يس : ٧٨ ـ ٨٣ .

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٤٠ ـ ١٤١ .

يجعل قدرة الله على إيجاد هذه العوالم الكثيرة العجيبة، دليلاً على قدرته على الإحياء والإعادة، وعلى البعث والنشور. ذلك أن الذي خلق هذه الأجرام الضخمة على غير نظير سابق، ولا مثيل محتذى، وأوجدها من العدم ولم يعجزه إنشاؤها، لقادر على أن يبعث الإنسان الذي بينه وبين هذا الخلق العظيم بون شاسع، وفرق بعيد»[1] .

وقد ورد هذا البرهان في آيات كثيرة، منها:

- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا﴾[2] .

- وقوله عز وجل: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾[3] .

- وقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4] .

قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ

---

(١) انظر: الطبيعة في القرآن الكريم، لكاصد ياسر الزيدي، ص: ٣٤١-٣٤٢.
(٢) سورة الإسراء: ٩٨-٩٩.
(٣) سورة يس: ٨١.
(٤) سورة الأحقاف: ٣٣.

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ : «ولم يتعبْ، ولم يعجز، والمعنى : أن قدرته واجبة لاتنقص ولاتنقطع بالإيجاد أبد الآباد ﴿**بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ**﴾ أي: قادر»[١] .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ...**﴾[٢] : «فيه تقرير للمعاد؛ لأن من قدر على خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى»[٣] .

وبهذا يتجلى لنا أن إعادة الحياة بعد الموت أهون وأيسر، بحسب المقاييس البشرية من خلق السماوات والأرض، أما بالنسبة لله عز وجل فإنه على كل شيء قدير.

ثالثا: البرهان بإحياء الأرض بعد موتها:

ومن البراهين التي ساقها القرآن الكريم على إمكان إعادة الحياة والبعث برهان بإحياء الأرض بعد موتها، وحاصل هذا البرهان أن من قدر على إحياء الأرض اليابسة بمختلف الزروع وأنواع الثمار على اختلافها شكلاً ولونًا وطعمًا بإنزال الماء عليها، لقادر على إعادة الحياة بعد الموت[٤] .

وقد ورد هذا البرهان في آيات كثير ة من القرآن الكريم، فمن هذه الآيات الإلهية:

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ٤٣٢ .

(٢) سورة ق: ٣٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠٢ .

(٤) إطلالة على عقيدة البعث في الإسلام، ص: ١١٦ .

ـ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾[1] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3] .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ : «هذا دليل على قدرته تعالى على إحياء الموتى ، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة ، وهي المقحلة التي لاينبت فيها شيء»[4] .

وقال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ : «يعني إن ذلك القادر الذي يحيي الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد

---

(١) سورة الحج : ٥ ـ ٧ .
(٢) سورة الروم : ٥٠ .
(٣) سورة فصلت : ٣٩ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨١ .

موتهم»[١] .

وقال سيد قطب في ظلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمُوتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : «ويتكرر في القرآن عرض مثل هذا المشهد واتخاذه نموذجًا للإحياء في الآخرة، ودليلاً كذلك على القدرة. ومشهد الحياة في الأرض قريب من كل قلب؛ لأنه يلمس القلوب قبل أن يلمس العقول، والحياة حين تنبض[٢] من بين الموات، توحي بالقدرة المنشئة إيحاءً خفيا ينبض في أعماق الشعور. و القرآن يخاطب الفطرة بلغتها من أقرب طريق»[٣] .

وقد ورد هذا البرهان في الحديث النبوي الذي رواه الإمام أحمد، فقال: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدي، عن عمه أبي رزين العقيلي واسمه لقيط بن عامر، أنه قال: يارسول الله، أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة، وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**أليس كلكم ينظر إلى القمر مخليًا به؟** قلنا: بلى. قال: **فالله أعظم**. قال: قلت: يارسول الله، كيف يحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: **أما مررت بوادي أهلك ممحلاً؟** قال: بلى. قال: **ثم مررت به يهتز خضراً**. قال: بلى. قال: **فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه**»[٤] .

رابعا: البرهان بأحوال النبات والشجر :

والقرآن الكريم يتخذ من صور الطبيعة الحية وسيلة لإثبات البعث

(١) تفسير الكشاف ٣٤/ ٢٢٦ .
(٢) تنبض: تتحرك (لسان العرب ٧/ ٢٣٥).
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٢٦.
(٤) مسند الإمام أحمد ٤/ ١١، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص: ٥٠٧ .

والنشور. ولمّا كانت أحوال النبات والشجر حية ماثلة للعيان، يشهدها الناس مرارًا وتكرارًا، فإن القرآن اهتم بها كثيرًا.

فالقرآن الكريم في هذا البرهان - كما هو في غيره - يجعل من هذه المحسوسات بينات شاخصة للعيان، تقرب هذه الحقيقة التي أراد إثباتها والتدليل عليها؛ وهي أن الناس سيبعثون، وأنهم سيحاسبون على ما يقترفون[١].

وقد ورد هذا البرهان في القرآن الكريم، حيث يقول تعالى:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[٢].

قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا ﴾: «هذا رجوع منه سبحانه إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم، فنبه سبحانه على وحدانيته، ودل على قدرته على إحياء الموات بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندي الرطب»[٣].

وقال الطبرسي: «أي: جعل لكم من الشجر الرطب المطفئ للنار، نارًا محرقة؛ يعني بذلك المرخ والعفار، وهما شجرتان يتخذ الأعراب زنودهما[٤]

---

(١) الطبيعة في القرآن الكريم، للدكتور كاصد ياسر الزيدي، ص: ٣٥.
(٢) سورة يس: ٧٨ - ٨٠.
(٣) تفسير فتح القدير ٤/ ٣٨٣.
(٤) الزند: العود الأعلى الذي يقتدح به النار (لسان العرب ٣/ ١٩٥).

منهما، فبين سبحانه أن من قدر على أن يجعل في الشجر الذي هو في غاية الرطوبة ناراً حامية، مع مضادة النار للرطوبة، حتى إذا احتاج الإنسان، حك بعضه ببعض، فتخرج منه النار وينقدح، قدر أيضاً على الإعادة. وتقول العرب في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار»[١] .

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[٢] .

ويقول عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[٣] .

قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾: «تقدحون، ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ يعني: الشجرة التي منها الزناد، ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا﴾: جعلنا زناد النار، ﴿تَذْكِرَةً﴾: تبصرة في أمر البعث...»[٤] .

وهكذا يتجلى لنا البرهان على إعادة الحياة بما أخبر الله سبحانه، حيث أخرج النار على حرها ويبسها من ضدها، وهو الشجر الأخضر الممتلئ

---

(١) تفسير مجمع البيان، لأبي علي الفضل الطبرسي، ٢٣/ ٤٢.

(٢) سورة الواقعة: ٦٢ ـ ٦٥.

(٣) سورة الواقعة: ٧١ ـ ٧٤.

(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ٤٩٣.

بالرطوبة، فيكون تعالى بذلك قد أخرج الضد من الضد[١] وخلقه منه، ولاشك أن من يخرج الشيء من ضده، وتنقاد له مواد الكائنات وعناصرها يكون قادراً على إعادة الإنسان إلى الحياة بعد الموت.

خامسا : البرهان بأحوال الحيوان والطير :

ومن البراهين التي تتعلق بالبرهان الحسي على إعادة الحياة، البرهان بأحوال الحيوان والطير. وهذه المخلوقات حينما ينظر الإنسان إليها، يفكر في أقرب الأشياء الحية المتحركة إليه. وهذا البرهان يتجلى في قوله تعالى :

﴿ **أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ** . . . . ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ** ﴾[٢] .

قال الشوكاني في تفسير الآية : «والمعنى : أينكرون أمر البعث ويستبعدون وقوعه، أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي غالب مواشيهم وأكبر ما يشاهدونه من المخلوقات ﴿ **كَيْفَ خُلِقَتْ** ﴾ على ما هي عليه من الخلق البديع من عظم جثتها ومزيد قوتها وبديع أوصافها»[٣] .

وقال النسفي في تفسير هذه الآيات[٤] : «وتخصيص هذه الأربعة باعتبار أن هذا خطاب للعرب، وحثّ لهم على الاستدلال، والمرء إنما يستدل بما تكثر

---

(١) قال الرازي : «ووجه الاستدلال : أن النار صاعدة بالطبع، والشجرة هابطة، وأيضا النار لطيفة، والشجرة كثيفة، والنار نورانية والشجرة ظلمانية، والنار حارة يابسة، والشجرة باردة رطبة . . . » (التفسير الكبير ١/ ٢٣١).

(٢) سورة الغاشية : ١٧-٢٦ .

(٣) تفسير فتح القدير ٥/ ٤٣٠ .

(٤) انظر : سورة الغاشية : ١٧-٢٠ .

مشاهدته له، والعرب تكون في البوادي، ونظرهم فيها إلى السماء والأرض والجبال والإبل، فهي أعز أموالهم، وهم لها أكثر استعمالاً منهم لسائر الحيوانات، ولأنها تجمع جميع المآرب[1] المطلوبة من الحيوان؛ وهي النسل والدر والحمل والركوب والأكل، بخلاف غيرها، و لأن خلقها أعجب من غيرها، فإنه سخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها لا تعارض ضعيفًا ولا تمانع صغيراً، وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار، وجعلها بحيث تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت وتجرها إلى البلاد الشاحطة[2]، وصبرها على احتمال العطش حتى إن ظمأها ليرتفع إلى العشر فصاعداً، وجعلها ترعى كل نابت في البراري مما لايرعاه سائر البهائم»[3].

«. . . لهذا كله يوجه القرآن أنظار المخاطبين إلى تدبر خلق الإبل؛ وهي بين أيديهم، لاتحتاج منهم إلى نقلة ولا علم جديد. . ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾. . أفلا ينظرون إلى خلقتها وتكوينها؟ ثم يتدبرون: كيف خلقت على هذا النحو المناسب لوظيفتها، المحقق غاية خلقها، المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعًا! إنهم لم يخلقوها. وهي لم تخلق نفسها، فلا يبقى إلا أن تكون من إبداع المبدع المتفرد بصنعته، التي تدل عليه، وتقطع بوجوده؛ كما تشي بتدبيره وتقديره»[4].

---

(١) المآرب: الحاجات (انظر: لسان العرب ١/ ٢٠٩).

(٢) الشاحطة: البعيدة (انظر: القاموس المحيط ٢/ ٣٨١).

(٣) تفسير النسفي ٥/ ٣٥٧-٣٥٨، وانظر: تفسير الكشاف ٤/ ٢٤٧.

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٩٨.

وقد برهن القرآن الكريم بقدرة الله عز وجل المتجلية في أحوال الطير المختلفة، على قدرته في إعادة الحياة أو البعث والنشور. فالقرآن يبدأ بذكر الساعة ومجيئها بغتة، فيقول سبحانه:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١). يبرهن بعد ذلك بقدرة الله المشاهدة في أحوال الطير وسط مجموعة من البراهين بالمخلوقات الأخرى، فيقول:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾: «فهو يقدر أن يقيم الساعة، ويبعث الخلق، لأنه بعض المقدورات، ثم دل على قدرته بما بعده»(٣). يعني بأحوال الطير، وبعض المخلوقات الأخرى.

وهكذا نجد القرآن الكريم إذ يبرهن على إعادة الحياة أو البعث بأحوال الحيوان والطير، ينقل المشاهد المعروضة لنظر الإنسان حيثما كان. وأيًا كان حظ الإنسان من العلم والحضارة والتقدم فهذه المشاهد داخلة في علمه وإدراكه وإحساسه. موحية له بما وراءها حين يوجه نظره وقلبه إلى دلالتها.

---

(١) سورة النحل: ٧٧.

(٢) سورة النحل: ٧٩.

(٣) تفسير الكشاف ٢/ ٤٢٢.

سادسا: البرهان بأحوال الليل والنهار:

إن الذي يتدبر القرآن الكريم يجده في بعض المواضع يتحدث عن ظاهرة اختلاف الليل والنهار، ويبين له أن الله سبحانه هو الذي يملكه ويتصرف فيه، ويضع له الناموس الذي ينظمه. وكان قد تحدث قبل ذلك عن الإماتة والإحياء، قائلاً: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[١] . فالإماتة والإحياء اختلاف بين العدم والوجود، والذي بث الحياة في الجسم الميت، هو الذي يعرف سر الحياة، ويقدر على سلبها أو إعطائها، واختلاف الليل والنهار غير بعيد عن اختلاف الموت والحياة، فهو سنة طبيعية كسنة الموت والحياة، وأمره يرجع إلى الله وحده، كرجوع الموت والحياة. وانبثاق النهار بعد ظلمة الليل غير بعيد أيضًا عن ظهور الإنسان من ظلمة القبر، فالأول همود وسكون، والثاني ظهور ونشور[٢] .

وهذا البرهان يتجلى في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[٣] .

قال صاحب الأساس في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ :

---

(١) سورة المؤمنون: ٨٠.

(٢) انظر: الطبيعة في القرآن الكريم، ص: ٣٦٦.

(٣) سورة المؤمنون: ٧٩-٨٣.

«المراد مجيء أحدهما عقيب الآخر، أو اختلافهما في الظلمة والنور، أو في الزيادة والنقصان، واختلافهما مختص به وحده، ولايقدر على تصريفهما غيره عز وجل، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها قدرتنا على البعث، أو تستدلون بواسطتها بالصنع على الصانع فتؤمنون»[١] .

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يقول سيد قطب: «فهو الذي يملكه ويصرفه ـ كاختلاف الموت والحياة ـ وهو سنة كونية كسنة الموت والحياة. هذه في النفوس والأجساد، وهذه في الكون والأفلاك. كما يسلب الحياة من الحي فيعتم[٢] جسده ويهمد، . كذلك هو يسلب الضوء من الأرض فتعتم وتسكن. ثم تكون حياة ويكون ضياء، يختلف هذا على ذلك، بلا فتور ولا انقطاع إلا أن يشاء الله. . . »[٣] .

وفي مقام آخر نرى القرآن الكريم يبرهن على إعادة الحياة أوالبعث، بما في الليل من طمأنينة وهدوء وراحة من عناء النهار والكد فيه، وبما في النهار من نور وضوء يجد فيه الناس طريقهم إلى أرزاقهم ومعاشاتهم، وسبيلهم إلى خيرهم وصلاحهم، فهو إذا يلفت إلى ظلمة الليل الساجي، وضوء النهار المنتشر، فإنما يلفت إلى ما يشبه الموت والحياة في ناموس الطبيعة وقانونها، ويجعل ذلك دليلاً على قدرة الله على البعث والنشور. فثواء الأموات فترة الموت في قبورهم، ليس بعيداً عن سكون الناس في مضاجعهم عند ليلهم، وانتشار الناس يوم بعثهم من قبورهم، ليس بعيداً عن انتشار نهارهم بعد

(١) الأساس في التفسير ٧/ ٣٦٦١.
(٢) وأصل العَتْم في كلام العرب: المكث والاحتباس(لسان العرب ١٢/ ٣٨٢.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٧٧.

نومهم. فالصورة الحسية المتجلية في جعل الليل سكونًا والنهار نشورًا، تنبئ عن تلك الصورة الغيبية في إماتة الناس ثم نشرهم وحشرهم بعد ذلك[١] .

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[٢] .

قال المراغي في تفسير هذه الآية: « أي: ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتنا تصريفنا الليل والنهار، ومخالفتنا بينهما بجعل ذاك سكنًا لهم يسكنون فيه، ويهدءون راحة لأبدانهم من تعب التصرف والتقلب نهارًا، جعل هذا مضيئًا يبصرون فيه الأشياء ويعاينونها، فيتقلبون فيه لمعايشهم، فيتفكرون في ذلك ويتدبرون ويعلمون أن مصرف ذلك كذلك، هو الإله الذي لايعجزه شيء، ولايتعذر عيه إماتة الأحياء، وإحياء الأموات بعد الممات.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: إن فيما ذكر لدلالة على قدرته على البعث بعد الموت، وعلى توحيده لمن آمن به وصدّق برسله، فإن من تأمل في تعاقبهما واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكَم تحار في فهمها العقول، ولايحيط بعلمها إلا الله، وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل الحالكة المشابهة للموت، بضياء النهار المضاهي للحياة، وعاين في نفسه تبدل النوم الذي هو أخو الموت بالانتباه الذي هو مثل الحياة، قضى بأن الساعة آتية لاريب

(١) انظر: الطبيعة في القرآن الكريم، ص: ٣٦٧.

(٢) سورة النمل: ٨٦-٨٨.

فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وجزم بأن الله جعل هذا دليلاً على تحققه، وأن الآيات الناطقة به حق، وأنها من عند الله»[1] .

والقرآن الكريم إذ يدعم إعادة الحياة أو البعث بمختلف البراهين والوسائل والطرق، فليس ذلك فقط على قرار ألزم الله به نفسه، وإنما على أحد مستلزمات العدل الإلهي والحكمة السامية، حتى لاتكون حياة الإنسان بلا غاية ولاهدف. إن حاجة الإنسانية ملحة إلى الآخرة؛ لضمان الخلود، وإقامة العدل، وتنظيم الحياة. قال تعالى: ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ** ﴾[2] .

وقال سبحانه: ﴿ **وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾[3] .

* * *

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ٢٣ .

(٢) سورة النحل : ٣٨-٣٩ .

(٢) سورة الجاثية : ٢٢ .

المبحث الثالث
حياة الأرض

إن الذي يتدبر القرآن الكريم يجد أنه يتحدث كثيراً عن حياة الأرض التي هي من أعظم الأدلة على وحدانية الله سبحانه وتعالى، وعلى قدرته الإلهية. وقد ورد ذكر إحياء الأرض بعد موتها صريحًا في القرآن الكريم عشر مرات[1]، كما ورد ذكر ذلك في مواضع أخرى بصيغ مختلفة. فمن هذه الآيات الإلهية قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: وبهذا الماء تحدث حياة الأرض بالنبات، وبه أمكن معيشة الحيوان على سطحها، وهذا هو الإحياء الأول الذي أشير إليه بقوله في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص: ٢٧-٢٨. وقد وردت كلمة «الأرض» في القرآن في ٤٥٠ موضعًا.

(٢) سورة البقرة: ١٦٤.

﴿شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾[١] . أي : أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلاً بعض أجزائها ببعض ، ففتقناهما فانفصل جرم الأرض من جرم السماء ، وصارت الأرض قطعة مستقلة ملتهبة ، وكانت مادة الماء (الأوكسجين والإيدروجين) تبخر من الأرض هذه حالها حتى صارت كلها ماء ، وتكونت بعد ذلك الأرض اليابسة وخرج النبات وعاش الحيوان .

وأما الإحياء المستمر المشاهد في جميع بقاع الأرض فهو المشار إليه بقوله : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[٢] . فكل أرض لاينزل عليها المطر لاتجري فيها المياة من الأرضين الممطورة تكون خالية من النبات والحيوان .

فنزول الماء على هذا النحو المشاهد ، وكونه سببًا في الحياة والنبات من أعظم الأدلة على وحدانية المبدع ، ومن جهة ما للخلق فيه من المنافع يدل على الرحمة الإلهية الشاملة[٣] .

في خلق الأرض نعمة ربانية وحكمة بالغة:

إذا كانت حياة الأرض من أعظم الأدلة على وحدانية الله سبحانه وقدرته ، فإن في خلقها نعمة ربانية ، وحكمة بالغة ، قال تعالى : ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾[٤] . وقال سبحانه : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا

(١) سورة الأنبياء : ٣٠ .

(٢) سورة الحج : ٥ .

(٣) تفسير المراغي ١ / ٣٦ .

(٤) سورة الذاريات : ٤٨ .

بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾[١] .

قال الإمام الغزالي: «فانظر كيف جعل الله الأرض مهاداً؛ ليستقر عليها الحيوان، فإنه لابد له من مستقر، ولا غنى له عن قوت، فجميع الأرض محل للنبات لقوته، ومسكن يكنه من الحر والبرد، ومدفنٌ يدفُن فيه ما تؤذي رائحته، والجيفَ والأقذار من أجسام بني آدم وغيرها، كما قال سبحانه: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا**[٢] (٢٥) **أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا**﴾[٣] ؛ وقيل في تفسيرهذه الآية هذا القول وغيره.

ثم ذلل طرقها، لينتقل فيها الخلق لطلب مآربهم، فهي موضوعة لبقاء النسل من جميع أصناف الحيوان، والحرث، والنبات. وجعل فيها الاستقرار والثبات، كما نبه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**[٤] (٣٠) **أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا** (٣١) **وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا** (٣٢) **مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ**﴾[٥] . فأمكن الخلائق بهذا السفر فيها في مآربهم، والجلوس لراحتهم، والنوم لهدوئهم، والانتقال لأعمالهم، فإنها لو كانت

---

(١) سورة الأنبياء: ١٦.

(٢) الكفت: القبض والجمع. ومعنى الآية: تجمع الناس أحياءهم وأمواتهم، وقيل: معناه: تضم الأحياء التي هي الإنسان والحيوانات والنبات، والأموات التي هي الجمادات من الأرض والماء وغير ذلك (المفردات في غريب القرآن ص: ٤٣٣).

(٣) سورة المرسلات: ٢٥-٢٦.

(٤) دحاها: بسطها، يقال: مدحى النعامة يعني: موضع بيضها، وفيه إشارة لهيئة الأرض (معجم الصحاح للجوهري ٦ / ٢٣٣٥). ودحا المطر الحصى عن وجه الأرض دفعه، ودحاها دفعها للحركة والله أعلم، والدِّحية بالكسر الهيئة (المصباح المنير للمقري ١/ ٨٧).

(٥) سورة النازعات: ٣٠-٣٣.

رجراحة[1] ، لم يستطيعوا أن يتقنوا شيئًا من النبات وجميع الصناعات، وكانوا لايتهنّون بالعيش، والأرض تريح بهم من تحتهم؛ واعتبر ذلك بما يصيب الناس في الزلازل، ترهيبًا للخلق، وتخويفًا لهم، لعلهم يتقون الله، وينزعون عن الظلم والعصيان، فهذا أيضًا من الحكمة البالغة.

ثم إن الأرض طبعها الله باردة يابسة بقدر مخصوص: أرأيت لو أفرط اليبسُ عليها حتى تكون بجملتها حجرًا صلدًا، لما كانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيوانات، ولا كان فيها حرث ولا بناء، فجعل لينها لتتهيأ لهذه الأعمال»[2] .

إن الأرض نعمة من نعم الله عز وجل على الإنسان ومنفعة، وتجسيد لإحسانه إليه. ولهذا عبر عنها القرآن الكريم بكل ما يدل على ذلك ويقربها للإنسان، فيجعلها محببة إليه. ولهذه النعمة مظاهر:

١ ـ إنها تتصل بوجود الإنسان المادي والمعنوي؛ لأن منفعتها إما مادية كطعام وشراب للإنسان، و إما معنوية أو نفسية كزينة وبهجة له.

قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا** ﴾[3] .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ **لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا** ﴾ : «أي: أرضًا

(١) الرجراحة: التذبذب (انظر: القاموس المحيط ١ / ٢٢٩، لسان العرب ٢ / ٤٤٦).

(٢) الحكمة في مخلوقات الله، للإمام الغزالي، ص ٣١ـ٣٣.

(٣) سورة الفرقان: ٤٨ـ٤٩.

قد طال انتظارها للغيث، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الحياة عاشت واكتسبت رباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ...** ﴾[1] الآية، ﴿ **وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا** ﴾ أي: وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا..** ﴾[2]»[3] .

وقال محمد بن أبي بكر الرازي: «فإن قيل: كيف قدّم تعالى إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي؟ قلنا: لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم»[4] .

وقال تعالى في بيان نعمة الأرض المعنوية، وهي كزينة وبهجة للإنسان: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾[5] . وقال سبحانه: ﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ** ﴾[6] .

وقال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿ **ذَاتَ بَهْجَةٍ** ﴾: «أي: ذات

---

(١) سورة الحج: ٥، وسورة فصلت: ٣٩.
(٢) سورة الشورى: ٢٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٦.
(٤) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، ص: ٣٦٤، وانظر: تفسير الكشاف ٣/ ٩٥-٩٦.
(٥) سورة الكهف: ٧.
(٦) سورة النمل: ٦٠.

حسن ورونق. والبهجة: هي الحسن الذي يبتهج به من رآه، ولم يقل: ذوات بهجة على الجمع؛ لأن المعنى جماعة حدائق»[١].

وقال سيد قطب في ظلال قوله تعالى: ﴿**فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ**﴾: «حدائق بهيجة ناضرة حية جميلة مفرحة.. ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية. تأمّل هذه البهجة والجمال الناضر الحي الذي يبعثها كفيل بإحياء القلوب. وتدبر آثار الإبداع في الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب..»[٢].

٢ - إنها مذللة للإنسان، أو مسخرة له، وتسخيرها هو الصورة العملية لانتفاع الإنسان بها، في مطالبه المادية والمعنوية. ويتجلى هذا التسخير في آيات كثيرة، فمنها:

- قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[٣].

- وقوله عز وجل: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾[٤].

- وقوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ**

---

(١) تفسير فتح القدير ٤ / ١٤٦.

(٢) في ظلال القرآن ٥ / ٢٦٥٦.

(٣) سورة الحج: ٦٥.

(٤) سورة لقمان: ٢٠.

في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ﴾(١) .

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى : **﴿أَلَمْ تروْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾** : «ذكر نعمة أخرى ، فأخبر أنه سخر لعباده ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار»(٢) .

وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى : **﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾** :

«والتناسق بين حاجات الإنسان على الأرض وتركيب هذا الكون يقطع بأن هذا التناسق لايمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة ، وأنه لا مفر من التسليم بالإرادة الواحدة المدبرة ، التي تنسق بين تركيب هذا الكون الهائل وحاجات البشر على هذا الكوكب الصغير الضئيل . . الأرض . . !

إن الأرض كلها لاتبلغ أن تكون ذرة صغيرة في بناء الكون . والإنسان في هذه الأرض خليقة صغيرة هزيلة ضعيفة بالقياس إلى حجم هذه الأرض ، وبالقياس إلى ما فيها من قوى ومن خلائق حية وغير حية ، لايُعد الإنسان من ناحية حجمه ووزنه وقدرته المادية شيئا إلى جوارها . ولكن فضل الله على هذا الإنسان ونفخته فيه من روحه ، وتكريمه له على كثير من خلقه . . هذا الفضل وحده قد اقتضى أن يكون لهذا المخلوق وزن في نظام الكون وحساب . وأن يهيئ الله له القدرة على استخدام الكثير من طاقات هذا الكون وقواه ، ومن ذخائره وخيراته . وهذا هو التسخير المشار إليه في الآية ، في معرض نعم الله

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

(٢) تفسير القرطبي ١٢ / ٩٢ .

الظاهرة والباطنة . . »[١] .

٣ـ إن هذه النعمة ترتبط بسلوك الإنسان في الحياة، ومدى إيمانه بالله وطاعته له، أو كفره وعصيانه له.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[٢] .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾: «أي: آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوه واتقوا، بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي: قطر السماء ونبات الأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي: كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم»[٣] .

«إن الإيمان بالله دليل على حيوية في الفطرة؛ وسلامة في أجهزة الاستقبال الفطرية؛ وصدق في الإدراك الإنساني، وحيوية في البنية البشرية، ورحابة في مجال الإحساس بحقائق الوجود. . وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية. . .»

«. . . وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح[٤] ، عاملة في الأرض، متطلعة إلى السماء، متحررة من الهوى والطغيان البشري، عابدة

---

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٧٩٢.

(٢) سورة الأعراف: ٩٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٠٤.

(٤) الكبح: الجذب (انظر: لسان العرب ٢ / ٥٦٨).

خاشعة لله . . تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله بعد رضاه . فلا جرم تحفها البركة ، ويعمها الخير ، ويظلها الفلاح . . والمسألة ـ من هذا الجانب ـ مسألة واقع منظور ـ إلى جانب لطف الله المستور ـ واقع له علله وأسبابه الظاهرة ، إلى جانب قدر الله الغيبي الموعود . . »[1] .

« . . . ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا ﴿ **فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ بالعقوبات والبلايا ، ونزع البركات ، وكثرة الآفات ، وهي بعض جزاء أعمالهم .

وإلا ، فلو آخذهم بجميع ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[2] »[3] .

٤ ـ إن هذه النعم الدنيوية ليست هي النهائية ، بل هي مقدمة لنعم أعظم منها .

قال تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾[4] .

---

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٣٣٨ ـ ١٣٣٩ .
(٢) سورة الروم : ٤١ .
(٣) تفسير السعدي ٣ / ٦٧ .
(٤) سورة آل عمرن : ١٤ ـ ١٥ .

وقال عز وجل: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[٢].

هذه بعض المظاهر من نعمة الله سبحانه التي أنعم على الإنسان، والتي تتجلى من خلال خلق الأرض. ذكرناها من باب الإتيان بالمثال لا الحصر. وإلا فالمظاهر من نعمة الله وحكمته في خلق الأرض أكثر من أن تحصى.

إعداد الأرض للحياة:

قال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾[٣].

قال ابن كثير: «. . . عن ابن عباس: ﴿دَحَاهَا﴾ ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام، فذلك قوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾. .

وقوله تعالى: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ أي: دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبت

---

(١) سورة الأعراف: ٢٤.

(٢) سورة القصص: ٦٠.

(٣) سورة النازعات: ٢٧-٣٣.

جبالها لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعًا لخلقه، ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذا الدار إلى أن ينتهي الأمد، وينقضي الأجل»[١] .

وقال صاحب الظلال عند هذه الآية: «ودَحْوُ الأرض تمهيدها وبسط قشرتها، بحيث تصبح صالحة للسير عليها، وتكوين تربة تصلح للإنبات، وإرساء الجبال وهو نتيجة لاستقرار سطح الأرض ووصول درجة حرارتها إلى هذا الاعتدال الذي يسمح بالحياة. والله أخرج من الأرض ماءها سواء ما يتفجر من الينابيع، أو ما ينزل من السماء، فهو أصلاً من مائها الذي تبخر ثم نزل في صورة مطر. وأخرج من الأرض مرعاها وهو النبات الذي يأكله الناس والأنعام، وتعيش عليه الأحياء مباشرة وبالواسطة.

وكل أولئك قد كان بعد بناء السماء، وبعد إغطاش الليل وإخراج الضحى. والنظريات الفلكية الحديثة تقرب من مدلول هذا النص القرآني حين تفترض أنه قد مضى على الأرض مئات الملايين من السنين، وهي تدور دوراتها ويتعاقب الليل والنهار عليها قبل دحوها وقبل قابليتها للزرع، وقبل استقرار قشرتها على ما هي عليه من مرتفعات ومستويات. . . »[٢] .

« . . . وقد أرسى عليها الجبال الرواسي الشامخات؛ لئلا تميد وتضطرب، ولتكون مصدراً للمنافع، وقد رأينا أن سلاسل الألب والهيملايا العظيمة، قد تكونت مع جموع الجبال الالتوائية الأخرى الموزعة في العالم، لتحقيق التوازن، ولتكون مصدر زرع وخير ومنافع للإنسان، وقد تكونت من

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٤١٠، وانظر: تفسير الدر المنثور ٦ / ٥١٥ .
(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٨١٦-٣٨١٧.

تسوية الأرض وتمهيد تضاريسها[١] للحياة، بإطلاق يد عوامل التعرية[٢] فيها، لنحتها[٣] ونقل مفتتاتها إلى البحار القديمة، لتتكون منها سلاسل جبلية عظمى فيما بعد. . . »[٤] .

«إن ملاءمة الأرض للحياة من أعجب الآيات في هذا الكون الفسيح: هذه الملائمة تخذ صوراً لا نهاية لها وكلها من تدبير الخالق سبحانه: فالأرض كرة معلقة في فضاء لا ندرك له حدوداً، وهي تدور حول نفسها مرة كل يوم، فيتتابع الليل والنهار، وتسبح حول الشمس مرة كل عام بميل معين فتتوالى الفصول التي تزيد من اختلاف الأنواع النباتية. . . وحجم الأرض له علاقة وثيقة بالحياة: فلو كانت في حجم القمر لأدى ذلك إلى عجزها عن الاحتفاظ بالغلاف الجوي المحيط بها، وبالتالي الغلاف المائي.

ولو كان حجمها أربعة أمثال ما هي عليه لزاد الضغط الجوي من كيلو جرام واحد إلى كيلو جرامين على السنتيمتر المربع. ولاتسعت المناطق الباردة، وقلت الأراضي الصالحة للسكنى، ولتبعثرت مظاهر الحياة في أماكن نائية يتعذر الاتصال بينها. . »[٥] . قال تعالى: ﴿ **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ** ﴾[٦] .

---

(١) الضِّرس: ما خشن من الآكام والأخاشيب (لسان العرب ٦ / ١١٩).
(٢) والعَراء: كل شيء أعْري من سترته (لسان العرب ١٥ / ٤٩).
(٣) النحت: القطع (انظر: لسان العرب ٢ / ٩٧).
(٤) الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، ص: ٢٢٤، نقلاً عن كتاب: معالم سطح الأرض، ص: ٦٩-٨٤.
(٥) القرآن يتحدى، ص: ٤٠١-٤٠٢.
(٦) سورة الذاريات: ٢٠-٢٣.

قوله تعالى: ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾، قال صاحب الكشاف: «الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة، فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها فازدادوا إيمانًا مع إيمانهم وإيقانًا مع إيقانهم»(١) .

«إنه لا يدرك هذه الآيات، ولا يستمتع بالرحلة هذا المتاع، إلا القلب العامر باليقين. ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.. فلمسة اليقين هي التي تحيي القلب فيرى ويدرك؛ وتحيي مشاهد الأرض فتنطق للقلب بأسرارها المكنونة، وتحدثه عما وراءها من تدبير وإبداع. وبدون هذه اللمسة تظل تلك المشاهد ميتة جامدة جوفاء؛ لاتنطق للقلب بشيء، ولا تتجاوب معه بشيء. وكثيرون يمرون بالمعرض الإلهي المفتوح مغمضي العيون والقلوب. ولا يحسون فيه حياة، ولا يفقهون له لغة؛ لأن لمسة اليقين لم تحي قلوبهم، ولم تبث الحياة فيما حولهم! وقد يكون منهم علماء. ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٢) . أما حقيقتها فتظل محجوبة عن قلوبهم، فالقلوب لا تفتح لحقيقة الوجود إلا بمفتاح الإيمان، ولا تراها إلا بنور اليقين...»(٣) .

الآيات الربانية التي تدبر الأمر في الأرض لإعدادها للحياة:

إذا تدبرنا القرآن الكريم نجد أن الله سبحانه يذكر في الآيات الكثيرة أنه

(١) تفسير الكشاف ٤ / ١٦ .

(٢) سورة الروم: ٧.

(٣) انظر: في ظلال القرآن ٦ / ٣٣٧٩.

تناول الأرض بعد تمام خلقها بالتدبير والإعداد الوافي، ليجعلها صالحة للحياة وإقامة الأحياء عليها، وقد ذكر سبحانه هذه التدبيرات الربانية في قوله:

﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾(١) .

هذا وسنذكر الآيات الربانية التي تدبر الأمر في الأرض لإعدادها للحياة في أربعة أمور:

١ - اختلاف الليل والنهار على الأرض.

٢ - تصريف الرياح وتسخير السحاب في جوها وإنزال الماء منه.

٣ - مد الأرض وتمهيد سطحها، وإلقاء رواسي فيها.

٤ - تكوين ماء العيون وتسخير الأنهار والبحار والفلك التي تجري فيها.

الأول: اختلاف الليل والنهار على الأرض:

لقد بين تعالى في آيات متعددة أهمية وملاءمة اختلاف الليل والنهار،

---

(١) سورة الرعد: ٢ - ٤.

وتغير أحوالهما على الأرض لحياة الناس فيها، وسنذكر فيما يلي بعض الآيات القرآنية عن ذلك:

ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(١).

ـ وقال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(٢)

ـ وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾(٣).

قال ابن كثير في تفسير الآية الأولى عند قوله تعالى: ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: «أي: تعاقبهما، وتقارضهما الطول والقصر. فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً، وكل ذلك تقدير العزيز العليم..»(٤).

وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾(٥): «ويعرض كذلك مشهد الليل

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠.

(٢) سورة يونس: ٦٧.

(٣) سورة الإسراء: ١٢.

(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٣٧٦.

(٥) سورة الفرقان: ٦٢.

والنهار وتعاقبهما. وهما آيتان مكررتان ينساهما الناس، وفيهما الكفاية: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾. ولولا أن جعلهما كذلك يتعاوران الناس، ويخلف أحدهما أخاه، ما أمكنت الحياة على ظهر هذا الكوكب لإنسان ولا لحيوان ولا لنبات، بل لو أن طولهما تغير لتعذرت كذلك الحياة»[1].

جاء في كتاب «العلم يدعو للإيمان»:

«وتدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل أربع وعشرين ساعة، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة؛ والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة، ولم لا؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرات، وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار، وفي الليل قد يتجمد كل نبت في الأرض»[2].

وقال الشوكاني في تفسير الآية الثانية عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾: «أي: جعل لعباده الزمان منقسماً إلى قسمين: أحدهما مظلم وهو الليل لأجل يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ويريحون أنفسهم عن الكد والكسب؛ والآخر مبصر لأجل يسعون فيه بما يعود على نفعهم وتوفير معايشهم، ويحصلون ما يحتاجون إليه في وقت مضيء منير، لايخفى عليهم فيه كبير ولا حقير..»[3].

وقال الرازي في تفسير الآية الثالثة عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

---

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٥٧٦.

(٢) العلم يدعو للإيمان، ص: ٥٥.

(٣) تفسير فتح القدير ٢ / ٤٦٠.

آيَتَيْنِ﴾ : «أي : دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا ؛ أما في الدين فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له، مع كونهما متعاقبين على الدوام، وذلك من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين لذاتهما، بل لابد لهما من فاعل يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة. أما في الدنيا فلأن المصالح فيها لاتتم إلا بالليل والنهار، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش. . »[1] .

وقال صاحب الأساس عند قوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ : «أي: لتعلموا باختلاف الليل والنهار حساب الآجال ومواسم الأعمال، وعدد الأيام والجمعَ والشهور والأعوام، وتعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون، والعبادات والمعاملات والإجارات والزمان ومحله من المكان، ولو لم يكن ليل ونهار لضاع حساب أكثر الأشياء، وجهل أكثر الخلق، ولما استراح حراص المكتسبين والتجار»[2] .

وهكذا تتجلى لنا حكمة الله سبحانه في أن التعاقب بين الليل والنهار وتزاحمهما على فترة قصيرة يؤدي إلى اعتدال في درجة الحرارة والمناخ، ويهيئ البيئة الصالحة للحياة والأحياء، وأن تعاقب الليل والنهار، أو الظلام والضياء ضرورة أساسية لنمو الحياة على الأرض، وبدهي أنه من المحال أن تستمر الحياة إذا كان النهار سرمداً، أو إذا كان الليل سرمداً. فالله عز وجل قد بين للإنسان منافع الليل والنهار بياناً واضحاً لتقوم عليه الحجة بعد تمام النعمة، وفي تعاقب الليل والنهار مصلحة ومنفعة للناس ظاهرة، فبالليل نومهم وراحتهم، وبالنهار سعيهم على معاشهم.

---

(١) التفسير الكبير ٢٠ / ١٦٤ .

(٢) الأساس في التفسير ٦ / ٣٠٤٧، وانظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥-٢٦ .

الثاني: تصريف الرياح وتسخير السحاب في جوها وإنزال الماء منه:

قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾(١).

وقال عز وجل: ﴿ **وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ** ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾(٣).

قال الرازي عند قوله تعالى: ﴿ **سَحَابًا ثِقَالاً** ﴾: «أي: بالماء، جمع سحابة، والمعنى: حتى إذا حملت هذه الرياح سحابًا ثقالاً بما فيها من الماء، والمعنى: أن السحاب الكثيف المستطير للمياه العظيمة إنما يبقى معلقًا في الهواء؛ لأنه تعالى دبر بحكمته أن يحرك الرياح تحريكًا شديدًا، فلأجل الحركات الشديدة التي في تلك الرياح تحصل فوائد...»، ومن ضمن هذه الفوائد: «أن بسبب حركات تلك الرياح ينساق السحاب من موضع إلى موضع آخر، وهو الموضع الذي علم الله تعالى احتياجهم إلى نزول الأمطار

---

(١) سورة الأعراف: ٥٧.

(٢) سورة فاطر: ٩.

(٣) سورة الروم: ٤٨.

وانتفاعهم بها»[١] .

وقال ابن كثير : «يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء، فقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا** ﴾، إما من البحر كما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله عز وجل ﴿ **فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾ أي : يمده فيكثره وينميه ويجعل من القليل كثيراً ينشئ سحابة ترى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالاً مملوءة. . . ﴿ **فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ أي : لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم»[٢] .

وبالنظر إلى ما سبق تتضح لنا آثار رحمة الله بنا، حيث يدبر تعالى الأمر في الأرض لإعدادها للحياة، وذلك لأن وجود الماء على الأرض ـ وهو أساس الحياة ـ إنما كان بفعل جاذبيتها[٣] ، لاستحالة الحياة فوقها بدونه؛ لأنها حينئذ لايمكن أن يجذب إليها الماء والهواء حولها.

فالقمر الذي ينقص حجمه عن الأرض (٤٩) مرة لايوجد فيه ماء، ولا هواء، لذلك لا حياة فيه. فهذا التوازن العجيب سماه العلماء «عجلة التوازن العظيمة»، والماء بطبيعته بارد يطفئ الحرارة، ويحفظ رطوبة البدن الأصلية، ويرق الغذاء، وينفذه في العروق، ولا يتم أمر الغذاء إلا به[٤] ، فهو من أعظم الأدلة على عظيم قدرة الله ، وواسع رحمته. قال تعالى : ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ**

---

(١) التفسير الكبير ١٤/ ١٤١.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٤.

(٣) انظر : كتاب «هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم» فإنه يتحدث عن جاذبية الأرض بالتوسع، ص : ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٤) انظر : معالم القرآن في عوالم الكون، ص : ١٩٧.

رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١) .

الثالث: مد الأرض وتمهيد سطحها وإلقاء رواسي فيها:

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢) .

وقال عز وجل: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَىٰ ﴾(٣) .

وقال سبحانه: ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾(٤) .

قال الفقيه الدامغني - أثناء ذكر أوجه م د د -: «المد: البسط.. كقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ ﴾»(٥) .

---

(١) سورة الروم: ٥٠.
(٢) سورة الرعد: ٣.
(٣) سورة طه: ٥٣-٥٤.
(٤) سورة الحجر: ١٩-٢١.
(٥) قاموس القرآن، ص: ٤٣٠.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾ قال الفراء: «بسطها طولاً وعرضًا». وقال الأصم: «إن المدّ هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه، وهذا المد الظاهر للبصر لا ينافي كريتها في نفسها لتباعد أطرافها»[(١)] .

وقال المراغي عند هذه الآية: «أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، لتثبت عليها الأقدام، ويتقلب عليها الحيوان، وينتفع الناس بخيراتها؛ زرعها وضرعها، وبما في باطنها من معادن جامدة وسائلة، ويسيرون في أكنافها يبتغون رزق ربهم منها..»[(٢)] .

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾: «وفي قراءة بعضهم مهادًا[(٣)] ، أي: قرارًا تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها..»

وقال الرازي في قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾: إن قوله: مددناها معناه: بسطناها، وقوله: وألقينا فيها رواسي معناه: أنه تعالى ثبت عليها الجبال لئلا تميل بالناس، وأن الضمير في قوله: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ عائد إما على الأرض، وإما على الجبال. وفي الحالة الأولى يكون الموزون هو النبات، وفي الثانية يكون المقصود هو المعادلة، لأنها في العرف أشياء موزونة»[(٤)] .

---

(١) تفسير فتح القدير ٣ / ٦٤، وانظر: تفسير أبي السعود ٥ / ٣.
(٢) تفسير المراغي ٥ / ٦٦.
(٣) وأجمع القراء على الألف في التساؤل، أي: سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ﴾ آية ٦ (التلخيص في القراءات الثمان، ص: ٣٢٧).
(٤) التفسير الكبير ١٩ / ١٧٠ـ١٧١.

وهكذا أعد الله سبحانه وتعالى الأرض للحياة، وذلك بأن خلقها للعباد، ووسعها وبارك فيها ومدها لهم، وأودع فيها من مصالحهم ما أودع، وأرساها بجبال راسيات شامخات حتى لاتميد وتضطرب. فهذه الأرض الممدودة الممهدة للنظر والخطو؛ وهذه الرواسي الملقاة على الأرض، تصاحبها الإشارة إلى النبات الموزون؛ ومنه إلى المعايش التي جعلها الله للناس في هذه الأرض، وهي الأرزاق المؤهلة للعيش والحياة فيها.

الرابع: تكوين ماء العيون وتسخير الأنهار والفلك التي تجري فيها:

ومن وجوه إعداد الأرض للحياة تكوين ماء العيون وتسخير الأنهار والبحار والفلك التي تجري فيها بنعمة الله.

قال تعالى في بيان ماء العيون: ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ** ﴾(١).

قال القرطبي: «هذه الآية من نعم الله تعالى على خلقه ومما امتن به عليهم؛ ومن أعظم المنن الماء الذي هو حياة الأبدان ونماء الحيوان. والماء المنزل من السماء على قسمين: هذا الماء ذكر الله سبحانه وتعالى وأخبر بأنه استودعه في الأرض، وجعله فيها مختزنًا لسقي الناس يجدونه عند الحاجة إليه؛ وهو

---

(١) سورة المؤمنون: ١٨ ـ ٢٠.

ماء الأنهار والعيون وما يستخرج من الآبار»[١] .

وهناك آيات أخرى تؤكد على أهمية العيون المائية، وتموينها بماء المطر الذي يتجه إليها، فمن هذه الآيات :

ـ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[٢] .

ـ وقوله عز وجل : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾[٣] .

ـ وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾[٤] .

أما آيات تسخير الأنهار والبحار والفلك فكما يلي :

ـ قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾[٥] .

ـ وقوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

---

(١) تفسير المراغي ١٢ / ١١٣ .

(٢) سورة الزمر : ٢١ .

(٣) سورة يس : ٣٣ـ٣٥ .

(٤) سورة الملك : ٣٠ .

(٥) سورة إبراهيم : ٣٢ .

وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١] .

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[٢] .

قال ابن كثير في تفسير الآية: « . . . وسخر الفلك بأن جعلها طافية[٣] على تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر رزقًا للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع»[٤] .

«ونعمة البحر وأحيائه تلبي كذلك ضرورات الإنسان وأشواقه. فمنه اللحم الطري من السمك وغيره للطعام. وإلى جواره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان وغيرهما. . . والتعبير كذلك عن الفلك يشي بتلبية حاسة الجمال لا بمجرد الركوب والانتقال: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾، فهي لفتة إلى متاع الرؤية وروعتها: رؤية الفلك «مواخر» تشق الماء وتفرق العباب[٥] . . . ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام التوجيه القرآني العالي إلى الجمال في مظاهر الكون، بجانب الضرورة والحاجة، لنتملى هذا الجمال ونستمتع به، ولا نحبس أنفسنا

---

(١) سورة النحل: ١٤.

(٢) سورة يس: ٤١ ـ ٤٤.

(٣) طفا الشيء فوق الماء: ظهر وعلا ولم يرسب (لسان العرب ١٥ / ١٠).

(٤) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٦٦.

(٥) العُباب: الموج (القاموس المحيط ١ / ١٠٣).

داخل حدود الضرورات والحاجات»[١] .

وهكذا تكون البحار والأنهار من وجوه إعداد الأرض للحياة، وذلك لأن البحار على سعتها هي من ضروريات الحياة على الأرض، ومثلها الأنهار، وذلك من جهات عدة، ولها فوائد جمة، ومنافع مهمة، فإن التبخرات المائية منها بواسطة الحرارة الشمسية، وحركة الهواء تبلغ ملايين الملايين من الأمتار المكعبة كل آن، وتتكون منها السحب الماطرة على الأرض في مختلف بقاع الأرض، وتكون الحياة عليها للإنسان والحيوان والنبات .

« . . . البحار على سعتها ضرورة لازمة للحياة العامة، لابد منها لأمور أساسية، منها :

ـ أنها بسعتها الهائلة تشكل توازنًا مركزيًا للكرة الأرضية التي تدور حول محورها بهدوء تام، ولو زالت البحار لفُقد التوازن واختل، وأصبحت الأرض في ارتجاج مقلق لا تستقرعليه الحياة .

ـ وأن الحياة على الأرض تستلزم رطوبة جوية، وماءً عذبًا معتدلين، والرطوبة الجوية تكون بواسطة المياه البحرية الواسعة، وما ينشأ عنها من تبخرات بسبب حرارة الشمس، وحركة الهواء الذي يلطف بدوره الحرارة الشمسية»[٢] .

* * *

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢١٦٣ .

(٢) معالم القرآن، ص : ١٦٢ .

المبحث الرابع
نشأة الحياة من الماء

لقد شاء الله سبحانه أن تتوقف «الحياة» نشأة واستمرارية على وجود «الماء»؛ لذا فمن يتدبر القرآن الكريم يجد أنه يحفل بالحديث عن «الماء» . . بالحديث المفصل المستوعب، فلا يفتأ الكتاب المبين يذكر الماء . . أو أهمية وضرورة الماء، أو منفعة من منافعه في حياة الإنسان وغيره.

وقد بلغت عدة الآيات الكريمة التي اشتملت على لفظة «الماء» خمسًا وستين آية[1] ، هذا فضلاً عن الآيات التي ذكر الماء فيها ضمنيًا أو إشارة . . عند الحديث عن السحاب والرياح والأمطار والبحار والأنهار مثلاً! .

وحسبنا في ذلك كله قوله تعالى في بيان منزلة « الماء» من بين سائر المخلوقات:

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[2] .

قال ابن كثير: «وقال مجاهد: **﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾**، قبل أن يخلق

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: ٦٨٤ .

(٢) سورة هود: ٧ .

شيئًا، وكذا قال وهب بن منبه، وضمرة، وقتادة وابن جرير وغير واحد، وقال قتادة في قوله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾: ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السماوات والأرض»(١).

حكمة خلق الماء:

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾(٣).

قال الإمام الغزالي: «انظر ـ وفقك الله ـ إلى ما منّ به سبحانه وتعالى على عباده بوجود الماء العذب الذي به حياة كل من على وجه الأرض، من حيوان ونبات، فلو اضطر الإنسان إلى شربة منه ومنع منها، لهان عليه أن يبذل فيها جميع ما يمكنه من خزائن الدنيا، والعجب من غفلة العباد عن هذه النعمة العظيمة.

ـ وانظر مع شدة الحاجة إليها: كيف وسّع سبحانه على العباد فيها، ولو جعلها بقدرٍ لضاق الأمر فيها، وعظم الحرج على كل من سكن الدنيا.

ـ ثم انظر لطافة الماء ورقته: حتى ينزل من الأرض، ويخلخل أجزاءها،

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٣٧٧، وانظر: تفسير القرطبي ٩ / ٨، الدر المنثور ٣ / ٥٨٢، الكشاف ٢ / ٢٥٩، فتح القدير ٢ / ٤٨٢.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٣) سورة النحل: ٦٠.

فتتغذى عروق الشجر، ويصعد بلطافته بواسطة حرارة الشمس إلى أعالي الشجر والنبات، وهو من طبعه الهبوط.

ـ ولما كانت الضرورة تدعو إلى شربه لإماعة[١] الأغذية في أجواف الحيوان، لينصرف إلى موضعه جعل لشاربه في شربه لذة عند حاجته إليه، وقبوله به، ويجد شاربه فيه نعيمًا وراحة. وجعله مزيلاً للأدران عن الأبدان، والأوساخ عن الثياب وغيرها»[٢] .

ـ وللماء درجة ذوبان مرتفعة، وهو يبقى سائلاً فترة طويلة من الزمن، وله حرارة تصعيد بالغة الارتفاع، وهو بذلك يساعد على بقاء درجة الحرارة فوق سطح الأرض عند معدل ثابت، ويصونها من التقلبات العنيفة، ولولا ذلك لتضاءلت صلاحية الأرض للحياة[٣] .

ـ والخاصة العجيبة في الماء التي اقتضتها حكمة الله ليتحقق تسخيره البحر للإنسان؛ هي أن الماء يتبع السنة العامة في الانقباض بالبرودة حتى درجة ٤ مئوية. إذا برد وراء ذلك تمدد فخفّ، فعلا إلى السطح، ولذا كان الجمد

---

(١) الومعة: الدفعة من الماء (القاموس المحيط ٣/ ١٠١).

(٢) الحكمة في مخلوقات الله، ص: ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) القرآن والكون، للدكتور محمد الشرقاوي، ص: ١٠٣، نقلاً عن د/ توماس دافيد باركس: الماء يروي لك القصة، بحث في كتاب: الله يتجلى في عصر العلم، ص: ٤٢ ـ ٤٥، ترجمة الدكتور الدمرداش سرحان، مصر، ط: ١٩٨٣م. وهناك علم يسمى علم «الهيدرولوجيا» يختص بدراسة الماء بصوره المختلفة، غازية كانت أم سائلة، وذلك من حيث ظروف تكونه والعوامل التي تتحكم في توزيعه وانتقاله... إلخ (انظر: أساسيات الهيدرولوجيا، للدكتور محمود حسان عبد العزيز، المقدمة، نشر جامعة الملك سعود ١٤٠٢ هـ).

(الثلج) الذي يتكون عند درجة الصفر المئوي أخف من الماء كما هو معروف مشاهد.

فالماء إذاً هو المادة الوحيدة المعروفة التي تقل كثافتها عندما تتجمد، ولهذه الخاصية أهميتها الكبيرة بالنسبة للحياة؛ إذ بسببها يطفو الجليد[١] على سطح الماء عندما يشتد البرد، بدلاً من أن يغوص إلى قاع البحار والمحيطات والأنهار، ويكون تدريجيا صلبة، لا سبيل إلى إذابتها، ويكون الجليد الذي يطفو على سطح البحر، طبقة عازلة تحفظ الماء الذي تحتها في درجة حرارة فوق درجة التجمد، وبذلك تبقى الأسماك وغيرها من الحيوانات المائية حية، وعندما يأتي الربيع يذوب الجليد بسرعة[٢].

الماء ونشأة الحياة:

قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ**﴾[٣].

أقوال المفسرين:

- قال الطبري: وقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾، «يقول تعالى ذكره: وأحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء».. عن قتادة: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ قال: كل شيء حي خلق من الماء، فإن قال قائل: وكيف خص كل شيء حي بأنه جعل من الماء دون سائر الأشياء غيره؛ فقد

---

(١) الجليد: ما يسقط من السماء على الأرض من الندى فيجمد (لسان العرب ٣/ ١٢٧).

(٢) القرآن والكون، ص: ١٠٥، نقلاً عن د/ توماس ديفيد باركس: الله يتجلى في عصر العلم ص: ٤٤.

(٣) سورة الأنبياء: ٣٠.

علمت أنه يحيا بالماء الزروع والنبات والأشجار وغير ذلك مما لا حياة له، ولا يقال له حي ولا ميت؟ قيل: لأنه لاشيء من ذلك إلا وله حياة وموت، وإن خالف معناه في ذلك معنى ذوات الأرواح في أنه لا أرواح فيهن، وإن في فوات الأرواح أرواحًا، فلذلك قيل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1] .

- وقال ابن كثير: وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾أي: أصل كل الأحياء[2] .

- وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا هشام، عن قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله ، إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، فقال: «**كل شيء خلق من ماء**». قال: قلت: يارسول الله ، أنبئني عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة، قال: «**أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم الليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام**»[3] .

- وقال الآلوسي: «. . . والماء هو المعروف، أي: خلقنا من الماء كل حيوان، أي: متصف بالحياة الحقيقية، ونقل ذلك عن الكلبي وجماعة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾[4] ، ووجه كون الماء مبدأ

---

(١) تفسير الطبري ١٧ / ١٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ١٥٤ .

(٣) مسند أحمد ٢ / ٢٩٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٤٩٣ . والحديث ذكره ابن كثير في تفسيره، وقال: وهذا إسناد على شرط الصحيحين، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن، واسمه سليم، والترمذي صححه له (تفسير ابن كثير ٣ / ١٥٥ ، وانظر: اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني ٢ / ٥٠٦).

(٤) سورة النور: ٤٥ .

ومادة للحيوان وتخصيصه بذلك أنه أعظم مواده وفرط احتياجه إليه وانتفاعه به بعينه، ولابد من تخصيص العام؛ لأن الملائكة ـ عليهم السلام ـ وكذا الجن أحياء، وليسوا مخلوقين من الماء ولا محتاجين إليه على الصحيح»[١] .

ـ وقال القرطبي: «وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ثلاث تأويلات: أحدها: أنه خلق كل شيء من الماء؛ قاله قتادة. الثاني: حفظ حياة كل شيء بالماء. الثالث: وجعلنا من ماء الصلب كل شيء حي، قاله قطرب»[٢] .

ـ وقال صاحب الظلال: «فأما شطر الآية الثاني: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فيقرر كذلك حقيقة خطيرة، يعدّ العلماء كشفها وتقريرها أمرًا عظيمًا. ويمجدون (داروين) لاهتدائه إليها! وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول.

وهي حقيقة تثير الانتباه حقًا. وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا، ولا يزيدها يقيناً بصدق هذا القرآن. فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له. وأقصى ما يقال هنا كذلك: إن نظرية النشوء والارتقاء لـ (دارون) وجماعته لاتعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات»[٣] .

---

(١) تفسير روح المعاني ١٧ / ٣٦ .

* وذكر بعض أهل العلم أن الجن ينطبق عليهم الحكم، إذ ثبت استخلاص النار من المياه، ألا ترى أن الكهرباء تستخلص من مساقط المياة.

(٢) تفسير القرطبي ١١ / ٢٨٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٧٦ .

أقوال العلم الحديث:

وقد وصل العلم الحديث بموازينه وتحاليله إلى معرفة كمية الماء في كل من الإنسان والحيوان، والنبات، فعرف أن مقدار الماء في الإنسان وسائر الحيوان أكثر من ثلاثة أرباعه وهو ثمانون في المائة (٨٠٪) وفي النباتات من خمس وخمسين إلى سبعين في المائة (٥٥٪ إلى ٧٠٪). فيكون أغلب أجزاء الإنسان والحيوان والنبات بأجمعها من الماء، فكأنها لهذه الغلبة مخلوقة من الماء، لذلك قال الله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[1]، والحياة إما حياة نمو فقط كالنبات، وإما حياة نمو وإحساس بإرادة كالإنسان والحيوان، فالآية تشمل الجميع.

ولم يكن الإنسان يعرف شيئًا من هذه النسبة المائية حين نزلت هذه الآية التي كشفت الحقيقة المجهولة، وأعلنتها قبل معرفتها بما توصل الإنسان المخترع إليه من آلات وموازين وطرق تحليل ومعرفة علمية متطورة. فهذه معجزة ظاهرة، وبما أن هذه المخلوقات الحية أغلب أجزائها من الماء، فإنها مضطرة إلى تعاطيه للأكل والشرب والريّ في كل وقت من أوقات حياتها، كما تشير إليه هذه الآية.

قال تعالى: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[2].

وقد ثبت طبيًا أن الجسم يعتمد في أداء العمليات الحيوية بداخله على الماء

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٢.

الذي يحلل المواد الزلالية، ويحافظ على سيولة الدم، ويسهل عملية الهضم، ونقل سوائل المواد الغذائية والأملاح الذائبة في الدم إلى جميع الخلايا والأنسجة الجسمية، ويكسب الفضلات مرونتها، وينظم درجة الحرارة الجسمية في معدلها الطبيعي، ويعمل على تخليص الجسم من الفضلات والمواد الضارة. ولولا الماء لما تم شيء من ذلك، ويتعرض الجسم إلى الخطر، فهو نعمة عظيمة من نعم الله تعالى، لاسيما وأن الجسم يفقد يوميًا من السوائل البولية والعرق والتنفس جزءاً كبيراً من الرطوبة المائية، فإن لم يعوضه عن طريق الغذاء المرطب، وما يتناوله من الفواكه والشرب باستمرار لفقد أهم عنصر من عناصر الحياة.

والإنسان يمكنه أن يصبر على الجوع أيامًا كثيرة، ولايمكنه أن يصبر على العطش، فإن استمر العطش ثلاثة أيام تعرض إلى خطر الموت، وفقدان الحياة، لذلك جعله الله كثيراً وافرًا لفرط الحاجة إليه، وبناء الحياة عليه. وكذلك النبات، فإنه يعيش بالماء، ورطوبة التربة، فإذا فقد الماء السائل ورطوبة التربة يبس ومات. .

قال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾[1]»[2].

ـ ونجد أن المحلول المائي للبحار البدائية كان يحتوي على خليط معقد للغاية من الأملاح المعدنية والطين اللازب[3] والأحماض، ومزيج ضخم من

(١) سورة العنكبوت: ٦٣.

(٢) معالم القرآن، ص: ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٣) قال صاحب اللسان: «وطين لازب أي لازق، قال تعالى: ﴿ مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾. قال الفراء: اللازب واللاتب واللاصق واحد» (لسان العرب ١ / ٧٣٨).

الكربون والغروانيات الطينية، في هذا الوسط المائي المخلوط نزلت إشعاعة الحياة بالأمر الإلهي «كن»، فإذا بالمزيج يتحرك ويتخلق على الصور التي أرادها الله أن تظهر على الأرض.

أي أن حالة البحار البدائية من حيث درجة الحرارة والإشعاع والتركيب الكيميائي كانت قد بلغت درجة الاستعداد لاستقبال الأمر الإلهي الأعظم بانطلاق الحياة فوق الكوكب الأرضي.

ويبدو أن ثمة مركبات من الكربون(Carbon) متعددة الأنواع كانت أول ما استقبل إشعاعة الحياة من الخالق الأعظم فدبت فيها حركة شاملة من اتحاد عناصرها ببعضها البعض، ونجم عن ذلك تواصل سلسلة التطور التي رسمها الخالق الأعظم في قانونه الإلهي الأعظم للكون.. فتكونت تبعًا لذلك أجهزة فيزيائية (Psysico - Chemical) تتمتع بفطرة (طبيعة) ثابتة نسبيًا وتتميز بالصفات الأساسية للحياة[1].

الأدلة المرتبطة بالخصائص الحيوية للماء:

هناك أدلة كثيرة ـ غير ما ذكرناها ـ ترتبط بالخصائص الحيوية للماء، فمن هذه الأدلة القرآنية ما يلي:

ـ قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم[2] مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ**

---

(١) الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، ص: ٢٦.

(٢) ولما كان اسم الدابة موقعا على المميز وغير المميز، غلب المميز، فأعطى ما وراء حكمه، كأن الدواب كلهم مميزون، فمن ثمة قيل: فمنهم (تفسير الكشاف ٣/ ٧١).

اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١] .

قال ابن كثير: «يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، من ماء واحد، ﴿ **فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ** ﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ** ﴾ كالإنسان والطير، و﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ** ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات. . »[٢] .

وقال صاحب التفسير الواضح: «المعنى: والله سبحانه وتعالى خلق كل دابة تدب على الأرض من إنسان وحيوان وطير ووحش وغيرها، خلق كل ذلك من ماء، وهل هوالمني الحيواني الذي يخرج من كل كائن حي للقاح؟ أم المراد بالماء العنصر المعروف، بناءً على أنه داخل في قوام كل حيوان، ولا غنى عنه في تخلق الحيوان وحياته، كل هذا يصح. وأيا ما كان، فإن هذه الآية تشبه في الدلالة على باهر القدرة قوله: ﴿ **يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ** ﴾[٣] ، فقد خلق الكل من الماء، ثم باين بين الأنواع مباينة تامة، وفي هذا دلالة على كمال القدرة»[٤] .

ـ وقوله عز وجل: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ**

---

(١) سورة النور: ٤٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥٦ .
(٣) سورة الرعد: ٤ .
(٤) التفسير الواضح ١٨/ ٨٠، وانظر: تفسير الكشاف ٣/ ٧١، وتفسير القاسمي ١٢/ ٤٥٤١ .

كَثِيراً ﴾[١] .

قال النسفي : « وقدم إحياء الأرض على سقي الأنعام والأناسي ؛ لأن حياتها سبب لحياتهما ، وتخصيص الأنعام من الحيوان الشارب ؛ لأن عامة منافع الأناسي متعلقة بها ، فكأن الإنعام عليهم بسقي الأنعام كالإنعام بسقيهم . . .

. . . وتنكير البلدة ؛ لأنه يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظانّ الماء . ولما كان سقي الأناسيّ من جملة ما أنزل له الماء وصفه بالطهور إكرامًا لهم ، وبيان أن من حقهم أن يؤثروا الطهارة في بواطنهم وظواهرهم ، لأن الطهورية شرط الإحياء »[٢] .

ـ وقوله سبحانه : ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ** ﴾[٣] .

قال صاحب الكاشف عند هذه الآية : « المزن : السحاب ، ويشير به سبحانه إلى أنه هو الذي أوجد في الطبيعة أسباب المطر ، والمعنى : وهذا الماء الذي هو أصل الحياة ، ولا غنى عنه بحال ، هذا الماء مَنْ الذي أوجد أسبابه في الطبيعة وأحكمها؟ أنتم أم الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً؟ ، وقد نبه سبحانه في كثير من الآيات إلى أنه يحيي الموتى تمامًا كما يحيي الأرض بالمطر : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ**

(١) سورة الفرقان : ٤٨ـ٤٩ .

(٢) تفسير النسفي : ٣/ ٣٨١ .

(٣) سورة الواقعة : ٦٨ ـ ٧٠ .

الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمُوتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١] »[٢] .

وقال صاحب الظلال: «وهذا الماء أصل الحياة، وعنصرها الذي لاتنشأ إلا به كما قدر الله. مادور الإنسان فيه؟ دوره أنه يشربه. أما الذي أنشأه من عناصره، وأما الذي أنزله من سحائبه، فهو الله سبحانه. وهو الذي قدر أن يكون عذبًا فكان ﴿**لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا**﴾ مالحًا لايستساغ، ولاينشئ حياة. فهلا يشكرون فضل الله الذي أجرى مشيئته بما كان؟ .

والمخاطبون ابتداء بهذا القرآن كان الماء النازل من السحائب، في صورته المباشرة، مادة حياتهم، وموضع احتفالهم، والحديث الذي يهز نفوسهم، وقد خلدته قصائدهم وأشعارهم . . ولم تنقص قيمة الماء بتقدم الإنسان الحضاري، بل لعلها تضاعفت. والذين يشتغلون بالعلم ويحاولون تفسير نشأة الماء الأولى أشد شعوراً بقيمة هذا الحدث من سواهم، فهو مادة اهتمام للبدائي في الصحراء، وللعالم المشتغل بالأبحاث سواء»[٣] .

وهكذا ارتبط الماء في القرآن الكريم بالحياة؛ حياة الأرض، وحياة النبات والشجر، وحياة الإنسان والحيوان، أي بالحياة على إطلاقها، و تكررت الإشارة إلى ذلك في آيات كثيرة:

ـ قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ**

---

(١) سورة فصلت: ٣٩.

(٢) التفسير الكاشف ٧ / ٢٢٨.

(٣) في ظلال القرآن ٦ / ٣٤٦٩.

فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١) .

ـ وقال عز وجل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾(٢) .

ـ وقال سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾(٣) .

ـ وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾(٤) .

الماء آية القدرة الإلهية:

وإذا كان الماء يرتبط في القرآن الكريم بالحياة، فالماء ـ أيضًا ـ آية القدرة الإلهية. وكونه آية، فهو يتسم بالظهور، وبالدلالة عما وراءه من القدرة، وإذا كان الشيء آية فهو محدَث؛ لأن محدثه هو الذي أظهره وأبانه ليدل عليه.

قال الراغب الأصفهاني: «والآية هي العلامة الظاهرة، وحقيقته لكل شيء ظاهر هو ملازم لشيء لايظهر ظهوره. فمتى أدرك مدركٌ الظاهر منهما

(١) سورة البقرة: ١٦٤.
(٢) سورة الأعراف: ٥٧ـ ٥٨.
(٣) سورة العنكبوت: ٦٣.
(٤) سورة الحج: ٦٣.

عُلم أنه أدرك الآخرَ الذي لم يدركه بذاته، إذا كان حكمهما سواء، وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات، فمن علم ملازمة العلَم، علم أنه وجد الطريق، وكذا إذا علم شيئًا مصنوعًا، علم أنه لابد له من صانع»[١] .

والقرآن الكريم حين وصف الماء بأنه «آية» أظهر ذلك بالصور العملية التي تؤثر في الحس، وتستجيش الفكر، وتسمو بالإنسان إلى المعنى الرفيع الذي يكمن وراء كل محسوس، ولذلك كان لهذه الآية التي تمثلت في الماء مظاهر أبرزها:

(١) أن السبب واحد والمسبِّب متعدد:

قال تعالى: **﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾**[٢] .

وقال عز وجل: **﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾**[٣] .

ففي الآية الأولى نجد أن الماء شيء واحد، قد تسبب في أشياء متعددة متباينة: النبات الأخضر المثقل بالحب، والنخل الداني القطوف السهلة

(١) المفردات في غريب القرآن، ص: ٣٣.
(٢) سورة الأنعام: ٩٩.
(٣) سورة الرعد: ٤.

التناول، والجنات المكونة من الأعناب والزيتون والرمان حال كون الرمان مشبهًا في بعض الصفات، وغير مشتبه في بعض آخر، فهو لذلك آية.

وفي الآية الثانية، نجده قد تسبب في جنات مختلفة يفضل بعضها بعضًا في الخصائص: في الطعام، والألوان، والأشكال، والروائح.. فهو لذلك آية أيضًا.

قال الزمخشري في تفسير الآية: «فأخرجنا بالماء نبات كل شيء: نبت كل صنف من أصناف الناس، يعني أن السبب واحد وهو الماء، والمسببات صنوف مختلفة، كما قال: ﴿**يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ**﴾»[1].

«والقرآن الكريم حين بين أن الماء سبب تتولد منه أنواع كثيرة متباينة من الزرع والأشجار والفاكهة، فإنه لم يجعله السبب النهائي في كل ذلك، بل رده إلى إرادة الله وقدرته، ذلك أن جميع الأسباب في القرآن الكريم تنتهي إلى الله وحده، ولهذا كانت الآيات القرآنية صريحة في ذلك، حتى إن القرآن ليلتفت في عدد من المواضع فيقول: ﴿**فَأَخْرَجْنَا**﴾ باستعمال ضمير المتكلم الدال على التعظيم، بدلاً من ضمير الغائب الذي بدئ به الكلام أولاً، كما في قوله: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ**﴾[2]»[3].

---

(١) تفسير الكشاف ٢/ ٣٩.

(٢) سورة طه: ٥٣.

(٣) الطبيعة في القرآن الكريم، ص: ٨٦.

(٢) نزول الماء «بقدر» آية:

قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ** ﴾[1] .

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ **بِقَدَرٍ** ﴾ أي على مقدار مصلح، لأنه لو كثر أهلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾[2]»[3] .

وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ** ﴾ . . بحكمة وتدبير، لا أكثر فيغرق ويفسد؛ ولا أقل فيكون الجدب[4] والمحل؛ ولا في غير أوانه فيذهب بدداً بلا فائدة . . . » .

إن هذا القدر الذي ينزل به الماء، يتناسب مع المنفعة التي جعلها الله فيه، ويتصل بقدرة الله وحكمته أيضًا. ذلك أن الارتباط بين القدر والقدرة وثيق، فالقدر التقدير والمقدار المعيّن المخصص الذي لا زيادة فيه ولا نقصان، والقدير: «الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائدًا عليه ولا ناقصًا عنه، ولذلك لايصح أن يوصف به إلا الله تعالى»[5] .

(٣) اتصاف الماء بالإحياء آية:

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن**

---

(١) سورة المؤمنون: ١٨ .

(٢) سورة الحجر: ٢١ .

(٣) تفسير القرطبي ١٢ / ١١٢، وانظر: تفسير فتح القدير ٣ / ٤٧٧ ـ ٤٧٨ .

(٤) الجدْب: المَحْل نقيض الخصب (لسان العرب ١ / ٢٥٤، ١١ / ٦١٦).

(٥) المفردات في غريب القرآن، ص: ٣٩٤ .

تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2][3].

«فالأرض الميتة الهامدة، ينزل عليها الماء بأمر ربها فإذا بها تستجيب لداعي الحياة، فتنبت من الأصناف ما يبهج النفوس. الماء والأرض هنا يمثلان منظراً

---

(١) سورة الحج: ٥-٧.

(٢) سورة فصلت: ٣٩.

(٣) وصف القرآن الكريم الأرض قبل إنزال المطر عليها، والإنبات فيها تارة بالخشوع، وذلك في فصلت (الآية الثانية)، وتارة أخرى بالهمود، وذلك في الحج (الآية الأولى). والخلاف بين اللفظين: أن الخشوع - وهو التذلل والخضوع - من خواص العقلاء، ومن صفات الأحياء. أما الهمود في اللغة فيستعمل للموت والهلاك، كما في حديث مصعب بن عمير: حتى كاد يهمُد من الجوع؛ أي يهلك. وهمدت النار تهمد هموداً: طفئت طفوءاً وذهبت البتة فلم يبق لها أثر، وهمد الشجر إذا بلي (لسان العرب ٣/ ٤٣٦).
فالهمود إذن من خواص الجماد، وصفات الأموات. واجتماع هذين الوصفين للأرض التي تهتز وتربو مع ما بينهما من اختلاف في الدلالة اللغوية يدفع للنظر في سياق كل من الموضعين، واختلاف السياق من دواعي المغايرة في الوصف، والتنويع في التعبير، ليؤدي كل لفظ دوره وغرضه فيما يناسبه من موضع ومقام، وعلى هذا مدار الإعجاز البياني في القرآن... (تفسير سورة فصلت، للدكتور محمد صالح على مصطفى، ص: ٢٥٢-٢٥٣).

من مناظر الحياة المتجددة، وسنة من سنن الله في الكون في إخراج شيء، بسبب شيء. الماء كالرجل في علاقته بالأرض، والأرض كالمرأة في استجابتها له، وما ينبت منه أشبه بالنسل الذي يتولد من تزاوج الرجل والمرأة، الإحياء بالماء أيضا ليس بعيداً عن تكوين الإنسان الأول من التراب الذي لا حياة فيه، ولكن القدرة الإلهية هي التي بثت فيه الحياة، وخلقت فيه الروح فإذا هو بشر.

هذه الصورة في إنبات النبات بالماء وظهوره متدرجا من طور إلى طور، ليست بعيدة أيضًا عن نشوء الإنسان وتدرجه من نطفة إلى علقة إلى مضغة.. بقدرة الله ومشيئته، هذه الصورة الحية تدل على ما وراءها من القدرة المحركة لذلك كله، وهي بعد هذا مجالها الأرض الفسيحة، ووقوعها على البصر متكرر متجدد تراه العين، وتتملاه في يسر ووضوح، ولقد ربط القرآن بين هذه الصورة الماثلة، وصورة أخرى في عالم الغيب، هي صورة البعث والنشور، وإحياء الإنسان لملاقاة ربه، وما أعد له من ثواب أو عقاب»[١].

وبما سبق تتجلى لنا قدرة الله سبحانه على نشأة الحياة من الماء، وهذه الحياة عامة في الإنسان، والحيوانات كلها، والنباتات بأنواعها، وليس المراد أن جميع أجزاء هذه المخلوقات الحية من الماء فقط، بل إن غالب أجزائها من الماء، فلا توجد الحياة في شيء إلا إذا كان فيه نسبة مخصوصة من الماء تختلف بحسب أجزاء الأجسام، ولكثرة الماء فيها كأنها كلها من الماء.

* * *

(١) الطبيعة في القرآن الكريم، ص: ٨٨.

الحياة في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

احزمي سامعون جزولي

الجزء الثاني

الناشر

دار طويق للنشر والتوزيع

جَميع الحُقوق مَحفُوظة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

ⓒ دار طويق للنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

جزولي، احزمي سامعون

الحياة في القرآن الكريم: دراسة موضوعية ـ الرياض.

٠٠٠ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك ١ ـ ٣٥ ـ ٦٤٦ ـ ٩٩٦٠

١ ـ القرآن ـ مباحث عامة أ ـ العنوان

ديوي ٢٢٩ ١٧/٠٢٩٩٠

رقم الإيداع: ١٧/٢٩٩٠

ردمك: ١ ـ ٣٥ ـ ٦٤٦ ـ ٩٩٦٠

دار طويق للنشر والتوزيع

الرياض ـ الناصرية ـ شمال مبنى وزارة الخارجية

ص ب ٣١٩٣٤ ـ الرياض ١١٤١٨

هاتف: ٤٠٤٢٥٥٥ ـ فاكس: ٤٠٣٤٢٣٨

الباب الثانى

أنواع الحياة

ويتألف هذا الباب من ستة فصول:

الفصل الأول : حياة المؤمنين في الدنيا.

الفصل الثاني : حياة المؤمنين في الآخرة.

الفصل الثالث : حياة الكافرين في الدنيا.

الفصل الرابع : حياة الكافرين في الآخرة.

الفصل الخامس : حياة المنافقين في الدنيا والآخرة.

الفصل السادس : أنواع أخرى للحياة كما ورد ذكرها في القرآن الكريم.

الفصل الأول

حياة المؤمنين في الدنيا

وتحته مباحث :

المبحث الأول : نظرة المؤمنين إلى الحياة الدنيا.

المبحث الثاني : صفات المؤمنين في الحياة الدنيا.

المبحث الثالث : موقف المؤمنين من غيرهم من الكافرين والمنافقين في الحياة الدنيا.

المبحث الرابع : حياة المؤمنين الطيبة وسبيلها.

المبحث الخامس: سعي المؤمنين في الحياة الدنيا للآخرة ومقتضياته.

تمهيد

إن الذي يتدبر القرآن الكريم يجد أنه يتحدث كثيراً عن حياة الناس المتنوعة. وهذه الحياة المتنوعة تختلف باختلاف نظرتهم إلى الحياة، وتختلف باختلاف موقفهم من منهج حياتهم. لقد زين للناس حب الشهوات في هذه الحياة الدنيا من النساء والأولاد والأموال، ليكون ذلك ابتلاء من الله عز وجل لعباده.

قال تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾[2].

فالمؤمنون - الذين يجعلون القرآن الكريم منهج حياتهم - يعلمون أن هناك خيراً من ذلك المتاع الدنيوي كله... جنات ورضوانًا من الله، فيرتفعون عن ذلك المستوى إلى الأعلى.. ومن رحمة الله بنا أن الشرع لم يحل بيننا وبين الطيبات، ولكن لا على أن تكون هذه الطيبات هي الغرض والهدف من الحياة.

---

(١) سورة آل عمران: ١٤.

(٢) سورة الكهف: ٧.

والمؤمنون قوم فضلوا جوار الله على كل جوار، بعد أن استيقنت قلوبهم حقيقة العبودية لله، واستلذتها أنفسهم، فعاشوها ليلهم ونهارهم، في يقظتهم ومنامهم، وفي كل حركة من حركاتهم.

إنهم قوم رأوا حقيقة الحياة، وعرفوا أن الدنيا زائلة فانية، وأن الآخرة هي الباقية، ومن ثم اتخذوا دنياهم مجرد معبر إلى هذه الآخرة، فعاشوا فيها بروح المرتحل، آملين في جنة الخلد، التي وعدها الله عباده المتقين.

قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً** ﴾(١).

ولذلك يعيش هؤلاء المؤمنون حياتهم الدنيا ربانيين، يسلكون سبيل الفطرة، سبيل الإيمان بالله، وينتسبون إلى الرب، ويتوجهون إليه وحده بالعبادة، ويأخذون عنه وحده منهج حياتهم، حتى يخلصوا له وحده فيكونوا ربانيين بحكم تعليمهم للكتاب ودراستهم له وعملهم به.

قال عز وجل: ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴾(٢).

أما الكافرون الذين لا يبصرون أبعد من أنوفهم، ولا يرون شيئًا أهم من هذه الحياة الدنيا، فليس لهم إلا هذه الدنيا.. لقد زُينت لهم حتى أصبحت غاية لهم وهدفًا، لا يريدون سواها. إنها مبلغ علمهم، وأكبر همهم،

---

(١) سورة الفرقان: ١٥-١٦.

(٢) سورة آل عمران: ٧٩.

فجهودهم وتحركاتهم وإنفاقهم وعلاقاتهم وأشعارهم وكلماتهم، كلها تدور حول هذه الدنيا.

والكافرون قوم قصار النظر، لا يرون في هذه الحياة الدنيا سوى ما تقع عليه حواسهم، أما ما وراء هذه الحواس، فليست لديهم قدرة على اقتحامه، ومن ثم فهم يعيشون حياتهم الدنيا أسرى لمظاهر الحياة، وزخرفها وعرضها الزائل، دون أن يستطيعوا اقتحام المستقبل، ليفكروا في الحياة الآخرة.

قال تعالى: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾[1] .

وقال عز وجل: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾[2] .

وقال سبحانه: ﴿ **وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴾[3] .

وقال تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾[4] .

وعدم القدرة على اقتحام المستقبل لايجعل الإنسان إنسانًا، ذا عقل وفكر، ومن ثم شبّه القرآن الكريم لهؤلاء الكافرين بالأنعام التي حُرمت

---

(١) سورة الروم: ٧.
(٢) سورة البقرة: ١٧١.
(٣) سورة الأنعام: ٢٩.
(٤) سورة الجاثية: ٢٣-٢٤.

بطبيعتها نعمة العقل والفكر، تأكيدًا لوصفهم بالعمى والصمم.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(١).

وقال عز وجل: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾(٣).

وهناك قوم آخرون سماهم القرآن الكريم المنافقين.. فهم قوم مذبذبون في حياتهم، مضطربون؛ مائلون تارة إلى المؤمنين، وتارة إلى الكافرين، لايخلصون إلى أحد الفريقين؛ لأنهم أصحاب مصالح ومنافع، ولايدرون لمن تكون العاقبة، فمتى ظهرت الغلبة لأحدهما ادَّعوا أنهم منه، مما يدل على ضعفهم الذاتي؛ هذا الضعف الذي يجعلهم غير قادرين على اتخاذ موقف حاسم هنا أو هناك.. ولا على المصارحة برأي وعقيدة وموقف مع هؤلاء أو هؤلاء.

قال تعالى: ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾(٤).

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٢) سورة الفرقان: ٤٤.

(٣) سورة محمد: ١٢.

(٤) سورة النساء: ١٤٣.

إن المنافقين قوم كذّابون، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ فيقولون: آمنا بالله واليوم الآخر، وما هم بمؤمنين، إذ قلوبهم منكرة جاحدة، فهم يكذبون عن تعمد وإصرار في أخطر قضية من قضايا الوجود والحياة، هي قضية الدين.

قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾[١].

ولذلك أعدّ الله عز وجل للمنافقين الدرك الأسفل من النار.. إنه مصير يتفق مع ثقلة الأرض التي تلصقهم بالتراب، فلا ينطلقون ولا يرتفعون؛ ثقلة المطامع والرغائب، والحرص والضعف؛ الثقلة التي تهبط بهم إلى موالاة الكافرين ومداراة المؤمنين، والوقوف في الحياة ذلك الموقف المهين.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴾[٢].

وهكذا نجد القرآن الكريم يحدثنا عن أنواع الحياة التي يسير عليها الناس وفقًا لنظرتهم إلى هذه الحياة، وبناءً على موقفهم من هذا الوجود والحياة، ذكرناها إجمالاً كالتمهيد لهذا الباب، وسنذكرها ـ بإذن الله ـ تفصيلاً في الفصول ومباحثها مع زيادة أنواع أخرى للحياة كما ورد ذكرها في القرآن الكريم.

* * *

---

(١) سورة البقرة: ٨ ـ ١٠.

(٢) سورة النساء: ١٤٥.

المبحث الأول
نظرة المؤمنين إلى الحياة الدنيا

إن المؤمنين الذين يتأملون ويتدبرون القرآن الكريم يجدون أنه يصف الحياة الدنيا بأسلوب معجز، ليس في استطاعة أي بليغ مهما أوتي من قدرة الدقة في التعبير، وليس في مقدور أي كاتب ملهم بلغت مقدرته في إجادة التصوير، أن يحيط بوصف الحياة الدنيا الواقعية بمثله، إذ قال تعالى:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[١] .

وقال عز وجل: **﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾**[٢] .

قال ابن كثير: «ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء مما يأكل الناس، من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أبّ وقضب وغير ذلك: **﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾**

(١) سورة الكهف: ٤٥ .

(٢) سورة يونس: ٢٤ .

أي: زينتها الفانية، ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أي: حسنت بما خرج في رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على جذاذها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة، فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي: يابسًا بعد الخضرة والنضارة ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت حينًا قبل ذلك...»[1].

وقال ابن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: «يقول: كما بيّنا لكم، أيها الناس، مثل الدنيا وعرّفناكم حكمها وأمرها، كذلك نبين حججنا وأدلتنا لمن تفكر واعتبر ونظر. وخص به أهل الفكر؛ لأنهم أهل التمييز بين الأمور، والفحص عن حقائق ما يعرض من الشُّبه في الصدور»[2].

وهذه هي الحياة الدنيا التي يستغرق فيها أكثر الناس، ويضيعون الآخرة كلها لينالوا منها بعض المتاع. هذه هي، لا أمن فيها ولا اطمئنان، ولا ثبات فيها ولا استقرار، ولايملك الناس من أمرها شيئًا إلا بمقدار.

أما المؤمنون فهم ينظرون إلى الحياة الدنيا نظرةً صحيحة كما بينها الله لهم، حيث إنه سبحانه وتعالى لم يترك الإنسان لأحلام اليقظة تلعب بعقله، وتعبث بخياله كما تشاء، بل أقام له دلائل قاطعة، وبراهين ساطعة، على أن الحياة الدنيا مملوءة بالمحن، وسريعة الزوال، وأودع خالق البشر والقوى فيه من

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥٦.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٥٤٧، دار الكتب العلمية، توزيع مكتبة دار الباز.

الطبائع والغرائز ما يحمله على تنازع البقاء وحب السيادة، ولكن رسالة كل فرد من الجنس البشري - في نظرة المؤمنين - هي القيام بالأعمال الصالحة التي تعود فائدتها عليه وعلى الناس في حدود العمران والنهوض والتقدم، مع التمسك بالتقوى والإحسان والإيثار والمحبة؛ لكيلا يندفع الإنسان إلى الافتتان بهذه الحياة الدنيا المملوءة بالغرور الكاذب، ويكف عن التكالب والعداوة وراء حطام الدنيا البراق.

تحذير المؤمنين من فتنة متاع الحياة الدنيا وزينتها:

هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم يبدو فيها واضحًا تحذير المؤمنين من فتنة الحياة الدنيا وزينتها وغيرها من الأموال والأزواج والأولاد. فمن تلك الآيات القرآنية قوله تعالى:

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[1].

٢ - ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[2].

٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[3].

---

(١) سورة فاطر: ٥.

(٢) سورة الكهف: ٧.

(٣) سورة الأنفال: ٢٧-٢٨.

٤ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(١) .

قال الطبري : «يقول تعالى ذكره : يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ يصدونكم عن سبيل الله ، ويثبطونكم عن طاعة الله ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ أن تقبلوا منهم ما يأمرونكم به من ترك طاعة الله .

يقول تعالى ذكره : ما أموالكم أيها الناس وأولادكم إلا فتنة ، يعني بلاء عليكم في الدنيا ، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(٢) .

إن متاع الحياة الدنيا من الأموال والأولاد والأزواج والأقارب ، هذه الوشائج وتلك الزينة قد تقعد الناس عن الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(٣) .

قال مجاهد ـ رضي الله عنه ـ في قوله تعالى : ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ : «هو هذا القرآن فيه الحياة والتقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة»(٤) .

وقال صاحب الظلال : «إن رسول الله ـ ﷺ ـ إنما يدعوهم إلى ما يحييهم . . إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة ، وبكل معاني الحياة . . إنه

---

(١) سورة التغابن : ١٤ ـ ١٥ .

(٢) تفسير الطبري ١٢ / ١١٦ ـ ١١٨ .

(٣) سورة الأنفال : ٢٤ ـ ٢٥ .

(٤) تفسير الدر المنثور ٣ / ٣٢٠ .

يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة، ومن ضغط الوهم والأسطورة. .

ويدعوهم إلى منهج للحياة، ومنهج للفكر، ومنهج للتصور، يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة، المتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان، العليم بما خلق. .

ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله، لتقرير ألوهية الله - سبحانه - في الأرض وفي حياة الناس، وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة، ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله - سبحانه - وحاكميته وسلطانه؛ حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده؛ وعندئذ يكون الدين كله لله، حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة.

ذلك مجمل ما يدعوهم إليه الرسول - ﷺ - وهو دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة»[1] .

إن الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن المريحة وغيرها من متاع الحياة الدنيا وزينتها، قد تُقعد الناس عن الاستجابة خوفًا وبخلاً؛ لذلك يضع الله سبحانه وتعالى كل هذه الوشائج والمطامع واللذائذ في كفة، وفي الكفة الأخرى حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله، ليحذر المؤمنين فتنة متاع الحياة الدنيا وزينتها. قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ**

---

(١) في ظلال القرآن - باختصار - ٣ / ١٤٩٤.

ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾[١] .

تحذير المؤمنين فتنة متاع الحياة الدنيا وزينتها لايستلزم تركها:

والمؤمنون إذا نظروا إلى الحياة الدنيا وزينتها نظرة حذر، فذلك لايعني ترك المكسب في شيء من أنواع الحياة الدنيا، كما توهمه قوم أفرطوا حتى قربوا من مذهب المانوية والبراهمة والرهبانية[٢] ، فإن ذلك يؤدي إلى خراب الدنيا، وهلاك العالم، ومضادة الله سبحانه وتعالى فيما قدر ودبر؛ ولأن متاع الحياة الدنيا من المال والأزواج والأولاد وغيرها لها دور كبير في حياة الإنسان والتأثير على شخصيته، وفي نظرة المجتمع والأفراد إليه. وسنذكر في هذا

---

(١) سورة التوبة: ٢٤.

(٢) المانوية: أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في زمان سابور بن أزدشير، وقتله بهرام ابن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى - عليه السلام -، أحدث دينًا في المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح ولا نبوة غيره، وكان يزعم أن العالم مركب من أصلين قديمين هما: النور والظلمة (الملل والنحل للشهرستاني ٢ / ٤٩).

أما البراهمة: فهم طائفة من الهنود ينتسبون إلى رجل منهم يقال له: «براهم» وهم ينفون النبوات، ويقرون استحالة ذلك، ويقدمون على ذلك عدة أدلة عقلية في نظرهم، ولكنها لاتصمد للمناقشة العقلية في حقيقة الأمر، وقد تفرقوا فرقًا عديدة؛ فمنهم أصحاب الفكرة، ومنهم أصحاب التناسخ (الملل والنحل ٣ / ٩٥ - ٩٦).

وأما الرهبانية: فهم فئة من النصارى تركوا الكسب والعمل وجلسوا في أديرة للكهانة والرهبنة، وتحوم حولهم أساطير يبتدعها أصحابهم، وقد أخطأ بعض الزهاد حين ظنوا الزهد ترك المكسب وربطوه بالتوكل كما فهموه هم (الملل والنحل ٢ / ٢٩، تحقيق عبد العزيز الوكيل، طبعة الحلبي د.ت، ابن الجوزي: تلبيس إبليس ٢٨٢ - ٢٨٦).

الصدد نظرة المؤمنين إلى المال ـ وإنما نذكر المال من باب ذكر المثال لا الحصر ـ وذلك لنكون على بصيرة من أمرنا بأن الحياة الدنيا ليست سلبية في ذاتها .

نظرة المؤمنين إلى المال:

إن نظرة المؤمنين تنبثق من فهمهم للإسلام؛ حيث إنه ينظر إلى المال على أنه عصب الحياة، وقوامها، وضرورة من ضروراتها، لاتستغنى عنه الأفراد ولا الجماعات .

إن نظرة الإسلام إلى المال تتصف بصفات أربع، ونود أن نلم بكل منها بإيجاز بالغ :

١ـ تتصف بأنها إيجابية : فلم يقف الإسلام في وجه الفطرة الإنسانية ولم يصادمها، والإنسان مفطور على حب المال، وقد سماه الله خيراً . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[1] . أي : وإن الإنسان لحب المال لشديد[2] .

فإن كان ذلك كذلك فإن الإسلام لم يَدْعُ الإنسان إلى ترك المال؛ لأن ذلك يصادم غريزة ثابتة فُطر الإنسان عليها، بل واجه هذا العنصر المزين للناس بأحكام وتشريعات تنظم الإفادة منه واستخدامه، وبثبات قلب الإنسان على الإيمان، حتى لايغير من تصوراته وقيمه وموازينه .

قال سيد قطب في ظلال هذه الآية : «هذه فطرته، وهذا طبعه، ما لم يخالط الإيمان قلبه، فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته، ويحيل

---

(١) سورة العاديات : ٨ .

(٢) تفسير الطبري ١٢ / ٦٧٣، وانظر : تفسير ابن كثير ٤ / ٤٧٤، والدر المنثور ٦ / ٦٥٤ .

كنوده وجحوده اعترافًا بفضل الله وشكرانًا، كما يبدل أثرته وشحه إيثارًا ورحمة، ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح، وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا»[1].

٢ـ وتتصف بأنها واقعية: فلقد سلك الإسلام لتحقيق هذه النظرة وسيلتين، هما: التشريع، والتوجيه.

أما التشريع فقد قرر أحكامًا تنظم العلاقات المادية بين الناس بدقة في كل جوانب الحياة، فمن التزمها أسهم في تكوين المجتمع الصالح النامي المتقدم السعيد، ومن خالفها عاش عيشة الضنك، ولاحقته عقوبات زجرية رادعة. وهذه الأحكام بجانبيها التنظيمي والجزائي كلها ـ على سموها ـ في دائرة الواقع والإمكان والقابلية للتطبيق.

وأما التوجيه فإنه يعتمد على غرس مخافة الله في قلوب أتباعه المؤمنين، والخشية من عذاب يوم القيامة، وتذكيرهم بمراقبته، ومطالبتهم بالعمل لما يرضيه، واجتناب ما يسخطه، حتى ينتهي هذا السلوك بصاحبه إلى النعيم المقيم في الجنة.

ومن التوجيه إقناع المسلمين ـ بالحجة والبرهان ـ بأن في هذا النظام المالي الحياة الفضلى والسعادة التامة.

وكذلك فمن هذا التوجيه ترغيب المؤمنين بالتسامي عن الكماليات وبعض الحاجيات، وبيان أن شأن المال شأن صغير لاينبغي للمرء أن يقع في المعصية

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٩٥٨.

من أجله، وبيان أن ما عند الله خير وأبقى .

ومن أهم عناصر هذا التوجيه تنبيه المسلمين إلى أن المال ابتلاء وفتنة، وتحذيرهم من السقوط في الفتنة. قال تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[2] .

ويدعو الشرع صاحب المال إلى مثالية كريمة: كأن يسامح الدائن أخاه المعسر، فيدعوه إلى ذلك على سبيل الندب. قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3] . وهذه المثالية المبنية على الأخوة الإسلامية وابتغاء ما عند الله منهج سوي ملموس في عدد من الأمور؛ كالعفو عمن أساء، قال تعالى: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ... ﴾[4] ، وإيثار الآخرين على النفس مع أن صاحب المال في حال احتياج، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[5] ، وكالانخلاع من المال كله أيام الأزمات، كما فعل صدّيق هذه الأمة أبو بكر - رضي الله عنه - .

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٦ .

(٢) سورة الأنفال: ٢٨ .

(٣) سورة البقرة: ٢٨٠ .

(٤) سورة آل عمران: ١٣٤ .

(٥) سورة الحشر: ٩ .

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: أمرنا رسول الله - ﷺ - أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر - إن سبقته يومًا -، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله - ﷺ -: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «**يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقه إلى شيء أبدًا[1] .

٣- وتتصف بأنها متوازنة: فلا تتجاهل نظرة الإسلام للمال الفرد، ولاتنسى الجماعة، ولاتكون تشريعاتها لصالح جانب على حساب جانب آخر.

قال تعالى: ﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[2] .

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿**كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ**﴾: «أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكله يتغلب عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولايصرفون منه شيئًا إلى الفقراء»[3] .

فلقد كان المال دائمًا وأبدًا في توجيه التشريع الإسلامي له حين يكون في

---

(١) رواه أبو داود، في كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك (٢/ ١٢٩). ورواه الترمذي في كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر (٥/ ٦١٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سورة الحشر: ٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٩٤.

دائرة البعد الأخلاقي في يد الأفراد منضبطًا بقواعد وقوانين تتصل بالعلاقة الاجتماعية، بين حركة الفرد المسلم في توجيه ماله، وبين ولاة الأمر، تنطلق من قيم تنبع مباشرة من صلب التصور الأخلاقي للمسلمين في كتاب ربهم الكريم. فكانوا يضعون قواعد تشريعية تحدد وضع المال، حين يكون في يد الإنسان فرداً أو جماعة. وبأساس من هذا المعتقد كان في تاريخ التشريع الإسلامي القواعد المالية المتعددة والتي يتميز بها الإسلام عن غيره من النظم والمذاهب[1] .

فالنظام الإسلامي هو نظام خاص من لدن حكيم خبير. إنه نظام فريد متوازن الجوانب، متعادل الحقوق والواجبات.

ولاتكون هذه النظرة مقصورة على شؤون الدنيا، ولكنها في الوقت ذاته لاتضيعها، قال تعالى: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾[2] .

وإذا كان الإنسان جسداً وروحًا فإن مما لا شك فيه أن المال هو الذي يستطيع أن يقوم بأعباء حاجات الجسد شطر الإنسان الآخر، ولذلك قال العلماء: إن المال شقيق الروح، وفي ثنايا هذا التوازن العدالة المطلقة، والسعادة الكاملة.

٤ - وتتصف بأنها بناءة: والحق أن هذه الصفة هي النتيجة الطبيعية

---

(١) الفكر المادي في ميزان الإسلام، لصابر طعيمة، ص: ١٨٢ .

(٢) سورة القصص: ٧٧ .

للصفات الثلاث المتقدمة؛ فإذا كانت هذه الشريعة قد عمدت إلى مواجهة الفطرة وصعّدتها ولم تقاومها، وعالجت القضايا المتصلة بالمال معالجة واقعية متوازنة، فإن ثمرة ذلك كله سيكون بناءً للحياة الإنسانية على الوجه الأفضل، وعمرانًا للأرض، وتسخيراً للطاقات المذخورة فيها من أجل خدمة المثل العليا الكريمة(١) .

الطريق الواحد لصلاح الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾(٢) .

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾: «قال ابن عباس وغيره: هو القرآن، ﴿ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾، أي: ولو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ـ ﷺ ـ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه، والأمر باتباعه حتمًا لا محالة. وقوله تعالى: ﴿ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ يعني بذلك: كثرة الرزق النازل عليهم من السماء،

---

(١) انظر: الإنسان في القرآن الكريم، ص: ٨٧ ـ ٨٩.
(٢) سورة المائدة: ٦٥ ـ ٦٦.

والنابت لهم من الأرض»[١] .

وقال صاحب الظلال : « إن هاتين الآيتين تقرران أصلاً كبيراً من أصول التصور الإسلامي ، ومن ثمّ فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية . .

إن الله سبحانه يقول لأهل الكتاب : إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم ، وهذا جزاء الآخرة . وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله الله إليهم من التعاليم - كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل - لصلحت حياتهم الدنيا ، ونمت وفاضت عليهم الأرزاق ، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق ، ووفرة النتاج وحسن التوزيع ، وصلاح أمر الحياة . . ولكنهم لايؤمنون ولايتقون ولايقيمون منهج الله - إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها - ﴿ **وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴾ .

وهكذا يبدو من خلال الآيتين أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا ، لايكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده - وإن كان هو المقدّم وهو الأدوم - ولكنه كذلك يكفل صلاح أمر الدنيا ، ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة . . وفرةً ونماءً وحسن توزيع وكفايةً . يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله : ﴿ **لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم** ﴾ . .

وهكذا يتبين أن ليس هناك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة ؛ وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة في الدنيا ، إنما هو طريق واحد ، تصلح به الدنيا

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٦٨ .

والآخرة، فإذا تُنكب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة. . هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا. . . »(١).

ومما سبق يتضح لنا أن نظرة المؤمنين إلى الحياة الدنيا تتلخص في نقاط تالية:

- إن الحياة الدنيا وما فيها من متاعها وزينتها - في نظر المؤمنين - مصيرها الزوال والانقضاء، وأن هذه الحياة الدنيا حياة مؤقتة، وأن الحكمة من وجودها الابتلاء والامتحان، وأن هذه الحياة مزرعة الآخرة؛ فما زرعه الإنسان في هذه الحياة سيحصد ثماره في الحياة الآخرة.

- إن رسالة كل مؤمن في هذه الحياة الدنيا هي القيام بالأعمال الصالحة التي تعود فائدتها عليه وعلى الناس في إطار العمران والنهوض والتقدم، وذلك على أساس الإيمان والتقوى.

- ولما كان الإنسان راغبًا في متاع الحياة الدنيا وزينتها، و هذه الرغبة طبيعية وفطرية، فإن المؤمنين ينظرون إلى ذلك نظرة بصيرة واعتدال، بحيث إن الإسلام لايشير بكبتها وقتلها، ولكن إلى ضبطها وتنظيمها، وتخفيف حدتها واندفاعها، وإلى أن يكون الإنسان مالكًا لها متصرفًا فيها ، لا أن تكون مالكةً له متصرفةً فيه؛ وإلى تقوية روح التسامي فيه والتطلع إلى ما هو أعلى.

- إن الأصل في طبيعة حياة المؤمنين أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق

---

(١) في ظلال القرآن ٢ / ٩٣٠ - ٩٣١.

الآخرة؛ وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا. هذا الطريق هو الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في الحياة الدنيا.

* * *

المبحث الثاني
صفات المؤمنين في الحياة الدنيا

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

يبين الله سبحانه في هذه الآيات صفات المؤمنين في الحياة الدنيا، فهم الذين كتب لهم الفلاح «.. الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة. فلاح الفرد المؤمن. وفلاح الجماعة المؤمنة. الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه في واقع حياته؛ والذي يشمل مايعرفه الناس من معاني الفلاح، وما لايعرفونه مما يدخره الله لعباده المؤمنين»[٢].

فمن صفات هؤلاء المؤمنين الذين كتب الله عز وجل لهم هذه الوثيقة ما يلي:

---

(١) سورة المؤمنون: ١ ـ ١١.

(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٥٣.

(١) الخشوع في الصلاة:

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾[١] .

قال الراغب الأصفهاني: «الخشوع: الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح. والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب»[٢] .

وقال الزهري عند هذه الآية: «سكون المرء في صلاته. وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك البصر، وخفضوا به الجناح»[٣] .

وحقيقة الخشوع السكون على حالة الإقبال التي تأهّب لها واحترم بها بالسر في الضمير، وبالجوارح في الظاهر؛ فقد كان النبي - ﷺ - لايلتفت في صلاته خاشعًا خاضعًا، وكذلك كان أبو بكر لايلتفت، وكذلك كان حفيده عبد الله بن الزبير[٤] .

وقد ورد في فضائل الخشوع في الصلاة أخبار كثيرة مشهورة، فمنها:

- ما روي عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال: «**ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا**

---

(١) سورة المؤمنون: ٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن، ص: ١٤٨.

(٣) تفسير الطبري ٩ / ١٩٧، وانظر: تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٦، وتفسير الدر المنثور ٥ / ٥.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٣١٢.

كانت كفّارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة، وذلك الدهر كله»[١] .

- وله في حديث أيضًا عن النبي - ﷺ - أنه قال: «**من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قام فركع ركعتين لايحدث فيهما نفسه**[٢] **غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٣].

والخشوع مطلوب على المرء في الصلاة لوجوه:

أ- للتدبر فيما يقرأ، كما قال تعالى: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾[٤] ، والتدبر لايكون بدون الوقوف على المعنى، كما قال سبحانه: ﴿ **أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾[٥] .

ب- لتذكر الله والخوف من وعيده، كما قال عز وجل: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾[٦] .

جـ- إن للصلاة أركانًا وواجبات وسننًا، وروحها النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب، فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لايحصل المقصود بالأذكار والمناجاة، لأن النطق إذا لم يعرب عما في الضمير كان بمنزلة الهذيان، وكذلك لايحصل المقصود من

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، رقم الحديث: ٧ (٢٢٨)، صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ١١٢ .

(٢) أما قوله: «لايحدّث فيهما نفسه» فالمراد: لايحدث بشيء من أمور الدنيا، وما لايتعلق بالصلاة، ولو عرض له حديث فأعرض عنه بمجرد عروضه عفي عن ذلك، وحصلت له هذه الفضلية إن شاء الله تعالى، لأن هذا ليس من فعله، وقد عفي لهذه الأمة عن الخواطر التي تعرض ولاتستقر (شرح النووي ٣/ ١٠٨).

(٣) صحيح مسلم كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، رقم الحديث: ٣ (٢٢٦) صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ١٠٨ .

(٤) سورة محمد: ٢٤ .

(٥) سورةالمزمل: ٤ .

(٦) سورة طه: ١٤ .

الأفعال، لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم، ولو لم يكن القلب حاضراً لم يحصل المقصود، فإن الفعل متى خرج عن مقصوده بقي صورة لا اعتبار بها، قال الله تعالى: ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ** ﴾[1] ، والمقصود أن الواصل إلى الله سبحانه وتعالى هو الوصف الذي استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة، فلابد من حضورالقلب في الصلاة، ولكن سامح الشارع في غفلة تطرأ، لأن حضور القلب في أولها ينسحب حكمه على باقيها[2] .

(٢) الإعراض عن اللغو:

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ﴾[3] .

قال ابن كثير: « أي: عن الباطل، وهو يشتمل على الشرك، ـ كما قاله بعضهم ـ ، والمعاصي ـ كما قاله آخرون ـ ، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** ﴾[4] »[5] .

وقال النسفي: « اللغو كل كلام ساقط حقه أن يلغى، كالكذب، والشتم والهزل، يعني أن لهم من الجد ما شغلهم عن الهزل، ولمّا وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو؛ ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس، اللذَين هما قاعدتا بناء التكليف»[6] .

---

(١) سورة الحج: ٣٧.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، ص: ٢٦، وانظر: تفسير المراغي ٦ / ٥.

(٣) سورة المؤمنون: ٣.

(٤) سورة الفرقان: ٧٢.

(٥) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٧.

(٦) تفسير النسفي، وانظر: تفسير الكشاف ٣ / ٢٦.

وقال صاحب الظلال عند هذه الآية: «. . . لغو القول، ولغو الفعل، ولغو الاهتمام والشعور. إن للقلب المؤمن ما يشغله عن اللغو واللهو والهذر. . له ما يشغله من ذكر الله، وتصور جلاله وتدبر آياته في الأنفس والآفاق، وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق اللب، ويشغل الفكر ويحرك الوجدان. . وله ما يشغله من تكاليف العقيدة: تكاليفها في تطهير القلب، وتزكية النفس وتنقية الضمير؛ وتكاليفها في السلوك، ومحاولة الثبات على المرتقى العالي الذي يتطلبه الإيمان؛ وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف؛ وتكاليفها في الجهاد لحمايتها ونصرتها وعزتها، والسهر عليها من كيد الأعداء. . وهي تكاليف لاتنتهي، ولايغفل عنها المؤمن، ولايعفي نفسه منها، وهي مفروضة عليه فرض عين أو فرض كفاية، وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري والعمر البشري.

والطاقة البشرية محدودة، وهي إما أن تنفق في هذا الذي يصلح الحياة وينميها ويرقيها؛ وإما أن تنفق في الهذر واللغو واللهو. والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته إلى إنفاقها في البناء والتعمير والإصلاح.

ولاينفي هذا أن يروح المؤمن عن نفسه في الحين بعد الحين. ولكن هذا شيء آخر غير الهذر واللغو والفراغ. . »[١].

(٣) تطهيرهم لأنفسهم بأداء الزكاة:

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ** ﴾[٢].

---

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٥٤-٢٤٥٥.

(٢) سورة المؤمنون: ٤. قال ابن كثير: «الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن التي =

قال أبو السعود: «وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة، للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القاصية من القيام بالطاعات البدنية والمالية، والتجنب عن المحرمات وسائر مايوجب المروءة اجتنابه . . . »[(١)] .

والزكاة تطهر المؤمنين في حياتهم الدنيا من دنس البخل والطمع والقسوة على الفقراء البائسين، وتزكي أنفسهم بها وترفعهم إلى منازل الأبرار بفعل الخيرات، حتى يكونوا أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية. قال تعالى: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[(٢)] .

والزكاة برهان على صدق إيمان فاعلها، ولذلك سميت الزكاة صدقة، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾[(٣)] .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ في حديثه الشريف: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن**

= فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة، قال تعالى في سورة الأنعام ـ وهي مكية ـ: ﴿ **وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** . . . ﴾ الآية: ١٤١ . (تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٧).

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٢٤ .

(٢) سورة التوبة: ١٠٣ .

(٣) سورة التوبة: ٦٠ .

حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[١] .

قوله: «**والصدقة برهان**» معناه: الصدقة حجة على إيمان فاعلها، فإن المنافق يمتنع منها لكونه لايعتقده، فمن تصدق استدل بصدقته على صدق إيمانه، والله أعلم[٢] .

فالمؤمنون في حياتهم الدنيا يصونون بالزكاة الجماعة من الخلل الذي ينشئه الفقر في جانب والترف في جانب، فهي تأمين اجتماعي للأفراد جميعًا، وهي ضمان اجتماعي للعاجزين، وهي وقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال.

(٤) حفظ الفرج:

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ** ﴾[٣] .

ومن صفات المؤمنين في الحياة الدنيا أنهم يحفظون فروجهم في كافة الأحوال، إلا في حال إتيانهم أزواجهم وما ملكت أيمانهم.

يقول ابن عباس في تفسير هذه الآية: «رضي الله لهم إتيانهم أزواجهم وما ملكت أيمانهم»[٤] .

---

(١) رواه مسلم كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم الحديث: ١ (٢٢٣)، بشرح النووي ٣ / ١٠٠.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ١٠١.

(٣) سورة المؤمنون: ٥-٧.

(٤) تفسير الطبري ٩/ ١٩٩.

والمؤمنون قوم يحبون العفة، ويحافظون على طهارتهم بمعناها الشامل. «وهذه طهارة الروح والبيت والجماعة، ووقاية النفس والأسرة والمجتمع بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلال، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير حلال، وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب، ومن فساد البيوت فيها والأنساب.

والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب، جماعة معرضة للخلل والفساد؛ لأنه لا أمن فيها للبيت، ولا حرمة فيها للأسرة. والبيت هو الوحدة الأولى في بناء الجماعة؛ إذ هو المحضن الذي تنشأ فيه الطفولة وتدرج، ولابد له من الأمن والاستقرار والطهارة، ليصلح محضنًا ومدرجًا، وليعيش فيه الوالدان مطمئنًا كلاهما للآخر، وهما يرعيان ذلك المحضن، ومن فيه من فراخ[(١)]»[(٢)].

«وحفظ الفرج يشمل أيضا تجنب إتيان الزوجة في الدبر، وفي أثناء الحيض؛ (ويلاحظ أن هذه أنشطة ضارة أو شاذة بالمقاييس الطبية الحديثة)، وفي أثناء الصيام، والإحرام.

وحفظ الفرج يقتضي سد الذرائع، أي تجنب السبل التي تفضي إليه. ولهذا أمر القرآن المسلمين والمسلمات بغضّ البصر، وعدم إبداء الزينة، فذلك أزكى لهنّ وأطهر»[(٣)]، قال تعالى: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**

---

(١) والفراخ جمع الفَرْخ، وهو ولد الطائر، هذا الأصل، وقد استعمل في كل صغير من الحيوان والنبات والشجر وغيرها (انظر: لسان العرب ٣ / ٤٢).

(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٥٥.

(٣) الفضائل الخلقية في الإسلام، لأحمد عبد الرحمن إبراهيم، ص: ٢٤٤.

وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ . . . ﴾[١] .

ولكي يمكّن الإسلام من الممارسة الفعلية لحفظ الفرج والعفة، فإنه يراعي الأمور التالية:

أ ـ إن الإسلام لم يجعل الزواج أبديًا كالمسيحية مثلاً، فأباح الطلاق إذا وقع النفور بين الزوجين، وعند عجز الزوج أو مرضه أو إعساره أو غيبته.

ب ـ أباح للزوج الطلاق، والتزوج بأكثر من واحدة على أن يعدل بينهن.

جـ ـ أمر الذي لايستطيع مؤن النكاح بالصوم، ليدفع شهوته، ويحفظ فرجه وعفته، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء**»[٢] .

«وبهذا فتحت الشريعة للمحصن كل أبواب الحلال، وأغلقت دونه باب الحرام»[٣] . «وفضلاً عن هذا فإن المجتمع الإسلامي الحقيقي يخالف المجتمعات القائمة جذريًا لصالح العفة؛ فنظمه وقوانينه تعاون الرجال والنساء على التعفف»[٤] .

---

(١) سورة النور: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه، رقم الحديث ١ (١٤٠٠)، بشرح النووي ٩ / ١٧٢ .

(٣) التشريع الجنائي الإسلامي ١ / ٦٤٢ .

(٤) الفضائل الخلقية في الإسلام، لعبد القادر عودة، ص: ٢٤٥ .

(٥) رعاية الأمانة والعهد:

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ** ﴾[١] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ـ ﷺ ـ : «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[٢] .

الأمانة فطرية ومكتسبة:

والأمانة ليست من صفات المؤمنين فحسب، بل إنها فطرية ومكتسبة. «إن الأمانة ذات جذور أصلية في فطرة الإنسان؛ وذلك لأن الأمانة مرتبطة بالحق كما عرفنا، والأصل في فطرة الإنسان إقراره بالحق، وكراهيته العدوان على حقوق الآخرين، والأمانة فرع عن هذا الأصل.

ثم تأتي التربية الخلقية القويمة التي ينشأ عليها الإنسان فتدعم أصل فطرته، حتى تصبح الأمانة لديه خلقًا بارزًا قويًا فعالاً، بعد أن كانت ميلاً فطريًا لا يزيد على أنه يعطي ترجيحًا يسيرًا، لما قد تأتي التربية المفسدة فتحول هذه الفطرة عن أصولها، وتغذي الإنسان بخلق آخر مناف لخلق الأمانة. فالأمانة في الأصل تمثل ميلاً فطريًا في الإنسان قابلاً للتنمية . . . »[٣] .

---

(١) سورة المؤمنون: ٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٧. والحديث رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، فتح الباري ١ / ١١. ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، شرح النووي ٢/ ٤٦.

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها، لعبد الرحمن الميداني ١ / ٥٩٧.

أنواع الأمانة:

لدى تتبع آيات القرآن الكريم، نجد نصوصًا كثيرة تأمر بالأمانة، فمنها ما هو عام، ومنها ماهو خاص في مجال من المجالات التي تدخل فيها الأمانة. فالأمانات كثيرة في عنق الفرد وفي عنق الجماعة:

١ ـ **وفي أولها**: أمانة الفطرة، وقد فطرها الله مستقيمة متناسقة مع ناموس الوجود الذي هي منه وإليه، شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته. . . والمؤمنون في حياتهم الدنيا يرعون تلك الأمانة الكبرى، فلايدعون فطرتهم تنحرف عن استقامتها، فتظل قائمة بأمانتها شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته. ثم سائر الأمانات تبعًا لتلك الأمانة الكبرى، قال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[(١)].

قال ابن كثير: «. . . إنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لاإله غيره»[(٢)].

والعهد الأول هو عهد الفطرة كذلك. هو العهد الذي قطعه الله على فطرة البشربالإيمان بوجوده وتوحيده. وعلى هذا العهد الأول تقوم جميع العهود والمواثيق. فكل عهد يقطعه المؤمن يجعل الله شهيدًا عليه فيه، ويرجع في الوفاء به إلى تقوى الله وخشيته، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن**

(١) سورة الروم: ٣٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٠.

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾[١] .

٢ ـ ومن الأمانات : إسناد الحكم إلى أهله :

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾[٢] .

وقد وردت نصوص كثيرة من أقوال الرسول ـ ﷺ ـ تبين أن إسناد الحكم إلى أهله أمانة ، وأن الحكم بنفسه هو أمانة أيضًا ، فمنها :

أ ـ ما روي عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله ، ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي ، ثم قال : «**يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**»[٣] .

«فسمى الرسول ـ ﷺ ـ الولاية في هذا الحديث أمانة ؛ لأن تأدية حقها بالعدل ، وعدم الاستغلال الشخصي فيها ، واليقظة على مصالح الناس ، كل ذلك لايكون إلا بخلق الأمانة»[٤] .

ب ـ ما روي عن أبي هريرة قال : بينما كان النبي ـ ﷺ ـ يحدث إذ جاء أعرابي فقال : متى الساعة؟ قال : «**إذ ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**» قال :

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٢ .

(٢) سورة النساء : ٥٨ .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة ، رقم الحديث : ١٦ (١٨٢٥) بشرح النووي ١٢ / ٢٠٩ .

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها ١ / ٦٠٥ .

كيف إضاعتها؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : **«إذا وسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»**(١) .

٣ـ الأمانة في مجال الحقوق المالية :

قال تعالى : ﴿ **وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾(٢) .

ونكتفي بهذا القدر في ذكر أنواع الأمانة، وإلا فالأمانات كثيرة. فالمؤمنون في حياتهم الدنيا ـ وفي حياتهم الآخرة ـ مسؤولون عن أماناتهم العامة، مسؤولون عن عهدهم مع الله تعالى، وما يترتب على هذا العهد من تبعات. «والنص يجمل التعبير ويدعه يشمل كل أمانة وكل عهد، ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون، فهي صفة دائمة لهم في كل حين. وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات، وترعى فيها العهود، ويطمئن كل من فيها إلى هذه القاعدة الأساسية للحياة المشتركة، الضرورية لتوفير الثقة والأمن والاطمئنان»(٣) .

(٦) المحافظة على الصلوات:

قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** ﴾(٤). أي : «والذين هم

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من سئل علمًا وهو مشتغل في حديثه .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٥٦ .

(٤) سورة المؤمنون : ٩ .

على أوقات صلاتهم يحافظون، فلا يضيعونها، ولايشتغلون عنها حتى تفوتهم، ولكنهم يراعونها حتى يؤدونها فيها»[(١)] .

«روي عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله - ﷺ - أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: « **بر الوالدين**»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله** »، فما تركتُ أستزيده إلا إرعاءً عليه»[(٢)] .

وقال صاحب الكشاف: «ووصفوا أولاً بالخشوع في صلاتهم، وآخرًا بالمحافظة عليها، وذلك أن لايسهوا عنها، ويؤدوها في أوقاتها، ويقيموا أركانها، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها، وبما ينبغي أن تتم به أوصافها. وأيضًا فقد وحدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة، أيّ صلاةٍ كانت، وجمعت آخرًا لتفاد المحافظة على أعدادها؛ وهي الصلوات الخمس، والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة، وصلاة الجمعة، والعيدين، والجنازة... وغيرها من النوافل»[(٣)] .

وقال المراغي: «وقد افتتح سبحانه هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة، دلالة على عظيم فضلها، وكبير مناقبها[(٤)]»[(٥)]، وخطورة

---

(١) تفسير الطبري ٩ / ٢٠٠ .

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم الحديث: ١٣٧ (٨٥)، بشرح النووي ٢ / ٧٣ .

(٣) تفسير الكشاف ٣ / ٢٧ .

(٤) أي آثارها (انظر: لسان العرب ١ / ٧٦٦).

(٥) تفسير المراغي ٦ / ٦ .

أمرها، فقد ورد في الحديث الشريف قوله ـ ﷺ ـ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»(١) .

تلك الصفات تميز المؤمنين عن غيرهم، «وتلك الخصائص تحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح . وهي خصائص ذات أثر حاسم في تحديد خصائص الجماعة المؤمنة ونوع الحياة التي تحياها، الحياة الفاضلة اللائقة بالإنسان الذي كرمه الله، وأراد له التدرج في مدارج الكمال، ولم يرد له أن يحيا حياة الحيوان، يستمتع فيها ويأكل كما تأكل الأنعام .

ولما كانت الحياة في هذه الأرض لاتحقق الكمال المقدر لبني الإنسان، فقد شاء الله أن يصل المؤمنون الذين ساروا في الطريق، إلى الغاية المقدرة لهم، هنالك في الفردوس، دار الخلود بلا فناء، والأمن بلا خوف، والاستقرار بلا زوال»(٢) : ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾(٣) .

ومن صفات المؤمنين في الحياة الدنيا ما ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة الفرقان، قال تعالى: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا**

---

(١) رواه أحمد ٥ / ٣٤٦ .
(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٥٧ .
(٣) سورة المؤمنون: ١٠ ـ ١١ .

سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[١] .

هذه صفات عباد الله المؤمنين في الحياة الدنيا، الذين استوجبوا المثوبة منه، وجازاهم على ذلك الجزاء العظيم، فمن هذه الصفات :

١ ـ السكينة والوقار:

قال تعالى : ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا . . .**﴾[٢] أي : بالسكينة والوقار غير مستكبرين، ولا متجبرين، ولا ساعين فيها بالفساد ومعاصي الله[٣]. فالمؤمنون قوم لايريدون في الأرض علواً، ولايبغون فيها

---

(١) سورة الفرقان : ٦٣ ـ ٧٦ .

(٢) سورة الفرقان : ٦٣ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٩ / ٤٠٧، وتفسير ابن كثير ٣ / ٢٧٩، وتفسير الدر المنثور ٥/ ١٤٠ .

كذلك فساداً، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

قال ابن كثير في بيان المعنى الصحيح للسكينة والوقار: « وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعًا ورياًء، فقد كان سيد ولد آدم ـ ﷺ ـ إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع . . »[2] .

وبما سبق يتبين لنا أن المؤمنين في الحياة الدنيا يتميزون عن غيرهم بالسكينة والوقار والتواضع، فهم لايستكبرون، ولايتجبرون، ولايسعون فيها بالفساد، وذلك لأن الكبر له خطورته البالغة على الحياة البشرية. فلا يبقى في حالة وجود الكبر احترام لأحد، ولا هيبة لأحد، ولا حرمة لأحد، ولا أدب مع أحد.

٢ ـ الحلم[3] :

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾[4] .

عن الحسن البصري: «هم حلماء لايجهلون، وإن جُهل عليهم حلموا ولم يسفهوا، هذا نهارهم، فكيف ليلهم؟ خير ليل؛ صفوا أقدامهم، وأجروا دموعهم على خدودهم، يطلبون إلى الله جل ثناؤه

---

(١) سورة القصص: ٨٣.
(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٧٩.
(٣) الحلم: إمساك النفس عن هيجان الغضب، والتحلم: إمساكها عن قضاء الوطر (الحاجة) منه إذا هاج (الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني، ص: ٣٤٢).
(٤) سورة الفرقان: ٦٣.

في فكاك رقابهم»[١] .

والحلم من الخصال المحمودة التي يحبها الله عز وجل، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : لأثج[٢] عبد القيس : «**إن فيك خصلتين يحبهما الله؛ الحلم والأناة**»[٣] .

والمؤمنون قوم يحبون العفو والصفح، فإذا سفه عليهم الجاهلون بالقول السيئ لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولايقولون إلا خيرًا، «فهم لايلتفتون إلى حماقة الحمقى وسفه السفهاء، ولايشغلون بالهم ووقتهم وجهدهم بالاشتباك مع السفهاء والحمقى في جدل أو عراك، ويترفعون عن المهاترة مع المهاترين[٤] الطائشين[٥] : ﴿ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا** ﴾ ، لا عن ضعف ولكن عن ترفع، ولا عن عجز، إنما عن استعلاء، وعن صيانة للوقت والجهد أن ينفقا فيما لا يليق بالرجل الكريم المشغول عن المهاترة بما هو أهم وأكرم وأرفع»[٦] .

٣ ـ إحياء الليل بالصلاة:

ومن صفات عباد الله المؤمنين في الحياة الدنيا إحياؤهم الليل أو أكثره

(١) تفسير الطبري ٩/ ٤٠٩، وانظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٩، وتفسير الدر المنثور ٥/ ١٤١ .

(٢) اسمه: المنذر بن عائذ، هذا الصحيح المشهور الذي قاله ابن عبد البر والأكثرون (صحيح مسلم شرح النووي ١/ ١٨٩).

(٣) رواه مسلم كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله . . . ، رقم الحديث: ٢٥، ٢٦ (١٨) شرح النووي ١/ ١٨٩ .

(٤) المهاترون: المبطلون في القول والمسقطون في الكلام (انظر: لسان العرب ٥/ ٢٥٠).

(٥) الطيش: خفة العقل (لسان العرب ٦/ ٣١٢).

(٦) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٧٨ .

بالصلاة والطاعة، وقد ذكر الله سبحانه هذه الصفة للمؤمنين في آيات كثيرة، منها:

- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[1].

- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2].

- وقوله سبحانه: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[3].

وهم في صلاتهم وعبادتهم تمتلئ قلوبهم بالتقوى، والخوف من عذاب جهنم، فهم يتوجهون إلى ربهم تضرعًا وخفية، ليصرف عنهم عذابها. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[4].

«وخص العبادة بالبيتوتة؛ لأن العبادة بالليل أبعد عن الرياء، وأفرغ قلبًا، وأجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش»[5]. قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ

---

(١) سورة الفرقان: ٦٤.

(٢) سورة السجدة: ١٥ـ ١٦.

(٣) سورة الذاريات: ١٧ـ ١٨.

(٤) سورة الفرقان: ٦٥ـ ٦٦.

(٥) انظر: تفسير الطبري ١٢ / ٢٨٤، وتفسير ابن كثير ٤ / ٣٨٠، وتفسير المراغي ٧ / ٣٧.

أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾(١) .

قال صاحب الظلال : « . . . فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش ، بعد كد النهار ، أشد وطأ وأجهد للبدن ؛ ولكنها إعلان لسيطرة الروح ، واستجابة لدعـــوة الله ، وإيثار للأنس به ، ومن ثم فإنها أقوم قيلاً ؛ لأن للذكر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجاة فيها شفافيتها . وإنها لتكسب في القلب أنسًا وراحة وشفافية ونورًا ، قد لايجدها في صلاة النهار وذكره . . والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره ، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه ، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحًا واستعدادًا وتهيؤًا ، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيرًا فيه »(٢) .

---

(١) سورة المزمل : ٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٤٦ .

ـ وجدير بالذكر هنا أن الإسلام لم يطلب من المسلم أن يقوم الليل كله ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) ﴾ [سورة المزمل : ١ ـ ٤] ، بل للراحة نصيبها أيضًا ، ذلك لأن من رحمته تعالى بعباده أن جعل نومهم في الليل قطعًا للمتاعب التي يكابدونها في النهار ، سعيًا في تحصيل أمور المعاش ، فالمشاهد أن في نوم بضع ساعات في الليل راحة للقوى من تعبها ، ونشاطًا لها من كسلها ، وإعادة لما فقد منها ، ولولا ذلك لنفدت القوى ، وانقطع المرء عن العمل في شؤون الحياة المختلفة .

ـ فمنهج الإسلام في ذلك الأمر يتميز بالتوازن ؛ فهو يوازن بين الروح والجسم ، ولكل منهما على الإنسان حق . ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو ، قال : دخل عليّ رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : **«ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟** قلت : بلى . قال: **فلا تفعل، قم ونم، وصم وأفطر، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزَورك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا..»** صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب حق الضعيف ، رقم الحديث : ٦١٣٤ ، فتح الباري ١٠ / ٥٤٧ ـ ٥٤٨ .

٤ ـ القصد والاعتدال في الإنفاق:

ومن صفات المؤمنين في الحياة الدنيا القصد والاعتدال والتوازن في الإنفاق، فهم ليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فلاينفقون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم، فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) ... وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[٢].

المراد بالإسراف والإقتار في هذا الموضع:

قال ابن جرير الطبري: «اختلف أهل التأويل في النفقة التي عناها الله في هذا الموضع، وما الإسراف فيها والإقتار؟:

ـ فقال بعضهم: الإسراف: ما كان من نفقة في معصية الله وإن قلّت. قال: وإياها عنى الله، وسماها إسرافًا. قالوا: والإقتار: المنع من حق الله. وذهب إلى هذا القول ابن عباس وابن زيد وعمر مولى غُفرة ـ رضي الله عنهم ـ.

---

(١) سورة الفرقان: ٦٧.

(٢) سورة الإسراء: ٢٦، ٢٧، ٢٩.

ـ وقال آخرون: السرف: المجاوزة في النفقة الحد؛ والإقتار: التقصير عن الذي لابد منه. وأصحاب هذا القول إبراهيم وأبو عبد الله المخزومي المكي.

ـ وقال آخرون: الإسراف: هو أن تأكل مال غيرك بغير حق.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك، قول من قال: الإسراف في النفقة الذي عناه الله في هذا الموضع: ما جاوز الحد الذي أباحه الله لعباده إلى ما فوقه، والإقتار: ما قصر عما أمر الله به، والقوام: بين ذلك»(١).

وبمناسبة هذا الموضوع يقول الراغب الأصفهاني: «الإنفاق ضربان: ممدوح ومذموم.

ـ فالممدوح منه ما يكسب صاحبه العدالة. وهو بذل ما أوجبت الشريعة بذله، كالصدقة المفروضة، والإنفاق على العيال؛ ومنه ما يكسب صاحبه أجرًا، وهو الإنفاق على من ألزمت الشريعة الإنفاق عليه...

ـ والمذموم ضربان: إفراط: وهو التبذير والإسراف، وتفريط: وهو التقتير والإمساك، وكلاهما يراعى فيه الكيفية والكمية.

فالتبذير من جهة الكمية أن يعطي أكثر مما يحتمله حاله، ومن جهة الكيفية فبأن يضعه في غير موضعه، والاعتبار فيه بالكيفية أكثر منه بالكمية، فرب منفق درهمًا من ألوف وهو في إنفاقه مسرف، وببذله مفسد ظالم، كمن أعطى فاجرة درهمًا، أو اشترى خمرًا.

---

(١) تفسير الطبري ـ باختصار ـ ٩ / ٤١١ ـ ٤١٢.

ورب منفق ألوفًا لايملك غيرها هو فيها مقتصد وبيذلها مجتهد، كما روي في شأن الصديق أبي بكر - رضي الله عنه -[١] .

والتقتير من جهة الكمية أن ينفق دون ما يحتمله حاله، ومن حيث الكيفية أن يمنع من حيث يجب، ويضع حيث لايجب. . »[٢] .

وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾[٣] :

«وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات؛ ويتجه إليها في التربية والتشريع، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال.

والمسلم - مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية المقيدة - ليس حرًا في إنفاق أمواله الخاصة كيف يشاء - كما هو الحال في النظام الرأسمالي، وعند الأمم التي لايحكم التشريع الإلهي حياتها في كل ميدان - إنما هو مقيد بالتوسط في الأمرين؛ الإسراف والتقتير، فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله، فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية. والإسراف والتقتير يحدثان اختلالاً في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي، وحبس الأموال يحدث أزمات، ومثله إطلاقها بغير حساب. ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق.

والإسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس الفرد، فيجعل

---

(١) والرواية وردت في الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر (٥/ ٦١٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص: ٤٠٩ .

(٣) سورة الفرقان: ٦٧ .

الاعتدال سمة من سمات الإيمان: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾»[١] .

٥ ـ عدم الشرك بالله، والتحرج عن قتل النفس، والزنا[٢]:

ومن صفات عباد الله المؤمنين في الحياة الدنيا أنهم لايشركون بالله، بل يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة، ولايقتلون النفس إلا بالحق الذي يزيل حرمتها وعصمتها، كالكفر بالله بعد إسلامها، أو الزنا بعد إحصانها، أو قتل النفس، فتقتل بها.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي

---

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٥٧٨ ـ ٢٥٧٩.

(٢) جعلت هذه الثلاث عنوانًا واحدًا، وذلك لكثرة ورودها في موضع واحد من النصوص القرآنية، ومن أمثلة ذلك:

أ ـ ما ورد في سورة الأنعام، الآية: ١٥١، قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

ب ـ ما ورد في سورة الفرقان، الآية: ٦٨، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾.

جـ ـ ما ورد في سورة الممتحنة، الآية: ١٢، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

كما أن هذه الثلاث أمهات المعاصي التي هي الفحشاء والمنكر، وأن ذكرها خاصة في موضع واحد، ليدل ذلك على مزيد الاهتمام الدال على الإعظام (انظر: تفسير البقاعي ١٣/ ٤٢٥ ـ ٤٢٧).

حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾[(١)] .

روى مسلم بسنده . . عن عمرو بن شرحبيل قال: قال عبد الله: قال رجل: يا رسول الله، أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «**أن تدعو لله ندًا وهو خلقك**». قال: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**». قال: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»، فأنزل الله عز وجل تصديقها: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا**﴾[(٢)]»[(٣)] .

ولخطورة تلك الكبائر المنكرات التي تستحق العذاب الأليم، فقد أكّد الله سبحانه النهي عن ارتكابها في موضع آخر، حيث يقول في النهي عن الشرك، والتحذير من عاقبته: ﴿**لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً**﴾[(٤)] .

قال ابن كثير: «يقول تعالى والمراد المكلفون من الأمة: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك شريكًا ﴿**فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا**﴾ أي: على إشراكك به ﴿**مَّخْذُولاً**﴾؛ لأن الرب تعالى لاينصرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه

---

(١) سورة الفرقان: ٦٨ ـ ٧١.

(٢) سورة الفرقان: ٦٨.

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب بيان كون الشك أقبح الذنوب، رقم الحديث: ١٤٢ (. . .) شرح النووي ٢/ ٨٠.

(٤) سورة الإسراء: ٢٢.

وهو لايملك لك ضراً ولا نفعًا؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لاشريك له»[١].

ويقول سبحانه في النهي عن قتل النفس والزنا: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾[٢].

«وبين قتل الأولاد والزنا صلة ومناسبة، وقد توسط النهي عن الزنا بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس لذات الصلة وذات المناسبة.

إن في الزنا قتلاً من نواحٍ شتى:

- إنه قتل ابتداءً؛ لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعه، يتبعه غالبًا الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق، قبل مولده أو بعد مولده، فإذا ترك الجنين للحياة ترك في الغالب لحياة شريرة، أو حياة مهينة، فهي حياة مضيعة في المجتمع على نحو من الأنحاء..

- وهو قتل في صورة أخرى، قتل للجماعة التي يفشو فيها، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء، وتذهب الثقة في العرض والولد، وتحلل الجماعة وتتفكك روابطها، فتنتهي إلى ما يشبه الموت بين الجماعات.

- وهو قتل للجماعة من جانب آخر، إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لاضرورة لها، ويجعل الأسرة تبعة لاداعي إليها،

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢.

(٢) سورة الإسراء: ٣١-٣٣.

والأسرة هي المحضن الصالح للفراخ الناشئة، لاتصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه. . .

ومن أجل أن هذه الصفات الثلاثة ـ عدم الشرك بالله، والبعد عن قتل النفس، والزنا ـ مفرق الطريق بين الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله؛ والحياة الرخيصة الغليظة الهابطة إلى درك الحيوان. . من أجل ذلك ذكرها الله في سمات عباد الرحمن المؤمنين أرفع الخلق عند الله وأكرمهم على الله، وعقب عليها بالتهديد الشديد: ﴿ . . . **وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا** ﴾[1]»[2].

٦ ـ عدم شهادة الزور[3]:

ومن صفات المؤمنين في الحياة الدنيا أنهم لايؤدون شهادة الزور، ولايساعدون أهل الباطل على باطلهم.

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ**[4] **مَرُّوا كِرَامًا** ﴾[5].

وشهادة الزور من أكبر الكبائر، فقد صرح بذلك رسول الله ـ ﷺ ـ في

---

(١) سورة الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤ / ٢٢٢٤، ٥ / ٢٥٧٩.

(٣) الزور في اللغة: الكذب والباطل، وهو يدل على معنى الميل؛ والكذب والباطل ميل عن الحق والصدق (انظر: المفردات في غريب القرآن ص: ٢١٧).

(٤) وقد سبق ذكر هذه الصفة، انظر ص: ٤٣٠.

(٥) سورة الفرقان: ٧٢.

حديث رواه مسلم بسنده. . . عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، قال: كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـ ثلاثًا ـ: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور،** ـ أو قول الزور ـ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ متكئًا فجلس، فما زال يكرّرها حتى قلنا: ليتَه سكت»[(١)] .

إن شهادة الزور فيها الخطورة الشديدة في حياة الناس، وذلك «لأن الأصل في الشهادة أن تكون سندًا لجانب الحق، ومعينة للقضاء على إقامة العدل، والحكم على الجناة الذين تنحرف بهم أهواؤهم وشهواتهم، فيظلمون أو يبغون، أو يأكلون أموال الناس بالباطل، فإذا تحولت الشهادة عن وظيفتها فكانت سندًا للباطل، ومضللة للقضاء، حتى يحكم بغير الحق، استنادًا إلى ما تضمنته من إثبات، فإنها تحمل حينئذ إثم جريمتين كبريين في آن واحد:

ـ الجريمة الأولى: عدم تأديتها وظيفتها الطبيعية الأولى.

ـ الجريمة الثانية: قيامها بجريمة إيجابية، تهضم فيها الحقوق، ويظلم فيها البرآء، ويستعان بها على الإثم والبغي والعدوان.

فالجريمة في كل ذلك بجريمتين، والظلم بظلمين، ولكل من أصحاب هذه الجرائم كفلان من العتاب.

ولذلك قرن الله تبارك وتعالى التحذير من قول الزور بالتحذير من الشرك بالله فقال تعالى: ﴿ ... **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ**

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الكبائر وأكبرها، رقم الحديث: ١٤٣ (٨٧)، بشرح النووي ٢ / ٨١.

الزُّورِ﴾[١]»[٢].

فالمؤمنون في الحياة الدنيا لايضيعون الحقوق، ولايساعدون على الظلم، بل يحرصون على الفرار من مجرد الوجود في مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه، ترفعًا منهم عن شهود مثل هذه المجالس والمجالات، وهذه صفة يتميز بها المؤمنون عن غيرهم من الناس.

٧ ـ الانتفاع بموعظة القرآن:

ومن صفات المؤمنين في الحياة الدنيا أنهم إذا وعظوا بالقرآن لم يصموا عن الحق ولم يَعْموا فيه، فهم قوم عقلوا عن الحق، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه.

قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا**﴾[٣].

وقال عز وجل: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾[٤].

وقال سبحانه: ﴿... **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾[٥].

قال ابن كثير: «وهذه صفة المؤمن حق الإيمان الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أوامره وترك زواجره..»[٦].

---

(١) سورة الحج: ٣٠.

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ١ / ٤٩٩.

(٣) سورة الفرقان: ٧٣.

(٤) سورة الأنفال: ٢.

(٥) سورة التوبة: ١٢٤.

(٦) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٤٨.

وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾: «والقلب المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيمانًا، وما ينتهي به إلى الاطمئنان.. إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلا وساطة، ولا يحول بينه وبينه شيء إلا الكفر الذي يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه؛ فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن، وجد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان..»(١).

وذلك بخلاف الكافرين والمنافقين، فإنهم إذا سمعوا القرآن لم يتأثروا به، ولم يتغيروا عما كانوا عليه، بل يبقون مستمرين على كفرهم وعصيانهم، وجهلهم وضلالهم، فكأنهم صمّ لا يسمعون، وعمي لا يبصرون.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾(٢).

ويقول سبحانه: ﴿ ... وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا .. ﴾(٣).

٨ ـ الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله، والرغبة في أن يكونوا قدوة للخير:

ومن صفات عباد الرحمن المؤمنين أنهم يرغبون في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله، وفي مقدمتهم الذرية التي تسير على نهجهم، والأزواج التي

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٧٥.

(٢) سورة التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٣) سورة المائدة: ٦٤.

شاركتهم في طاعة الله، فَتقرُّ بهم عيونهم، وتطمئن بهم قلوبهم، ويتضاعف بهم عدد عباد الرحمن المؤمنين، ويرجون أن يجعل الله منهم قدوة حسنة للمتقين، بما يفيض عليهم من العلم النافع، وبما يوفقهم إليه من العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾[1] .

«سئل الحسن البصري عن هذه الآية، فقال: أن يري الله العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حميمه، طاعة الله، لا والله لاشيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدًا، أو ولد ولد، أو أخًا أو حميمًا مطيعًا لله عز وجل»[2] .

«وقال ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله تعالى: ﴿ **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾: «أئمة هدى يهتدى بنا، ولا تجعلنا أئمة ضلالة؛ لأنه قال لأهل السعادة: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ...** ﴾[3] ، ولأهل الشقاوة: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ** ﴾[4]»[5] .

وقال آخرون: «هداة مهتدين دعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعديًا إلى غيرهم

---

(١) سورة الفرقان: ٧٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٣، وانظر: تفسير الدر المنثور ٥/ ١٤٩.

(٣) سورة الأنبياء: ٧٣.

(٤) سورة القصص: ٤١.

(٥) تفسير فتح القدير ٤/ ٩١-٩٢، وتفسير الدر المنثور ٥/ ١٤٩.

بالنفع، وذلك أكثر ثوابًا، وأحسن مآبًا، ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية»**[1].

وبعد أن يتحلى المؤمنون بتلك الصفات الحميدة، فإنهم لايشعرون بأنهم قد عملوا الصالحات كلها، ولايخلون عن الأخطاء والزلات، وإنما يتوجهون إلى ربهم في طلب المغفرة، لا لذاتهم، ولكن كذلك لسلفهم الذين سبقوا بالإيمان؛ وفي طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان، مع الشعور برأفة الله ورحمته.

قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾**[2].

وتتجلى من وراء هذه الأمة طبيعة هذه الأمة المؤمنة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود. تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها، وآخرها بأولها، في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف، وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب؛ وتنفرد وحدها في القلوب، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة، كما يذكر أخاه الحي، أو أشد، في إعزاز وكرامة وحب[3].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٣ ـ ٢٨٤. والحديث في صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم الحديث: ١٤ (١٦٣١)، بشرح النووي ١١ / ٨٥.

(٢) سورة الحشر: ١٠.

(٣) في ظلال القرآن ٦ / ٣٥٢٧.

ونكتفي بهذا القدر في ذكر صفات المؤمنين في الحياة الدنيا، فلا نتوسع فيه خشية الإطالة، وإلا، فصفات المؤمنين كثيرة كما ورد ذكرها في القرآن الكريم، فمنها: الإخلاص، والصدق، والتوكل، ومحبة الله، والخوف والرجاء، والشكر، والصبر، والرضا، والشجاعة، وغيرها من الصفات الحميدة.

والهدف من ذكر صفات المؤمنين هنا، أن نعرض التصور العام عن صفات المؤمنين في الحياة الدنيا التي يتميزون بها عن غيرهم، حتى لايغرق بعض المؤمنين في عالم الدعوى بإيمانهم، بل لابد لهم من برهان على صدق إيمانهم، وصفة يتميزون بها عن غيرهم، وذلك لأن الدين ليس بالتحلي ولابالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقه الأعمال، وليس كل من ادّعى شيئًا حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه على الحق سمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان[1].

قال تعالى: ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** ﴾[2].

* * *

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١ / ٤٧٨.

(٢) سورة النساء: ١٢٣ ـ ١٢٤.

المبحث الثالث
موقف المؤمنين من الكافرين والمنافقين في الحياة الدنيا

تكلمنا في المبحث السابق عن صفات المؤمنين في الحياة الدنيا التي يتميزون بها عن غيرهم، والآن سنتحدث - بإذن الله - عن موقف المؤمنين من غيرهم من الكافرين والمنافقين في الحياة الدنيا. فكما تختلف صفات المؤمنين عن غيرهم، كذلك يختلف موقف المؤمنين من إخوانهم المؤمنين عن موقفهم من غيرهم من الكافرين والمنافقين؛ وذلك لأن موقف المؤمنين من إخوانهم المؤمنين هو موقف الولاء والأخوة والتناصر.

ولاشك في أن الإيمان هو الأساس الذي يبنى عليه الولاء والأخوة في الإسلام؛ لأن الأصل أن المؤمن لا يوالي إلا المؤمن، حيث تجمع بينهما عقيدة التوحيد، فإذا اختلفت العقيدة فلا أخوة ولا موالاة ولا تناصر.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾[١].

وقال عز وجل: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[٢].

---

(١) سورة المائدة: ٥٥.

(٢) سورة التوبة: ٧١.

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»(١) .

أما موقف المؤمنين من غيرهم من الكافرين والمنافقين في هذه الحياة، فهو موقف البراء والمفاصلة، ويكون هذا الموقف حاسمًا وصارمًا يقطع حالة التردد، ويقضي على ما في النفوس من الحيرة، فلا تحالف بين المؤمنين وغيرهم، ولا تناصر ولا مودة، وإنما هو استعلاء الإيمان على الكفر بأسمائه المختلفة.

هذا الموقف الحاسم على صورته العامة. أما موقف المؤمنين من غيرهم في صوره التفصيلية فيتجلى في أمور تالية :

(أ) موقف المؤمنين من الكافرين المحايدين :

قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾(٢) .

وقال عز وجل: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٣) .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم الحديث: ٩٣ (٥٤)، شرح النووي ٢/ ٣٥.

(٢) سورة النساء: ٩٠.

(٣) سورة الممتحنة: ٧ـ٨.

قال ابن كثير في الآية الأولى عند قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾: «هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم، وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حصرت صدورهم، أي: ضيقت صدورهم مبغضين أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضًا أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم ولا عليكم.. فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك»[(١)].

ورخص الله سبحانه في الآية الثانية للمؤمنين في البر والإحسان وفعل الخير إلى الكفار الذين سالموهم ولم يقاتلوهم في الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم، وأن الله تعالى لم يمنع المؤمنين من أن يعدلوا فيما بينهم وبين هؤلاء الكفار، بل إنه يأمر بالعدل مع جميع الناس.

ثبت في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: «قدمتْ عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله - ﷺ -، فاستفتيت رسول الله - ﷺ - قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: **نعم صلي أمَّكِ**»[(٢)].

أما الذين قاتلوا المسلمين على الدين، وأخرجوهم من ديارهم، وعاونوا على إخراجهم، فلا يجوز اتخاذ الأولياء والأنصار والأحباب منهم، ومن يفعل ذلك - بأن يواليهم - فأولئك هم الظالمون المستحقون للعذاب الشديد.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٥٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين، وقول الله تعالى: (الممتحنة: ٨): ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ الآية، رقم الحديث: ٢٦٢٠، فتح الباري ٥/ ٢٧٥.

صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين.. ولو كانوا مشركين، رقم الحديث: ٤٩ (١٠٠٣)، بشرح النووي ٧/ ٨٩.

ومما سبق يتضح لنا أنه إذا وجد من الكفار من يرغب التعامل مع المسلمين على أساس السلم، وتبادل المنافع والاحترام المتبادل، وإطلاق حرية الدعوة إلى الله بين أفرادهم وداخل مجتمعاتهم، وأن يقفوا موقف الحياد في قتال المسلمين عدواً ذا شوكة، فإن النصوص الشرعية لا تنهى عن مسالمتهم، ما دامت حرية الدعوة إلى الإسلام مكفولة.

ومن النماذج التطبيقية على وجود المحايدين من الإسلام ما يلي :

١ ـ قال ابن إسحاق : «فلما رأى رسول الله ـ ﷺ ـ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانته من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم : **لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه**» فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام»(١).

لقد اعتبرت بلاد الحبشة في عهد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أكثر من بلاد محايدة، بل هي بلاد مناصرة لأهل الإيمان، لمعاملتها الحسنة للمسلمين في هجرتهم إليها أيام النجاشي.

ولكن بما أن أحكام الإسلام لم تكن نافذة فيها فهي ليست دار إسلام، وباعتبارها مسالمة لأهل الإسلام مناصرة لهم فهي ليست دار حرب، وعلى

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٤٣، وانظر : الروض الأنف ٣/ ٢٠٣، والسيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٣.

هذا يمكن أن تسمى «دار حياد» بمفهوم العصر الحاضر[١] .

٢ ـ استخدام الكفار المسالمين المحايدين للدعاية لصالح المسلمين وإيقاع الرعب والهزيمة المعنوية في الكفار المحاربين، فقد مر معبد بن أبي معبد الخزاعي برسول الله ـ ﷺ ـ وهو في حمراء الأسد[٢] بعد موقعة أحد، ومعبد يومئذ مشرك، فقال: يا محمد، لقد عز علينا ما أصابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم، ثم خرج ورسول الله ـ ﷺ ـ بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء[٣] وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه، وقالوا: أصبنا جل أصحابه، وأشرافهم وقادتهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم! لنكرنّ على بقيتهم فلنفرغن منهم.

فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط! يتحرقون عليكم تحرقًا! من الحنق[٤] عليكم، لم أر مثله قط! قال: ويحك، ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترحل حتى نرى نواصي الخيل قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك[٥] .

---

(١) انظر: العلاقات العامة والخاصة في الإسلام، تأليف مجموعة من الدكاترة وهم: يوسف محمود عبد المقصود، وفريد محمد واصل، ومحمد عبد اللطيف، ص: ٩٧ .

(٢) وحمراء الأسد: مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة (انظر: القاموس المحيط ٢/ ١٣، ومعجم البلدان ٢/ ٣٤٦).

(٣) الروحاء: قرية بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلاً من المدينة (انظر: القاموس المحيط ١/ ٢٣٣) وسميت الروحاء روحاء لانفتاحها ورواحها (معجم البلدان ٣/ ٨٧).

(٤) الحنق: شدة الاغتياظ (لسان العرب ١٠/ ٦٩).

(٥) انظر: تهذيب سيرة ابن هشام، لعبد السلام هارون، ص: ١٩٤ .

توجيه المؤمنين للتسامح مع غير المسلمين :

إضافة إلى ما تقدم من ذكر موقف المؤمنين من الكافرين المحايدين، فإنا نجد في القرآن الكريم أن الله سبحانه يوجه المؤمنين للتسامح مع أعداء الله في معاملتهم.

قال تعالى: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾[(١)].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم، وكان هذا في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد . . »[(٢)].

وقال صاحب الظلال عند هذه الآية: «فهو توجيه كريم للذين آمنوا ليتسامحوا مع الذين لا يرجون أيام الله، تسامح المغفرة والعفو، وتسامح القوة والاستعلاء، وتسامح الكبر والارتفاع.

هذا من جانب، ومن الجانب الآخر، ليترك هؤلاء المؤمنون الأمر كله لله يتولى جزاء المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته. ويحسب لهم العفو والمغفرة عن المساءة في سجل الحسنات. ذلك فيما لا يظهر الفساد في الأرض، ويعتدي على حدود الله وحرماته بطبيعة الحال.

---

(١) سورة الجاثية: ١٤-١٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٣، وانظر: تفسير المراغي ٩/ ١٤٧-١٤٨.

بذلك يتسع صدر المؤمن، ويرتفع شعوره؛ ويحتمل المساءات الفردية والنزوات الحمقاء من المحجوبين المطموسين، في غير ضعف، وفي غير ضيق. فهو أكبر وأفسح وأقوى، وهو حامل مشعل الهدى للمحرومين من النور، وحامل بلسم الشفاء للمحرومين من النبع، وهو مجزي بعمله، لا يصيبه من وزر المسيء شيء. والأمر لله في النهاية، وإليه المرجع والمآب»[١].

إنه لم يوجد مبدأ من المبادئ في هذه الحياة وعبر تاريخها الطويل تسامح مع أعدائه وعاملهم بالعدل مثل الدين الإسلامي، وهذا القول ليس مجرد ادعاء، وإنما هو واقع يشهد له التاريخ وتبرهن عليه الأحداث، فالذي يطالع نصوص المعاهدة بين الرسول - ﷺ - واليهود يعلم علم اليقين أن الإسلام عادل مع أهل الكتاب، فقد ورد في الوثيقة النبوية المبرمة بين المهاجرين والأنصار، والتي وادع فيها الرسول - ﷺ - اليهود ما نصه: «لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم. وإن بينهم النصر على من حاربهم، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، . . وإن من خرج آمن ومن قعد آمن إلا من ظلم أو أثم»[٢]. وذلك بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة.

وفي فتح مكة دليل واضح وبرهان ساطع على تسامح الإسلام ورحمته حتى بأعدائه، فهل عرف التاريخ أن جماعة غلبت على أمرها وطردت من بلدها، وأوذيت في نفسها ومالها، فلما استطاعت العودة إلى ديارها، وتمكنت من رؤوس أعدائها، لم تمتد يدها إلى عدوها بسوء، ولم تأخذ منه

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٢٢٧.

(٢) انظر: تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، ص: ١٤٠ـ١٤٣، وتاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم ١/ ١٠٢، والبداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٢٢٤ـ٢٢٥.

بثأر؟ وهل عرف في التاريخ أن عدوين يلتقيان بعد طول صراع مرير مخضب بالدماء فلا يكون في لقائهما شحناء ولا بغضاء؟ .

إنها روح الإسلام الخالدة، التي لا تنتصر للنفس والذات بقدر ما تنتصر للإسلام، إنها القيادة الرحيمة، حتى بمن كانوا بالأمس أعداءها، لقد اجتمعت قريش حول الرسول - ﷺ - في ذهول واستسلام وفي داخل كل نفس صراع من الخوف والرجاء، حتى هتف فيهم رسول الله - ﷺ -: «**ما تظنون أني فاعل بكم؟**» قالوا: أخ كريم، وابن أخ كريم. فقال لهم رسول الله - ﷺ -: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**». هذا كل الحساب بين الجيش الزاحف المنتصر وبين أهل مكة المستسلمين[1] .

«وينبغي أن نعلم أن التسامح في معاملة غير المسلمين ليس من الموالاة، فنحن لم ننه عن ذلك، بل يجوز لنا برّهم والإقساط في معاملتهم ما داموا غير محاربين. قال تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[2] .

قد يكون الفهم الخاطئ للآية الكريمة سببًا في الخلط بين التسامح والولاء، وقد يكون هذا الخلط ناشئًا عن مغالطة وسوء قصد، والحق الذي يجب أن يكون واضحًا في أذهان الناس أن التسامح إنما يكون بين الأفراد في المعاملات التي تكون بينهم، أما الولاء فإنه يكون بتحقيق التحالف والتناصر، والفرق بين الأمرين يلمسه أولئك الذين يعيشون بوجدانهم وقلوبهم للإسلام، ولا

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، لأحمد شلبي ١/ ٣٤٢، وفتح مكة، لمحمد أحمد باشميل، ص: ٢٩٦.

(٢) سورة الممتحنة: ٨.

يحسه الذين انتسبوا إلى الإسلام ولم يتجردوا له، وسموا مسلمين وما هم بمسلمين[١] .

(٢) موقف المؤمنين من الكفار المحاربين :

إن الذي يتدبر القرآن الكريم وينظر التاريخ يجد أن الكفر ملة واحدة، وأن أعداء الإسلام كل لا يتجزأ، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾[٢]، فهم يقفون منا موقفًا عدائيًا واحدًا على مر العصور وتكرار الدهور.

إنهم يحاربون ربهم حين يحاربون رسول الله ـ ﷺ ـ ورسالته، وإنهم مظاهرون للشيطان على معصية ربهم[٣] . قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾[٤]. «كل كافر ـ ومشركو مكة من ضمنهم ـ إنما هو حرب على ربه الذي خلقه وسواه. فكيف ذلك، وهو صغير ضئيل لا يبلغ أن يكون حربًا ولا ضدًا على الله؟ إنه حرب على دينه، وحرب على منهجه الذي أراده للحياة. إنما يريد التعبير أن يفظع جريمته ويبشعها، فيصوره حربًا على ربه ومولاه!»[٥] .

إنهم قد يختلفون في مناهجهم ومنطلقاتهم في الحياة فيما بينهم، ولكنهم يجمعون على عداوة الإسلام وحربه رغم تباينهم، ورغم حرص المؤمنين على مسالمتهم، وهؤلاء المحاربون يمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام :

---

(١) القيادة والجندية، لمحمد السيد الوكيل ٢/ ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) سورة الأنفال: ٧٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٩/ ٤٠١.

(٤) سورة الفرقان: ٥٥.

(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٧٤.

١ ـ المحاربون من اليهود .

٢ ـ المحاربون من المشركين .

٣ ـ المحاربون من النصارى .

وكل من هؤلاء لهم مواقف عدائية ، ولو كان بعضهم أشد من بعض في العداوة ، قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[١] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : «وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهتة للحق وغمط للناس وتنقص بجملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ـ ﷺ ـ غير مرة وسموه وسحروه وألبوا عليه أشباههم من المشركين ـ عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة ـ »[٢] .

وقال المراغي : «وقد كان اليهود والمشركون مشتركين في بعض الصفات والأخلاق التي اقتضت عداوتهم الشديدة للمؤمنين ؛ كالكبر ، والعتوّ ، والبغي ، وغلبة الحياة المادية ، والأثرة والقسوة ، وضعف عاطفة الحنان والرحمة ، والعصبية الجنسية ، والحمية القوية ، ولكن مشركي العرب على جاهليتهم كانوا أرق من اليهود قلوبًا ، وأعظم سخاءً وإيثارًا ، وأكثر حرية في الفكر واستقلالاً في الرأي .

---

(١) سورة المائدة : ٨٢ ـ ٨٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٧٦ .

وقدّم سبحانه ذكر اليهود للإشارة إلى تفوقهم على العرب فيما وُصفوا به، فضلاً عما امتازوا به من قتل بعض الأنبياء وإيذاء بعض آخر، واستحلال أكل أموال غيرهم بالباطل»(١) .

وقال سيد قطب: «وحين يستأنس الإنسان في تفسير هذا التقرير الرباني بالواقع التاريخي المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللحظة الحاضرة، فإنه لا يتردد في تقرير أن عداء اليهود للذين آمنوا كان دائمًا أشد وأقسى وأعمق إصرارًا وأطول أمدًا من عداء الذين أشركوا!»(٢) .

لذلك كله، فإن الله عز وجل قد أرشد عباده المؤمنين إلى الأخذ بالموقف الحاسم من هؤلاء الكفار المحاربين. وهذا الموقف يتمثل فيما يلي :

أ ـ لقد نهى الله عز وجل المؤمنين عن موالاة المحاربين للإسلام والمسلمين أيًا كان نوعهم :

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾(٣) .

وقال عز وجل: ﴿ **إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ**

---

(١) تفسير المراغي ٣/ ٦ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٦٠ .
(٣) سورة الممتحنة: ١ .

الظَّالِمُونَ ﴾[١] .

وقال سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[٣] .

وهذه الآيات القرآنية فيها تهديد وتحذير يتوسطان تبصير المؤمنين بحقيقة أعدائهم وما يضمرون لهم من الشر والكيد، فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المؤمنين حتى يتصرفوا معهم تصرف العدو الأصيل، ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدي وبالألسنة، وبكل وسيلة وكل سبيل .

«لقد كان هذا تحذيراً عنيفًا للجماعة المسلمة في المدينة . ولكنه تحذير ليس مبالغًا فيه، فهو عنيف، نعم، ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة . فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى والمشركين ـ وبعضهم أولياء بعض ـ ثم يبقى له إسلامه وإيمانه، وتبقى له عضويته في الصف المسلم، الذي يتولى الله ورسوله والذين آمنوا . . فهذا مفرق الطريق»[٤] .

ب ـ قتالهم :

ومن مواقف المؤمنين من الكفار المحاربين قتالهم . وقد ذكر الله عز وجل

---

(١) سورة الممتحنة : ٩ .

(٢) سورة المائدة : ٥١ .

(٣) سورة المائدة : ٥٧ .

(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٩١١ .

الأسباب التي تبعث على قتالهم كما يلي :

١ - إنهم نكثوا الأيمان التي حلفوها لتأكيد عهدهم الذي عقدوه مع النبي - ﷺ - وأصحابه على ترك القتال .

٢ - إنهم هموا بإخراج الرسول - ﷺ - من وطنه أوحبسه حتى لا يبلغ رسالته ، أو قتله بأيدي عُصبة من بطون قريش ليتفرق دمه في القبائل ، فتتعذر المطالبة به . . .

٣ - إنهم بدؤوا بقتال المؤمنين في بدر[1] .

وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2] .

وهذا القتال لا يتوقف على الأسباب السابقة فحسب ، وإنما هناك سبب رئيسي - كما قرره العليم الخبير - وهو الهدف الثابت المستقر لأعداء المؤمنين . وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المؤمنة في كل أرض وفي كل جيل . ذلك الهدف هو حرصهم على ردّ المؤمنين كفاراً في صورة من صور الكفر الكثيرة . ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم ، وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/ ٢٩٤ .

(٢) سورة التوبة : ١٣ - ١٥ .

قال تعالى: ﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(١) .

وقال عز وجل: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾(٢) .

(٣) موقف المؤمنين من المنافقين :

إن الذي يتأمل سيرة الرسول - ﷺ - يجد أنه - ﷺ - لجأ في بداية الأمر إلى سياسة معاملة المنافقين بحسب ظاهرهم، فلم يحاكم أحداً منهم بحسب باطنه، وهذا هو واجب الحكم والقضاء الشرعي .

ولجأ الرسول - ﷺ - أيضًا إلى سياسة العفو عما يبدو منهم مما يدل على نفاقهم، ما داموا يستخفون بعداوتهم لله ورسوله والمؤمنين، ويقدمون اعتذارهم عما يبدو منهم، أو يحلفون الأيمان الكاذبة على إنكار ما نسب إليهم، أو على سلامة نيتهم .

قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة البقرة: ٢١٧ .

(٢) سورة البقرة: ١٠٩ .

(٣) سورة التوبة: ٤٢-٤٣ .

وقال تعالى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾[١] .

وقال عز وجل: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾[٢] .

وآثر الرسول ـ ﷺ ـ أن يلجأ إلى هذه السياسة؛ لئلا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، ومن أسلم معه، فيكون ذلك سببًا في نفرتهم عن الدخول في الإسلام[٣] .

ولئن كانت الفترة الأولى تقتضي غض النظر عنهم، ريثما يقوى المسلمون وتشتد شوكتهم، ورجاء أن يستقيم بعضهم ويتوب من نفاقه، فإن المسلمين بعد أن أصبحت لهم قوة تفكر بغزو الروم صاروا بغنىً عن مداراة منافقيهم، وغدت المصلحة الإسلامية تقضي بالمحاسبة الشديدة على كل مظاهر النفاق، وتميز المنافقين عن المؤمنين، ومحاربتهم ومجاهدتهم كالكافرين الصرحاء.

أما وقد صعّد المنافقون أعمالهم العدائية للإسلام والمسلمين فإن موقف المؤمنين من المنافقين يتجلى في أمور آتية :

١ ـ الإنذار بأنهم إن لم ينتهوا فسيتم إعلان الحرب ضدهم وإغراء الرسول

---

(١) سورة التوبة: ٥٦ .

(٢) سورة النساء: ٦٢ ـ ٦٣ .

(٣) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/ ٥٦٣، وغزوة الأحزاب، لمحمد أحمد باشميل، ص: ١٠٣، وتفسير ابن كثير ٤/ ٣٢٣، وتفسير الدر المنثور ٦/ ٣٣٨، وتفسير الطبري ١٢/ ١٠٦ .

بقتالهم :

قال تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[1] .

إن الله عز وجل قد توعد في هذه الآيات المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين[2] ـ الذين يخبرون عن سرايا المسلمين بأنهم هزموا وقتلوا وغلبوا ونحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الأخبار ـ بأنهم إذا لم يرتدعوا عما يأتونه من هذا كله، وينتهوا عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات، أن يسلط الله عليهم نبيه بطردهم من البلاد، والقتال والقتل[3] .

وختم الله هذا الإنذار بقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾، «أي : هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم؛ وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير»[4] .

وذلك «للدلالة على أن من سنن الله الحكيمة التي لا تبديل لها، أنه متى بلغ المنافقون من أية أمة من الأمم مبلغًا من الكيد للرسالة الربانية، صار فيه

---

(١) سورة الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢ .

(٢) قال القرطبي : أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد، والمعنى : أن المنافقين قد جمعوا بين النفاق ومرض القلوب والإرجاف على المسلمين . (تفسير القرطبي . . . ، وانظر : تفسير فتح القدير ٤ / ٣٠٥).

(٣) انظر : تفسير فتح القدير ٤/ ٣٠٥، وفي ظلال القرآن ٥/ ٢٨٨٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٢ .

بقاؤهم بين صفوف المؤمنين خطرًا على سير الدعوة وانتشارها، أو معوقًا ظاهرًا لتقدمها، فإن الله ينزل أمره لرسله بمقاتلتهم، وبمطاردتهم حتى القضاء عليهم واستئصال شأفتهم، وذلك لأن خطرهم حينئذ يكون أشد من خطر الكافرين المجاهرين بعداوتهم. ولكن ما دام نفاقهم لم يصل إلى هذه الدرجة من الخطورة فإن من سنة الله تبارك وتعالى أن لا يأذن لرسله بمقاتلتهم مقاتلة جماعية تستأصلهم، حتى لا يأخذ الناس بعضهم بعضًا بالظنة»[١].

٢ ـ إعلان الحرب على المنافقين وأمر الرسول بمجاهدتهم:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[٢].

قال ابن كثير: «أمر تعالى رسوله ـ ﷺ ـ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة»[٣].

واختلف المفسرون في صفة الجهاد الذي أمر الله نبيه به في المنافقين، فقال بعضهم: أمره بجهادهم باليد واللسان، وبكل ما أطاق جهادَهم بهم. وقال آخرون: بل أمره بجهادهم باللسان. وقال آخرون: بل أمره بإقامة الحدود عليهم[٤].

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/ ٥٦٥.

(٢) سورة التوبة: ٧٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢١.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٦/ ٤١٩ ـ ٤٢٠، وتفسير ابن كثير ٢/ ٣٢١، وتفسير الدر المنثور ٣/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

قال أبو جعفر : «وأولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب، ما قاله ابن مسعود من أن الله أمر نبيه - ﷺ - من جهاد المنافقين بنحو الذي أمره به من جهاد المشركين»[١] ، فهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق[٢] .

وقال صاحب الظلال : «لقد كان الرسول - ﷺ - لاين المنافقين كثيراً، وأغضى عنهم كثيراً، وصفح عنهم كثيراً. . فها هو ذا يبلغ الحِلْم غايته، وتبلغ السماحة أجلها، ويأمره ربه أن يبدأ معهم خطة جديدة، ويلحقهم بالكافرين في النص، ويكلفه جهاد هؤلاء وهؤلاء جهاداً عنيفاً غليظاً لا رحمة فيه ولاهوادة.

إن للين مواضعه، وللشدة مواضعها. فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة، وإذا انقضى عهد المصابرة فليكن الحسم القاطع. . وللحركة مقتضياتها، وللمنهج مراحله. واللين في بعض الأحيان قد يؤذي، والمطاولة قد تضر»[٣] .

وأتبع الله سبحانه دعوة الرسول - ﷺ - إلى مجاهدتهم ببيان الأسباب الداعية إلى ذلك، فذكر ظواهر سلوكية لنفاقهم وكفرهم، في آيات آتية عقب الآية السابقة.

قال تعالى: ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ**

(١) تفسير الطبري ٦/ ٤٢٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢١ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٧ .

لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١] .

ثم كلف الله عز وجل رسوله أن يباشر تنفيذ خطتي عزل للمنافقين :

الخطة الأولى : عزل من تخلف منهم عن الغزوة عزلاً عسكريًا وطردهم من مكان الاعتبار بين صفوف المسلمين، وذلك بمنعهم عن الخروج إلى القتال مع الرسول - ﷺ -.

قال تعالى : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾[٢] .

الخطة الثانية : عزل موتاهم من جماعة المسلمين، وذلك بأن لا يصلي الرسول - ﷺ - على أحد منهم مات أبدًا، وبأن لا يقوم على قبره للدعاء له،

---

(١) سورة التوبة : ٧٤-٨٢ .

(٢) سورة التوبة : ٨٣ .

فالاستغفار لا يفيدهم.

قال تعالى: ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[١] .

ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: سمعت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: لما توفي عبد الله بن أبيّ دُعي رسول الله - ﷺ - للصلاة عليه، فقام إليه يريد الصلاة، فلما وقف عليه تحولت حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله، أتصلي على عدو الله عبد الله بن أبيّ القائل[٢] يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ أعدّ أيامه - ورسول الله - ﷺ - يتبسم، حتى إذا أكثرت عليه، قال: **أخّر عني يا عمر، إني خيرت فاخترت، قد قيل لي: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾، لو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له، لزدت**. قال: ثم صلى - ﷺ - ومشى معه، فقام على قبره حتى فرغ منه. قال: فعجبت لي وجراءتي على رسول الله - ﷺ -، والله ورسوله أعلم، قال: فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزل: ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ الآية، قال: فما صلى رسول الله بعده على منافق ولا قام على قبره، حتى قبضه الله تعالى[٣] .

---

(١) سورة التوبة: ٨٤.

(٢) قوله: «القائل يوم كذا وكذا.. أعدّ أيامه» يشير بذلك إلى مثل قوله: ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ وإلى مثل قوله: ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ (تحفة الأحوذي ٨/ ٤٩٥-٤٩٦).

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٦)، وفي التفسير (٤٦٧١). وأخرجه الترمذي في كتاب التفسير (٣٠٩٧) وقال: حسن صحيح. وأخرجه النسائي في التفسير (٢٤٥)، =

وبهذا يجب علينا أن ننتبه جيداً في عصرنا إلى موضوع الصلاة والاستغفار للمنافقين؛ إذ في عصرنا كثر النفاق وليس لنا دليل عليه - إلا أن نتفهم النصوص في شأنهم، فنعرفهم من خلال صفاتهم وأقوالهم -، ومن النفاق الصريح ادعاء الإسلام مع الانخراط في كل تكتل غير مسلم، وإعطاء الولاء لأهله على أساس غير الإسلام، إلا بتكليف من أهل الإسلام والعاملين له[١].

٣ - عدم الإعجاب بأموالهم وأولادهم:

قال تعالى: ﴿**وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾[٢].

أكد الله عز وجل ما تقدم[٣] من النهي عن الاغترار والإعجاب بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم. وجاء التأكيد في هذه الآية، لأن الأمر جد خطير يحتاج إلى التوكيد؛ إذ هما أعظم الأشياء جذبًا للقلوب، وجلبًا للخواطر للاشتغال بالدنيا، فيجب التحذير منهما مرة بعد أخرى[٤].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿**وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾: «أي

= وفي الجنائز ٤/ ٦٧، وأحمد في مسنده ١/ ١٦.

(١) انظر: الأساس في التفسير ٤/ ٢٣٤٠.

* وجدير بالذكر أن النفاق الذي تمتنع معه الصلاة نفاق العقيدة، أما نفاق العمل كالكذب وإخلاف الوعد وغير ذلك فلا.

(٢) التوبة: ٨٥.

(٣) وهو ما ورد في نفس السورة (التوبة: ٥).

(٤) انظر: تفسير السعدي ٣/ ٢٧٧، وتفسير المراغي ٤/ ١٧٧.

ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكر ، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم - عياذًا بالله من ذلك - ، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه»[١] .

وبهذا الحسم القاطع ، فقد قنّط الله عز وجل رسوله - ﷺ - من رجاء إصلاحهم بعد أن مردوا على النفاق ، وذلك أنه ربما يقوم في نفس الرسول - ﷺ - أمل بأن يصلح هؤلاء المنافقين ، رغم التجارب العديدة التي اكتوى بها منهم ، وبذلك تتوجه قوتهم في المال والرجال فتكون عونًا صحيحًا للإسلام والمسلمين ، ولكن الله قد علم من حالهم أنهم قوم مردوا على النفاق ، وأنه لا رجاء من صلاح أحوالهم ، فقنّط رسوله - ﷺ - منهم ، وقال له : ﴿ **وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾[٢] .

مواقف أخرى :

إضافة إلى المواقف السابقة ، فإن الله سبحانه قد أرشد المؤمنين في الحياة الدنيا إلى الأخذ بالمواقف الأخرى من المنافقين ، فمن تلك المواقف :

١ - عدم الموالاة لهم :

قال تعالى : ﴿ **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣١٤ .

(٢) سورة التوبة : ٨٥ .

فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[١] .

يقول تعالى في هذه الآية منكرًا على المؤمنين في اختلافهم في أمر المنافقين على فئتين؛ ومتعجبًا من اتخاذ هذا الموقف؛ ومشددًا وحاسمًا في التوجيه إلى تصور الموقف على حقيقته، وفي التعامل مع أولئك المؤمنين كذلك[٢] .

ورد في الحديث الصحيح أن قومًا خرجوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أحد فرجعوا، فاختلف فيهم المسلمون: فقالت فرقة: نقتلهم، وقالت فرقة: لا نقتلهم، فنزلت هذه الآية[٣] .

وهناك قول آخر في سبب نزول الآية، قال ابن عباس: نزلت في قوم كانوا بمكة فتكلموا بالإسلام، وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة، وإن المؤمنين لما أخبروا بهم قالت فئة: اخرجوا إلى هؤلاء الجبناء فاقتلوهم، وقالت أخرى: قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به[٤] .

قال ابن جرير الطبري: «وفي قول الله تعالى ذكره: ﴿ **فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا** ﴾ أوضح الدليل على أنهم كانوا من غير أهل المدينة؛ لأن الهجرة كانت على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ إلى داره ومدينته من سائر أرض

---

(١) سورة النساء: ٨٨ـ٨٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٤٥٧، وفي ظلال القرآن ٢/ ٧٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٨٨٤)، وفي المغازي (٤٠٥٠)، وفي التفسير (٤٥٨٩). وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين، رقم الحديث: ٦ (٢٧٧٦)، شرح النووي ١٧/ ١٢٣.

(٤) تفسير أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٥٩٤، وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٤٥٧، وهناك أقوال أخرى ذكرها ابن جرير الطبري في تفسيره ٤/ ١٩٤ـ١٩٦.

الكفر . فأما من كان في المدينة في دار الهجرة مقيمًا من المنافقين وأهل الشرك، فلم يكن عليه فرض هجرة، لأنه في دار الهجرة كان وطنه ومقامه»[١] .

وقال سيد قطب في ظلال هذه الآية : «ونحس من النهي عن اتخاذ أولياء منهم . . أنه كانت ما تزال للروابط والوشائج العائلية والقبلية بقايا في نفوس المسلمين في المدينة - وربما كان للمصالح الاقتصادية أيضًا - وكان المنهج القرآني يعالج هذه الرواسب، ويقرر للأمة المسلمة قواعد ارتباطاتها، كما يقرر قواعد تصورها في الوقت ذاته .

كان يعلمها أن الأمة لا تقوم على روابط العشيرة والقبيلة، أو روابط الدم والقرابة، أو روابط الحياة في أرض واحدة أو مدينة واحدة . . إنما تقوم الأمة على العقيدة، وعلى النظام الاجتماعي المنبثق من هذه العقيدة .

ومن ثم فلا ولاية بين المسلمين في دار الإسلام وبين غيرهم ممن هم في دار الحرب . . ودار الحرب هي يومئذ مكة موطن المهاجرين الأول . . لا ولاية حتى يهاجر أولئك الذين يتكلمون بكلمة الإسلام ؛ وينضموا إلى المجتمع المسلم - أي إلى الأمة المسلمة - حيث تكون هجرتهم لله وفي سبيل الله، من أجل عقيدتهم، لا من أجل أي هدف آخر ؛ ولإقامة المجتمع المسلم الذي يعيش بالمنهج الإسلامي لا لأي غرض آخر . . بهذه النصاعة . وبهذا الحسم، وبهذا التحديد الذي لا يقبل أن تختلط به شوائب أخرى، أو مصالح أخرى، أو أهداف أخرى . .

فإن هم فعلوا، فتركوا أهلهم ووطنهم ومصالحهم . . في دار

---

(١) تفسير الطبري ٤/ ١٩٦ .

الحرب . . وهاجروا إلى دار الإسلام، ليعيشوا بالنظام الإسلامي المنبثق من العقيدة الإسلامية، القائم على الشريعة الإسلامية . . إن هم فعلوا هذا فهم أعضاء في المجتمع المسلم، مواطنون في الأمة المسلمة . وإن لم يفعلوا وأبوا الهجرة، فلا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال»[١] .

٢ ـ تعزيرهم على عملهم الذي يراد به زعزعة الدعوة وإفسادها :

إنه لا يجوز أن يترتب على عمل المنافق جزاء، إلا إذا عمل المنافق أو المنافقون عملاً يراد به زعزعة الدعوة وإفسادها، مثل بناء المنافقين لمسجد الضرار، فإنه لما كان هذا العمل لم يرد به وجه الله، وثبت ذلك بطريق الوحي قام الرسول ـ ﷺ ـ بهدمه[٢] .

قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾[٣] .

ورد في تفسير الطبري : أنه أقبل رسول الله ـ ﷺ ـ يعني : من تبوك، حتى نزل بذوي أوان ـ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ـ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا : يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ! فقال : **إني على جناح سفر وحال شغل** ـ أو كما قال

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٣٢ .

(٢) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، لمحماس عبد الله الجلعود، ٢/ ٤٨٤ .

(٣) سورة التوبة : ١٠٧ .

رسـول الله ﷺ - **ولو قد قدمنا أتيناكم إن شاء الله، فصلينا لكم فيه**. فلما نزل بـذي أوان[(١)]، أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله - ﷺ - مالك بن الدُّخْشُم، أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي - أو أخاه: عاصم بن عدي - أخا بني العجلان، **فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه!** فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي! فدخل إلى أهله، فأخذ سعَفًا من النخلِ، فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه، وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا**﴾ إلى آخر القصة»[(٢)].

٣ - عدم مشابهة الكفار والمنافقين في اعتقادهم الفاسد وتصورهم الباطل :

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ**﴾[(٣)].

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد وتصورهم الباطل الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار

---

(١) وذو أوان بالمدينة (القاموس المحيط ٤/ ٢٠١).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٦/ ٤٦٩ - ٤٧٠ من طريق ابن إسحاق عن الزهري وغيره. وانظر: أسباب النزول للواحدي، ص: ٢٦٥، وتفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٥، وتفسير أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٥٨٢، ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٢٦٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٥٦ - ١٥٨.

والحروب: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم، ثم بين الله عز وجل أنه جعل هذا الاعتقاد الفاسد في قلوبهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم، ثم ردّ عليهم اعتقادهم الفاسد، بأنه تعالى بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يموت أحد ولا يحيا إلا بمشيئته وقدره[١].

قال المراغي: «وعبر عن هؤلاء المنافقين[٢] بالكافرين، لبيان أن مثل هذا لا ينبغي أن يصدر من المؤمنين، بل إنما يصدر من الكافرين، إذ إن من مات أو قتل فقد انتهى أمره، فقولهم: «لو كان كذا» عبث؛ لأن ما وقع لا يرتفع، والحسرة عليه لا تفيد، ومن شأن المؤمنين أن يكونوا صحيحي العقل والإدراك. إلى أن في هذا القول جهلاً بالدين وجحدًا له، فإن الله يقول: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه كِتَابًا مُّؤَجَّلاً** ...﴾[٣]»[٤].

إن قول الكافرين: ﴿**لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا**﴾ ليدل على فساد تصورهم لحقيقة ما يجري في الكون، ولحقيقة القوة الفاعلة في كل ما يجري. فهم لا يرون إلا الأسباب الظاهرة والملابسات السطحية، بسبب انقطاعهم عن الله، وعن قدره الجاري في الحياة.

* * *

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣٦٠، والأساس في التفسير ٢/ ٩١٣.
(٢) ورد في تفسير الطبري أن المراد بالذين كفروا في الآية هم المنافقون (٣/ ٤٩٠).
(٣) سورة آل عمران: ١٤٥.
(٤) تفسير المراغي ٢/ ١٠٨.

المبحث الرابع
حياة المؤمنين الطيبة وسبلها

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١) .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه - ﷺ -، من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت»(٢) .

وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح - موسرًا كان أو معسرًا - يعيش عيشًا طيبًا، إن كان موسرًا فلا مقال فيه، وإن كان معسرًا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله وتوقع الأجر العظيم؛ إذ هو يعلم أن رزقه إنما حصل بتدبيره عز وجل، والله محسن كريم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة؛ ويعلم أن خيرات الدنيا سريعة الزوال، فلا يقيم لها في نفسه وزنًا، فلا يعظم فرحه بوجدانها، ولا غمه بفقدانها(٣) .

---

(١) سورة النحل: ٩٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٠٦.

(٣) انظر: تفسير الكشاف ٢/ ٤٢٧، وتفسير أبي السعود ٥/ ١٣٩، وتفسير المراغي ٥/ ١٣٨.

أقوال المفسرين في المراد بالحياة الطيبة في الآية :

وأصل الطيب : ما تستلذه الحواس ، وما تستلذه النفس[١] . أما الحياة الطيبة التي وعد الله سبحانه هؤلاء المؤمنين أن يحييهموها فاختلف المفسرون في المراد بها على أقوال :

ـ فقال ابن عباس وجماعة : إنه تعالى يحييهم في الحياة الدنيا ما عاشوا فيها بالرزق الحلال الطيب .

ـ وقال آخرون ، منهم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ، والحسن البصري ـ رحمه الله ـ : الحياة الطيبة : القناعة .

ـ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : إنها هي السعادة .

ـ وقال مجاهد وقتادة : لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة[٢] .

ـ وقال آخرون : بل يعني بالحياة الطيبة : الحياة مؤمنًا بالله ، عاملاً بطاعته[٣] .

والذي ينظر ويتأمل في هذه الأقوال يرى أنها ليست اختلافًا حقيقيًا ، وإنما هي من باب اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد . وذلك لأن الحياة الطيبة تشمل هذه الأنواع كلها ، كما ورد في الحديث الذي رواه الإمام مسلم بسنده . . عن

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، ص : ٣٠٨ .

(٢) هذا القول فيه نظر ، وذلك ـ والله أعلم ـ لأن قوله تعالى : ﴿ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ يعني في الدنيا ، وهو الظاهر ، لقوله عز وجل : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾ ، حيث وعده الله ثواب الدنيا والآخرة ، كقوله سبحانه : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٨] .

(٣) انظر : تفسير الطبري ٧/ ٦٤١ ـ ٦٤٢ ، وتفسير ابن كثير ٢/ ٥٠٦ ، وتفسير الدر المنثور ٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، وتفسير فتح القدير ٣/ ١٩٣ .

عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**قد أفلح من أسلم ورُزق كَفافًا**[١] **وقنّعه الله بما آتاه**»[٢] .

مما سبق يتضح لنا أن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض، لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال، فقد تكون به، وقد لا يكون معها. وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية: فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وسره ورضاه، وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة، وسكن البيوت ومودات القلوب، وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة.. وليس المال إلا عنصرًا واحدًا يكفي منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله، وأن ما عند البشر ولو ملكه فرد فإنه زائل، وما عند الله باق دائم[٣] ، قال تعالى: ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[٤] .

الحياة الطيبة حياة إنتاج وجمال :

إن الحياة الطيبة لا يتمتع بها صاحبها فحسب، بل يتمتع بها ويستفيد منها غيره، ذلك لأن الحياة الطيبة التي يعيشها المؤمنون في هذه الحياة الدنيا هي حياة إنتاج وجمال. فقد ضرب الله لنا مثلاً للمؤمن الطيب بأروع واقعية جمالية محسة حيث قال: ﴿ **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ**

---

(١) الكفاف: الكفاية بلا زيادة ولا نقصان (شرح النووي ٧/ ١٤٥).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، رقم الحديث: ١٢٥ (١٠٥٤)، بشرح النووي ٧/ ١٤٥ .

(٣) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢١٩٣ .

(٤) سورة النحل: ٩٦ .

إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[١] .

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «هذا مثل ضربه الله للمؤمن . يقول : هو طيب ، وعمله طيب ، كما البلد الطيب ثمره طيب . ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة[٢] المالحة التي يخرج منها النز ، فالكافر هو الخبيث ، وعمله خبيث»[٣] .

روى البخاري في صحيحه بسنده . . عن أبي موسى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**مثلي ومثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب الأرض فكانت منها طائفة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا ورعوا وسقوا. وأصاب طائفة أخرى منها الماء، وهي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله، وتفقه بما بعثني الله فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**»[٤] .

---

(١) سورة الأعراف : ٥٨ .

(٢) السَبِخة : أرض ذات ملح ونزّ، والنزّ : ما تحلب من الأرض من الماء (لسان العرب ٣/ ٢٤ ، ٥/ ٤١٦).

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٥١٩ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٢/ ١٩٤ ، وتفسير الدر المنثور ٣/ ١٧٣ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب فضل من علم وعلّم ١/ ٣٠ . صحيح مسلم كتاب الفضائل ، باب بيان مثل ما بعث النبي ـ ﷺ ـ من الهدى والعلم ، رقم الحديث : ١٥ (٢٢٨٢)، بشرح النووي ١٥/ ٤٦ .

* قال النووي : «أما معاني الحديث ومقصوده ، فهو تمثيل الهدى الذي جاء به ـ ﷺ ـ بالغيث ، ومعناه أن الأرض ثلاثة أنواع ، وكذلك الناس :

ـ فالنوع الأول من الأرض : ينتفع بالمطر فيحيى بعد أن كان ميتًا وينبت الكلأ ، فتنتفع بها الناس والدواب والزرع وغيرها . وكذلك النوع الأول من الناس يبلغه الهدى والعلم فيحفظه فيحيا قلبه ويعمل به ويعلمه غيره ، فينتفع وينفع (أقول : وهكذا تكون حياة المؤمنين =

«إنها حكمة قرآنية ذات أفق إنساني تزدحم فيها تجارب الحياة والأحياء: فالأرض الطيبة التربة العذبة المشارب تنبت الزرع الطيب والثمر اليانع، والأرض الرديئة التربة السبخة المنبت، المالحة المشارب لا تخرج إلا شؤمًا وبخلاً، وهذه الحكمة لا تقتصر على البلد وأرضه، وإنما تشمل كل الموجودات وجميع القيم والأفكار والفضائل والأحوال..

وهو مثل لا يفترق عن الشجرة الطيبة والخبيثة. وقد ضربه الله للمؤمن والكافر يصور فيه نزول القرآن بنزول المطر، والمؤمن بالأرض الخيرة التي نزل عليها المطر فأخرجت الأزهار والثمار والنبات، كما يصور الكافر بالأرض السبخة الفاسدة التي لا تنتفع بالأمطار، فهو أيضًا لا ينتفع بنور القرآن ولا بتربيته وتوجيهاته ومعارفه..

صورة مشرقة منبتة لبلد طيب في مواجهة صورة كالحة مقلحة لبلد نكد، يبدو فيهما تقابل منسّق الألفاظ والمعاني تزيد المثل جمالاً لفظيًا ومعنويًا وفنيًا:

- في الأولى: الطيب، نباته، بإذن ربه.. وفي الثانية: الخبيث: النكد...

= الطيبة، فهي حياة النفع والانتفاع).

- والنوع الثاني من الأرض: ما لا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة وهي إمساك الماء لغيرها فينتفع بها الناس والدواب. وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليست لهم أفهام ثاقبة ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لماعندهم من العلم أهل النفع والانتفاع فيأخذه منهم فينتفع به، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم.

- والنوع الثالث من الأرض: ليست السباخ التي لا تنبت ونحوها، فهي لا تنتفع بالماء ولا تمسكه لينتفع بها غيرها. وكذا النوع الثالث من الناس لهم قلوب حافظة، ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ولا يحفظونه لنفع غيرهم. والله أعلم» (صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٤٧-٤٨).

ـ وفي الأولى: أصل دائم ينتج أثرًا صالحًا دائمًا بإذن الله، . . . وفي الثانية طرأ الخبيث على البلد فلم يكن ذاك في أصله، وإنما خبُث لطارئ أو حادث فتبدّل الأثر من نبات طيب إلى نبات نكد تبدّلاً مؤقتًا وعارضًا. . »(١) .

وهكذا تكون حياة المؤمنين الطيبة حياة إنتاج وجمال، حياة تنبت نوايا ومشاعر، وانفعالات واستجابات، واتجاهات وعزائم، وأعمالاً بعد ذلك، وآثارًا طيبة في واقع الحياة.

سبيل الحياة الطيبة :

إن الحياة الطيبة التي هي المطلب لكل إنسان، لا تتحقق بالأماني، ولا بالمصادفة، وإنما لابد من السبيل الذي يسلك الإنسان مسالكه، حتى يصل به إلى تلك الحياة المحبوبة الطيبة التي فيها راحة القلوب، وسكينتها، وسرورها، وزوال همومها وغمومها. هذا السبيل يتمثل في أسباب كثيرة، دينية كانت أو طبيعية، ولا يمكن اجتماعها إلا للمؤمنين الطيبين. فمن تلك الأسباب :

١ ـ الإيمان والعمل الصالح :

قال تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾(٢) .

هذا وعد رباني لمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح، بأن يتفضل الله عز وجل عليه بالحياة الطيبة. كما أن الله سبحانه قد شيد في موضع آخر صرح الحياة الناجحة على أساس الإيمان الصحيح، والعمل الصالح، فيقول تعالى :

---

(١) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، لنذير حمدان، ص: ٣٥٨ـ٣٥٩، وانظر: التفسير الكبير ١٤/ ١٤٤، وتفسير المراغي ٣/ ١٨٦.

(٢) سورة النحل: ٩٧.

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[1] .

إن الإيمان أساس الحياة الطيبة؛ ذلك لأنه يجعل صاحبه ثابتًا عاليًا مثمرًا في حياته، ثابتًا لا تزعزعه الأعاصير، ولا تعصف به رياح الباطل، ولا تقوى عليه معاول الطغيان. فقد ضرب الله سبحانه مثلاً للإيمان بأروع واقعية جمالية محسة حيث يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[2] .

إن الله عز وجل شبه الكلمة الطيبة ـ وهي الإيمان الثابت في قلب المؤمن ـ بالشجرة الطيبة المثمرة، الجميلة المنظر، الشذية الرائحة، التي لها أصل راسخ في الأرض به يؤمن قلعها وزوالها، وفروعها متصاعدة في الهواء، فتأتي الثمرة نقية خالية من جميع الشوائب، وتثمر في كل حين بأمر ربها وإذنه، وإذا اجتمع لهذه الشجرة كل هذه المميزات كثر رغبة الناس فيها[3] .

قال الرازي عند بيان روعة هذا المثل الإيماني: «معرفة الله تعالى والاستغراق في محبته وفي خدمته وطاعته، تشبه هذه الشجرة في هذه الصفات الأربع :

الصفة الأولى : وهي كونها طيبة فهي حاصلة، بل نقول: لا طيب ولا لذيذ في الحقيقة إلا هذه المعرفة، ذلك لأن اللذة الحاصلة بتناول الفاكهة المعينة

---

(١) سورة العصر: ١ ـ ٣.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٥/ ١٤٨، وتفسير الطبري ٧/ ٤٣٦، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٥٨.

إنما حصلت، لأن إدراك تلك الفاكهة أمر ملائم لمزاج البدن، فلأجل حصول تلك الملاءمة والمناسبة حصلت تلك اللذة العظيمة، وههنا الملائم لجوهر النفس المطمئنة والروح القدسية، ليس إلا معرفة الله تعالى ومحبته والاستغراق في الابتهاج به، فوجب أن تكون هذه المعرفة لذيذة جداً.

الصفة الثانية: كون هذه الشجرة ثابتة الأصل، فهذه الصفة في شجرة معرفة الله تعالى أقوى وأكمل، وذلك لأن عروق هذه الشجرة راسخة في جوهر النفس القدسية، وهذا الجوهر مجرد عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء.

الصفة الثالثة: يكون فرعها في السماء. واعلم أن شجرة المعرفة لها أغصان صاعدة في هواء العالم الإلهي الذي يدخل فيه التأمل في دلائل معرفة الله تعالى في عالم الأرواح، وفي عالم الأجسام، وفي عالم الأفلاك والكواكب. . وأن لها أغصانًا صاعدة في هواء العالم الجسماني الذي يدخل فيه الرحمة والرأفة والصفح والتجاوز عن الذنوب، والسعي في إيصال الخير إلى الخلق، ودفع الشر عنهم، ومقابلة الإساءة بالإحسان. وهذه كلها غير متناهية، وهي فروع ثابتة من شجرة معرفة الله تعالى، فإن الإنسان كلما كان أكثر توغلاً في معرفة الله تعالى كانت هذه الأحوال عنده أكمل وأقوى وأفضل.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿**تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾، فهذه الشجرة أولى بهذه الصفة من الأشجار الجسمانية؛ لأن شجرة المعرفة موجبة لهذه الأحوال ومؤثرة في حصولها، والسبب لا ينفك عن المسبب، فأثر رسوخ شجرة المعرفة في أرض القلب أن يكون نظره بالعبرة كما قال تعالى:

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[١] ، وأن يكون سماعه بالحكمة كما قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[٢] ، ونطقه بالصدق والصواب كما قال سبحانه: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾[٣] . . .

وأما قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ففيه دقيقة عجيبة، وذلك لأن عند حصول هذه الأحوال السنية، والدرجات العالية قد يفرح الإنسان بها من حيث هي هي، وقد يترقى فلا يفرح بها من حيث هي هي، وإنما يفرح بها من حيث إنها من المولى، وعند ذلك فيكون فرحه في الحقيقة بالمولى بهذه الأحوال . .

وذكر بعضهم في تقرير هذا المثال كلامًا لا بأس به فقال: إنما مثل الله سبحانه وتعالى الإيمان بالشجرة، لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وأغصان عالية. كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: معرفة في القلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان، والله أعلم[٤] .

وهكذا يكون الإيمان الصحيح الذي يثمر العمل الصالح سببًا رئيسيًا في تحقيق الحياة الطيبة، فينبغي على كل مؤمن يريد الحياة الطيبة أن يمكّن هذه الفكرة القرآنية السامية في قلبه، لكي يتطلع إلى النجاح في هذه الحياة الدنيا، والفوز بالجنة في الحياة الآخرة.

---

(١) سورة الحشر: ٢.

(٢) سورة الزمر: ١٨.

(٣) سورة النساء: ١٣٥.

(٤) التفسير الكبير ١٩/ ١١٨ـ ١١٩ ـ باختصار يسير ـ.

٢ ـ الرضا :

ومن أسباب الحياة الطيبة الرضا، إذ لا يمكن أن تحصل السعادة إلا لمن يؤمن بالله، ومن الإيمان بالله الإيمان بقضائه وقدره، والرضا بقسمه، لأن الإنسان في هذه الحياة لابد أن ينتابه شيء من الهموم والمصائب، فإن لم يرض بالقضاء والقدر هلك.

الرضا نعمة روحية جزيلة، هيهات أن يصل إليها جاحد بالله، أو شاك فيه، أو مرتاب في جزاء الآخرة، إنما يصل إليها من قوى إيمانه بالله، وحسن اتصاله به.

ـ وقد خاطب الله رسوله ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿ **فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ** ﴾[١].

ـ وامتن عليه بقوله: ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴾[٢].

ـ وأثنى الله عز وجل على عباده المؤمنين بقوله: ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾[٣].

قال سيد قطب في ظلال هذه الآيات: «إن النفس التي تتصل بالله تطمئن وترضى، ترضى وهي في ذلك الجوار الرضي، وتطمئن وهي في ذلك الحمى الآمن.

---

(١) سورة طه: ١٣٠.

(٢) سورة الضحى: ٥.

(٣) سورة البينة: ٨.

فالرضى ثمرة التسبيح والعبادة، وهو وحده جزاءٌ حاضرٌ ينبت من داخل النفس ويترعرع في حنايا القلب».

وقال عند قوله تعالى: ﴿**رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾: «هذا الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم.. وهذا الرضا في نفوسهم عن ربهم، الرضا عن قدره فيهم، والرضا عن إنعامه عليهم، والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم، الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق[1].

روى الإمام مسلم بسنده.. عن العباس بن عبد المطلب أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً**»[2].

«فالمؤمن راضٍ عن ربه، لأنه آمن بكماله وجماله، وأيقن بعدله ورحمته، واطمأن إلى علمه وحكمته.. لم يخلق شيئًا لهوًا، ولم يترك شيئًا سدًى، له الملك وله الحمد، نعمه عليه لا تعدّ، وفضله عليه لا يحد، فما به من نعمة فمن الله، وما أصابه من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، يردد دائمًا هذا الثناء الذي ردده من قبل أبونا إبراهيم خليل الرحمن: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾[3].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٥٧، ٦/ ٣٩٥٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًا.. فهو مؤمن، رقم الحديث: ٥٦ (٣٤)، بشرح النووي ٢/ ٢.

(٣) سورة الشعراء: ٧٨-٨٢.

والمؤمن ـ نتيجة لهذا ـ راض عن الحياة والكون من حوله، لأنه يعتقد أن هذا الكون الفسيح صنع الله الذي أتقن كل شيء.

قال تعالى: ﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾(٢).

والمؤمن كما يغمره الشعور بنعمة الله عليه في كل حين وفي كل حال، لايفقد هذا الشعور وإن أصابته البأساء والضراء، وهزته زلازل الحياة.

إنه راض بما قضى الله له، وما قدّر عليه، إيمانًا بأن الله تعالى لايفعل شيئًا عبثًا، ولا يقضي أمرًا يريد به عسرًا لعباده، وأنه سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها، وأن الخير مطوى في جوف ما نظنه كارثة وشرًا، وما نكرهه بطبيعتنا البشرية.

قال تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾(٣)»(٤).

فالمؤمن الذي رضي بقضاء الله وقدره تكون حياته طيبة؛ وذلك لأن أمره كله خير. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء**

---

(١) سورة النمل: ٨٨.

(٢) سورة طه: ٥٠.

(٣) سورة البقرة: ٢١٦.

(٤) انظر: الإيمان والحياة، ص: ١١٧.

صبر فكان خيراً له»[١] .

٣ ـ التوكل على الله :

ومن أسباب الحياة الطيبة التوكل على الله ، فلم يستسلم المؤمن في حياته للأوهام ولا ملكته الخيالات السيئة ، ووثق بالله وطمع في فضله .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[٢] .

وقال عز وجل : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[٣] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٤] .

هذه الآيات ـ وغيرها كثيرة ـ تدل على أهمية التوكل على الله عز وجل في حياة المؤمن ، بل إنه وصية الله لكل نبي ورسول ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

درجات التوكل :

قال ابن قيم الجوزية : «إن التوكل حال مركبة من مجموع أمور ، لاتتم

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير ، رقم الحديث : ٦٤ (٢٩٩٩) ، بشرح النووي ١٨ / ١٢٥ .

(٢) سورة الطلاق : ٣ .

(٣) سورة آل عمران : ١٧٣ ـ ١٧٤ .

(٤) سورة الأنفال : ٢ .

حقيقة التوكل إلا بها :

- فأول ذلك : معرفة بالرب وصفاته : من قدرته وكفايته وقيوميته ، وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها عن مشيئته وقدرته ، وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل .

- الدرجة الثانية : إثبات في الأسباب والمسببات . فإن من نفاها فتوكله مدخول ، وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي : أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل ، وأن نفيها تمام التوكل .

- الدرجة الثالثة : رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل . فإنه لايستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده ، بل حقيقة التوكل : توحيد القلب .

- الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله ، واستناده إليه ، وسكونه إليه . بحيث لايبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ، ولاسكون إليها . بل يخلع السكون إليها من قلبه ، ويلبسه السكون إلى مسببها .

- الدرجة الخامسة : حسن الظن بالله عز وجل . فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له ، يكون توكلك عليه . ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله .

والتحقيق أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه ؛ إذ لايتصور التوكل على من ساء ظنك به ، ولا التوكل على من لاترجوه . والله أعلم .

- الدرجة السادسة : استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها إليه ، وقطع منازعاته .

- الدرجة السابعة: التفويض، وهو روح التوكل ولبه وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا. لا كرهًا واضطرارًا.

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة انتقل منها إلى درجة «الرضى» وهي ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل بها فإنما فسره بأجلِّ ثمراته، وأعظم فوائده. فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله(١).

إن التصور الإسلامي يتسم بالتوازن المطلق بين تقرير الفاعلية المطلقة لقدر الله - سبحانه - وتحقق هذا القدر في الحياة الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته وعمله.. إن سنة الله تجري بترتيب النتائج على الأسباب. ولكن الأسباب ليست هي التي «تنشئ» النتائج. فالفاعل المؤثر هو الله. والله يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيئته.. ومن ثم يطلب إلى الإنسان أن يؤدي واجبه، وأن يبذل جهده، وأن يفي بالتزاماته. وبقدر ما يوفي بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها.. هكذا تظل النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره. هو وحده الذي يأذن لها بالوجود حين يشاء، وكيفما يشاء.. وهكذا يتوازن تصور المسلم وعمله. فهو يعمل ويبذل ما في طوقه؛ وهو يتعلق في نتيجة عمله وجهده بقدر الله ومشيئته. ولا حتمية في تصوره بين النتائج والأسباب. فهو لايحتم أمرًا بعينه على الله(٢).

فالمتوكل على الله قوي القلب لاتؤثر فيه الأوهام، ولاتزعجه الحوادث لعلمه أن ذلك من ضعف النفس، ومن الخوف الذي لا حقيقة له. ويعلم مع

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ٢ / ١١٧، - بتصرف -.
(٢) في ظلال القرآن ١ / ٥٠٣.

ذلك أن الله قد تكفل لمن توكل عليه بالكفاية التامة والهداية والوقاية[١] .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**من قال** ـ يعني إذا خرج من بيته ـ: **بسم الله توكلت على الله ولاحول ولاقوة إلا بالله. يقال له: هُديتَ وكُفيتَ ووُقيتَ وتنحّى عنه الشيطان**»[٢] .

٤ ـ ذكر الله .

إن الذي يداوم على ذكر الله يطمئن قلبه، فتطيب به حياته، ويزول القلق والاضطراب، بما يفيضه عليه من نور الإيمان الذي يُذهب الوحشة.

قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**﴾[٣] .

ولأهمية ذكر الله، فقد بين سبحانه لعباده المؤمنين فضائل هذه العباة في آيات كثيرة تتجلى فيها أهميته ومميزاته، فمن تلك المميزات:

ـ أن المؤمنين إذا ذكروا الله ذكرهم بالمغفرة والرحمة وإدامة النعمة والفضل[٤]، قال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾[٥] .

روى الإمام مسلم بسنده.. عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما

---

(١) انظر: الوسائل المفيدة للحياة السعيدة، ص: ٢٧

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم الحديث: ٣٤٢٦، الجامع الصحيح ٥ / ٤٥٧ . وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) سورة الرعد: ٢٨ـ٢٩.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٢ / ٤٠، وتفسير ابن كثير ١ / ١٧٢، وتفسير المراغي ١ / ٢٠.

(٥) سورة البقرة: ١٥٢.

شهدا على النبي - ﷺ - أنه قال: «**لايقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده**»[(١)] .

- و أن الله تعالى لم يجعل للذكر حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه، ويربط في كتابه العزيز بين هذا الذكر وبين الأوقات والأحوال التي يمر بها الإنسان، لتكون الأوقات والأحوال مذكرة بذكر الله، ومنبهة إلى الاتصال به، حتى لايغفل القلب ولاينسى.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾[(٢)] .

وقال عز وجل: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[(٣)] .

وقال سبحانه: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ**﴾[(٤)] .

وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ**

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم الحديث: ٣٩ (٢٧٠٠)، بشرح النووي ١٧ / ٢٢.

(٢) سورة الأحزاب: ٤١-٤٢.

(٣) سورة آل عمران: ١٩١.

(٤) سورة البقرة: ١٩٨.

ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾[١] .

وقال عزوجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[٢] .

وقال سبحانه : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[٣] .

ـ وإن تذكـــر الله إبصـار ، وإن مس الشيطان عـمى ؛ وذلك لأن الذين يداومون على ذكر الله إذ ألمَّ بهم طائف من الشيطان ليحملهم بوسوسته على المعصية أو إيقاع البغضاء بينهم ، تذكروا أن هذا من إغواء الشيطان عدوهم الذي أمر الله بالاستعاذة منه والالتجاء إليه في الحفظ من غوايته ، فإذا هم أولو بصيرة يربئون بأنفسهم أن تطيعه ، فهو إنما تأخذ وسوسته الغافلين عن ذكر ربهم الذين لايراقبونه في أوقاتهم وأحوالهم ، ولاشيء أقوى على طرد وساوس الشيطان من ذكر الله ومراقبته في السر والعلن .

وفي ذلك قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾[٤] .

وهكذا تتجلى أهمية ذكر الله في تحقيق الحياة الطيبة ، وأن الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، فاتصلت بالله . يعرفونها ، ولايملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٠ .

(٢) سورة الأنفال : ٤٥ .

(٣) سورة الجمعة : ١٠ .

(٤) سورة الأعراف : ٢٠١ .

لم يعرفوها، لأنها لاتنقل بالكلمات، إنما تسري في القلب فيستروحها ويهش لها ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام، ويحس أنه في هذا الوجود ليس مفردًا بلا أنس. فكل ما حوله صديق، إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه(١).

٥ ـ انشراح الصدر:

ومن أسباب الحياة الطيبة انشراح الصدر، ذلك لأن حياة المؤمن مليئة بالتكاليف والواجبات، وأن كتابه ـ القرآن الكريم ـ لثقيل، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً** ﴾(٢)، فانشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة، ويحيل عناءه لذة؛ ويجعله دافعًا للحياة الطيبة.

ولأهمية انشراح الصدر، فقد ذكر القرآن الكريم آيات عديدة في مقام الانشراح:

ـ فقد طلب موسى ـ عليه السلام ـ إلى ربه أن يشرح له صدره: ﴿ **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي** ﴾(٣).

ـ وقال تعالى ـ ممتنا على رسوله محمد ـ ﷺ ـ: ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ** ﴾(٤).

في هذه الآية استحضار مظاهر العناية، واستعراض مواقع الرعاية، حيث

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤ / ٢٠٦٠.

(٢) سورة المزمل: ٥.

(٣) سورة طه: ٢٥.

(٤) سورة الشرح: ١ ـ ٣.

أذهب الله سبحانه عن نفس رسوله محمد ـ ﷺ ـ جميع الهموم حتى لايقلق ولايضجر، وجعله راضي النفس، مطمئن الخاطر، واثقًا من تأييد الله ونصره، عالمًا كل العلم أن الذي أرسله لايخذله، ولايعين عليه عدواً.

وهي توحي بأن هناك ضائقة كانت في صدر الرسول ـ ﷺ ـ لأمر من أمور هذه الدعوة التي كلفها، ومن العقبات الوعرة في طريقها، ومن الكيد والمكر المضروب حولها.. توحي بأن صدره ـ ﷺ ـ كان مثقلاً بهموم هذه الدعوة الثقيلة، وأنه كان يحس العبء فادحًا على كاهله؛ وأنه كان في حاجة إلى عون ومدد وزاد ورصيد.. ثم كانت هذه المناجاة الحلوة، وهذا الحديث الودود![1].

ـ وإن الله سبحانه ذكر أن الذي يقدر له الهداية، يشرح صدره للإسلام؛ فيتسع له، ويستقبله في يسر ورغبة، ويتفاعل معه، ويطمئن إليه، ويستروح به ويستريح له.

قال تعالى: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**﴾[2].

وقال عز وجل: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾[3].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦ / ٣٩٢٩، وتفسير المراغي ١٠ / ١٨٩.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٣) سورة الزمر: ٢٢.

وقال سبحانه: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

فانشراح الصدر للإيمان، وحركته إليه، فضل من الله ونعمة، وأنه سبب من أسباب الحياة الطيبة.

٦ ـ الإحسان إلى الناس، والبعد عن الغل والحسد:

ومن الأسباب التي تحقق الحياة الطيبة، الإحسان إلى الناس بالقول والفعل، وأنواع المعروف، وكلها خير وإحسان، وبها يدفع الله عز وجل عن البر والفاجر الهموم والغموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب، ويتميز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب لثوابه، فيهون الله عليه بذل المعروف لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكاره بإخلاصه واحتسابه، قال تعالى: ﴿ لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾(٢) (٣).

ولأهمية الإحسان إلى الناس في تحقيق الحياة الطيبة فقد وردت نصوص كثيرة تتحدث عن هذا الخلق الممدوح، بصيغ مختلفة، وأساليب متنوعة:

---

(١) سورة الحجرات: ٧ ـ ٨.

(٢) سورة النساء: ١١٤.

(٣) الوسائل المفيدة للحياة السعيدة، للشيخ عبد الرحمن السعدي، ص: ١٧ ـ ١٨.

ـ فتارة أمر الله سبحانه المؤمن بالإحسان إلى خلقه عامة، كما أحسن هو إليه فيما أنعم به عليه، فيعين خلقه بماله وجاهه، وطلاقة وجهه، وحسن لقائهم، والثناء عليهم في غيبتهم، وغيرها من سائر أنواع الإحسان.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾(١) .

ويقول عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(٢) .

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ الآية: «ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدّم فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامّها»(٣) .

ـ وتارة أخرى أمر الله عباده المؤمنين أمرًا جازمًا بالإحسان إلى الوالدين خاصةً، فقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾(٤) .

قال الشوكاني: «ووجه ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه،

---

(١) سورة القصص: ٧٧.

(٢) سورة النحل: ٩٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ٥٠٣، وتفسير الطبري ٧ / ٦٣٥، وتفسير الدر المنثور ٤ / ٢٤٢.

(٤) سورة الإسراء: ٢٣.

أنهما السبب الظاهر في وجود المتولد بينهما. وفي جعل الإحسان إلى الأبوين قريناً لتوحيد الله وعبادته من الإعلان بتأكد حقهما والعناية بشأنهما ما لايخفى، وهكذا جعل سبحانه في آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره، فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾[1]»[2].

وقال سيد قطب: «إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد، وإلى التضحية بكل شيء حتى بالذات. وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر؛ كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين، فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلهما الأجل - وهما مع ذلك سعيدان!

فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام، إلى الزوجات والذرية، وهكذا تندفع الحياة.

ومن ثم لايحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء، إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف!

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله»[3].

---

(١) سورة لقمان: ١٤.

(٢) تفسير فتح القدير ٣ / ٢١٨.

(٣) في ظلال القرآن ٤ / ٢٢٢١.

ـ وحينًا، يذكّر الله سبحانه عباده المؤمنين بأنهم إذا أحسنوا فإحسانهم لأنفسهم، فهذه القاعدة لاتتغير في الدنيا وفي الآخرة، وهي تجعل عمل الإنسان كله له، بكل ثماره ونتائجه، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا..** ﴾[1] .

ويقول عز وجل: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾[2] .

ـ وحينًا آخر، وعد الله عز وجل عباده المحسنين بأن لهم في الدنيا حياة حسنة، ومتعة حسنة، ومكانة حسنة، ثم أعدّ لهم في الآخرة خيرًا من الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿ **وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ** ﴾[3] .

وقال عز وجل: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾[4] .

ـ وفوق ذلك كله من أنواع الحياة الطيبة فإن الله سبحانه قد قرر بأنه يحب المحسنين، قال تعالى: ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[5] .

---

(١) سورة الإسراء: ٧.

(٢) سورة فصلت: ٤٦.

(٣) سورة النحل: ٣٠.

(٤) سورة الزمر: ١٠.

(٥) سورة البقرة: ١٩٥.

وقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(١) .

وقال سبحانه: ﴿وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢) .

المؤمن سليم الصدر من الغلّ والحسد:

إن من أسباب الحياة الطيبة السلامة من الغل والحسد. وإن أدنى ثمرات المحبة التي يغرسها الإيمان في قلب المؤمن هي سلامته من الغل والحسد، فإن أنوار الإيمان كفيلة أن تبدد ظلام الحسد من قلبه، وبذلك يمسي ويصبح سليم الصدر، نقيّ الفؤاد، يدعو بما دعا به سلفه الصالح: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٣) .

والمؤمن لايحسد؛ لأنه يحب الخير لعباد الله جميعًا، وهو لايعارض ربه في رعاية خلقه أو تقسيم رزقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾(٤) .

والمؤمن لايحسد؛ لأن همته منوطة بما هو أرفع وأبقى من الدنيا التي يتنافس عليها الناس ويتحاسدون، وإنما يوجه همته إلى معالي الأمور، إلى

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٤ .

(٢) سورة المائدة: ١٣ .

(٣) سورة الحشر: ١٠ .

(٤) سورة الإسراء: ٣٠ .

النعم الباقية : إلى الآخرة والجنة .

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : **«لاحسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلّمها»**(١) .

والمؤمن لايحسد ولايبغض، لأن الحسد والبغضاء من بذور الشيطان، والمحبة والصفاء من غرس الرحمن. قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾(٢) .

وقال عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾(٣) .

وهكذا تتجلى أهمية الإحسان إلى الناس، والبعد عن الغل والحسد في تحقيق الحياة الطيبة، بل إنه أمر مجرب ومشاهد، فإننا نجد الذي يحسن إلى الناس، والذي لايغلّ ولايحسد من أسعد الناس، ومن أكثرهم قبولاً في هذه الحياة.

٧ ـ عدم طلب الشكر إلا من الله :

ومن أسباب الحياة الطيبة، وأنفع الأمور لطرد الهم في الحياة، أن يوطن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، رقم الحديث : ٢٦٨ (٨١٦)، بشرح النووي ٦ / ٩٧ ـ ٩٨ .

(٢) سورة المائدة : ٩١ .

(٣) سورة مريم : ٩٦ .

المؤمن نفسه على أن لايطلب الشكر إلا من الله ، فإذا أحسن إلى من له حق عليه، أو من ليس له حق، علم أن هذا رجاء ثواب الله ورضاه، فلا يطلب منه مجازاة تكافئه، ولا أن يشكره عند الناس.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا** ﴾(١) .

قال سيد قطب في ظلال هذه الآية: «وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة النبيلة الكريمة، ووسيلة الإشباع لحاجات المحاويج. ولكن صور الإحسان ووسائله قد تتغير بحسب البيئات والظروف، فلا تظل في هذه الصورة البدائية المباشرة. إلا أن الذي يجب الاحتفاظ به هو حساسية القلوب، وحيوية العاطفة والرغبة في الخير ابتغاء وجه الله ، والتجرد عن البواعث الأرضية من جزاء أو شكر أو نفع من منافع الحياة!»(٢) .

٨ ـ اجتماع الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر، وقطعه عن الحزن على الوقت الماضي:

ومن أسباب الحياة الطيبة أن يجمع المؤمن فكره كله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر، وأن يقطعه عن الحزن على الوقت الماضي، ولهذا استعاذ النبي ـ ﷺ ـ من الهم والحزن، فقال: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن و البخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**»(٣) .

(١) سورة الإنسان: ٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٨٢ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ من غلبة الدين، رقم الحديث: ٦٣٦٣ ، فتح الباري ١١ / ١٧٣ .

فليكن المؤمن ابن يومه، يجمع جده واجتهاده في إصلاح يومه ووقته الحاضر، فإن جمع القلب على ذلك يوجب تكميل الأعمال، ويتسلى به العبد عن الهم والحزن. والنبي -ﷺ- إذا دعا بدعاء أو أرشد أمته إلى دعاء فهو يحث -مع الاستعانة بالله والطمع في فضله- على الجد والاجتهاد في التحقق لحصول ما يدعو بحصوله، والتخلي عما كان يدعو لدفعه، لأن الدعاء مقارن للعمل، فالمؤمن يجتهد فيما ينفعه في الدين والدنيا، ويسأل ربه نجاح مقصده، ويستعينه على ذلك[1].

قال رسول الله -ﷺ- : «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ماينفعك واستعن بالله ولاتعجِزْ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»[2].

ثم إن الجد لاينافي الندم على ما كان من تقصير، فإن النفس اللوامة نفس في طريقها إلى الاستقامة، وهي التي تلوم نفسها على ما فات وتندم على الشرلِمَ فعلته، وعلى الخير لِمَ لَمْ تستكثر منه، كما أن التقصير السابق يجب أن يكون حافزًا لتعويض ما فات.

٩ ـ الأمور المادية، والنظر فيها إلى من هو دونك:

ولاشك في أن للجانب المادي مكانًا في تحقيق الحياة الطيبة، كيف؟ وقد

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السعيدة، ص: ٢٠.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب الإيمان بالقدر، رقم الحديث: ٣٤ (٢٦٦٤)، بشرح النووي ١٦/ ٢١٥.

قال رسول الله - ﷺ - : **«ثلاث من السعادة وثلاث من الشقاوة: المرأة تراها تعجبك، وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون وطية فتلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق. ومن الشقاوة: المرأة تراها فتسوءك، ، وتحمل لسانها عليك، وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون قطوفًا، فإن ضربتها أتعبتك، وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق»**[١] .

سئل الحسن البصري عن قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾[٢] ، فقال: «أن يري الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله ، لا والله ، لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدًا أو ولد ولد أو أخًا أو حميمًا مطيعًا لله عز وجل»[٣] .

وإذا كان الجانب المادي له مكان في تحقيق الحياة الطيبة ، فإنه لايعني أنه المكان الأول ولا الأفسح ، والمدار فيه على الكيف لا على الكم ، بل الرسول - ﷺ - أرشدنا إلى أن ننظر إلى من هو دوننا في أمور الدنيا ، فقال :

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٢ / ١٦٢ ، وقال: هذا حديث حسن صحيح الإسناد ، من خالد ابن عبد الله الواسطي ، إلى رسول الله - ﷺ - تفرد به محمد بن بكير عن خالد ، إن كان حفظه فإنه صحيح على شرط الشيخين ، وقال الذهبي: محمد ، قال أبو حاتم: صدوق يغلط ، وقال يعقوب بن شيبة: ثقة . قلت: ونص عبارة أبي حاتم في تهذيب التهذيب ٩ / ٨١ - ٨٢ : صدوق عندي يغلط أحيانًا ، ونقل توثيقه عن جمع ، ومثله لايقل حديثه عن درجة الحسن ، والله أعلم .

(٢) سورة الفرقان: ٧٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٣ ، وانظر: تفسير الطبري ٩ / ٤٢٤ ، وتفسير الدر المنثور ٥/ ١٤٩ .

«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولاتنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لاتزدروا نعمة الله عليكم»(١) .

وفي رواية في البخاري أن الرسول - ﷺ - قال : **«إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخَلق، فينظر إلى من هو أسفل منه ممن فُضِّل عليه»**(٢) .

هذا في أمور الدنيا ، لأن المؤمن إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل ، رآه يفوق كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها ، وفي الرزق وتوابعه ، مهما بلغت به الحال ، فيزول قلقه وهمه وغمه ، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها .

«وفي الحديث دواء الداء ؛ لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يأمن أن يؤثر ذلك فيه حسداً ، ودواؤه أن ينظر إلى من هو أسفل منه ليكون ذلك داعيًا إلى الشكر»(٣) .

أما في أمور الآخرة فانظر إلى من هو أعلى منك ، لتدرك تقصيرك وتفريطك ، ولاتنظر إلى من هلك كيف هلك - إلا لأخذ العبرة - ولكن انظر إلى من نجا كيف نجا ، لكي تكون من المسابقين إلى المغفرة والجنة ، قال تعالى : **﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ**

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، رقم الحديث : ٩ ( )، شرح النووي ١٨ / ٩٧ .
أجدر : أحق . وتزدروا : تحقروا .

(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقائق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه، رقم الحديث : ٦٤٩ ، فتح الباري ١١ / ٣٢٢ .

(٣) فتح الباري ١١ / ٣٢٣ .

الْعَظِيمِ ﴾[١]. وقال عز وجل: ﴿ **خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾[٢].

١٠ ـ اليقين بأن سعادة المؤمن الحقيقية في الآخرة:

وبعد أن ذكرنا الأسباب السابقة التي تتحقق بها الحياة الطيبة، فهناك سبب آخر له أهميته في تحقيق الحياة الطيبة، وهذا السبب يتمثل في إيمان المؤمن العميق، ويقينه التام، بأن الفوز الحقيقي، والسعادة الحقيقية للمؤمنين في الآخرة، لا في الدنيا، وذلك حين يدخلهم الله جنات لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبدًا.

قال تعالى: ﴿ **فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾[٣].

وقال عز وجل: ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ** ﴾[٤].

وقال سبحانه: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾[٥].

---

(١) سورة الحديد: ٢١.
(٢) سورة المطففين: ٢٦.
(٣) سورة آل عمران: ١٨٥.
(٤) سورة هود: ١٠٨.
(٥) سورة التوبة: ٢٠ـ٢٢.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[١].

قال النووي في معنى الحديث: «إن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم، والراحة الخالصة من النقصان. وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصّل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد»[٢].

* * *

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، رقم الحديث: ١ (٢٩٥٦)، شرح النووي ١٨ / ٩٣.

(٢) شرح النووي ١٨ / ٩٣.

المبحث الخامس
سعي المؤمنين في الحياة الدنيا للآخرة ومقتضياته

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾[(١)] .

وقال عز وجل: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾[(٢)] .

لقد بين الله سبحانه وتعالى في الآية الأولى أن من أراد بأعماله الدار الآخرة، وما فيها من النعيم والسرور، وسعى لها سعيها الحقيق بها اللائق بطالبها، وهو الإتيان بما أمر به وترك ما نهى عنه، خالصًا لله غير مشوب، وكان الإتيان به على القاعدة الشرعية من دون ابتداع ولاهوى، وهو مؤمن بالله إيمانًا صحيحًا، مصدق بثوابه وعظيم جزائه على سعيه لها، فأولئك ـ المريدون للآخرة، الساعون لها سعيها ـ كان سعيهم مقبولاً عند الله غير مردود[(٣)] .

اشترط الله سبحانه في هذه الآية ثلاثة أمور في كون السعي مشكورًا.

١ ـ أن يريد الإنسان بعمله ثواب الآخرة ونعيمها، فإن لم تحصل هذه النية لم

---

(١) سورة الإسراء: ١٩ ـ ٢١.

(٢) سورة النجم: ٣٩ ـ ٤٢.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢، وتفسير فتح القدير ٣/ ٢١٧.

ينتفع بذلك العمل، كما قال رسول الله -ﷺ- في حديثه الشريف: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١).

٢ ـ أن يسعى لها السعي الذي يحق لها، ولا يكون ذلك إلا إذا كان من الطاعة.

٣ ـ أن يكون مؤمنًا إيمانًا صحيحًا؛ لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه إلا إذا كان من المؤمنين. قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾(٢) (٣).

قال سيد قطب: «والذي يريد الآخرة لابد أن يسعى لها سعيها، فيؤدي تكاليفها وينهض بتبعاتها، ويقيم سعيه لها على الإيمان. وليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى، فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية. ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه، فلا يكون عبدًا لهذا المتاع»(٤).

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿**وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ**

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، رقم الحديث: (١)، فتح الباري ١ / ١٥. ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله -ﷺ-: «**إنما الأعمال بالنيات**» رقم الحديث: ١٥٥ (١٩٠٧)، بشرح النووي ١٣ / ٥٣.

(٢) سورة المائدة: ٢٧.

(٣) انظر: تفسير فتح القدير ٣ / ٢١٧، وتفسير الكشاف ٢ / ٤٤٣، وتفسير المراغي ٥ / ٢٧-٢٨.

(٤) في ظلال القرآن ٤ / ٢٢١٨.

تَفْضِيلاً ﴾[١] : «أي : ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العليا ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»[٢] [٣] .

روي الإمام مسلم بسنده . . . عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : «**إن أهل الجنة ليتراءَوْن أهل الغُرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدُّرّيّ الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا : يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال : بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله، وصدّقوا المرسلين**»[٤] .

«والتفاوت في الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم، ومجال الأرض ضيق ورقعة الأرض محدودة . فكيف

---

(١) سورة الإسراء : ٢١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٣٢ .

(٣) ويدل على ما ذكره ابن كثير الحديث الذي رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : «**يا أبا سعيد، من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وجبت له الجنة، فعجب لها أبو سعيد، فقال : أعدْها عليّ يا رسول الله، ففعل، ثم قال : وأخرى يُرفع بها العبد مائةَ درجةٍ في الجنة ما بين كلَ درجتين كما بين السماء والأرض**، قال : وما هي يا رسول الله ؟قال : **الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله**» (صحيح مسلم كتاب الإمارة، باب بيان ما أعده الله تعالى للمجاهد في الجنة من الدرجات، رقم الحديث : ١١٦ (١٨٨٤)، بشرح النووي ١٣ / ٢٨).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف . . ، رقم الحديث : ١١ (٢٨٣١)، بشرح النووي ١٧ / ١٦٩ .

بهم في المجال الواسع وفي المدى المتطاول. كيف بهم في الآخرة التي لاتزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة؟

فمن شاء التفاوت الحق، ومن شاء التفاضل الضخم، فهو هناك في الآخرة؛ هنالك في الرقعة الفسيحة، والآماد المتطاولة التي لايعلم حدودها إلا الله. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، لا في متاع الدنيا القليل الهزيل»[١].

لايحصل الإنسان من الأجر إلا ما سعى هو لنفسه:

قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾[٢].

في هذه الآية دلالة واضحة على أن الإنسان ليس له إلا أجر سعيه وجزاء عمله، ولاينفع أحدًا عمل أحد[٣].

ومن سعي المؤمن وعمله لآخرته: ولد صالح يدعو له، وصدقة جارية من بعده، وعلم ينتفع به. وقد أخبرنا بذلك رسولنا ـ ﷺ ـ فقال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[٤].

قال النووي: «قال العلماء: معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته،

---

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٢١٩.

(٢) سورة النجم: ٣٩ـ٤١.

(٣) انظر: تفسير فتح القدير ٥ / ١١٤، وتفسير ابن كثير ٤ / ٢٢٧.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب مايلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم الحديث: ١٤ (١٦٣١)، شرح النووي ١١ / ٨٥.

وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة، لكونه كان سببها، فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية وهي الوقف»[١] .

وقال ابن كثير: «فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، [كما جاء في الحديث: أن أعرابيا أتى النبي - ﷺ - فقال: إن لي مالاً ووالدًا، وإن والدي يريد أن يحتاج مالي، قال: **أنت ومالك لوالدك، إن أولادكم من أطيب كسبكم، فكلوا من كسب أولادكم**»]، والصدقة الجارية كالوقف ونحوه، هي من آثار عمله، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ**﴾[٢] ، والعلم الذي نشره في الناس، فاقتدى به الناس بعده هو أيضًا من سعيه وعمله، وثبت في الصحيح: «**من دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئًا..**»[٣] .

فالمؤمن في الحياة الدنيا يشعر بالطمأنينة على سعيه للآخرة، وذلك لأن الله لن يضيع شيئًا من سعيه وعمله وكسبه؛ ولن يغيب شيء عن علمه سبحانه وميزانه الدقيق. وسينال كل امرئ جزاء سعيه وافيًا كاملاً لا نقص فيه ولاظلم.

وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة إلى جانب عدالة الجزاء. فتتحقق

---

(١) شرح النووي ١١ / ٨٥.

(٢) سورة يس: ١٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٧٧، والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة. . . ، رقم الحديث ١٦ (٢٦٧٤)، بشرح النووي ١٦ / ٢٢٧.

للإنسان قيمته الإنسانية القائمة على اعتباره مخلوقًا راشدًا مسؤولاً مؤتمنا على نفسه، كريمًا تتاح له الفرصة للعمل، ثم يؤخذ لما عمل وتتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء. عدالة مطلقة لايميل بها الهوى، ولا يقعد بها القصور، ولاينقص منها الجهل بحقائق الأمور[1].

مقتضيات سعي المؤمنين في الحياة الدنيا للآخرة:

كما ذكرنا سابقًا أن المؤمن يريد بأعماله الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور، فيسعى لها سعيها، ويؤدي تكاليفها، وينهض بتبعاتها، ويقيم سعيه على الإيمان. وهذا السعي يقتضي أمورًا ظاهرة، ويستلزم براهين حية يحققها المؤمن في واقع حياته، فيستحق بها جزاء سعيه وعمله في آخرته. فمن هذه الأمور:

(١) تحرير المؤمن من خوف الموت، ويقينه الكامل بأن الحياة الدنيا هي طريق إلى الحياة الآخرة:

إن حب الحياة والرغبة في البقاء غريزة ثابتة في النفس الإنسانية، وما أوجدها الله إلا لتؤدي دورًا إيجابيا بنّاءً في استمرار عمران الأرض وقيام شؤون الحياة، وبسببها قامت حضارات، وتحقق كثير من التقدم. ولكن الطواغيت الذين يريدون قهر الجماهير واستغلالهم وتسخيرهم لخدمتهم وتصريفهم ما يشاؤون انتبهوا إلى هذه الحقيقة فجعلوا التهديد بالموت السلاح التقليدي الذي يشهرونه على الشعوب والأفراد في سبيل إذلالهم. حتى إن

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٥.

القرآن الكريم ليحكي لنا أن بعض هؤلاء الطغاة ظن أنه يشارك الله سبحانه في صفة الإحياء والإماتة، كما قص الله سبحانه علينا ذلك في قصة الذي حاجّ إبراهيم في ربه، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[١].

وكم كان في تاريخ الطغاة مآسي نكّلوا فيها بأفراد أبرياء، وأبادوا مدنًا آمنة وأممًا... ثم باد هؤلاء حتى لم يعد لهم من باقية. قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾[٢].

أما الإسلام في هذا الموضوع فقد قرر أن الله عز وجل هو الذي يحيي ويميت، فيحرر الإنسان من خوف الموت. قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾[٣].

وقرر أن الأجل محدد محتوم لايمكن أن يتقدم ساعة أو يتأخر، وأن هذا في الأمم كما هو في الأفراد. قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي**

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٨.

(٢) سورة الفجر: ٦-١٤.

(٣) سورة المؤمنون: ٧٩-٨٠.

لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١) .

وقال عز وجل : ﴿ **وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾(٢) .

وقال سبحانه : ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾(٣) .

ولقد جرى في تاريخ فتوحات الإسلام المجيدة أن بعض طواغيت الحكام الذين واجهتهم جيوش رسول الله - ﷺ - حاملة راية التوحيد والتحرير هددوا هذه الجيوش بالإبادة والموت ، فكان رد قادة المسلمين عليهم أن هؤلاء المجاهدين أحرص على الموت من حرصكم أنتم على الحياة ، وهو يعلمون أن لكل امرئ أجلاً لا يمكن أن يتقدمه ساعة ولا يتأخر عنه .

روى ابن كثير أن المغيرة بن شعبة دخل على رستم فقال رستم : ما جاء بكم؟ قال : إنا كنا قومًا في شر وضلالة ، فبعث الله إلينا نبيًا فهدانا الله به (وذكر كلامًا يفهم منه أنهم يريدون تحرير بلاد الفرس من عبادة العباد والأوثان) فقال رستم : إذن نقتلكم . قال المغيرة : إن قتلتمونا دخلنا الجنة ، وإن قتلناكم دخلتم النار وأدّيتم الجزية(٤) .

---

(١) سورة الزمر : ٤٢ .

(٢) سورة المنافقون : ١٠-١١ .

(٣) سورة الأعراف : ٣٤ .

(٤) البداية والنهاية ٧ / ٤١ .

وما تزال كلمة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ التي قالها لخالد ـ رضي الله عنه ـ تدوي في أعماق كل مسلم: «احرص على الموت توهب لك الحياة»(١).

ولقد صدّق الواقع التاريخي هذا القول... ذكر ابن كثير أنه لما حضرت خالدًا ـ رضي الله عنه ـ الوفاةُ بكى ثم قال: «لقد حضرت كذا وكذا زحفًا وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، وها أنا ذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير. فلا نامت أعين الجبناء»(٢).

ولقد حفل تاريخنا الإسلامي بعدد كبير من المجاهدين الشجعان الذين كانوا يواجهون الظلمة بالحق لا يبالون بما يصيبهم، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

وقد عبر عن هذا التحرير الذي يفجّر الجرأة والإقدام الإمام المجاهد ابن تيمية ـ رحمه الله ـ، فقال: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي في قلبي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني. أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»(٣).

وإذا كان المؤمنون يحررون أنفسهم من خوف الموت، فإنهم كذلك على يقين كامل بأن حياتهم الدنيا ليست هي الحياة كل الحياة، وإنما هي معبر وطريق إلى الحياة الآخرة، الحياة الخالدة الباقية، التي لا يكون للموت فيها سبيل إليهم، قال تعالى: ﴿**لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾(٤).

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ١٢٥.

(٢) البداية والنهاية ٧/ ١١٤.

(٣) أحاديث القصاص، ص: ٥٠، والذيل على طبقات الحنابلة ٤/ ٤٠٢

(٤) سورة الدخان: ٥٦ ـ ٥٧.

ولهذا ، فإن المؤمنين الذين أرادوا الآخرة ، وسعوا لها سعيها ، لا يفزعون من الموت ، ولا يفرون منه ، بل هم يقبلون عليه راغبين فيه ، في مواقف الدفاع عن دين الله ، والاستشهاد في سبيله ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾(١) .

قال أبو السعود عند قوله تعالى : ﴿ **فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ** ﴾ : «وقرئ(٢) بتقديم المبني للمفعول ، رعاية لكون الشهادة عريقة في الباب ، و إيذانًا بعدم مبالاتهم بالموت في سبيل الله تعالى ، بل بكونه أحب إليهم من السلامة . . »(٣) .

وقال سيد قطب : «إن الدخول في الإسلام صفقة بين متبايعين . . الله سبحانه فيها هو المشتري والمؤمن فيها هو البائع . فهي بيعة مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن شيء في نفسه ولا في ماله يحتجزه دون الله سبحانه ودون الجهاد في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا ، وليكون الدين كله لله . فقد باع المؤمن لله في تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم ، هو الجنة ، وهو ثمن لا تعدله السلعة ، ولكنه فضل الله ومنّه»(٤) .

---

(١) سورة التوبة : ١١١ .

(٢) قرأ الأعمش والنخعي وحمزة والكسائي «وخلف» بتقديم المبني للمفعول على المبني للفاعل (تفسير فتح القدير ٢ / ٤٠٧ ، وانظر : التلخيص في القراءات الثمان للإمام أبي معشر عبد الكريم الطبري ، ص : ٢٨٠ ، تفسير البحر المحيط ٥ / ١٠٢ ، وزاد المسير ٣ / ٣٤٣) .

(٣) تفسير أبي السعود ٤ / ١٠٥ .

(٤) في ظلال القرآن ٣ / ١٧١٤ .

إن الذين يؤمنون بالحياة الآخرة وما فيها من نعيم الله ورضوانه، ويسعون لها سعيها ليجدون في الموت وصولاً إلى تلك الحياة الطيبة في الآخرة، فيعدون أنفسهم للقاء الله، مزودين بالأعمال الصالحة، فالموت محبوب طعمه عندهم، لأنه يقطع عليهم رحلة الحياة الدنيا الشاقة، حيث يبدءون الحياة الطيبة الخالدة.

ثم إن المؤمنين الذين يسعون لآخرتهم ليجدون الطمأنينة في حياتهم الدنيا، حيث لايفزعهم شبح الموت الذي يفزع غيرهم من الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.. ولهذا فهم يقطعون رحلة حياتهم الدنيا موصولة بالحياة الآخرة، فيغرسون في دنياهم أطيب المغارس، ويجنون أطيب الثمرات، يقول الله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(١)، وكان من دعاء المؤمنين: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾(٢)(٣).

(٢) النجاح في الدنيا والآخرة بالعمل:

إن المؤمن الذي أراد الآخرة وسعى لها سعيها يوقن أن النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة موقوف على العمل. الجنة في الآخرة ليست جزاءً لأهل البطالة والكسل والفراغ، بل لأهل الجد والسعي والعمل، قال تعالى:

---

(١) سورة النحل: ٩٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٠١.

(٣) انظر: الإنسان في القرآن، لعبد الكريم الخطيب، ص: ٢٣٠.

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[١] .

وقال عز وجل : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٢] .

الإسلام دين ودنيا ، فكما جاءت دعوة الإسلام إلى عبادة الله وحده ، جاءت أيضًا بنظام كامل لبناء المجتمع ، وكان أول ما ركز عليه العمل لكونه قيمة من قيم الإسلام لبناء المجتمع .

ومن شدة اهتمام الإسلام بالعمل ورد في القرآن الكريم ٣٦٠ آية[٣] تتحدث عن العمل ، كما ذكر القرآن الكريم الإيمان مقرونًا بالعمل في أكثر من سبعين آية[٤] من آياته ، ولم يكتف بمجرد العمل ، ولكنه يطلب عمل «الصالحات» وهي كلمة جامعة من جوامع القرآن تشمل كل ما تصلح به الدنيا والدين ، وما يصلح به الفرد والمجتمع ، وما تصلح به الحياة الروحية والمادية معًا .

وقد هدمت عقيدة الإسلام ذلك الطمع الخادع ، والأماني الفارغة التي جعلت صنفًا من الناس يحسبون الجنة حكرًا لهم ، أو عقارًا سيتوارثونه عن الآباء والأجداد ، يستحقونها بمجرد الانتساب إلى دين معين أو الدخول تحت عنوان خاص . فأصدر الإسلام حكمه الحاسم ؛ ليبدد هذه الأماني والطمع ، وأنه إسلام الوجه لله ، وإحسان العمل .

---

(١) سورة الزخرف : ٧٢ .

(٢) سورة السجدة : ١٧ .

(٣) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص : ٤٨٣ ـ ٤٨٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص : ٤٨٣ ـ ٤٨٤ .

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾[١].

وقال عز وجل: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٢].

وعدالة الله عز وجل تقضي أن يكون الجزاء حسب الجهد المبذول، وأن تكون درجة الإنسان عند الله بقدر ما يقدم من عمل:

قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[٣].

وقال عز وجل: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[٤].

وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[٥].

---

(١) سورة النساء: ١٢٣ ـ ١٢٥.

(٢) سورة البقرة: ١١١ ـ ١١٢.

(٣) سورة الزلزلة: ٧ ـ ٨.

(٤) سورة الأحقاف: ١٩.

(٥) سورة آل عمران: ١٦٢ ـ ١٦٣.

ولايذهب الظن أو الوهم بأحد، فيحسب أن ارتباط النجاح والفلاح بالعمل مقصور على الآخرة وحدها، فإن سنة الله في الجزاء واحدة، ورب الدنيا والآخرة واحد؛ فالله عز وجل يقول: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** ﴾[1] .

وسنة الله ـ التي أخبرنا القرآن أنهالاتتبدل ولاتتحول ـ لاتسمح لفارغ أو قاعد أو كسول أن يظفر بما يريد، أو يحقق ما يأمل، بل إن سنن الله في الدنيا لاتفرق في الجزاء على العمل بين مؤمن وكافر . . . فمن عمل أجر، ومن قعد حُرِم، مهما كان دينه أو اعتقاده.

قال تعالى: ﴿ **كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** ﴾[2] .

صرّح الله سبحانه في هذه الآية أنه يمدّ كلا الفريقين من مريدي العاجلة، ومريدي الآخرة، الساعي لها سعيها وهو مؤمن في هذه الدنيا من عطائه، فيرزقهما جميعًا من رزقه إلى بلوغهما الأمد؛ فإن عطاءه ليس بالممنوع من أحد من خلقه مؤمنًا كان أو كافرًا، فكلهم مخلوق في دار العمل، فوجب إزالة العذر ورفع العلة وإيصال متاع الدنيا إليهم على القدر الذي يقتضيه صلاحهم[3] .

تكريم الإسلام للعمل والعامل، ونفرته من التعطيل والكسل:

لقد كفل الإسلام للعامل حياة حرة كريمة مستقرة، فحارب التعطل في كل

---

(١) سورة الكهف: ٣٠.

(٢) سورة الإسراء: ٢٠.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٨ / ٥٦، وتفسير المراغي ٥ / ٢٨.

صوره، وحارب الفقر بكل وسيلة، فلم يسمح للفرد بالتعطل بدعوى أنه قد كتب عليه أن يعيش فقيراً، بل حبب الإنسان في العمل ودعاه إليه، حتى يستطيع الفرد أن يكسب من عمل يديه. ولا عذر لأحد في ترك العمل؛ لأن الفقر مرض اجتماعي يجب درؤه، فقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالسعي والعمل. يقول جل وعلا: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[2][3].

ولعل من أبرز النماذج الحية لتكريم الإسلام للعمل، ولاهتمام الإسلام به، ما حدث بعد استقرار المسلمين في المدينة المنورة بعد الهجرة، حيث بدأوا يعملون ليعيشوا من ثمرة عملهم، ومن عرق جبينهم، وأصبح العمل هو مصدر الرزق لكثير من المهاجرين الذين تركوا أرضهم وديارهم وعاشوا بعيداً عن وطنهم في المدينة المنورة.

فلقد قبل المهاجرون في أول الأمر ما أظهره إخوانهم الأنصار من كرم الضيافة، ولكنهم أبوا بعد ذلك إلا أن يبحثوا عن موارد رزق لهم، ولا يعوّلوا على رابطة المؤاخاة التي سعد بها الأنصار، فكان منهم من اشتغل بالتجارة، ومنهم من عمل بالزراعة، مستعذبين متاعب العمل على أن يكونوا عالة على

---

(١) سورة الملك: ١٥.

(٢) سورة الجمعة: ١٠.

(٣) الإسلام شريعة الحياة، لتوفيق على وهبة، ص: ٢١٤.

إخوانهم، ذلك لأن عزة الإيمان لاترضى لصاحبها أن يكون عالة على أحد[١]، بل تطلب منه أن يعطي أكثر مما يأخذ، فاليد العليا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى[٢].

ولاشك أن هذه التجربة التي خاضها المهاجرون في المدينة تمثل أول تطبيق عملي لمبدأ الإسلام في تأكيده قيمة العمل والإنتاج لما تؤدي إليه من خلق مجتمع سليم في علاقات أفراده بعضهم ببعض من جانب، وفي علاقاتهم بالدولة من جانب آخر، وهو الهدف الأساسي للعدالة الاجتماعية.

فالعمل في الإسلام هو القوة الكفيلة بإذابة الفوارق بين الطبقات وإنشاء علاقات اجتماعية إنسانية صحيحة بين الناس تقوم على الحق والعدل والتعاون، وتقضي على النظم الفاسدة التي ترتكز على استغلال القوي للضعيف وامتصاص عرق الأجير واستنزاف قواه لحساب صاحب المال المرفه المتعالي، وازدياد الفقير فقراً والقوي ثراءً، وتوسيع الهوة بين الأفراد والجماعات، وما يترتب عن ذلك كله من صراعات وأحقاد ومظالم وفوضى يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلاً بعد جيل، وتظل تتخذ في كيان المجتمع حتى

---

(١) نرى هذا النموذج الحيّ واضحًا في الحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه، حيث إن عبد الرحمن بن عوف لم يقبل أن يكون عالة على أخيه سعد بن الربيع، وذلك حيث قال لعبد الرحمن بن عوف: إني أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالي نصفين، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلّت تزوجتها، قال، فقال عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع.. الحديث (صحيح البخاري ٥ / ٣٩، في فتح الباري ٤ / ٢٨٨، مسند أحمد ٣ / ٢٧١).

(٢) ورد في الحديث: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**» رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، رقم الحديث: ٩٤ (١٠٣٣)، بشرح النووي ٧ / ١٢٤.

يتفسخ وتسقط دولته.

ومن ثم رفع الإسلام المكانة التي أولاها للعمل في المجتمع، فجعله محور العلاقات الاجتماعية، فلا كسب إلا كسب العمل، والمكان الأسمى في المجتمع للعاملين، العمل هو أساس التقييم للأفراد والجماعات.. وبلغ من تأكيد قيمة العمل أن جعله الإسلام عبادة، وهي منزلة لم تصل إليها النظم المعاصرة التي قصرت فائدته على سد حاجات الإنسان المادية والمعنوية.

وفي ضوء ما تقدم نستطيع أن نقرر أن العمل له مكانته المحترمة، وأنه كان حجر الزاوية في بناء مجتمع دار الهجرة، وبالتالي في تأسيس الحضارة الإسلامية التي بنيت أصولها في المدينة بعد إقامة أول دولة في الإسلام برياسة النبي - ﷺ -، ثم ترعرعت حتى أصبحت شجرة يتفيأ ظلالها العالم كله[١].

وهكذا تتجلى لنا أهمية العمل في تحقيق نجاح الإنسان في الدنيا والآخرة، وهذا العمل الذي يحبب فيه الإسلام ويدعو إليه هو العمل الصالح الذي تزكو به النفس، وتحسن به الأخلاق، وتتسع به دائرة البر، وتقوى به العلاقات الإنسانية، وتصان به الدين والأبدان والأعراض والأموال والقلوب والعقول.

العمل الذي ينمي الإنتاج، ويزيد الثروة، ويحفظ كرامات الأفراد،

---

(١) انظر: على طريق الهجرة، لحسن فتح الباب، ص: ٢٠٢، والهجرة النبوية للدكتور محمد عبد القادر أبي فارس، ص: ٦٨.

ويصل بالأمة إلى تقدمها من السيادة والمجادة.

وما لم يحقق الإنسان هذا العمل الصالح، وهذه الوظيفة الكريمة في واقع حياته، فهو في خسر يحيق بالبشرية في كل مكان على ظهر الأرض، وفي ضياع تعانيه البشرية في الدنيا قبل الآخرة.

قال تعالى: ﴿ **وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾[1] .

وقال سبحانه: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾[2] .

(٣) عمارة الأرض:

ومن مقتضيات سعي المؤمنين في الحياة الدنيا للآخرة أن يكونوا كادحين عاملين مؤدين دورهم في الحياة، آخذين منها معطين لها. مستجيبين لما أراده الله عز وجل من بني آدم حين جعلهم عُمَّاراً يعمرون الأرض ويستغلونها.

قال تعالى: ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ** ﴾[3] .

لقد قرر الله سبحانه في هذه الآية أنه ابتدأ خلق الناس من الأرض، إذ خلق منها أباهم آدم فهو أبو البشر، ومادة التراب هي المادة التي خلق منها آدم. .

---

(١) سورة العصر: ١ - ٣.
(٢) سورة التين: ٤ - ٦.
(٣) سورة هود: ٦١.

وجعلهم عمَّارًا يعمرونها ويستغلونها بالزراعة والصناعة والبناء وغيرها من أنواع عمارة الأرض، كما قال تعالى: ﴿ **وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ** ﴾[1] . فكون الأرض قابلة للعمارة النافعة للإنسان، وكون الإنسان قادرًا عليها، دليل على وجود الصانع الحكيم، الذي قدر فهدى، ومنح الإنسان العقل الهادي والأداة لتسخير موجودات الدنيا، وجعل له القدرة على التصرف[2] .

ولو جاءت الأرض على ما هي عليه الآن من تنوع الكنوز وعجائب القوانين دون أن يكون للإنسان ما يتجاوب به معها من الملكات لبدا كأنه أمر خال من الحكمة. . أو كأن ما في الأرض خلق لسيد آخر غير هذا الإنسان.

فجاءت هذه المقابلة الدقيقة بين هذين الطرفين آية تتضمن أقطع الدلالات على مشيئة الخالق تعالى في عمارة الأرض.

قال الفخر الرازي: «واعلم أنه في كون الأرض قابلة للعمارات النافعة للإنسان، وكون الإنسان قادرًا عليها، دلالة عظيمة على وجود الصانع. ويرجع حاصله إلى ما ذكره الله تعالى في آية أخرى، وهي قوله: ﴿ **وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ** ﴾[3] . . . » وذلك لأن حدوث الإنسان مع أنه حصل في ذاته العقل الهادي، والقدرة على التصرفات الموافقة، يدل على وجود الصانع الحكيم، وكون الأرض موصوفة بصفات مطابقة للمصالح، موافقة للمنافع، يدل على

---

(١) سورة الحجر: ٨٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٧/ ٦١، وتفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٩، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٥، وتفسير المراغي ٤/ ٥٣، والتفسير المنير ١٢/ ٩٩.

(٣) سورة الأعلى: ٣.

وجود الصانع الحكيم»[١] .

العمارة بين الأمر الكوني والأمر الشرعي :

نحن بصدد بيان الدلالة العمرانية التي تبدو من ذلك التوافق المحكم بين قوانين عقل الإنسان وقوانين طبيعة الأرض ؛ فأدنى ما نفهمه من ذلك التوافق هو أن الله إذا آثر الإنسان بتلك المواهب ألقى إليه بعبء عمارة الأرض، فما برح العقل مناط التكليف . . ولا تكليف لمن لا عقل له، قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . . ﴾[٢] ، فتلك المواهب إنما هي «أمر كوني» يحدد للإنسان اتجاهه في هذه الأرض، ويجعل عمارتها بعض ما ألقي إليه من تكاليف .

وإنا لنرى في القرآن الكريم ما يترجم هذا الأمر الكوني إلى أمر شرعي يلقي على الإنسان واجب العمارة على مثل ما نرى[٣] في قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[٤] .

قال ابن العربي : «قال بعض علماء الشافعية : الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله على الوجوب»[٥] .

وقال الجصاص : «وفيه الدلالة عى وجوب عمارة الأرض للزراعة

---

(١) التفسير الكبير ١٨ / ١٧ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

(٣) الثروة في ظل الإسلام، ص : ٧٠ .

(٤) سورة هود : ٦١

(٥) تفسير أحكام القرآن لابن العربي ٣ / ١٨ .

والغراس، والأبنية»[١].

على أن العمارة ـ بمانعرف في أيامنا هذا ـ يمتد أفقها إلى أبعد مما عرف سلفنا الصالح من «الزراعة والغراس والأبنية» إلى استثارة ما في الأرض من أنواع المعادن، والتوسع في المنافع العمرانية، باستحداث المصنوعات المختلفة، والمرافق الضرورية، والوسائل الميسرة للمصالح، وما يتبع ذلك كله من تبادل السلع، ونقل المتاجر أو جلبها من هنا وهناك.. وإنا لنقرأ في ذلك قول الله تعالى: ﴿ ... وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[٢]، فنرى فيه إشارة تلفت النظر إلى أفق العمران الصناعي، وترشد إلى مزايا الحديد، وتوجه الهمة إلى استخراجه.. والله تعالى يعلم من عباده حرصهم على ماينفعهم، وقد أشار إلى عنصر المنفعة في الحديد بقوله: ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ لينشطوا إلى استخراجه، ويتنافسوا في صناعته، فيحصل العمران الذي أمروا بإقامته[٣].

ففي الحديد منافع كثيرة للناس في شؤون معايشهم وتحقيق حاجياتهم في المنازل والمصانع والمعامل والمباني والأسلحة وآلات الزراعة ووسائل النقل والمواصلات البرية والبحرية والجوية.. وتكادحضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد.

وقد أنزل الله الحديد وخلقه للناس للإشارة إلى الجهاد بالسلاح؛ وليعلم

---

(١) تفسير أحكام القرآن للجصاص ٣ / ٢٣.

(٢) سورة الحديد: ٢٥.

(٣) الثروة في ظل الإسلام، للبهي الخولي، ص: ٧٠ـ٧١.

علم مشاهدة حسية من ينصر شرعه ودينه وينصر منهجه ودعوته، أما الله سبحانه فلا يحتاج منهم إلى نصر: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[(١)] .

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ : «أي: وجعلنا الحديد رادعًا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة»[(٢)] .

وندرك من هذا مدى ضرورة استعمال الحديد وأنواع المعادن الأخرى لإقامة سلطان الله عليه في الأرض.. ونتبين تبعًا لذلك أن عمارة الأرض بالصناعة وغيرها ليست مقصودة لذاتها، بل لهذا المقصد الذي يشرف كل شيء في الوجود أن يكون عاملاً له، موجهًا إليه؛ إقامة أحكام الله في الأرض، ونصر منهجه ودعوته فيها.. وذلك مما يقتضيه سعي المؤمنين في الحياة الدنيا للآخرة.

(٤) المؤمنون لايرون في الحياة مكانًا للعبث أو اللعب:

ومن مقتضيات سعي المؤمنين في الحياة الدنيا للآخرة أنهم لايرون في الحياة مكانًا للعبث أو اللعب؛ ذلك لأنهم يعرفون غاية حياتهم، وأنهم لم يخلقوا عبثًا بلا قصد ولا حكمة، وإنما خلقهم الله للعبادة والتهذيب والتعليم وإقامة أوامر الله تعالى في هذه الأرض، وهم يرجعون في الدار الآخرة إلى الله.

قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾[(٣)] .

وقال عز وجل: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[(٤)] .

---

(١) انظر: تفسير النور ٢٧/ ٣٣٤، وتفسير المراغي ٩/ ١٨٣، وفي ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩٥.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٧٦.
(٣) سورة المؤمنون: ١١٥.
(٤) سورة القيامة: ٣٦.

والذين يسعون لآخرتهم يعرفون ـ أيضًا ـ أن الله سبحانه أنكر على الذين يبذلون جهودهم ومهاراتهم وبراعاتهم لأجل التفاخر والتطاول؛ لأن ذلك تضييع للزمان، وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لايجدي في الدنيا ولا في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ**[1] **آيَةً تَعْبَثُونَ** (١٢٨) **وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** (١٢٩) **وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ** (١٣٠) **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾[2].

قال صاحب الظلال: «والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانًا يبدو للناظر من بعد كأنه علامة. وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة. ومن ثم سماه عبثًا. ولو كان لهداية المارة، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: ﴿ **تَعْبَثُونَ** ﴾.. فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد، وتنفق البراعة، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة»[3].

فالمؤمنون الذين يسعون لآخرتهم حقيقة السعي يدركون تلك الحقائق فيضعون مناهج حياتهم على مقتضاها، فلا يرون في الحياة مكانًا للعبث أو

---

(١) اختلف العلماء في المراد بـ «ريع» على ثلاثة أقوال: الأول: أنه المكان المرتفع، وهو قول الزجاج. والثاني: أنه الطريق، وبه قال قتادة. والثالث: الفجُّ بين الجبلين، قاله مجاهد. والآية: العلامة (تفسير زاد المسير ٦ / ٤٥، وانظر: تفسير الطبري ٩ / ٤٥٩ ـ ٤٦٠).

(٢) سورة الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣١.

(٣) في ظلال القرآن ٥ / ٢٦٠٩.

اللعب.. وتقع أنظارهم في كل شيء على لب المنفعة فيه فيركزون صلتهم به على توفير منفعته، لا فرق في ذلك بين ما تراه منها كبيراً ذا قدر، أو ضئيلاً لا قدر له، حتى ليقول رسول الله - ﷺ - : «**من قتل عصفوراً عبثًا، عج**[١] **إلى الله يوم القيامة، يقول: يا رب، إن فلانًا قتلني عبثًا ولم يقتلني منفعة**»[٢]. فالقتل هو القتل بالنسبة للعصفور، ولكن اعتراضه أن يذهب في عبث لا في منفعة.

ومما يقرب من هذا أن يستخدم المرفق فيما أعد له لا في غيره، وقد جاء نحو ذلك فيما رواه البخاري بسنده.. عن سعد بن إبراهيم قال: سمعت أبا سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «**بينما رجل راكب على بقرة التفتتْ إليه فقالت: لم أُخلق لهذا، خُلقتُ للحراثة، فقال: آمنتُ به أنا وأبو بكر وعمرُ...**»[٣]. وهو تعليم حكيم يخطط العمران في بيئة مبتدئة، فكانت البقرة أنسب حيوان في البيئة للتمثيل بمراده دون الجمل والشاة - مثلا - ؛ ذلك إلى أن البقرة لا تنقرض بالتحول من البدائية إلى الحضارة. فهي من المرافق المشتركة بين البيئات المختلفة[٤].

وبما سبق تتبين صورة حية من سعي المؤمنين في الحياة الدنيا للآخرة ومقتضياته، فهم بذلك الوارثون للأرض، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ**

---

(١) العج: رفع الصوت (النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٨٤).

(٢) رواه أحمد في مسنده ٤/ ٣٨٩، وسنده جيد (الفتح الرباني ١٦/ ٢٨)، ورواه النسائي في سننه كتاب الأضاحي، باب من قتل عصفوراً بغير حقها، رقم الحديث: ٤٤٤٦ (سنن النسائي بشرح السيوطي ٧/ ٢٣٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الحرث، باب استعمال البقر للحراثة، رقم الحديث: ٢٣٢٤، فتح الباري ٥/ ١١.

(٤) الثروة في ظل الإسلام، ص: ٣٦.

من بعد الذكر أن الأرض[(١)] يرثها عبادي الصالحون ﴾[(٢)]، المستحقون لوعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن، قال تعالى: ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[(٣)].

وما ذلك إلا لأنهم أقاموا وجودهم في هذه الحياة على الإيمان بالله واليوم الآخر، ذلك الإيمان الذي يفسح لهم في ميادين العمل والأمل، فإذا فاتهم شيء من أشياء هذه الدنيا، مدوا أبصارهم وآمالهم إلى الحياة الآخرة، وما ينتظرهم من النعيم المقيم فيها، وذلك هو الذي يجعل للحياة قيمة، ويجعل للإنسان خلافة متمكنة فيها.

* * *

---

(١) اختلف المفسرون في المراد بالأرض في الآية، فمنهم من قال: إنها في الدنيا، ذهب إليه ابن عباس. ومنهم من قال: إنها أرض الجنة، وهو قول مجاهد (انظر: تفسير الطبري ٩/ ٩٨-٩٩، وتفسير البغوي ٥/ ٣٥٨-٣٥٩).

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ [الأعراف: ١٢٨] (تفسير ابن كثير ٣/ ١٧٤-١٧٥)، فكأن ابن كثير - في تفسيره هذه الآية - يجمع بين القولين.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٥.

(٣) سورة النور: ٥٥.

الفصل الثاني

حياة المؤمنين في الآخرة

وتحته مباحث :

المبحث الأول : حياة المؤمنين في البرزخ.

المبحث الثاني : حياة الشهداء.

المبحث الثالث : حياة المؤمنين في منازل يوم القيامة.

المبحث الرابع : حياة المؤمنين في الجنة.

تمهيد

إن الحياة في تصور المؤمنين ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد، وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس؛ كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا.

فانطلاقًا من هذا التصور الصحيح، والفهم الدقيق، يسعى المؤمنون في الحياة الدنيا لآخرتهم التي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار. يسعون لآخرتهم؛ لأنهم يعلمون ـ علم اليقين ـ أن الآخرة خير للمؤمنين من الدنيا، فالحياة الدنيا كلها تعب ونصب وكبد، قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾(١) ، وقال عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ** ﴾(٢) ؛ فإذا مات المؤمن استراح وخرج إلى فضاء أوسع، وعالم أرحب، ونعيم مقيم، قال تعالى: ﴿ **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ** ﴾(٣)، ورأى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال عزوجل: ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾(٤) ، ولقي الأهل والأحباب، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ**

(١) سورة البلد: ٤.
(٢) سورة الانشقاق: ٦.
(٣) سورة التوبة: ٢١.
(٤) سورة السجدة: ١٧.

امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1] ، وعلم ما كان يجهله، وتمنى أن لو مات منذ زمان، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿**لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ**﴾[3] .

والموت هو باب هذا الخير وطريقه، وبه يستريح المؤمن من ويلات الدنيا ومتاعبها، كما روى أبو قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: مرّ على رسول الله ـ ﷺ ـ بجنازة، فقال: «**مستريح، ومستراح منه**» قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «**العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا** ـ وفي رواية: من أذى الدنيا ونصبها إلى رحمة الله تعالى ـ **والفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**»[4] .

ولذلك لايتمنى المؤمن العودة إلى الدنيا ـ إلا الشهيد ـ كما يتمناها الكافر والفاجر، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**ما من عبد يموت له عند الله خير يَسُره أن يرجع إلى الدنيا وما فيها، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل مرة أخرى**»[5] .

---

(١) سورة الطور: ٢١ .

(٢) سورة آل عمران: ١٩٨ .

(٣) سورة النحل: ٣٠ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم الحديث: (٦٥١٢) فتح الباري ١١ / ٣٦٩ . وراه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما جاء في مستريح ومستراح منه، رقم الحديث: ٦١ (٩٥٠)، شرح النووي ٧ / ٢٠ .

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الحور العين وصفتهن، رقم الحديث: (٢٧٩٥)، فتح الباري ٦ / ١٨ .

وهكذا تكون الدار الآخرة خيراً للمؤمنين، ففيها جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، وفيها سعة وجمال وارتفاع، وفيها من أنواع النعم الأبدية الخالدة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وسنذكر - بإذن الله - حياة المؤمنين في الآخرة على وجه تفصيلي في المباحث التالية من هذا الفصل.

* * *

المبحث الأول
حياة المؤمنين في البرزخ

المراد بالبرزخ:

قال تعالى: ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[(١)] .

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: «ومن أمامهم حاجز يحجز بينهم وبين الرجوع، يعني إلى يوم يبعثون من قبورهم، وذلك يوم القيامة؛ والبرزخ والحاجز والمهلة متقاربات في المعنى»[(٢)] .

وقال الراغب: «البرزخ: الحاجز والحد بين الشيئين. والبرزخ في القيامة: الحائل بين الإنسان وبين بلوغ المنازل الرفيعة في الآخرة، وذلك إشارة إلى العقبة المذكورة في قوله عز وجل: ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ[(٣)] ﴾[(٤)] . قال تعالى: ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾. وتلك العقبة موانع من أحوال لايصل إليها إلا الصالحون. وقيل: البرزخ ما بين الموت إلى القيامة»[(٥)] .

فحياة المؤمنين في البرزخ هي حياتهم في عالم بين الدنيا والآخرة قبل

---

(١) سورة المؤمنون: ١٠٠ .

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٢٤٣، وانظر: تفسير البحر المحيط ٦/ ٤٢١ .

(٣) قيل: العقبة جبل في جهنم، فاقتحموها بطاعة الله تعالى (تفسير الطبري ١٢/ ٥٩٢، وتفسير البغوي ٨/ ٤٣٢).

(٤) سورة البلد: ١١ .

(٥) المفردات في غريب القرآن، ص: ٤٣ .

الحشر من وقت الموت إلى القيامة، ومن مات منهم فقد دخل البرزخ[١] .

أرواح المؤمنين تتلاقى وتتزاور وتتذاكر في البرزخ:

قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا** ﴾[٢] .

قال ابن القيم: «وهذه المعية ثابتة في الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار الجزاء. والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاث»[٣] .

روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إليّ من نفسي وأهلي وولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعتَ مع النبيين، وأني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك. فلم يرد رسول الله ـ ﷺ ـ شيئًا حتى نزل جبريل ـ عليه السلام ـ بهذه الآية: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ** . . ﴾ الآية[٤] .

وفي قصة الإسراء من حديث عبد الله بن مسعود قال: لما أسري النبي ـ ﷺ ـ

---

(١) انظر: تاج العروس ٤ / ٦٢٠، ولسان العرب ٣ / ٨.

(٢) سورة النساء: ٦٩ ـ ٧٠.

(٣) الروح، ص: ٢٤.

(٤) أسباب نزول القرآن للواحدي، ص: ١٧٠. وعزاه في الدر المنثور (٢ / ٣٢٥) للطبراني وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية والضياء المقدسي في صفة الجنة. وذكره السيوطي في لباب النقول، ص: ٨٢. وهو عند الطبراني في الصغير (٥٢)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٧) وقال: رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله ابن عمران العابدي وهو ثقة (المعجم الأوسط، تحقيق: د/ محمود الطحان ١ / ٢٩٦، وانظر: تفسير ابن كثير ١ / ٤٤٩).

لقي إبراهيم وموسى وعيسى - صلوت الله عليهم أجمعين - ، فتذاكروا الساعة؛ فبدأوا بإبراهيم فسألوه عنها، فلم يكن عنده منها علم، ثم بموسى فلم يكن عنده منها علم، حتى أجمعوا الحديث إلى عيسى، فقال عيسى: عهد الله إليّ فيما دون وجبتها[(١)] ، فذكر خروج الدجال قال: فأهبط فأقتله، ويرجع الناس إلى بلادهم، فتستقبلهم يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب[(٢)] ينسلون، فلا يمرون بماء إلا شربوه، ولايمرون بشيء إلا أفسدوه، فيجأرون[(٣)] إلى الله تعالى فيدعون فيميتهم فتجأر الأرض إلى الله من ريحهم، ويجأرون إليّ فأدعو، ويرسل الله السماء بالماء فيحمل أجسامهم فيقذفها في البحر، ثم ينسف الجبال، وتمد الأرض مدّ الأديم[(٤)] ، فعهد الله إليّ إذا كان كذلك فإن الساعة من الناس كالحامل المتم لايدري أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلاً أو نهارًا» .

قال عبد الله بن مسعود: فوجدت تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ...** ﴾[(٥)] الآية، قال: وجميع الناس من كل مكان جاؤوا منه يوم القيامة فهو حدب[(٦)] .

---

(١) وجبتها: وقوعها (النهاية في غريب الحديث ٥ / ١٥٤).

(٢) الحدب: ما ارتفع من ظهر الأرض (المفردات في غريب القرآن، ص: ١١٠).

(٣) أي: يتضرعون إلى الله بالدعاء (لسان العرب ٤ / ١١٢).

(٤) الأديم: له معان؛ منها: الخليط، وأديم كل شيء ظاهره، وأديم الليل ظلمته، وأديم النهار بياضه، وسُمي وجه الأرض أديمًا (انظر: تاج العروس ١٦/ ١٠، ولسان العرب ١٢/ ١١، والنهاية ١ / ٣٢).

(٥) سورة الأنبياء: ٩٦-٩٧.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير (مذاكرة الساعة بين الأنبياء في ليلة الإسراء) ٢/ ٣٨٤، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وصححه.

وهذا نص في تذاكر الأرواح العلم، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وأنهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وأنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل، وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، وهذا يدل على تلاقيهم من ثلاثة أوجه:

الأول: أنهم يرزقون، وإذا كانوا أحياء فهم يتلاقون.

الثاني: أنهم إنما استبشروا بإخوانهم لقدومهم عليهم ولقائهم لهم.

الثالث: أن لفظ «يستبشرون» يفيد في اللغة أنهم يبشر بعضهم بعضًا مثل «يتباشرون»[2].

وقال بلال بن رباح - رضي الله عنه - عند موته: «غدًا نلقى الأحبَّة محمدًا وحزبه، تقول امرأته: واويلاه، فقال: وافرحاه»[3].

حياة المؤمنين في القبر[4] وأنواع نعيمه:

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠.

(٢) انظر: الروح، ص: ٢٢-٢٦، وتفسير زاد المسير ٢ / ٥٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٥٩.

(٤) حياة المؤمنين في القبر من الحياة البرزخية، ذلك لأن القبر هو البرزخ أو الحاجز بين الحياة الدنيا وبين الحياة الآخرة، فحياة المؤمنين في القبر هي حياتهم البرزخية.

الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[١] .

روى الإمام البخاري بسنده . . عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : «**إذا أُقعدَ المؤمن في قبره أُتيَ، ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾**»[٢] .

وعن البراء بن عازب - أيضًا - قال : خرجنا مع النبي - ﷺ - في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحدْ[٣] ، فجلس رسول الله - ﷺ - وجلسنا حوله وكأنّ على رؤوسنا الطير[٤] ، وفي يده عود ينكت[٥] في الأرض ، فرفع رأسه ، فقال : «**استعيذوا بالله من عذاب القبر، مرتين أو ثلاثا ، ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيضُ الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفَنٌ من أكفان الجنة وحَنُوطٌ[٦] من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملَك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرُجي إلى**

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٧.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر . . ، رقم الحديث : ١٣٦٩ ، فتح الباري ٣ / ٢٧٤ .

(٣) أي : قبل إدخال الميت في اللحد ، وهو الشق بجانب القبر (بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ، لأحمد عبد الرحمن البنا ، ٧ / ٧٤)

(٤) وهو كناية عن غاية السكون ، أي : لايتحرك منا أحد لتوقيره - ﷺ - (عون المعبود لأبي الطيب آبادي ٤ / ٣٨٤) .

(٥) ونكت الأرض بالقضيب ، وهو أن يؤثر فيها بطرَفه ، فعل المفكّر المهموم (النهاية في غريب الحديث ٥ / ١١٣) .

(٦) الحنوط بفتح الحاء المهملة : ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة (بلوغ الأماني ٧ / ٧٤) .

مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السِّقاء[١]، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، [فذلك قوله تعالى: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴾[٢]].

ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدتْ على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون ـ يعني بها ـ على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيُفتح لهم، فيشيعه[٣] من كل سماء مقرّبوها، إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، [﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[٤]]، فيُكتب كتابه في عليين، ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض، فإني [وعدتهم أني] منها خلقتُهم، وفيها أُعيدُهم ومنها أُخرجهم تارة أخرى، قال: فـ [يُردُّ إلى الأرض، و] تُعاد روحه في جسده[٥]، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟.

فيقول: ربي الله.

---

(١) يريد خروج روحه بسهولة كسهولة تقطير الماء من فم القربة (المصدر السابق).

(٢) سورة الأنعام: ٦١، أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله عز وجل، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين، عياذًا بالله من ذلك (تفسير ابن كثير ٢/ ١٢١).

(٣) أي: يتبعه ويسير معه من كل سماء (بلوغ الأماني ٧/ ٧٥).

(٤) سورة المطففين: ١٩ـ٢١.

(٥) وهذا نص صريح في أن الروح تعاد إلى الجسد وقت السؤال، وهو قول الجمهور، ولا يمنع من ذلك كون الميت قد تتفرق أجزاؤه، لأن الله قادر أن يعيد الحياة إلى جزء من الجسد ويقع عليه السؤال كما هو قادر على أن يجمع أجزاءه (راجع فتح الباري ٣/ ٢٧٧، وانظر: الفتح الرباني ٧/ ٧٥).

فيقولان له: ما دينك؟.

فيقول: ديني الإسلام.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟.

فيقول: هو رسول الله ـ ﷺ ـ.

فيقولان له: وما عملك؟.

فيقول: قرأت كتاب الله ، فآمنت به، وصدقت، فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وهي آخرفتنة تُعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾(١) ، فيقول: ربّي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ـ ﷺ ـ، فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوحها وطيبها، ويُفسح له في قبره مدّ بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسَنُ الثياب، طيب الريح، فيقول: أَبْشِرْ بالذي يسرّك، [أبشر برضوان من الله ، وجنات فيها نعيم مقيم]، هذا يومك الذي كنتَ توعد، فيقول له: [وأنت فبشرك الله بخير] من أنت؟.

فوجهُك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أناعملك الصالح. [فوالله ما علمتُك إلا كنت سريعًا في طاعة الله ، بطيئًا في معصية الله فجزاك الله خيرًا]، ثم يفُتح له بابٌ من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك لو عصيتَ الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما في الجنة قال: ربّ عجّل قيامَ الساعة، كيما أرجع إلى أهلي

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٧.

ومالي، [فيقال له: اسكُنْ]...»[١] .

وقد ورد نعيم القبر وأنواعه في الحديث السابق والأحاديث الأخرى، وذلك كما يلي :

١ ـ الفراش واللباس للمؤمن من الجنة .

٢ ـ أن يفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من رَوحها وطيبها .

٣ ـ يُفسح له في قبره مدّ بصره، وأنه يرفع عن بصره ما يجاوره من الحجب الكثيفة، بحيث لاتناله ظلمة القبر ولا ضيقه إذا ردت إليه روحه[٢] .

٤ ـ يمثل له عمله الصالح في صورة رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الرائحة، يبشره برضوان من الله وجنات فيها نعيم .

٥ ـ يُملأ عليه خضِراً إلى يوم يبعثون[٣] .

وهكذا أنعم الله سبحانه على عباده المؤمنين في الحياة البرزخية بنعم كثيرة متنوعة، وقد بلغت النصوص في نعيمها مبلغ التواتر، وكما أن العذاب لايختص بالقبر فكذلك النعيم، فهو يشمل كل ميت قدر له قبر أو لم يقبر، ولايختص بالمؤمنين من هذه الأمة .

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٤ / ٢٨٧، ورواه البخاري في الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم الحديث: ١٣٧٤، فتح الباري ٣ / ٢٧٥، وما بين القوسين في السياق زيادات له ساقها الألباني سياقًا واحدًا في مختصره للبخاري ١ / ٣١٤ـ٣١٥. والزيادات ساقها الألباني من مسند أحمد عن البراء بن عازب ٤ / ٢٩٦ .

(٢) بلوغ الأماني ٧ / ٧٦، وشرح النووي لصحيح مسلم ١٧ / ٢٠٤ .

(٣) ورد في الحديث الذي رواه مسلم بسنده.. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قوله ـ ﷺ ـ : «... **ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون**» صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة..، رقم الحديث: ٧٠ (٢٨٧٠)، شرح النووي ١٧ / ٢٠٣، ومعناه: يملأ نعمًا غضة ناعمة واصلة من خضرة الشجرة (شرح النووي ١٧ / ٢٠٤).

عذاب القبر وأسبابه:

إن عذاب القبر مقطوع به، ولاينجو منه أكثر الناس، ولذلك كان النبي - ﷺ - يستعيذ بالله منه كثيراً، وخاصة في التشهد الأخير من الصلاة، وكان يأمر أصحابه بذلك.

«عن عائشة - رضي الله عنها - أنها سألت رسول الله - ﷺ - عن عذاب القبر، فقال: نعم، **عذاب القبر حق**. قالت عائشة - رضي الله عنها -: فما رأيت رسول الله - ﷺ - بعدُ صلى صلاةً إلا تعوّذ من عذاب القبر»[١].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «**إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجّال**»[٢].

قال شمس الدين القرطبي[٣]: «قال أبو محمد عبد الحق[٤]: «واعلم أن

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم الحديث: (١٣٧٢)، فتح الباري ٣ / ٢٧٥.

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، رقم الحديث: ١٣٠ (٥٨٨) شرح النووي ٥ / ٨٧-٨٨.

(٣) هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري، الخزرجي، الأندلسي، القرطبي، المالكي (أبو عبد الله)، مفسر، توفي بمنية بني خصيب من الصعيد الأدنى بمصر في ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١ هـ. من تصانيفه: الجامع لأحكام القرآن، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى في مجلدين، والتذكار في أفضل الأذكار، والتذكرة بأحوال الموتى والآخرة (انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢ / ٦٩-٧٠، وطبقات المفسرين للسيوطي ٢٨، وشذرات الذهب ٥ / ٣٣٥، ومعجم المؤلفين ٣ / ٥٢).

(٤) هو: عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد بن إبراهيم الأزدي، الأندلسي الإشبيلي المعروف بابن الخراط (أبو محمد)، ولد في ربيع الأول سنة ٥١٠ هـ وتوفي سنة ٥٨١ هـ. وهو محدث، حافظ، فقيه، خطيب، مشارك في الأدب والشعر واللغة، من مؤلفاته: الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، المعتل من الحديث، الحاوي =

عذاب القبر ليس مختصًا بالكافرين، ولا موقوفًا على المنافقين، بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين، وكلٌّ على حاله من عمله وما استوجبه من خطيئته وزلله»[١] .

أما الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور فعلى قسمين: مجمل ومفصل. فأما المجمل فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم معاصيه[٢] . وأما المفصل فإن النصوص ذكرت منه الكثير، وسنشير إلى ما اطلعنا على ذكره في الأحاديث:

١ ، ٢ ـ النميمة وعدم الاستتار من البول:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، مرّ النبي ﷺ على قبرين فقال: «**إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير. ثم قال: بلى، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما أحدهما فكان لايستتر من بوله.** قال: ثم أخذ عودًا رطبًا فكسره باثنتين، ثم غرز[٣] كل واحد منهما على قبر ثم قال: **لعلّه يخفف عنهما ما لم ييبسا**»[٤] .

٣ ـ الغيبة:

عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع النبي ـ ﷺ ـ فارتفعت

= في اللغة ١٨ مجلدًا، العاقبة في علم التذكير، والجمع بين الكتب الستة في الحديث، الأحكام الكبرى، كتاب التهجد، ومختصر الأحكام له. توفي ببجاية بعد محنة نالته من قبل الدولة في شهر ربيع الآخر (انظر: سير أعلام النبلاء ٢١ / ١٩٨ ـ ٢٠٢، وشذرات الذهب ٤ / ٢٧١، ومعجم المؤلفين ٢ / ٥٨).

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ص: ١٦٦ .

(٢) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ٢ / ١٧ .

(٣) الغرز: الإدخال (النهاية ٣ / ٣٥٩).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب عذاب القبر من الغيبة والبول، رقم الحديث: ١٣٧٨، فتح الباري ٣ / ٢٨٦ .

ريح منتنة، فقال رسول الله - ﷺ - : «**أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين**»(١) .

٤ ـ الغلول(٢) :

عن أبي رافع - رضي الله عنه - قال: مررت مع رسول الله - ﷺ - بالبقيع، فقال: «**أف لك، أف لك** فظننت أنه يريدني، فقلت: يارسول الله، أحدثتُ شيئًا؟ قال: **وما ذاك؟** قلت: أففت مني. قال: **لا، ولكن صاحب هذا القبر فلان، بعثته ساعيًا على بني فلان، فغلّ درعًا، فدُرِّع الآن مثلها من النار**»(٣) .

فإذا كان هذا لم ينج من عذاب القبر، لاختلاسه درعًا، وهو صحابي، فكيف حال غيره من عامة الناس؟! إن الأمر خطير، بل من مات على ذلك من غير توبة، لاينجيه من عذاب القبر شيء.

٥، ٦، ٧، ٨ ـ هجر القرآن، والكذب، والزنا، والربا:

وقد جمعت هذه الأربع لما جاء في البخاري بسنده.. عن سمرة بن جندب قال: «كان النبي - ﷺ - إذا صلى أقبل علينا بوجهه فقال: **من رأى منكم الليلة رؤيا؟** قال: فإن رأى أحد قصها، فيقول: **ما شاء الله**».

فسألنا يوما فقال: **هل رأى أحد منكم رؤيا؟** قلنا: لا. قال: **لكني رأيت الليلة رجلين أتياني، فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل**

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٣ / ٣٥١، ورواة أحمد ثقات، وقال أحمد عبد الرحمن البنا: وكذلك وثق رجاله الحافظ الهيثمي (بلوغ الأماني ١٩ / ٢٦٢).

(٢) الغلول: الخيانة. وغلّ الرجل يغلّ: إذا خان؛ لأنه أخذ شيئًا في خفاء، وكل من خان في شيء في خفاء فقد غلّ (لسان العرب ١١ / ٥٠١).

(٣) رواه أحمد في مسنده ٦ / ٣٩٢، والنسائي ٢ / ٨٩ بسند حسن (انظر: بلوغ الأماني ٩ / ٨٧).

جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد ـ قال بعض أصحابنا عن موسى[١] : كلوب من حديد يدخله في شدقه[٢] حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا، فيعود فيصنع مثله ـ.

قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة، فيشدخ[٣] به رأسه، فإذا ضربه تَدَهْدَهَ[٤] الحجر، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم[٥] رأسه وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه.

قلت: من هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته نارًا، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة.

فقلت: من هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، على وسط النهر رجل بين يديه حجارة ـ قال يزيد[٦] ووهب بن

---

(١) المراد بموسى هنا: موسى بن إسماعيل المِنْقَرِيّ، أبو سلمة التَّبُوْذُكِيّ البصري، روى عن أبان بن يزيد العطار، وإبراهيم بن سعد الزهري، وأبيه إسماعيل المنقري، وغيرهم. وروى عنه البخاري، وأبو داود، وأحمد بن الحسن. مات سنة ثلاث وعشرين ومئتين بالبصرة (انظر: تهذيب الكمال ١٨ / ٤٤٠ـ٤٤٣، وفتح الباري ٣ / ٢٩٦).

(٢) الشِّدق: جانب الفم (لسان العرب ١٠ / ١٧٢، وانظر: النهاية ٢ / ٤٥٣).

(٣) الشدخ: كسرك الشيء الأجوف كالرأس ونحوه (لسان العرب ٣ / ٢٨، وانظر: معجم المقاييس في اللغة، ص: ٥٥٤).

(٤) تدهده الشيء: إذا تدحرج، فكأن الدهدهة الصوت الذي يكون منه هناك (معجم المقاييس في اللغة، ص: ٣٥٠).

(٥) يلتئم: يلتقي (المصدر السابق).

(٦) هو: يزيد بن هارون بن زادي، ويقال: ابن زاذان، بن ثابت السلمي، أبو خالد الواسطي، قيل: إن أصله من بخارى، ولد سنة ثماني عشرة ومئة. وكان ثقة كثير الحديث. روى عن =

جـرير[1] عن جـرير بن حـازم: على شط النهر رجل ـ فـأقبل الرجل الذي في النهر، فـإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحـجر في فـيه فرده حـيث كان، فـجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان.

فقلت: ما هذا؟ قـالا: انطلق فانطلقنا حتى انتهـينا إلى روضة خضراء فـيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها، فـصعـدا بي في الشجـرة وأدخلاني داراً هي أحسن وأفـضل، فيـها شيوخ وشباب.

قلت: طوفتاني الليلة فـأخبراني عما رأيت.قـالا: نعم. أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة فتحـمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيـامة. والذي رأيتـه يشدخ رأسه فـرجل علمه الله القـرآن، فنـام عنه

= أبان بن أبي عـياش، وأبان بن يزيد العطار، وإبراهيم بن سعـد الزهري وغـيرهم. وروى عنه: أحـمـد بن حنبل، وأحـمـد بن سنان القطان الواسطي، وأحـمـد بن منيع البغـوي وغيرهم. توفي في خلافة المأمون، أول سنة ست ومئتين، وهو ابن سبع أو ثمان وثمانين سنة وأشـهر (انظر: تهـذيب الكمـال ٢٠ / ٣٨٧ـ ٣٩٢، وتهـذيب التـهـذيب ١١ / ٣٢٢ـ ٣٢٣، وفتح الباري ٣ / ٢٩٧).

(١) هو: وهب بن جرير بن حازم بن زيد بن عبد الله بن شجاع الأزدي، أبوا العباس البصري. روى عن: الأسود بن شيبان، وأبيه جرير بن حازم، وحماد بن زيد، وشعبة بن الحجاج وغـيرهم. وروى عنه: أحـمـد بن حنبل، وأحـمـد بن سعـيـد الدارميّ، وأحـمـد بن سنان القطان، وإسحاق بن راهويه وغيرهم. قال أحمد بن عبد الله العجلي: بصري، ثقة، كان عفان يتكلم فيه، ومات بالمنجشانية على ستة أميال من المدينة منصرفًا من الحج، فحمل ودفن بالبـصرة، وذلك في سنة ست ومـئـتين (انظر: تهـذيب الكمـال ١٩ / ٤٧٦ـ ٤٧٨، وتهذيب التهذيب ١١ / ١٤٢).

بالليل ولم يعمل فيه بالنهار، يفعل به إلى يوم القيامة. والذي رأيته في الثقب فهم الزناة. والذي رأيته في النهار آكلوا الربا...»[١] .

٩ ـ جرّ الإزار من الخيلاء:

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «**بينما رجل يجرّ إزاره من الخيلاء خُسفَ به، فهو يُجَلجَل**[٢] **في الأرض إلى يوم القيامة**»[٣] .

قال ابن حجر: « وإنما خص الإزار بالذكر، لأنه هو الذي يظهر به الخيلاء غالبًا»[٤] .

١٠ ـ حبس المدين في قبره بدينه:

ومن أسباب عذاب القبر الدَّين، فهو يضر الميت في قبره، وذلك للحديث الذي رواه سعد بن الأطول ـ رضي الله عنه ـ : «أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم، وترك عيالاً، قال: فأردت أن أنفقها على عياله، قال: فقال لي نبي الله ـ ﷺ ـ : «**إن أخاك محبوس بدينه، [فاذهب] فاقض عنه،** [فذهبت فقضيت عنه، ثم جئت]، قلت: يا رسول الله، قد قضيت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة، وليست لها بينة، قال: **أعطها فإنها محقة،** [وفي رواية

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب (٩٣)، رقم الحديث: ١٣٨٦، فتح الباري ٣/ ٢٩٥ـ ٢٩٦.

(٢) الجلجلة: الحركة مع الصوت (فتح الباري ١٠ / ٢٧٢، وانظر: لسان العرب ١١ / ١٢٢، والنهاية ١٠ / ٢٨٤).

(٣) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٥٤)، رقم الحديث: ٣٤٨٥، فتح الباري ٦/ ٥٩٥.

(٤) فتح الباري ١٠ / ٢٧٢.

صادقة]»[١] .

الأساب المنجية من عذاب القبر:

وكما قدّر الله على فريق من عباده الفتنة والعذاب في البرزخ - وذلك عدله - كذلك قضى لأقوام بالأمان والنجاة والنعيم - وهذا فضله - ، وللنجاة من عذاب القبر أسباب كثيرة، منها:

١ - الرباط في سبيل الله:

روى الإمام مسلم بسنده . . . عن سلمان - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأُجري عليه رزقُه وأَمِن الفُتَّان**[٢]»[٣] .

قال النووي - رحمه الله - : «هذه فضيلة ظاهرة للمرابط، وجريان عمله عليه بعد موته فضيلة مختصة به، لايشاركه فيها أحد، وقد جاء صريحًا في

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٤ / ١٣٦، وسنده جيد (انظر: بلوغ الأماني ٧ / ١٠٠). قال الشيخ ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز (ص: ١٥): أخرجه ابن ماجه (٢ / ٨٢)، وأحمد (٤ / ١٣٦، ٥ / ٧)، والبيهقي (١٠/ ١٤٢)، وأحد إسناديه صحيح، والآخر مثل إسناده عند ابن ماجه، وصححه البوصيري في (الزوائد)، وسياق الحديث والرواية الثانية للبيهقي، وهي والزيادات لأحمد في رواية.

(٢) «أمن الفتان» ضبطوا «أمن» بوجهين، أحدهما: «أمِن» بفتح الهمزة وكسر الميم من غير واو. والثاني: «أومن» بضم الهمزة وبواو. أما الفتانَ فقال القاضي: رواية الأكثرين بضم الفاء جمع فاتن. قال: ورواية الطبري بالفتح، وفي رواية أبي داود في سننه أومن فتاني القبر (شرح النووي ١٣ / ٦١).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله، رقم الحديث: ١٦٣ (١٩١٣)، شرح النووي ١٣ / ٦١ . ورواه أحمد في مسنده عن سلمان الفارسي ٥ / ٤٤٠.

غير مسلم كل ميت يختم على عمله إلا المرابط، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة»[١] .

٢ ـ الموت يوم الجمعة أو ليلتها:

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا بقية، حدثنى معاوية بن سعيد التُجيبي سمعت أبا قبيل المصري يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : **«من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وُقِيَ فتنة القبر»**[٢] .

٣ ـ الشهادة في سبيل الله:

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : **«للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دُفعة**[٣] **، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، والياقوتة منها خير من الدنيا وما**

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم ١٣ / ٦١ .

(٢) مسند الإمام أحمد ٢ / ٢٢٠ . قال أحمد محمد شاكر ـ رحمه الله ـ : إسناده صحيح . بقية هو ابن الوليد . معاوية بن سعيد بن شريح التجيبي : ثقة ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وترجمه البخاري في الكبير ٤ / ١ / ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ، وقال : سمع أبا قبيل ويزيد بن أبي حبيب ، روى عنه بقية . أبو قبيل : هو المعافري ، حييّ بن هانئ ، وأنه تابعي ثقة ٤٥٣ ، ١٧٨٦ .

والحديث قد مضى (٦٥٨٢ / ٦٦٤٦) من رواية شريح عن بقية : «عن معاوية بن سعيد» ، بهذا الإسناد ، وضعفناه هناك بأن بقية مدلس ، ولم يصرح بالتحديث ، ولكن تبين من هذا الإسناد أنه سمعه من معاوية بن سعيد ، وصرح فيه بقوله : «حدثني» ، فارتفعت شبهة التدليس ، وصح الإسناد ، والحمد لله (مسند أحمد ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ١٢ / ١٣ ، ١٠ / ١٠٠ ، ١٣٣) .

(٣) أي : تمحى ذنوبه في أول صبة من دمه (تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٥ / ٣٠٣) .

فـيهـا، ويزوَّج اثنتين وسبـعين زوجة مـن الحور العين، ويشـفع في سبـعين من أقاربه»(١).

٤ ـ الصلاة، ٥ ـ الصيام، ٦ ـ الزكاة، ٧ ـ تـلاوة الـقرآن، ٨ ـ الصـبر، ٩ ـ المشي إلى المسجد، ١٠ ـ فعل الخيرات، ١١ ـ الإحسان إلى الناس.

عن محمد بن المنكدر، قال: كانت أسماء (بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ) تحدث عن النبي ـ ﷺ ـ قالت: قال: «**إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مـؤمنًا أحفّ(٢) به عمله؛ تالصلاة والصيام، قال: فيأتيه الملَك من نحو الصلاة فتردّه، ومن نحو الصيام فيردّه، قال: فيناديه اجلس، قال: فيجلس، فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل، يعني**: النبي ـ ﷺ ـ قال: **مَنْ؟ قال: محمد، قال: أنا أشهد أنه رسول الله** ـ ﷺ ـ قال: يقول: **ومايدريك. أدركتَه؟ قال: أشهد أنه رسول الله، يقول: على ذلك عشتَ، وعليه متَّ، و عليه تُبعث..**»(٣).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**والذي نفسي بيده، إنه**

---

(١) الحديث رواه الترمذي في أبواب فضائل الجهاد، باب (٢٥)، رقم الحديث: ١٧١٢ (تحفة الأحوذي ٥ / ٣٠٢). وقال: حديث حسن صحيح غريب.
ورواه ابن ماجه، كتاب الجهاد، باب فضل الشهيد، رقم الحديث: (٢٧٩٩)، ٢ / ٩٣٥.
ومشكاة المصابيح ٢ / ٣٥٨، رقم الحديث: ٣٨٣٤، وقال فيه محقق المشكاة (صدقي محمد جميل العطار): إسناده صحيح.

(٢) أحف: أحدق وأطاف به (انظر: لسان العرب ٩ / ٤٩).

(٣) رواه أحمد في مسنده ٦ / ٣٥٢. قوله: «فترده» أي: تدفع الملك عنه، وتقول: ليس قبلي مدخل، كما صرح بذلك عند الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث أبي هريرة (بلوغ الأماني ٨ / ١١٤).

ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإذا كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن شماله، وفعل الخيرات والمعروف والإحسان إلى الناس من قِبَل رجليه، فيؤتى من قِبَل رأسه، فتقول الصلاة: ليس قبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه، فتقول الزكاة: ليس قبلي مدخل، ويؤتى من قبل شماله، فيقول الصوم: ليس قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات إلى الناس: ليس من قبلي مدخل». وفي رواية: «**فإذا أُتي من قبل رأسه دفعته تلاوة القرآن، وإذا أُتي من قبل يديه دفعته الصلاة، وإذا أُتي من قبل رجليه دفعه مشيه إلى المسجد، والصبر حجره**»[1] .

هذه بعض الأسباب المنجية من عذاب القبر، ذكرناها من باب الإتيان بالمثال لا الحصر، وإلا، فالأسباب كثيرة، كما ورد ذكرها في الأحاديث النبوية[2] .

ومما سبق يتضح لنا أن المؤمنين في حياة البرزخ يثبتهم الله على الحق، فيلهمهم الصواب والنطق بالإيمان في القبر الذي هو أول منزل من منازل الآخرة، فلا يترددون إذا سئلوا عن معتقدهم هناك، ولاتدهشهم الأهوال. قال تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ...**﴾[3] .

---

(١) أورده الهيثمي في المجمع (٣/ ٥١ ـ ٥٢) برواية الطبراني، وقال: إسناده حسن.

(٢) ومن أراد التوسع في هذا الباب فليرجع إلى كتاب «الروح» لابن القيم ص: ٩٧ ـ ١٠٢، تحقيق وتعليق عادل عبد المنعم أبو العباس، وأهوال القبور لابن رجب، ص: ٤٨ وما بعدها، وشرح الصدور للسيوطي، ص: ١٨٢ وما بعدها.

(٣) سورة إبراهيم: ٢٧.

علاوة على ذلك، فإنهم في الحياة البرزخية يتمتعون بنعمها المختلفة من الفراش واللباس، وأن يفتح لهم باب إلى الجنة، فيأتيهم من روحها وطيبها، وأن يمثل لهم أعمالهم الصالحة في صورة رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الرائحة، يبشرهم برضوان من الله وجنات فيها نعيم، وأن يملأ عليهم خضراً إلى يوم يبعثون.

هذا بالنسبة للمؤمنين المطيعين لله عز وجل. أما أصحاب المعاصي من المؤمنين فهم يشاركون الكافرين والمنافقين في عذاب القبر، وكلٌ على حاله من عمله وما استوجبه من خطيئته وزلله. ولذلك كان النبي - ﷺ - يستعيذ بالله من عذاب القبر، وخاصة في التشهد الأخير من الصلاة، وكان يأمر أصحابه بذلك، مما يدل على أن كثيراً من الناس لاينجون من عذاب القبر.

روى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: **«إذا تشهَّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»**[1].

* * *

(١) صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب مايستعاذ منه في الصلاة، رقم الحديث: ١٢٨ (٥٨٨) بشرح النووي ٥ / ٨٧.

المبحث الثاني
حياة الشهداء

معنى الشهادة:

قال صاحب لسان العرب: «والشهيد: المقتول في سبيل الله، والجمع شهداء. وفي الحديث: «**أرواح الشهداء في حواصل طير خُضْرٍ تَعلُقُ من ورق الجنة**»، والاسم: الشهادة. واستُشهد: قتل شهيدًا»[١].

وقال القرطبي: «فأما الشهادة، فصفة سمي حاملها بالشاهد ويبالغ بشهيد، وللشهادة ثلاثة شروط لاتتم إلا بتمامها وهي: الحضور، والوعي، والأداء. أما الحضور: فهو شهود الشاهد المشهود. والوعي: زمّ ما شاهده وعلمه في شهوده ذلك. والأداء: هو الإتيان بالشهادة على وجهها في موضع الحاجة إلى ذلك. هذا معنى الشهادة، والشهادة على الكمال، إنما هي لله سبحانه وتعالى، وأن جميع الشاهدين سواه يؤدون شهادتهم عنده. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾[٢]. والشهداء: هم العدول، وأهل العدالة في الدنيا والآخرة، هم القائمون بما أوجب الحق سبحانه عليهم في الدنيا»[٣].

---

(١) لسان العرب، باب الدال، فصل الشين ٣/ ٢٤٢، والحديث رواه الترمذي عن ابن كعب بن مالك عن أبيه (عقبة)، كتاب فضائل الجهاد، باب ماجاء في ثواب الشهيد «بلفظ: من ثمر الجنة أو شجر الجنة» رقم الحديث: ١٦٩١ (تحفة الأحوذي ٥/ ٢٧٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سورة الزمر: ٦٩.

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ص: ١٨٣.

أقوال العلماء في تسمية الشهيد شهيداً:

اختلف العلماء في تسمية الشهيد شهيدًا على أقوال:

١ ـ قال ابن الأنباري(١): سُمي الشهيد شهيدًا؛ لأن الله وملائكته شهود له بالجنة.

٢ ـ وسمي بذلك؛ لأن ملائكة الرحمة تشهده، أي: تحضر غسله أو نقل روحه إلى الجنة، كأن أرواح الشهداء أحضرت دارَ السلام أحياءً، وأرواح غيرهم أخرت إلى البعث.

٣ ـ وسموا شهداء؛ لأنهم ممن يستشهد يوم القيامة مع النبي ـ ﷺ ـ على الأمم الخالية.

قال الله عز وجل: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٢)؛ وقال أبو إسحاق الزجاج(٣): جاء في التفسير أن أمم الأنبياء تكذب في الآخرة من أرسل إليهم فيجحدون أنبياءهم، هذا فيمن جحد في الدنيا منهم أمر الرسل، فتشهد أمة محمد ـ ﷺ ـ بصدق الأنبياء وتشهد عليهم بتكذيبهم، ويشهد النبي ـ ﷺ ـ لهذه بصدقهم.

---

(١) ابن الأنباري: هو محمد بن عبد الكريم بن رفاعة الشيباني، المعروف بابن الأنباري (سديد الدولة) من الكتاب والوزراء، أقام بديوان الإنشاء خمسين سنة، صاحب المقامات رسائل مدونة، وعاش نيفًا وثمانين سنة، توفي سنة ٥٥٨ هـ (الصفدي، الوافي ٣ / ٢٧٩ ـ ٢٨٠، معجم المؤلفين ٣ / ٤٢١ ـ ٤٢٢).

(٢) سورة البقرة: ١٤٣.

(٣) الزجاج: هو إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج (أبو إسحاق) النحوي، اللغوي، المفسر. أقدم أصحاب المبرد قراءة عليه. وله من الكتب: معاني القرآن، والاشتقاق، والعروض، ومختصر النحو وغيرها. توفي سنة ٣١١ هـ، وله سبعون سنة. وردت ترجمته في سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٣٤، والصفدي، الوافي ٥ / ٢٨ ـ ٢٩، والبداية ١١ / ١٤٨ ـ ١٤٩، ومعجم المؤلفين ١ / ٢٧.

٤ ـ وسمي بذلك: لسقوطه بالأرض، والأرض الشاهدة.

٥ ـ وسمي بذلك: لشهادته على نفسه لله عز وجل حين لزمه الوفاء بالبيعة التي بايعه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

فاتصلت شهادة الشهيد الحق بشهادة العبد فسماه شهيداً[2].

والاختلاف هنا اختلاف تنوع لا تضاد، فهو شهيد بكل ما ذكر.

وبما سبق من معنى الشهادة وسبب تسميتها بذلك، يتضح لنا أنه لا شهادة ولا جهاد ولا جنة إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده، والموت في سبيله وحده والنصرة له وحده في ذات النفس وفي منهج الحياة. لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تهيمن شريعته ومنهاجه على ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء.

عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟

---

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) انظر: لسان العرب ٣/ ٢٤٢، وتاج العروس ٥/ ٤٦ ـ ٤٧، والتذكرة، ص: ١٨٢ ـ ١٨٣، وبصائر ذوي التمييز ٣/ ٣٥٤، وتحفة الأحوذي ٥/ ٣٠٤، وشرح مسلم للنووي ٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤.

قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1] .

وليس هناك من راية أخرى أو هدف آخر يجاهد في سبيله من يجاهد ويستشهد دونه من يستشهد فيحق له وعد الله بالجنة، إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف، من كل ما يروج في الأجيال المنحرفة من غير هذا التصور ومن رايات وأسماء وغايات[2] .

الشهداء أحياء لا أموات:

قال تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ**﴾[3] .

وقال عز وجل: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[4] .

روى الإمام مسلم بسنده.. عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ قال: أما وإنا قد سألنا عن ذلك فقال: «**أرواحهم في جوف طير خُضْرٍ لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أيَّ**

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾، رقم الحديث: ٧٤٥٨، فتح الباري ١٣ / ٤٥٠ .

(٢) انظر: طريق الدعوة في ظلال القرآن، لأحمد فايز ١ / ٢٤١ .

(٣) سورة البقرة: ١٥٤ .

(٤) سورة آل عمران: ١٦٩ .

شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا. ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يا ربّ نريد أن تَرُدَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا»(١) .

يخبر تعالى في الآيتين السابقتين أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون، فهم ليسوا بأموات؛ لأن الأموات من خلقي مَن سلبتهم حياتَهم وأعدمتُهم حواسَّهم، فلا يلتذون لذة ولا يدركون نعيمًا، فإن من قُتل من المؤمنين في سبيل الله، أحياء عنده تعالى، في حياة ونعيم، وعيش هنّي، ورزق سنّي، فرحين بما آتاهم من فضله(٢) .

قال القاسمي عند قوله تعالى: ﴿ **وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ** ﴾: «أي بحياتهم الروحية بعد موتهم؛ إذ لم يظهر منها شيء في أبدانهم، وإن حفظ بعضها عن التلف. كما ترون النيام همودًا لايتحركون. فلا فخر أعظم من ذلك في الدنيا، ولا عيش أرغد منه في الآخرة»(٣) .

وفي البيضاوي: «إن إثبات الحياة للشهداء في زمان بطلان الجسد، وفساد البنية؛ ونفي الشعور بها دليل على أن حياتهم ليست الجسد، ولا من جنس حياة الحيوان، لأنها بصحة البنية، واعتدال المزاج. وإنما هي أمر يُدرك بالوحي

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب في بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء. . ، رقم الحديث: ١٢١ (١٨٨٧)، بشرح النووي ١٣ / ٣١-٣٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١ / ١٧٣، وتفسير الطبري ٢ / ٤٢، دار الكتب العلمية.

(٣) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ٢ / ٣٢٠.

لا بالعقل»[١] .

وقال ابن عاشور : «وإنما قال : ﴿ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴾ للإشارة إلى أنها حياة غير جسمية ولا مادية، بل حياة روحية، ولكنها زائدة على مطلق حياة الأرواح، فإن للأرواح كلها حياة وهي عدم الاضمحلال وقبول التجسد في الحشر مع إحساس ما بكونها آيلة إلى نعيم أو جحيم . أما حياة الذين قتلوا في سبيل الله فهي حياة مشتملة عى إدراكات التنعم بلذات الجنة والعوالم العلوية والانكشافات الكاملة، ولذلك ورد في الحديث : «**إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترعى من ثمر الجنة..**» .

والحكمة في ذلك ـ [والله أعلم] ـ أن اتصال اللذات بالأرواح متوقف على توسط الحواس الجسمانية، فلما انفصلت الروح عن الجسد عُوِّضت جسداً مناسبًا للجنة ليكون وسيلة لنعيمها»[٢] .

وفي كتاب «الروح» : « . . أن الله سبحانه جعل أرواح الشهداء في أجواف طير خضر، فإنهم لما بذلوا أنفسهم لله حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم منها في البرزخ أبدانًا خيراً منها تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من نعيم الأرواح المجردة عنها، ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير . وتأمل لفظ الحديثين فإنه

(١) تفسير البيضاوي ١ / ٩١ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢ / ٥٣ ـ ٥٤ . والحديث رواه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في ثواب الشهيد، رقم الحديث : ١٦٩١ (تحفةالأحوذي ٥ / ٢٧٠)، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

قال: «**نسمة المؤمن طير**»[(١)]، فهذا يعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: «**هي في جوف طير**»[(٢)]، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير..»[(٣)].

وقال صاحب الظلال: «... فالذين يخرجون في سبيل الله، والذين يضحون بأرواحهم في معركة الحق، هم عادة أكرم القلوب، وأزكى الأرواح وأطهر النفوس، هؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتًا، إنهم أحياء..

إنهم قتلوا في ظاهر الأمر، وحسبما ترى العين، ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لاتقرهما هذه النظرة السطحية الظاهرة.. إن سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد،. وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع.. وهؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله فاعليتهم في نصرة الحق الذي قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة، والفكرة التي من أجلها قتلوا ترتوي بدمائهم وتمتد، وتأثر الباقين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد. فهم ما يزالون عنصراً فعالاً دافعًا مؤثرًا في تكييف الحياة وتوجيهها، وهذه صفة الحياة الأولى. فهم أحياء أولاً بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس

ثم هم أحياء عند ربهم ـ إما بهذا الاعتبار، وإما باعتبار آخر لاندري نحن

---

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده ٣/ ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٦٠. وقال صاحب الفتح الرباني: هذا الحديث إسناده صحيح لاشك فيه (الفتح الرباني ٧ / ٨٦). والنسمة بفتح النون والسين: الروح.

(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب في بيان أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء..، رقم الحديث: ١٢١ (١٨٨٧)، بشرح النووي ١٣ / ٣١ـ٣٣.

(٣) الروح لابن القيم، تحقيق وتعليق: عادل عبد المنعم، ص: ١١٧ـ١١٨.

كنهه. حسبنا إخبار الله تعالى به: ﴿ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴾.. لأن كنه هذه الحياة فوق إدراكنا البشري القاصر المحدود. ولكنهم أحياء.

أحياء. ومن ثم لايغسلون كما يغسل الموتى، ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها. فالغسل تطهير للجسد الميت وهم أطهار بما فيهم من حياة. وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر لأنهم بعد أحياء»[1].

للشهداء كل خصائص الأحياء:

قال تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[2].

وفي الآيات نص في النهي عن حسبان أن الذين قتلوا في سبيل الله، وفارقوا هذه الحياة أموات، وفيها نص كذلك في إثبات أنهم «أحياء».. «عند ربهم» ثم يلي هذا النهي وهذا لإثبات، وصف ما لهم من خصائص الحياة:

١ ـ فالشهداء يرزقون:

يرزق الشهداء تأكيداً لكونهم أحياء، وتحقيقًا لهذه الحياة. فالرزق هنا يكون ملائمًا لحياة الأرواح، وهو رزق النعيم في الجنة.

---

(١) في ظلال القرآن ١ / ١٤٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٢.

روي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر تَرِدُ أنهار الجنة، تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق، لئلا يزهدوا في الجهاد ولاينكُلُوا عند الحرب؟ فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ إلى آخر الآية»[(١)] .

٢ ـ أنهم فرحون بما آتاهم الله من فضله:

ومن خصائص الحياة للشهداء أنهم يستقبلون رزق الله بالفرح؛ لأنهم يدركون أنه من فضله عليهم. فهو دليل رضاه وهم قد قتلوا في سبيل الله. فأي شيء يفرحهم إذن أكثر من رزقه الذي يتمثل في رضاه؟. فليس هناك شيء أشرف من الشهادة، والتمتع بالنعيم المقيم، والقرب عند ربهم، والفوز بالحياة الخالدة.

٣ ـ أنهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم:

ومن خصائص الحياة للشهداء أنهم يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين

---

(١) رواه أبو داود في سننه، باب في فضل الشهادة، رقم الحديث: ٣٥٠٣. قال المنذري: . . وقد أخرج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود (عون المعبود ٧ / ١٩٤ ـ ١٩٦، وانظر: أسباب نزول القرآن للواحدي، ص: ١٣٢، وقال محققه «كمال بسيوني زغلول»: إسناده صحيح. وأخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الجهاد ٢ / ٨٨، وصححه، ووافقه الذهبي).

لم يقتلوا فيلحقوا بهم، وذلك ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم، وأذهب الله عنهم الخوف والحزن فيما يقدمون عليه؛ لأن الله تعالى يمحص ذنوبهم بالشهادة التي هي عين الحياة[١] .

قال السدي[٢] : «أما ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ فإن الشهيد يؤتى بكتاب فيه من يقدم عليه من إخوانه وأهله، فيقال: «يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا»، فيستبشر حين يقدم عليه، كما يستبشر أهل الغائب بقدومه في الدنيا»[٣] .

٤ ـ أنهم يستبشرون بأحوال أنفسهم خاصة:

قال الرازي عند قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: «إنه تعالى بيّن أنهم كما يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم على ماذكر، فهم يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النعيم، وإنما أعاد لفظ «يستبشرون» لأن الاستبشار الأول كان بأحوال الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، والاستبشار الثاني كان بأحوال أنفسهم خاصة»[٤] .

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٣ / ٥١٧، طبعة دار الكتب العلمية الأولى ١٤١٢ هـ، وتفسير روح المعاني ٣ / ١٩٤ .

(٢) هو: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الهاشمي السدي، صاحب التفسير، روى عن ابن عباس، وأنس، وطائفة. وعنه أبو عوانة، والثوري، والحسن بن صالح، وخلق. صدوق يهم. ورمي بالتشيع، من الطبقة الرابعة، أخرج له الجماعة إلا البخاري. مات سنة سبع وعشرين ومائة (طبقات المفسرين للداودي ١ / ١١٠، وله ترجمته في ميزان الاعتدال للذهبي ١ / ٢٣٦).

(٣) تفسير الطبري ٣ / ٥١٧، وتفسير ابن كثير ١ / ٣٦٨، وتفسير الدر المنثور ٢/ ١٧١ .

(٤) التفسير الكبير ٩ / ٧٨.

وقد جمع الله للشهداء بين الاستبشار بمن بقي من إخوانهم والاستبشار بأنفسهم خاصة؛ لأن في بقائهم نكاية لأعدائهم، وهم مع حصول فضل الشهادة على أيدي الأعداء يتمنون هلاك أعدائهم، لأن في هلاكهم تحقيق أمنية أخرى وهي أمنية نصر الدين[١] .

هذه من خصائص الحياة للشهداء. فحياتهم تصحيح كامل لمفهوم الموت - متى كان في سبيل الله - ، وفيها إفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها، بحيث تتجاوز نطاق هذه الحياة العاجلة، كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة. وحيث تستقر في مجال فسيح عريض، لاتعترضه الحواجز التي تقوم في أذهاننا وتصوراتنا عن هذه النقلة من صورة إلى صورة، ومن حياة إلى حياة[٢] .

منزلة الشهداء في الآخرة:

قال تعالى: ﴿ **لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾[٣] .

نص الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على أنه لايستوي - في المنزلة - المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من المؤمنين - وهم القاعدون عن الجهاد

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير ٤ / ١٦٦ .
(٢) انظر: في ظلال القرآن - بتصرف - ١ / ٥١٨ .
(٣) سورة النساء: ٩٥ - ٩٦ .

بأموالهم بخلاً وحرصًا عليها، وبأنفسهم إيثاراً للراحة والقعود في منازلهم على التعب وركوب الأخطار، ومشقة ملاقاة أعداء الله بجهادهم في سبيل الله.، والمجاهدون الذين يبذلون أموالهم في الاستعداد للجهاد بالسلاح والخيل والمئونة وغيرها من مستلزمات الجهاد، ويضحون بأنفسهم بتعريضها للقتل في سبيل الله ومنع تعدي أولياء الشيطان، وذلك لأن المجاهدين هم الذين يحمون الدين والأمة والبلاد، والقاعدين لايأخذون حذرهم ولايعدون عدتهم للدفاع ويكونون عرضة لتعدي غيرهم عليهم[1]، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[2] . وقال عز وجل: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[3] .

لكن استثنى سبحانه وتعالى من القاعدين عن الجهاد أولي الضرر. والضرر: المرض والعاهة من عمًى أو عرج أو زمانة، لأن هذه الصيغة لمصادر الأدواء ونحوها، وأشهر استعماله في العمى، ولذلك يقال للأعمى: ضرير، ولا يقال ذلك للأعرج والزمن، وأن المراد في هذه الآية خصوص العمى وأن غيره مقيس عليه[4] .

ويؤيد ذلك ما رواه البخاري - في سبب نزول الآية - بسنده.. عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء - رضي الله عنه - يقول: «لما نزلت ﴿ لا يَسْتَوِي

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٤ / ٢٢٩، وتفسير المراغي ٢ / ١٢٩.

(٢) سورة البقرة: ٢٥١.

(٣) سورة الحج: ٤٠

(٤) تفسير التحرير والتنوير ٥ / ١٧١، وانظر: المفردات في غريب القرآن، ص: ٢٩٤، وتاج العروس ٧ / ١٢٣.

الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ـ ﷺ ـ زيداً، فجاءه بكَتف فكتبها. وشكا ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت ﴿**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ**﴾»[1].

ولأن أولي الضرر هم أصحاب الأعذار المبيحة لترك الجهاد، وعندهم النية الصادقة للجهاد، فقد فضل الله المجاهدين عليهم درجة، لأن المجاهدين باشروا الجهاد مع النية، وأولي الضرر كانت لهم نية، ولكنهم لم يباشروا، فنزلوا عنهم بدرجة[2]. قال تعالى: ﴿ **فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً**﴾[3].

أما القاعدون من غير أولي الضرر فقد فضل الله سبحانه وتعالى المجاهدين بأموالهم وأنفسهم عليهم أجراً عظيماً ودرجات رفيعة يقصر الحصر عن عدها، كما قال عز وجل: ﴿**انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً**﴾[4].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب (٣١)، رقم الحديث: ٢٨٣١، فتح الباري ٦ / ٥٣.
وأخرجه مسلم في الإمارة، باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين، رقم الحديث: ١٤١ (١٨٩٨)، بشرح النووي ١٣ / ٤٢.

(٢) انظر: تفسير البغوي ٢ / ٢٧١، وتفسير الطبري ٤ / ٢٣٢. وقد ذهب بعض العلماء ـ منهم القرطبي والقاسمي ـ إلى أن صاحب العذر يعطى أجر الغازي؛ فيكون أجره مساويا، ويستدلون بحديث الرسول ـ ﷺ ـ : «**إن في المدينة لأقواماً ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من واد إلا كانوا معكم فيه**»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر**» أخرجه البخاري في الجهاد، باب من حبسه العذر عن الغزو ٦ / ٤٧، وانظر: تفسير القرطبي ٥ / ٣٤٢، وتفسير القاسمي ٥ / ٣٩٥.

(٣) سورة النساء: ٩٥.

(٤) سورة الإسراء: ٢١.

وقد وردت أحاديث كثيرة تبين لنا درجة الشهداء ومكانتهم في الآخرة، وهي كالتالي:

١ ـ مائة درجة في الجنة:

روى الإمام البخاري بسنده.. عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «**من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان، كان حقا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها.** فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: **إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة** ـ أراه قال: وفوقه عرش الرحمن ـ **ومنه تفجَّر أنهار الجنة**»[١].

والفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلى الجنة يفسر بأنه دار الشهداء، وأنها أحسن وأفضل، كما ورد في الحديث الذي رواه البخاري بسنده... عن سمرة قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «**رأيت الليلة رجلين أتياني فصعدا بي الشجرة وأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل، لم أر قط أحسن منها، قال: أمّا هذه الدار فدار الشهداء**»[٢].

هذا الحديث شاهد لحديث أبي هريرة المذكور قبله ومفسر؛ لأن المراد بالأوسط الأفضل، لوصفه دار الشهداء في حديث سمرة بأنها أحسن

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم الحديث: ٢٧٩، فتح الباري ٦/ ١٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم الحديث: ٢٧٩١، فتح الباري ٦/ ١٤.

وأفضل[١] .

٢ ـ يغفر لهم جميع الذنوب إلا الدَّين:

روى الإمام مسلم بسنده. . . عن عمرو بن العاص أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين**»، وفي رواية له: «**القتل في سبيل الله يكفِّر كل شيء إلا الدَّين**»[٢] .

٣ ـ لون جرح الشهيد لون دم، وريحه ريح مسك:

ومن درجات الشهيد الرفيعة ومكانته العظيمة في الآخرة أن لون جرحه لون دم، وريحه ريح مسك. فإن الشهيد لايزول عنه الدم بغسل ولاغيره، والحكمة في مجيئه يوم القيامة على هيئته ـ والله أعلم ـ أن يكون معه شاهد فضيلته وبذله نفسه في طاعة الله عز وجل[٣] .

روى الإمام مسلم بسنده. . . عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**تضمّن الله لمن خرج في سبيله لايُخرجه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي وتصديقاً برسلي فهو عليَّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ، والذي نفس محمد بيده، ما من كَلْمٍ[٤] يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِم، لونه**

---

(١) انظر: فتح الباري ٦ / ١٧ .

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب في بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، رقم الحديث: ١١٩ (١٨٨٦)، ١٢٠ (. . .) شرح النووي ١٣ / ٢٣٠ .

(٣) انظر: شرح مسلم للنووي ١٣ / ٢٠ .

(٤) الكلم: الجرح (النهاية في غريب الحديث: ٤ / ١٩٩).

لون دمٍ وريحه مسك، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدتُ خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعةً فأحملَهم ولايجدون سعةً، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوددتُ أني أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأُقتل ثم أغزو فأُقتل»[(١)] .

٤ ـ النجاة من عذاب القبر. ٥ ـ الأمن من الفزع الأكبر. ٦ ـ يوضع على رأسه تاج الوقار. ٧ ـ الزواج باثنتين وسبعين زوجة من الحور العين. ٨ ـ يشفّع في سبعين من أقاربه:

روى الترمذي بسنده . . . عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة ويُرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خيرمن الدنيا وما فيها، ويزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»**[(٢)] .

٩ ـ أنهم رفقاء الأنبياء:

ومن درجات الشهداء العالية، ومكانتهم الشريفة التي فضلهم الله سبحانه

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم الحديث: ١٠٣ (١٨٧٦)، شرح النووي ١٣ / ١٩ ـ ٢٠.

(٢) سنن الترمذي في أبواب فضائل الجهاد، باب (٢٥)، رقم الحديث: ١٧١٢، وقال: حديث حسن صحيح غريب (تحفة الأحوذي ٥ / ٣٠٢).
ورواه ابن ماجه، كتاب الجهاد، باب فضل الشهيد، رقم الحديث: (٢٧٩٩)، ٢ / ٩٣٥.
ومسند أحمد ٤ / ١٣١، وفي رواية له عن قيس الجذامي بسند جيد (الفتح الرباني ١٤ / ٣٠. ومشكاة المصابيح ٢ / ٣٥٨، رقم الحديث: ٣٨٣٤، وقال فيه محقق المشكاة: إسناده صحيح).

بها على القاعدين، أنهم من الأصناف الأربعة الذين ذكروا في صفوة الله من عباده؛ وهم النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، فهم رفقاء في الجنة، يتمتعون فيها، ويسعدون برؤية الله. قال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا**﴾[١].

روى البخاري بسنده.. عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «**ما من نبيّ يمرَضُ إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة**». وكان في شكواه الذي قُبض فيه أخذته بُحّة[٢] شديدة، فسمعته يقول: ﴿**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾، فعلمت أنه خُيِّر»[٣].

وروى مسلم بسنده.. عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا اشتكى منّا إنسان مسحه بيمينه ثم قال: «**أَذْهِبِ البأس ربَّ الناس، واشفِ أنت الشافي لاشفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقمًا**»، فلما مرض رسول الله ـ ﷺ ـ وثقُل أخذتُ بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع، فانتزع يده من يدي ثم قال: «**اللهم اغفر لي واجعلني مع الرفيق الأعلى**» قالت:

---

(١) سورة النساء: ٦٩ ـ ٧٠.

(٢) البُحّة بالضم: غلظة في الصوت (النهاية في غريب الحديث ١ / ٩٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾، رقم الحديث: ٤٥٨٦، فتح الباري ٨ / ١٠٣.

فذهبتُ أنظر فإذا هو قد قضى»[١] .

وقال الرازي عند تفسير الآية: «وله موقع عظيم في توكيد ما تقدم من الترغيب في طاعة الله؛ لأنه تعالى نبه بذلك على أنه يعلم كيفية الطاعة وكيفية الجزاء والتفضل. وذلك مما يرغب المكلف في كمال الطاعة، والاحتراز عن التقصير فيه. واعلم أنه تعالى عاد بعد الترغيب في طاعة الله وطاعة رسوله إلى ذكر الجهاد الذي تقدم، لأنه أشق الطاعات، ولأنه أعظم الأمور التي بها يحصل تقوية الدين فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا**﴾[٢]»[٣] .

ومما سبق يتضح لنا أن الشهداء لهم درجات رفيعة، ومكانات عظيمة في الدين، ولكمال درجاتهم كأنها هي الفضل من الله، وأن ما سواها فليس بشيء: ﴿**ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا**﴾[٤] .

جماعة الشهداء الآخرين في الآخرة:

وردت أحاديث كثيرة تبين لنا جماعة من الشهداء غير الذين قتلوا في سبيل الله، وهم:

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ـ المطعون، والمبطون، والغريق وصاحب الهدم:

روى مسلم بسنده.. عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض، رقم الحديث: ٤٦ (٢١٩١) شرح النووي ١٤ / ١٨٠ .

(٢) سورة النساء: ٧١

(٣) التفسير الكبير ١٠ / ١٤١ .

(٤) سورة النساء: ٧٠ .

قال: **«بينما رجل يمشي بطريق وجد غُصْن شوك على الطريق فأخّره فشكر الله له فغفر له، وقال: الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله عز وجل»**[١] .

وفي رواية له عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : **«ما تعدُّون الشهيد فيكم؟** قالوا: يارسول الله من قتل في سبيل الله فهو شهيد، قال: **إن شهداء أمتي إذًا لقليل.** قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: **من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد»**. قال ابن مِقْسَمٍ: أشهد على أبيك[٢] في هذا الحديث أنه قال: **«والغريق شهيد»**[٣] .

٥ ـ ومن جماعة الشهداء في الآخرة من قتل دون ماله مظلومًا:

روي الإمام البخاري بسنده . . عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: **«من قتل دون ماله فهو شهيد»**[٤] .

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء، رقم الحديث: ١٦٤ (١٩١٤) شرح النووي ١٣ / ٦٢ .

(٢) وفي رواية: على أخيك. قاله ابن مقسم لسهيل بن أبي صالح (من رواة هذا الحديث) شرح النووي ١٣ / ٦٤ .

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء، رقم الحديث: ١٦٥ (١٩١٥)، شرح النووي ١٣ / ٦٣ .

(٤) صحيح البخاري كتاب المظالم، باب من قاتل دون ماله، رقم الحديث: ٢٤٨، فتح الباري ٥/ ١٤٧ .

٦ ، ٧ ـ ومن جماعة الشهداء في الآخرة من قتل دون دمه، أي في الدفع عن نفسه، ومن قتل دون أهله بالدفع عن بضع حليلته أو قريبته، وذلك لأن المؤمن محترم ذاتًا ودمًا وأهلاً ومالاً، فإذا أريد منه شيء من ذلك جاز له الدفع عنه، فإذا قتل بسببه فهو شهيد(١) .

عن سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «**من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد**»(٢) .

٨ ، ٩ ـ ومن الشهداء في الآخرة من وقع عن دابته فمات، ومن مات بمرض الجنب:

روى الإمام أحمد بسنده.. عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «**ما تعدون الشهيد؟** قالوا: الذي يقاتل في سبيل الله حتى يقتل، قال: **إن الشهيد في أمتي إذًا لقليل، القتيل في سبيل الله شهيد، والطعين في سبيل الله شهيد، والغريق في سبيل الله شهيد، والخار عن دابته في**

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي ٤ / ٦٨١ .

(٢) الحديث رواه الترمذي في الديات، باب ما جاء من قُتل دون ماله فهو شهيد، رقم الحديث: ١٤٤٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وهكذا روى غير واحد (تحفة الأحوذي ٤ / ٦٨١).

وراه أبو داود كتاب السنة، باب في قتال اللصوص (٤٧٤٦)، وقال المنذري: وأخرجه الترمذي والنسائي.. وأخرجه البخاري في صحيحه.. وخالف البخاري في حديث عبد الله بن عمرو غير واحد من الأثبات، وقالوا فيه: فله الجنة، وزاد فيه: مظلومًا (عون المعبود ١٣ / ١٢١).

سبيل الله شهيد، والمجنوب[1] في سبيل الله شهيد، قال محمد: المجنوب صاحب الجنب»[2].

١٠، ١١ ـ صاحب الحريق، والمرأة التي تموت وفي بطنها ولد:

ورد في حديث طويل رواه عتيك بن الحارث، وفيه: .. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**إن الله عز وجل قد أوقع أجرَه على قدر نيته، وما تعدّون الشهادة؟** قالوا: القتل في سبيل الله. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغرِق [الغريق] شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق [الحَرْق] شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجُمْعٍ[3] شهيد**»[4].

---

(١) وهو: الدُبَيْلة والدمل الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب وتنفجر إلى داخل، وقلّما يسلم صاحبها (لسان العرب ١ / ٢٨١).
وقد يقصد منه الالتهاب الرئوي، أو التهاب الغشاء المبطن للرئة (PLEURISY) حاشية الاستذكار للدكتور عبد المعطي قلعجي ٨ / ٢١٦.
وقيل: أراد بالمجنوب: الذي يشتكي جنبه مطلقًا (النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٠٤، وتاج العروس ١ / ٣٨١).

(٢) مسند الإمام أحمد ٢ / ٤٤١ . وقال أحمد محمد شاكر: إسناده حسن. وأبو مالك بن ثعلبة ـ ويقال: مالك بن ثعلبة ـ قال ابن حجر في التقريب: «مقبول» رواه مسلم، ومالك والبخاري والترمذي (مسند أحمد تحقيق أحمد محمد شاكر، وأتمه وأكمله الدكتور الحسيني عبد المجيد هاشم ١٩ / ٥، وانظر: تقريب التهذيب تحقيق عبد الوهاب عبداللطيف ٢ / ٢٢٣).
وقال أحمد البنا: «وقوله: «**في سبيل الله**» هذا القيد ليس بلازم، لأنه ورد مطلقا بدون قيد من رواية أبي هريرة أيضًا وغيره عند الشيخين وغيرهما (الفتح الرباني ١٤ / ٣٨).

(٣) معناه: أن تموت وفي بطنها ولد (عون المعبود ٨ / ٣٧٨).

(٤) رواه أبو داود، كتاب الجنائز، باب في فضل من مات بالطاعون، رقم الحديث: ٣٠٩٥.
قال المنذري: والحديث أخرجه النسائي وابن ماجه. وقال النمري: رواه جماعة الرواة عن =

وهؤلاء كلهم - غير المقتول في سبيل الله - أنهم يكون لهم في الآخرة ثواب الشهداء، وأما في الدنيا فيغسلون ويصلى عليهم.

قال النووي - رحمه الله - : «واعلم أن الشهيد ثلاثة أقسام:

أحدها: المقتول في حرب الكفار بسبب من أسباب القتل، فهذا له حكم الشهداء في ثواب الآخرة وفي أحكام الدنيا، وهو أنه لايغسل ولا يصلى عليه.

والثاني: شهيد في الثواب دون أحكام الدنيا، وهو المبطون والمطعون وصاحب الهدم، ومن قتل دون ماله وغيرهم ممن جاءت الأحاديث الصحيحة بتسميته شهيداً، فهذا يغسل ويصلى عليه، وله في الآخرة ثواب الشهداء، ولا يلزم أن يكون مثل ثواب الأول.

والثالث: من غل في الغنيمة وشبهه ممن وردت الآثار[1] بنفي تسميته

= مالك فيما علمت لم يختلفوا في إسناده ومتنه. وقال غيره: صحيح من مسند حديث مالك (عون المعبود ٨/ ٣٧٨). وقال ابن عبد البر: ولم يختلف الرواة للموطأ فيما علمت في إسناد هذا الحديث ولا في متنه إلا أن غير مالك يقول فيه: «دعهن يبكين ما دام عندهن» (الاستذكار ٨/ ٣١١).

* وهناك حديث رواه ابن ماجه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**موت غربة شهادة**» رقم الحديث: ١٦١٣. مما يدل على أن حكم من مات غريباً فهو شهيد، إلا أن هذا الحديث لا يحتج به. قال السندي: قال السيوطي: أورده ابن الجوزي في الموضوعات من وجه آخر. وقد سقطت له طرق كثيرة في اللآلي المصنوعة مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لبرحمة الباري علي القاري، تحقيق: صدقي محمد جميل العطار ٤/ ٦٢.

(١) ومن الآثار التي وردت بنفي تسمية من غل في الغنيمة شهيداً، ما رواه مسلم بسنده.. عن =

شهيداً، إذا قتل في حرب الكفار، فهذا له حكم الشهداء في الدنيا، فلا يغسل ولا يصلى عليه، وليس له ثوابهم الكامل في الآخرة. والله أعلم»[١] .

* * *

= عبد الله بن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي - ﷺ - فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد، حتى مرّوا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله - ﷺ -: «**كلاّ، إني رأيته في النار في بردة غلّها أو عباءة، ثم قال رسول الله - ﷺ -: يا ابن الخطاب، اذهب فناد في الناس: أنه لايدخل الجنة إلا المؤمنون، قال**: فخرجت فناديت ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون» صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول. رقم الحديث: ١٨٢ (. .)، شرح النووي ٢ / ١٢٧ .

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٢ / ١٦٤ .

المبحث الثالث
حياة المؤمنين في منازل يوم القيامة

وردت آيات كثيرة تتحدث عن حياة المؤمنين في منازل يوم القيامة، وذلك قبل استقرارهم في الجنة. وهذه الحياة تبدأ من القبر الذي هو أول منازل الآخرة[١]، كما ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده.. عن هانئ مولى عثمان (بن عفان) قال: كان عثمان - رضي الله عنه - إذا وقف على قبر بكى حتى يبلّ لحيتَه، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا؟ فإن ينجُ منه فما بعده أيسرُ منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشدُّ منه، قال: وقال رسول الله - ﷺ -: «**والله ما رأيت منظرًا قطّ إلا والقبر أفظع منه**»[٢].

---

(١) أي: الذي يتحقق به مصيره، إما إلى الجنة وإما إلى النار، ويؤيد ذلك ما رواه الشيخان.. عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم إذا مات عرُض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة**» (رواه البخاري كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، رقم الحديث: ١٣٧٩، فتح الباري ٣/ ٢٨٦. ورواه مسلم في كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت..، رقم الحديث: ٦٥ (٢٨٦٦)، انظر: الفتح الرباني ٨/ ١٠٦.

(٢) مسند أحمد ١/ ٦٣. وقال أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح. والحديث رواه الترمذي ٢٥٨: ٣ وقال: حسن غريب لانعرفه إلا من حديث هشام بن يوسف. ورواه ابن ماجه ٢٩٤: ٢، والحاكم في المستدرك ٣٧١: ١. وهذا الحديث من زيادات عبد الله بن أحمد (مسند أحمد تحقيق أحمد محمد شاكر ١/ ٢٢٥).

البعث وصفته:

كثيرًا ما يستدل الله عز وجل في القرآن الكريم على البعث أو النشور بإحياء الأرض بعد موتها، فمن هذه الأدلة القرآنية ما يلي:

١ - قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[١].

٢ - قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾[٢].

٣ - قوله سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾[٣].

يبين الله في هذ الآيات أنه كما أحيا هذه الأرض بعد موتها بما ينزل به من

---

(١) سورة الأعراف: ٥٧.
(٢) سورة الحج: ٥ - ٧.
(٣) سورة فاطر: ٩.

الماء الذي ينزله من السحاب، فيخرج به من الثمرات بعد موتها وجدوبتها، كذلك يحيي الأجساد بعد صيرورتها رميمًا يوم القيامة، ويعيدها خلقًا سويًا بعد فنائها[١].

حالة المؤمنين في البعث:

ورد في الحديث النبوي أن العبد يبعث على الحالة التي مات عليها، ثم يبعث على نيته، كما روى الإمام مسلم بسنده.. عن جابر - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي - ﷺ - يقول: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**»[٢].

وروى أيضا بسنده.. عن عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما - أن عائشة - رضي الله عنها - قالت: عبث[٣] رسول الله - ﷺ - في منامه، فقلنا: يا رسول الله، صنعتَ شيئًا في منامك لم تكن تفعله، فقال: «**العجَبُ إن ناسًا من أمتي يؤمّون بالبيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسِف بهم**» فقلنا: يارسول الله، إن الطريق قد يجمع الناس، قال: **نعم، فيهم المستبصر[٤] والمجبور وابن السبيل يَهلكون مهلكًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى**

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٥ / ٥١٨، وتفسير ابن كثير ٢ / ١٩٤.

(٢) صحيح مسلم كتاب الجنة، باب الأمر بحسن الظن بالله عند الموت، رقم الحديث: ٨٣ (٢٨٧٨)، شرح النووي ١٧ / ٢٠٨.

(٣) عبث: بكسر الباء، قيل: معناه اضطرب بجسمه. وقيل: حرك أطرافه كمن يأخذ شيئًا أو يدفعه (صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ / ٦ - ٧، وانظر: النهاية في غريب الحديث ٣ / ١٦٩).

(٤) أما المستبصر فهو المستبين لذلك القاصد له عمدًا، وأما المجبور فهو المكره، وأما ابن السبيل فالمراد به سالك الطريق معهم وليس منهم (شرح مسلم للنووي ١٨ / ٧).

يبعثهم الله على نياتهم»[١] .

أما المؤمنون فهم يبعثون يوم القيامة جردًا مردًا مكحلين، وأن المحرم يبعثه الله يوم القيامة ملبيًا.

روى الإمام أحمد بسنده. . عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: قال نبي الله - ﷺ - : «**يبعث المؤمنون يوم القيامة جردًا**[٢] **مردًا مكحلين بني ثلاثين سنة»**[٣] .

وروى البخاري بسنده. . عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «بينما رجل واقف مع رسول الله - ﷺ - بعرفة إذ وقع من راحلته فأقصعته - أو قال: فأقعصتْه - ، فقال رسول الله - ﷺ - : «**اغسلوه بماء وسدر، وكفّنوه في ثوبين، ولا تحنِّطوا**[٤] **ولاتخمّروا**[٥] **رأسه، فإن الله يبعثه يومَ القيامةِ ملبِّيًا»**[٦] .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، رقم الحديث: ٨ (٢٨٨٤)، شرح النووي ١٨ / ٦ .

(٢) الأجرد: الذي ليس على بدنه شعر. والمَرَد: نقاء الخدين من الشعر ونقاء الغصن من الورق (انظر: لسان العرب ٣/ ١١٦، ٤٠١. وتاج العروس ٤ / ٣٨٤، ٥ / ٢٥٢، والنهاية ١/ ٢٥٦).

(٣) مسند أحمد ٥ / ٢٣٢، ٢٤٠، ٢٤٣. وقال أحمد البنا: أورده الحافظ ابن كثير في النهاية معزوًا إلى الطبراني بنحوه، وقال: ورواه الترمذي من حديث عمران بن داود القطان ثم قال: هذا حديث حسن غريب (الفتح الرباني ٢٤ / ٢٠٠).

(٤) الحنوط: طيب يُخلط للميت خاصة (لسان العرب ٧ / ٢٧٨، وانظر: النهاية في غريب الحديث ١ / ٤٥٠).

(٥) لاتخمروا رأسه: لاتغطوه (فتح الباري ٣ / ١٦٣).

(٦) صحيح البخاري كتاب الجنائز، باب الحنوط للميت، رقم الحديث: ١٢٦٦، فتح الباري ٣/ ١٦٣.

الحشر:

بعد البعث والنشور يكون الحشر، وهو سوق الناس والجن ومن يبعثهم الله من الخلائق إلى مكان الحساب الذي تجتمع فيه الخلائق، وفيه يحاسبون وتوزن أعمالهم ويعرف كل مصيره؛ فالحشر جمع الخلائق كلهم إلى الموقف بعد بعثهم وإحيائهم، وأن جميعهم يقومون بين يدي الله صفًا واحدًا، وقد جاء ذكره في آيات كثيرة، منها:

- قوله تعالى: ﴿ **وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا** ﴾[١].

- وقوله عز وجل: ﴿ **قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ** ﴾[٢].

- وقوله سبحانه: ﴿ **ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ** ﴾[٣].

صفة الحشر:

يحشر الناس إلى الله حفاةً عراةً غُرْلاً، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله - ﷺ - خطيبًا بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم

---

(١) سورة الكهف: ٤٧ - ٤٨.

(٢) سورة الواقعة: ٤٩ - ٥٠.

(٣) سورة هود: ١٠٣.

تحشرون إلى الله حفاةً عراةً غرلاً[١]: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٢]، ألا وإن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقال: إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣]، قال: فيقال لي: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»[٤].

حالة المؤمنين في المحشر:

وكربات الحشر والموقف وما يكون فيه وما يكون بعده شيء هائل إلا على أهل هذا المقام من الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بشرك، فهم يحشرون إلى ربهم ركبانًا ناجين بما اتقوا هذا اليوم، فهم يغادرون الموقف سالمين، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٥]. ويقول سبحانه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[٦].

والمؤمنون إذ يحشرون إلى ربهم ركبانًا سالمين من أهوال ذلك الموقف، فإنهم كذلك يمتازون عن غيرهم بأنهم الغر المحجلون، بل إن منهم قومًا يأتون

---

(١) أي: قُلْفًا غير مختونين (انظر: تاج العروس ١٥ / ٥٣٧).

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٤.

(٣) سورة المائدة: ١١٧ـ١١٨.

(٤) صحيح مسلم كتاب الجنة، رقم الحديث: ٥٨ (..)، بشرح النووي ١٧ / ١٩٣ـ١٩٤.

(٥) سورة الأنعام: ٨٢

(٦) سورة مريم: ٨٥. وفدًا: ركبانًا (انظر: تفسير الطبري ٨ / ٣٨٠، وتفسير ابن كثير ٣ / ١٢٠).

يوم القيامة نورهم كنور الشمس .

روى أبو يعلى عن جابر قال : قال رسول الله - ﷺ - : «**أنتم الغُرُّ المحجلون**»(١) .

وروى أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : كنت عند رسول الله - ﷺ - يومًا وطلعت الشمس فقال : «**يأتي قوم يوم القيامة نورهم كنور الشمس. قال أبو بكر : نحن هم يا رسول الله ؟ قال : لا، ولكم خير كثير، ولكنهم الفقراء المهاجرون الذين يحشرون من أقطار الأرض**»(٢) .

وفي ذلك الموقف اطمأنت قلوب المؤمنين ، وفرحت نفوسهم ، يرون وعد الله يتحقق لهم ، فهذا هو الذي حدثهم عنه رسول الله - ﷺ - ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال : «**سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه: الإمام العادل، وشابّ نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ، ورجل تصدّق أخفى حتى لاتعلم شمالُه ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»(٣) .

وورد في حديث طويل رواه مسلم بسنده . . عن عبادة بن الوليد بن عبادة

---

(١) مجمع الزوائد (١٠ / ٣٤٤)، وقال : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح .

(٢) مسند أحمد ٢ / ٢٢٢ . وقال أحمد محمد شاكر : إسناده صحيح ، المسند للإمام أحمد ، تحقيق : أحمد محمد شاكر : ١٢ / ٢٨ . ومجمع الزوائد ١٠ / ٢٥٨ ، وقال : رواه أحمد والطبراني في الأوسط الكبير ، وله في الكبير أسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح .

(٣) صحيح البخاري كتاب الأذان ، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ، وفضل المساجد ، رقم الحديث : ٦٦٠ ، فتح الباري ٢ / ١٦٨ .

ابن الصامت، وفيه: «.. وهو يقول: «**من أنظر معسراً أو وضع عنه أظلّه الله في ظلّه..**»[١].

إنه لاظل في ذلك اليوم العظيم والناس تحت الشمس المحرقة إلا ظل العرش، فتكرمة الله لهذه الطوائف من المؤمنين ألا يجدوا ما يجد الكافرون من هول ومشقة وضيق.

الحساب:

قال تعالى: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ**﴾[٢]. أي: قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم وعقائدهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا، واحبسوهم إنهم محاسبون[٣].

فالمراد بالحساب هو أن يقف العباد بين يدي الله تبارك وتعالى، وأن يعرّفوا بما عملوا، وأن تحضر أقوالهم، ما صدر منهم في الحياة الدنيا من إيمان وكفر، وطاعة ومعصية، ومايستحقونه من ثواب وعذاب، ثم ما يتسلمونه من كتب بأيمانهم إن كانوا مؤمنين صالحين، أو بشمالهم إن كانوا طالحين[٤].

---

(١) صحيح مسلم كتاب الزهد، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، رقم الحديث: ٧٤(٣٠٠٦)، بشرح النووي ١٨ / ١٣٥.

(٢) سورة الصافات: ٢٤.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٤ / ٧، وتفسير الطبري ١٠ / ٤٨٠، وتفسير البغوي ٧ / ٣٨، وتفسير القاسمي ١٤ / ١٠١.

(٤) انظر: مشاهد يوم القيامة في الحديث النبوي للدكتور أحمد محمد العلي، ص: ١٢٠، واليوم الآخر القيامة الكبرى للدكتور عمر سليمان الأشقر، ص: ١٩٣.

حساب المؤمنين:

والحساب منه العسير ومنه اليسير، منه التكريم ومنه التوبيخ، ومنه إسباغ الفضل والعفو والصفح والتجاوز، ومنه لايكلمهم الله ولاينظر إليهم.

أما المؤمن فيحاسب حسابًا يسيرًا، وهو عرض أعماله عليه دون مناقشة، لايطول زمنه فيعجّل به إلى الجنة، وذلك إذا كانت أعماله صالحة، فالحساب اليسير هو الذي يغفر ذنوبه، ويتقبل حسناته، ويعفى عنه [(١)]، قال تعالى: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** ﴾[(٢)] .

ففي صحيحي البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك.** فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا** ﴾[(٣)] ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: **إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحسابَ يوم القيامة إلا عُذّب**»[(٤)] .

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١٢ / ٥٠٧، وتفسير زاد المسير ٨ / ٢١٠، وتفسير التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٢٣.

(٢) سورة الأحقاف: ١٦.

(٣) سورة الانشقاق: ٧ـ٨.

(٤) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذّب، رقم الحديث: ٦٥٣٧، فتح الباري ١١ / ٤٠٧.

وصحيح مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب إثبات الحساب، رقم الحديث: ٧٩ (٢٨٧٦) بشرح النووي ١٧ / ٢٠٨.

قال النووي: «معنى نوقش الحساب: استقصي عليه. قال القاضي: وقوله: «عذّب» له معنيان؛ أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ. والثاني: أنه مفض إلى العذاب بالنار، ويؤيده قوله في الرواية الأخرى: «**هلك**» مكان «**عذب**» هذا كلام القاضي.

قال النووي: وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصي عليه، ولم يسامح **هلك**، ودخل النار، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء»[1].

وفي صحيح البخاري عن صفوان بن مُحْرِز المازنيّ قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر - رضي الله عنهما - آخذٌ بيده إذ عرضَ رجلٌ فقال: كيف سمعتَ رسول الله - ﷺ - في النجوى؟ فقال: سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: «**إن الله يُدنِي المؤمن فيضع عليه كَنَفَه**[2] **ويستره؛ فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، فيقول: نعم أيّ ربِّ. حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطى كتابَ حسناته. وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين**»[3].

ومن المؤمنين فئة قليلة يدخلون الجنة بغير حساب، وعددهم سبعون ألفًا

---

(١) شرح مسلم للنووي ١٧ / ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) الكَنَفُ والكَنَفَةُ: ناحية الشيء، وكنف الرجل: حضْنُه يعني: العَضُدين والصدر (لسان العرب ٩ / ٣٠٨. وانظر: النهاية في غريب الحديثَ ٤ / ٢٠٥).

(٣) صحيح البخاري كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿**أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾، رقم الحديث: ٢٤٤١، فتح الباري ٥ / ١٦٥.

من أمة محمد - ﷺ - .

ويدل على ذلك هذا الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما . . عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : «**عرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط**[1] ، **والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**». ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله - ﷺ - ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ، فلم يشركوا بالله شيئا - وذكروا أشياء - فخرج عليهم رسول الله - ﷺ - فقال : «**ما الذي تخوضون فيه؟**» فأخبروه فقال : «**هم الذين لايَرقُون ولايسترقون، ولايتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**». فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : «**أنت منهم**». ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : «**سبقك بها عكاشة**»[2] .

(١) الرهيط بضم الراء : تصغير رهط ، وهم دون عشرة (انظر : لسان العرب ٧ / ٣٠٥ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ٢٨٣) .

(٢) صحيح البخاري كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ، رقم الحديث : ٦٥٤١ ، فتح الباري ١١ / ٤١٣ .

وصحيح مسلم كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ، رقم الحديث : ٣٧٤ (٢٢٠) ، بشرح النووي ٣ / ٩٣ - ٩٤ .

محاسبة العباد وسؤالهم:

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

وقال عز وجل: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾[٣].

ذكر الله سبحانه في هذه الآيات أن العباد كلهم يسألون ويحاسبون يوم القيامة عن جميع أعمالهم، كا أنهم يسألون عما أجابوا رسل الله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضًا عن إبلاغ رسالته، وأن الله يسأل الجوارح والحواس والعقل والقلب عما فعل صاحبها، كما أنه تعالى يسأل عن الأشياء الأخرى التي تتعلق بحياة العباد في الدنيا:

- إن الله يسأل العباد عن النعيم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٤].

- ويسألون ويحاسبون على أعمال الظاهر والباطن، وخطايا الظاهر والباطن، وعلى أمراض القلوب، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٥].

---

(١) سورة الحجر: ٩٢-٩٣.

(٢) سورة الأعراف: ٦.

(٣) سورة الإسراء: ٣٦.

(٤) سورة التكاثر: ٨.

(٥) سورة البقرة: ٢٨٤.

ـ وأن العبد يوم القيامة يُسأل عن عمره، وعن علمه، وعن ماله، وعن جسمه. ففي سنن الترمذي عن أبي برزة الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه؟، وعن علمه ماذا عمل به؟، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟، وعن جسمه فيم أبلاه؟**»(١) .

ـ وأول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله الصلاة، ففي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ : «**إن أول ما يحاسب به الناس يوم القيامة من الصلاة. قال: يقول ربنا عز وجل لملائكته وهو أعلم: انظروا في صلاة عبدي أتمها أو نقصها، فإذا كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئًا قال: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع قال: أتموا لعبدي فريضة من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال على ذلكم..**»(٢) .

ـ وأول ما يحاسب عليه من حقوق العباد الدماء. ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ : «**أول ما يقضى بين الناس في الدماء**»(٣) .

هذه من أنواع محاسبة العباد وسؤالهم يوم القيامة ذكرناها من باب الإتيان

---

(١) الجامع الصحيح، الترمذي، حديث رقم: (٢٤١٧) في صفة القيامة، باب رقم: ١، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) مسند أحمد ٢ / ٤٢٥ . وقال محقق هذا الحديث (د/ أحمد عمر هاشم): إسناده صحيح (مسند أحمد طبعة أحمد محمد شاكر ١٨ / ١٣٨، وانظر: صحيح الجامع للألباني ٢ / ٣٥٢).

(٣) صحيح البخاري كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ**﴾ رقم الحديث: ٦٨٦٥، فتح الباري ١٢ / ١٩٤ .

بالمثال لا الحصر.

إيتاء المؤمنين كتبهم:

في ختام مشهد الحساب يعطى كل عبد كتابه المشتمل على سجل جميع أعماله التي عملها في الحياة الدنيا، وتختلف الطريقة التي يؤتى بها العباد كتبهم.

فأما المؤمن فإنه يؤتى بيمينه من أمامه، فيحاسب حسابًا يسيرًا، وينقلب إلى أهله مسرورًا، كما يقع للإنسان حين يناله الخير فيعود إلى أهله مستبشرًا(١). قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا**﴾(٢).

ويخبر تعالى في آية أخرى عن سعادة المؤمن عندما يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك، لأنه نجا من فضيحته يومئذ. وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: خذوا اقرءوا كتابيه، لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات(٣). قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ**

---

(١) وأهله يذكرون هنا؛ لأن الذي يؤتى كتابه وراء ظهره كان في أهله مسرورًا في الدنيا؛ وكان يظن أن لا يرجع لله؛ وسيصلى هنا سعيرًا؛ فمن المقابلة المنسّقة أن يكون لمن يؤتى كتابه بيمينه أهل، يعود إليهم في الآخرة مسرورًا! (مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب، ص: ١٩٥-١٩٦).

(٢) سورة الانشقاق: ٧-٩.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٤ / ٣٦٢.

في عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾[١] .

الميزان:

قال تعالى : **﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾**[٢] .

قال القرطبي : «قال العلماء : وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها . . »[٣] .

وقد ذكر لفظ الوزن والميزان في القرآن الكريم في ثلاث وعشرين آية، منها خمس عشرة آية خاصة بالحث على إقامة العدل في ميزان الدنيا، والحذر من التطفيف في الكيل والميزان . . المستوجب لعذاب الله ، ومنها ثماني آيات خاصة بالوزن في الآخرة[٤] .

وقد دلت السنة المطهرة على أن الميزان ميزان حقيقي ، لايقدر قدره إلا الله عز وجل ، فقد روى الحاكم عن سلمان عن النبي - ﷺ - قال : «**يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت. فتقول الملائكة: يا رب، لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: من تجيز**

---

(١) سورة الحاقة : ١٩ ـ ٢٤ .

(٢) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ص : ٣٥٩ .

(٤) الغيبيات في ضوء السنة للدكتور محمد همام، ص ٣٤٥، وانظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص : ٧٥٠، مادة «وزن» .

على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي. فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»[١] .

دقة الميزان وعدالته:

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[٢] .

يخبر تعالى في هذه الآية عن القضاء العادل يوم القيامة بأنه يوازن بين أعمال العباد موازنة دقيقة فيحاسب كلاً على أعماله، ووصف الله تعالى الموازين بالقسط؛ لأن الميزان قد يكون مستقيمًا وقد يكون بخلافه، فبين أن تلك الموازين تجري على حد العدل والقسط، وأكد ذلك بقوله: ﴿ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾»[٣] .

وقد صوّر القرآن الكريم دقة الموازنة بصور حسية من مألوف الناس، قال تعالى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾[٤] .

---

(١) المستدرك ٤ / ٨٥٦. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٢ / ٦٥٦، رقم الحديث: ٩٤١.

(٢) سورة الأنبياء: ٤٧

(٣) انظر: التفسير الكبير ٢٢ / ١٥٢.

(٤) سورة الأعراف: ٨-٩.

كما صوّر الحديث النبوي ذلك الميزان الدقيق العادل بصورة حسية، ففي مسند أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفّة، فيوضع ما أُحْصِيَ عليه، فتمايَلَ به الميزان، قال: فيبعث به إلى النار، قال: فإذا أُدْبر به، إذا صائح يصيح من عند الرحمن، يقول: لاتَعْجَلُوا، لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها «لا إله إلا الله» فتوضع مع الرجل في كفة، حتى يميل به الميزان**»[١] .

المؤمنون هم المفلحون:

ذكر الله سبحانه في القرآن الكريم أن من ثقلت موازينه ـ بأن رجحت من موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات ـ ؛ فأولئك هم الفائزون بالجنة، الناجون من العذاب. فالمؤمنون على تفاوت درجاتهم في الأعمال هم المفلحون، وإن عذّبوا على بعض ذنوبهم بمقدارها. وفي ذلك يقول الله تعالى في آيات كثيرة، منها:

ـ قوله تعالى: ﴿ **وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[٢] .

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢ / ٢٢١ ـ ٢٢٢ . قال أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح، على خطأ في اسم أحد رواته، رقم الحديث: ٧٠٦٦، طبعة أحمد محمد شاكر ١٢ / ٢٣ ـ ٢٤ . وقال أحمد البنا: أورده الهيثمي في مجمع الزائد، وقال: قلت رواه الترمذي باختصار، ورواه أحمد، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني ٢٤ / ١٤٥ . وتفسير ابن كثير ٣ / ١٥٨).

(٢) سورة الأعراف: ٨ .

ـ وقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

ـ وقال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾[2] .

الأعمال التي تثقل في ميزان المؤمنين:

وردت أحاديث كثيرة تتحدث عن الأعمال التي تثقل في الميزان، فمن ضمن هذه الأعمال ما يلي:

١ ـ خلق حسن:

أثقل ما يوضع في ميزان العبد خلق حسن، ففي مسند الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**إن أفضل شيء في الميزان** ـ قال ابن أبي بُكير[3] : أثقل شيء في الميزان ـ **يوم القيامة الخلق الحسن**»[4] .

---

(١) سورة المؤمنون: ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٢) سورة القارعة: ٦ ـ ٧ .

(٣) ابن أبي بُكير بالتصغير هو: يحيى الكرماني أحد الراويين اللذين روى عنهما الإمام أحمد هذا الحديث، يعني: إنه قال في روايته «أثقل» بدل «أفضل» (الفتح الرباني ١٩ / ٧٨).

(٤) مسند أحمد ٦ / ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٥٢ . وقال أحمد البنا: أورده المنذري بلفظ: «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وأن الله يبغض الفاحش البذيء**»، وعزاه للترمذي وابن حبان في صحيحه، قال: وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وزاد في روايته له« **وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة**»، ورواه بهذه الزيادة البزار بإسناد جيد لم يذكر فيه « الفاحش البذيء»، ورواه أبو داود مختصرا قال: «**ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق**» (المصدر السابق).

٢ ـ الكلمتان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم:

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(١).

٣ ـ كلمة التحميد: الحمد لله.

روى مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو: فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها**»(٢).

قال النووي: «وأما قوله ـ ﷺ ـ: «**والحمد لله تملأ الميزان**» فمعناه: عظم أجرها، وأنه يملأ الميزان، وقد تظاهرت نصوص القرآن والسنة على وزن الأعمال وثقل الموازين وخفتها»(٣). وكذلك قوله: «**وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السموات والأرض**»، وسبب عظم فضلها ما اشتملت عليه من التنزيه لله تعالى والافتقار إليه(٤).

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأيمان، باب (١٩)، رقم الحديث: ٦٦٨٢، فتح الباري ١١ / ٥٧٥.

ورواه مسلم كتاب الذكر، باب فضل التهليل والتسبيح، رقم الحديث: ٣١ (٢٦٩٤) بشرح النووي ١٧ / ١٩.

(٢) صحيح مسلم كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم الحديث: ١ (٢٢٣)، بشرح النووي ٣ / ١٠٠.

(٣) شرح النووي ٣ / ١٠١.

(٤) شرح الأربعين حديثًا النووية لابن دقيق العيد، ص: ٦١ ـ ٦٢.

٤ ـ رباط الخيل في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾[١] .

روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال النبي ـ ﷺ ـ : «من احتبس فَرَسًا في سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده، فإن شِبَعه[٢] وريّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»[٣] .

قال الرازي عند قوله تعالى: ﴿ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾: «. . . لاشك أن ربط الخيل من أقوى آلات الجهاد»[٤] .

وقال صاحب الظلال: «. . والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها؛ ويخص «رباط الخيل» لأنه الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة. . ولو أمرهم بإعداد أسباب لايعرفونها في ذلك الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ والمهم هو عموم التوجيه»[٥] .

---

(١) سورة الأنفال: ٦٠ .

(٢) شبعه، بكسر أوله أي: ما يشبع به، وكذا قوله: «ريه» بكسر الراء وتشديد التحتانية (فتح الباري ٦ / ٦٨).

(٣) صحيح البخاري كتاب الجهاد، باب من احتبس فرسًا في سبيل الله لقوله تعالى: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾، رقم الحديث: ٢٨٥٣، فتح الباري ٦ / ٦٧ .

(٤) التفسير الكبير ١٥ / ١٤٨ .

(٥) في ظلال القرآن ٣ / ١٥٤٣ .

«ثم إنه ذكر ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء، فقال: ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾؛ وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم، وذلك الخوف يفيد أمورًا كثيرة:

أولها: أنهم لا يقصدون دخول دار الإسلام.

وثانيها: أنه إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم جزية.

وثالثها: أنه ربما صار ذلك داعيًا لهم إلى الإيمان.

ورابعها: أنهم لا يعينون سائر الكفار.

وخامسها: أن يصير ذلك سببًا لمزيد الزينة في دار الإسلام[١] .

ولاشك أن هذه الأمور كلها من الحسنات التي تثقل في ميزان المؤمنين يوم القيامة.

الحوض:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ[٢] هُوَ الأَبْتَرُ ﴾[٣] .

---

(١) التفسير الكبير ١٥ / ١٤٨-١٤٩.

(٢) إن شانئك: إن مبغضك يا محمد، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين. هو الأبتر: الأقل الأذل المنقطع (تفسير ابن كثير ٤ / ٤٨٩، وانظر: تفسير الطبري ١٢ / ٧٢٦).

(٣) سورة الكوثر: ١-٣.

روى مسلم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: بيْنا رسول الله - ﷺ - ذات يوم بين أظهرنا إذْ أغْفى [١] إغفاءةً، ثم رفع رأسه متبسّمًا، فقلنا: ما أضحكك يارسول الله؟ قال: «**أنزلت عليّ آنفًا سورة**، فقرأ ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ** ﴾، ثم قال: **أتدرون ما الكوثر؟** فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **فإنه نهرٌ وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض تَرِد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم فيُختلج**[٢] **العبد منهم فأقول: ربِّ إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك**»[٣].

لقد بين لنا رسول الله - ﷺ - في أحاديث كثيرة الذين يردون على حوضه، والذين يُذادون عنه، فيمنعون من الشرب منه. فمن تلك الأحاديث المطهرة ما يلي:

١ - ما رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «**إن حوضي لأبعدُ من أَيْلَةَ** [٤] **من عَدَن**[٥]، **والذي نفسي بيده: إني لأذود عنه الرجال، كما يذود الرجلُ الإبلَ الغريبة عن حوضه**. قالوا: يا رسول الله

---

(١) أي: نام نومة خفيفة؛ أو نعس (تاج العروس ٢٠ / ٢١، النهاية ٣ / ٣٧٦).

(٢) وأصل الاختلاج: الحركة والاضطراب (لسان العرب ٢ / ٢٥٨).

(٣) صحيح مسلم كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة، رقم الحديث: ٥٣ (...)، بشرح النووي ٤ / ١١٢.

(٤) أيلة، بالفتح: مدينة على ساحل بحر القُلزُم مما يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام (معجم البلدان ١ / ٣٤٧).

(٥) والعدن: موضع باليمن، ويقال له أيضا: عدن أبين، نسب إلى أبْين رجل من خمير، لأنه عَدَنَ به أي: أقام (لسان العرب ١٣ / ٢٧٩، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣ / ١٩٢).

وتعرفُنا؟ قال: نعم، تردون عليّ غراً محجلين من آثار الوضوء ،ليست لأحد غيركم»[١] .

٢ ـ ما رواه البخاري عن أبي هريرة أنه كان يحدّث أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يَرِد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيُجْلَون[٢] عن الحوض، فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقول: إنك لا علمَ لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى»[٣] .

٣ ـ ما رواه البخاري ـ أيضًا ـ عن سهل.. قال: أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعتُه وهو يزيد فيها: «فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: سُحقًا[٤] سحقًا لمن غيّر بعدي»[٥] .

قال النووي في قوله: «سحقًا سحقًا لمن غيّر بعدي»: «هذا مما اختلف العلماء في المراد به على أقوال:

ـ أحدها: أن المراد به المنافقون والمرتدون.. فهؤلاء بدلوا بعدك، أي: لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم.

---

(١) صحيح مسلم كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة في الوضوء، رقم الحديث: ٣٨ / ٢٤٨، بشرح النووي ٣ / ١٣٦ .

(٢) أي: يصرفون (فتح الباري ١١ / ٤٨٢).

(٣) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب في الحوض، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ الرقم: ٦٥٨٥، فتح الباري ١١ / ٤٧٣ .

(٤) وقال ابن عباس: سحق: بعد، يقال: سحيق بعيد، سحقه وأسحقه أبعده (فتح الباري ١١/ ٤٧٢).

(٥) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم الحديث: ٦٥٨٤، فتح الباري ١١ / ٤٧٢ .

ـ والثاني: أن المراد من كان في زمن النبي ـ ﷺ ـ ثم ارتد بعده، فيناديهم النبي ـ ﷺ ـ، وإن لم يكن عليهم سيما الوضوء؛ لما كان يعرفه ـ ﷺ ـ في حياته من إسلامهم، فيقال: ارتدوا بعدك.

ـ والثالث: أن المراد به أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام..»[١].

صفة الحوض:

لقد وصف رسولنا ـ ﷺ ـ الحوض بأنه واسع الأرجاء، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، ترد عليه أمة محمد ـ ﷺ ـ، من شرب منه لايظمأ أبدًا.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«حوضي مسيرة شهر،، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه[٢] كنجوم السماء، ومن شرب منه لايظمأ أبدًا»**[٣].

موضع الحوض:

وقد اختلف أهل العلم في موضع الحوض، هل أنه يكون قبل المرور على

---

(١) شرح مسلم للنووي ٣/ ١٣٦ ـ ١٣٧ باختصار. وانظر: التذكرة للقرطبي، ص: ٣٥٢.

(٢) ورد في حديث أنس الذي بعده: **«وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء»** صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب في الحوض، الرقم: ٦٥٨٠، فتح الباري ١١/ ٤٧٢.

(٣) البخاري كتاب الرقاق، باب في الحوض، الرقم: ٦٥٧٩، فتح الباري ١١/ ٤٧٢. ومسلم كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ـ ﷺ ـ وصفاته ٤/ ١٨٠١.

الصراط أو بعده؟ فقال القرطبي: «والصحيح أن للنبي - ﷺ - حوضين، أحدهما: في الموقف قبل الصراط، والثاني: في الجنة. وكلاهما يسمى كوثرًا»[١].

ويعلق صاحب كتاب «رحلة الخلود» على أقوال العلماء في موضع الحوض، فيقول: «هذا، ولم يقم دليل صريح على شيء مما ذكر، فالواجب اعتقاده هو أن النبي - ﷺ - له حوض تعدد أو اتحد، تقدم على الصراط أو تأخر، ولا يضرنا جهل ذلك»[٢].

الصراط:

قال تعالى: ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾[٣].

قال عبد الله بن مسعود: «يرد الناس جميعًا الصراط، وورودهم[٤] قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل،

---

(١) يوم الفزع الأكبر للقرطبي، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، ص: ٢٥١.

(٢) رحلة الخلود لحسن أيوب، ص: ١٧٢.

(٣) سورة مريم: ٧١-٧٢.

(٤) قال بعض المفسرين: بل الورود عام لكلّ مؤمن وكافر، غيرأن ورود المؤمن المرور، وورود الكافر الدخول (انظر: تفسير الطبري ٨/ ٣٦٦).

حتى إن آخرهم مرًا رجل نوره على موضع إبهامي قدميه، يمر فيتكفأ[١] به الصراط»[٢].

والصراط: دحض[٣] مزلّة فيه خطاطيف وكلاليب وحَسْكَة[٤] تكون بنجد فيها شوكة يقال لها السعدان، وأنه مثل حد السيف، ويكون على بعض الناس أدق من الشعر، وعلى بعض الناس مثل الوادي الواسع[٥].

مرور المؤمنين على الصراط:

لقد كرّم الله سبحانه المؤمنين يومئذ تكريمًا عظيمًا، إذ يمرون على الصراط بسرعات مختلفة وأنوار مختلفة. أما المنافقون فلانور لهم. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**

---

(١) يتكفأ به الصراط أي: يتميل ويتقلب (لسان العرب ١ / ١٤١، والنهاية ٤ / ١٨٢).

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ١١٦، وانظر: تفسير فتح القدير ٣ / ٣٤٦.

(٣) دحضٌ: زلقٌ (تاج العروس ١٠ / ٥١).

(٤) الحسكة: هي عُشْبة تضرب إلى الصفرة ولها شوك يسمى الحَسَك أيضًا مُدحرجٌ، لايكاد أحد يمشي عليه إذا يبس إلا مَنْ في رجليه خفٌّ أو نعل (لسان العرب ١٠ / ٤١١).

(٥) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري .. بلفظ: «... قيل: يا رسول الله: وما الجسر؟ قال: **دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحَسَكٌ تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان..**» في كتاب الإيمان، رقم الحديث: ٣٠٣ (١٨٣) بشرح النووي ٣ / ٢٩.
وانظر: التذكرة للقرطبي، ص: ٣٨٣-٣٨٤، وتفسير الطبري ٨ / ٣٦٨، رقم الحديث: ٢٣٨٦٢، وتفسير ابن كثير ٣ / ١١٦، وتفسير البغوي ٥ / ٢٥٠، وذكر الحديث الذي رواه البخاري في التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ** ﴾، رقم الحديث: ٧٤٣٧، فتح الباري ١٣ / ٤٣٠، وفيه ذكر صفة الصراط، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ٢ / ١٩٢.

﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[(١)] .

ويقول عز وجل : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٢)] .

قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ : «على قدر أعمالهم يمرون على الصرط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً مَنْ نوره في إبهامه يتّقد مرة ، ويطفأ مرة»[(٣)] .

تهذيب المؤمنين وتنقيتهم قبل دخولهم الجنة:

بعد أن يجتاز المؤمنون الصراط يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار ، ثم

---

(١) سورة الحديد : ١٢-١٥ .

(٢) سورة التحريم : ٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٧٠ ، وانظر : تفسير الطبري ١١ / ٦٧٦ ، رقم الحديث : ٣٣٦١٦ ، وتفسير البغوي ٨ / ٣٤ ، والحديث رواه الحاكم في المستدرك كتاب التفسير ، تفسير سورة الحديد ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، ٢ / ٤٧٨ .

يهذبون وينقّون، وذلك بأن يقتص لبعضهم من بعض إذا كانت بينهم مظالم في الحياة الدنيا، حتى إذا دخلوا الجنة كانوا أطهاراً أبراراً، ليس لأحد عند الآخر مظلمة، ولا يطلب بعضهم بعضًا بشيء من غل وبغض، قال تعالى: ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ...** ﴾[١].

روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «**يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذّبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى**[٢] **بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**»[٣].

ثم الناس بعد تجاوز قناطر الصراط على نوعين: نوع تساوت حسناتهم وسيئاتهم فهؤلاء أهل الأعراف، وهو سور بين النار والجنة[٤]، قال تعالى: ﴿ **وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ** ﴾[٥]. ونوع رجحت حسناتهم سيئاتهم هم أهل الجنة.

---

(١) سورة الأعراف: ٤٣.

(٢) قال الطيي: «أهدى» لايتعدى بالباء، بل باللام أو إلى، فكأنه ضمن معنى اللصوق بمنزله هاديًا إليه (فتح الباري ١١ / ٤٠٧).

(٣) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم الحديث: ٦٥٣٥، فتح الباري ١ / ٤٠٣.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٢ / ١٨٨ - ١٨٩، وتفسير الطبري ٥ / ٥٠٠، رقم الحديث: ١٤٧٠٤، وتفسير البغوي ٣ / ٢٣١ - ٢٣٢، والأساس في السنة وفقهها لسعيد حوى ٣ / ١٣٣١.

(٥) سورة الأعراف: ٤٦.

الشفاعة[(١)] :

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[(٢)] .

قال الطبري : «قال أكثر أهل العلم : ذلك هو المقام الذي هو يقومه - ﷺ - يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم»[(٣)] .

روى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال : «**من قال حين يسمع النداء: اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمّداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محموداً الذي وعدته، حلّت له شفاعتي يوم القيامة**»[(٤)] .

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي - ﷺ - يقول : «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلاةً صلّى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة**

---

(١) الشفاعة عرفًا : سؤال الخير للغير ، أو السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم (انظر : النهاية في غريب الحديث ٢ / ٤٨٥ ، لسان العرب ٨ / ١٨٤)

(٢) سورة الإسراء : ٧٩ .

(٣) تفسير الطبري ٨/ ١٣١ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٣ / ٥٠ ، وتفسير البغوي ٥ / ١١٧ .

(٤) صحيح البخاري كتاب الأذان ، باب الدعاء عند النداء ، رقم الحديث : ٦١٤ ، فتح الباري ٢/ ١١٢ .

حلّت له الشفاعة»[١] .

والشفاعة مظهر من مظاهر الرحمة الربانية التي يغمر بها الله الرحمن الرحيم العصاة والمذنبين من خلقه، كما أنها مشرفة لرسول الله - ﷺ - في أن يشفع لأمته .

والشفاعة تكون يوم القيامة من الأنبياء والملائكة والعلماء والشهداء والصالحين وأولاد المؤمنين والمؤمنات ممن مات صغيراً، وتشفع بعض الأعمال؛ فيشفع القرآن، ويشفع الصيام . إنه لايتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عند الله إلا بإذنه له والرضا في الشفاعة، قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾[٢] .

وقال عز وجل : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾[٣] .

وقال سبحانه : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾[٤] .

أنواع الشفاعة:

وردت الأحاديث الكثيرة التي تدل على أن الشفاعة أنواع :

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه . . ، رقم الحديث : ١١ (٣٨٤)، بشرح النووي ٤ / ٨٥ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٥ .

(٣) سورة طه : ١٠٩ .

(٤) سورة النجم : ٢٦ .

النوع الأول: الشفاعة الأولى، وهي العظمى، الخاصة بنبينا محمد - ﷺ - من بين إخوانه من الأنبياء والمرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين - .

روى مسلم عن أنس بن مالك الحديث الطويل، وفيه: «... **ولكن ائتوا محمداً - ﷺ -: عبداً قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**فيأتوني فأَستأذن على ربي فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعتُ ساجداً فيدعني ما شاء الله فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، قُل تُسمعْ، سل تُعطه، اشفع تُشفَّع، فأرفعُ رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي، ثم أشفع فيَحُدُّ لي حداً فأُخرجهم من النار وأدخلهم الجنة..**»(١) .

وروى البخاري عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «**يخرج قوم من النار بشفاعة محمد - ﷺ - فيدخلون الجنة، يسمون الجُهنميين**»(١) .

النوع الثاني والثالث: شفاعته - ﷺ - في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها.

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم الحديث: ٣٢٢ (١٩٣) بشرح النووي ٣/ ٥٣ - ٥٨.
وروواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم الحديث: ٦٥٦٥، فتح الباري ١١/ ٤٢٥.

(٢) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم الحديث: ٦٥٦٦، فتح الباري ١١/ ٤٢٥.

النوع الرابع: شفاعته - ﷺ - في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

النوع الخامس: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن مِحْصَن، حين دعا له رسول الله - ﷺ - أن يجعله من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، والحديث مخَرَّج في الصحيحين[(١)].

النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه.

قال القرطبي في «التذكرة» بعد ذكر هذا النوع: «فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[(٢)]، قيل له: لاتنفعه في الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة»[(٣)].

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة، كما تقدم، وفي صحيح مسلم عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال:

---

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، رقم الحديث: ٦٥٤١، ٦٥٤٢، فتح الباري ١١ / ٤١٣. صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم الحديث: ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٤، بشرح النووي ٣ / ٨٨ - ٩٢.

(٢) سورة المدثر: ٤٨.

(٣) التذكرة، ص: ٢٨٧.

«أنا أول شفيع في الجنة...»[١] .

النوع الثامن: شفاعته في أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث، وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون[٢] .

* * *

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب في قول النبي - ﷺ - : «**أنا أول شفيع**..»، رقم الحديث: ٣٣٢، بشرح النووي ٣/ ٧٣ .

(٢) انظر في هذا الموضوع: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، تحقيق جماعة من العلماء، ص: ٢٥٢-٢٥٨، والتذكرة للقرطبي، ص: ٢٨٦، ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية ٥/ ٢٩٤-٢٩٥ .

المبحث الرابع
حياة المؤمنين في الجنات

إن حياة المؤمنين في الجنات حياة طيبة سعيدة أبدية خالدة . . تناسب وعد الله لهم بعد حياة ذاقوا فيها مضايق الدنيا وابتلاءاتها .

إنها حياة الطيبين الأبرار الذين قد عاشوا حياة طيبة في حياتهم الدنيا بالإيمان والعمل الصالح . . فاستحقوا حياة طيبة في حياتهم الآخرة بمافيها من جنات لهم فيها نعيم مقيم .

قال تعالى : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[١] .

وقال عز وجل : ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ** ﴾[٢] .

وقال سبحانه : ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ** ﴾[٣] .

---

(١) سورة النحل : ٩٧ .

(٢) سورة هود : ١٠٨ .

(٣) سورة المطففين : ٢٢-٢٨ .

معنى الجنة:

والجنة في اللغة: الحديقة ذات الشجر والنخل، وجمعها جنان، . . ولاتكون الجنة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب، فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجنة[١] .

والجنة: هي دار النعيم في الآخرة. وتُعلَّل تسميتها بالجنة، لأنها ما يصير إليه المؤمنون في الآخرة، وهو ثواب مستور عنهم اليوم، والجنة البستان، وهو ذلك لأن الشجر بورقه تستر. وسميت بالجنة وهي المرة الواحدة من مصدر «جنَّه جنّاً» إذا ستره، فكأنها سترة واحدة لشدة التفافها وإظلالها[٢] .

ووردت «جنات» بلفظ الجمع، لكون الجنان سبعًا: جنة الفردوس، وعدن، وجنة النعيم، ودار الخلد، وجنة المأوى، ودار السلام، وعليين[٣] .

أول من يدخل الجنة:

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[٤] .

اختلف أهل التفسير في المراد بالسابقين في هذه الآية على أقوال، منها:

---

(١) لسان العرب ١٣ / ١٠٠ مادة «جنن»، وانظر: تاج العروس ١٨ / ١١٨ .

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس بتحقيق عبد السلام محمد هارون ١ / ٤٢١، ولسان العرب ١٣ / ١٠٠، والمفردات في غريب القرآن، ص: ٩٨، والنهاية في الحديث والأثر ١/ ٣٠٧.

(٣) المفردات في غريب القرآن ص: ٩٨، وانظر تاج العروس ١٨ / ١١٨-١١٩ .

(٤) سورة الواقعة: ١٠-١٢ .

ـ السابقون هم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ .

ـ والسابقون هم الذين سبقوا إلى الإيمان بالله ورسوله، وهم المهاجرون الأولون.

ـ والسابقون هم الذين صلوا إلى القبلتين.

ـ والسابقون أولهم رواحًا إلى المسجد، وأولهم خروجًا في سبيل الله[١].

والذي يتأمل في هذه الأقوال يعلم أنه ليس فيها اختلاف حقيقي، بل نستطيع أن نقول ـ من خلال هذه الأقوال ـ : إن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات، فالسابقون إلى الخيرات في الحياة الدنيا هم السابقون إلى الجنة في الحياة الآخرة[٢].

ثم يلي السابقين أصحاب اليمين الأبرار الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، منزلتهم دون المقربين، فهم أقل درجة في النعيم من السابقين[٣].

قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾[٤].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١١ / ٦٢٦، وتفسير ابن كثير ٤ / ٢٤٩، وتفسير الدر المنثور ٦ / ٢١٨.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤ / ٢٤٩، والتفسير الكبير ٢٩ / ١٢٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١١ / ٦٣٤، وتفسير ابن كثير ٤ / ٢٥٣.

(٤) سورة الواقعة: ٢٧ ـ ٤٠.

ولاشك أن رسولنا محمداً - ﷺ - أول السابقين، وأنه أول من تفتح له الجنة، وتدخل أمته بعده، وهي أول الأمم دخولاً الجنة. وقد دل على ذلك أحاديث كثيرة، منها:

- ما رواه مسلم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: **«أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة»**(١).

- وعنه أيضًا قال: قال رسول الله - ﷺ -: **«آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أُمرتُ لا أفتح لأحد قبلك»**(٢).

- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: **«نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة..»**(٣).

وجدير بالذكر في هذا الصدد أن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء إلى الجنة، فقد ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: . . فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: **«إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا**(٤)، **قالوا: نصبر**

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قول النبي - ﷺ -: **«أنا أول الناس يشفع في الجنة..»** رقم الحديث: ٣٣١، بشرح النووي ٣ / ٧٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قول النبي - ﷺ -: **«أنا أول الناس يشفع في الجنة..»** رقم الحديث: ٣٣٣ (١٩٧)، بشرح النووي ٣ / ٧٣.

(٣) صحيح مسلم كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم الحديث: ٢٠ (..) بشرح النووي ٦ / ١٤٣.

(٤) الخريف: هو الزمان المعروف من فصول السنة ما بين الصيف والشتاء، ويريد به أربعين سنة؛ لأن الخريف لايكون في السنة إلا مرة واحدة (لسان العرب ٩ / ٦٣، والنهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ٢٤-٢٥).

لانسأل شيئًا»(١) .

آخر من يدخل الجنة:

ذكر رسول الله - ﷺ - في حديثه الشريف قصة آخر رجل يخرج من النار ويدخل الجنة، وما جرى من حوار بينه وبين ربه، وما أعطاه الله من الكرامة العظيمة، ومع ذلك أنها أدنى أهل الجنة منزلة .

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال النبي - ﷺ - : «**إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولاً، رجل يخرج من النار حبْوًا، فيقول الله: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيُخيَّل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا ربّ وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يارب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها** - أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا - **فيقول: تسخر مني أو تضحك مني، وأنت الملك؟**، فلقد رأيت رسول الله - ﷺ - ضحك حتى بدت نواجذه . وكان يقال : ذلك أدنى أهل الجنة منزلة»(٢) .

وروى مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله - ﷺ - قال : «آخر من يدخل

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد، رقم الحديث ٣٧ (٢٩٧٩) بشرح النووي ١٨ / ١١٠ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم الحديث : ٦٥٧١ ، فتح الباري ١ / ٤٢٦ . وصحيح مسلم كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، رقم الحديث : ٣٠٨ (١٨٦)، شرح النووي ٣ / ٣٩-٤٠ .

الجنة رجل يمشي مرة، ويكبو[١] مرة، وتسفعه[٢] النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال: تبارك الذي نجاني منكِ، لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين، فتُرفع له شجرة فيقول: أيْ ربّ أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشربَ من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتُكَها، سألتني غيرها، فيقول: لا، يا ربّ، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربّه يعذرُه،؛لأنه يرى ما لاصبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم تُرفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي ربّ أدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لاتسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها، فيعاهده أن لايسأله غيرها وربه يعذره، لأنه يرى ما لاصبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأولين، فيقول: أي ربّ أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشربَ من مائها لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟ قال: بلى ياربّ هذه لا أسألك غيرها، وربه يعذره؛ لأنه يرى ما لاصبر له عليها فيدنيه منها، فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة فيقول: أي ربّ أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم ما يَصْرِيني[٣] منك أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا ربّ، أتستهزئ مني وأنت ربّ العالمين؟ فضحك ابن

(١) يكبو: يسقط على وجهه (شرح النووي ٣/ ٤٢).

(٢) تسفعه: تضرب وجهه وتسوده وتؤثر فيه أثرًا (المصدر السابق).

(٣) ما يصريني منك: هو بفتح الياء وإسكان الصاد المهملة، ومعناه: يقطع مسألتك مني (المصدر السابق).

مسعـود، فقال: ألا تسألوني مِمَّ أضحك؟ فقالوا: مِمَّ تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: مِمَّ تضحك يا رسول الله ؟ قال: من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين، فيقول: إني لا أستهزئ منك ولكني على ما أشاء قادر»(١) .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار؛ رجل يخرج منها زحفًا(٢) ،فيقال له: انطلق فادخل الجنة، قال: فيذهب فيدخل الجنة فيجد الناسَ قد أخذوا المنازل، فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنتَ فيه؟ فيقول: نعم، فيقال له: تَمَنَّ فيتمنّى فيقال له: لك الذي تمنيتَ وعشرةُ أضعاف الدنيا. قال: فيقول: أتسخر بي وأنت الملِك؟، قال: فلقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ ضحك حتى بدت نواجذه»(٣) .

درجات الجنة وأصحابها:

ومما لا شك فيه أن تفاوت درجات الإيمان بين المؤمنين له صلة بتفضيل بعضهم على بعض؛ فكل مرتبة فضل ومكانة، والجنة درجات، ولكل درجة

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، رقم الحديث: ٣١٠ (١٨٧) شرح النووي ٣/ ٤١ـ٤٣.

(٢) ورد في الحديث السابق «حبوًا». والحبو: المشي على اليدين والرجلين. وأما الزحف فهو المشي على الإست مع إفراشه بصدره، فحصل من هذا أن الحبو والزحف متماثلان أو متقاربان. لو ثبت اختلافهما حمل على أنه في حال يزحف، وفي حال يحبو، والله أعلم (شرح النووي على صحيح مسلم ـ باختصار ـ ٣/ ٣٩).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، رقم الحديث: ٣٠٩ (..)، بشرح النووي ٣/ ٤١.

أهل وسكان. فقد وردت آيات كثيرة تدل على أن الجنة درجات، أهلها متفاضلون فيها متفاوتون في الرفعة والمنزلة، فمن هذه الآيات القرآنية ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[١].

- وقوله عز وجل: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[٢].

- وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[٣].

- وقوله عز وجل: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[٤]

- وقوله عز وجل: ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[٥].

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٢ـ١٦٣.

(٢) سورة الأنعام: ١٣٢.

(٣) سورة الأنفال: ٢ـ٤.

(٤) سورة الإسراء: ٢١.

(٥) سورة طه: ٧٥ـ٧٦.

وإذا كان الله سبحانه ـ في الآيات السابقة ـ يبين لنا تفضيل المؤمنين بعضهم على بعض بإيمانهم وأعمالهم الصالحة في درجات الجنة فلا شك فيه أن أنبياءه ـ عليهم السلام ـ أعظم درجة من أممهم المؤمنة. قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا** ﴾[١].

قال ابن كثير: «من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته ويجعله مرافقًا للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم: الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم...»[٢]. فالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يسكنهم الله سبحانه دار كرامته وهي الجنة في أعلى رتبة، وأعظم منزلة.

كما أخبرنا الله عز وجل بأنه قد فضّل بعض النبيين على بعض، قال تعالى: ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...** ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ **وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** ﴾[٤].

---

(١) سورة النساء: ٦٩ ـ ٧٠.

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٤٤٨.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٣.

(٤) سورة الإسراء: ٥٥

وهناك في الجنة درجة مصطفاة، أعلى درجات الجنة، وهي درجة واحدة، لمقام نبي كريم، وتسمى «الوسيلة» وهي لنبينا محمد - ﷺ - ، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي - ﷺ - يقول: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثمّ صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلاة صلّى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة»**[1].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: **«إذا صليتم عليّ فاسألوا الله لي الوسيلة، قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: أعلى درجة في الجنة، لاينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو»**[2].

ثم يلي الأنبياء في الدرجة الصديقون، فهم تبّاع الأنبياء الذين صدّقوهم واتبعوا منهاجهم بعدهم حتى لحقوا بهم[3]، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا**﴾[4].

---

(١) صحيح مسلم كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه . . ، رقم الحديث: ١١ (٣٨٤)، بشرح النووي ٤ / ٨٥.

(٢) مسند أحمد ٢ / ٢٦٥، قال أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح . . . ومعنى الحديث ثابت، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (المسند للإمام أحمد تحقيق أحمدمحمد شاكر، رقم الحديث: ٧٥٨٨، ٦٥٦٨، ١٤ / ٣٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري ٤ / ١٦٥، وتفسير ابن كثير ١ / ٤٤٨.

(٤) سورة النساء: ٦٩-٧٠.

قال الراغب الأصفهاني[(١)] : «فالصديقون هم قوم دُوَيْنَ الأنبياء في الفضيلة»[(٢)] .

ورد في التفسير الكبير أن للمفسرين في الصدِّيق وجوهًا :

الأول: أن كل من صدّق بكل الدين لايتخالجه فيه شك فهو صدّيق، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾[(٣)] .

الثاني: الصديقون أفاضل أصحاب النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

الثالث: أن الصديق اسم لمن سبق إلى تصديق الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فصار في ذلك قدوة لسائر الناس، وإذا كان الأمر كذلك كان أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أولى الخلق بهذا الوصف . .

وجاء وصف الأنبياء بهذه الصفة، فقال تعالى في صفة إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[(٤)] . وقال تعالى في صفة إدريس ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[(٥)] .

ثم إن غير الأنبياء وصفوا أيضًا بتلك الصفة، لكنها درجة أقل من درجة

---

(١) هو: الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (أبو القاسم)، توفي سنة ٥٠٢ هـ ، أديب لغوي، حكيم مفسر، من تصانيفه: تحقيق البيان في تأويل القرآن، الذريعة إلى مكارم الشريعة، مفردات ألفاظ القرآن، جامع التفاسير، وغيرها (معجم المؤلفين ١ / ٦٤٢، كشف الظنون، ص: ١٧٧٣).

(٢) المفردات ص: ٢٧٧ .

(٣) سورة الحديد: ١٩ .

(٤) سورة مريم: ٤١ .

(٥) سورة مريم: ٥٦ .

الأنبياء وإن كان اللفظ واحداً، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ... ﴾[1] .

فلم يجعل بينهما واسطة، كما دلت هذه الدلائل على نفي الواسطة، فقد وفق الله هذه الأمة الموصوفة بأنها خير أمة حتى جعلوا الإمام بعد الرسول - عليه الصلاة والسلام - أبا بكر على سبيل الإجماع..، وما ذاك إلا أن الله تعالى رفع الواسطة بين «النبيين والصديقين» في هذه الآية[2] ، فلا جرم ارتفعت الواسطة بينهما في الوجوه التي عددناها»[3] . فالصدق في مقامات الدين هو أعلى الدرجات[4] ، وأنه كذلك أعلى درجة في الجنة، يلي درجة النبوة.

ثم بعد الصديقين في الدرجة والرتبة الشهداء، وهم الذين استشهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله، وقد ذكر الله سبحانه في القرآن الكريم آيات كثيرة تخبر عما أعدّه للمجاهدين في سبيله من رفيع الدرجات، ووصف قائد المجاهدين محمد - ﷺ - بعضاً مما ورد في القرآن الكريم حثًا للصحابة ولمن بعدهم من المؤمنين على بذل ما يبلّغهم تلك الدرجات الرفيعة.

- قال تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[5] .

---

(١) سورة النساء: ٦٩.

(٢) الآية ٦٩ من سورة النساء.

(٣) انظر: التفسير الكبير ١٠ / ١٣٨ - ١٣٩ - باختصار -.

(٤) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة، ص: ٣٥٢.

(٥) سورة النساء: ٩٥ - ٩٦.

ـ وقال سبحانه: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[١].

ثم يلي الشهداء في درجة الجنة عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم، والذين يكونون صالحين في اعتقاداتهم وفي أعمالهم، فإن الجهل فساد في الاعتقاد، والمعصية فساد في العمل[٢]. قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾[٣].

وإذا عرفنا تفسير الصدّيق والشهيد والصالح ظهر لنا ما بين هذه الصفات من التفاوت؛ وذلك لأن كل من كان اعتقاده صوابًا وكان عمله طاعة وغير معصية فهو صالح، ثم إن الصالح قد يكون بحيث يشهد لدين الله بأنه هو الحق وأن ما سواه هو الباطل، وهذه الشهادة تارة تكون بالحجة والدليل وأخرى بالسيف، وقد لايكون الصالح موصوفًا بكونه قائمًا بهذه الشهادة، فثبت أن كل من كان شهيدًا كان صالحًا، وليس كل من كان صالحًا شهيدًا، فالشهيد أشرف أنواع الصالح، ثم إن الشهيد قد يكون صدّيقًا وقد لايكون، ومعنى

---

(١) سورة التوبة: ١٩ ـ ٢١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١ / ٤٤٨، والتفسير الكبير ١٠ / ١٣٩، وتفسير الطبري ٤ / ١٦٦.

(٣) سورة النساء: ٦٩.

الصدّيق الذي كان أسبق إيمانًا من غيره، وكان إيمانه قدوة لغيره. فثبت أن كل من كان صديقًا كان شهيدًا، وليس كل من كان شهيدًا كان صديقًا، فثبت أن أفضل الخلق هم الأنبياء - عليهم السلام -، وبعدهم الصدّيقون، وبعدهم من ليس له درجة إلا محض درجة الشهادة، وبعدهم من ليس له إلا محض درجة الصلاح..

فهذا هو تقرير هذه المراتب والدرجات، وإذا عرفنا هذا ظهر لنا أنه لا أحد يدخل الجنة إلا وهو داخل في بعض هذه النعوت والصفات(١).

وقد بين لنا رسولنا - ﷺ - أن أصحاب الجنة متفاضلون في الجنة بحسب درجاتهم فيها. ففي مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - ﷺ - قال: «**إن أهل الجنة ليتراءَونَ أهل الغُرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرّيّ الغابر**(٢) **من الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضُلِ ما بينهم**، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: **بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين**»(٣).

صفة الجنة:

مهما كتب الكتّاب والأدباء، وتخيّل المتخيلون، وأبدع المبدعون وصفًا

---

(١) التفسير الكبير - باختصار - ١٠ / ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) ومعنى الغابر: الذاهب الماشي، أي: الذي تدلى للغروب وبعد عن العيون (شرح مسلم للنووي ١٧ / ١٦٩).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف..، رقم الحديث ١١ (٢٨٣١)، بشرح النووي ١٧ / ١٦٩.

للجنة، فإنه لن يبلغ من حقيقتها أيسر جزء يدل عليها؛ لأن الجنة فوق ما يصف الواصفون، وأعلى مما يتوهم المفكرون.

ونعيم الجنة يفوق الوصف، ويقصر دونه الخيال، ليس لنعيمها نظير فيما يعلمه أهل الدنيا، وما أخفاه الله عنا من نعيم الجنة شيء عظيم لا تدركه العقول، ولاتصل إلى حقيقته الأفكار. قال تعالى: ﴿**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[1].

وقد ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**قال الله: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فاقرأوا إن شئتم: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾**[2]»[3].

لقد وصف القرآن الكريم الجنة بصفة يعجز الإنسان عن الوصول إلى حقيقتها، ووصفها ليبسط ويقرّب الأمر للناس، فمن صفات الجنة وما فيها ما يلي:

١ - أبواب الجنة:

قال تعالى: ﴿**هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ**﴾[4].

---

(١) سورة السجدة: ١٧.

(٢) سورة السجدة: ١٧.

(٣) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم الحديث: ٣٢٤٤، فتح الباري ٦ / ٣٦٦.

(٤) سورة ص: ٤٩ - ٥٠.

وقال سبحانه: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾[١].

وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة:

ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: **«في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريّان لايدخله إلا الصائمون»**[٢].

وفي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، أدخله الله من أيّ أبواب الجنة الثمانية شاء»**[٣].

وقد ورد في حديث صحيح أن لكل صاحب عمل بابًا يدعى بذلك العمل، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: **«من أنفق زوجين[٤] في سبيل الله نُودي في الجنة: يا عبد الله، هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة[٥] دُعِيَ من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد**

(١) سورة الزمر: ٧٣

(٢) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم الحديث: ٣٢٥٧، فتح الباري ٦ / ٣٧٨.

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا، رقم الحديث: ٤٦ (٢٨)، شرح النووي ١ / ٢٢٦ـ٢٢٧.

(٤) قال الهروي في تفسير هذا الحديث: قيل: وما زوجان؟ قال: فرسان أو عبدان أو بعيران. وقال ابن عرفة: كل شيء قرن بصاحبه فهو زوج (شرح مسلم للنووي ٧ / ١١٦).

(٥) وذكر مثله في الصدقة والجهاد والصيام. قال العلماء: معناه، من كان الغالب عليه في عمله وطاعته ذلك (المصدر السابق).

دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريّان. قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، ما على أحد يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **نعم، وأرجو أن تكون منهم**»(١).

٢ ـ قصور الجنة وخيامها:

لقد بنى الله سبحانه لأصحاب الجنة في الجنة مساكن طيبة للإقامة المطمئنة الخالدة، وقد سمى الله عز وجل في مواضع من كتابه العزيز هذه المساكن بالغرفات، وهي القصور التي من فوقها غرف مبنية محكمة مزخرفة عالية(٢) ـ كما أن الغرفة أكرم من البهو فيما اعتاد الناس في البيوت في هذه الحياة الدنيا، عندما يستقبلون الضيوف ـ وأن في الجنة خيامًا عجيبة، فهي من درة مجوفة. وفي ذلك يقول سبحانه في آيات كثيرة، منها:

ـ قوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾(٣).

ـ وقوله عز وجل مخبراً عن جزاء المؤمنين بأنهم في الغرفات آمنون: ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ**

---

(١) صحيح مسلم كتاب الزكاة، باب من ضم إلى الصدقة غيرها من أنواع البر، رقم الحديث: ٨٥ (١٠٢٧)، بشرح النووي ٧/ ١١٥ـ١١٦.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٦.

(٣) سورة التوبة: ٧٢.

لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾[١] .

ـ وقوله سبحانه في جزاء عباد الرحمن : ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[٢] .

ـ وقوله تعالى في جزاء عباده المتقين بأن لهم في الجنة غرفًا طباقًا فوق طباق، مبنيات محكمات : ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾[٣] .

ـ وقوله سبحانه في خيام الجنة : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾[٤] .

قال الرازي : «قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ إشارة إلى معنى في غاية اللطف، وهو أن المؤمن في الجنة لا يحتاج إلى التحرك لشيء، وإنما الأشياء تتحرك إليه، فالمأكول والمشروب يصل إليه من غير حركة منه، ويطاف عليهم بما يشتهونه، فالحور يكنّ في بيوت ـ والعرب يمدحون النساء الملازمات للبيوت للدلالة على شدةالصيانة ـ[٥] ، وعند الانتقال إلى المؤمنين في وقت إرادتهم تسير بهم للارتحال إلى المؤمنين خيام، وللمؤمنين قصور تنزل الحور من الخيام إلى القصور»[٦] .

---

(١) سورة سبأ : ٣٧ .

(٢) سورة الفرقان : ٧٥ـ٧٦ .

(٣) سورة الزمر : ٢٠ .

(٤) سورة الرحمن : ٧٢ .

(٥) تفسير المراغي ٩ / ١٢٩ .

(٦) التفسير الكبير ٢٩ / ١١٨ .

وقد وصف رسولنا - ﷺ - قصور الجنة، حين دلّنا على صفات بعض قصور أصحابه. ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «أتى جبريل النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناءٌ فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتْك فاقرأ عليها السلام من ربّها ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قَصَب(١)، لا صخب فيه ولا نصب(٢)»(٣).

وروى مسلم عن جابر - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «**دخلت الجنة فرأيت فيها دارًا أو قصرًا، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب، فأردت أن أدخل، فذكرتُ غيرتَك**، فبكى عمر وقال: أي رسول الله، أوعليك يغار»(٤).

وقد وصف النبي - ﷺ - خيام الجنة بأنها دُرَّةٌ مجوَّفة طولها في السماء ثلاثون ميلاً. ففي صحيح البخاري عن أبي بكر الأشعري عن أبيه أن النبي - ﷺ - قال: «**الخيمة درة مجوّفة طولها في السماء ثلاثون ميلاً، في كل زاوية منها للمؤمن أهلٌ لا يراهم الآخرون**»(٥).

---

(١) قال ابن التين: المراد به لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف (فتح الباري ٧/ ١٧١).

(٢) الصخب، بفتح المهملة والمعجمة بعدها موحدة: الصياح والمنازعة برفع الصوت. والنصب، بفتح النون والمهملة بعدها موحدة: التعب (المصدر السابق).

(٣) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي - ﷺ - خديجة وفضلها، رقم الحديث: ٣٨٢١، فتح الباري ٧/ ١٦٦.

(٤) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر، رقم الحديث: ٢٠ (٢٣٩٤) بشرح النووي ١٥/ ١٦٣.

(٥) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم الحديث: ٣٢٤٣، فتح الباري ٦/ ٣٦٦.

وفي رواية عند مسلم: «**إن للمؤمن في الجنة لَخَيْمَةً من لؤلؤة واحدة مجوّفة طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا**»(١) .

٣ ـ أشجار الجنة وثمارها:

وصفت الجنة بأنها البستان المحفوف بالشجر، المتكاثف بالأعناب والنخيل والرمان، حيث الجمال الرائع والأشجار المتدانية القطوف الوفيرة الأثمار.

وقد حفل القرآن الكريم بشواهد لهذا الصنف من الخير والجمال؛ فقال تعالى: ﴿**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا**﴾(٢) .

وإلى جانب هذه الحدائق والأعناب هناك فاكهة كثيرة متنوعة، ومنها ثمر النخيل والرمان: ﴿**فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ**﴾(٣) .

كما أن من أشجار الجنة السدر المخضود الذي لا شوك فيه، بخلاف سدر الدنيا، فإنه كثير الأشواك، قليل الثمر، وفي الآخرة على العكس. وأن من أشجار الجنة الطلح المنضود الذي هو يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل، وأنه متراكم الثمر(٤) ، قال تعالى: ﴿**وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ**

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة ونعيمها، رقم الحديث: ٢٣ (٢٨٣٨)، بشرح النووي ١٧ / ١٧٥ .

(٢) سورة النبأ: ٣١ـ٣٢ .

(٣) سورة الرحمن: ٦٨ .

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٤ / ٢٥٣ .

الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ[١] **مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾**[٢] .

وفواكه الجنة لاتحجب عن مؤمن فضلاً عن كل معين يطلبه، وإذا كان قد ذكر بعض أنواع الفواكه فإن ما يحبه المؤمن من فاكهة يعرفها، له أن يدعو ليجد بغيته أمامه. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ **مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ** ﴾[٣] . ويقول: ﴿ **وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ** ﴾[٤] .

ويقول سبحانه: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[٥] .

وأشجار الجنة دائمة العطاء، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطي في وقت دون وقت، وفصل دون فصل، بل هي دائمة الإثمار والظلال، وهي نعمة تطمئن لها النفس وتستريح.

قال تعالى: ﴿ **مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ** ﴾[٦] .

وقال سبحانه: ﴿ **وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ** ﴾[٧] .

---

(١) الطلح: الموز، واحدتها: الطلحة. وقال الفراء وأبو عبيدة: الطلح عند العرب: شجر عظام لها شوك (تفسير البغوي ٨/ ١٢).
(٢) سورة الواقعة: ٢٧ـ٣٣.
(٣) سورة ص: ٥١.
(٤) سورة الواقعة: ٢٠.
(٥) سورة المرسلات: ٤١ـ٤٣.
(٦) سورة الرعد: ٣٥.
(٧) سورة الواقعة: ٣٢ـ٣٣.

ووصف الله عز وجل أشجار الجنة بأنها ذات أغصان جميلة، وأنها شديدة الخضرة، وأن ثمارها قريبة دانية مذللة ينالها أهل الجنة بيسر وسهولة.

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾(١).

وقال عز وجل: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾(٤).

وقال عز وجل: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾(٥).

ولقد وصف الرسول - ﷺ - بعض أشجار الجنة بأوصاف عجيبة:

١ - الشجرة التي يسير الراكب في ظلها مائة عام:

روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «إن في

---

(١) سورة الرحمن: ٤٦ - ٤٨.

(٢) سورة الرحمن: ٦٢ - ٦٤. و«مدهامتان»: وصف مشتق من الدُّهمة - بضم الدال - وهي لون السواد. ووصف الجنتين بالسود مبالغة في شدة خضرة أشجارهما حتى تكونا بالتفاف أشجارهما وقوة خضرتهما كالسوداوين، لأن الشجر إذا كان ريّانًا اشتدت خضرة أوراقه حتى تقرب من السواد (تفسير ابن عاشور ٢٧/ ٢٧٢).

(٣) سورة الرحمن: ٥٤.

(٤) سورة الحاقة: ٢٢ - ٢٣.

(٥) سورة الإنسان: ١٤.

الجنة لَشجرةً يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرأوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾[1] »[2] .

وروى مسلم عن سهل بن سعد عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لايقطعها**»[3] .

٢ ـ سدرة المنتهى:

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾[4] .

روى البخاري عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ـ رضي الله عنهما ـ حديث الإسراء والمعراج، وفيه: «**... ورُفعتْ لي سدرة المنتهى، فإذا نَبقُها**[5] **كأنه قلال هَجَرَ، وورقها كأنه آذان الفيول، في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران. فسألت جبريل فقال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران**

---

(١) سورة الواقعة: ٣٠.

(٢) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم الحديث: ٣٢٥٢، فتح الباري ٦ / ٣٦٨.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لايقطعها، رقم الحديث: ٨ (٢٨٢٧)، بشرح النووي ١٧ / ١٦٧.

(٤) سورة النجم: ١٣ـ١٨.

(٥) نبقها: ثمرها (لسان العرب ١٠ / ٣٥٠). والقلال ـ بكسر القاف ـ جمع قلة، والقلة جرّة عظيمة تسع قربتين أو أكثر (شرح مسلم للنووي ٢ / ٢١٤).

النيل والفرات[١] . . »[٢] .

٣ ـ شجرة طوبى:

ومن أشجار الجنة شجرة تسمى «طوبى» وهي كما يتبين من وصفها شجرة عظيمة تصنع ثياب أهل الجنة، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أن رجلاً قال له: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «**طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني**». وقال له رجل: وما طوبى؟ قال: «**شجرة في الجنة، مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**[٣]»[٤] .

ومن عجائب أخبار الأشجار أن سيقانها من ذهب، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**ما في الجنة شجرةٌ إلا وساقها من ذهب**»[٥] .

---

(١) يرشد بظاهره إلى عنصر هذين النهرين، والكلام فيه شاسع الطرفين، ومحصوله تباين المشارب وتخالف المذاهب، فمن ذاهب إلى تأويل، ولكنه يجافي الدليل، ومن واقف عندما يعطيه الظاهر غير مستبعد ذلك على قدرة القاهر. . (الفتح الرباني ٢٠ / ٢٤٧).

(٢) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم الحديث: ٣٢٠٧، فتح الباري ٦/ ٣٤٩.

(٣) والأكمام جمع الكُمّ، وهو القشر، ولكل شجرة مثمرة كُمٌّ، وهو برعومته (لسان العرب ١٢/ ٥٢٦).

(٤) رواه أحمد ٣ / ٧١. قال أحمد البنا: رواه ابن حبان في صحيحه من طريق دراج عن أبي الهيثم بنحوه. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، رقم الحديث ١٩٨٥، ٤/ ٦٣٩.

(٥) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في صفة شجر الجنة، رقم الحديث: ٢٦٤٥. وقال: هذا حديث غريب حسن. وأخرجه ابن أبي الدنيا وابن حبان في صحيحه. تحفة الأحوذي ٧/ ٢٢٦. صحيح الجامع الصغير ٥ / ١٥٠.

وبهذا نعلم أن فضل الله على عباده المؤمنين كبير، ونعمته عليهم سابغة، وأنه لايعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وكل شيء يتراءى للعبد أنه غير معقول هو على الله هيّن، إذ أمره بين قوله: «كن فيكون»: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(١) .

فالجنة خالدة لاتفنى ولاتبيد، وأنواع نعيمها دائمة لاتنقطع ولاتمنع، وأهلها فيها خالدون، لا يرحلون عنها ولايظعنون، ولايبيدون ولايموتون.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾(٢) .

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾(٣) .

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٤) .

ونكتفي بهذا القدر في ذكر بعض صفات الجنة ونعيمها، ولم نتطرق إلى

---

(١) سورة آل عمران: ٤٧ .
(٢) سورة النساء: ١٢٢ .
(٣) سورة الكهف: ١٠٧ـ١٠٨ .
(٤) سورة الدخان: ٥١ـ٥٧ .

تفاصيلها خشية الوقوع في التكرار، وذلك لأنه قد سبق ذكر الجنة ونعيمها في المبحث السابق[١] .

* * *

(١) انظر: الباب الأول، الفصل الثاني، المبحث الرابع تحت العنوان: «نعيم الحياة الآخرة» ص: ٢٩٧ .

الفصل الثالث

حياة الكافرين في الدنيا

وتحته مباحث :

المبحث الأول : نظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا.

المبحث الثاني : صفات الكافرين في الحياة الدنيا.

المبحث الثالث : سعي الكافرين في الحياة الدنيا ومقتضياته.

المبحث الرابع : حرص الكافرين على الحياة الدنيا ووسائلهم في ذلك.

المبحث الخامس : عداوة الكافرين للمسلمين في الحياة الدنيا ووسائلهم في ذلك.

المبحث السادس : تعذيب الكافرين في الحياة الدنيا.

تمهيد:

إن الذي يتدبر فيما يتحدث به القرآن الكريم عن هذه الحياة الدنيا يعلم أن البقاء فيها قليل، وأنها سريعة الزوال، وأنها ليست إلا متاع الغرور؛ لأن صاحبها دائمًا مغرور مخدوع بها.. وذلك هو واقع هذه الحياة المشهود للناس منها.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[2].

ولكن الكافرين بسبب كفرهم[3]، عكسوا القضية، فآمنوا بالباطل، وكفروا بالحق، واتبعوا الأهواء والشهوات والظنون الضعيفة التي هي من الأسباب المضلة المبعدة عن صراط الله المستقيم، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ

---

(١) سورة النساء: ٧٧.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٣) أصل معنى الكفر في اللغة: ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، ويقال للزارع: كافر، لستره البذر في الأرض، قال تعالى: ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته..﴾ سورة الحديد: ٢٠، وكفر النعمة: سترها بترك أداء شكرها، وأعظم الكفر: جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة (انظر: المفردات في غريب القرآن ص: ٤٣٣ ـ ٤٣٤، وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ٤/ ٣٦١).

يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾(١) .

ويقول عز وجل: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(٢) .

ويقول سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾(٣)

ويقول تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾(٤) .

ومن هذا المنطلق تختلف حياة الكافرين عن حياة المؤمنين، فبدلاً أن يجعلوا الحياة الدنيا داراً للابتلاء، ومزرعة للآخرة، جعلوا الحياة الدنيا هي مستقرهم ومصيرهم، ليضعوا أنفسهم في سجن ضيق، يقضون فيه مدة حياتهم المحدودة، ويأكلون كما تأكل الأنعام، ويتمتعون كما تتمتع الأنعام، بل هم أضل منها في الحياة سبيلاً، لأن الأنعام تلجمها غرائزها، أما الكافرون فليس لديهم ما يلجمهم عن الشر الكبير والفساد المدمّر.

ثم تضمهم الأرض، ويطويهم الموت إلى الأبد، فلا يرى لهم هدف الحياة

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٧ ـ ٦٨ .
(٢) سورة القصص: ٥٠ .
(٣) سورة النساء: ٢٧ .
(٤) سورة النجم: ٢٣ .

الحقيقي، ولا تنشر لهم صفحة طيبة بعد أن طوى الموت هذه الصفحة من دنياهم.. هكذا يتصورون، وعلى هذا التصور يعيشون ويموتون.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

ويقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[2].

وسنذكر ـ بإذن الله ـ حياة الكافرين في الدنيا وما يتعلق بها على وجه تفصيلي في المباحث التالية.

* * *

(١) سورة الفرقان: ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) سورة محمد: ١٢.

المبحث الأول
نظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم آيات تتحدث عن نظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا، ليكون المؤمنون على بصيرة من أمرهم، فلا يتشبهون فيها وفي غيرها بالكافرين فيضلوا، ولا يتبعون أهواءهم فلا يستحقوا نصر الله وتأييده.

قال تعالى: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ﴾[(١)] .

وبعد التدبر والتأمل في كتاب الله العزيز نجد أن نظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا تتمثل في أمور كالتالي:

الأول: أنهم مخدوعون بزينة الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾[(٢)] .

ذكر الله سبحانه في هذه الآية نظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا، حيث إنهم أفرطوا في الإقبال على الزينة، وإنهم خُدعوا بها، وذلك لأن الزينة حسنت

---

(١) سورة البقرة: ١٢٠.

(٢) سورة البقرة: ٢١٢.

للكافرين الحياة الدنيا، وحسنت لهم سوء عملهم، وصبغته بالأصباغ الخادعة، وجعلت له المبررات المزوّرة.

والزينة زخارف خادعة في مظهرها، ولا دلالة لها على الحقيقة الجوهرية، إنما تخدع بحلاوة مظهرها، فيتصور الجاهل المتسرع أن ما ظهر له عنوان ما بطن وخفي عليه، فيعطي للباطن حكم ما بدا له في الظاهر، لذلك نلاحظ أن القرآن الكريم حين يلفت أنظارنا إلى حقيقة ما في الحياة الدنيا يبين لنا أنها من قبيل الزينة فقط.

قال ابن كثير: «أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها واطمأنوا إليها، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يرضي الله عنهم، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم وبذلوه ابتغاء وجه الله، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين، وخلد أولئك في الدركات في أسفل السافلين»[1].

والله إذ ذكر أن الكافرين مخدوعون بزينة الحياة الدنيا، يبين لنا أن الغرض من جعل الحياة الدنيا زينة هو الابتلاء والاختبار. قال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ⑦ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا**﴾[2].

وأخطر ما في الأمر أن يخدع الإنسان ويبتلى بزينة الأقوال والأفكار

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢١٧.

(٢) سورة الكهف: ٧ـ٨.

الباطلة، وبزينة الأعمال السيئة، فيرى الباطل حقًا، ويرى السيئ حسنًا، فيندفع وراء الباطل مؤيداً له وناصراً، ويعمل الأعمال السيئة متعاظمًا بها ومفاخرًا، زاعماً أنه من المحسنين.

وعكس هذا من كان على بينة من ربه، يرى الحق حقّاً فيتبعه ويعمل بمقتضاه، ويرى الباطل باطلا فيجتنبه ويحذر من العمل بما يفضي إليه.

قال تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(1).

وقال عز وجل: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾(2).

وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾(3).

هذه الآيات تبين لنا الفرق الواضح بين الكافرين الذين يُخدعون بالحياة الدنيا، وبين المؤمنين الذين يجعلون الحياة الدنيا مزرعة لآخرتهم، إنه فارق أصيل في الحالة التي عليها الفريقان، وفي النظرة والسلوك سواء. فالذين آمنوا على بينة من ربهم.. ورأوا الحق وعرفوه، واستيقنوا من مصدره

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٢.

(٢) سورة فاطر: ٧-٨.

(٣) سورة محمد: ١٤.

واتصلوا بربهم فتلقوا عنه، وهم على يقين مما يتلقون غير مخدوعين. والذين كفروا زين لهم سوء علمهم فرأوه حسنًا وهو سيئ؛ ولم يروا ولم يستيقنوا: ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾[١] بلا ضابط يرجعون إليه، ولا أصل يقيسون عليه، ولا نور يكشف لهم الحق من الباطل[٢].

أنواع الزينة:

وإذا كان الكافرون مخدوعين بزينة الحياة الدنيا، فلا يفُهم أن كل زينة مذمومة، بل هناك زينة من أنواع أخرى. ويمكن تصنيف التزيين في القرآن في المجالات الآتية:

١ـ الزينة المرفوضة:

فالشيطان زين للكافرين أعمالهم التي يكرهها الله ويسخطها منهم[٣]، فأعجبوا بها عن جمال الحق واتباعه. قال تعالى: ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٤].

وقال سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[٥].

ويتبع هذا تزيين النفوس مباهج الفتنة ووسائل الخداع وقبائح الصفات والأعمال، فالمسرفون زين لهم إسرافهم في العمل المحرم. قال تعالى:

---

(١) سورة محمد: ١٤.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩١.
(٣) انظر: تفسير الطبري ٥/ ١٩١.
(٤) سورة الأنعام: ٤٣.
(٥) سورة الحجر: ٣٩ـ٤٠.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١) .

والمكر قد يتخذه الإنسان زينة ، قال تعالى : ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾(٢) . فهؤلاء الكفار ستروا أدلة الإيمان عنهم ، وستروا نفوسهم عن دلائل الهدى ، فحقت عليهم سنة الله ، وصورت لهم نفوسهم أنهم على صواب ، وأن مكرهم وتدبيرهم ضد دين الله حسن وجميل ، فصدهم هذا عن السبيل الواصل المستقيم . ومن تقتضي سنة الله ضلاله ـ لأنه سار في طريق الضلال ـ فلن يهديه أحد ؛ لأن سنة الله لاتتوقف إذا حقت بأسبابها على العباد(٣) .

إن الصيغ التزينية الشيطانية جميعها تسحر الألباب ، وتأخذ بمجامع النفس وتدفع إلى السلوك المنحرف في هذه الحياة ، ما دامت مشاعر الزينة مستقرة في القلوب والعقول . قال تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾(٤) .

حتى إنها تأخذ بكثير منهم مخدراً إلى قتل أولادهم ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾(٥) .

---

(١) سورة يونس : ١٢ .

(٢) سورة الرعد : ٣٣ .

(٣) انظر : في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٦٣ .

(٤) سورة الفتح : ١٢ .

(٥) سورة الأنعام : ١٣٧ .

وهذه الزينة المرفوضة بصورها المختلفة تنطبق على نظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا بأنهم مخدوعون بزينتها الزائفة.

٢ ـ الزينة المحببة:

إن الإيمان وما يثمره من الأعمال الصالحة والفضائل زينة محببة، فلها جمالها الروحي الذي يصدر من الله الذي يحب الجمال. قال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[١].

وقد أمر الله سبحانه المؤمنين أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، فقال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[٢].

ولا يكتفي الأمر باتخاذ الزينة عند كل مسجد، بل يتبع بتقرير أن هذه الزينة هي حق للمؤمنين، بحكم إيمانهم بربهم الذي أخرجها لهم، ولئن كان غيرهم يشاركهم فيها في هذه الحياة الدنيا، فهي خالصة لهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها الكافرون.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٣]

---

(١) سورة الحجرات: ٧ـ٨.
(٢) سورة الأعراف: ٣١.
(٣) سورة الأعراف: ٣٢.

٣ ـ زينة الكون وجماله:

ومن أصناف الزينة في القرآن الكريم ما يسمى بزينة الكون وجماله، مما يستحق أن يبرز في صفة الله (الجميل). وهو إذ يبثه في عالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد يرتفع إلى أجواء السماء المبهرة. فالكواكب مصابيح السماء وزينتها. والسماء بناء محكم ومزين لا يمله النظر ولا تأنفه العين، ففيها زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب، وفي ذلك وردت آيات كثيرة:

ـ فقال تعالى في الحيوان: ﴿ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[١].

ـ وقال تعالى في زينة الأرض بالنبات: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ...** ﴾[٢].

ـ وقال سبحانه في زينة السماء بالكواكب: ﴿ **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ**[٣] **الْكَوَاكِبِ** ﴾[٤].

ـ وقال سبحانه في بروج الكواكب ومنازلها فقد تبرجت للناس وأظهرت محاسنها وجمالها: ﴿ **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ** ﴾[٥].

وهكذا يتضح لنا أنه يمكن تصنيف التزيين القرآني في المجالات المختلفة،

---

(١) سورة النحل: ٨.

(٢) سورة يونس: ٢٤.

(٣) قال الراغب: «في هذه الآية إشارة إلى الزينة التي تدرك بالبصر التي يعرفها الخاصة والعامة، وإلى الزينة المعقولة التي يختص بمعرفتها الخاصة، وذلك أحكامها وسيرها (المفردات في غريب القرآن ص: ٢١٩).

(٤) سورة الصافات: ٦.

(٥) سورة الحجر: ١٦.

فللشيطان ولأوليائه زينة، وللإيمان زينة، وللطبيعة زينة، والإنسان العاقل يستطيع أن يميز بينها، ويختارها حين يبتلى بها، ضمن إرادته ومسؤوليته[١].

الثاني: أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٢].

ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن علم الكافرين منحصر في الدنيا، وأن نظرتهم إلى الحياة الدنيا نظرة ضيقة محدودة، بحيث لا ينظرون إليها، ولا يعلمونها كما هي، وإنما يعلمون ظاهرها، وهي ملاذّها وملاعبها، وأكسابها وشؤونها، وعمرانها، ومساكنها، وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لأهوائهم المستدعية لعكوفهم عليها، ولا يعلمون باطنها، وهي مضارها ومتاعبها، ويعلمون وجودها في الظاهر، ولا يعلمون فناءها. وهم غافلون عن أمور الدين، وما ينفعهم في الحياة الآخرة[٣].

وفي قوله: ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ إشعار بذم الكافرين. أما الحياة الدنيا فليست بمذمومة، لأن المؤمنين كانوا أيضًا يعلمون ظاهر الحياة، وإنما المذموم أن المشركين يعلمون ما هو ظاهر من أمور الدنيا، ولا يعلمون أن

---

(١) استفدت في هذا الموضوع من: «الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم» لنذير حمدان، ص: ٦٢-٦٥، ومن بصائر ذوي التمييز ٣/ ١٥٧-١٦٠، والقاموس القرآني للفقيه الدامغاني ص: ٢٢٢-٢٢٣، والمفردات في غريب القرآن ص: ٢١٨-٢١٩.

(٢) سورة الروم: ٧.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٥-٣٦٦، وتفسير الطبري ١٠/ ١٦٨، والتفسير الكبير ٢٥/ ١٨٦، وتفسير المراغي ٧/ ٢٩، وتفسير أبي السعود ٧/ ٥٠.

وراء عالم المادة عالمًا آخر هو عالم الغيب[1] .

والغفلة عن الآخرة تجعل مقاييس الغافلين تختل ، فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصوراً صحيحًا ؛ ويظل علمهم بها ظاهراً سطحيًا ناقصًا ، لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يغير نظرته لكل ما يقع في هذه الأرض . فحياته على الأرض إن هي إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون . ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصيبه الضخم في الوجود . والأحداث والأحوال التي تتم في هذه الأرض إن هي إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة . ولا ينبغي أن يبني الإنسان حكمه على مرحلة صغيرة من الرحلة الطويلة ، وقدر زهيد من النصيب الضخم ، وفصل صغير من الرواية الكبيرة ! .

ومن ثم لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها ، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها . ولا يلتقيان في نظرة إلى أمر واحد من أمور هذه الحياة ، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة[2] .

فالذين لا يعلمون الحياة الدنيا إلا ظاهرها ، ويغفلون عما وراءها من الحياة الآخرة ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ، فلا يؤمنون ولا يهتدون ، وطبع على سمعهم فلا يسمعون الحق ولا يعونه ، وطبع على أبصارهم فلا يبصرون الهدى ، فهم كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا فيما يتعلق بمعيشتهم في هذه الحياة الدنيا ، بل هم أضل سبيلاً منها .

---

(١) انظر : تفسير التحرير والتنوير ٢١/ ٥٠ .

(٢) في ظلال القرآن ـ باختصار يسير ـ ٥/ ٢٧٥٩ .

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[١] .

وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[٢] .

فالكافرون قد يعلمون أشياء كثيرة من أمور الحياة الدنيا وشهواتها، ومتاعها، وزينتها، وما فيها من قوى وطاقات وأسباب ومسببات، لكنهم عن الآخرة مدبرون أو غافلون. فهم بذلك قوم لا يفقهون ، بل الله سبحانه يضرب الأنعام مثلاً للذين كفروا، ذلك لأنهم لم يستعملوا ما وهبهم الله من قلوب وعقول وأبصار وأسماع فيما خلقت من أجله، وهو استعمالها في معرفة أدلة وجود الله والغاية من الخلق.

الثالث: نظرة الكافرين إلى المال:

إذا كان المؤمنون ينظرون إلى المال على أنه زينة، وأنه فتنة واختبار، وإنفاقه في وجوهه المشروعة نجاح في الاختبار، كما أن نظرة المؤمنين إلى المال تتصف بأنها إيجابية، وواقعية، ومتوازنة، وبناءة[٣] ، وذلك يرجع إلى فهمهم لهذا الدين القويم، فالكافرون ينظرون إلى المال بنظرة عكسية، وذلك بسبب جهلهم بالإسلام.

---

(١) سورة النحل: ١٠٧-١٠٨ .

(٢) سورة الأعراف: ١٧٩ .

(٣) راجع هذا الموضوع في ص: ٣٣٠-٣٣٦ من هذه الرسالة.

وسنذكر في هذا الصدد نظرة الكافرين إلى المال ـ وإنما نذكر المال هنا من باب ذكر المثال لا الحصر ـ، وذلك لنكون على بصيرة من أمرنا بأنه لا يستوي الذين يؤمنون بالآخرة ويحسبون حسابها، والذين لا يؤمنون بها، ويعيشون لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظرون ما وراءها.

فنظرة الكافرين إلى المال تتمثل فيما يلي:

(١) إنهم ينظرون إلى المال بأنه قيمة وعزة.

قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[١].

وفي قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴾[٢] إخبار من الله سبحانه وتعالى عن نظرة الكافرين إلى المال بأنهم يعتزون به، ويجعلونه قيمة ومقياسًا، مما يدل على أنهم مصيبون. ثم يفتخرون بكثرته، يعتقدون أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم، واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك[٣]. إنها نظرة عجيبة، وحسبان خاطئ. قال تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ** ﴾[٤]. وقال عز وجل: ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦)**

---

(١) سورة سبأ: ٣٤ـ٣٦.

(٢) سورة سبأ: ٣٥.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦١، والتفسير الكبير ٢٥/ ٢٢٦.

(٤) سورة المؤمنون: ٥٥ـ٥٦.

سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾[1]

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن صاحب الجنتين، أنه كان ذا مال وثمر وولد، ويحسب أن الله لم يعطه هذه كلها في الدنيا إلا ليعطيه في الآخرة ما هو أفضل منها، قال ذلك طمعًا وتمنيًا على الله، وادعاءً للكرامة والعزة عنده. ثم لم يغن عنه شيئًا، بل سُلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة، ومن ثم عظمت حسرته. وفي ذلك كله يقول تعالى:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾[2].

---

(١) سورة المدثر: ١١-١٧.

(٢) سورة الكهف: ٣٢-٤٤.

ومما سبق يتضح لنا أن كثرة المال ليست لها علاقة بالقيمة والعزة، ولا تدل على رضى ولا غضب من الله، ولا تمنع بذاتها عذابًا ولا تدفع إلى عذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[١] .

أي: يعطي الله عز وجل المال لمن يشاء ممن يحب، ومن لا يحب، ويفقر من يشاء. فالمال أو الرزق في الدنيا لا تدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل؛ فكم من موسر شقي، ومعسر تقي. ولا يدل ذلك أيضًا على محبة الله فيمن يبسط له ذلك، ولا لبغض منه لمن قدر عليه ذلك ولا مقت، ولكنه يفعل ذلك محنة لعبادة وابتلاء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك[٢] .

لقد يبسط الله عز وجل الرزق للكافرين استدراجاً لهم ليزدادوا سوءاً وبطراً وإفساداً، ويتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة، ثم يأخذهم في الدنيا أو في الآخرة - وفق حكمته وتقديره - بهذا الرصيد الأثيم. قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴾[٣] .

ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدون أنهم على شيء[٤] كما قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا**

---

(١) سورة سبأ: ٣٦.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٠/ ٣٨٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٦١، والتفسير الكبير ٢٥/ ٢٢٧.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٢ - ١٨٣.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣٥.

به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (٤٤) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾[١] .

وقد يحرمهم الله من الرزق، فيزدادوا شرًا وفسوقًا وجريمة، وجزعًا وضيقًا ويأسًا من رحمة الله، وينتهوا بهذا إلى عذاب أليم. قال تعالى: ﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ﴾[٢] . وقال عز وجل: ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[٣] .

(٢) إنهم يحسبون أن المال أخلدهم:

ومن نظرة الكافرين إلى المال أنهم يحسبون أن جمعهم المال يخلدهم في هذه الحياة، وذلك لأن الخلود في الدنيا أقصى متمناهم، إذ لا يؤمنون بحياة أخرى[٤] . قال تعالى: ﴿ ويل لكل همزة لمزة (١) الذي جمع مالاً وعدده (٢) يحسب أن ماله أخلده (٣) كلا لينبذن في الحطمة ﴾[٥] .

وفي تفسير هذه الآية وجوه:

الأول: أنه أوصله إلى رتبة الخلد في الدنيا، فأحب ذلك المال كما يحب الخلود.

---

(١) سورة الأنعام: ٤٤ـ٤٥ .

(٢) سورة العنكبوت: ٢٣ .

(٣) سورة طه: ١٢٤ .

(٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٣٩ .

(٥) سورة الهمزة: ١ـ٤ .

الثاني: يحتمل أن يكون ذلك كناية عن أنه عمل - بانهماكه في المعاصي والإعراض عن الله عز وجل، والإقبال على التوسع في الشهوات والأعراض والزائلات - عمل من يظن أنه لا يموت.

الثالث: أنه أحب المال حبّاً شديداً حتى اعتقد أنه إن انتقص ماله يموت، فلذلك يحفظه من النقصان ليبقى حيّاً، وهذا غير بعيد من اعتقاد البخيل. وقد ذمّ الله عز وجل الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، ثم بين عاقبة أمرهم وعظيم نكالهم، وذلك لأن البخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها، فهو كافر لنعمة الله عليه. قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا**﴾[1].

الرابع: أن هذا تعريض بالعمل الصالح، وأنه هو الذي يخلد صاحبه في الدنيا بالذكر الجميل، وفي الآخرة في النعيم المقيم[2].

وهكذا بين لنا القرآن الكريم صورة اللئيم الصغير النفس، الذي جمع مالاً فتسيطر نفسه به، حتى ما يطيق نفسه، ويحسب أن ماله أخلده، وأنه هو القيمة العليا في الحياة، وانتقاصه يعتبر موتاً.

إنها صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة، وتعرى من الإيمان. والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس

---

(١) سورة النساء: ٣٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير ٣٢/ ٨٨، والنظم الدرر للبقاعي ٢٢/ ٢٤٥، وتفسير الكشاف ٤/ ٢٨٣ - ٢٨٤، وتفسير فتح القدير ٥/ ٤٩٣.

بحكم ترفعه الأخلاقي[١] .

ولحقارة هذه الصورة اللئيمة فقد شبه الله سبحانه الذي أخلد إلى الأرض بهيئة الكلب يلهث[٢] إن طورد، ويلهث إن لم يطارد. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾[٣] .

وبما سبق يتضح لنا الفرق بين نظرة المؤمنين بالله واليوم الآخر إلى هذه الحياة الدنيا، وإلى تعاملهم معها، وبين الكافرين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وموقفهم من الدنيا وحسابهم لها، وما كان لهم من صلة بها، وتعامل معها.

إن الكافرين قوم ساقطون في غرور، فهم مخدوعون بما خدعوا به أنفسهم ، من أفكار مزينة، وأهواء مزينة، و شهوات مزينة، وأمانٍ مزينة، وأقوال مزخرفة مزينة، إلى غير ذلك مما في الحياة الدنيا من زينة.

وإنهم قوم لا يعلمون، ولو بدا في الظاهر أنهم علماء، وأنهم يعرفون الكثير. ذلك أن علمهم سطحي، يتعلق بظواهر الحياة الدنيا مما يشاهدونه من زخارفها وملاذها، وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لأهوائهم

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٧٢.

(٢) واللهث: سرعة التنفس مع امتداد اللسان لضيق النفس أو للعطش (انظر: تفسير التحرير والتنوير ٩/ ١٧٨، والمفردات في غريب القرآن ص: ٤٥٥، ولسان العرب ٢/ ١٨٤).

(٣) سورة الأعراف: ١٧٦-١٧٧.

المستدعية لانهماكهم فيها وعكوفهم عليها . فهم غافلون عن الحياة الآخرة التي هي الحياة الحقيقية الأبدية .

والكافرون إذ غفلوا عن الحياة الآخرة التي هي الحياة الخالدة ، جمعوا مالاً ليجعلوه عدة وذخيرة ، حاسبين بذلك أن المال ضمن لهم الخلود ، وأعطاهم الأمان من الموت ، فهم بذلك كله يجعلون الحياة الدنيا هي مستقرهم ومصيرهم . هيهات لهم فإن الله قد أعد للكافرين النار وبئس المصير . قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾[1] .

وقال عز وجل : ﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾[2] .

فالكافرون ينظرون إلى الدنيا على أنها غاية ، ولا شيء بعدها ، عكس المؤمنين الذين يرونها وسيلة إلى غيرها ، ومزرعة للآخرة .

* * *

---

(١) سورة الحج : ٧٢ .

(٢) سورة النور : ٥٧ .

المبحث الثاني
صفات الكافرين في الحياة الدنيا

لقد ذكر القرآن الكريم صفات الكافرين في أكثر من موضع، ليحذرنا من أن نسلك سبيلهم. . . أو أن نقع في الأغلاط التي وقعوا فيها فأهلكتهم. ولقد صرّحت الآيات الكريمة بالنتائج الوخيمة التي يصيرون إليها. . إذ ينقلبون إلى حياة تعيسة بائسة، يسودها البأس والضنك والشقاء والعذاب، ولو استعرضنا طائفة من صفات الكافرين التي ذكرها القرآن الكريم في أكثر من موضع لزاد ذلك في إبراز صفاتهم التي قررتها الآيات هنا واضحة جلية. فمن هذه الصفات ما يلي:

(١) أنهم مختوم على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

بين الله سبحانه في هذه الآية صفة الكافرين في الحياة الدنيا بأنه قد بلغ من أمرهم في الغواية والضلال ألا ينفع فيهم الإنذار والتحذير، وألا تؤثر فيهم العظة والتذكير، فهم عن الحق معرضون، فالإنذار وعدمه سيان.

---

(١) سورة البقرة: ٦ ـ ٧.

وسبب ذلك لأنهم مرنوا على الكفر، فختم الله على قلوبهم مجازاة لكفرهم، فلا يُبقي فيها استعداداً لغير الكفر، لأنها مطبوع عليها بكفرهم فلا تعي. كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١) .

وقال عز وجل: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾(٢) .

وختم الله على سمعهم، فلا يسمعون سماع الفهم والاستجابة، وهم قد فقدوا منفعة السمع، فلا يستجيبون لنداء الإيمان والهداية بنور الحق. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾(٣) .

وجعل الله على أبصارهم غشاوة، فتعطلت فيهم أداة الإبصار بطاعتهم للهوى، فلا يهتدون سبيلاً. كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٤) .

---

(١) سورة النساء: ١٥٥ .

(٢) سورة الأعراف: ١٠١ .

(٣) سورة الأنفال: ٢١-٢٣ .

(٤) سورة الجاثية: ٢٣ .

فالكافرون بهذه الصفة قد أغلقوا على أنفسهم نوافذ الخير، وأبواب الهدى، وسدوا في أدوات إدراكهم كل طريق ينتهي بهم إلى نور الإيمان والهداية. وعندما يغلق المرء نوافذ الخير وأبواب الهدى ويسد طرق النور لا بد أن يكون مقيمًا في الشر والضلال والظلمات.

(٢) اتباع الآباء والأجداد بغير وعي ولا تفكير:

ومن صفات الكافرين التي ذكرها القرآن الكريم أنهم يتبعون آباءهم وأجدادهم بغير وعي ولا تفكير، فهم إذا دُعوا إلى الحق قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.. إنهم قرروا ألا يغيروا من واقعهم الذي ألفوه شيئًا.. فهم ألفوا آباءهم وأجدادهم على ما هم عليه من الضلال والجهل، وعدم التأمل في صحة المواقف.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾[(١)].

وقال عز وجل: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾[(٢)].

وقال سبحانه: ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم

---

(١) سورة البقرة: ١٧٠.

(٢) سورة المائدة: ١٠٤.

مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾(١).

عن ابن عباس قال: «دعا رسول الله ـ ﷺ ـ اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغّبهم فيه، وحذّرهم عقاب الله ونقمته، فقال له رافع بن خارجة، ومالك بن عوف: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فإنهم كانوا أعلم وخيراً منا! فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(٢) »(٣).

والآية وإن كانت نزلت في اليهود، إلاأنها تبين لنا صفة الكافرين بشكل عام بأنهم يصرون على ما عندهم من مأثور آبائهم، ويرفضون الاستجابة لدين الله الحنيف جملة وتفصيلاً؛ فالآية تندد بتلقي شيء في أمر العقيدة من غير الله، وتندد بالتقليد في هذا الشأن والنقل بلا تعقل ولا إدراك.

الإسلام دين يدعو إلى التفكر والتعقل، ولا يقر هذا التقليد المزري، ولا يعترف بمحاكاة الآباء والأجداد اعتزازًا بالإثم والهوى، فلا بد من سند، ولابد من حجة، ولابد من تدبر وتفكير، ثم اختيار مبني على الإدراك واليقين.

ومن ثم يرسم القرآن الكريم للكافرين الذين يقلدون آباءهم بغير وعي ولا تفكير، صورة زرية تليق بهذا التقليد وهذا الجمود، صورة البهيمة السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد صوت لا تفقه

---

(١) سورة الزخرف: ٢١ ـ ٢٤.

(٢) سورة البقرة: ١٧٠.

(٣) تفسير الطبري ٢/ ٨٣، وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ١٧٩، وتفسير البغوي ١/ ١٨١، والدر المنثور ١/ ٣٠٦، وتفسير فتح القدير ١/ ١٦٨.

ماذا يعني ! بل هم أضل من هذه البهيمة، فالبهيمة ترى وتسمع وتصيح، وهم صم بكم عمي[(١)] .

قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾[(٢)] .

(٣) اليأس من روح الله :

ومن صفات الكافرين في الحياة الدنيا اليأس من روح الله، قال تعالى: ﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[(٣)] .

واليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر عل الكمال، أو غير عالم بجميع المعلومات، أو ليس بكريم، بل هو بخيل، كما قالت اليهود - لعنة الله عليهم -، وقد حكى القرآن الكريم هذه المقولة اللعينة: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ... ﴾[(٤)]، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً[(٥)] .

وقد صرّح القرآن الكريم في موضع آخر بأن الكافرين يئسوا من رحمة الله، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ١/ ١٥٥ .

(٢) سورة البقرة: ١٧١ .

(٣) سورة يوسف: ٨٧ .

(٤) سورة المائدة: ٦٤ .

(٥) انظر: التفسير الكبير ١٨/ ١٥٩ .

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١] .

ذلك أنه لا ييأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه، وينقطع ما بينه وبين ربه. و كذلك هو لا يكفر إلا وقد يئس من اتصال قلبه بالله، وجفت نداوته. ولم يعد له إلى رحمة الله سبيل، ولم ينجع فيه ما نزل من كتب الله، ولا ما أخبرته به رسله. ومن كانت هذه صفته فأولئك لهم موجع شديد في الدنيا والآخرة[٢] .

وإذا كان اليأس من روح الله يجر صاحبه إلى هذا العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فلا شك في أنه من الصفات المذمومة التي لا يسلم منها إلا من رحم الله من عباده المؤمنين الصابرين العاملين في الرخاء والعافية. قال تعالى: **﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾**[٣] .

(٤) إنهم مغرورون:

ومن صفات الكافرين في الحياة الدنيا أنهم مغرورون. قال تعالى: **﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ﴾**[٤] .

أما الأشياء التي اغتروا بها فإنها تأتي في دائرة العناصر التالية :

---

(١) سورة العنكبوت : ٢٣ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٣١ ، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٠ ، وتفسير فتح القدير ١٩٨/٤ .

(٣) سورة هود : ٩ ـ ١١ .

(٤) سورة الملك : ٢٠ .

أ ـ الغرور بمتاع الحياة الدنيا وزينتها:

ومن يتدبر القرآن الكريم يجد أن الله سبحانه وتعالى قد بين للناس في أكثر من موضع أن الحياة الدنيا متاع الغرور، فأوضح لهم أنها متاع يغتر به الجاهلون قصيرو النظر.

قال تعالى: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾(١).

وقال عز وجل: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾(٢).

فعلى الإنسان أن يعقل أمره، ولا يغتر بزخرف الحياة الدنيا وزينتها، فإنها دنيئة فانية، وقليلة زائلة. ولذلك حذر الله الناس جميعاً من الاغترار بذلك.

قال تعالى: ﴿ **وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾(٣)

وقال عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو**

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٢) سورة الحديد: ٢٠.

(٣) سورة لقمان: ٢٣.

حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾(١) .

وبعد أن حذر الله سبحانه عموم الناس من الاغترار بمتاع الدنيا وزينتها ، بين لنا أن من صفات الكافرين أنهم مغرورون بالحياة الدنيا ، مما يدل على أن الكافرين قوم لا ينفعهم تحذير ولا إنذار .

قال تعالى لرسوله : **﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾**(٢) .

وفي يوم القيامة يخاطب الله الكافرين من الجن والإنس فيقول لهم : **﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾**(٣) .

وهكذا تتجلى لنا صفة الكافرين بأنهم مغرورون بالحياة الدنيا وزينتها ، وأنها صفة مذمومة توصل صاحبها إلى النتيجة الوخيمة .

ب ـ الغرور بالأماني:

لكل صنف من أصناف الكافرين مجموعة من الأماني الكاذبة تناسب حالة كفرهم ، فهم ينخدعون بها ، وينجذبون إليها ويسعون وراءها .

---

(١) سورة فاطر : ٥ ـ ٦ .
(٢) سورة الأنعام : ٧٠ .
(٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .

فالمشركون تتعلق أمانيهم بالآلهة التي يعبدونها من دون الله، فتخيب أمالهم التي تعلقت بهذه الآلهة، لأنها تعلقت بأوهام لا حقيقة لها، يدعونهم فلا يستجيبون لهم.

والكافرون من أهل الكتاب تتعلق أمانيهم بتصورات باطلة وعقائد فاسدة.

والكافرون من الملحدين الدهريين تتعلق أمانيهم بحدود الحياة الدنيا الضيقة، فيسعون وراءها ويتعبون خاسرين، ثم لا تتحقق أمانيهم.

وقد وردت تلك الأماني في آيات كثيرة، منها:

- قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾[1].

- وقوله تعالى في أهل الكتاب: ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[2].

- وقوله عز وجل: ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴾[3].

- وقوله سبحانه في الملحدين الدهريين: ﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: ٧٨.

(٢) سورة البقرة: ١١١.

(٣) سورة النساء: ١٢٣.

(٤) سورة الجاثية: ٢٤.

ـ وقوله تعالى في بيان ما ورد من حوار بين المؤمنين وبين المنافقين والمنافقات: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[(١)].

ج ـ الغرور بوساوس شياطين الجن والإنس:

إن وساوس شياطين الجن والإنس تتغلغل في نفوس الكافرين ما لديهم من الأماني الكاذبة، وتثيرها وتغذيها، وَتَعِدُ وتُمنيّ، ولكنها ما تعد ولا تمنّي إلا غرورًا.

قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾[(٢)].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾» وهذا إخبار عن الواقع، فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم

---

(١) سورة الحديد: ١٣ـ١٥.

(٢) سورة النساء: ١١٧ـ١٢١.

هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب وافترى في ذلك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[١] »[٢] .

إنها حالة استهواء معينة هي التي تنحرف بالفطرة البشرية عن الإيمان والتوحيد، إلى الكفر والشرك. ولولا هذا الاستهواء لمضت الفطرة في طريقها، ولكان الإيمان هو هادي الفطرة وحاديها.

وإنها حالة استهواء معينة هي التي يزين فيها الشيطان للإنسان سوء عمله، فيراه حسناً! ويعده الكسب والسعادة في طريق المعصية، فيعدو معه في الطريق! ويمنيه النجاة من عاقبة ما يعمل فيطمئن ويمضي في طريقه إلى المهلكة![٣] .

وفي عملية هذه الوساوس، فيتعاون شياطين الإنس والجن على وضع الضلالات المغرورة التي يغتر بها من يستجيب لهم، ممن تميل أفئدتهم إلى ضلالتهم، إذ إنهم لا يؤمنون بالآخرة، ثم إنهم حين يغترون بهذه الضلالات يرضونها، ويقترفون من آثام، ويقترفون ما يقترفون من شرور.

ويعد الظالمون بعضهم بعضاً مواعيد لا تخرج عن دائرة الغرور، قال تعالى: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً﴾[٤] .

---

(١) سورة النساء: ١٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٧٧.

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٦١.

(٤) سورة فاطر: ٤٠.

د ـ غرور الكافرين بمفتريات أنفسهم:

قد يبدو غرور الإنسان بما يفتريه هو نفسه غروراً عجيبًا، وهذا ما حصل في صفة الكافرين، حيث إنهم يقعون فريسة الغرور بما كانوا قد افتروه هم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من الغرور، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[١].

فهؤلاء الكافرون من أهل الكتاب قد افتروا على ربهم، فقالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ـ وهي أربعون يوما، وهي الأيام التي عبدوا فيها العجل ـ ثم يخرجنا منها ربنا، اغتراراً من أنفسهم، بما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل، في ادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الله قد وعد أباهم يعقوب أن لا يُدخل أحداً من ولده النار إلا تحلَّة القسم. فأكذبهم الله على ذلك كله من أقوالهم، وأخبر نبيه محمد ـ ﷺ ـ أنهم هم أهل النار هم فيها خالدون[٢].

وما أكثر الأكاذيب التي يفتريها الناس في العقائد، ثم تتحول هذه الأكاذيب بتطاول الزمن واستجابة الجهلة لها وبعض المؤثرات المؤيدة، إلى عقائد راسخة في الدين، حتى في نفوس واضعيها ومختلقيها، وهذا أقبح الغرور أن يغتر الإنسان بما افتراه هو[٣].

---

(١) سورة آل عمران: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٣/ ٢١٩.

(٣) صراع مع الملاحدة حتى العظم، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، بتصرف، ص: ٣٨٧.

وهكذا شأن الكافرين كلهم وهم أهل الشرك من المخاطبين وغيرهم في غرور، قال تعالى: ﴿ **إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ** ﴾[١] .

فكما اغترت الأمم السالفة بالأشياء التي سبق ذكرها، وأنها تنفعهم وتدفع عنهم العذاب، فلم يجدوا ذلك منهم وقت الحاجة، فكذلك سيقع لأمثالهم. قال تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ** ﴾[٢] .

(٥) تجزيء الإيمان:

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾[٣] .

لقد توعد الله عز وجل في هذه الآية الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى الذين من صفاتهم تفريق وتجزيء الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهي والعادة وما وجدوا عليه آباءهم. فالذين كفروا بنبي من الأنبياء، فقد كفروا بسائر الأنبياء. ذلك لأن الإيمان لا يتجزأ. فالإيمان بالله إيمان بوحدانيته سبحانه، ووحدانيته تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس لتقوم حياتهم كلها - كوحدة - على أساسه. وتقتضي وحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده، ووحدة الموقف تجاههم جميعاً.

---

(١) سورة الملك: ٢٠.

(٢) سورة محمد: ١٠ - ١١.

(٣) سورة النساء: ١٥٠ - ١٥١.

ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة إلا بالكفر المطلق، والحسد والهوى والعصبية؛ وإن حسب أهل ذلك أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

فهؤلاء الذين وصفت لنا صفتهم، يتحقق كفرهم لا محالة، وأنهم يستحقون العذاب المهين[١] ، ولهذا قال تعالى: ﴿ **أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾[٢] .

وقد أنكر الله سبحانه على الأمم السابقة هذا التجزيء في الإيمان، وبيّن لنا أن هؤلاء يستحقون الخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة، قال تعالى: ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾[٣] .

ولخطورة هذه الصفة ـ التجزيء في الإيمان ـ فقد حذر الله عز وجل رسوله محمداً ـ ﷺ ـ وأمته، من تلك الصفة التي اعتبرها الله فتنة يجب أن تحذر. قال تعالى: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾[٤] .

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٤٩١، وتفسير الطبري ٤/ ٣٤٤، وفي ظلال القرآن ٢/ ٧٩٨.
(٢) سورة النساء: ١٥١.
(٣) سورة البقرة: ٨٥ـ٨٦.
(٤) سورة المائدة: ٤٩ـ٥٠.

(٦) موالاة بعضهم بعضًا:

ومن صفات الكافرين في الحياة الدنيا أن بعضهم أولياء بعض، وذلك لأن الكفر ملة واحدة، وإن اختلفت أنواعه. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الصفة في أكثر من موضع فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(١).

وقال عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾(٢).

لقد بين الله لنا في هذه الآية أن الكافرين بعضهم أولياء بعض، وذلك لنكون على بصيرة من أمرنا بأن الأمور بطبيعتها، حيث إن الكافرين قوم لهم مجتمعهم الخاص، لا يتحركون كأفراد؛ إنما يتحركون ككائن عضوي، تندفع أعضاؤه بطبيعة وجوده وتكوينه، للدفاع الذاتي عن وجوده وكيانه. فهم أولياء بعض طبعًا وحكمًا. ومن ثم لا نملك أن نواجههم إلا في صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص، ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى. فأما إذا لم نواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض، فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلي - لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلي المتكافل أفرادًا - وتقع الفتنة في الأرض عامة بغلبة الكافرين على المؤمنين - وتقع الفتنة في الناس وهي التباس الأمر، واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع الناس في حيرة التمييز بين الحق والباطل.

---

(١) سورة المائدة: ٥١.

(٢) سورة الأنفال: ٧٣.

فمن باب الوقاية والحماية وعدم التفريط في دين الأمة، أن يفصل المجتمع المسلم فصلاً تامّاً، عن أهل الكفر، وعن مناهجهم وأنظمتهم وأوضاعهم الشاذة، وأن يبنى المجتمع الإسلامي على أساس الإسلام بناءً صحيحًا قويّاً، وبأيد مسلمة مؤمنة قادرة، ذات اعتزاز بدينها قادرة على التأثير دون التأثر في تعاملها مع غير المسلمين[1].

(٧) نقض العهد:

ومن صفات الكافرين في الحياة الدنيا نقض العهد، فهي من الصفات المذمومة، ومن الذنوب الكبيرة التي ارتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى. وقد ذكر القرآن الكريم هذه الصفة القبيحة في أكثر من موضع.

قال تعالى: ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾[2].

اختلف المفسرون في معنى العهد الذي وصف الله هؤلاء الفاسقين بنقضه:

- فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمر من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصية، في كتبه وعلى لسان رسوله - ﷺ -

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٩، وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٦، وتفسير القرطبي ٨/ ٥٦، ومجموعة التوحيد لجمع من أئمة أهل العلم ص: ٢٦٢.

(٢) سورة البقرة: ٢٦-٢٧.

ونقضهم ذلك تركهم العمل به.

ـ وقال آخرون: إنما نزلت هذه الآيات في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وإياهم عنى الله جل ذكره.. ونقضهم ذلك هو جحودهم بمحمد ـ ﷺ ـ بعد معرفتهم بحقيقته في كتابهم التوراة.

ـ وقال بعضهم: إن الله عنى بهذه الآية جميع أهل الشرك والكفر والنفاق، وعهده إلى جميعهم في توحيده.. ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبينت له صحته بالأدلة.

ـ وقال آخرون: العهد الذي ذكره الله هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصفه في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾[1]؛ ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به[2].

فكل عهد بين الله وبين هذا النموذج من الخلق فهو منقوض؛ وكل ما أمر الله به أن يوصل فهو بينهم مقطوع؛ وكل فساد في الأرض فهو منهم مصنوع.. إن صلة هذا النمط من البشر بالله مقطوعة، وإن فطرتهم المنحرفة لا تستقيم على عهد ولاتستمسك بعروة ولا تتورع عن فساد. إنهم كالثمرة الفجة التي انفصلت من شجرة الحياة، فتعفنت وفسدت ونبذتها الحياة.. ومن ثم يكون ضلالهم بالمثل الذي يهدي المؤمنين؛ وتجيء غوايتهم بالسبب الذي

(١) سورة الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١/ ٢١٩، وتفسير ابن كثير ١/ ٦١ ـ ٦٢، وتفسير البغوي ١/ ٧٧.

يهتدي به المتقون[١] .

وبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعنهم الله، فأبعدهم عن الحق وطردهم عن الهدى، وجعل قلوبهم قاسية لا يتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها. قال تعالى:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٢] .

وبأن الكافرين لا يستطيع أحد أن يطمئن إلى عهدهم، فقد أمر الله رسوله - ﷺ - ومن بعده من المسلمين - إذا التقوا بهم وبأمثالهم في القتال - بأن يضربوا على أيديهم بشدة لا ترهبهم وحدهم، إنما ترهب من يتسامع بهم ممن وراءهم من أمثالهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[٣] .

وهكذا تتجلى لنا صفة الكافرين السيئة، ولهم بسبب ذلك حرمانهم الأمن كما حرموا غيرهم الأمن، وجزاؤهم هو تخويفهم وتشريدهم، ولعنة الله عليهم، ولهم سوء العاقبة، جزاء وفاقاً لما اجترحوه من السيئات،

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٥١ .

(٢) سورة المائدة: ١٣ .

(٣) سورة الأنفال: ٥٥ـ ٥٧ .

وأتوا به من الشرور والمعاصي، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾(١) .

(٨) الصد عن سبيل الله:

ومن صفات الكافرين في الحياة الدنيا - مع كفرهم - يصدون عن سبيل الله. فهم بذلك زادوا على كفرهم صد غيرهم عن سبيل الله، وهم في الحقيقة ازدادوا كفراً على كفر، فلا جرم يزيدهم الله تعالى عذابًا على كفرهم، وعذابًا على صدهم الناس عن اتباع الحق بما كانوا يُفسدون، وذلك لأن الكفر فساد، والتكفير فساد، وقد ارتكبوا جريمة كفرهم، وجريمة صد غيرهم عن الهدى، فضوعف لهم العذاب جزاءً وفاقاً(٢) .

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾(٣) .

ويقول عز وجل: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾(٤) .

ويقول سبحانه: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾(٥) .

---

(١) سورة الرعد: ٢٥.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٥٠٢، والتفسير الكبير ٢٠/ ٧٩، وفي ظلال القرآن ٤/ ٢١٨٨.
(٣) سورة النحل: ٨٨.
(٤) سورة العنكبوت: ١٣.
(٥) سورة الأنعام: ٢٦.

وقد استخدم هؤلاء الكفار في صدهم عن سبيل الله المال، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[1] .

نزلت هذه الآية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب، ومن كانت له في تلك العير تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتَركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال الذي أفْلتَ على حربه، لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، ففعلوا، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية[2] .

هذه الآية، وإن كان سبب نزولها خاصّاً، فإنها عامة، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع الحق، وينفقونها في إقامة العقبات في وجه هذا الدين، وفي حرب العصبة المسلمة في كل أرض وفي كل حين . .

إن المعركة لن تكف، وأعداء هذا الدين لن يدعوه في راحة، ولن يتركوا أولياء هذا الدين في أمن، وسبيل هذا الدين هو أن يتحرك ليهاجم الجاهلية، وسبيل أوليائه أن يتحركوا لتحطيم كيد الجاهلية على العدوان؛ ثم لإعلاء راية الله حتى لا يجرؤ عليها الطاغوت .

والله سبحانه ينذر الكافرين الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله بأنها ستعود عليهم حسرة، حيث لم تُجْدِ شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله

---

(١) سورة الأنفال: ٣٦.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢٤٣، وانظر: أسباب النزول للواحدي، ص: ٢٤١، وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٧، والدر المنثور ٣/ ٣٣٣.

وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومعلن كلمته، ومظهر (دينه) على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار. فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي، ولهذا قال تعالى: ﴿ **فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾[1]»[2].

ولخطورة هذه الصفة التي اتصف بها الكافرون، حتى إنهم يستحقون بها مضاعفة العذاب، ذكرها الله عز وجل في أكثر من موضع من كتابه العزيز:

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا** ﴾[3].

وقال عز وجل: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ**

---

(١) سورة الأنفال: ٣٧-٣٨.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٧، وفي ظلال القرآن ٣/ ١٥٠٧.

(٣) سورة النساء: ١٦٧.

(٤) سورة الحج: ٢٥.

(٥) سورة محمد: ١.

فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾[١] .

(٩) المكر:

ومن صفات الكافرين في الحياة الدنيا المكر . «والمكر : فعل يقصد به ضر أحد في هيئة تخفى عليه، أو تلبيس فعل الإضرار بصورة النفع»[٢] . وقد سجّل القرآن الكريم هذه الصفة الخبيثة، لنكون على حذر من أضرار هؤلاء الكافرين الماكرين .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾[٣] .

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : «تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبي ـ ﷺ ـ وقال بعضهم : بل اقتلوه، وقال بعضهم : بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه ـ ﷺ ـ على ذلك فبات علي ـ رضي الله عنه ـ على فراش رسول الله ـ ﷺ ـ ، وخرج النبي ـ ﷺ ـ حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون عليّا يحسبونه النبي ـ ﷺ ـ فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً ردّ الله تعالى مكرهم . فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري، فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل، اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا : لو دخل هنا لم

---

(١) سورة محمد : ٣٤ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٣/ ٢٥٦، وورد في المفردات : أن المكر ضربان ؛ مكر محمود وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميل، ومذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح (المفردات في غريب القرآن ص : ٤٧١) .

(٣) سورة الأنفال : ٣٠ .

يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاث ليال»[١].

ومن صور مكرهم في الحياة الدنيا أن مكرهم زُين لهم بصحة ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، فيمنعون الناس من الدخول في الإيمان، ويستكبرون في الأرض. ولكن الله من ورائهم محيط، يمكر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون. ذلك لأن الكافرين - مع مكرهم وكيدهم وتآمرهم - من تلك القدرة الإلهية ضعاف مهازيل، فلا يحيط مكرهم السيء إلا بهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[٢].

ويقول عز وجل: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[٣].

ويقول سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ

---

(١) يتفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٣، وتفسير الطبري ٦/ ٢٢٧، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥٠، والدر المنثور ٣/ ٣٢٥، ومجمع الزوائد ٧/ ٢٧.
والأثر أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٤٨، وعبد الرزاق في المصنف ٥/ ٣٨٩، وذكره الحافظ في الفتح ٧/ ٢٣٦، وقال: سنده حسن، وحسن إسناده أيضًا ابن كثير في السيرة ٢/ ٢٣٩، وقال: إسناده حسن وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار.

(٢) سورة الرعد: ٣٣ـ ٣٤.

(٣) سورة فصلت: ٢٥.

أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[١] .

ومن صور مكرهم أنهم إذا أذاقهم الله رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك، بادروا إلى المكر[٢] في آيات الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾[٣] .

وقد جرت سنة الله في إرسال الرسل أن جعل الله في كل قرية أكابر مجرميها، يقفون موقف العداء من دين الله ورسل الله. ثم يمكرون في القرى، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ويتعاونون مع شياطين الجن في المعركة مع الحق والهدى، وفي نشر الباطل والضلال، واستخفاف الناس بهذا المكر الظاهر والخافي.

ولمواجهة ذلك المكر الخبيث أمر الله رسوله ـ ﷺ ـ ألا يضيق صدره من مكرهم. فالله كافيه أذاهم ومكرهم، وناصره عليهم، ومؤيده ومظهره عليهم، فمهما حاولوا المكر به، فإن الله مبعده عنه، ومحبط ما صنعوا وهم لا يشعرون. فليطمئن الرسول ـ ﷺ ـ ومنْ بعده من المؤمنين.

---

(١) سورة فاطر: ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) ومعنى المكر في آيات الله: استهزاء وتكذيب بها (تفسير الطبري ٦/ ٥٤٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٧).

(٣) سورة يونس: ٢١.

وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾[١] .

ويقول عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[٢] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[٣] .

ويقول تعالى: ﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[٤] .

ونكتفي بهذا القدر في ذكر صفات الكافرين في الحياة الدنيا، فلا نتوسع فيه خشية الإطالة، وإلا، فصفات الكافرين كثيرة كما ورد ذكرها في القرآن الكريم، فمنها: الضلال، والمقت، والفسق، والرياء، والحسد، والسخرية، والتكذيب المستمر، والخسارة، وغيرها من الصفات المذمومة الخبيثة.

إن هذه الصفات مما ذكرته الآيات القرآنية، نتائج طبيعية لسيطرة هذه العوامل الثلاثة؛ وهي أن الكافرين مختوم على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، فلايعون ولا يسمعون ولا يبصرون.

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٢) سورة الأنعام: ١١٢ .

(٣) سورة النحل: ١٢٧ .

(٤) سورة النمل: ٧٠ .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⦗٦⦘ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] .

لذا فقد وصف الله عز وجل الكافرين بأنهم كالأنعام بل هم أضل؛ ذلك لأنهم عطلوا ما وهبهم الله عما يجب عليهم أن يستعملوه فيه. فمن أجل ذلك صحّ وصف هذا الفريق من الناس بأنه أصم أبكم أعمى، وبأنه لا يعقل.

فما قيمة سمع لا يؤدي وظيفته الأساسية؟ وما قيمة بصر لا يؤدي وظيفته الأساسية؟ وما قيمة عقل لا يهدي صاحبه إلى رشده وسعادته؟ إن وجودها وعدمها سواء في حكم النتيجة العاجلة، ووجودها شر وبلاء على صاحبها في حكم النتيجة الآجلة والعاقبة الوخيمة يوم الجزاء.

* * *

---

(١) سورة البقرة: ٦ ـ ٧.

المبحث الثالث
سعي الكافرين في الحياة الدنيا ومقتضياته

إذا كان المؤمنون في الحياة الدنيا يسعون لآخرتهم، وذلك يرجع إلى إيمانهم باليوم الآخر، فالكافرون ـ باعتبار أنهم لا يرون إلا هذه الحياة الضيقة المحدودة ـ يسعون لدنياهم، فلا يتطلعون إلى أعلى من هذه الأرض التي يعيشون فيها، وذلك لأن هدف الأهداف في حياتهم، الدنيا ومتاعها.

فمن كان طلبه الدنيا العاجلة، ولها يعمل ويسعى، وإياها يبتغي، لا يؤمن بما وراءه من الحياة الآخرة، ولا يخشى عقابًا من ربه على ما يعمل، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق.

قال تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا**﴾[1].

وفي قوله: ﴿**لِمَن نُّرِيدُ**﴾ دلالة على أن الفوز بالدنيا لا يحصل لكل من يريدها، فكثير من الكافرين الضالين يعرضون عن الدين في طلب الدنيا والسعي لها، ثم يبقون محرومين عن الدنيا وعن الدين، وهذا أيضًا فيه زجر عظيم لهؤلاء الكافرين الضالين الذين يتركون الدين وراء ظهورهم، ويسعون في حياتهم للدنيا العاجلة، فإنه ربما فاتتهم الدنيا أيضًا[2].

---

(١) سورة الإسراء: ١٨.

(٢) انظر: التفسير الكبير ٢٠/١٤٣، وتفسير فتح القدير ٣/٢١٦، وتفسير المراغي ٥/٢٧.

ولأن الكافرين في الحياة الدنيا يسعون لدنياهم، وأنهم اتخذوا الدنيا الفانية داراً، فحينئذ كأنهم لا دار لهم. وفي ذلك يقول الرسول - ﷺ - في حديثه الشريف الذي روته عائشة: «**الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له**»[1].

فالكافر الذي اتخذ الحياة الدنيا دارًا، فكأنه لا دار له، وذلك لأن الحياة الدنيا بأرزاقها ومتاعها لهو ولعب حين تقاس بالحياة في الدار الآخرة، فهي الحياة الفائضة بالحيوية، وهي الحقيقية الأبدية.

قال تعالى: ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[2].

مقتضيات سعي الكافرين في الحياة الدنيا:

كما سبق ذكره أن الكافرين في الحياة الدنيا يسعون للدنيا وحدها، وأنها هدف الأهداف في حياتهم، ولها يعملون ويسعون وإياها يبتغون، فهم لا يخشون عقابًا من ربهم على ما يعملون وما يسعون. وهذا السعي يقتضي أمورًا ظاهرة، ويستلزم ظواهر عملية يمارسها الكافرون في الحياة الدنيا، مما يتناسب ذلك كله مع أهوائهم وشهواتهم. فمن هذه الأمور:

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٦/ ٧١. قال المنذري والحافظ العراقي: إسناده جيد. وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح، غير ذويد وهو ثقة (الفتح الرباني ١٩/ ٣١٤).

(٢) سورة العنكبوت: ٦٤.

الأول: سعيهم في آيات الله معاجزين:

لقد ورد في القرآن الكريم أن الكافرين يسعون[(١)] في آيات الله معاجزين، بمعنى أنهم اجتهدوا في الصدّ عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته، وردّ دعوة هذا الدين الحنيف، وثبّطوا الناس عن متابعة النبي - ﷺ - ظنّاً منهم أنهم يعجزون الله، ولن يعجزوه، فأولئك أصحاب الجحيم، جزاء بما كانوا يسعون[(٢)].

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾[(٣)].

ويقول عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ**﴾[(٤)].

ويقول سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ**﴾[(٥)].

الثاني: أنهم يسعون في الأرض فساداً:

وبما أن الكافرين قوم لا يؤمنون باليوم الآخر، ولا يخشون عذاب ربهم، فاقتضى ذلك أنهم دائمًا يسعون في الإفساد في الأرض. وقد ذكر القرآن

---

(١) يقال لمن بذل جهده في أمره: إنه سعى فيه توسعًا من حيث بلغ في بذل الجهد النهاية، كما إذا بلغ الماشي نهاية طاقته، فيقال له: سعى (التفسير الكبير ٢٣/ ٤٢، وانظر: تفسير التحرير والتنوير ١٧/ ٢٩٥).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٨، وتفسير الطبري ٩/ ١٧٤، وتفسير المراغي ٦/ ١٢٦.

(٣) سورة الحج: ٥١.

(٤) سورة سبأ: ٥.

(٥) سورة سبأ: ٣٨.

الكريم هذا السعي الخبيث في أكثر من موضع. فقال تعالى:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[١] .

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾[٣] .

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[٤] .

والكافرون إذ يسعون في الأرض فساداً، فإنهم ينفون عن أنفسهم الإفساد، بل تجاوزوه إلى التبجح والتبرير، بقولهم: إنما نحن مصلحون. قال تعالى مخبراً عن سفه الكافرين وادعائهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[٥] .

---

(١) سورة المائدة: ٦٤ .

(٢) سورة البقرة: ٢٧ .

(٣) سورة الرعد: ٢٥ .

(٤) سورة الشعراء: ١٥١-١٥٢ .

(٥) سورة البقرة: ١١-١٢ .

وهكذا شأن المفسدين في كل زمان، يدّعون في إفسادهم أنه هو الإصلاح بعينه، يدّعون ذلك لأن الموازين مختلة في أيديهم. ومتى اختلّ ميزان الإخلاص والتجرد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم. والذين لا يخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم، لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية. ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[1]، فهم لا يشعرون بهذا الإفساد، لأنه أصبح غريزة في طباعهم[2].

من صور إفسادهم وإهلاكهم في الأرض:

ذكر القرآن الكريم صوراً من إفساد الكافرين وإهلاكهم في الأرض، فمن هذه الصور ما يلي:

١ - إهلاك الحرث والنسل:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[3].

نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق الثقفي - وهو حليفٌ لبني زُهرة - وأقبل إلى النبي - ﷺ - بالمدينة فأظهر له الإسلام، فأعجب النبي - ﷺ - ذلك منه، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم أني صادق!، وذلك قوله: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾[4]. ثم خرج من عند النبي - ﷺ -، فمر

---

(١) سورة البقرة: ١٢.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١/ ٥٣، وفي ظلال القرآن ١/ ٤٤.

(٣) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٤) سورة البقرة: ٢٠٤.

بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر، فأحرق الزرع وعقر الحُمر، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾(١)(٢).

هذه الآية، وإن كانت نزلت في الرجل، إلا أنها تشمل الكافرين بصفة عامة، حيث إنهم يسعون في الأرض فسادًا، ويهلكون نبات الأرض، والنسل من كل دابة تمشي من الحيوان والناس والدواب. وقد عبر القرآن الكريم عن النساء بالحرث فقال تعالى: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣).

إن الكافرين الذين يسعون في الأرض فسادًا يطمحون بأبصارهم إلى نساء الناس، أو يسعون في إفساد نظام البيوت بما يلقونه من وسائل الإعلام التي تدمّر البيوت بأسرها، ومن الفتن الأخرى مما لا تكاد تسلم بيوتهم من الخراب، فهم يؤذون أنفسهم وأهليهم بضروب من الإيذاء قد يعميهم الغرور عنها، أو عن كونها من سعيهم(٤).

٢ ـ إيقاد النار للحرب:

ومن صور إفساد الكافرين في الأرض إيقاد النار للحرب. قال تعالى:

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٢) تفسير الطبري ٢/ ٣٢٤، وأسباب النزول للواحدي ص: ٦٦، وتفسير ابن كثير ١/ ٢١٥، وتفسير الدر المنثور ١/ ٤٢٧، وتفسير البغوي ١/ ٢٣٦.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٣.

(٤) انظر: تفسير المراغي ١/ ١١١، وتفسير الطبري ٢/ ٣٣٠ في حديث عن معنى الحرث والنسل.

﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾(١) .

ذكر الله سبحانه وتعالى أن الكفار من اليهود ما زالوا يسعون في الأرض فسادًا، وذلك بأن يوقدوا نار الحرب على المسلمين. ما من حرب من الحروب في البلاد الإسلامية إلا واليهود من وراء ذلك كله. ولكن مع ذلك السعي الخبيث فإن الله غالب على أمره، فألقى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

«ويوم تفيء الأمة المسلمة إلى الإسلام: تؤمن به على حقيقته، وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته.. يومئذ يحق وعد الله على شر خلق الله.. واليهود يعرفون هذا، ومن ثم يسلطون كل ما في جعبتهم من شر وكيد، ويصبون ما في أيديهم من بطش وفتك، على طلائع البعث الإسلامي في كل شبر من الأرض، ويضربون - لا بأيديهم، ولكن بأيدي عملائهم - ضربات وحشية منكرة؛ لا ترعى في العصبة المؤمنة إلاً ولا ذمة.. ولكن الله غالب على أمره.. ووعد الله لابد أن يتحقق: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِي ﴾(٢) »(٣) .

---

(١) سورة المائدة: ٦٤ .

(٢) سورة المائدة: ٦٤ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٩٣٠ .

٣ ـ الطغيان في البلاد:

قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ** ﴾[١].

ذكر الله سبحانه في هذه الآية أن هؤلاء الذين سلف ذكرهم من عاد وثمود وفرعون قد تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس.

هذه الآية، وإن كانت تتحدث عن الكافرين في الأمم السابقة، إلا أنها تشتمل على الكافرين في أي عصر من العصور، ذلك لأنه ليس وراء الطغيان إلا الإفساد. فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

إنه يجعل الطاغية أسير هواه، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ويجعل الجماهير أرقّاءَ أذلاّء، مع السخط الدفين والحقد الكظيم، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية. ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة، لأنها خطر على الطغاة والطغيان. فلا بد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة، وتراها مقبولة، وهو فساد أي فساد.

---

(١) سورة الفجر: ١١ ـ ١٣.

ولا شك أن أممًا هذه حالها تكون عاقبتها الخراب والدمار، ومن ثم ذكر عاقبة أمرها، فقال تعالى: ﴿ **فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ** ﴾[1] [2] .

وقال تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** ﴾[3] .

وهكذا تتجلى لنا صور إفساد الكافرين في الأرض، مما يدل على أن الإفساد في الأرض جريمة كبيرة ارتكبها الكافرون بسبب سعيهم في الحياة لأجل الدنيا وحدها، وعدم خوفهم من عقاب ربهم، فعاقبتهم بلا شك أنهم يحشرون إلى الخراب والدمار.

ولهذا حذر الله عز وجل المؤمنين من ذلك السعي الخبيث ـ وهو الإفساد في الأرض ـ حتى لا يكونوا فريسة للهلاك والدمار، وذلك بأساليب متنوعة:

ـ فقد نهى سبحانه وتعالى المؤمنين عن اتباع وطاعة سبيل المفسدين، فقال تعالى: ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾[4] .

وقال تعالى: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ** ﴾[5] .

---

(١) سورة الفجر: ١٣.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٤، وتفسير المراغي ١٠/ ١٤٤.

(٣) سورة محمد: ١٠.

(٤) سورة الأعراف: ١٤٢.

(٥) سورة الشعراء: ١٥٠ـ١٥٢.

- وقد صرح عز وجل بأنه لا يحب المفسدين في الأرض بل يبغضهم، ومن ثم لا ينجح سعيهم ولا يصلح عملهم، قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[2].

- وقد أمرهم الله في النظر إلى عاقبة المفسدين من الأمم الماضية، حتى يخافوا من هذه العاقبة الوخيمة.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[3].

وقال عز وجل: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[5].

---

(١) سورة المائدة: ٦٤.
(٢) سورة القصص: ٧٧.
(٣) سورة الأعراف: ٨٦.
(٤) سورة الأعراف: ١٠٣.
(٥) سورة النمل: ١٤.

الثالث: سعي الكافرين في خراب مساجد الله :

وبما أن الكافرين قوم لا يكون هدفهم في الحياة إلا الدنيا، وأنهم لا يخشون عذاب الله، فاقتضى ذلك أنهم لا يخافون أن يرتكبوا أشد جريمة الظلم، وهو سعيهم في خراب مساجد الله.

قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[1] .

اختلف المفسرون في المراد مَنِ الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها؟ على أقوال:

الأول: الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعوا في خرابها النصارى، والمسجد بيت المقدس.

الثاني: المراد بهؤلاء، بختنصَّر وجنده ومن أعانهم من النصارى، والمسجد بيت المقدس.

الثالث: عني الله عز وجل بهذه الآية مشركي قريش، إذا منعوا رسول الله - ﷺ - من المسجد الحرام. قال تعالى: ﴿ **وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[2] .

---

(١) سورة البقرة: ١١٤.

(٢) سورة الأنفال: ٣٤.

الرابع: المراد بهؤلاء اليهود، وذلك لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجههم إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضا في تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها وسعوا في تخريب مسجد الرسول - ﷺ -، لئلا يُصَلُّوا فيه متوجهين إلى القبلة، فعابهم الله بذلك وبين سوء طريقهم فيه، كما أن الله تعالى لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلا قبائح أفعال اليهود والنصارى، وذكر أيضًا بعدها قبائح أفعالهم[١].

وعلى أية حال فإن إطلاق النص يدل على أنه حكم عام في منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، والسعي في خرابها. كذلك الحكم الذي يرتبه على هذه الفعلة، ويقرر أنه هو وحده الذي يليق أن يكون جزاء لفاعليها وهو قوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ**﴾، ويزيد على هذا الحكم ما يتوعدهم به من خزي في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة: ﴿**وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[٢][٣].

الرابع: أكلهم أموال الناس بالباطل:

ومن مقتضيات سعي الكافرين في الحياة الدنيا أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل.

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١/ ٥٤٥-٥٤٦، وتفسير ابن كثير ١/ ١٣٨، أسباب النزول للواحدي ص: ٣٩، الدر المنثور ١/ ٢٠٤، وتفسير البغوي ١/ ١٣٨، والتفسير الكبير ٤/ ٩-١٠.

(٢) سورة البقرة: ١١٤.

(٣) انظر: في ظلال القرآن ١/ ١٠٥.

قال تعالى: ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[١].

وأكل الأموال بالباطل: أخذها بغير حق شرعي، ويقع ذلك على صور مختلفة، منها:

(١) أخذها رشوة لأجل الحكم أو المساعدة على إبطال حق أو إحقاق باطل:

قال تعالى: ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[٢].

أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عن اليهود بأنهم يأكلون السحت[٣]، وذلك بأن يقبلوا الرشوة فيأكلونها على كذبهم على الله وفريتهم عليه[٤]. كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٥].

---

(١) سورة النساء: ١٦١.

(٢) سورة المائدة: ٤٢.

(٣) والسحت يشمل جميع المال الحرام، كالربا والرشوة وأكل مال اليتيم والمغصوب وغيرها، وسمي الحرام سحتًا لأنه يقطع البركة ويمحقها (انظر: تفسير التحرير والتنوير ٦/ ٢٠٢، وفي ظلال القرآن ٢/ ٨٩٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري ٤/ ٥٧٩، وتفسير البغوي ٣/ ٥٨، وتفسير ابن كثير ٢/ ٥٤.

(٥) سورة المائدة: ٦٢.

(٢) أخذها بالربا: وهو فاش عند اليهود، ومنه ما يحلّه رجال الدين، وإن كانوا يحرمونه في الفتوى وكتب التشريع، وأحبارهم يفتونهم بأكل الربا من غير الإسرائيليين ويأكلونه معهم مستحلين له بنص توراتهم المحرفة بدلاً من نهيهم عنه وهو: «لا تقرض أخاك بربا فضة أو ربا شيء مما يقرض بربا. للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرضه بالربا لكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها».

وكذلك عند النصارى، وقد وضع لهم الأساقفة أحكامًا للربا والقروض فيما يسمونه اللاهوت الأدبي، فأباحوا فيه بعض الربا دون بعض[٢].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣].

(٣) وكان من أكلهم أموال الناس بالباطل ما كانوا يأخذون من أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم، ثم يقولون: «هذا من عند الله»، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا

---

(١) تفسير المراغي ٤/ ١٠٨.

(٢) سورة التوبة: ٣٤.

يَكْسِبُونَ ﴾[١][٢].

(٤) أخذها من أموال مخالفيهم في الدين:

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[٣].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾: «أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب، فإن الله قد أحلها لنا»[٤].

وهكذا تتجلى لنا أكل الكافرين أموال الناس بالباطل بصوره المختلفة، مما يكون ذلك من الذنوب الموجبة للتشديد عليهم في الدنيا وفي الآخرة. أما التشديد عليهم في الدنيا فهو أنه تعالى حرّم عليهم طيبات كانت محللة لهم قبل ذلك.

قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة: ٧٩.

(٢) تفسير المراغي ٤/ ٣٦٢.

(٣) سورة آل عمران: ٧٥-٧٦.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٢.

(٥) سورة النساء: ١٦٠-١٦١.

وقال تعالى: ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾(٢) .

أما التشديد عليهم في الآخرة فهو المراد من قوله تعالى: ﴿ **وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾(٣) .

وبما سبق من الحديث عن سعي الكافرين في الحياة الدنيا ومقتضياته، يتضح لنا أنهم من الخاسرين، بل لا يوجد من هم أشد منهم خسراناً، وذلك لأنهم ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، فلم يؤد بهم إلى الهدى، ولم ينته بهم إلى ثمرة أو غاية، وهم يحسبون ـ بسعيهم ـ أنهم يحسنون صنعًا، لأنهم من الغفلة بحيث لا يشعرون بضلال سعيهم في هذه الحياة وذهابه سدىً، فهم ماضون في هذا السعي الخائب الضال، ينفقون حياتهم فيه هدراً، فلا قيمة لهم ولا وزن يوم القيامة، ولهم بعد ذلك جزاؤهم جهنم.

قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ**

---

(١) سورة الأنعام: ١٤٦ .

(٢) سورة النحل: ١١٨ .

(٣) سورة النساء: ١٦١ .

جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾[١] .

روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : «**إنه ليأتي الرجلُ العظيم السمين يوم القيامة لا يزنُ عند الله جناحَ بعوضة. وقال: اقرءوا ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾**[٢]»[٣] .

* * *

---

(١) سورة الكهف: ١٠٣-١٠٦ .

(٢) سورة الكهف: ١٠٥ .

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا** ﴾ الآية، رقم الحديث: ٤٧٢٩، فتح الباري ٨/ ٢٧٩ .

المبحث الرابع
حرص الكافرين على الحياة الدنيا ووسائلهم في ذلك

قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[١].

لقد بيّن لنا الله عز وجل في هذه الآية أن اليهود أشد الناس حرصاً على الحياة في الدنيا، وأشدهم كراهة للموت. ذلك لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة، لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر[٢]، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة، وهم أحرص على الحياة من المشركين الذين لا كتاب لهم.

وفي هذا توبيخ وإيلام عظيم لليهود، إذ أن المشركين لا يؤمنون ببعث ولا يعرفون إلا هذه الحياة، فحرصهم عليها ليس بالغري. أما من يؤمن بكتاب ويقر بالجزاء، فمن حقه ألا يكون شديد الحرص عليها[٣].

---

(١) سورة البقرة: ٩٦.

(٢) ورد في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» صحيح مسلم كتاب الزهد، رقم الحديث: ١ (٢٩٥٦) بشرح النووي ١٨/ ٩٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١/ ٤٧٣، وتفسير ابن كثير ١/ ١١٤، وتفسير المراغي ١/ ١٧٣.

وفي كلمة «حياة» وقد أخذت مكانها في الآية الكريمة من غير تعريف هكذا «حياة» دلالة على أن هذه الحياة التي يحرص عليها اليهود أشد الحرص هي حياة تافهة، يعيش فيها صاحبها أشبه الحيوان بلا عقل ولا قلب.. إنها حياة، مجرد حياة - كما يقول أحدهم: «حياة وكفى» - يتحرك فيها الجسد بلا إدراك ولا وجدان، فكيف يكون حرص الناس إذن على الحياة الحية، المتفقدة بالعواطف، الزاخرة بالمشاعر؟ التي يعرف الإنسان فيها أنه إنسان؟.

إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء. وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة. فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعنت الجباه جبنًا وحرصًا على حياة.

وإذا كان سياق الآية الكريمة في حق اليهود، فإذا هذا السياق لم يجعل الحرص على الحياة من شأن اليهود وحدهم، وإن جعلهم أشد الناس حرصاً. فالحرص على الحياة شأن مشترك بين الناس جميعا، وقد انفرد اليهود عن الناس جميعا في شدة هذا الحرص، فهم أشد الناس حرصاً على الحياة[1].

وقد ذكر القرآن الكريم في بيان حرص الكافرين على الحياة الدنيا صورًا متنوعة، فمنها:

---

(١) انظر: الإنسان في القرآن الكريم من البداية إلى النهاية، لعبد الكريم الخطيب ص: ٢٢٥، وتفسير التحرير والتنوير ١/ ٦١٧، وفي ظلال القرآن ١/ ٩٢.

(١) الرضا والفرح بالحياة الدنيا:

لقد ذكر الله سبحانه في القرآن الكريم حرص الكافرين على الحياة الدنيا بأنهم يرضونها ويستغرقون فيها ويفرحون بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجًا لهم وإمهالاً، فهم لا ينكرون فيها نقصًا، ولا يدركون أنها لا تصلح أن تكون نهاية للبشر.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ** ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ** ﴾[٣].

(٢) إيثار الحياة الدنيا على الآخرة:

ومن صور حرص الكافرين على الحياة الدنيا أنهم يقدمونها ويؤثرونها على الآخرة، ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم. فهم يطلبون الدنيا، ويتمتعون بلذاتها، ويقترفون الآثام، ويرتكبون الموبقات. ذلك لأن من أهمل حساب الآخرة وآثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين في

---

(١) سورة يونس: ٧-٨.

(٢) سورة الرعد: ٢٦.

(٣) سورة المؤمنون: ٥٥-٥٦.

يده، واختلت كل القيم في تقديره، واختلت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الصورة في أكثر من موضع:

فقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[2].

وقال عز وجل: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾[4].

(٣) الإخلاد إلى الأرض:

ومن بلاغة القرآن الكريم في بيان حرص الكافرين على الحياة الدنيا أنه وصفهم بأنهم قوم أخلدوا إلى الأرض؛ أي: ركنوا إلى الدنيا ومالوا إليها،

---

(١) سورة إبراهيم: ٢ـ٣.

(٢) سورة النحل: ١٠٧ـ١٠٨.

(٣) سورة النازعات: ٣٧ـ٣٩.

(٤) سورة الأعلى: ١٦ـ١٧.

وجعلوا كل حظهم من حياتهم التمتع من لذائذها الجسدية، ولم يوجّهوا إلى الحياة الروحية الزكية.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾[1].

وهذا المثل القرآني على إيجازه البديع، هو صورة تمثيلية رائعة لحالة اللهث النفسي والظمأ لمطالب الحياة الدنيا، لدى الذي كذّب بآيات الله، بعد أن آتاه الله إياها، وعلم دلالاتها، وانسلخ منها، فأتبعه الشيطان مسرعًا إليه حتى أدركه وقبض على ناصيته.

وكانت علّته النفسية أنه أخلد إلى الأرض طلبًا للطمأنينة فيها، والاستمتاع بلذاتها، وأنه اتبع هواه، فمثل حالته كمثل حالة الكلب الذي يلهث باستمرار، سواء حملتَ عليه أم لم تحمل.

ما أبدع هذه الصورة الدالة على الدوام في الحركة الظاهرة في المثل، والمشيرة إلى الحرمان من تحقيق المطالب المدركة في الممثل له.

إن هؤلاء الذين أخلدوا إلى الأرض لا يظفرون من دنياهم للذاتهم الحقيقية بطائل، ولو جمعوا وملكوا كل كنوزها، ويظلّ الظمأ النفسي لديهم على حاله، ويستمرون في لهث نفسي متواصل[2].

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) انظر: أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص: ٣٥٠.

(٤) إنهم لا يرجون نشوراً:

ومن صور حرص الكافرين على الحياة الدنيا أنهم لا يرجون نشوراً. وهذه الصورة تتجلى في أمثلة من قوم موسى ونوح، وعاد وثمود وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك، ومن القرية التي أمطرت مطر السوء ـ وهي قرية لوط ـ كلها تسير سيرة واحدة، وتنتهي نهاية واحدة. وكانت عاقبة التكذيب هي الهلاك والدمار. وقد بين لنا القرآن الكريم أنهم لا يعتبرون ولا يتأثرون، ذلك لأنهم لا يرجون نشوراً، أي: معاداً يوم القيامة[1]، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيراً (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾[2].

(٥) إنهم لا يرجون حساباً:

ومن صور حرص الكافرين على الحياة الدنيا أنهم لا يرجون حساباً، فهم لا يعتقدون أن هناك داراً يجازون فيها ويحاسبون. وهم بذلك فعلوا من القبائح ما فعلوا، واجترحوا من السيئات ما شاءت لهم أهواؤهم.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٥، وفي ظلال القرآن ٥/ ٢٥٦٤.

(٢) سورة الفرقان: ٣٥ـ ٤٠.

ورغبة المرء في فعل الخيرات وترك المحظورات إنما تكون غالبًا لاعتقاده أنه ينتفع بذلك في الآخرة، فمن كان منكرًا لها لا يقدم على شيء مما يحسن عمله، ولا يحجم عن أمر مما يقبح.

فالكافرون قوم لا يرغبون في الخيرات، وأنهم يأتون بالسيئات، فيكون العقاب وفق الذنب ومقداره. ذلك لأنهم لا يرجون يوم الحساب ولا يتوقعونه. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا** ﴾[1].

(٦) إنهم لا يرجون لقاء الله:

ومن صور حرص الكافرين الأشقياء على الحياة الدنيا أنهم لا يرجون لقاء الله. فهم لا ينتظرون هذا اللقاء، ولا يحسبون حسابه، ولا يقيمون حياتهم وتصرفاتهم على أساسه. ومن ثم لا تستشعر قلوبهم وقار الله وهيبته وجلاله.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾[3].

---

(١) سورة النبأ: ٢١-٢٧.

(٢) سورة يونس: ٧-٨.

(٣) سورة يونس: ١١.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾(١) .

وهكذا تتجلى لنا أهمية ذكر القرآن الكريم حرص الكافرين على الحياة الدنيا بصور متنوعة: من الفرح بالحياة الدنيا، وإيثارها على الآخرة، والإخلاد إلى الأرض، وأنهم لا يرجون نشوراً ولا حساباً، كما أنهم لا يرجون لقاء الله. ذلك لنكون على بصيرة من أمرنا، فلا نحرص على الحياة الدنيا بصورها المختلفة، ونكره الموت، فيصيبنا الوهن الذي هو حب الدنيا وكراهية الموت. فالمؤمنون قوم يعملون في الدنيا لأجل آخرتهم، فيجاهدون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، لينالوا الفوز العظيم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٢) .

وسائل الكافرين في حرصهم على الحياة الدنيا:

لقد اتخذ الكافرون في حرصهم على الحياة الدنيا وسائل متنوعة يسيطرون بها على الحياة الدنيا، غير أن هذه الوسائل التي يتخذها هؤلاء الكافرون على الحياة الدنيا تغدو هي نفسها وسيلة شقائهم في هذه الحياة، بدلاً من أن تكون وسيلة من وسائل سعادتهم فيها. فمن هذه الوسائل ما يلي:

---

(١) سورة الفرقان: ٢١.

(٢) سورة التوبة: ١١١.

(١) جمع الأموال والاستكثار منها:

قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾(١).

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن الكافر الهماز العياب الذي له سخط وعذاب من الله، بأنه اتخذ المال وسيلة لحرصه على الحياة الدنيا، وذلك بجمعه للمال وتعديده مرة بعد أخرى، شغفًا به وتلذذًا بإحصائه والاستكثار منه، لأنه يرى أن لا عزة إلا به، ولا شرف بغيره، فهو كلما نظر إلى كثرة ما عنده ظن أنه بذلك قد ارتفعت مكانته، وهزأ بكل ذي فضل ومزية دونه.

يظن هذا الكافر الهماز العياب أن ما عنده من المال قد ضمن له الخلود في الدنيا وأعطاه الأمان من الموت، فهو لذلك يعمل عمل من يظن أنه باق حيّاً أبد الدهر، ولا يعود إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من الأعمال السيئة(٢).

ولهذا يحب الكافرون المال حبّاً كثيرًا طاغيًا، لا يستبقي في نفوسهم أريحة ولا مكرمة مع المحتاجين إلى الإكرام والطعام. قال تعالى: ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾(٣).

(٢) اتخاذ المصانع (وهي البروج المشيدة والبنيان المخلدة أو المآخذ للماء):

---

(١) سورة الهمزة: ١ ـ ٣.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ٢٣٨، وتفسير الطبري ١٢/ ٦٨٨، والتفسير الكبير ٣٢/ ٨٨.

(٣) سورة الفجر: ١٧ ـ ٢٠.

ومن وسائل الكافرين في حرصهم على الحياة الدنيا أنهم يتخذون المصانع لنحت الجبال وبناء القصور، وتشييد العلاقات على المرتفعات، وبناء المآخذ للماء، فهم يصنعون ذلك ظانين أن هذه المصانع وما ينشئونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت، وخلودهم في الدنيا.

قال تعالى: ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** ﴾[١].

هذه الآية تتحدث عن قوم عاد، حيث إنهم كانوا قد بلغوا مبلغًا عظيمًا من البأس وعظم السلطان و التغلب على البلاد. . فطال عليهم الأمد، وتفننوا في إرضاء الهوى، وأقبلوا على الملذات واشتد الغرور بأنفسهم فأضاعوا الجانب الأهم للإنسان وهو جانب الدين، وأهملوا أن يقصدوا من أعمالهم المقاصد النافعة ونية إرضاء الله على أعمالهم لحب الرئاسة والسمعة.

فمن سابق أعمال عاد أنهم كانوا بنوا في طرق أسفارهم أعلامًا ومنارات تدل على الطريق كيلا يضل السائرون، واحتفروا وشيدوا مصانع للمياه، تجمع ماء المطر في الشتاء ليشرب منها المسافرون، وينتفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا حصونًا وقصورًا على أشراف من الأرض.

وذلك من الأعمال النافعة في ذاتها، ولكنه إذا أهمل إرضاء الله تعالى

(١) سورة الشعراء: ١٢٨-١٢٩.

بها، واتُّخذت للرياء والغرور بالعظمة، وكانوا معرضين عن التوحيد وعن عبادة الله، انقلبت عظمة دنيوية محضة، وصار ذلك كله مذمومًا، لدلالته على الأمل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر، وكانوا بذلك في الإعراض عن الآخرة، والاقتصار على التزود للحياة الدنيا بمنزلة من يحسبون أنفسهم خالدين في الدنيا[1]. فهم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحد منهم ولو كانوا في حصينة عالية رفيعة، قال تعالى: ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾[2].

(٣) اشتراء الحياة الدنيا بالآخرة:

إن الكافرين قوم يحلون كل شيء لتحقيق أغراضهم وشهواتهم، فهم لشدة حرصهم على الحياة الدنيا يشترون الحظ الدنيوي السخيف بالدين. قال تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾[3].

«وقصة شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة هنا في هذه المناسبة: هي أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين في حلف يقتضي مخالفة دينهم وكتابهم. فإن انقسامهم فريقين وانضمامهم إلى حلفين، هي هي خطة إسرائيل التقليدية، في إمساك العصا من الوسط، والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط، لتحقيق المغانم

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير ١٩/ ١٦٥، والتفسير الكبير ٢٤/ ١٣٥، وتفسير الطبري ٩/ ٤٦١-٤٦٢.
(٢) سورة النساء: ٧٨.
(٣) سورة البقرة: ٨٦.

على أية حال، وضمان صوالح اليهود في النهاية سواء انتصر هذا المعسكر أم ذاك! وهي خطة من لا يثق بالله ولا يستمسك بميثاقه»[(١)] .

ولهذا أمر الله عز وجل المؤمنين أن يقاتلوا في سبيل الله الكافرين الذين يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا، فقال تعالى: ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾[(٢)] .

وقد وبخ الله عز وجل وهدّد الذين كفروا من أهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد - ﷺ -، وأن ينوهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا بذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم.

قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** ﴾[(٣)] .

وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم. فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئًا، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي - ﷺ - أنه قال: «**من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة**

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٨٨.

(٢) سورة النساء: ٧٤.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٧.

بلجام من نار»[١] .

(٤) البخل[٢] :

ومن وسائل الكافرين في حرصهم على الدنيا البخل بما آتاهم الله من فضله، ذلك لأن الكافرين قوم يحبون المال حباً جماً، ويحسبون أنه أخلدهم في هذه الحياة.

إن النفس البشرية ضعيفة شحيحة، إلا من عصم الله، ولا تطهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان، وترتفع على ضرورات الأرض، وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب والمتاع القليل، لأنها تؤمل في خلف أعظم، وتؤمل في رضوان من الله أكبر. والكافر يخشى الفقر بسبب الإنفاق، والخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل، ثم يبقى سجين شحه وبخله وخوفه بلا أمن ولا قرار. وقد تجلى هذا النموذج في المنافقين الذين بخلوا بما آتاهم الله من فضله، فقال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٧٥.
والحديث رواه أحمد ٢/ ٢٦٣. قال أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح (المسند للإمام أحمد تحقيق أحمد محمد شاكر ١٤/ ٥). ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ١٠١، وقال: هذا الحديث تداوله الناس بأسانيد كثيرة تجمع ويذاكر بها، وهذا الإسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ورواه البغوي في شرح السنة، باب وعيد من كتم علماً يعلمه، رقم الحديث: ١٤٠، وقال محققا هذا الحديث زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط: حديث صحيح (شرح السنة ١/ ٣٠١).

(٢) البخل: إمساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه، ويقابله الجود. والبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل (بصائر ذوي التمييز ٢/ ٢٢٧).

(٣) سورة التوبة: ٧٥ - ٧٧.

قال ابن كثير: «ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه، لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقًا سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة. عياذًا بالله من ذلك»(١).

فالبخل ليس خيراً لأصحابه، بل هو شر لهم. وقد حسب البخلاء أن في البخل خيراً لهم، لما في بقاء المال في أيديهم من الانتفاع به في التمتع باللذات، وقضاء الحاجات، ودفع الغوائل والآفات. ولهذا توعد الله لهم بأن يجعل ما بخلوا به من المال طوقًا في أعناقهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾(٢).

روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثّل له ماله شُجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، يأخذه بلهزمتيه ـ يعني: بشدقيه ـ يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا** هذه الآية: ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾(٣) إلى آخر الآية»(٤).

كما توعد الله عز وجل في موضع آخر بأن هيأ لهم بكبرهم وبخلهم وعدم

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٢٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٠.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾، رقم الحديث: ٤٥٦٥، فتح الباري ٨/ ٧٨.

شكرهم عذابًا يهينهم ويذلهم، فهو عذاب جامع بين الألم والإهانة، جزاء لهم على ما اقترفوا.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾[٢].

ولخطورة البخل وسوء عاقبة صاحبه استعاذ منه رسول الله ـ ﷺ ـ بالله عز وجل. فقد ورد في الحديث الذي رواه البخاري عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يدعو: «**أعوذ بك من البخل، والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات**»[٣].

كما أنه ـ ﷺ ـ حذر أمته من الشح فإنه أهلك الأمم الماضية في الدنيا والآخرة ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»[٤].

---

(١) سورة النساء: ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) سورة الحديد: ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾، رقم الحديث: ٤٧٠٧، فتح الباري ٨/ ٢٣٩.

(٤) صحيح مسلم كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم الحديث: ٥٦ (٢٥٧٨) بشرح النووي ١٦/ ١٣٤.

(٥) التخلف عن القتال في سبيل الله :

إن الكافرين قوم حريصون على حياة، فاتخذوا البقاء في البيت وسيلة لذلك الحرص، ظانين بأن البقاء في البيت للتخلف عن القتال أو السفر يسلمهم من الموت، وقد غفلوا عن أن الآجال محدودة، و الأعمار موقوتة بوقت لا تعدوه ،فهم لا يحيطون علمًا بأسباب الموت، ولا يقدرون على اجتناب كل ما يعلمون من أسبابه، فالذين يعرّضون أنفسهم لنار الحرب قد يسلم أكثرهم ويقتل أقلهم. ولعل من أبرز هذا النموذج ما فعله المنافقون في حرصهم على حياة، وتخلفهم عن القتال.

قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَان فَبِإِذْن اللَّه وَلِيَعْلَم الْمُؤْمنينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذين نَافَقُوا وَقيلَ لَهُم تَعَالَوْا قَاتلُوا في سَبِيلِ اللَّه أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ للْكُفْرِ يومئذ أَقْرَبُ منْهُمْ للإِيمَان يَقُولُونَ بِأَفْوَاههم مَّا لَيْس في قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بمَا يكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذين قَالُوا لإِخْوَانهمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتلُوا قُلْ فَادْرءُوا عَنْ أَنفُسكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادقينَ** ﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿ **يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا منَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ في بُيُوتكُمْ لَبَرَزَ الَّذين كُتبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجعهمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا في صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا في قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾(٢) .

ولهذا نهى الله عز وجل عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب:

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٦-١٦٨ .

(٢) سورة آل عمران: ١٥٤ .

لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم .

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾[١] .

وعبر عن هؤلاء المنافقين بالكافرين ، لبيان أن مثل هذا القول لا ينبغي أن يصدر من المؤمنين ، بل إنما يصدر من الكافرين . ثم إن هذا القول ليكشف عن الفارق الأساسي في تصور صاحب العقيدة وتصور المحروم منها ، للسنن التي تسير عليها الحياة كلها وأحداثها : سراؤها وضراؤها . . إن صاحب العقيدة مدرك لسنن الله ، متعرف إلى مشيئة الله ، مطمئن إلى قدر الله . إنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه[٢] .

ولما نهى الله المؤمنين عن مشابهة الكافرين في اعتقادهم الفاسد ، بشّرهم في موضع آخر بأن ما ينتظره المؤمنون المقاتلون في سبيل الله من المغفرة التي تمحو ما كان من ذنوبهم ، والرحمة التي ترفع درجاتهم ، خير لهم مما يجمع أولئك الكافرون الحريصون على حياة .

قال تعالى : ﴿ **وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ**

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٦ .

(٢) انظر : تفسير المراغي ض٢/ ١٠٨ ، وتفسير أبي السعود ٢/ ١٠٣ وفي ظلال القرآن ١/ ٤٩٨ .

مِمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾[١] .

وهكذا يتجلى لنا حرص الكافرين على الحياة الدنيا، واتخاذهم الوسائل المختلفة في ذلك. ذلك أنهم ـ يظنون ـ بالأموال وما يتعلق بها من اشتراء الحياة الدنيا بالآخرة، والبخل بما آتاهم الله، يستطيعون أن يشتروا وسائل القوة في هذه الحياة، ويشتروا الأتباع الذين يساعدونهم في الحصول على وسائل القوة والسيطرة على هذه الحياة الدنيا، أو لتأمينها على الأقل. كما أنهم باتخاذهم المصانع لبناء القصور، وتشييد العلامات على المرتفعات، وبناء المآخذ للماء، وباختيارهم البقاء في البيت للتخلف عن القتال.. كل هذه ـ في ظنهم ـ كافية لحمايتهم من الموت، وخلودهم في الدنيا.

غير أن هذه الوسائل التي يتخذها هؤلاء الكافرون للسيطرة على الحياة الدنيا، والحرص عليها تغدو هي نفسها وسيلة شقائهم في هذه الحياة.

ويتحول المجتمع إلى غابة، يأكل قويها ضعيفها، وتصيب الآفة جميع من يعيشون فيها، فيحس الجميع بأنهم يعيشون في نار تحرقهم، ليست إلا نذيراً بنار الآخرة التي تنتظرهم. قال تعالى: **﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾**[٢] .

وقال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا**

---

(١) سورة آل عمران: ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٢) سورة الإسراء: ٧٢ .

يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [1] .

* * *

(١) سورة التوبة : ٣٤ـ٣٥ .

المبحث الخامس
عداوة الكافرين للمسلمين في الحياة الدنيا ووسائلهم في ذلك

إن الذي يتدبر القرآن الكريم يجد فيه أن موقف الكافرين من المسلمين هو موقف كراهية وعداء، وإرادة تكفير ومحاولات تضليل، ويرافق ذلك حقد وتغيظ كلما رأوا المسلمين أصابهم خير، ومع الكراهية والعداء والحقد والتغيظ تأتي مكايدهم الظاهرة والخفية، وألوان حروبهم الساخنة والباردة، المادية والمعنوية.

وقد تحدث القرآن الكريم عن كل ذلك، وحذرنا من الركون إليهم، ومن الانزلاق في مزالقهم، والوقوع في حبالهم، والاستجابة لوساوسهم ودسائسهم التي يقدمونها لنا على صفة نصائح، لنعرف خصومنا وأعداءنا، فنكون على حذر من مكائدهم ودسائسهم، فمن تلك البيانات القرآنية:

١ - قوله تعالى: ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾[١].

فهذه الآية تبين لنا شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين

---

(١) سورة البقرة: ١٠٥.

حـــذر الله عز وجل من مشابتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبينهم، فهم يضمرون للمؤمنين الحقد والحسد، ولايودون لهم خيراً، سواء أكان خيراً ماديًا أو خيراً معنويًا. وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين. هو أن يختارهم الله لهذا الخير وينزل عليهم هذا القرآن، ويحبوهم بهذه النعمة، ويعهد إليهم بأمانة العقيدة في الأرض، وهي الأمانة الكبرى في هذه الحياة[1].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[2].

ففي هذه الآيات يكشف الله عدداً من العناصر التي تشتمل عليها عداوة الكافرين للمسلمين، بعد أن ينهى الله المؤمنين عن أن يتخذوا أصدقاء وخواص ومستشارين من دونهم، وهي:

أ ـ إن الكافرين لايقصرون في إضرار المسلمين وإفساد أمورهم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ب ـ إنهم يتمنون إلحاق الضرر والمشقة والهلاك بالمسلمين في دينهم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ١٣٢، وفي ظلال القرآن ١/ ١٠١.

(٢) سورة آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠.

ودنياهم، وهذا غاية العداء.

ج ـ يظهرون للمسلمين العداوة والبغضاء أثناء الكلام، ويكذبون كتابهم ونبيهم.

د ـ ما تخفي صدورهم من الحسد والحقد والبغضاء للإسلام وأهله أشد وأكبر مما يظهرون.

هـ ـ هذا الموقف العدائي من الكافرين للمسلمين يلازمه طبعًا أن يسوأهم ما يسر المسلمين، وأن يسرهم ما يسوء المسلمين.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾[١].

إن الكافرين لايناهضون الحجة بالحجة، و لايقرعون الدليل بالدليل، إنما هم يلجأون إلى العنف والبطش عندما تعوزهم الحجة ويخذلهم الدليل. وذلك شأن الطغاة دائمًا، يشتجر في نفوسهم العتو، وتهيج فيهم روح البطش، ولايستمعون إلى كلمة الحق، لأنهم يدركون أن ليس لهم ما يدفعون به هذه الكلمة إلا العنف الغليظ.

فالحذر منهم يجب أن يكون حذرًا بالغًا، حتى لايسقط المؤمنون في مكيدة من مكائدهم، وحتى لا يقعوا فريسة سطو مفاجئ منهم[٢].

---

(١) سورة الحج: ٧٢.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٤٣، وصراع مع الملاحدة لعبد الرحمن حبنكة الميداني ص: ٤٠٠.

اليهود أشد عداوة للمسلمين:

قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[1].

ذكر الله سبحانه في هذه الآية أن اليهود في غاية العداوة مع المسلمين، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة، فقد ألّف بين اليهود والمشركين بُغْضُ الإسلام؛ فاليهود للحسد على مجيء النبوة من غيرهم، والمشركون للحسد على أنْ سبقهم المسلمون بالاهتداء إلى الدين الحق ونبذ الباطل، بل نبّه تعالى على أنهم أشد في العداوة من المشركين من جهة أنه قدم ذكرهم على ذكر المشركين.

وما ذاك إلا لأن كفر اليهود عناد وجحود ومباهتة للحق وغمط للناس وتنقص بجملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هَمُّوا بقتل رسول الله - ﷺ - غير مرة وسموه وسحروه وألّبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة[2].

ولما غلبهم الإسلام بقوة الحق - يوم أن كان الناس مسلمين - استداروا يكيدون له بدس المفتريات في كتبه - لم يسلم من هذا الدس إلا كتاب الله الذي تكفل بحفظه سبحانه -، ويكيدون له بالدس بين صفوف المسلمين. . ، ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في أنحاء الأرض. . حتى انتهى بهم المطاف

(١) سورة المائدة: ٨٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٧٦، والتفسير الكبير ١٢/ ٥٥، وتفسير التحرير والتنوير ٧/ ٦، وتفسير القاسمي ٦/ ٣٣٢-٣٣٣.

أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام في كل شبر على وجه الأرض، وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة، وهم الذين يقيمون الأوضاع ويصنعون الأبطال الذين يتسمون بأسماء المسلمين، ويشنونها حربًا صليبية صهيونية على كل جذر من جذور هذا الدين![1].

وسائل الكافرين في عداوتهم للمسلمين:

إن عداوة الكافرين للمسلمين تنطلق من أنهم كفروا بما جاء المسلمين من الحق، فهم يخالفون لهم في أصل العقيدة، والخلاف في العقيدة يمثل تباينًا جذريًا بين المتخالفين، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ...**﴾[2]، فهم بذلك يتخذون الوسائل المختلفة في تحقيق عداوتهم للمسلمين، ومن هذه الوسائل:

١ ـ إخراج الرسل والذين آمنوا معهم من ديارهم:

ذكر القرآن الكريم في غير موضع من آياته البينات أن الكافرين في عداوتهم للمسلمين يتخذون وسيلة خبيثة وقاسية؛ وهي إخراج الرسل والذين آمنوا معهم من ديارهم، ونفيهم من بين أظهرهم. فمن تلك البيانات القرآنية:

---

(١) في ظلال القرآن ـ باختصار ـ ٢/ ٩٦١.

(٢) سورة الممتحنة: ١.

ـ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾[١] .

ـ وقوله تعالى في قول قوم شعيب له وللذين آمنوا معه: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾[٢] .

ـ وقوله تعالى في قوم لوط: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[٣] .

ـ وقوله تعالى مخبراً عن مشركي قريش: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[٤] .

ـ وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[٥] .

لقد أخرج مشركو قريش الرسول ـ ﷺ ـ والمسلمين فعلاً من ديارهم وأموالهم في مكة، ويخرجون كل مؤمن، لأنهم وجدوه قد آمن بالله ربه، فنقموا عليه ذلك، واعتبروا المسلمين أعداء للخلاف الاعتقادي الذي خالفوهم فيه منذ آمنوا بالله ربهم وكفروا بآلهتهم وعقائدهم الباطلة.

---

(١) سورة إبراهيم: ١٣ .

(٢) سورة الأعراف: ٨٨ .

(٣) سورة النمل: ٥٦ .

(٤) سورة الإسراء: ٧٦ .

(٥) سورة الأنفال: ٣٠ .

«وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارًا وأعوانًا وجندًا يقاتلون في سبيل الله تعالى، ولم يزل يرقيه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكن له فيها، وأرغم أنوف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان، و لهذا قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ** ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾[2] »[3] .

وبما سبق من إخراج الكافرين الرسل والذين آمنوا معهم من ديارهم تتجلى لنا حقيقة المعركة وطبيعتها بين المؤمنين والكافرين. . إن الكافرين لايرضون من المؤمنين أن يكون لهم كيان مستقل عنهم، ولايطيقون أن يكون لهم وجود خارج عن وجودهم. فالمسلمون لابد أن يبدوا في صورة تَجَمّعٍ حركي مستقل بقيادةمستقلة وولاء مستقل، وهذا ما لايطيقه الكافرون. لذلك لايطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم، ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم، وأن يندمجوا في تجمعهم الجاهلي، وأن يذوبوا في مجتمعهم فلايبقى لهم كيان مستقل. وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين لأهله،

---

(١) سورة إبراهيم: ١٣ ـ ١٤ .

(٢) سورة الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٥٤ .

وما يرفضه الرسل من ثم ويأبونه، فما ينبغي لمسلم أن يندمج في التجمع الجاهلي مرة أخرى. .»[١].

ومن جهة أخرى، فقد جرت سنة الله في الذين كفروا برسله وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم أن يأتيهم العذاب، قال تعالى: ﴿ **سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا** ﴾[٢]، ولولا أنه ـ ﷺ ـ رسول الرحمة لجاءهم من النقم ما لاقبل لهم به، ومن ثم قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾[٣].

٢ ـ تحويل المسلمين من الإيمان إلى الكفر:

ومن أبرز وسائل الكافرين في عداوتهم للمسلمين حرصهم على تحويل المسلمين من الإيمان إلى الكفر. فالكافرون ـ بأصنافهم المختلفة ـ لايريدون وجود المسلمين في الأرض. ولابد لهم من عمل وسعي، ولابد لهم من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر ليكونوا كلهم سواء.

وبهذا يفرح الكافرون، لأن المسلمين حين عودتهم إلى الكفر يكونون خاسرين في الدنيا والآخرة. أما خسران الدنيا فبخضوعهم لسلطان الكافرين وذلتهم بينهم وحرمانهم من السعادة والملك والتمكين في الأرض كما وعد الله المؤمنين الصادقين، قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي**

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٩٢ .

(٢) سورة الإسراء: ٧٧ .

(٣) سورة الأنفال: ٣٣.

ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(١) .

وأما خسران الآخرة فبما يصيبهم من العذاب الأبدي في النار، قال تعالى: ﴿ **اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾(٢) .

وقد بين القرآن الكريم ذلك الحرص الخبيث في أكثر من موضع، لنكون على حذر من الوقوع في كيد الكافرين، فمن تلك البيانات القرآنية:

- قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ** ﴾(٣) .

- وقوله تعالى في تحذير عباده المؤمنين عن كيد الكفار من أهل الكتاب: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾(٤) .

- وقوله تعالى في المنافقين: ﴿ **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً**

---

(١) سورة النور: ٥٥ .

(٢) سورة البقرة: ٢١٧ .

(٣) سورة آل عمران: ١٤٩ .

(٤) سورة البقرة: ١٠٩ .

فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾[١] .

وهكذا يحرص الكافرون ـ بأصنافهم المتنوعة ـ أشد الحرص على تحويل المؤمنين من الإيمان إلى الكفر، وأن ذلك وسيلة من وسائل عداوتهم للمسلمين، ومظهر من مظاهرها، ويبدو أن رغبتهم هذه تعبر عن نفسها بمحاولات كثيرة يتخذونها لإفساد أحوال المسلمين وإخراجهم من الإيمان إلى الكفر.

فالكافرون لايقفون عند حدود الرغبة بتكفير المؤمنين، بل يدعونهم لاتباع سبيلهم، ويزينون لهم هذه الدعوة، ويزعمون لهم أنهم يحملون عنهم آثامهم، إن كان في الكفر وفي اتباع سبيلهم آثام.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[٢] .

صورة مكيدة الكافرين في تحويل المسلمين من الإيمان إلى الكفر:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٣] .

---

(١) سورة النساء: ٨٩ .

(٢) سورة العنكبوت: ١٢ ـ ١٣ .

(٣) سورة آل عمران: ٧٢ .

هذه الآية تبين لنا مكيدة أرادها اليهود، ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم شاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، إذ ليس من المعقول أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ويرجع عنه بلا سبب(١).

ولقد يئس أعداء المسلمين أن تنطلي اليوم هذه الخدعة، فلجأت القوى المناهضة للإسلام في العالم إلى طرق شتى، كلها تقوم على تلك الخدعة القديمة.

إن لهذه القوى اليوم في أنحاء العالم الإسلامي جيشًا جرارًا من العملاء في صورة أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين ـ وأحيانًا كتّاب وشعراء وفنانين وصحفيين ـ يحملون أسماء المسلمين، لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة.. !

هذا الجيش من العملاء موجّه لخلخلة العقيدة في النفوس بشتى الأساليب..، وهم بعد مسلمون! أليسوا يحملون أسماء المسلمين؟ وهم بهذه الأسماء المسلمة يعلنون الإسلام وجه النهار، وبهذه المحاولات المجرحة يكفرون آخره.. ويؤدون بهذه وتلك دور أهل الكتاب القديم، لا يتغير إلا الشكل والإطار في ذلك الدور القديم(٢).

ولرد هذه المكيدة الخبيثة فقد وجه الله عز وجل نبيه ـ ﷺ ـ أن يعلن أن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣٢١، وتفسير الطبري ٣/ ٣٠٩ ـ ٣١٠، وتفسير البغوي ٢/ ٥٣ ـ ٥٤، وتفسير المراغي ١/ ١٨٥.

(٢) في ظلال القرآن ـ باختصار ـ ١/ ٤١٥.

الهدى هو وحده هدى الله ؛ وأن من لايفيء إليه لن يجد الهدى أبدًا، فكيدهم لايضير من أراد الله به الخير، بل يحبط تدبيرهم له. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ﴾(١)

وبهذا يتجلى لنا أن الكافرين ـ قديمًا وحديثًا ـ لاينتهون من مكيدتهم ومكرهم في تحويل المسلمين من الإيمان إلى الكفر تحقيقًا لعداوتهم لهم، بل يمكرون بضعفاء الناس ليلاً ونهارًا، ويغرونهم ويمنونهم ويخبرونهم أنهم على هدى، وأنهم على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

٣ ـ القتال:

ومن وسائل الكافرين في عداوتهم للمسلمين القتال، فهم يصرون على الشر، وعلى فتنة المسلمين عن دينهم، بحيث إن قتال المسلمين هو الهدف الثابت المستقر للكافرين. وهو الهدف الذي لايتغير لأعداء المسلمين في كل مكان وفي كل زمان.

إن وجود المسلمين في الأرض هو بذاته غيظ ورعب للكافرين. فالمسلمون بإسلامهم يملكون القوة والعزة بحيث يخشاهم كل مبطل، ويرهبهم كل باغ، ويكرههم كل مفسد. إن وجود المسلمين بهذا كله حرب

---

(١) سورة آل عمران: ٧٣.
(٢) سورة سبأ: ٣٣.

على الباطل والبغي والفساد. ومن ثم لا يطيقهم المبطلون البغاة المفسدون. ومن ثم يرصدون للمسلمين ليفتنوهم عن الإسلام، ويردوهم كفاراً في صورة من صور الكفر الكثيرة. ذلك أن الكافرين لايأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم، وفي الأرض مسلمون يؤمنون بدين الله المتين.

وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الكافرين للمسلمين وأدواته، ولكن الهدف يظل ثابتًا مستقراً.. أن يردوا المسلمين عن دينهم إن استطاعوا.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾(١).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ دلالة على استبعاد لاستطاعتهم، وشك في حصولها، وتنبيه إلى سخف عقولهم، وكون فعلهم هذا عبثًا لايوصل إلى غرض؛ لقوة إيمان المسلمين، لأن من عرف الإسلام معرفة صحيحة لايرجع عنه إلى الكفر(٢).

ومما سبق نستطيع أن نلخص عداوة الكافرين للمسلمين بالأمور التالية:

١ ـ ما يود الذين كفروا أن ينزّل على المؤمنين أي خير من ربهم، وهذا العداء يرجع إلى جذور قائمة على الأنانية والحسد.

٢ ـ لايقصر الكافرون في إفساد أحوال المؤمنين وتدبير المكايد ضدهم.

٣ـ يود الكافرون للمؤمنين كل عنت ومشقة وشدة وضيق وضرر.

---

(١) سورة البقرة: ٢١٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير ٦/ ٣١، وتفسير المراغي ١/ ١٣٦، وتفسير التحرير والتنوير ٢/ ٣٣١، وتفسير القاسمي ٣/ ٢٠٨

٤ ـ الكافرون يبغضون المؤمنين بغضًا شديدًا يطفح على تصرفاتهم، حتى تبدو البغضاء من أفواههم، وأنّ ما تخفي صدورهم أشد.

٥ ـ قد يداهن الكافرون في الظاهر بمقتضى نفاقهم، ولكنهم إذا خلوا عضّوا على المؤمنين الأنامل من الغيظ.

٦ ـ من عداوة الكافرين للمؤمنين أنهم يحزنون إذا مست المؤمنين حسنة، ويفرحون إذا أصابت المؤمنين سيئة.

٧ ـ ملامح إرادة الشر بالمؤمنين تظهر على وجوه الكافرين، فيعرف أهل الفراسة في الذين آمنوا بإيمانهم، وبالدعوة إلى ربهم.

٨ ـ سبب عدائهم الرئيسي للمؤمنين أنهم مخالفون لهم في أصل العقيدة.

٩ ـ لعدائهم للمسلمين وسائل كثيرة، منها:

ـ إخراج المسلمين من ديارهم، ونفيهم من بين أظهرهم. وبذلك تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإيمان والكفر.

ـ تحويل المسلمين من الإيمان إلى الكفر، فيكونون سواء معهم عقيدة وسلوكًا. وهذه غاية رغبتهم.

ـ قتال المسلمين بكل وسائلهم المختلفة، وذلك لأن وجود المسلمين في هذه الأرض هو بذاته غيظ ورعب للكافرين، فهم لايأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم.

* * *

المبحث السادس
تعذيب الكافرين في الحياة الدنيا

للكافرين في الحياة الدنيا ألوان كثيرة من العذاب، يعذبهم الله بها جزاء كفرهم. فمنها ما يصيبهم من القلق المضطرب المتمزق، المملوء بالهموم والأكدار. ومنها ما يشتمل على وعيد الكافرين بأنواع العذاب المعجلة، وهذا الوعيد قد يكون وعيداً جازمًا مقطوعًا به، وقد يكون تهديداً صريحًا. ومنها ما يشتمل على وعد المؤمنين الصادقين بالظفر والنصر والتأييد ضد أعدائهم، وهذا لون من ألوان تعذيبهم، لأنه يتضمن وعيداً للكافرين بأن الله عز وجل سيخذلهم ويذلهم ويخزيهم وينصر المؤمنين عليهم.

وقد صرح الله عز وجل بأن من كفر، فكفره يكون عليه ضرراً وأذى، ولايكون لمصلحته بحال من الأحوال، لافي الحياة الدنيا ولا في الآخرة، وأن الكافرين إن أصابتهم قارعة في الحياة الدنيا، أو حلت قريبًا من دارهم فهو الرعب والقلق. وإلا فجفاف القلب من بشاشة الإيمان عذاب، وحيرة القلب بلا طمأنينة الإيمان عذاب. ومواجهة كل حادث بلا إدراك للحكمة الكبرى وراء الأحداث عذاب.

إذًا، كما أن الإيمان هو النعمة الكبرى، فالكفر هو العذاب الذي يملأ

صدور الكافرين ضيقًا وحرجًا، وهمّاً وحزنًا.

قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا** ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ **لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ** ﴾[2].

أنواع التعذيب:

إن الكفر خطر وعذاب، فالكافرون بكفرهم يلاحقهم الخطر والضرر والأذى و الخسار حيثما توجهوا. ذلك الخسران يفوق جميع أنواع الخسران في هذه الحياة. ولخطورة الكفر في هذه الحياة الدنيا فقد ذكر الله عز وجل أنواعًا كثيرة من تعذيب الكافرين يعذبهم بها، حتى يكون الإنسان على حذر من هذه الجريمة الكبرى في هذه الحياة، فمنها:

(١) التعذيب بالضيق والحرج في صدورهم:

ورد في القرآن الكريم أن الله عز وجل يعذب الكافرين في الحياة الدنيا بضيق وحرج في صدورهم. قال تعالى: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾[3].

---

(١) سورة فاطر: ٣٩.
(٢) سورة الرعد: ٣٤.
(٣) سورة الأنعام: ١٢٥.

في هذه الآية [1] ذكر الله عز وجل أنه يعذّب الكافر الذي فسدت فطرته بالشرك، ولايرغب في الهدى، بضيق وحرج في صدره، فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة في قبول الهدى، مثله كمثل من يصعد إلى السماء في طبقات الجو العليا حيث يشعر بضيق شديد في التنفس. وهي حالة نفسية تجسم في حالة حسية، من ضيق النفس، وكربة الصدر، والرهق المضني في التصعد إلى السماء.

وكما يجعل الله صدر من أراد إضلاله لفقد استعداده للإيمان ضيقًا حرجًا، لذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصده عن سبيل الحق [2] .

(٢) التعذيب بالخزي والهزيمة أمام المؤمنين:

ومن أنواع تعذيب الكافرين في الحياة الدنيا خزيهم وهزيمتهم أمام جند الله المؤمنين، وإفساد تدبيراتهم ومخططاتهم ومكايدهم التي يدبرونها لمحاربة

---

(١) وهذه الآية ـ أيضًا ـ تقرر أن الارتفاع إلى عنان السماء، يصحبه ضيق الصدر والشعور بالاختناق، بسبب نقص الضغط الجوي، وكميات الأوكسجين التي تستقبلها الرئتان. . وهذه الحقيقة ليس من السهل تقريرها عمليًا إلا إذا صعد الإنسان فعلاً في الجو.
وكان الناس حتى عهد قريب يظنون أن الهواء يمتد بكامل صفاته إلى أعماق الفضاء. وبعد أن طار الإنسان وحلق على ارتفاعات شاهقة عرف أن الصعود قدما في الجو يصحبه حتمًا ضيق الصدر حتى يصل المرء إلى حالة الاختناق غير بعيد عن سطح الأرض، نظرًا لتناقص كثافة الهواء الجوي، وقلة كميات الأوكسجين اللازم للتنفس تناقصًا سريعًا مع الارتفاع.
ومجمل القول أن هذه الآية تتضمن من الحقائق العلمية ما يثبت ـ قطعًا ـ أنها وحي العليم القدير، وأن القرآن الكريم معجزة خالدة في عصر العلم(الإعجاز العلمي في الإسلام، القرآن الكريم، لمحمد كامل عبد الصمد، ص: ٦٦، وانظر: تفسير المراغي٣/ ٢٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري ٥/ ٣٤٠، وتفسير ابن كثير ٢/ ١٥٣، وتفسير المراغي ٣/ ٢٥، وفي ظلال القرآن ٣/ ١٢٠٣ .

جند الله وإطفاء نور الله، وبذلك تتحقق حكمة الله ووعده في نصر أوليائه المؤمنين وهزيمة أعدائه الكافرين.

قال تعالى: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾[١].

في هذه الآية بيان أن المقصود من نصر المؤمنين أن يهلك الله طائفة من الكافرين، ويخزي طائفة أخرى ويغيظهم بالهزيمة، فيرجعوا خائبين لاأمل لهم في نصر. وقد وقع ذلك حيث قطع الله يوم بدر طرفًا من الكفار، وقتل صناديدهم ورؤساءهم وقادتهم في الشر[٢].

وورد في آية أخرى أن الله عز وجل قد أمر المؤمنين بالقتال أمرًا صريحًا مع وعده تعالى لهم بالنصر وإظهارهم على الكافرين. فإن المؤمنين إن فعلوا ذلك يعذب الله الكافرين بأيدي المؤمنين، ويمكنهم من رقاب الكافرين قتلاً، ومن صدورهم ونحورهم طعنًا، ويخزهم بذلّ الأسر والقهر والفقر لمن لم يقتل منهم، وينصر المؤمنين على الكافرين حتى لاتقوم لهم قائمة بعد هذا، ويشف صدورهم مما نالوا منهم من الأذى ولم يكونوا يستطيعون دفعه.

قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٣].

ووسائل هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين الصادقين عليهم كثيرة، وقد ذكر

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٦-١٢٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري٣/ ٤٣٠، وتفسير أبي السعود ٢/ ٨٢، وتفسير المراغي٢/ ٦٠.

(٣) سورة التوبة: ١٤-١٥.

القرآن الكريم هذه الوسائل في أكثر من موضع، فمنها:

١ ـ إلقاء الرعب في قلوبهم:

إن الوعد من الله العلي القدير بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ضمان لهزيمة أعدائه ونصر أوليائه. وهو وعد قائم في كل معركة يلتقي فيها الكفر بالإيمان. فما يلقى الذين كفروا الذين آمنوا حتى يخافوهم، ويتحرك الرعب الملقى من الله في قلوبهم، ولكن المهم أن توجد حقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين.

إنه الرعب لأن قلوبهم خاوية من السند الصحيح، لأنهم لايستندون إلى قوة ولا إلى ذي قوة، إنهم أشركوا بالله آلهة لا سلطان لها، لأن الله لم يمنحها سلطانًا[1] .

قال تعالى: ﴿ **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ** ﴾[2] .

وقال تعالى: ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾[3] .

---

(١) في ظلال القرآن ـ باختصار ـ ١/ ٤٩١ .

(٢) سورة آل عمران: ١٥١ .

(٣) سورة الأنفال: ١٢ ـ ١٣ .

٢ ـ توهين كيدهم :

ومن وسائل هزيمة الكافرين وخذلهم توهين كيدهم ورد مكايدهم إليهم وجعلها في نحورهم. قال تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾[١].

٣ ـ إمداد المؤمنين بالملائكة والأحداث الطبيعية :

ومن وسائل هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين عليهم إمداد المؤمنين ضدهم بالملائكة، وبالأحداث الطبيعية كالرياح والأمطار وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[٣].

وقال عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾[٥].

---

(١) سورة الأنفال : ١٨ .

(٢) سورة الأنفال : ٩ـ١٠ .

(٣) سورة آل عمران : ١٢٥ـ١٢٦ .

(٤) سورة الأحزاب : ٩ .

(٥) سورة الفرقان : ٤٠ .

ولما قــذف الله عـز وجل في قلوب الكافرين الرعـب، وأوهن كيـدهم، وأرسل عليـهم ريحًا وجنودًا، ولّوا مـدبرين لا يجـدون وليّاً يتولى رعايتـهم ويحرسهم، ولا نصيراً يساعدهم، ولذلك خاطب الله عباده المؤمنين مبشراً بنصرهم على الكافرين، فقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً** ﴾[1] .

وقد حذّر الله الكافرين من عقوبة خذلهم ونصر المؤمنين عليهم، بالتلويح مـرة، وبالتـصـريح أخـرى، وبالتطبيق العـملي في مـعـاركـهم ضـد المؤمنين الصادقين.

فـمن صـور التلويح بالتهـديد قوله تعـالى: ﴿ **لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾[2] .

فالكافرون مهما بلغت قوتهم في الأرض لايعجزون المؤمنين الصادقين القـائمين بما أوجب الله عليـهم؛ لأن الله يمد أولياءه بعونه ونصره، ويخذل أعداءه ويخزيهم وما النصر إلا من عند الله، أما في الآخرة فمأوى الكافرين النار دار العذاب، ولبئس هذا المصير مصيرهم.

وقد جاءت هذه الآية طمأنةً وتسليةً للرسول والمؤمنين بوجهها الصريح، واشتملت أيضًا على تلويح تهديدي للـكافرين بموجـب دلالتـهـا المتعلقة بهم، ولو لم يكن الخطاب فيها موجـهًا بصـراحة لهم، لكـن آية أخـرى قد

---

(١) سورة الفتح: ٢٢ .

(٢) سورة النور: ٥٧ .

جاء فيها توجيه الخطاب للكافرين بأنهم غير معجزي الله ، فقال تعالى يخاطب المشركين : ﴿ واعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2] .

وقال تعالى مخبراً عن الكافرين عامة بمثل ذلك : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ ﴾[3] .

ومن جانب آخر فقد أمر الله المؤمنين بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ، لأن الاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد . ومن أجل ذلك أتبع الله الآية السابقة بقوله : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾[4] .

هذا ما يتعلق بتحذير الله الكافرين من عقوبة خذلهم ونصر المؤمنين عليهم ، بالتلويح وبالتصريح . أما تحذيره تعالى الكافرين من تلك العقوبة بالتطبيق العملي في معاركهم ضد المؤمنين الصادقين فهو أكثر من أن يحصى ، ومن ذلك :

---

(١) سورة التوبة : ٢ .

(٢) سورة التوبة : ٣ .

(٣) سورة الأنفال : ٥٩ .

(٤) سورة الأنفال : ٦٠ .

- ما نصر الله رسوله - ﷺ - في هجرته من مكة إلى المدينة، بوسائل خفية غيبية، وأخرى مشهودة ما كان الكافرون ليحسبوا حسابها، وقد تحدث الله عن هذا النصر بقوله: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(1).

- ثم نصر الله الرسول والمؤمنين في غزوة بدر الكبرى على الكافرين، رغم أنهم كانوا قلة أذلة، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾(2).

- وفي غزوة حنين تحولت أول الأمر رياح النصر عن المسلمين، بسبب اغترارهم بكثرتهم واعتمادهم على أنفسهم، ثم نصرهم الله وأيد رسوله والمؤمنين الصادقين، وأنزل جنودًا من عنده، وعذب الذين كفروا، وبيّن الله هذا بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا

(١) سورة التوبة: ٤٠.
(٢) سورة آل عمران: ١٢٣-١٢٦.

وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾[١] .

إن معركة حنين التي يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله، والاعتماد على قوة غير قوته، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية، حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة، إن الكثرة العددية ليست بشيء، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة. وإن الكثرة لتكون أحيانًا سببًا في الهزيمة، لأن بعض الداخلين فيها، التائهين في غمارها، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها، تتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة؛ فيعيشون الاضطراب والهزيمة في الصفوف، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله، انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة[٢] .

- وفي غزوة بني قريظة كان نصر الله للمؤمنين بقذف الرعب في قلوب اليهود، وإنزالهم من حصونهم، واستسلامهم للقتل والأسر، وقد بيّن الله هذا النصر بقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ[٣] وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾[٤] .

وهكذا يتجلى لنا تحذير الله الكافرين من عقوبة خذلهم ونصر المؤمنين

---

(١) سورة التوبة: ٢٥-٢٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦١٨ .

(٣) من صياصيهم: من حصونهم (تفسير الطبري ١٠/ ٢٨٣).

(٤) سورة الأحزاب: ٢٦-٢٧.

عليهم، بالوقائع والأحداث التاريخية التي قد أيدت هذه الحقيقة، فالله قد نصر رسله بالحق على الذين كفروا وظلموا من أقوامهم، ونصر الذين آمنوا وصبروا وصدقوا واستعانوا في كل وقائعهم ضد الذين كفروا، ولم تتحول رياح النصر عن المؤمنين إلا بذنوب قد ارتكبوها، وقد حقق الله بنصره لرسله وللمؤمنين الصابرين الصادقين سنته التي وضعها، وحقق وعده الذي أعلنه بقوله تعالى:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[١].

(٤) التعذيب بالقوارع:

ومن أنواع العذاب الذي ينزله الله بالذين كفروا وأصروا على كفرهم وعنادهم أنواع القوارع والمصائب التي تحل بهم، وقد بيّن الله ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٢].

ففي هذه الآية بيان أنه لايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا من كفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله، وسوء أعمالهم، قارعة داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت، من البلاء والعذاب والنقم، بالقتل أحيانًا، وبالحروب أحيانًا، والقحط أحيانًا، أو تحل القارعةقريبا منهم، فيفزعون ويضطربون

---

(١) سورة غافر: ٥١-٥٢.

(٢) سورة الرعد: ٣١.

ويتطاير إليهم شرارها ويتعدى إليهم شرورها حتى يأتي وعد الله وهو موتهم أو القيامة، وذلك ليتعظوا ويعتبروا كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[2] [3].

(٥) التعذيب بإلقاء العداوة والبغضاء بينهم:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[4].

فإلقاء العداوة والبغضاء بينهم كان عذابًا في الدنيا، ولايزالون كذلك إلى قيام الساعة، ولذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لايزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضًا ويلعن بعضهم بعضًا. سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة، أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية، أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تخمد هذه الحروب والجراحات.. وهي ماضية إلى يوم القيامة، جزاء على نقضهم ميثاقهم، ونسيانهم حظّاً مما ذُكروا به من عهد الله، وأول بند فيه هو بند التوحيد الذي

---

(١) سورة الأحقاف: ٢٧.

(٢) سورة الأنبياء: ٤٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري٧/ ٣٨٩، والتفسير الكبير ١٩/ ٤٣، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٦.

(٤) سورة المائدة: ١٤.

انحرفوا عنه بعد فترة من وفاة المسيح ـ عليه السلام ـ[١] .

(٦) التعذيب بالأموال والأولاد :

إن الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده، حين يوفقه إلى الشكر على النعمة، والإصلاح بها في الأرض، والتوجه بها إلى الله، فإذا هو مطمئن الضمير، ساكن النفس، واثق من المصير .

ولكن الأموال والأولاد بالنسبة للكافرين نقمة يعذبهم الله بها، لأنه يعلم من أمرهم الفساد والدخل، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياتهم جحيمًا، وقد بين سبحانه ذلك بقوله تعالى: ﴿ **فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾[٢] .

فالأموال والأولاد قد تكون سببًا للعذاب في الحياة الدنيا، وذلك من وجوه :

الأول : أن كل من كان حبه للشيء أشد وأوقى كان حزنه وتألم قلبه على فواته أعظم وأصعب، وكان خوفه على فواته أشد وأصعب، فالذين حصلت لهم الأموال الكثيرة والأولاد إن كانت تلك الأشياء باقية عندهم كانوا في ألم الخوف الشديد من فواتها، وإن فاتت وهلكت كانوا في ألم الحزن الشديد بسبب فواتها، وإن فاتت وهلكت كانوا في ألم الحزن الشديد بسبب فواتها .

---

(١) انظر : في ظلال القرآن ٢/ ٨٦٠ ، وتفسير أبي السعود ٢/ ٣١ـ٣٢، وتفسير التحرير والتنوير ٦/ ١٤٩ .

(٢) سورة التوبة : ٥٥ .

الثاني : أن هذه يحتاج في اكتسابها وتحصيلها إلى تعب شديد ومشقة عظيمة، ثم عند حصولها يحتاج إلى متاعب أشد وأشق وأصعب وأعظم في حفظها، فكان حفظ المال بعد حصوله أصعب من اكتسابه، فالمشغوف بالمال والولد أبدًا يكون في تعب الحفظ والصون عن الهلاك.

الثالث : أن الإنسان إذا عظم حبه لهذه الأموال والأولاد، فإما أن تبقى عليه هذه الأموال والأولاد إلى آخرعمره، أولاتبقى، بل تهلك وتبطل. فإن كان الأول، فعند الموت يعظم حزنه وتشتد حسرته، لأن مفارقة المحبوب شديدة، وترك المحبوب أشد وأشق؛ وإن كان الثاني وهو أن هذه الأشياء تهلك وتبطل حال حياة الإنسان عظم أسفه عليها، واشتد تألم قلبه بسببها، فثبت أن حصول الأموال والأولاد سبب لحصول العذاب في الدنيا[1] .

فالكافرون يملكون الأموال ويرزقون الأولاد، يعجب الناس ظاهرها، وهي لهم عذاب على نحو من الأنحاء؛ عذاب في الحياة الدنيا، وهم ـ بما علم الله من دخيلتهم ـ صائرون إلى الهاوية؛ هاوية الموت على الكفر والعياذ بالله من هذا المصير، ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[2] .

(٧) التعذيب بالإهلاك العام والتدمير الشامل:

ويأتي في قمة أنواع العذاب للكافرين في الحياة الدنيا أن يعذبهم الله بالإهلاك العام والتدمير الشامل، لقمع بؤرة الشر التي لم تنفع فيها كل وسائل

---

(١) التفسير الكبير ـ باختصار ـ ١٦/ ٧٥ ، وانظر : تفسير فتح القدير ٢/ ٣٧٠ ، وتفسير المراغي ٤/ ١٣٨ ، وتفسير أبي السعود ٤/ ٧٤ .

(٢) سورة التوبة : ٥٥ .

الإصلاح، وليكون هذا العذاب عبرة لغيرهم، حتى يرتدعوا عن كفرهم وطغيانهم وتماديهم في الفساد، ولينصر الله بذلك رسله والمؤمنين.

ولما اشتد استهزاء الكافرين برسول الله ـ ﷺ ـ خاطبه الله مطمئنا ومسليا له بقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾(١).

لقد قصّ الله عز وجل علينا في القرآن الكريم طائفة من قصص إهلاك الأولين، ليكون ذلك عبرة لأولي الأبصار، وأوضح لنا أن إهلاكهم كان جزاء لهم بسبب كفرهم وتماديهم في الغي والفساد، وانتصاراً لرسله الذين كذبوهم وسخروا منهم وكادوهم كيداً كبيراً.

فمن أمثلة ذلك إهلاك الله أهل سبأ، لقد كان إهلاكهم جزاءً لهم بسبب كفرهم وبغيهم، قال تعالى:

﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾(٢).

---

(١) سورة الرعد: ٣٢.

(٢) سورة سبأ: ١٥-١٩.

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر. . إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم[1] .

ومن صور إهلاك الكافرين الأولين ما قصه الله تعالى من قصة قوم نوح، فقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾[2] .

ونلاحظ في القرآن الكريم تنبيهًا عامًا على الاعتبار بجميع ما أجراه الله في الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ

---

(١) تفسير ابن كثير - باختصار - ٣/ ٤٥٢ - ٤٥٦ .

(٢) سورة القمر: ٩ - ١٦ .

الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(١) .

وبما سبق يتجلى لنا كيف يعذّب الله الكافرين بأنواع من العذاب المعجّل في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر وأشق، وهذا العذاب المعجّل للكافرين ليس عذابًا كاملاً، وإنما هو عذابٌ جزئيٌّ للتذكير والتربية والاعتبار، وهو أيضًا بشرى للمؤمنين وتسلية لهم.

* * *

(١) سورة يوسف: ١٠٩ ـ ١١١.

الفصل الرابع

حياة الكافرين في الآخرة

وتحته مباحث :

المبحث الأول : حياة الكافرين في البرزخ.
المبحث الثاني : حياة الكافرين في منازل يوم القيامة.
المبحث الثالث : حياة الكافرين في النار.

تمهيد

إن الكافرين قوم لا يبصرون أبعد من أنوفهم، ولا يرون شيئًا أهم من هذه الحياة، فليس لهم إلا هذه الدنيا . . لقد زينت لهم حتى أصبحت غاية لهم وهدفًا، لايريدون سواها . . إنها مبلغ علمهم، وأكبر همهم، فجهودهم وتحركاتهم، وإنفاقهم وعلاقاتهم، كلها تدور حول هذه الدنيا القصيرة .

فانطلاقًا من هذا التصور الخاطئ، والغاية الدنيوية، فلا يسعى الكافرون في الحياة الدنيا لآخرتهم، بل هم لايرجون لقاء الله ، لأنهم لايعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم غافلون عن أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة. قال تعالى : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾[1] . فإن الكافر بُشّر بعذاب الله وعقوبته عند موته .

روى البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**» فقلت يا نبي الله ، أكراهية الموت، فكلنا نكره الموت؟ قال : «**ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشّر برحمة الله ورضوانه وجنته، أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه وإن الكافر إذا بشّر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله ، فكره الله**

---

(١) سورة الروم: ٧.

لقاءه»[١].

فالكافرون يكرهون لقاء الله سبحانه، لما علموا من سوء ما ينتقلون إليه، ويكره الله سبحانه لقاءهم، وذلك بأن يبعدهم عن رحمته وكرامته، ولا يريد ذلك بهم[٢].

* * *

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم الحديث: ٦٥٠٧، فتح الباري ١١/ ٣٦٤ـ٣٦٥.
صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء ـ والتوبة والاستغفار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، رقم الحديث: ١٥ (٢٦٨٤)، بشرح النووي ١٧/ ٩.

(٢) انظر: شرح مسلم للنووي ١٧/ ١٠.

المبحث الأول
حياة الكافرين في البرزخ

وردت نصوص كثيرة تدل على أن عذاب القبر حق، وأن عذابه هو عذاب البرزخ، وأن الكافرين في الحياة البرزخية يعذبون حتى يبعثهم الله إليـه يوم القيامة، فمن تلك النصوص القرآنية:

- قوله تعالى: ﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾[1] .

لقـد بيّن لله في هذه الآية أنه وقى مؤمن آل فرعون سيئات ما مكر آل فرعون، ونزل بفرعون وآله سوء العذاب من الله، وجاء تفسير سوء العذاب هذا ببيان عرضهم على النار غدواً وعشيّاً، وهذا العرض على النار واضح أنه يكون في مدة البرزخ بين الموت والبعث، بدليل قول الله تعالى عقب ذلك: ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾[2] .

فدل هذا على أن عرضهم على النار غدواً وعشيّاً يكون قبل قيام الساعة؛ أي: قبل البعث. ثم بعد البعث يحاسبون ويقال لملائكة العذاب: أدخلوا آل

---

(١) سورة غافر: ٤٥-٤٦.

(٢) سورة غافر: ٤٦.

فرعون أشد العذاب[١] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : « وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور ، وهي قوله تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾[٢]»[٣] .

- وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾[٤] .

روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهم قالوا : هذا عذاب القبر[٥] .

- قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٦] . هو عذاب القبر ؛ لأن الله ذكره عقب قوله : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾[٧] ، وهذا اليوم هو اليوم الآخر من أيام

---

(١) انظر : التذكرة للقرطبي ص : ١٥٢ ، وصراع مع الملاحدة لعبد الرحمن الميداني ص : ٤٥٤ ، وزاد المسير في علم التفسير ٧/ ٤٦ ، وتفسير القاسمي ١٤/ ٢٣٩ .

(٢) سورة غافر : ٤٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٧٣ .

(٤) سورة طه : ١٢٤ .

(٥) تفسير الطبري ٨/ ٤٧٢ ، تفسير البغوي ٥/ ٣٠١ ، الدر المنثور ٤/ ٥٥٧ .
وأخرجه الحاكم في المستدرك كتاب الجنائز ١/ ٣٨١ ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

(٦) سورة الطور : ٤٧ .

(٧) سورة الطور : ٤٥ .

الدنيا، فدل على أن العذاب الذي هم فيه هو عذاب القبر[١].

وفي أقوال الرسول ـ ﷺ ـ نصوص كثيرة تثبت ما في هذه الحياة البرزخية من عذاب.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: **«إن أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»**[٢].

وروى البخاري ومسلم أيضًا عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: **«إن العبد إذا وُضع في قبره، وتولى عنه أصحابُه، إنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا، أتاه الملكان، فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل، محمد؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به مقعداً من الجنة.** قال النبي ـ ﷺ ـ: **فيراهما جميعًا»**، قال قتادة: وذُكر لنا أنه يُفسح له في قبره. ثم رجع إلى حديث أنس: **«وأما الكافر** ـ أو المنافق، وفي رواية: وأما الكافر والمنافق ـ **فيقول: لا أدري، كنتُ أقول ما يقوله الناس فيه ـ فيقال: لادريتَ ولا تليتَ، ثم**

---

(١) التذكرة ص: ١٥٢، وانظر: تفسير الطبري١١/ ٤٩٩، وتفسير البغوي٧/ ٣٩٤، الدر المنثور ٦/ ١٥٠، تفسير القاسمي١٥/ ٢١٦.

(٢) صحيح البخاري كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، رقم الحديث١٣٧٩، فتح الباري٣/ ٢٨٦.

صحيح مسلم كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم الحديث: ٦٥(٢٨٦٦)، بشرح النووي ١٧/ ٢٠٠.

يُضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها كل من يليه إلا الثقلين»[١] .

قال النووي : «اعلم أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر ، وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة ، قال الله تعالى : ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا**﴾الآية[٢] ، وتظاهرت به الأحاديث الصحيحة عن النبي - ﷺ - من رواية جماعة من الصحابة في مواطن كثيرة ، ولايمتنع في العقل أن يعيد الله تعالى الحياة في جزء من الجسد ويعذبه ، وإذا لم يمنعه العقل وورد الشرع به وجب قبوله واعتقاده»[٣] .

وقال ابن القيم : «فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التي صارت في هذا الحال ، حتى لو علق الميت على رؤوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه ، ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه ، فيجعل الله النار على هذا برداً وسلاماً ، والهواء على ذلك ناراً وسموماً ، فعناصر العالم وموارده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء ولا يستعصي عليه منها شيء أراده ، بل هي طوع مشيئته ، مذللة منقادة لقدرته ، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين وكفر به ، وأنكر ربوبيته»[٤] .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، رقم الحديث : ١٣٧٤ ، فتح الباري٣/ ٢٧٥ ، صحيح مسلم كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، رقم الحديث : ٧٠(٢٨٧٠)، شرح النووي١٧/ ٢٠٣ .

(٢) سورة غافر : ٤٦ .

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم ١٧/ ٢٠٠-٢٠١ .

(٤) الروح ص : ١٠٣ .

بيان عذاب الكافرين في قبورهم وضيقها عليهم:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾(١) .

قال ابن جرير الطبري - بعد ذكر أقوال المفسرين في هذه الآية -: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هذا عذاب القبر - وذكر حديثًا بسنده - عن أبي هريرة، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «أتدرون فيم أنزلت هذه الآية. ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾(٢) ، أتدرون ما المعيشة الضنك ؟. قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده، إنه ليسلّط عليه تسعة وتسعون تنّينًا، أتدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حيّة، لكل حيّة سبعة رؤوس، ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه(٣) إلى يوم القيامة». وفي بعض المسانيد مرفوعًا: «يلتئم عليه القبر حتى تختلف أضلاعه، فلا يزال يعذب حتى يبعث»(٤) .

وإن الله تبارك وتعالى أتبع ذلك بقوله: ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾(٥)، فكان معلومًا بذلك أن المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة؛

---

(١) سورة طه: ١٢٤ .

(٢) سورة طه: ١٢٤ .

(٣) الخدش: مزق الجلد، قلّ أو كثر (لسان العرب ٦/ ٢٩٢، تاج العروس ٩/ ١٠٢).

(٤) تفسير الطبري ٨/ ٤٧٢، وانظر: المصنف لابن أبي شيبة ٣/ ٣٨٣، وصححه ابن حبان في: ١٩٧ - ١٩٨ من موارد الظمآن، والحاكم في المستدرك ١/ ٣٨٠، وقال الذهبي: تابعه حماد بن سلمة عن محمد بن نحوه على شرط مسلم (ذيل المستدرك ١/ ٣٨١)، وهنّاد في الزهد ١/ ٤٢٠ - ٤٢٢، ٤٤٢ .

(٥) سورة طه: ١٢٧ .

لأن ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله: ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾[١] معنىً مفهومٌ، لأن ذلك إن لم يكن تقدمه عذاب لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشد منه، بطل معنى قوله: ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾[٢]، فإن كان ذلك كذلك فلا تخلو تلك المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم من أن تكون لهم في حياتهم الدنيا، أو في قبورهم قبل البعث، إذ كان لا وجه لأن تكون في الآخرة لما قد بيّنا، فإن كانت لهم في حياتهم الدنيا، فقد يجب أن يكون كل من أعرض عن ذكر الله من الكفار، فإن معيشته فيها ضنك، وفي وجودنا كثيراً منهم أوسع معيشة من كثير من المقبلين على ذكر الله تبارك وتعالى، القائلين له المؤمنين في ذلك، ما يدلّ على أن ذلك ليس كذلك، وإذ خلا القول في ذلك من هذين الوجهين صحّ الوجه الثالث، وهو أن ذلك في البرزخ[٣].

وهكذا يكون الكافرون في الحياة البرزخية يعذبون حتى يبعثهم الله إليه يوم القيامة، مما يدل على أن العذاب للكافرين دائم ديمومة البرزخ.

* * *

(١) سورة طه: ١٢٧.
(٢) سورة طه: ١٢٧.
(٣) تفسير الطبري ٨/ ٤٧٢.

المبحث الثاني
حياة الكافرين في منازل يوم القيامة

وردت نصوص كثيرة تتحدث عن حياة الكافرين في منازل يوم القيامة، وذلك قبل استقرارهم في النار. والذي يتدبر ويتأمل في تلك النصوص يرى الأهوال العظام والمصائب الكبار التي تنزل بالكافرين المجرمين في تلك المنازل العظيمة.

وسنعرض في هذا المبحث بعض المشاهد التي يصفها القرآن الكريم:

١ ـ قال تعالى مبينا حال الكافرين عند خروجهم من القبور: ﴿**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ**﴾[١].

يقوم الكفار من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب ينهضون سراعًا، كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصُب إذا عاينوه يسرعون أيهم يستلمه أول، ولكنهم اليوم لاينطلقون فرحين بَطرين كما كان حالهم عندما كانوا يقصدون النُّصب، بل هم أذلاء، أبصارهم ذَليلة خاضعة، يغشاهم هوان، في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة[٢].

---

(١) سورة المعارج: ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٠، وتفسير البغوي ٨/ ٢٢٦.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ⁽٦⁾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⁽٧⁾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[١].

هذه الآية تنص على ما نصت الآية السابقة من خروجهم من القبور خاشعي الأبصار أذلاء، مسرعين إلى مصدر الصوت الذي يناديهم ويدعوهم، وتزيدنا بيانًا بإعطائنا صورة حية لمشهد البعث والنشور، فحالهم في ذلك اليوم في حركتهم وانطلاقتهم وهم يخرجون مسرعين كحال الجراد المنتشر، ويفيدنا النص أيضًا اعتراف الكفار في ذلك اليوم بصعوبة موقفهم: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[٢]. فماذا بقي من المشهد لم يشخص بعد هذه الفقرات القصار؟ إن السامعين ليتخيلون الآن ذلك اليوم النكر، فإذا هو حشد من الصور؛ صورهم هم ـ وإنهم لمن المبعوثين ـ يتجلى فيها الهول الحي الذي يؤثر في نفس كل حي![٣].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ⁽٥١⁾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[٤].

تفيدنا هذه الآية أن الكافرين ينادون بالويل والهلاك عندما ينفخ في الصور متسائلين عمن بعثهم من قبورهم بعد موتهم؟ وهي قبورهم التي كانوا يعتقدون في الحياة الدنيا أنهم لا يبعثون منها، وظنوا لما شاهدوا من الأهوال

---

(١) سورة القمر: ٦ ـ ٨.
(٢) سورة القمر: ٨.
(٣) انظر: مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب، ص: ٨٢، واليوم الآخر القيامة الكبرى لعمر الأشقر، ص: ١٢٠.
(٤) سورة يس: ٥١ ـ ٥٢.

وما استبد بهم من الفزع أنهم كانوا نائمين. وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد[١] .

٤ ـ وقال تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾[٢] .

هذه الآية ترسم مشهداً للكافرين في زحمة الهول.. فهم يأتون مسرعين إلى الداعي بالذلة والاستكانة كما يسرع الأسير والخائف، رافعين رؤوسهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لايملكون لها حراكًا، ولا يرجع إليهم تحريك أجفانهم كما كانوا يفعلون في الدنيا في كل لحظة، بل تبقى أعينهم مفتوحة لاتطرف من شدة الفزع والخوف. وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا شيء فيها من القوة، مضطربة لكثرة الخوف.

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾[٣] .

فالسرعة المهرولة المدفوعة في الهيئة الشاخصة المكروهة المشدودة، مع القلب المفزع الطائر الخاوي من كل وعي من الإدراك.. كلها تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار[٤] .

٥ ـ وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩٠ .

(٢) سورة إبراهيم: ٤٢ـ٤٣ .

(٣) سورة إبراهيم: ٤٢ـ٤٣ .

(٤) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢١١١ـ٢١١٢، وتفسير المراغي ٥/ ١٦٥ .

الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾[١] .

هذه الآية تبين صورة المجرمين المتمردين على خالقهم وإلههم، المستكبرين عن عبادته وطاعته، فإنه يؤتى بهم إلى ربهم وخالقهم مقرنين في الأصفاد، مسربلين بالقطران تغشى وجوههم النار.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «وتبرز الخلائق لديّانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم (مقرنين) أي: بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ** ﴾[٢]، وقال: ﴿ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ** ﴾[٣]، وقال: ﴿ **وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا** ﴾[٤]، وقال: ﴿ **وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ** ﴾[٥]، والأصفاد هي القيود»[٦] .

٦ ـ قال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ** ﴾[٧] .

في هذه الآية بيان أن الكفار ـ في تلك الساعة التي فيها يفصل الله بين خلقه

---

(١) سورة إبراهيم: ٤٨ ـ ٥٠ .
(٢) سورة الصافات: ٢٢ .
(٣) سورة التكوير: ٧ .
(٤) سورة الفرقان: ١٣ .
(٥) سورة ص: ٣٧ ـ ٣٨ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٠ .
(٧) سورة الروم: ١٢ ـ ١٣ .

بعد نشرهم من قبورهم وحشرهم إلى موقف الحساب - يسكتون وييأسون من رحمة الله؛ إذ لايجدون حجة يدفعون بها عن أنفسهم ما يحل بهم من النكال والوبال. ولم يكن لهم من شركائهم الذين كانوا يتبعونهم على ما دعوهم إليه من الضلالة، شفعاء يستنقذونهم من عذاب الله، بل هم جحدوا ولاية الشركاء وتبرءوا منهم كما قال تعالى: ﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ** ﴾[١] .

وهكذا يكون الكافرون في ذلك اليوم العظيم يصيبهم الهوان والذلة، واليأس والحسرة، ولكثرة حسرة العذاب سمى الله عز وجل ذلك اليوم بيوم الحسرة، قال تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾[٢] .

وحين يرى الكافر العذاب والهوان يتمنى أن ينعدم، ويصير إلى عنصر مهمل زهيد، وهو التراب. ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعيب الشديد، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا** ﴾[٣] .

وقال تعالى: ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ**

---

(١) سورة البقرة: ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) سورة مريم: ٣٩ .

(٣) سورة النبأ: ٤٠ .

الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾[١] .

تخاصم الكافرين في المحشر:

عندما يعاين الكافرون ما أعدّ لهم من عذاب الله، وماهم فيه من أهوال، يمقتون أنفسهم كما يمقتون أحبابهم وخلانهم في الحياة الدنيا، بل تنقلب كل محبة لم تقم على أساس الإيمان والتقوى إلى عداء، قال تعالى: ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾[٢] ، وعند ذلك يخاصم الكافرون بعضهم بعضًا، العابدون المعبودين، والأتباع المتبوعين، والضعفاء المتكبرين، بل يخاصم الكافر أعضاءه.

١ ـ أما مخاصمة العابدين المعبودين:

ففي قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾[٣] .

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن مخاصمة الكافرين آلهتهم، وتبري الآلهة المزعومة من عبادة عابديها، وأنها تكذبهم بأنها لم تكن آلهة، ولا أمرتهم بعبادتها، فينطق الله الآلهة حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكافرين. وقد وردت تلك التبرئة في مواضع كثيرة، منها:

---

(١) سورة النساء: ٤٢ .

(٢) سورة الزخرف: ٦٧ .

(٣) سورة النحل: ٨٦ ـ ٨٧ .

ـ قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾(١) .

ـ وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾(٢) .

ـ وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾(٣) .

وهكذا يتجلى موقف جميع المعبودات، فإنها لم ترض باتخاذها آلهة وتتبرأ من عابديها، وتكذبهم في دعواهم، وتقر بعبوديتها لله رب العالمين.

٢- تخاصم الأتباع الضعفاء مع السادة المستكبرين:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا

---

(١) سورة يونس: ٢٨ ـ ٣٠.

(٢) سورة الأحقاف: ٦.

(٣) سورة مريم: ٨١ ـ ٨٢.

يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

أخبر الله تعالى في هذه الآيات عن حال الكافرين من الذلة والمهانة يوم القيامة، فهم موقوفون عند ربهم، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب، بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء متناصرين.

يكون التخاصم بين الأتباع والسادة المتبوعين شديدًا، فيقول الأتباع للسادة: لولا أنكم أغويتمونا وأضللتمونا لكنا مؤمنين. ويرد السادة المستكبرون على الأتباع الضعفاء بقولهم منكرين اتهامهم: ما رددناكم نحن عن الهدى، ولا أكرهناكم، بعد أن جاءكم من الله، بل كنتم أنتم مشركين مصرين على الكفر.

فأجابهم الأتباع: إن خديعتكم وحيلتكم وعملكم في الليل والنهار هو الذي صدّنا عن الإيمان بالله ورسوله، وهو الذي حملنا على الكفر بدعوتكم المستمرة، وكنتم تأمروننا بالكفر بالله وبأن نجعل له أشباهًا وأمثالاً.

وحين مجيء العذاب وبعد اليأس من التخاصم أضمر الفريقان الندامة، وأخفوها مخافة الشماتة، فكان جزاء الفريقين ـ التابعين والمتبوعين وسائر الكفار جعل أغلال الحديد في أعناقهم في النار جزاء أعمالهم في الدنيا من الكفر بالله.

وفي موضع آخر يذكر الله تعالى تخاصم الأتباع الضعفاء والسادة المستكبرين، فيقول: **﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾**[2] .

---

(١) سورة سبأ: ٣١ـ٣٣.

(٢) سورة إبراهيم: ٢١.

وهكذا لقد حق العذاب على الأتباع الضعفاء والسادة المستكبرين، ولا راد له من صبر أو جزع، وفات الأوان الذي كان الجزع فيه من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى، وكان الصبر فيه على الشدة مجديًا فتدركهم رحمة الله. لقد انتهى كل شيء، ولم يعد هناك مفر ولا محيص: ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ** ﴾[1].

لقد قضي الأمر، وانتهى الجدل، وسكت الحوار.. وهنا نرى على المسرح عجبًا. نرى الشيطان.. هاتف الغواية وحادي الغواة.. نراه الساعة يلبس مسوح الكهان، أومسوح الشيطان! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب:

﴿ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[2] [3].

٣ ـ مخاصمة الكافرين أعضاءهم:

قال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ**

---

(١) سورة إبراهيم: ٢١.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٢.

(٣) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٠٩٧.

مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[١] .

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن حال الكافرين يوم القيامة، حين يساقون إلى النار، فيحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا، فيلجأون إلى التكذيب والإنكار، فعند ذلك يختم الله على أفواههم، ويشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وأرجلهم، وتنطق أيديهم بما كانوا يعملون، كما قال تعالى: **﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾**[٢] .

وقال تعالى: **﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾**[٣] .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فضحك فقال: **«هل تدرون مم أضحك ؟** قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تُجرني من الظلم ؟** قال: **يقول: بلى،** قال: **فيقول: فإني لاأجيز على نفسي إلا شاهداً مني،** قال: **فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً،** قال: **فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي،** قال: **فتنطق بأعماله،** قال: **ثم يخلّى بينه وبين الكلام،** قال: **فيقول: بُعداً لكُنَّ، فعنكنّ كنتُ أناضل»**[٤] .

إضافة إلى ما سبق فإن الكافرين يوم القيامة يحشرون ـ في صورة مهينة

---

(١) سورة فصلت: ١٩ ـ ٢١ .

(٢) سورة يس: ٦٥ .

(٣) سورة النور: ٢٤ .

(٤) صحيح مسلم كتاب الزهد، رقم الحديث: ١٧(٢٩٦٩)، بشرح النووي ١٨/ ١٠٤ ـ ١٠٥ .

مزعجة - على وجوههم عميًا وبكمًا وصمّاً، مطموسين محرومين من جوارحهم التي تهديهم في هذا الزحام، جزاء ما عطلوا هذه الجوارح في الدنيا عنَ إدراك دلائل الهدى، قال تعالى: ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا** ﴾[1] .

روى البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رجلاً قال: يا نبي الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «**أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**». قال قتادة: بلى وعزة ربنا[2] .

حالة الكافرين عند الحساب:

قال تعالى: ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾[3] .

أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآيةعن حالة الكافرين عند محاسبتهم يوم القيامة، وقد وضع سجل أعمالهم، أمامهم، وهم يتملونه ويراجعونه، فإذا هو شامل دقيق. وهم خائفون من العاقبة، ضيقو الصدور بهذا الكتاب الذي لايترك شاردة ولا واردة، ولاتند عنه كبيرة ولا صغيرة، وحينئذ يعترفون

---

(١) سورة الإسراء: ٩٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب ﴿ **الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾، رقم الحديث: ٤٧٦، فتح الباري٨/ ٣٥٠، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين، باب يحشر الكافر على وجهه، رقم الحديث: ٥٤ (٢٨٠٦)، بشرح النووي ١٧/ ١٤٨-١٤٩.

(٣) سورة الكهف: ٤٩.

بالحسرة والويل على ما فرط في أعمارهم وأعمالهم .

و هكذا حكم الله بين عباده في أعمالهم جميعًا ، ولا يظلم أحدًا من خلقه ، بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله ، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي ، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين ، وهو الحاكم الذي لايجور ولا يظلم ، قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾[١] [٢] .

والحساب بالنسبة للكافرين يراد به تقريعهم وتوبيخهم ، قال ابن تيمية : «يراد بالحساب عرض أعمال الكفار عليهم وتوبيخهم عليها ، ويراد بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات ، فإن أريد بالحساب المعنى الأول ، فلا ريب أنهم محاسبون بهذا الاعتبار . وإن أريد به المعنى الثاني فإن قصد ذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون الجنة ، فهذا خطأ ظاهر»[٣] .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**إن الله لايظلم مؤمنًا حسنة يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم، بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يُجزى بها**»[٤] .

---

(١) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ٧٨ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤/ ٣٠٥ .

(٤) صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين ، باب جزاء المؤمن بحسنات في الدنيا والآخرة ، ولا تعجيل حسنات الكافر في الدنيا ، رقم الحديث : ٥٦(٢٨٠٨) ، بشرح النووي ١٧/ ١٤٩ـ ١٥٠ .

قال النووي: «أجمع العلماء على أن الكافر الذي مات على كفره، لاثواب له في الآخرة، ولايجازى فيها شيء من عمله في الدنيا متقربًا إلى الله تعالى، وصرح في هذا الحديث بأن يطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات، أي: بما فعله متقربًا به إلى الله تعالى مما لايفتقر صحته إلى النية، كصلة الرحم والصدقة والعتق والضيافة وتسهيل الخيارت ونحوها..»[(١)] .

وفي ختام مشهد الحساب يعطى كل عبد كتابه المشتمل على سجل كامل لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا، وتختلف الطريقة التي يؤتى بها العباد كتبهم، فأما الكافرون فيؤتون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم، وعند ذلك يدعو الكافر بالخسارة والهلاك.

قال تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ** ﴾[(٢)] .

وقال تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا** ﴾[(٣)] .

فهذا التعيس الذي قضى حياته في الأرض كدحًا، وقطع طريقه إلى ربه كدحًا - ولكن في المعصية والإثم والضلال - يعرف نهايته، ويواجه مصيره، ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف في هذه المرة ولا انتهاء، فيدعو ثبورًا،

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم ١٧/ ١٥٠ .
(٢) سورة الحاقة: ٢٥-٣٢ .
(٣) سورة الانشقاق: ١٠-١٢ .

وينادي الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليه من الشقاء. وحين يدعو الإنسان بالهلاك لينجو به يكون في الموقف الذي ليس بعده ما يتقيه، حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه(١) .

حشر الكافرين إلى النار:

وردت آيات كثيرة تبين صور حشر الكافرين إلى النار هم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها، فمن تلك البيانات القرآنية:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾(٢) .

يخبر تعالى في هذه الآية عن حال الكفار، كيف يساقون إلى النار، وإنما يساقون سوقًا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد وتوبيخ، كما قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا** ﴾(٣) أي: يوم يدفعون ويساقون إلى نار جهنم دفعًا عنيفًا، ثم بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعًا لتعجل لهم العقوبة(٤) .

٢- وقوله تعالى: ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ**

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٦٧.

(٢) سورة الزمر: ٧١.

(٣) سورة الطور: ١٣.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٥٩ ـ ٦٠، وتفسير البغوي ٧/ ١٣٢، وتفسير المراغي ٩/ ٢٠.

﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[١] .

ويزيد بلاء الكفار أن الله عز وجل يأمر الملائكة بجمع أصناف ثلاثة في ذلك الموقف العظيم: وهم الظالمون المشركون، وأزواجهم أمثالهم وأشباههم، ومعبودوهم الذين كانوا يعبدونهم من غير الله من الأوثان والأصنام معًا، زيادة لهم في الحسرة والتخجيل على شركهم ومعصيتهم. فعند ذلك أرشد الملائكة وعرفوا هؤلاء المحشورين طريق جهنم، زيادة في توبيخهم والتهكم بهم.

٣ـ وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[٢] .

إذا رأت هذه النار التي أعدها الله عز وجل لهؤلاء لكافرين المكذبين من مكان بعيد، سمعوا لها غليانًا، كالغضبان إذا غلى صدره من الغضب. وصوتها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾[٣]، أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله[٤]. وهذا المشهد الرهيب قبل وصول الكافرين إلى النار، حيث تملأ قلوبهم رعبًا وخوفًا عندما سمعوا صوتها.

٤ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا

---

(١) سورة الصافات: ٢٢ـ٢٣.

(٢) سورة الفرقان: ١٢

(٣) سورة الملك: ٧ـ٨.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٢٦٧، وتفسير الطبري ٩/ ٣٦٩، وتفسير البغوي ٦/ ٧٥.

نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[١] .

إن الكافرين حين بلغوا النار وعاينوا أهوالها تمنوا الرد إلى الدنيا، ليسعوا في إزالة التقصير ويتركوا التكذيب بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين.

إنها الصورة المقابلة لصورتهم في الدنيا . . صورة الندامة والخزي والحسرة . . في مقابل صورة الإعراض والجدل والادعاء العريض.

وعندما عاينوا النار، تيقنوا أنهم مجتمعون فيها وواقعون فيها، ولا يجدون عنها مهربًا؛ لإحاطتها بهم من كل جانب، قال تعالى:

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[٣] .

* * *

---

(١) سورة الأنعام: ٢٧.

(٢) سورة الكهف: ٥٣.

(٣) سورة هود: ٨.

المبحث الثالث
حياة الكافرين في النار

وردت نصوص كثيرة على أن النار دار قرار الكافرين، وأنها خالدة لن تبيد ولن تفنى، وأنهم مقيمون فيها بقاء خلود، وأنهم يسمون بأهلها، فهي دارهم التي يسكنون، لا دار لهم غيرها ولا مأوى.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[٣].

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي -ﷺ- قال: «يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم: يا أهل

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٨-٣٠.

(٢) سورة البقرة: ٣٩.

(٣) سورة البقرة: ١٦١-١٦٢.

النار لاموت، ويا أهل الجنة لاموت، خلود»[١] .

وفيه أيضا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**يقال لأهل الجنة: يا أهل الجنة، خلود لاموت، ولأهل النار: يا أهل النار، خلود لاموت**»[٢] .

صفة النار:

خلق الله عز وجل النار لتكون مثوى ومهاداً للكافرين والمتكبرين، والطغاة والمعاندين، وقد وصف سبحانه وتعالى النار بصفات كثيرة، لتدل على عظمة عذابه، وشدة هولها، فمن تلك الصفات الرهيبة:

١ ـ أن وقودها الناس والحجارة:

قال تعالى: ﴿**فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾[٣] .

وقال تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[٤] .

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا**

---

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، رقم الحديث: ٦٥٤٤، فتح الباري ١١/ ٤١٤ .

(٢) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، رقم الحديث: ٦٥٤٥، فتح الباري ١١/ ٤١٤ .

(٣) سورة البقرة: ٢٤ .

(٤) سورة الأنبياء: ٩٨-٩٩ .

يُؤْمَرُونَ ﴾[١] .

قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿ **وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾[٢]: «هي حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السماوات والأرض في السماء الدنيا يعدها للكافرين»[٣] .

٢- إنها واسعة وشديدة الحرارة:

إن النار واسعة شاسعة، وإنها بعيدة القعر، حيث تشع ما يلقى فيها، دون أن يظهر منها ما يدعو إلى امتلائها حتى يسألها خالقها القوي العزيز بقوله: ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾[٤] .

إن المشهد كله مشهد حوار. فتعرض جهنم فيه في معرض الحوار، وبهذا السؤال والجواب يتجلى مشهد عجيب رهيب.. هذا هو كل كفار عنيد. مناع للخير معتد مريب.. هؤلاء هم كثرة تقذف في جهنم تباعًا، وتتكدس ركامًا. ثم تنادي جهنم: «هل امتلأت؟» واكتفيت! ولكنها تتلمظ وتتحرق، وتقول في كظة[٥] الأكول النهم[٦]: «هل من مزيد؟».. فيا للهول الرعيب![٧] .

---

(١) سورة التحريم: ٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٤.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٦١، وقال: على شرط الشيخين. وانظر: تفسير الطبري ١/ ٢٠٤، و تفسير البغوي ١/ ٧٣، وتفسير ابن كثير ١/ ٥٧، والدر المنثور ١/ ٧٨.

(٤) سورة ق: ٣٠.

(٥) الكظَة: البطنة. يقال كظّه يكُظّه كظّة، معناه: غمّه من كثرة الأكل (لسان العرب ٧/ ٤٥٧).

(٦) النهامة: إفراط الشهوة في الطعام، وأن لا تمتلئ عين الآكل ولا تشبع (لسان العرب ١٢/ ٥٩٣).

(٧) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٦٥.

ومناسبة قوله تعالى: ﴿هَلِ امْتَلأْتِ﴾ [١]، أن هذا القول لجهنم مقصود به ترويع المدفوعين إلى جهنم أن لا يطمعوا في أن كثرتهم يضيق بها سعة جهنم فيطمع بعضهم أن يكون ممن لايوجد له مكان فيها، فحكاه الله في القرآن عبرة لمن يسمعه من المشركين وتعليمًا لأهل القرآن المؤمنين[٢].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال النبي -ﷺ-: **«تحاجّت الجنة والنار فقالت النار: أُوثرتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لايدخلني إلا ضعفاء الناس وسقَطُهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنتِ عذاب أعذّب بك من أشاءمن عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤُها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ ويزوَى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن لله عز وجل ينشئ لها خلقًا»**[٣].

ومما يدل على بعد قعرها ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله -ﷺ- إذ سمع وَجْبَةً[٤]، فقال النبي -ﷺ-: **«تدرون ما هذا؟ قال:** قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يَهْوِى في النارالآن حتى انتهى إلى قعرها»**[٥].

---

(١) سورة ق: ٣٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢٦/ ٣١٧.

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم الحديث: ٤٨٥، فتح الباري ٨/ ٤٦٠.

(٤) هي بفتح الواو وإسكان الجيم، وهي السقطة (شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ١٧٩).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب في شدة حر جهنم وبعد قعرها، رقم الحديث: ٣١ (٢٨٤٤)، بشرح النووي ١٧/ ١٧٩.

والنار بهذا الاتساع وهذا العمق تأكل لحوم الكافرين وجلودهم، فإذا أعيدوا خلقًا جديدًا فلا تذرهم، بل تعيد إحراقهم كرة أخرى، ثم تلوح لهم عيانًا، وتلفح وجوههم لفحة تدعها أشد سوادًا من الليل. ولا يستطيع أحد الفرار منها، فإن عليها تسعة عشر من الملائكة الذين يقومون بالحراسة.

قال تعالى: ﴿ **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** ﴾[1].

وإنها في اشتداد وازدياد، لاتفنيها الأيام، ولا يخبو لهبها، والكافرون في عذابهم يصرخون يطلبون تخفيفًا، إلا أن الله عز وجل يرد عليهم بقوله: ﴿ **فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾[2].

وكلما سكن لهيبها زادهم الله لهبًا وجمرًا، بأن تأكل جلودهم ولحومهم وتفنيها، فيسكن لهبها، ثم يبدلون غيرها، فترجع ملتهبة مستعرة، ويتكرر الإفناء والإعادة. قال تعالى: ﴿ **مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا** ﴾[3].

٣ ـ سلاسلها وأغلالها:

ومن صفات النار الرهيبة ذكر سلاسلها وأغلالها، وفي كل سلسلة سبعون ذراعًا. قال تعالى: ﴿ **خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي**

---

(١) سورة المدثر: ٢٦ ـ ٣٠.

(٢) سورة البقرة: ٨٦.

(٣) سورة الإسراء: ٩٧.

سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً** ﴾[2] .

وفي جامع الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**لو أن رصاصة**[3] **مثل هذه** ـ وأشار إلى مثل الجمجمة ـ **أُرسلتْ من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرضَ قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفًا الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها**»[4] .

إضافة إلى هذه السلسلة الرهيبة فهناك الأغلال التي تدل على غلظة النار وشدتها ، وذلك بأن غُلَّت أيدي الكافرين بالله في جهنم إلى أعناقهم في جوامع من نار جهنم ، جزاء بما كانوا يكفرون بالله في الدنيا .

قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ **إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي**

---

(١) سورة الحاقة : ٣٠ـ ٣٢ .

(٢) سورة الإنسان : ٤ .

(٣) أي : قطعة من الرصاص (تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٧/ ٣١٣) .

(٤) أخرجه الترمذي في صفة جهنم، باب ما جاء في صفة طعام أهل النار ٧/ ٣١٣ـ ٣١٤، وقال : هذا حديث إسناده حسن صحيح . ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ١٩٧ ، وقال محققه أحمد محمد شاكر : إسناده صحيح (مسند الإمام أحمد تحقيق أحمد محمد شاكر ١١/ ٨٠).

(٥) سورة سبأ : ٣٣ .

الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾[١] .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ **إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ** ﴾[٢]: « أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم، ولهذا قال تعالى: ﴿ **يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ** ﴾[٣] ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ **هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ** ﴾[٤]»[٥] .

٤ ـ إحاطة سرادق جهنم بالكافرين:

ومن صفات نار جهنم الغليظة أنها يحيط بالكافرين لهيبها المستعر من كل جانب، كما يحيط السرادق بمن حل فيه، فلا مَخْلص منه، ولا ملجأ إلى غيره، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا** ﴾[٦] .

والسرادق: حائط من نار يطيف بالكافرين كسرادق الفسطاس، وهي الحجرة التي تطيف بالفسطاس، وبيت مسردق ذو سرادق[٧] .

ولما كانت إحاطة السرادق بهم موجبة لهمهم وغمهم وكربهم، وعدم أملهم في النجاة والإفلات، وعطشهم لشدة وهج النار عليهم.

---

(١) سورة غافر: ٧١ ـ ٧٢ .
(٢) سورة غافر: ٧١ .
(٣) سورة غافر: ٧١ ـ ٧٢ .
(٤) سورة الرحمن: ٤٣ ـ ٤٤ .
(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٨٠ .
(٦) سورة الكهف: ٢٩ .
(٧) انظر: تفسير الطبري ٨/ ٢١٧ ، وتفسير الكشاف ٢/ ٤٨٢ ، وتفسير البغوي ٥/ ١٦٧ .

قال الله عز وجل: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾(٢) .

وبما سبق يتضح لنا أن حياة الكافرين في النار حياة عذاب، بل حياة مليئة بألوان من العذاب الشديد، وأعظمها حجابهم عن الله عز وجل وإبعادهم عنه وإعراضه عنهم وسخطه عليهم، كما أن رضوان الله على أهل الجنة أفضل من كل نعيم الجنة، وتجليه لهم ورؤيتهم إياه أعظم من جميع أنواع نعيم الجنة.

قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾(٣) .

فذكر الله تعالى ثلاثة أنواع من العذاب: حجابهم عنه، ثم صليهم الجحيم، ثم توبيخهم بتكذيبهم به في الدنيا، ووصفهم بالران على قلوبهم، وهذا صدأ الذنوب الذي سود قلوبهم، فلم يصل إليها بعد ذلك في الدنيا شيء من معرفة الله ولا من إجلاله ومهابته وخشيته ومحبته، فكما حجبت قلوبهم في الدنيا عن الله حجبوا في الآخرة عن رؤيته(٤) .

---

(١) سورة الكهف: ٢٩.

(٢) سورة الحج: ٢١-٢٢.

(٣) سورة المطففين: ١٤-١٧.

(٤) التخويف من النار لابن رجب الحنبلي ص: ١٤٣.

لقد حجبت قلوبهم المعاصي والآثام، حجبتها عن الإحساس بربها في الدنيا، وطمستها حتى أظلمت وعميت في الحياة. . فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق في الآخرة أن يحرموا النظر إلى وجه الله الكريم، وأن يحال بينهم وبين هذه السعادة الكبرى، التي لاتتاح إلا لمن شفّت روحه ورقت وصفت واستحقت أن تكشف الحجب بينها وبين ربها، ممن قال فيهم في سورة القيامة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[١] .

وهذا الحجاب عن ربهم عذاب فوق كل عذاب، وحرمان فوق كل حرمان، ونهاية بائسة لإنسان يستمد إنسانيته من مصدر واحد هو اتصاله بروح ربه الكريم. فإذا حجب عن هذا المصدر فقد خصائصه كإنسان كريم؛ وارتكس إلى درجة يستحق معها الجحيم: ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾[٢] [٣] . . ومع الجحيم التأنيب والتقريع والتوبيخ والتصغير والتحقير، وذلك أمرّ من الجحيم[٤] : ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾[٥] .

فالكافرون حين يلجون النار، ويجدون حقيقة العذاب الذي كذبوا به، وتمادوا في إنكاره في حياتهم الدنيا، يتمنون ما لايتحقق، ويجأرون بالشكوى طالبين المغفرة والصفح، ولكنهم لن ينفعهم ذلك، بل لن ينجيهم أن يقدموا

---

(١) سورة القيامة: ٢٢-٢٣.

(٢) سورة المطففين: ١٦.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٥٨.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢٥، وفي ظلال القرآن ٦/ ٣٨٥٨.

(٥) سورة المطففين: ١٧

ملء الأرض ذهبًا ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة، فقد أفلتت الفرصة وأغلقت الأبواب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[(٣)].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك عن النبي - ﷺ - قال: «**يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذابًا: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنتَ مفتديًا بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردتُ منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لاتشرك** - أحْسبُه، قال: ولا أُدخلك النار - **فأبيتَ إلا الشرك**»[(٤)].

فمن شدة عذاب النار يتمنى الكافر لو ينفع أعز الناس إليه فدية، لينجيه من ذلك العذاب، فيودّ لو كان أبناؤه أو زوجته أو أخوه أو عشيرته التي تضمته إليها، أو أهل الأرض جميعًا فداء له ليخلص من ذلك العذاب.

---

(١) سورة آل عمران: ٩١.

(٢) سورة المائدة: ٣٦.

(٣) سورة الرعد: ١٨.

(٤) صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا، رقم الحديث: ٥١(٢٨٠٥)، بشرح النووي ١٧/ ١٤٧.

قال تعالى: ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾[1].

إن الهول ليأخذ بحس الكافر، وإن الرعب ليذعر نفسه، وإنه ليود ﴿ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴾[2] بأعز الناس عليه، ممن كان يفتديهم ويناضل عنهم، ويضحي بنفسه لهم: ﴿ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾[3]، بل إن حاجته إلى الافتداء ورغبته في الخلاص لتجعله مخلوقا أثرا أناني الشخص لايهمه شيء مما كان في الدنيا إلا نفسه؛ وإنه ليتمنى لو يفتدي بالناس جميعًا! ﴿ ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾[4]!.

ولكن شيئًا من هذا كله لن يجدي: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾[5]، وهنا يعرض السياق مشهدًا مفزعًا للنار التي يواجهها هذا المجرم الكافر، فتطير نفسه شعاعًا[6]، ويتمنى تلك الأمنيات الجنونية المستحيلة التي أسلفناها. إن النار تتلظى وتتحرق وتنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعًا، وهي ناطقة، لاتنتظر حتى يلقى إليها وقودها، بل تدعو الكافرين المدبرين عن الحق، والمعرضين عن الطاعة إليها،

---

(١) سورة المعارج: ١١-١٨.
(٢) سورة المعارج: ١١.
(٣) سورة المعارج: ١١-١٣.
(٤) سورة المعارج: ١٤.
(٥) سورة المعارج: ١٥-١٨.
(٦) شعاعًا: أي متفرقة (لسان العرب ٨/ ١٨١).

كما كانوا من قبل يُدْعون إلى الهدى. تدعوهم فلا يملكون الفرار. وقد كانوا يدعون من قبل فيولون الأدبار! فيالها من دعوة مفزعة، لايملك المدعو إلا أن يلبيها مقهوراً، وكل ما فيه يدعوه أن يفلت فلا يستطيع الإفلات[١].

ولشدة عذاب النار طلب الكفار الرجعة إلى الدنيا وهم في النار، كما طلبوها عند الموت لتدارك ما فاتهم من الأعمال الصالحة والإيمان الصحيح، ولكن لارجعة لأحد إلى دار الدنيا بعد البعث والحساب.

قال تعالى: ﴿ **تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ** ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ **وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** ﴾[٣].

ثم ذكر عز وجل ما أجيبوا به عن طلبهم الخروج من النار والرجعة إلى الحياة الدنيا فقال: ﴿ **قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ** ﴾[٤] أي امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء، ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم

(١) انظر: مشاهد القيامة في القرآن ص: ١٨٧.
(٢) سورة المؤمنون: ١٠٤ - ١٠٧.
(٣) سورة فاطر: ٣٧.
(٤) سورة المؤمنون: ١٠٨.

عندي، ولا رجعة لكم إلى الدنيا[١] .

ولما علم الكفار أن الله عز وجل لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، سألوا الخزنة ـ وهم كالسجانين لأهل النار ـ أن يدعوا لهم الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ولو يومًا واحدًا من العذاب، ولكن خزنة جهنم لايدعون لهم، ولايسمعون منهم، ولايودون خلاصهم، وهم منهم براء، ثم يخبرونهم أنه سواء دعوا أو لم يدعوا لايستجاب لهم، ولا يخفف عنهم، وذلك لأن دعاء الكافرين هو في ذهاب لايقبل ولايستجاب.

قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ . قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ** ﴾[٢] .

فلا يزال الكافرون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، وكلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع من الحديد فيردونهم إلى أسفلها، ولهم عذاب دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها.

وقد صور القرآن الكريم هذا المشهد الرهيب فقال تعالى: ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** ﴾[٣] . وقال تعالى: ﴿ **وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا**

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٣، وتفسير المراغي ٦/ ٥٩.
(٢) سورة غافر: ٤٩ ـ ٥٠.
(٣) سورة المائدة: ٣٧.

فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[١] .

هكذا تكون حياة الكافرين في النار، حياة عذاب وذلة، وحياة شدة ومهانة، جزاء بما كانوا يعملون في الحياة الدنيا .

ونكتفي بهذا القدر في ذكر بعض صفات النار وعذابها، ولم نتطرق إلى تفاصيلها خشية الوقوع في التكرار، وذلك لأنه قد سبق ذكر عذاب الآخرة في المبحث السابق[٢] .

* * *

---

(١) سورة الحج : ٢١ـ٢٢ .

(٢) انظر : الباب الأول، الفصل الثاني، المبحث الثالث تحت العنوان : « عذاب الحياة الآخرة» ص : ٢٧٢ .

الفصل الخامس

حياة المنافقين في الدنيا والآخرة

وتحته مباحث:

المبحث الأول: النفاق وخطورته في الحياة

المبحث الثاني: ولاء المنافقين بعضهم لبعض في الحياة الدنيا

المبحث الثالث: عداوة المنافقين للمؤمنين في الحياة الدنيا

المبحث الرابع: نماذج من حياة المنافقين الدنيوية

المبحث الخامس: حياة المنافقين في النار

تمهيد:

بيّن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم أصناف الناس الثلاثة، وهم: المؤمنون، والكافرون، والمنافقون. وقد ذكرنا فيما سبق الصنفين الأولين وما يتعلق بهما من حياتهما في الدنيا والآخرة.

أما الآن فنذكر حياة المنافقين في الدنيا والآخرة، لما في ذلك من الفائدة العظمى والمصلحة البالغة من التحذير منهم، وبيان خطرهم على الفرد والجماعة والأمة في هذه الحياة، فما أشد خطرهم وما أسوأ أثرهم! ، فهم كثيرون في هذه الأيام، والتحذير منهم ومن صفاتهم شيء ضروري في مسيرة هذه الأمة التي وصفها الله عز وجل بأنها خير أمة أخرجت للناس، وأنها شهيدة عليهم.

والذي يتدبر القرآن الكريم يجد العديد من الآيات التي تبين صفات المنافقين وتكشف عن حقيقتهم. وهذا أمر طبيعي؛ ذلك لأن تعريف الأمر الظاهر الملموس لايحتاج إلى جهد كبير، أما الأمر الخفي المختبئ الذي يحرص على إخفاء مظاهر حقيقته فإنه يحتاج إلى جهد في بيان صفاته، وبسط في كشف هويته والتعريف به، وهذا بين واضح في صفات المنافقين من خلال تدبر الآيات الكريمة الواردة في أول سورة البقرة؛ إذ كان الحديث عن المنافقين طويلاً إذا قيس بالحديث عن المؤمنين وعن الكافرين.

قال ابن القيم: «وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجلّى لعباده أمورهم، ليكونوا منها ومن أهلها على حذر.

وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين والكفار والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات[١]، وفي الكفار آيتين[٢]، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية[٣]، لكثرتهم وعموم البلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله؛ فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدا، لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب، يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد»[٤].

وهكذا نجد القرآن الكريم يحدثنا عن المنافقين بأنهم قوم خداعون، يلبّسون على الناس أمورهم، ويظهرون عكس ما يبطنون، ويسخرون من المؤمنين ويستهزئون بهم، فهم من ألدّ أعداء الحق والخير والفضيلة، والمعركة معهم مستمرة قائمة، ذكرنا ذلك إجمالاً كالتمهيد لهذا الفصل، وسنذكره ـ بإذن الله ـ تفصيلاً في هذه المباحث التالية.

---

(١) انظر: سورة البقرة ٢ ـ ٥.

(٢) انظر: سورة البقرة ٦ ـ ٧.

(٣) انظر: سورة البقرة ٨ ـ ٢٠.

(٤) مدارج السالكين ص١٦.

المبحث الأول
النفاق وخطورته في الحياة

تعريف النفاق:

النفاق - بالكسر ككتاب - فعل المنافق، يقال: نافق ينافق منافقة ونفاقا، وهو مأخوذ من النافقاء - لليربوع -، وهو جحر من جحريه يخرج منه إذا أخذ عليه الجحر الذي دخل فيه[١]، ومنه المنافق، فإنه يدخل في الدين من باب ويخرج من باب. وعلى هذا نبّه بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٢] أي: الخارجون عن الدين والشرع[٣].

والنفاق في الاصطلاح الشرعي: هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بهذا المعنى الخاص، وإن كان أصله الذي أخذ منه في اللغة معروفًا[٤].

والمنافق هو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه، وسمي به لإظهاره غير ما يضمره تشبيهًا باليربوع الذي يكتم أحد جحريه ويظهر غيره، فإذا أتى من جهة القاصعاء - الجحر الذي دخل في ضرب النافقاء برأسه فانتفق[٥].

وإنما أشبه النفاق نافقاء اليربوع من حيث إنه في ظاهره أرض مستوية

---

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص: ٢٩، وانظر: تاج العروس ١٣/ ٤٦٣.

(٢) سورة التوبة: ٦٧.

(٣) بصائر ذوي التمييز ٥/ ١٠٥.

(٤) المزهر للسيوطي ١/ ٣٠١، وانظر: تاج العروس١٣/ ٤٦٣، ولسان العرب١٠/ ٣٥٩.

(٥) انظر: لسان العرب١٠/ ٣٥٩.

وباطنه حفرة قد أعدها اليربوع للتخلص وقت الحاجة، فاستطاع بهذا أن يخدع الصائد، فكذلك المنافق أظهر الإسلام وأبطن الكفر ليخدع المؤمنين بذلك، قال تعالي: ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾(١) .

وينقسم النفاق إلى قسمين:

القسم الأول: نفاق اعتقادي يُخْرِج من الملة وصاحبه في الدرك الأسفل من النار، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً** ﴾(٢) ، وهو الذي يكذب في الباطن بالله واليوم الآخر والملائكة، ولو أظهر ذلك في الظاهر، أو يكذب بأي ركن من أركان الإيمان.

قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ. فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ (٣)

القسم الثاني: نفاق عملي لا يخرج من الملة، وصاحبه يرتكب المعصية، ويدل عليه قوله ـ ﷺ ـ في الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**(آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف)**»(٤) .

---

(١) سورة البقرة: ٩.

(٢) سورة النساء: ١٤٥.

(٣) سورة البقرة: ٨ـ١٠.

(٤) صحيح البخاري كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، رقم الحديث: ٢٦٨٢، فتح الباري ٥/ ٣٤٢.

قال القرطبي: «النفاق إذا كان في القلب فهو الكفر. أما إذا كان في الأعمال فهو معصية»[١].

وقال الغزالي[٢]: النفاق نفاقان، أحدهما: يخرج من الدين ويلحق بالكافرين، ويسلك في زمرة المخلدين في النار. والثاني: يفضي بصاحبه إلى النار مرة أو ينقص من درجات عليين..»[٣].

والذي نريد أن نتحدث عنه في هذا البحث هو النفاق الخالص الذي يخفي صاحبه كفره وتكذيبه بالله وباليوم الآخر وبالكتاب وبالرسول.

وهذا النفاق الخالص باعتبار وضعه عند نشأته ينقسم إلى قسمين: النفاق الأصلي، والنفاق الطارئ.

النفاق الأصلي:

قد تدفع المصلحة الدنيوية بعض الناس إلى أن يتظاهر بالانتساب إلى الإسلام، وهو غير مؤمن به في قلبه، فيكون منافقًا منذ المدة الأولى لإعلانه

---

(١) تفسير المراغي ١/ ٢١٣.

(٢) هو: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي، المعروف بالغزالي، حكيم، متكلم، فقيه، أُصولي، صوفي، مشارك في أنواع من العلوم، ولد بالطابرأن إحدى قصبتي طوس بخراسان سنة ٤٥٠هـ، من تصانيفه الكثيرة: إحياء علوم الدين، الحصن الحصين في التجريد والتوحيد، تهافت الفلاسفة، الوجيز في فروع الفقه الشافعي، والمستصفى في أصول الفقه وغيرها، توفي سنة ٥٠٥هـ. (انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ١٠١-١٨٢، وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٥٨٦-٥٨٨، شذرات الذهب ٤/ ١٠-١٣، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣/ ٦٧١).

(٣) إحياء علوم الدين ١/ ٢٦.

الإسلام، ثم يستمر على نفاقه، ويتبعه وارث النفاق عنه من أهله وذريته، فهذا هو النفاق الأصلي الذي لم يُسبق بإسلام صحيح، ونظيره من ينشأ في بيئة مسلمين من أصول مسلمة، إلا أنه منذ بلغ رشده لم يؤمن بالإسلام، لكنه قَبِل أن يتظاهر بكونه مسلمًا تبعًا لأبويه.

النفاق الطارئ:

وقد يعلن بعض الناس إسلامهم وهم صادقون غير كاذبين، ثم يطرأ الشك على قلوبهم بعد تعرضهم لامتحانات مختلفة يمتحن الله بها صدق إيمانهم، فيرتدون عن الإسلام ارتدادًا داخليًا، ويخشون إعلان ردتهم، ويستمرون على التظاهر بالإسلام، مخافة إجراء أحكام الردة عليهم، أو مخافة فوات منافع أو مصالح تأتيهم بوصفهم مسلمين، ومن ذلك خسارتهم مكانتهم في مجتمعهم، وتعرضهم للذم والنقد والتلويم، إلى غير ذلك من صور الضغط الاجتماعي، فهذا هو النفاق الطارئ الذي بعد إسلام صادق.

ومن هؤلاء من ينشأ في بيئة مسلمين من أصول مسلمة، وحين بلغ شده قبل الإسلام صادقا تبعا لأبويه، ثم طرأ الشك على قلبه، فارتد عن الإسلام ارتدادًا داخليًا ولم يعلن ردته، بل استمر متظاهرًا بأنه من المسلمين.

وقد تكرر لدى بعض الناس حركة الدخول في الإسلام والخروج منه، بسبب ما يعرض لتصوراتهم ولنفوسهم، لكن يظَلّ ظاهرهم في مختلف الأحوال مستمرًا على أنهم مسلمون، وهؤلاء يقال فيهم: إنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرًا.

وقد دل على هذا النفاق الطارئ ما وصف الله به طائفة من المنافقين، وذلك في قوله تعالي: ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** ﴾[١] .

وقوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** ﴾[٢] .

فقد أثبت إيمانهم أولاً، وعطف عليه إثبات كفرهم بحرف العطف الدال على التراخي «ثم»، فدل على أن كفرهم القلبي عارض وليس أصليًا[٣] .

وقد ورد في تفسير التحرير والتنوير: «. . أن مراتب المنافقين متفاوتة في النفاق وشدة الكفر، فمنهم من آمنوا لما سمعوا آيات القرآن أو لاحت لهم أنوار من النبي - ﷺ - لم تثبت في قلوبهم.

ثم رجعوا إلى الكفر للوم أصحابهم أو لإلقائهم الشك في نفوسهم، قال ابن عطية: وقد كان هذا موجودًا.

قلت: ولعل الذين تابوا وحسن إسلامهم من هذا الفريق، فهؤلاء إسناد الإيمان إليهم حقيقة.

ومنهم من خالجهم خاطر الإيمان فترددوا وقاربوا أن يؤمنوا ثم نكصوا على

---

(١) سورة التوبة: ٧٥-٧٨.

(٢) سورة المنافقون: ٣.

(٣) ظاهرة النفاق لعبد الرحمن حبنكة الميداني ١/ ٥٩.

أعقابهم، فشابه أول حالهم حال المؤمنين حين خطور الإيمان في قلوبهم..»[١].

ووصف الله عز وجل طائفة من المنافقين بالتردد بين الإيمان والكفر أكثر من مرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٢].

إن النفس إذا لم تتجرد لله، لم تتحرر أبدًا من ضغط القيم والأوضاع، والضرورات والمصالح، والحرص والشح. ولم ترتفع أبدًا على المصالح والمغانم، والمطامع والمطامح. ولم تستشعر أبدًا تلك الطلاقة والكرامة والاستعلاء التي يحسها القلب المملوء بالله، أمام القيم والأوضاع، وأمام الأشخاص والأحداث، وأمام القوى الأرضية والسلطان وأصحاب السلطان..

ومن هنا تبذر بذرة النفاق.. وما النفاق في حقيقته إلا الضعف عن الإصرار على الحق في مواجهة الباطل، وهذا الضعف هو ثمرة الخوف والطمع، وتعليقهما بغير الله؛ وثمرة التقيد بملابسات الأرض ومواضعات الناس، في عزلة عن منهج الله للحياة[٣].

فالنفاق سلوك مركب، يرجع إلى عناصر خلقية متعددة، فإذا جمعنا الجبن والطمع بالمنافع الدنيوية، وجحود الحق، وخلق الكذب، مع قصر

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٧/ ٢٣٧.

(٢) سورة النساء: ١٣٧-١٣٨.

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٧٩.

النظر، تولد عنها في سلوك الفرد ما نسميه بالنفاق.

ولهذا لا يكون المنافق إلا جبانًا ضعيف القلب يحسن الكيد والعمل في الظلام، وإذا لقي المؤمنين أظهر لهم نفسه كأنه مؤمن؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾(١).

فهم لجبنهم يقولون: إننا مؤمنون، لأنهم بهذا الإظهار المزيف يريدون أن يعصموا أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأعراضهم من المسلمين.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال: «**(أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله)**»(٢)

فالجبن والطمع مع خلق الكذب المكتسب ومع قصر النظر من الأسباب الرئيسية التي يتولد عنها النفاق في السلوك الإنساني.

ولولا أن يكون المنافق جحودًا للحق، مع نظر قصير إلى الوجود والحياة يجعله يتعلق بمصالحه ومنافعه القريبة من الحياة الدنيا، لردعه إيمانه وحبه للحق عن سلوك مسلك النفاق في الدين.

فالنفاق خلق مكتسب مركب، وليس خلقًا بسيطًا، إنه طبخة شيطانية معقدة في نفوس المنافقين(٣).

---

(١) سورة البقرة: ١٤.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، رقم الحديث: ٣٤ (. . .) بشرح النووي ١/ ٢١٠-٢١١.

(٣) انظر: ظاهرة النفاق ١/ ٥٥، وأصول الدعوة لعبد الكريم زيدان ص: ٣٩٧.

وهناك سبب آخر يتولد عنه النفاق في السلوك الإنساني، وهو ضعف الشخصية وبلبلة الفكر، وعدم القدرة على اتخاذ القرار، والافتقار إلى الحزم والجزم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[١].

وقال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[٣].

خطورة النفاق في الحياة:

لقد أكد القرآن الكريم أن النفاق مرض نفسي، وعبر أصدق تعبير وأبلغه أن في قلوب المنافقين مرضًا.

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ

(١) سورة النساء: ١٣٧-١٣٨.

(٢) سورة النساء: ١٤٣.

(٣) سورة التوبة: ٤٥.

(٤) سورة البقرة: ١٠.

وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿ **لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾**(٢) .

والمنافقون بوصفهم مرضى القلوب لهم خطورتهم في الحياة، ذلك لأنهم من أخطر أعداء الإسلام، وأن المسلمين قد لاقوا منهم متاعب كثيرة، وفتنًا كانت تصل من خطورتها أن تزلزل كيان المسلمين في كثير من الأحيان، وتتركز خطورة المنافقين في أنهم مندسون بين صفوف المسلمين على أنهم مؤمنون، فهم أخطر وأضر من الكافرين؛ لأنهم ساووهم في الكفر، وامتازوا عليهم بالخداع والتضليل، بخلاف الكافرين الذين لايحصل فيهم الاشتباه ولايمكن أن يخدعوا المسلمين بحقيقتهم الظاهرة.

ومن خلال التأمل والتدبر للآيات القرآنية نجد أن خطورة النفاق في الحياة تتجلى فيما يلي :

أولا: تحذير المؤمنين من المنافقين:

حذر القرآن الكريم المؤمنين من الاغترار بالمنافقين والميل إليهم والثقة بهم، والغفلة عنهم، ذلك لأن النفاق مرض خطير، ووباء مهلك، وداء فتاك، وآفة سارية، وفتنة متحركة في داخل المجتمع الإسلامي.

---

(١) سورة الأنفال: ٤٩.

(٢) سورة الأحزاب: ٦٠ ـ ٦١.

وتكمن خطورته في كون المنافقين يهدمون بنيان الأمة من الأساس، ويهزمون الأمة من الداخل، ويطعنونها من الخلف.

ولهذا فقد نهى القرآن الكريم المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة يطلعونهم على سرائرهم، ، وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المنكر والخديعة، ويودّون ما يعنت المؤمنين ويجرحهم ويشق عليهم[١].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢].

كما حذر القرآن الكريم المؤمنين من المنافقين بأن يأمرهم بمتابعة المنافقين ومراقبتهم، وإفشال مخططاتهم، وإبطال مكائدهم، والتزام اليقظة التامة تجاههم؛ ذلك لأن المنافقين يهاجمون المجتمع الإسلامي من داخله، كما يهاجمه الكفار من خارجه. فلهذا يجمع القرآن الكريم بين الكفار والمنافقين في الأمر بجهادهم والغلظة عليهم؛ لأن كلاً من الفريقين يؤدي دوراً مماثلاً في تهديد المجتمع الإسلامي، وتحطيمه أو تفتيته[٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣٤٢، والمنافقون في القرآن الكريم، لمحمد حسن ص: ٢٣٣.

(٢) سورة آل عمران: ١١٨-١١٩.

(٣) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٢١.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(١) . وجهاد المنافقين ما داموا لم يعلنوا كفرهم بالتحذير منهم وإفشال مخططاتهم بالابتعاد عن مسالكهم.

وحذر القرآن الكريم المؤمنين من المنافقين بأنهم العدو الذي بلغ الغاية في العداوة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾(٢) .

وهكذا تتابعت الآيات القرآنية التي نزلت في شأن المنافقين على تحذير المؤمنين من الاغترار بهم، والثقة بهم، والغفلة عنهم. . ، مما يدل على أن المنافقين لهم خطورتهم في هذه الحياة.

ثانيا : النفاق إفساد في الأرض:

المنافقون في كل مكان وفي كل زمان هم من جملة المفسدين في الأرض، بل هم أعظم المفسدين، وإفسادهم من النوع الذي يحتاج علاجه إلى مقاومة قوية وجهد متواصل.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾(٣) .

قال ابن جرير الطبري: «والإفساد في الأرض، العمل فيها بما نهى الله جل

---

(١) سورة التحريم: ٩.

(٢) سورة المنافقون: ٤.

(٣) سورة البقرة: ١١-١٢.

ثناؤه عنه، وتضييع ما أمر الله بحفظه، فذلك جملة الإفساد، كما قال جل ثناؤه في كتابه مخبرًا عن قيل ملائكته: ﴿ **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾[1] ، يعني بذلك: أتجعل في الأرض من يعصيك ويخالف أمرك؟ فكذلك صفة أهل النفاق: مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دين الله الذي لايقبل من أحد عملاً إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب وبمظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفساد المنافقين في أرض الله، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها»[2] .

والذين يفسدون أشنع الفساد ويقولون: إنهم مصلحون، كثيرون جدًا في كل زمان. يقولونها لأن الموازين مختلة في أيديهم، ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم، والذين لايخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم، لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية..[3] .

هذه جملة إفسادهم في الأرض، أما صورة إفسادهم التفصيلية في هذه الحياة فتتجلى في جوانبها التالية، منها:

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

(٢) تفسير الطبري ١/ ١٥٩ ـ ١٦٠، وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٤٧، ٤٨.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٤.

١ ـ الحياة الاجتماعية:

تتجلى خطورة النفاق في إفساده في هذه الحياة من الجانب الاجتماعي؛ لأن المنافقين لا يتحلون بالإيمان الذي يمنع صاحبه من الوقوع في الجرائم والاستهانة بمكارم الأخلاق، فإذا شاع هذا السلوك المنحرف في المجتمع اختل نظامه وأصبح المنكر فيه معروفًا، والمعروف فيه منكرًا، بل المنافقون يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.

قال تعالى: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[١].

ورد في مدارج السالكين: «المنافقون جنس بعضه يشبه بعضًا. يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه، كلما ذكرهم الله بنعمه أعرضوا عن ذكره ونسوه، وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه، فاسمعوا أيها المؤمنون ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[٢]»[٣].

وكون المنافقين ينتسبون إلى الإسلام يهيئ لهم الجو الملائم للإفساد في المجتمع الصالح، لأنهم يختلطون مع المؤمنين اختلاطًا كاملاً، فلا يمكن التحرز منهم ولا تهيئة الجو الصالح لتربية المؤمنين، لأن ما يحاوله دعاة

---

(١) سورة التوبة: ٦٧.

(٢) سورة التوبة: ٦٧.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٣٥٢-٣٥٣.

الإسلام من بذل الجهد والوقت الطويل في غرس العقيدة الصحيحة وتوثيق عري الإيمان في النفوس وبناء المجتمع الصالح يهدمه المنافقون في ساعات قليلة، فالهدم أسرع تأثيراً من البناء، لأن الهدم يلبي نداء الغرائز التي جبل الإنسان عليها؛ بينما البناء يقارعها، فمواجهة نداء الهدم تحتاج إلى نفوس قوية معمورة بالإيمان..[1].

٢ ـ الحياة السياسية:

النفاق إفساد في الحياة من الجانب السياسي، لأن عمران الأرض لا يمكن أن يتحقق إلا بقيام الدولة الإسلامية التي تنفذ شرع الله في الأرض، فإذا وجد المنافقون في رعية هذه الدولة أصبحت في خطر عظيم، لأنهم يتظاهرون بمحبتها والتفاني في خدمتها، ثم يخونونها في أحرج المواقف وينقلون أسرارها إلى أعدائها.

قال تعالى: ﴿**وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا**﴾[2].

فالخائنون خانوا غيرهم في الظاهر، ولكنهم في الحقيقة خانوا أنفسهم[3]. فقد خانوا الجماعة ومنهجها، ومبادئها التي تميزها وتفردها، وخانوا الأمانة الملقاة على الجماعة كلها، وهم منها.. ثم هم يختانون أنفسهم في صورة

---

(١) انظر: المنافقون في القرآن الكريم لعبد العزيز عبد الله الحميدي ص: ٤٤٥.

(٢) سورة النساء: ١٠٧ـ١٠٨.

(٣) خانوا أنفسهم، لأن ضررها يرجع إليهم (انظر: تفسير القاسمي ٥/ ٤٥٠).

أخرى، صورة تعريض أنفسهم للإثم الذي يجازون عليه شر الجزاء، حيث يكرههم الله، ويعاقبهم بما أثموا. وهي خيانة للنفس من غير شك.. وصورة ثالثة لخيانتهم لأنفسهم، هي تلويث هذه الأنفس وتدنيسها بالمؤامرة والكذب والخيانة(١).

ثم يأتي الوصف بالإثم والخيانة تصوير منفر لسلوك هؤلاء المنافقين الخونة، حيث يقول تعالى: ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ** ﴾(٢).

قال ابن كثير: «هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بها، لأنه مطلع على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم»(٣).

وتزيد خطورة النفاق في الجانب السياسي إذ يكون المنافقون من الجواسيس، فهم قد يصلون من البراعة وإتقان عملية النفاق إلى أن ينافقوا عدة جهات متعارضة متعادية، ويظهروا لكل جهة بأنهم منهم، ويعملون في خدمة مصالحهم ضد الجهات الأخرى التى يعملون أيضًا في خدمتها.

إن الجيوش تحارب بعضها بعضًا من مواقع حذر كلٍّ منها من عدوه، أما الجواسيس المنافقون فيحاربون من مواقع الأمن، وهي المواقع التي لا رقابة فيها، وليس فيها تحصينات تدفع مكايد العدو المخالط المداخل.

إن الجاسوس المنافق هو كاللص المجهول المُساكن في الدار الذي تصعب

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٢/ ٧٥٤.
(٢) سورة النساء: ١٠٨.
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٤٧٤.

مراقبته. من أجل ذلك كانت عقوبة المنافق أشد من عقوبة الكافر المعادي المستعلن بعداوته. ومن أجل ذلك كانت منزلة المنافق في الدرك الأسفل من النار[١].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾[٢].

٣ ـ جانب الدعوة:

ومن الجوانب التي تتجلى فيها خطورة النفاق جانب الدعوة، ذلك لأن وجود المنافقين في صفوف المسلمين يحول بين الناس وبين الدخول في الإسلام ومحاولة فهم دعوته، لأن من أهم ما يجذب الناس إلى الإسلام هم ما يرونه من سلوك أتباعه المتمسكين بتعاليمه السامية، ومن ثم ورد العقاب من الله عز وجل والاستنكار لأن يقول الذين آمنوا ما لا يفعلون، لأن في ذلك نوعًا من الصد عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[٣].

في هذه الآية إنكار على من يعد وعدًا، أو يقول قولاً لا يفي به[٤].

ويهدد عز وجل المنافقين بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم وما يتفقون عليه من مخالفة الرسول ـ ﷺ ـ وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له

---

(١) ظاهرة النفاق ١/ ٩٩.

(٢) سورة النساء: ١٤٥.

(٣) سورة الصف: ٢ ـ ٣.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٣١٣.

الطاعة والموافقة، وسيجزيهم على ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾[1].

وقال تعالى فيهم كذلك: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾[2].

فالتمسك بتعاليم الإسلام السامية شيء ضروري في الدعوة إلى الله؛ وما حدث من انتشار الإسلام بين الأعاجم في عهد الفتح الإسلامي يشهد لذلك، لأن الأعاجم لا يفهمون القرآن ولا يدركون حقيقة ما يدعو إليه، وإنما جذبهم إلى الإسلام ما يتمتع به الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومن تأثر بهم من مكارم الأخلاق، فإذا وجد المنافقون في صفوف المسلمين كان وجودهم فيها خطراً على الدعوة، حيث ينفر الناس من الدخول في الإسلام، لأنهم لن يتقيدوا بتعاليمه السامية، بل يسعون في الأرض بالفساد، إذ لا همّ لهم إلا اللذات والحظوظ الدنيئة التي لأجلها يعادون أهل الإسلام، فإذا رآهم الناس على هذا السلوك المنحرف وهم ممن ينتسبون إلى الإسلام، رغبوا عنه ولم يفكروا في تفهمه والدخول فيه.

وتتزايد خطورة النفاق إذا كان أهله ممن ينتسبون إلى العلم بالإسلام،

---

(١) سورة النساء: ٨١.

(٢) سورة البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

ويتخصص بدراسة علومه، لأنهم سيتخذون من التظاهر بالدعوة إلى الإسلام وتعليم علومه وسيلة لتغطية نواياهم الخبيثة نحو هدم الإسلام وتضليل المسلمين، فيحاولون إثارة الشبهات في نصوص الإسلام، ويجادلون العلماء المؤمنين بالباطل ليثيروا الشكوك حولهم، وينتزعوا ثقة المؤمنين بهم.

وقد حذر النبي - ﷺ - المؤمنين من هؤلاء المنافقين الذين ينتسبون إلى العلم بالدين، كما ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - يقول: «**(إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان)**»[1].

* * *

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ٢٢، ٤٤. وقال أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح (المسند للإمام أحمد تحقيق أحمد محمد شاكر ١/ ١٥٧)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، رقم الحديث: (١٠١٣)، ٣/ ١١.

المبحث الثاني
ولاء المنافقين بعضهم لبعض في الحياة الدنيا

المنافقون في كل زمان وفي كل مكان تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد. فهم بذلك يتخذون إخوانهم المنافقين أولياء من دون المؤمنين، لما لهم من الموافقة الحاصلة بينهم في تقليدهم لأكابرهم، وفي مقتضى الهوى والطبيعة والعادة.

قال تعالى: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[1].

و(من) في قوله: ﴿ **بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾ اتصالية دالة على معنى اتصال شيء بشيء، وهو تبعيض مجازي، معناه الوصلة والولاية، ولم يطلق على ذلك اسم الولاية، كما أطلق على اتصال المؤمنين بعضهم ببعض في قوله تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** .. ﴾[2] للإشارة إلى أن اللحمة الجامعة بين المؤمنين هي ولاية الإسلام، فهم فيها على السواء ليس واحد منهم مقلداً للآخر، ولا تابعاً له على غير بصيرة، لما في معنى الولاية من الإشعار بالإخلاص والتناصر، بخلاف المنافقين فكأن بعضهم ناشئ من بعض

---

(١) سورة التوبة: ٦٧.

(٢) سورة التوبة: ٧١.

في مذامتهم، وأن نفاق الأتباع كالأمر المتفرع على نفاق الأسلاف[١] .

فالمنافقون كأنهم نفس واحدة، فإن رأيت إنسانًا مستور الحال يوالي منافقًا مكشوف النفاق، فاعلم أنه مظنة النفاق، لأن من خلال أوصافهم ولاءهم لبعضهم[٢] .

ولأن المنافقين ساووا الكافرين في الكفر، فهم يتخذون الكافرين المعادين للمؤمنين أولياء وأنصارًا، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها، ويمالئون الكافرين عليهم، اعتقادًا منهم أن العزة والقوة ستكون لهم، فيجعلون لهم يدًا عندهم، فهذا جهل منهم بمصدر العزة والقوة؛ لقد استأثر الله عز وجل بالعزة، فلا يجدها إلا من يتولاه ويطلبها عنده ويرتكن إلى حماه.

قال تعالى: ﴿ **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾[٣] .

وصف الله سبحانه وتعالى المنافقين بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزئون بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة[٤] .

---

(١) التفسير الكبير ١٦/ ١٠٤-١٠٥، وتفسير الرازي لمحمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق محمد رضوان ص: ١٨٤-١٨٥، وتفسير أبي السعود ٤/ ٨٢، وتفسير التحرير والتنوير ١٠/ ٢٥٤، ٢٦٢.

(٢) انظر: الأساس في التفسير ٤/ ٢٣١٥.

(٣) سورة النساء: ١٣٨-١٣٩.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٦.

قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴾[١] .

ثم إن القرآن الكريم يذكر صوراً كثيرة من ولاية المنافقين بعضهم لبعض، وتناصرهم بينهم في تحقيق السلوك النفاقي في الحياة، فمن تلك الصور الخبيثة:

١ـ أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف:

قال تعالى: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[٢] .

إن الولاية تشمل ولاية النصرة وولاية المودة، والتناصر بين المنافقين يكون في أمر بعضهم بعضاً بالمنكر، كالكذب والخيانة وإخلاف الوعد ونقض العهد، كما جاء في الحديث الشريف: «(**آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف**)»[٣] .

كما يكون التناصر بينهم في نهيهم عن المعروف، كالجهاد وبذل المال في سبيل الله للقتال، كما حكى الله عز وجل عنهم بقوله: ﴿ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ** ﴾[٤] .

---

(١) سورة البقرة: ١٤ .

(٢) سورة التوبة: ٦٧ .

(٣) صحيح البخاري كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، رقم الحديث ٢٦٨٣، فتح الباري ٥/ ٣٤٢ .

(٤) سورة المنافقون: ٧ .

وقوله تعالى: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾[١].

والمنافقون حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بهما، ويفعلون ذلك دسًا وهمسًا، وغمزًا ولمزًا، لأنهم لايجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون، إنهم نسوا الله العليم الخبير، فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة، فهم بذلك التناصر، وتلك المودة، نسيهم الله عز وجل، فلا وزن لهم ولا اعتبار، وهم خارجون عن الإيمان والطاعة، منحرفون عن الصراط المستقيم[٢].

٢ـ مشاركتهم في إثارة الشُّبه بشأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام:

ومن صور ولاء المنافقين بعضهم لبعض تناصرهم وتعاونهم على إثارة الشبه بشأن تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام. وهذه قضية دينية شارك المنافقون في إثارة الشبهات حولها، لفتنة المؤمنين عن دينهم، في الوقت الذي كان الأمر شاقًا على المؤمنين الذين ألفوا في الجاهلية أن يعظموا حرمة البيت الحرام؛ وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم. وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعونه من اليهود من الاستكبار عن الدخول في الإسلام، إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة؛ وأنهم هم الأصل، فأولى

---

(١) سورة التوبة: ٨١.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٣.

بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام. هذه مشاركتهم الخبيثة في إثارة الشبهات حول تحويل القبلة، مع إخوانهم من اليهود ومشركي العرب.

قال تعالى: ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (١).

قال ابن جرير الطبري: «سيقول السفهاء من الناس - وهم اليهود وأهل النفاق - لكم، أيها المؤمنون بالله ورسوله، إذا حولتم وجوهكم عن قبلة اليهود التي كانت لكم قبلة، قبل أمري إياكم بتحويل وجوهكم عنها شطر المسجد الحرام: أي شيء حوّل وجوه هؤلاء، فصرفها عن الموضع الذي كانوا يستقبلونه بوجوههم في صلاتهم؟

فأعلم الله جل ثناؤه نبيه - ﷺ - ما اليهود والمنافقون قائلون من القول عند تحويل قبلته وقبلة أصحابه عن الشام إلى المسجد الحرام، وعلّمه ما ينبغي أن يكون من رده عليهم من الجواب، فقال له: إذا قالوا ذلك لك يا محمد، فقل لهم: ﴿ **لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ**

---

(١) سورة البقرة: ١٤٢-١٤٣.

مُّسْتَقِيمٍ﴾[(١)]»[(٢)].

هذه القضية وأمثالها من الطبيعي أن يشارك في إثارة الشبهات حولها، ويتعاون عليها جميع أعداء الإسلام وخصومه، سواء من كان منهم مظهر العداوة كاليهود والنصارى والمشركين، أو كان مبطن العداوة كالمنافقين، تحقيقًا لمقتضى الولاية والمودة فيما بينهم.

ولكن المؤمنين الصادقين يعلمون أن قضية تحويل القبلة عن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام امتحان لهم، وأسلوب تربوي رائع، لربط قلوب المسلمين بحقيقة الطاعة وصحة الاستسلام للأمر الإلهي الكريم، واتباع رسوله الأمين، ولهذا قال تعالى: **﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾**[(٣)].

٣ ـ بناء مسجد الضرار:

ومن صور ولاء المنافقين بعضهم لبعض تناصرهم وتعاونهم على بناء مسجد الضرار، ليكون قاعدة مكر وكفر وإضرار بالمسلمين، فهم يتعاونون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين.

قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ**

---

(١) سورة البقرة: ١٤٢.

(٢) تفسير الطبري ٢/ ٤، وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ١٦٦، وتفسير الدر المنثور ١/ ٢٦٢، وتفسير فتح القدير ١/ ١٥٠.

(٣) سورة البقرة: ١٤٣.

وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[(١)] .

ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عناصر الكيد التي اشتمل عليها بناء مسجد الضرار بجوار مسجد قباء، وهي أربعة عناصر :

العنصر ا لأول : مضارة المؤمنين من أهل مسجد قباء الذي بناه رسول الله ـ ﷺ ـ مَقْدَمَه من مكة مهاجرًا قبل وصوله إلى المدينة .

العنصر الثاني : كونه كفرًا ، أي أنشأه المنافقون بباعث الكفر وتقويته وتسهيل أعماله من فعل وترك، كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هناك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم في مسجد واحد، والتشاور فيما بينهم في الكيد لرسول الله ـ ﷺ ـ والطعن فيه، إلى نحو أولئك من مقاصد المنافقين .

العنصر الثالث : التفريق بين المؤمنين ، فإنهم كانوا يصلون جميعًا في مسجد قباء، وفي ذلك حصول التعارف والتآلف والتعاون والتناصر وجمع الكلمة، وهي أهم مقاصد الإسلام الاجتماعية، فقصد المنافقون من إنشاء مسجد الضرار استدراج بعض المؤمنين إليه، بغية ضمهم مستقبلا إلى صفوفهم وإعطاء ولائهم لهم .

العنصر الرابع : الانتظار والترقب لمن حارب الله ورسوله أن يجيء محاربًا فيجد مكانًا مرصدًا له، وقومًا راصدين مستعدين للحرب معه، وهم

---

(١) سورة التوبة : ١٠٧ ـ ١٠٨ .

أولئك المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصداً لذلك[١] .

ثم ذكر الله عز وجل آثار مسجد الضرار في نفوس الأشرار ، وبناة كل مساجد الضرار بقوله تعالى : ﴿ **لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾[٢] .

إن صورة البناء المنهار لهي صورة الريبة والقلق وعدم الاستقرار . . تلك صورة مادية وهذه صورة شعورية . . وهما تتقابلان في اللوحة الفنية العجيبة التي يرسمها التعبير القرآني الفريد . وتتقابلان في الواقع البشري المتكرر في كل زمان . فما يزال صاحب الكيد الخادع مزعزع العقيدة ، حائر الوجدان ، لا يطمئن ولا يستقر ، وهو من انكشاف ستره في قلق دائم ، وريبة لا طمأنينة معها ولا استقرار[٣] .

٤ ـ حديث الإفك:

ومن صور ولاء المنافقين بعضهم لبعض مشاركتهم وتعاونهم على إشاعة حديث الإفك ، وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة ، والذي تولى كبره وقاد حملته واضطلع منه بالنصيب الأوفى كان هو عبد الله بن أبيّ بن سلول ، رأس النفاق ، وحامل لواء الكيد . ولقد عرف كيف يختار مقتلاً ، لولا أن الله عز وجل كان من ورائهم محيطًا ، وكان لدينه حافظًا ، ولرسوله عاصمًا ، وللمسلمين راعيًا .

---

(١) انظر : تفسير المراغي ٤/ ٢٥ ـ ٢٦ ، وظاهرة النفاق ٢/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

(٢) سورة التوبة : ١١٠ .

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٧١٢ .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١] .

جاء في البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : « . . . وكان صفوان بن المعطّل السُّلمي ثم الذكواني [٢] قد عرّس[٣] من وراء الجيش، فادّلج[٤] ، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني، فعرفني حين رآني، وكان قد رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[٥] حين عرفني، فخمّرت وجهي بجلبابي، والله ما كلّمني كلمةً، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ[٦] راحلته، فوطئ على يدها، فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش، بعد ما نزلوا موغرين [٧] في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولّى كبره عبد الله بن أبيّ بن سلول..»[٨] .

---

(١) سورة النور: ١١ .

(٢) هو: صفوان بن المعطل بن رَبَيضة بن خُزاعة بن محارب بن مُرَّة بن فالج بن ذكوان ابن ثعلب بن بهثة بن سليم بن منصور، السلمي الذكواني، يكنى أبا عمرو. شهد الخندق والمشاهد بعدها، وكانت الخندق سنة خمس. وكان صفوان شجاعًا خيرًا فاضلاً، وله دار بالبصرة، وقتل في غزوة أرمينية شهيدًا سنة تسع عشرة في خلافة عمر (أسد الغابة ٣/ ٣٠).

(٣) التعريس: النزول آخر الليل في السفر لنوم أو استراحة (شرح النووي ١٧/ ١٠٥).

(٤) ادّلج: بتشديد الدال، وهو سير آخر الليل (المصدر السابق).

(٥) أي: انتبهت من نومي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون (المصدر السابق).

(٦) أناخ: أبرك (لسان العرب ٣/ ٦٥).

(٧) الموغر: النازل في وقت الوغرة، وهي شدة الحر (شرح النووي ١٧/ ١٠٥، وانظر: تاج العروس ٧/ ٥٩٣).

(٨) رواه البخاري في المغازي، باب حديث الإفك ٧/ ٤٣١ ـ ٤٣٥، وفي تفسير سورة النور =

ويتجلى تناصرهم وتعاونهم على حديث الإفك حين عُلم أنهم ليسوا فردًا ولا أفرادًا؛ إنما هم عصبة متجمعة ذات هدف واحد. ولم يكن عبد الله بن أبي ابن سلول وحده هو الذي أطلق ذلك الإفك، إنما هو الذي تولى معظمه. وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة؛ فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية. وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة. ثم خدع فيها المسلمون فخاض منهم من خاض في حديث الإفك. أما أصل التدبير عند تلك العصبة، وعلى رأسها ابن سلول الماكر الذي لم يظهر بشخصه في المعركة، ولم يقل علانية ما يؤخذ به، فيقاد إلى الحد. إنما كان يهمس به بين ملئه الذين يطمئن إليهم، ولا يشهدون عليه. وكان التدبير من المهارة والخبث بحيث أمكن أن ترجف به المدينة شهرًا كاملاً، وأن تتداوله الألسنة في أطهر بيئة وأتقاها.

ثم سارع الله عز وجل بعد ذلك بتطمين المسلمين من عاقبة هذا الكيد الخبيث بقوله: ﴿ **لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾[1].

فهو خير أن يكشف الله العليم الخبير للمسلمين ـ بهذه المناسبة ـ عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم. وهذه الخيرية تتمثل في أمرين:

الأمر الأول: أن المنافقين لا يفتؤون ينتهزون كل حدث للإفساد ولإشاعة البلبلة والاضطراب وشق صفوف المسلمين وهدم وحدتهم وتمزيقها، بما

= ٨/ ٤٥٢ـ٤٥٥، وفي الشهادات ٥/ ٢٦٩ـ٢٧٢.

ورواه مسلم في كتاب التوبة، باب حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم الحديث: ٥٦(٢٧٧٠) بشرح النووي ١٧/ ١٠٢ـ١١٦.

(١) سورة النور: ١١.

ينشرون من أكاذيب ومفتريات وأنواع من الإفك، وبما يذيعونه ويشيعونه من إرجافات.

فعلى المسلمين أن يكونوا يقظين حذرين، لا يستجيبون لدسائس المنافقين، ووساوس المغرضين، وهمسات الأعداء المخالطين.

الأمر الثاني: أن المجتمع المسلم مهما عظُمت تربيته الإسلامية، وصلح حاله، وارتقى فوق سائر المجتمعات، فإنه لا يخلو من وجود أفراد فيه يتأثرون بالشائعات الكواذب، ويبنون على الظنون الضعيفة، ويتابعون بتحركاتهم أصحاب الأغراض الخاصة وأهل الأهواء، ويستجيبون لوساوس المنافقين ودسائسهم.

وانكشاف هذين الأمرين في المجتمع الإسلامي الأول استدعى إنزال بيانات وتشريعات ربانية، يحمي الله بها المجتمعات الإسلامية القادمة من شرور هذين الأمرين، إذا التزموا بهذه البيانات وأحكام هذه التشريعات، وعملوا بما جاء فيهما.

وهذا خير عظيم جلبه حدوث هذه الظاهرة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي الأول، إذ كان رسول الله ـ ﷺ ـ فيه، وكانت آيات الله تنزل عليه[١].

٥ ـ ولاؤهم ليهود بني نضير:

ومن ولاء المنافقين بعضهم لبعض في الحياة الدنيا تعاونهم على ولائهم في السر ليهود بني نضير، إذ بعثوا إليهم يشدّون أزرهم، ويعدونهم بالنصر، حين حاصرهم الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه، ثم أجلاهم، لأنهم دبّروا أمر قتله غيلة

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٠٠، وظاهرة النفاق ٢/ ١٠ ـ ١١.

وهو في حيّهم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾[١].

هذه حكاية عن المنافقين، إذ بعثوا إلى إخوانهم من يهود بني النضير، حين نزل بهم رسول الله ـ ﷺ ـ للحرب أن اثبتوا وتمنّعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، فتربصوا لذلك من نصرهم، فلم يفعلوا وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ـ ﷺ ـ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة[٢].

والله يشهد إن هؤلاء المنافقين الذين وعدوا بني النضير النصرة على محمد ـ ﷺ ـ لكاذبون في وعدهم إياهم من ذلك. لئن أخرج بنو النضير من ديارهم فأجلوا عنها لا يخرج معهم المنافقون الذين وعدوهم الخروج من ديارهم، ولئن قاتلهم محمد ـ ﷺ ـ لا ينصرهم المنافقون الذين وعدوهم النصر، ولئن نصر المنافقون بني النضير ليولُّنّ الأدبار منهزمين عن محمد ـ ﷺ ـ وأصحابه هاربين منهم، ثم لا ينصرون، بل هم مخذولون[٣].

ثم ذكر تعالى السبب في عدم نصرة المنافقين لليهود والدخول مع المؤمنين

---

(١) سورة الحشر: ١١ ـ ١٢.

(٢) حلقة الإناء: ما بقي بعد أن تجعل فيه من الشراب أو الطعام إلى نصفه، فما كان فوق النصف إلى أعلاه فهو الحلقة (لسان العرب ١/ ٥٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٢/ ٤٤، وتفسير ابن كثير ٤/ ٢٩٨، وتفسير البغوي ٨/ ٨٠ ـ ٨١.

في قتال، وهو أنهم يخافون المؤمنين أشد مما يخافون الله .

قال تعالى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾[(١)] .

فهم يخافون المؤمنين أشد مما يخافون الله، ولو خافوا الله ما خافوا أحدًا من عباده. فإنما هو خوف واحد ورهبة واحدة. ولا يجتمع في قلب خوف من الله وخوف من شيء سواه. وبهذا، يعرف أن سبب الرهبة للمسلمين من دون الله أنهم لا يفقهون قدر عظمة الله تعالى، ولا يعلمون أن العزة لله جميعًا، فهم لذلك يستخفون بمعاصيه ولا يرهبون عقابه قدر رهبتهم للمسلمين.

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾[(٢)] .

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾[(٣)] .

ويضرب للمنافقين الذين أغروا إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بالمقاومة، فانتهوا بهم إلى تلك النهاية البائسة، يضرب لهم مثلاً بحال دائمة، حال الشيطان مع الإنسان الذي يستجيب لإغرائه فينتهي وإياه إلى مصير سيئ.

قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا

---

(١) سورة الحشر: ١٣.

(٢) سورة الحشر: ١٣.

(٣) سورة النساء: ٧٧.

وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾[1] .

فهاتان الآيتان تكشفان التشابه بين المنافقين الذين وعدوا إخوانهم من الكافرين الصُّرحاء بنصرتهم . . ، وبين الشيطان الذي يعد الإنسان ويمنيه بغرور .

الشيطان منافق جبان ، وسواس خنّاس ، والمنافق شيطان جبان وسواس خناس ، وكلاهما إذا حدّثا كذبا ، وإذا وعدا أخلفا ، وإذا ائتمنا خانا ، وإذا خاصما فجرا ، ، وإذا عاهدا غدرا ، وإذا استُنْصرا خذلا ، وكلاهما يغريان ويغويان ، لاشتراكهما في الصفات الأساسية التي ينجم عنها النفاق وأعمال الشياطين[2] .

ومما سبق يتجلى لنا أن المنافقين ـ في هذه الحياة ـ لا يوالون ولا يودون إلا لبعضهم ، أو لإخوانهم المشاركين لهم في الكفر الذي عقد بينهم أخوة خاصة قائمة على الاتحاد في الكفر بالله وبرسوله .

كما يتضح لنا أن ولاء المنافقين بعضهم لبعض ، أو لإخوانهم من الكافرين ، مهما تنوعت صوره ، واختلفت نماذجه ، إلا أنه ينتهي إلى النهاية البائسة ، ذلك لأن ولاءهم لا يقوم إلا على أساس ضعيف هزيل ، فليس في معنى ولايتهم من الإشعار بالإخلاص والعزة . وهم يقلدون أكابرهم اقتضاء للهوى والطبيعة والعادة ، فلا يتبعونهم على بصيرة ، ومن كان شأنهم هذا فكيدهم ضعيف ، وولاؤهم هزيل .

---

(١) سورة الحشر : ١٦ـ١٧ .

(٢) انظر : ظاهرة النفاق ١/ ٧١٩ .

إنما ينال المنافقون من المسلمين عندما تتفرق قلوب المسلمين، فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين الصادقين. فأما في غير هذه الحالة فالمنافقون أضعف وأعجز، وهم وإخوانهم من الكافرين متفرقو الأهواء والمصالح والقلوب.

قال تعالى: ﴿ **لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ** ﴾[1].

* * *

(١) سورة الحشر: ١٤.

المبحث الثالث
عداوة المنافقين للمؤمنين في الحياة الدنيا

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (١) .

ذكر الله سبحانه في هذه الآية أن المنافقين كانوا أشكالاً حسنة، وذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والهلع والجزع والجبن، يظنون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم، نازلة بهم، لفرط جبنهم، وفراغهم النفسي، وإحساسهم بالهزيمة من الداخل، فهم صور بلا معاني، أو أشباح بلا أرواح، كما قال تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾(٢) .

وقوله تعالى: ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾(٣) يقتضي الحصر، أي: لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم، وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا

---

(١) سورة المنافقون: ٤ .
(٢) سورة الأحزاب: ١٩ .
(٣) سورة المنافقون: ٤ .

يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم ومخالطتهم إياهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها. فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم ـ وهم في الباطن على خلاف دينهم ـ أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم، لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم. فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾[1] لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكفار المجاهرين[2].

فهم ـ بهذه الصفة وغيرها من الصفات الذميمة ـ أعداء المؤمنين في الحياة الدنيا، فينبغي الحذر من أقوالهم والميل لكلامهم والحرص من تآمرهم وتخذيلهم بعض ضعفة المؤمنين، وإطْلاعهم على أسرار الأمة، حتى لا تتسرب إلى الأعداء.

إن المنافقين هم العدو الحقيقي، العدو الكامن داخل المعسكر، المختبئ في الصف، وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح، ولذلك وردت البيانات القرآنية التي تحذر المؤمنين من هؤلاء المنافقين، ليأخذوهم بخطة فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم ومكرهم، فمن تلك البيانات القرآنية:

---

(١) سورة المنافقون: ٤.

(٢) طريق الهجرتين ص: ٤٠٢.

ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾[٢].

ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه البيانات القرآنية أنه لا ينبغي للمسلمين

---

(١) سورة آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠.

(٢) سورة النساء: ٨٨ ـ ٩١.

التردد في أمر المنافقين وانقسامهم فئتين: فئة تزكيهم وتشهد لهم بالخير، وفئة تطعن بهم وتشهد لهم بالكفر. مع أن دلائل كفرهم ظاهرة جلية، فيجب على المسلمين أن يقطعوا بكفرهم ويقاتلوهم حيثما وجدوا.

ورد في الصحيحين «أن قومًا خرجوا مع رسول الله - ﷺ - إلى أحد فرجعوا، فاختلف فيهم المسلمون، فقالت فرقة: نقتلهم، وقالت فرقة: لا نقتلهم، فنزلت هذه الآية: ﴿**فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا...**﴾[1] »[2].

لقد حذر الله تعالى المؤمنين من المنافقين. ذلك لأنهم قد كفروا، على الرغم من أنهم تكلموا بما تكلم به المسلمون، ونطقوا بالشهادتين نطقًا يكذبه العمل في مظاهرة أعداء المسلمين.. وهم لا يريدون أن يقفوا عند هذا الحد، فالذي يكفر لا يستريح لوجود الإيمان في الأرض ووجود المؤمنين. ولا بد له من عمل وسعي، ولابد من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر، ليكونوا كلهم سواء.

وإذا كان الأمر كذلك، فقد حذر الله المؤمنين أن يعقدوا بينهم وبين المنافقين روابط المحبة والأخوة والنصرة حتى يهاجروا في سبيل الله إلى دار الإسلام.

والقرآن إذ حذر المؤمنين من المنافقين - بأنهم العدو الحقيقي المختبئ في

---

(١) سورة النساء: ٨٨.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب﴿**فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا**﴾، رقم الحديث: ٤٥٨٩، فتح الباري ٨/ ١٠٤. صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين، رقم الحديث: ٦ (٢٧٧٦) بشرح النووي ١٧/ ١٢٣.

داخل الصف، وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح - ليبين لهم الأساليب التي استخدمها المنافقون في تحقيق عداوتهم للمؤمنين، وذلك ليكون المؤمنون على بصيرة من أمرهم، وليثقوا بالنجاة من مكائد المنافقين وسعاياتهم. فمن تلك الأساليب:

١ - السخرية بالمؤمنين:

إن المنافقين في تحقيق عداوتهم للمؤمنين دأبوا - كغيرهم من إخوانهم الكافرين - على اتهام المؤمنين الصادقين بالجهل والسفاهة والرذالة وغير ذلك من الألقاب القبيحة والصفات الذميمة والأسماء المكروهة.

وهذه عادة قديمة ورثها هؤلاء المنافقون من كفار الأمم السابقة؛ ذلك لأن الكفر ملة واحدة، فهم تجمعهم وحدة في التصور، وتشابه في المواقف.

قال تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴾[2].

إن المنافقين لا يرضيهم من المؤمنين شيء، فإن تصدق أحد المؤمنين بالمال الكثير قالوا عنه: إنه يبذل رياء، وإن تصدق بالقليل لأنه لا يجد أكثر منه،

---

(١) سورة الذاريات: ٥٢ - ٥٣.

(٢) سورة البقرة: ١٣ - ١٤.

قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. يجرحون صاحب الكثير لأنه يبذل كثيرًا، ويحتقرون صاحب القليل لأنه يبذل القليل. فلا يسلم من تجريحهم وعيبهم أحد من الخيرين. ومع عيبهم هذا يسخرون من المؤمنين ويستهزئون بهم ويضحكون منهم.

قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[١].

ويؤكد القرآن الكريم أن سخرية المنافقين مهما صيغت في كلام أو صورت في شيء محسوس، فإنها متعمقة في قلوبهم، نابعة من أعماق نفوسهم، ولذلك كانوا يتوجسون دائمًا ويخافون من نزول القرآن، لأن الله سبحانه يكشف فيه عن أسرارهم، ويفضح مكنوناتهم، بل يفضح مشاعرهم وخبايا نفوسهم، وهو أخطر ما يخشاه المنافقون، لأنهم يفعلون كل ما يفعلون، ويكبدون أنفسهم كل جهد، في سبيل أن تظل أسرارهم ونفوسهم مغلقة معماة على المسلمين، ولكن القرآن يذهب جهودهم هباء حين يكشف للمسلمين ما جهد المنافقون في إخفائه[٢]، وذلك من رحمة الله بعباده المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ** ﴾[٣].

---

(١) سورة التوبة: ٧٩.
(٢) أسلوب السخرية في القرآن الكريم لعبد الحليم الحفني ص: ٣٠٤.
(٣) سورة التوبة: ٦٤ ـ ٦٥.

٢- الإفساد بين المؤمنين:

ومن الأساليب التي استخدمها المنافقون في تحقيق عداوتهم للمؤمنين الإفساد بين المؤمنين؛ وذلك بأن يسعوا فيما بين المؤمنين بالنميمة والفساد، وتفريق الكلمة، وإفساد ذات البين، ويطلبون الفتنة لهم، بإيقاع الخلاف فيما بينهم، وإفساد نياتهم، وتشكيكهم في دينهم، والتثبيط عن القتال، والتخويف من قوة الأعداء، وفي المؤمنين قوم ضعفة يسمعون للمنافقين.

قال تعالى: ﴿**لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾(١) .

قد يحرص بعض المسلمين على انضمام بعض الناس إليهم، والعمل معهم ظناً منهم أنهم منهم، وأنهم ينفعونهم إذا خرجوا معهم. ولكن الله يعلم غير ذلك، يعلم أنهم لو خرجوا مع المسلمين لما زادوهم إلا خبالاً، أي: فساداً بالنميمة وإيقاع الاختلاف بين المسلمين وبث الأراجيف، ولأوضعوا خلال المسلمين، أي: لأسرعوا فيما بينهم بالنميمة والبغضاء والفتنة. وفي المسلمين سماعون لأولئك المنافقين، أي: مطيعون لهم ومستجيبون لحديثهم وكلامهم يستنصحونهم، وإن كانوا لا يعلمو ن حالهم فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير(٢) .

ومن صور إفساد المنافقين بين المؤمنين أنهم يزيلون الزرع الذي زرعه

---

(١) سورة التوبة: ٤٧ـ٤٨.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢ / ٣١٢، وتفسير البغوي ٤ / ٥٦، وتفسير القاسمي ٨ / ٢٢٩.

المؤمنون، ويتلفونه بالحرق أو القطع أو غيرهما من وسائل الإفساد والتعطيل والإهلاك، ويتلفون الولد بالقتل المباشر أو غير المباشر، مستخدمين في ذلك ما لديهم من وسائل الهدم. والهدف من هذا هو هدم بنيان الأمة المسلمة، وتضعيفها اقتصاديًا وبشريًا.

قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾[١].

إن المنافقين إذا انصرفوا إلى العمل كانت وجهتهم الشر والفساد، في قسوة وجفوة ولدد، تتمثل في إهلاك كل حي من الحرث الذي هو موضع الزرع والإنبات والإثمار، ومن النسل الذي هو امتداد الحياة بالإنسال.. وإهلاك الحياة على هذا النحو كناية عما يعملون في كيان هؤلاء الناس من الحقد والشر والغدر والفساد.. مما كان يسترهم حلاوة اللسان ونعومة الدهان، والتظاهر بالخير والبر والسماحة والصلاح. والله لا يحب المفسدين الذين ينشئون في الأرض الفساد.. والله لا تخفى عليه حقيقة هذا الصنف من الناس[٢].

٣-الشماتة[٣] بالمؤمنين:

ومن الأساليب التي استخدمها المنافقون في عداوتهم للمؤمنين: الشماتة بالمؤمنين. إن جاءت المؤمنين حسنة يحزن المنافقون، حسدًا منهم على ما

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ١ / ٢٠٥.

(٣) الشماتة: الفرح ببلية العدو، وفي التنزيل العزيز: ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ﴾ سورة الأعراف: ١٥٠ (انظر: لسان العرب ٢ / ٥١، وتاج العروس ٣ / ٨٠).

آتاهم الله به من النعم، وما جاءهم به من الرحمة، وما امتن عليهم به من الفضل. وإن أصاب المؤمنين مكروه أو حل بهم ما يحزنهم تغمر المنافقين الفرحة، وتأخذهم الشماتة ويعمهم السرور.

قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[1].

وهذه الحال دالة على شدة العداوة من المنافقين للمؤمنين، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد، وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سيئة، أي: جدب أو أديل عليهم الأعداء ـ لما لله تعالى في ذلك من الحكمة ـ فرح المنافقون بذلك.

ثم أرشد الله تعالى المؤمنين إلى السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته. ومن توكل عليه كفاه[2].

وهكذا لا يريد المنافقون بالمؤمنين خيراً، كما أنهم يفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب وما ينزل بهم من مشقة، ويقولون: قد احتطنا ألا نصاب مع المؤمنين بشر، وتخلفنا عن الكفاح والغزو، وينصرفون عن الموضع الذي يقولون فيه هذا القول وهم فرحون، فرح البطر والشماتة.

ذلك أنهم يأخذون بظواهر الأمور، ويحسبون البلاء شراً في كل حال،

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٤٣.

ويظنون أنهم يحققون لأنفسهم الخير بالتخلف والقعود. وقد خلت قلوبهم من التسليم لله، والرضى بقدره، واعتقاد الخير فيه. والمسلم الصادق يبذل جهده ويقدم لا يخشى، اعتقاداً بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله، وأن الله ناصر له ومعين[١].

قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٢].

٤- تخذيل[٣] المؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤].

أي: ليعلم الله الذين نافقوا، وهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول وأصحابه الذين رجعوا عن رسول الله ـ ﷺ ـ حين سار إلى عدوه من المشركين الغزاة يوم أحد، خاذلين له في لحظة من أصعب اللحظات، قائلين له في لهجة مشبعة بالخذلان ـ بعد أن دعوا للجهاد في سبيل الله ـ: لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٦٦٤، وتفسير المراغي ٤/ ١٣٤.
(٢) سورة التوبة: ٥٠ ـ ٥١.
(٣) خذله: ترك نصره وعونه، والتخذيل: حمل الرجل على خذلان صاحبه، وتثبيطه عن نصرته (لسان العرب ١١/ ٢٠٢، وتاج العروس ١٤/ ١٩٥).
(٤) سورة آل عمران: ١٦٧ ـ ١٦٨.

معكم إليهم، ولكنّا معكم عليهم، ولكن لا نرى أن يكون بينكم وبين القوم قتال؛ فأبدوا من نفاق أنفسهم ما كانوا يكتمونه، وأبدوا بألسنتهم بقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾(١)، غير ما كانوا يكتمونه ويخفونه من عداوة رسول الله ـ ﷺ ـ والمؤمنين به(٢).

إن المنافقين لم يكتفوا بالتخلف وما يحدثه هذا التخلف من رجّ وزلزلة في الصفوف والنفوس. بل راحوا يثيرون الزلزلة والحسرة في قلوب أهل الشهداء وأصحابهم بعد القتال، وهم يقولون: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾(٣)، فيجعلون من تخلفهم مصلحة، ويجعلون من طاعة الرسول ـ ﷺ ـ وأتباعه مضرة.

فكان جواب القرآن عليهم: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما قلتم، وهذه من الأساليب القرآنية التي اتبعت في رد مقالات الكفار، وهو أسلوب تربوي، يضع الحقائق أمام المنكرين، بعيداً من المبالغات، وذلك لإتاحة الفرصة لهم في إعادة التفكير، ومراجعته أمام حقيقة أن الموت لا محالة آت، وأن كل نفس ذائقة الموت أينما كانت، ومهما كانت، قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾(٤).

وهكذا يخذّل المنافقون المؤمنين، ويتركون نصرتهم في لحظة من أصعب اللحظات، فهم ليتثاقَلُن ويتأخرُنّ عن الجهاد، ويرغبون عن القتال، لأنهم لا

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري ٣/ ٥١٠، وتفسير ابن كثير ١/ ٣٦٥، وتفسير فتح القدير ١/ ٣٩٦.
(٣) سورة آل عمران: ١٦٨.
(٤) سورة النساء: ٧٨.

يحبون أن يبقى الإسلام وأهله، ولا أن يدافعوا عنه. فهم يبطئون عن القتال ويبطئون غيرهم عن النفر إليه.

قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً** ﴾[١] .

٥- التربص[٢] بالمؤمنين:

ومن الأساليب التي استخدمها المنافقون في تحقيق عداوتهم للمؤمنين التربص بالمؤمنين، بمعنى أنهم ينتظرون زوال دولتهم وظهور الكفرة عليهم وذهاب ملتهم، فإن كان للمؤمنين نصر وتأييد وظفر وغنيمة قال لهم المنافقون: ألم نكن معكم. وإن كان للكافرين غلبة على المسلمين قالوا لهم: ألم نساعدكم في الباطن. فالمنافقون يصانعون الكافرين والمسلمين، وإن كان ودهم وميلهم مع الكافرين، ولكن لا يريدون الظهور معهم علانية ولا يتحملون الجهد في محاربة المسلمين.

قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾[٣]

ولما كانت الخطة التي اتبعها الرسول - ﷺ - بتوجيه ربه في عداوة المنافقين للمؤمنين هي الإغضاء والإعراض وتحذير المؤمنين وتبصيرهم بأمرهم؛ في

---

(١) سورة النساء: ٧٢.

(٢) التربص: الانتظار. وتربّص به: انتظر به خيرًا أو شرًا (لسان العرب ٧ / ٣٩، وتاج العروس ٩ / ٢٨٧).

(٣) سورة النساء: ١٤١.

الطريق إلى تصفية هذا المعسكر اللعين ! فإنه يكلهم هنا إلى حكم الله في الآخرة؛ حيث يكشف الستار عنهم، وينالهم جزاء ما يكيدون للمؤمنين ﴿**فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[١]، حيث لا مجال للكيد والتآمر والتربص، ولا مجال لإخفاء مكنونات الصدور.

ويطمئن المؤمنون من الله بوعده القاطع، أن هذا التربص الخبيث، لن يغير ميزان الأمور، ولن يجعل الغلبة والقهر للكافرين على المؤمنين: ﴿**وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾[٢].

وفي تفسير هذه الآية ورد قول إن المقصود بهذا النص يوم القيامة؛ حيث يحكم الله بين المؤمنين والمنافقين، فلا يكون هناك للكافرين على المؤمنين سبيل[٣].

كما ورد قول آخر بأن المقصود هو الأمر في الدنيا، بأن لا يسلط الله الكافرين على المسلمين تسليط استئصال. وإن غلب المسلمون في بعض المعارك وفي بعض الأحايين، فإن العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[٤]، وعلى هذا فيكون ردًا على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفًا على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين

---

(١) سورة النساء: ١٤١.

(٢) سورة النساء: ١٤١.

(٣) ذهب إلى هذا القول علي بن أبي طالب وابن عباس (انظر: تفسير ابن كثير ١ / ٤٨٧، وتفسير البغوي ٢ / ٣٠٢، وتفسير الدر المنثور ٢ / ٤١٦، وتفسير فتح القدير ١ / ٥٢٨).

(٤) سورة غافر: ٥١.

فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾[١] [٢] .

وإطلاق النص في الدنيا والآخرة أقرب، ولعله أولى، لأنه ليس فيه تحديد[٣] .

والأمر بالنسبة للآخرة لا يحتاج إلى بيان أو توكيد، أما بالنسبة للدنيا فقد يقول قائل: إذا كان وعدًا لم يجز تخلفه، ونحن نرى الكافرين ينتصرون على المؤمنين انتصارًا بيّنًا، وربما تملّكوا بلادهم وطال ذلك، فكيف تأويل هذا الوعد؟.

إنه وعد من الله قاطع، وحكم من الله جامع: أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين، وتمثلت في واقع حياتهم منهجًا للحياة، ونظامًا للحكم، وتجردا لله في كل خاطرة وحركة، وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة.. فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً. فالمراد بالمؤمنين في هذا النص المؤمنون الصادقون الذين تلبسوا بالإيمان بسائر أحواله وأصوله وفروعه، ونصروا دين الله، وجاهدوا في سبيله، ولو استقام المؤمنون على ذلك لما نال الكافرون منهم منالاً، ولدفعوا عن أنفسهم خيبة ومنالاً[٤] .

---

(١) سورة المائدة: ٥٢ .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١ / ٤٨٧، وتفسير روح المعاني ٥ / ٢٥٦، وتفسير القاسمي ٥ / ٥٢٨ .

(٣) انظر: تفسير روح المعاني ٥ / ٢٥٦، وفي ظلال القرآن ٢ / ٧٨٢ .

(٤) انظر: في ظلال القرآن ٢ / ٧٨٢، وتفسير التحرير والتنوير ٥ / ٢٣٨، وتفسير القاسمي ٥ / ٥٢٩ .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾[1] .

وهكذا ينتهي تربص المنافقين بالمؤمنين بفرح المؤمنين وسعادتهم، بحيث لا ينتظر المنافقون بالمؤمنين إلا إحدى الخصلتين، اللتين كل منهما حسنى العواقب وفضلاها، وهما: النصر أو الشهادة، فإما أن يقتلوا في سبيل الله، وينالوا شرف الشهادة، فرحين بما آتاهم الله من فضله، مستبشرين بنعمه وفضله، فهذه حسنى. وإما أن ينتصروا على الكافرين، وتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وهذه حسنى أيضا.

أما المنافقون فينتظرهم المؤمنون بإحدى السيئتين، وهما أن يصيبهم الله بعذاب من عنده، أو أن يسلط الله المؤمنين عليهم بالقتل أو غيره.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾[2] .

٦- تعرضهم بالأذى لنساء المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً

---

(١) سورة محمد: ٧ ـ ٨.

(٢) سورة التوبة: ٥٢.

(٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[١] .

كان أهل الزنا من أهل النفاق يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة، فيعرضون للنساء، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة، فإذا كان الليل خرجت النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن، فكان أولئك المنافقون يبتغون ذلك منهم، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب، قالوا: هذه حرة فكفوا عنها، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا: هذه أمة فوثبوا عليها[٢] .

فالمنافقون بحكم عداوتهم للمؤمنين لا يلتزمون بالمحافظة على أعراض الناس - كالمؤمنين الصادفين -، فنتج عن ذلك أنهم يتبعون شهواتهم في تعرضهم للنساء إذا خرجن من بيوتهن، ولم يكن هناك ما يميز نساء المؤمنين عن غيرهن، فأمر الله نساء الرسول - ﷺ - وبناته وسائر نساء المؤمنين بارتداء لباس يميزهن عن سائر النساء في ذلك المجتمع المختلط حتى لا يتجرأ على الاعتداء عليهن أحد من المنافقين وغيرهم من أهل الفسق.

ومن ذلك نرى الجهد المستمر في تطهير مجتمع المدينة، والتوجيه المطرد لإزالة كل أسباب الفتنة والفوضى، وحصرها في أضيق نطاق، ولذلك هدّد الله عز وجل المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين الذين ينشرون الشائعات المزلزلة في صفوف المسلمين، بأنهم إذا لم يرتدعوا عما يأتونه من هذا كله، وينتهوا عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات، أن يسلط الله عليهم نبيه كما سلطه على اليهود من قبل، فيطهر منهم جو المدينة، ويطردهم من الأرض،

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٩-٦٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٢، وتفسير الطبري ١٠/ ٣٣٣.

ويبيح دمهم فحيثما وجدوا أخذوا وقتلوا.

قال تعالى: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[1].

فالمنافقون لا يستحقون أن يكونوا نزلاء المدينة وسكانها الأعزاء؛ لأنها بعدما أصبحت مهجر النبي - ﷺ - ومهبط الوحي، وعاصمة المسلمين الأولى، صارت مقدسة، يجب صيانتها من الأرجاس، وحفظها من الرذيلة، وإبعادها عن عبث العابثين، وفساد المفسدين، وكيد الكائدين.

ورد في صحيح مسلم عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أن رسول الله - ﷺ - قال: «(ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص أو الملح في الماء)»[2].

وفي صحيح مسلم أيضا عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله - ﷺ -: «(أمرت بقرية تأكل القرى[3] يقولون[4]: يثرب، وهي المدينة تنفي الناس كما

---

(١) سورة الأحزاب: ٦٠-٦٢.

(٢) صحيح مسلم كتاب الحج، باب فضل المدينة..، رقم الحديث: ٤٦٠ (...) بشرح النووي ٩ / ١٣٧.

(٣) معناه: أمرت بالهجرة إليها واستيطانها. وذكروا في معنى أكلها القرى وجهين، أحدهما: أنها مركز جيوش الإسلام في أول الأمر، فمنها فتحت القرى وغنمت أموالها وسباياها. والثاني: معناه أن أكلها تكون من القرى المفتتحة وإليها تساق غنائمها (شرح صحيح مسلم للنووي ٩ / ١٥٤).

(٤) قوله: يقولون: يثرب وهي المدينة، يعني: أن بعض الناس من المنافقين وغيرهم يسمونها =

ينفي الكير خَبَثَ الحديد)»[١] .

وبما سبق يتضح لنا أن المنافقين هم العدو الخفي الخطير على المؤمنين، بل أخطر من غيرهم من الكافرين الذين هم عدو المؤمنين الصريح. وقد استخدم هؤلاء المنافقون في تحقيق عداوتهم للمؤمنين الأساليب المتنوعة، والمكائد المختلفة، مما يدل على أن عداوتهم للمؤمنين في هذه الحياة الدنيا متعمقة في قلوبهم، نابعة من أعماق نفوسهم.

وجدير بالذكر أن معظم الأساليب التي استخدمها المنافقون في عداوتهم للمؤمنين تكون خفية مختبئة، وليست جلية علانية، مما يدل على أنهم جبناء لا يتحملون المواجهة المباشرة.

ثم تكون عاقبة المنافقين ـ بهذه العداوة الخبيثة ـ أن أخذوا وقتلوا. وهذه سنة الله في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن المؤمنين الصادقين يسلطون عليهم ويقهرونهم، وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير[٢] .

قال تعالى: ﴿ **مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾[٣] .

* * *

= يثرب، وإنما اسمها المدينة، وطابة، وطيبة، ففي هذا كراهة تسميتها يثرب (المصدر السابق)، وكانت تسمى بذلك قبل الهجرة.

(١) صحيح مسلم كتاب الحج، باب المدينة تنفي خبثها وتسمى طابة وطيبة، رقم الحديث: ٤٨٨ (١٣٨٢) بشرح النووي ٩ / ١٥٤ .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣ / ٤٤٢، وتفسير الطبري ١٠ / ٣٣٤، وتفسير البغوي ٩ / ٣٧٧، وتفسير القاسمي ١٣ / ٣١٠ـ٣١١ .

(٣) سورة الأحزاب: ٦١ـ٦٢ .

المبحث الرابع
نماذج من حياة المنافقين الدنيوية

كما تقدم في المبحث السابق أن المنافقين هم العدو الخفي المستتر، وأنهم أشد خطراً على المسلمين من الكافرين الذين هم العدو الظاهر. فاقتضت رحمة الله عز وجل بعباده المؤمنين أن يجلي لهم نماذج من حياة المنافقين الدنيوية، ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، ومن أهم هذه النماذج ما يلي:

(١) ادعاء الإيمان:

قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾[١].

قال مجاهد[٢] ـ رحمه الله ـ: «هذه الآية إلى ثلاثَ عشرة[٣] في نعت

---

(١) سورة البقرة: ٨.

(٢) هو: مجاهد بن جَبْر، أبو الحجاج المكي، المقرئ، المفسر، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي. ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ. وروى عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وقرأ عليه القرآن ثلاث عرضات. وعلى مجاهد قرأ القرآن عبد الله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء. توفي مجاهد بمكة سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع ومائة وهو ساجد، وله ثلاث وثمانون سنة (انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢ / ٣٠٥ ـ ٣٠٨، تذكرة الحفاظ للذهبي ١ / ٩٢، تهذيب التهذيب ١٠ / ٤٢).

(٣) من الآية: ٨ إلى الآية: ٢٠.

المنافقين[١]».

وفي هذه الآية ادعاء ونفي لهذا الادعاء، ادعاء من المنافقين بأنهم آمنوا بـــالله وباليوم الآخر، وهما أهم أركان الإيمان الستة، وغيرهما تبع لهما. فالمنافقون يدعون إحاطتهم بجانبي الإيمان أوله وآخره، وهذا لأن حاصل المسائل الاعتقادية يرجع إلى المبدأ، وهي: العلم بالخالق وصفاته وأسمائه وأفعاله، وإلى المعاد، وهي: العلم بالنشور والبعث من القبور والصراط والميزان وسائر أحوال الآخرة.

وفيها نفي للادعاء المذكور، وهو قد جاء مطلقًا غير مقيد بما ادعوه؛ ليشمل غيره من أركان الإيمان الأخرى، أي: أنهم ليسوا من الإيمان في شيء[٢].

إنهم يدّعون الإيمان بالله واليوم الآخر، وهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين، إنما هم المنافقون الذين لا يجدون في أنفسهم الشجاعة ليواجهوا الحق بالإيمان الصريح أو بالإنكار الصريح.

هذه الصورة، وإن كانت واقعة في المدينة في ذلك الزمان إلا أنها نجدها نموذجًا مكررًا في أجيال البشرية جميعًا، فهي موجودة في كل زمان وفي كل مكان.

---

(١) تفسير الطبري ١/ ١٤٩.

(٢) انظر: تفسير الآلوسي ١/ ٢٣٦، وتفسير أبي السعود ١/ ٤٠، والأساس في التفسير ١/ ٧٠، والمنافقون في القرآن الكريم لمحمد يوسف ص: ٣٧.

هذه الآية تعتبر منطلقًا ثابتًا ومرجعًا مهمًا لسلسلة طويلة من الآيات القرآنية التي تتحدث عن نماذج من حياة المنافقين الدنيوية.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾(٣).

و الآيات الثلاث تدل على مدى الاضطراب والقلق والخبث والحيرة والتناقض الذي يعيش فيه المنافقون. فهم عندما يلقون المؤمنين يدّعون بأنهم آمنوا، وعندما ينفردون مع رؤسائهم في النفاق والكفر يتبرؤون من ذلك الادعاء.

فادّعاء الإيمان نموذج من حياة المنافقين، وأن الله عز وجل يرد على هذا الادعاء الذي يكذبه العمل، وأن المنافقين لا يُسلّم لهم القول بالإيمان، فهم ليسوا من الإيمان في شيء.

---

(١) سورة البقرة: ١٤.

(٢) سورة البقرة: ٧٦ـ٧٧.

(٣) سورة آل عمران: ١١٩.

(٢) الحلف الكاذب:

لقد دأب المنافقون في حياتهم الدنيوية على الحلف الكاذب، حتى أصبح نموذجًا يختصون به، وعلامة من علاماتهم، فهو جزء من طبعهم. وقد نزلت في ذلك آيات كثيرة تبين للمؤمنين موقف هؤلاء المنافقين الكذّابين، وتكشف لهم خبثهم وعدم تورّعهم عن الحلف الكاذب، حتى لا يغتروا بأقوالهم المعسولة، المزينة بالأحلاف الكاذبة. ومن الآيات البيّنات:

١ـ قوله تعالى: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا** ﴾[١].

ذمّ الله عز وجل المنافقين عندما كانوا يبررون مواقفهم، ويبرئون ذممهم بالأحلاف الكاذبة، بحيث يعتذرون إلى الرسول ـ ﷺ ـ ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيره، وتحاكمنا إلى أعدائه إلا الإحسان والتوفيق، أي: المداراة والمصانعة، لا اعتقاداً منه صحة ذلك التحاكم، كما أخبرنا عز وجل عنهم في قوله: ﴿ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ** ﴾[٢]. وهذا وعيد شديد على ما فعلوا من الحلف الكاذب، وأنهم يندمون حين لا ينفع الندم.

---

(١) سورة النساء: ٦٢ـ٦٣.

(٢) سورة المائدة: ٥٢.

٢ـ قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[١] .

وبّخ الله سبحانه في هذه الآية المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد مظهرين أنهم أصحاب أعذار ؛ ولو كان الأمر أمر عرض الحياة الدنيا، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك، ولكنها الشقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة. فهم بهذا التخلف يحلفون بالله كاذبًا، وما يكذب إلا الضعفاء. أجل ما يكذب إلا ضعيف ولو بدا في صورة الأقوياء الجبارين في بعض الأحايين . فالقوي يواجه والضعيف يداور. وهم بهذا الحلف وبهذا الكذب، الذي يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس، والله يعلم الحق، ويكشفه للناس، فيهلك المنافقون الكاذبون في الدنيا بكذبهم، ويهلكون في الآخرة يوم لا ينفع الكذب والنكران[٢] : ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[٣] .

ولخطورة الحلف الكاذب الذي سماه الرسول ـ ﷺ ـ باليمين الغموس، جعله في ضمن كبائر الذنوب، بعد الشرك بالله . ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي ـ ﷺ ـ قال : «الكبائر الإشراك بالله، وعقوق

---

(١) سورة التوبة : ٤٢ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن ٣ / ١٦٦٢ .

(٣) سورة التوبة : ٤٢ .

الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس[(٤)]))[(٥)] . وفي رواية: **((الكبائر الإشراك بالله، واليمين الغموس، وعقوق الوالدين، وقتل النفس))**[(٣)] .

٣ـ قوله تعالى: ﴿ **وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ** ﴾[(٤)] .

يخبر الله عز وجل في هذه الآية عن فزع المنافقين وهلعهم أنهم يحلفون بالله يمينًا مؤكدة: إنهم لمن جملة المؤمنين، ثم نفى الله سبحانه عنهم ما ادعوه من الإيمان، وبين بصيغة جازمة أنهم ليسوا من المؤمنين في شيء، ولكنهم يدّعون هذا الادعاء الكاذب المؤكد بالحلف الكاذب، مخافة أن تجري عليهم أحكام الكفار الحربيين من القتل والسبي وغير ذلك .

وهكذا يكون الحلف الكاذب نموذجًا من حياة المنافقين، وقد نزلت في ذلك آيات كثيرة، ذكرناها فيما سبق على سبيل المثال لا الحصر .

---

(١) سميت بذلك، لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، وقيل: الأصل في ذلك أنهم كانوا إذا أرادوا أن يتعاهدوا أحضروا جفنة، فجعلوا فيها طيبًا أو دمًا أو رمادًا، ثم يحلفون عندما يدخلون أيديهم فيها ليتم لهم بذلك المراد من تأكيد ما أرادوا . فسميت تلك اليمين إذا غدر صاحبها غموسًا، لكونه بالغًا في نقض العهد، وكأنها على هذا مأخوذة من اليد المغموسة، فيكون فعول بمعنى مفعولة . ولا يتأتى في اليمين الغموس البر أصلاً (فتح الباري ١١ / ٥٦٤، وانظر: النهاية في غريب الحديث ٣ / ٣٨٦).

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان، باب اليمين الغموس، رقم الحديث: ٦٦٧٥، فتح الباري ١١ / ٥٦٤ .

(٣) صحيح البخاري كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْيَاهَا** ... ﴾، رقم الحديث: ٦٨٧٠، فتح الباري ١٢ / ١٩٩ .

(٤) سورة التوبة: ٥٦ .

(٣) الخداع والرياء:

ولعل من أبرز النماذج من حياة المنافقين الدنيوية الخداع والرياء؛ فالخداع ألصق بتسميتهم، وأدل على أعمالهم ومايدبرون، وهم يخادعون الله ويخدعون الناس، بل تقوم على صفة الخداع فيهم حياتهم كلها، فهم يتوهمون بذلك أنهم قد حققوا أغراضهم، وهم في الواقع أبعد ما يكونون عن ذلك.

ومما يتمم الخداع الرياء، لأن كليهما إظهار وإخفاء، إظهار الخير، وإخفاء الشر، أو إظهار الحسن، وإخفاء القبح.

ومن جهلهم أنهم يحسبون أنفسهم قادرين على مخادعة الله عز وجل بمخادعة رسوله والمؤمنين، ذلك لأن الله سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

ومن صورهم الكريهة أنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا رياء، ومن ثم يقومون كسالى، كالذي يؤدي عملاً ثقيلاً، أو يسخر سخرة شاقة.

وقد ذكر الله هذا النموذج الخبيث من حياة المنافقين في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[١].

وقال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا

---

(١) سورة النساء: ١٤٢.

يَشْعُرُونَ ﴾(١).

قال ابن جرير الطبري: «فإن قال قائل: وكيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعًا، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو معتقد إلا تقية؟

قيل: لا تمنع العرب من أن تسمي من أعطى بلسانه غير الذي هو في ضميره تقية لينجو مما هو له خائف، فنجا بذلك مما خافه ـ مخادعًا لمن تخلص منه بالذي أظهر له من التقية. فكذلك المنافق، سمي مخادعًا لله وللمؤمنين بإظهاره ما أظهر بلسانه تقية، مما تخلص به من القتل والسباء والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر مستبطن. وذلك من فعله ـ وإن كان خداعًا للمؤمنين في عاجل الدنيا ـ فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها، أنه يعطيها أمنيتها، ويسقيها كأس سرورها، وهو موردها به حياض عَطَبها، ومجرّعها به كأس عذابها، ومُزيرُها من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به. فذلك خديعته نفسه، ظَنًّا ـ مع إساءته إليها في أمر معادها ـ أنه إليها محسن»(٢).

ثم إن المنافقين قوم يراؤون الناس، بحيث لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة. ولهذا يتخلفون كثيرًا عن الصلاة التي لا يرون فيها غالبًا كصلاة العشاء وقت العتمة التي هي كظلام أول الليل عند سقوط نور الشفق، وصلاة الصبح في وقت الغلس الذي هو ظلام آخر الليل.

---

(١) سورة البقرة: ٩.

(٢) تفسير الطبري ١ / ١٥١، وتفسير ابن كثير ١ / ٤٦.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ: «(أثقل الصلاة على المنافق العشاء والفجر)»[(١)] .

(٤) اللّدَدُ في الخصومة والعزة بالإثم:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾[(٢)] .

إن المنافق أشد المخاصمين خصومة ومجادلة بالباطل، فيغالط، ويزوّر، ويزخرف الأقوال، ويكذب ويكتم، ليهيمن على الناس، ويقنعهم بآرائه وأفكاره التي له منها مصالح خاصة، ويلبسها زوراً وتزييفا أثواب ابتغاء الخير والمصلحة العامة .

وإنه مع هذا يقصد الفساد في الأرض، فليس له همة إلا في الفساد في الأرض، وإهلاك ما ينفع الناس من حرث ونسل، وإذا قيل له: اتق الله واترك ما أنت فيه من قول فاجر وسعي فاسد وارجع إلى الحق، امتنع وأبى وأخذته الحمية والكبر والطغيان والغضب بالإثم .

إن المنافقين قوم بعيدون عن مواطن طاعة الله ورحمته وغفرانه وعفوه،

---

(١) صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة، باب ذكر العشاء والعتمة . . ، فتح الباري ٢ / ٥٣ .

(٢) سورة البقرة: ٢٠٤ـ٢٠٦ .

فرفضوا دعوة الناصح الصادق الأمين، وربما سطوا عليه وبغوا، وربما زادوا فساداً في الأرض وطغيانًا، وإهلاكًا للحرث والنسل. ويظلّون هكذا حتى تأخذهم عزة الله وقدرته بجرائر آثامهم، فتهلكهم، ثم تقذف بهم في جهنم خالدين فيها.

فالمنافقون بهذا النموذج كغيرهم من إخوانهم المشركين الذين إذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء؛ ذلك لأن الكفر ملة واحدة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(١) .

(٥) عدم الوفاء بالعهد:

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾(٢) .

ومن النماذج التي تتجلى فيها حياة المنافقين عدم الوفاء بالعهد والغدر، حتى مع الله سبحانه وتعالى، بخلاف المؤمنين فإن العهد يلزمهم، فلا يغدرون

---

(١) سورة الحج: ٧٢.

(٢) سورة التوبة: ٧٥-٧٨.

ولا يخونون، فهم يوفون بعهدهم مع الله تعالى ومع الناس.

وهذه الآية تبين أن من المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه، لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين، فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة(١).

وهذه الآية تصور حالة عامة، وترسم نموذجًا مكررًا للنفوس التي لم تستيقن، ولم يبلغ الإيمان فيها أن يتمكن. فالمنافقون بهذه النفوس عاهدوا الله، لئن أنعم الله عليهم ورزقهم، ليبذلُن الصدقة، وليصلحن العمل. ولكن هذا العهد إنما كان في وقت فقرهم وعسرتهم. في وقت الرجاء والطمع. فلما أن استجاب الله لهم ورزقهم من فضله نسوا عهدهم بما عاهدوا. فكان هذا النكث بالعهد مع الكذب على الله فيه سببًا في التمكين والتغلغل للنفاق في قلوبهم، لا يُشفون منه، حتى نهاية آجالهم في الحياة الدنيا، ولقائهم ربهم منذ دخولهم باب الآخرة بالموت(٢).

ومن نماذج المنافقين في عدم وفائهم بالعهد، ما حدث في غزوة الأحزاب، حيث كانوا عاهدوا الله إذا حدثت حرب بين المسلمين والكافرين فلا يفرون ولا يهربون، بل يقاتلون قتال الأبطال، ويحاربون حرب الشجعان، فلما جاء القتل في غزوة الأحزاب أخلفوا وعدهم، ونكثوا عهدهم، وغدروا بالمسلمين، فنكصوا على أعقابهم، بل ودَعَوا الناس إلى الفرار وتخذيل المسلمين.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٣٢٣.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٣ / ١٦٧٩، وظاهرة النفاق ٢ / ٣٢٦.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾(١) .

(٦) تواصيهم بترك الجهاد:

إن القتال في سبيل الله أهم عناصر التمييز بين الطيب والخبيث، وأفضل ما يمحص بين الرجال؛ لأن فيه دعوة إلى مظان الموت، والموت تكرهه النفوس، وإذا لم يكن الدافع إليه قويًا، ولا الإيمان الصادق باعثًا إليه، فليس من السهل على النفس النفور إليه، وهذا ما لا يتوفر للمنافقين.

قال تعالى: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾(٢) .

وهذه الآية تبين نموذجًا من نماذج المنافقين، وهو فرحهم بقعودهم عن الجهاد في سبيل الله، وتواصيهم فيما بينهم بعدم الجهاد، لما فيه من المشقة كالحر، ويجهل هؤلاء المنافقون بأن نار جهنم أشد حرًا مما فروا منه من الحر.

وقد استخدم هؤلاء المنافقون في تركهم الجهاد وتواصيهم بالقعود عنه،

---

(١) سورة الأحزاب: ١٣ ـ ١٦.

(٢) سورة التوبة: ٨١.

أساليب متنوعة، فمنها:

١ـ رفض الأوامر الصادرة إليهم من قبل الرسول ـ ﷺ ـ ، أو من يقوم مقامه، ويتكلم بلسانه.

٢ـ تثبيط الآخرين عن الجهاد، ودعوتهم إلى التمرد علي الأوامر، وإظهار الشماتة بعد ذلك على من قتل شهيدًا في سبيل الله، من الذين لم ينصاعوا لدعوتهم إلى القعود عنه.

وقد ذكر الله عز وجل هذين الأسلوبين الخبيثين في القرآن الكريم مبينًا صفات المنافقين، فقال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[١] .

٣ـ الاستئذان من الاشتراك في الجهاد:

وردت آيات كثيرة تبين أن المنافقين يطلبون الإذن في عدم الاشتراك والتخلف عن الجهاد، والحال أنهم أصحاب السعة والثروة المالية، ثم أنهم استكانوا، وتمكن منهم الذل والهوان، حتى قبلوا فرحين بأن يصيروا مع النساء والعجزة والأطفال، وتخلوا عن الرجولة والشجاعة والشرف وساحات المجد؛ لأن الله عز وجل ختم على قلوبهم؛ بسبب ما تعمق فيها من الكفر والنفاق والتردد، فلا يقدرون على التمييز بين الضار والنافع، ولا يعرفون

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٧ ـ ١٦٨ .

فائدة الجهاد الدنيوية والأخروية. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك كله في آياته البينات، منها:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(١)].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[(٢)].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[(٣)].

- وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾[(٤)].

هكذا يتجلى لنا أن المنافقين قوم متخصصون في صناعة الأعذار، فهم

---

(١) سورة التوبة: ٩٣

(٢) سورة التوبة: ٤٥ - ٤٦.

(٣) سورة التوبة: ٨٦ - ٨٧.

(٤) سورة الفتح: ١١ - ١٣.

يعتذرون من الجهاد بأعذار كاذبة وغير صحيحة. أما المؤمنون الصادقون فهم لايستأذنون من الاشتراك في الجهاد في سبيل الله ، إلا إذا كان وراءهم عذر حقيقي ، يتطلب منهم التخلف عن القتال.

قال تعالى: ﴿ لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾[١] .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢] .

(٧) التحاكم إلى الطاغوت[٣] :

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[٤] .

وهذه الآية تدعو النبي - ﷺ - إلى العجب من أمر هؤلاء المنافقين الذين

---

(١) سورة التوبة: ٤٤.

(٢) سورة النور: ٦٢.

(٣) والطاغوت عبارة عن كل متعدّ وكل معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع، فسمي الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن طريق الخير طاغوتًا (المفردات في غريب القرآن ص: ٣٠٥، وانظر: بصائر ذوي التمييز ٣ / ٥٠٩).

(٤) سورة النساء: ٦٠ - ٦١.

يدّعون أنهم آمنوا بالقرآن والكتب السماوية التي سبقته، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به؛ لأن الشيطان يريد أن يضلهم عن الطريق المستقيم، ويبعدهم عنه، وإذا طلب منهم التحاكم إلى كتاب الله ورسوله - ﷺ - تراهم يعرضون عنك إعراضًا شديدًا.

وهذه الآية أيضًا تحدد تحديدًا كاملاً دقيقًا حاسمًا لشرط الإيمان، وأنها تبين شهادة من الله العليم الخبير بعدم إيمان هؤلاء المنافقين الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت؛ لأن الله تعالى يقسم بذاته العلية أنهم لا يدخلون في الإيمان، ولا يحسبون مؤمنين حتى يحكّموا الرسول - ﷺ - في أقضيتهم، ثم يطيعوا حكمه، وينفذوا قضاءه، طاعة الرضى، وتنفيذ الارتياح القلبي الذي هو التسليم.

قال تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[١].

ويفهم من الآية السابقة[٢] أن التحاكم إلى الدساتير والقوانين الوضعية السائدة الآن في معظم العالم الإسلامي، والمخالفة للشريعة من نوع التحاكم إلى الطاغوت، الذي أمرنا أن نكفر به ونتجنبه.

وأن من يقدم على هذا فقد انتحل صفة من صفات المنافقين، وبالتالي جعل إيمانه عرضة للشك والتردد، وأن من يتصدر للقضاء والحكم بهذه الدساتير والقوانين يمكن أن يطلق عليه اسم الطاغوت[٣].

---

(١) سورة النساء: ٦٥.

(٢) هي الآية: (٦٠) من سورة النساء.

(٣) انظر: المنافقون في القرآن الكريم لمحمد يوسف بن حسن ص: ١٥٧.

(٨) الذبذبة:

ومن النماذج التي تتجلى فيها حياة المنافقين الذبذبة، وهي: حكاية صوت الحركة للشيء المعلّق، ثم استعير لكل اضطراب وحركة، ورجل مذبذب: متردد بين أمرين، وعلى هذا المعنى فالمنافقون قوم مترددون مضطربون مائلون تارة إلى المؤمنين وتارة إلى الكافرين[١] .

قال تعالى: ﴿ **مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا** ﴾[٢] .

تبين هذه الآية أن المنافقين متحيرون في دينهم، لا يرجعون إلى اعتقاد شيء على صحة، فهم لا مع المؤمنين على بصيرة، ولا مع المشركين على جهالة، ولا هم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يعتريه الشك؛ فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة إلى أولئك[٣]، فمثلهم المثل الذي ضرب لهم رسول الله - ﷺ - في حديثه الشريف الذي رواه عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال: «(**مثل المنافق كمثل الشاة العائرة**[٤] **بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة**)»[٥] .

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن ص: ١٧٧ ، وبصائر ذوي التمييز ٣ / ٥، ولسان العرب ١ / ٣٨٤، وتاج العروس ١ / ٤٩٤ .

(٢) سورة النساء: ١٤٣ .

(٣) انظر: تفسير الطبري ٤/ ٣٣٤، وتفسير ابن كثير ١ / ٤٨٨ .

(٤) العائرة: المترددة الحائرة لا تدري لأيهما تتبع (شرح النووي ١٧ / ١٢٨، وانظر: النهاية في غريب الحديث ٣ / ٣٢٨).

(٥) صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين، رقم الحديث: ١٧(٢٧٨٤) بشرح النووي ١٧/ ١٢٨ .

وقد صورت هذه الآية المنافقين بتصوير بديع، وصل من البلاغة والروعة ما لايدانيه أي تعبير مهما كان جميلا، فقد بينت المنافقين على حقيقتهم، وكشف أسلوب معيشتهم وسلوكهم مع الناس، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين، وأشارت إلى أنهم لا يخلصون لأحد في الوجود، مهما تظاهروا أنهم مع هذا المعسكر أو ذاك، ومن هذا شأنه لا يمكن أن تقرّ له عين، أو يستقر له وضع، أو تستريح له ضمير، أو يطمئن له قلب، بل يعيش في قلق نفسي دائم، وحيرة وجدانية، وشك واضطراب وتردد بين الحق والباطل.

فالمنافقون بهذا النموذج قوم ضعفاء، هذا الضعف الذي يجعلهم غير قادرين على اتخاذ موقف حاسم هنا أو هناك.. ولا على المصارحة برأي وعقيدة وموقف.. مع هؤلاء أو هؤلاء. وهم بذلك قد حقت عليهم كلمة الله، واستحقوا ألا يعينهم في الهداية؛ ومن ثم فلن يستطيع أحد أن يهديهم سبيلا[1] : ﴿**وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً**﴾[2].

ويتجلى هذا النموذج النفاقي أيضًا في الآية الأخرى، حيث بين سبحانه وتعالى فيها أن هؤلاء المنافقين ليسوا في الحقيقة من المؤمنين، ولا من الذين يوالونهم من الكافرين.

قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[3].

ونكتفي بهذا القدر في ذكر النماذج التي تتجلى فيها حياة المنافقين

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٢ / ٧٨٤، والمنافقون في القرآن الكريم لمحمد يوسف ص: ١٧٩.
(٢) سورة النساء: ١٤٣.
(٣) سورة المجادلة: ١٤.

الدنيوية، فلا نتوسع فيه خشية الإطالة، وإلا فنماذج المنافقين في هذه الحياة كثيرة، كما ورد ذكرها في القرآن الكريم، فمنها: الفجور، والكسل في العبادة، وقلة الذكر، ولمز المطوعين، والاستهزاء بالقرآن والسنة، والإنفاق كرها، والإرجاف، والاعتراض على القدر، وقبض الأيدي بخلا وغيرها من النماذج السيئة الذميمة.

والهدف من ذكر نماذج المنافقين هنا تحذير المسلمين من أن تكون فيهم واحدة منها. فالنفاق بنوعيه الاعتقادي والعملي لابد من الترصد له، ولاسيما النفاق العملي الذي يسري في المجتمع الإسلامي سريان النار في الهشيم، ويدخل إلى القلوب من حيث لا تشعر، ولذا لزم الترصد له وإيصاد الأبواب أمام مدّه، ولايتم ذلك إلا بمعرفة دقائقه ونماذجه، لأن معرفة حقيقة العدو معينة على دفعه وهزيمته.

فبحسب إيمان العبد ومعرفته يكون خوفه أن يكون من أهل النفاق، ولهذا اشتدّ خوف سادة الأمة وسابقيها على أنفسهم أن يكونوا منهم.

قال ابن أبي مليكة[1]: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي - ﷺ - كلهم

---

(١) هو: عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن أبي مُليكة، بالتصغير، زهير التيمي، المدني، الإمام الحجة الحافظ. ولد في خلافة علي أو قبلها. أدرك ثلاثين من أصحاب النبي - ﷺ -، منهم: عائشة وأختها أسماء، وأم سلمة، والعبادلة الأربعة، وأبو هريرة، وعقبة بن الحارث، والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم. توفي ابن أبي مليكة سنة سبع عشرة ومئة (انظر: تقريب التقريب ١ / ٤٣١، وفتح الباري ١ / ١٣٦، وسير أعلام النبلاء ٥ / ٨٨ـ٩٠).

يخافون النفاق على نفسه[(١)] ، ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل»[(٢)] .

وبهذا يعلّم هؤلاء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ المسلمين درسًا رائعًا ، فهم صحابة الرسول ـ ﷺ ـ الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ومع ذلك يخافون النفاق ، فكيف بحال من دونهم؟

* * *

(١) قال ابن حجر : وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى، رضي الله عنهم (فتح الباري ١ / ١٣٦).

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، ١ / ١٣٥.

المبحث الخامس
حياة المنافقين في النار

إن الإسلام يعتبر الدارين - الدنيا والآخرة - تكمل إحداهما الأخرى، وتكون الحياة في الآخرة جزاء للعمل في الأولى. فالمنافقون الذين يقومون بالدور الكبير في معارضة الدعوة الإسلامية لينتهي أمرهم بجزاء يتفق والمجهود الذي بذلوه لإذابة الإسلام، وإدخال الريب والشك في قلوب المسلمين، ولإفساد المجتمع الإسلامي بأساليب متنوعة من الخداع والكيد والمكر والغدر والتخذيل وغيرها.

لذلك حرص القرآن الكريم على ذكر مصير المنافقين في الآخرة، في آياته الكثيرة. فللمنافقين في الآخرة عذاب عظيم، وعذاب مهين، وعذاب أليم، وعذاب مقيم، وخزي عظيم، ولهم غضب الله ولعنته، وسينتهون إلى المصير السيئ، وإلى جهنم خالدين فيها أبدًا. وهم في الدرك الأسفل من النار.

ومن الآيات القرآنية التي تتحدث عن مصير هؤلاء المنافقين ما يلي:

١ - قوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** ﴾[1] .

وعد الله عز وجل المنافقين مصيرًا ليس كمصير الكفار، بل أشد وأكثر، نارجهنم، ماكثين فيها أبدًا، لايحيون فيها ولا يموتون، هي كافيتهم عقابًا

(١) سورة التوبة: ٦٨.

وجزاء على إجرامهم وكفرهم بالله ، وأبعدهم الله من رحمته ، ولهم عذاب دائم لايزول ولا يبيد .

٢ـ وقوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾(١) .

وبخ الله تعالى المنافقين على ما أقدموا عليه مع علمهم بوخامة عاقبتهم ؛ فإن الأمر الحق الذي لا شك فيه أن من يحادد الله ورسوله بتعدي حدوده ، أو يلمز الرسول في أعماله كقسمة الصدقات ، أو في أخلاقه ، كقولهم هو أذن ، فجزاؤه جهنم يصلاها يوم القيامة خالدًا فيها أبدًا لا مخلص له منها .

ذلك العذاب هو الخزي والهوان العظيم الذي يصغُر دونه كل خزي ، وذلك الخزي هو الجزاء المقابل للتمرد .

٣ـ وقوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾(٢) .

يخبر تعالى رسوله ـ ﷺ ـ أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقين ، وأن في أهل المدينة أيضًا منافقين ، فهم مرنوا واستمروا على النفاق ، سيعذبهم الله مرتين : بالفضيحة والمصائب في أموالهم وأولادهم أولاً ، ثم بآلام الموت وعذاب القبر ثانيًا ، أو بأخذ الأموال وإنهاك الأبدان أولاً ، ثم

---

(١) سورة التوبة : ٦٢ ـ ٦٣ .

(٢) سورة التوبة : ١٠١ .

بعذاب القبر ثانيًا، أو بالقتل أو إقامة الحدود عليهم، ثم بعذاب القبر[١].

ثم يردون إلى عذاب جهنم ـ وهو أشد العذاب ـ يخلدون فيه. والغرض من هذه الآية بيان مضاعفة العذاب على المنافقين.

٤ـ وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[٢].

في هذه الآيات إخبارمن الله تعالى عما يقع يوم القيامة من الأحوال المزعجة والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة. حيث إن هناك جماعة من المنافقين، وهم كعادتهم في الدنيا أولو ملق وتظاهر، أم لعلهم هنا صادقون فيما يطلبون: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٦ / ٤٥٦ ـ ٤٥٨، وتفسير البغوي ٤ / ٨٩، وتفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣، والتفسير المنير ١١ / ٢٢.

قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر أنه يعذب هؤلاء الذين مردوا على النفاق مرتين، ولم يضع لنا دليلاً يوصّل به إلى علم صفة ذينك العذابين، وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أنبئنا عنهم. وليس عندنا علم بأي ذلك من أي. غير أن في قوله جل ثناؤه: ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ دلالة على أن العذاب في المرتين كلتيهما قبل دخولهم النار. والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر (تفسير الطبري ٦ / ٤٥٨ـ ٤٥٩).

(٢) سورة الحديد: ١٣ ـ ١٥.

نُورِكُمْ ﴾[١]، فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف. ولكنهم أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور، وقد عاشوا حياتهم كلها في ظلام. وهي صورة من صور التعذيب. ويتولى الله الإجابة عنهم: ﴿ **قِيلَ** [٢] **ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا** ﴾[٣]. إجابة قاطعة تحمل كثيرا من السخرية والاستهزاء، فقد كانوا لا يؤمنون باليوم الآخر، وبالتالي لا يؤمنون بالجزاء، ويستحضر الله أمامهم هذا الماضي الحافل بالشر وهو يأمرهم بالرجوع إليه لالتماس النور الذي يطلبون.

لقد ضرب بين الفريقين بسور فاصل يحجب هؤلاء عن هؤلاء، في جانب منه نعيم المنعمين، وفي جانب منه عذاب المعذبين.

ثم إن المنافقين ما زالوا يطمعون فينادون المؤمنين: ﴿ **أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ** ﴾[٤]، وكثيراً ما رددوا هذا القول الكاذب في الدنيا، فقد قالوا كما حكى الله تعالى: ﴿ **وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ** ﴾[٥]، وهم يعيدون هذا القول الكاذب في موقفهم يوم القيامة فيقولون: ألم نكن معكم؟ زيادة في المغالطة وإخلاصاً لطبيعتهم النفاقية. فيكون جواب المؤمنين: بلى، كنتم معنا في الظاهر: ﴿ **وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ**

---

(١) سورة الحديد: ١٣.

(٢) قال ابن عباس: يقول لهم المؤمنون: ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة، فالتمسوا هنالك النور، وقال قتادة: تقول لهم الملائكة: ارجعوا وراءكم من حيث جئتم (انظر: تفسير الطبري في ١١ / ٦٧٧، وتفسير البغوي ٨ / ٣٥، وتفسير ابن كثير ٤ / ٢٧١).

(٣) سورة الحديد: ١٣.

(٤) سورة الحديد: ١٤.

(٥) سورة العنكبوت: ١٠.

جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ (١) أي: فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات، وتربصتم بالحق وأهله، وارتبتم بالبعث بعد الموت، وغرتكم الأماني الباطلة في أن تنجوا بهذه الذبذبة، وما زلتم في هذا، حتى جاءكم الموت، وغركم بالله الشيطان الذي أطمعكم في الفوز. وهو طمع لا جواب عليه إلا الفقرة الأخيرة من الحوار: ﴿ **فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ (٢).

وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناجٍ، ورأى منازل السعداء، اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه(٣).

وهكذا أيأس الله عز وجل المنافقين من النجاة، وأخبرهم بأنه لا يقبل منهم يوم القيامة فدية يدفعون بها العذاب عن أنفسهم، ومقامهم ومنزلهم النار، هي أولى بهم من كل منزل، وساءت مرجعًا ومصيراً.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴾(٤).

يخبر الله عز وجل في هذه الآية بأن عذاب المنافقين في الدرك الأسفل من

---

(١) سورة الحديد: ١٤.

(٢) سورة الحديد: ١٥.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٤ / ٢٧١، ومشاهد القيامة في القرآن ص: ٢٠٩، وصراع المذهب والعقيدة في القرآن لعبد الكريم غلاب ص: ٣٢٢، وطريق الهجرتين لابن القيم ص: ٤٠٣.

(٤) سورة النساء: ١٤٥.

النار. والدرك: اسم في مقابلة الدرج بمعنى: أن الدرج مراتب اعتبارا بالصعود، والدرك مراتب اعتباراً بالهبوط، ولهذا عبروا عن منازل الجنة بالدرجات، وعن منازل جهنم بالدركات، وقد يطلق الاسمان على المنزلة الواحدة باختلاف الاعتبار. ومعنى الدرك: أقصى قعر كالبحر ونحوه، فعلى هذا: المراد بالدرك الأسفل أقصى قعر جهنم. والظاهر أن جهنم دركات، وأن أشدها أسفلها(١).

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن المنافقين أشد عذابًا من الكافرين، لأنهم مثلهم في الكفر، وضم إليهم نوع آخر من الكفر وهو الاستهزاء بالإسلام وبأهله. وبسبب أنهم لما كانوا يظهرون الإسلام يمكنهم الاطلاع على أسرار المسلمين، ثم يخبرون الكفار بذلك، فكانت تتضاعف المحنة من هؤلاء المنافقين، فلهذه الأسباب جعل الله عز وجل عذابهم أزيد من عذاب الكفار(٢).

وقد فسر ابن عباس - رضي الله عنهما - «الدرك الأسفل» بأسفل النار(٣).

* * *

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن ص: ١٦٧، وبصائر ذوي التمييز ٢ / ٥٩٤ - ٥٩٥، والتفسير الكبير ١١ / ٦٩، وتفسير التحرير والتنوير ٥ / ٢٤٤.

(٢) انظر: التفسير الكبير ١١ / ٦٩ - ٧٠، وطريق الهجرتين ص: ٤٠٢، وتفسير روح المعاني ٤ / ٢٦٠-٢٦١.

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ﴾، فتح الباري ٨ / ١١٥.

الفصل السادس

أنواع أخرى للحياة

كما ورد ذكرها في القرآن الكريم

وتحته مباحث

المبحث الأول: الحياة الإيمانية.

المبحث الثاني: الحياة القلبية.

المبحث الثالث: الحياة في القصاص.

المبحث الرابع: الحياة في سبيل الله.

تمهيد

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1] .

إن القرآن الكريم منهج حياة، يدعو المؤمنين إلى الحياة بكل صورها، وبكل معانيها. إنه يحيي القلوب والعقول، ويطلقها من ظلمات الجهل والخرافة، ومن ضغط الوهم والأسطورة، ومن العبودية لغير الله والخضوع للعبد، ومن أنواع الضلالة المهلكة.

قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] .

وإنه يدعوهم إلى الجهاد الذي فيه الحياة؛ لأن ضعف المسلمين ووهنهم حياة لعدوهم، فأمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب الجهاد للكافرين، وأنه سبب لحصول الشهادة، وهي توجب الحياة الدائمة الأبدية، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾[3] ، وأن الجهاد قد يفضي إلى القتل، والقتل يوصل إلى الدار الآخرة، والدار الآخرة معدن الحياة، وهي الحياة الدائمة الفائضة بالحيوية، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ

---

(١) سورة الأنفال: ٢٤.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٢.

(٣) سورة البقرة: ١٥٤.

الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وإنه يدعوهم إلى تطبيق فريضة القصاص الذي فيه حياة، وإن القصاص ليس انتقامًا، وإنما هو أجل من ذلك وأعلى. إنه للحياة، وفي سبيل الحياة، بل هو في ذاته حياة على معناها الأشمل الأعم. فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حيّ، يشترك مع القتيل في سمة الحياة. فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها. وكان في هذا الكف حياة. حياة مطلقة. لا حياة فرد، ولا حياة أسرة، ولا حياة جماعة. . بل حياة.

قال تعالى: **﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾**[2] .

وقال تعالى: **﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾**[3] .

وإنه يدعوهم إلى اتباع كتاب الله واتخاذه منهجًا لحياتهم. ففي القرآن الكريم الحياة الطيبة، والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة. قال تعالى: **﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**

(١) سورة العنكبوت: ٦٤.
(٢) سورة البقرة: ١٧٩.
(٣) سورة المائدة: ٣٢.

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] [2] .

وهكذا يدعو القرآن الكريم المؤمنين إلى الحياة بكل صورها، وبكل معانيها. وسنذكر ـ بإذن الله ـ تلك الصور التي هي من الأنواع الأخرى للحياة، كما ورد ذكرها في القرآن الكريم، في المباحث التالية، بصورة تفصيلية.

* * *

---

(١) سورة النحل: ٩٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير ١٥ / ١١٨، وتفسير الطبري ٦ / ٢١٢، وفي ظلال القرآن ٣ / ١٤٩٤، وتفسير روح المعاني ٦ / ٢٧٦.

المبحث الأول
الحياة الإيمانية

قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتا، أي: في الضلالة هالكًا حائرًا فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله، وبصّره بنور الحجج والآيات، يتأمل في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل، والمهتدي والضال. ومثل ضربه الله عز وجل للكافر المنغمس في الظلمات، أي: الجهالات والأهواء والضلالات[2] .

فجعل الله عز وجل في هذه الآية الإيمان الذي هو ثمرة العلم الصحيح بمثابة الحياة للقلوب والنفوس، وما لها من إحساسات باللذات وأنواع السعادات.

وجعل الله تعالى الكفر الناتج عن الجهل بمثابة الموت، لأن الكفر للقلوب والنفوس كالموت للأجساد وأنواع الإحساسات الجسدية، ولأن الكفر جهل، والجهل يوجب الحيرة والوقفة، فهو كالموت الذي يوجب

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢ / ١٥٠، وتفسير القاسمي ٤ / ٧٠٨، وتفسير أبي السعود ٣ / ١٨٠.

السكون، وأيضا الميت لا يهتدي إلى شيء، والجاهل كذلك.

وبين سبحانه في هذه الآية أنه أوضح للمؤمن طريق حياته السعيدة، بما أنزل من تعاليم وشرائع ووصايا وأحكام؛ فضرب الله تعالى النور مثلاً لتعاليم دينه الذي أنزله لعباده، فاهتدى به المؤمنون، ومشوا به في حياتهم على بصيرة من أمرهم.

ووضع الممثل به موضع الممثل له، حتى كأنه هو، تأكيداً للمماثلة بينهما، واستغناء بلفظ المشبه به عن المشبه.

وذلك لأن النور في الحسيات الظاهرة يكشف طريق الماشي على الأرض، ويعرفه بما حوله، فهو مثل التعاليم والشرائع والوصايا والأحكام الربانية التي تهدي المؤمنين لفعل الخير وترك الشر، وتنجي من المزالق والضلالات وأنواع المهالك.

هذا النص البديع الذي اشتمل على تمثيل الإيمان بالحياة، والكفر بالموت، وتعاليم دين الله لعباده بالنور، واتباعها بالمشي بين الناس بالنور، وتمثيل الجهل بهذه التعاليم بالظلمات، وعدم اتباعها بالمشي في الظلمات والمتاهات، ويلاحظ فيه أن وفرة عناصر التشابه بين الممثّل به والممثل له قد حسّنت تنزيل الممثل به منزلة الممثل له، فكأنه هو، إيجازاً في اللفظ واختصاراً في التعبير[1].

---

(١) انظر: أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، لعبد الرحمن الميداني، ص: ٢٢٥، والتفسير الكبير ١٣/ ١٤٠، وتفسير أبي السعود ٣/ ١٨١.

وقد وردت آيات كثيرة تتحدث عن المقارنة بين الإيمان والكفر، أو بين المؤمن والكافر، فضرب الله تعالى مثلاً للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات. كما أن المؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم.

قال تعالى: ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ** ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ** ﴾[٣].

وضرب الله تعالى مثلاً آخر للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبًا على وجهه، أي: يمشي منحنيا لا مستويا على وجهه،

---

(١) سورة فاطر: ١٩ـ٢٣.

(٢) سورة هود: ٢٤.

(٣) سورة النمل: ٨٠ـ٨١.

لا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهب، بل تائه حائر ضال. والمؤمن مثله كمن يسير معتدلاً ناظراً أمامه على طريق مستو لا اعوجاج به ولا انحراف فيه، فهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة، سواء في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا إذ يسير على منهج الله يكون على هدى وبصيرة، وفي الآخرة يحشر على طريق مستقيم يؤدي به إلى الجنة. أما الكافر فإنه يحشر على وجهه إلى نار جهنم.

قال تعالى: ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ** ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾[٣].

إن الإيمان هو الحياة والنور والاستقامة، والكفر هو الموت والظلمات والضلال. فالإيمان ينشئ في القلب حياة إيمانية بعد الموت الذي كان بسبب الكفر، ويطلق فيه نوراً بعد الظلمات، ويغرس فيه الاستقامة بعد الضلال. حياة يعيد بها تذوق كل شيء، وتصور كل شيء، وتقدير كل شيء بحس آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة الإيمانية. ونوراً يبدو كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديداً كما لم يَبْدُ من قبل قط لذلك القلب الذي نَوّره الإيمان.

(١) سورة الملك: ٢٢.

(٢) سورة الصافات: ٢٢-٢٣.

(٣) سورة الفرقان: ٣٤.

إن الإنسان في حياته الإيمانية يجد في قلبه هذا النور، فتتكشف له حقائق هذا الدين، ومنهجه في العمل والحركة، تكشفًا عجيبًا . . إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يجده الإنسان في قلبه حين يجد هذا النور . . مشهد التناسق الشامل العجيب في طبيعة هذا الدين وحقائقه. ومشهد التكامل الجميل الدقيق في منهجه للعمل وطريقه. إن هذا الدين لا يعود مجموعة معتقدات وعبادات وشرائع وتوجيهات . . إنما يبدو «تصميمًا» واحدًا متداخلاً متراكبًا متناسقًا . . متعاشقًا يبدو حيًا يتجاوب مع الفطرة وتتجاوب معه في ألفة عميقة وفي صداقة وثيقة، وفي حب ودود.

وإن الإنسان في حياته الإيمانية يجد في قلبه هذا النور؛ فتتكشف له حقائق الوجود، وحقائق الحياة، وحقائق الناس، وحقائق الأحداث التي تجري في عالم الناس . . وتتكشف له في مشهد كذلك رائع باهر . . مشهد السنة الدقيقة التي تتوالى مقدمتها ونتائجها في نظام محكم، ولكنه فطري ميسر . . ومشهد المشيئة القادرة من وراء السنة الجارية تدفع بالسنة لتعمل وهي من ورائها محيطة طليقة . . ومشهد الناس والأحداث وهم في نطاق النواميس وهي في هذا النطاق أيضًا.

أما الكفر فإنه انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية، التي لا تفنى ولا تغيب. فهو موت . . وانعزال عن القوة الفاعلة في الوجود كله . . فهو موت . . وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . . فهو موت.

والقلب الذي ينقطع عن الحياة الإيمانية والنور الرباني يسمع في الظلمة للوسوسة، ولا يرى ولا يحس ولايميز الهدى من الضلال في ذلك الظلام

العميق! . . وكذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون[١] .

وهكذا يصور التعبير القرآني تلك الحقيقة بإيقاعاته الموجبة للمقارنة بين الإيمان والكفر.

قال تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٣] .

ثمرات الحياة الإيمانية وآثارها:

مما تقدم يظهر لنا أن الحياة الإيمانية لها ثمراتها وآثارها في معالجة النفوس وشفائها من العلل والأمراض وما أحدثته من تخريب للأفراد والأسر والمجتمع، وذلك كما يلي:

١- الحياة الإيمانية تولد في نفس صاحبها معاني العزة والقوة والثقة بالله والاطمئنان إلى جنب الله، والأمل في نصر الله ودفاعه عن عباده المؤمنين، وردّ كيد الظالمين عنهم. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٢٠١، والأساس في التفسير ٣/ ١٧٥٧.
(٢) سورة الأنعام: ١٢٢.
(٣) سورة البقرة: ٢٥٧.

الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ**﴾(٢).

٢ - الحياة الإيمانية تفجر في نفس المؤمن طاقات كبيرة تدفع صاحبها إلى الجهاد والتضحية والصبر والتحمل وعمل الخير وتعينه على تخطي العقبات مهما طال الطريق، ومهما كثرت العقبات.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾(٣).

٣ - الحياة الإيمانية تثمر المودة والرحمة والحب والإيثار بين المؤمنين، وتحول دون الفرقة والتنازع. قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾(٥).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**(لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا**

---

(١) سورة المنافقون: ٨.
(٢) سورة الحج: ٣٨.
(٣) سورة آل عمران: ٢٠٠.
(٤) سورة الحشر: ٩.
(٥) سورة الأنفال: ٤٦.

السلام بينكم)»[١] .

٤ ـ الحياة الإيمانية تصحح الموازين المادية، فلا تجعل الدنيا أكبر الهم ومبلغ العلم، فيتخفف المؤمن من جوانب الأرض التي تجعله يثاقل إلى الأرض عندما يدعى إلى النفير للجهاد. وتكون الشهادة في سبيل الله أسمى أمانيه، ويسخر كل ما أنعم الله به عليه من وقت ومال وجهد وعلم ونفس في سبيل الله، ويجعل المال في يده لا في قلبه ينفقه في سبيل الله. قال تعالى: ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[٢] .

٥ ـ الحياة الإيمانية تولد الرضا والاطمئنان إلى عدل الله، وأنه ليس بغافل عما يعمل الظالمون، وأنه لهم بالمرصاد، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، كما أن المؤمن يرضى بقضاء الله وقدره وإن بدا أنه شر.

قال تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾[٣] .

٦ ـ الحياة الإيمانية تبصر صاحبها بما تمليه طبيعة المرحلة التي تمر بها الدعوة الإسلامية من ضرورة العمل على إقامة دين الله في الأرض، وضرورة التعاون مع غيره من الصادقين العاملين لتحقيق هذا الهدف العظيم.

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. . ، رقم الحديث: ٩٣ (٥٤) بشرح النووي ٢ / ٣٥.

(٢) سورة التوبة: ٤١.

(٣) سورة البقرة: ٢١٦.

قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(١). وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾(٢).

٧ ـ الحياة الإيمانية تدفع صاحبها إلى الوفاء ببيعته وعدم التفريط في أدائها أو النكث فيها مهما طال الطريق وكثرت العقبات، قال تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٣).

ورضي الله عن ضمرة بن جندب لما بلغه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ﴾الآية(٤)، وهو بمكة، حيث بعث بها رسول الله ـ ﷺ ـ إلى مسلميها، فقال لبنيه: احملوني فإني لست من المستضعفين، وإني لأهتدي الطريق، وإني لا أبيت الليلة بمكة، فحملوه على سرير، متوجهًا إلى المدينة، وكان شيخًا كبيرًا، فمات بالتنعيم، ولما أدركه الموت أخذ يصفق بيمينه على شماله، ويقول: اللهم هذه لك وهذه لرسولك ـ ﷺ ـ أبايعك على ما بايع رسولك، ولما بلغ خبر موته الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قالوا: ليته مات بالمدينة، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ

---

(١) سورة الأنفال: ٣٩.

(٢) سورة التوبة: ١١٩.

(٣) سورة الأحزاب: ٢٣ ـ ٢٤.

(٤) سورة النساء: ٩٧.

وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[(١)] [(٢)] .

هكذا نرى ثمرات الحياة الإيمانية وآثارها في حياة الفرد والأسرة والمجتمع، وليس ما ذكرناه على سبيل الحصر.

وقد أثبت التاريخ والاستقراء لحياة البشر أن الإيمان ضرورة لا غنى عنها: ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد وتزكو نفسه، وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرتفع ويرقى.

والفرد بغير إيمان ريشة في مهب الريح لا تستقر على حال، ولا تُعرف لها وجهة، ولا تسكن إلى قرار مكين. الفرد بغير إيمان إنسان ليس له قيمة ولا جذور، إنسان قلق متبرّم حائر، لا يعرف حقيقة نفسه ولا سرّ وجوده، ولا يدري من ألبسه ثوب الحياة.

والمجتمع بغير إيمان مجتمع غابة. وإن لمعت فيه بوارق الحضارة: الحياة والبقاء فيه للأشد والأقوى، لا للأفضل ولا للأتقى. مجتمع تعاسة وشقاء وإن زخر بأدوات الرفاهية وأسباب النعيم.. مجتمع تافه رخيص، لأن غاية أهله لا تتجاوز شهوات البطون والفروج، فهم كالأنعام بل أضل.

قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ**

---

(١) سورة النساء: ١٠٠.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١ / ٤٦٧، وتفسير الطبري ٤ / ٢٤١-٢٤٢، وتفسير البغوي ٢ / ٢٧٤، والدر المنثور ٢ / ٣٦٩، وأسباب النزول للواحدي ص: ١٨١، وتفسير روح المعاني ٤ / ١٨٨، وأسد الغابة لابن الأثير ٣ / ٦١.

مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[٢] .

و«العلم» المادي وإن امتد رواقه، واتسعت ميادينه، ليس بمستطيع أن يحقق الطمأنينة والسعادة للناس؛ لأن العلم يرقي الجانب المادي للحياة، فيختصر الشقة البعيدة والزمن الطويل إلى مدة أقصر، ولهذا سموا عصرنا هذا «عصر السرعة» أو عصر «التغلب على المسافات».

ولكن هل يستطيع أحد أن يسميه عصر «الفضيلة» أو عصر «الطمأنينة» أو عصر « السعادة للبشر »؟

إن العلم المادي هيأ للإنسان وسائل الحياة، ولكنه لم يهده إلى غاياتها، إنه زين له ظاهرها، ولكنه لم يصله بأعماقها، وما أتعس الإنسان إذا أغرقته الوسائل فأعرض عن الغايات. وإذا شغل بالسطح عن القاع، وبالقشر عن اللباب!

العلم المادي أعطى الإنسان أدوات كثيرة، ولكنه لم يعطه «قيمة» كبيرة أو «هدفًا» رفيعًا يحيا له ويموت عليه.

---

(١) سورة محمد: ١٢.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٩.

ذلك أن هذه ليست وظيفة العلم وليس من اختصاصه. وإنما ذلك من اختصاص الإيمان[١].

* * *

(١) انظر: الإيمان والحياة ليوسف القرضاوي ص: ٩.

المبحث الثاني
الحياة القلبية

قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[١] .

بين الله سبحانه وتعالى أن من ينتفع بنذارة القرآن هو من كان حيّ القلب، مستنير البصيرة، يعرف مواقع الهدى والرشاد، فيسترشد بهديه، وليس له من صوارف الهوى ما يصده عن اتباع الحق، ولا من نوازع الاستكبار والإعراض ما يكون حائلاً بينه وبين الهدى، فيجعل هذا النص القرآني استعداد القلب للإيمان حياة، ويجعل عدم استعداده للإيمان موتًا[٢] .

وقد صور القرآن الكريم حقيقة القلوب الحية التي تتلقى الإسلام فتنشرح له وتندى به، وصور حالها مع الله . حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة، والإشراف والاستنارة. كما صور حقيقة القلوب الأخرى في قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها وظلامها . ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره ليس قطعًا كالقلوب القاسية من ذكر الله .

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ

---

(١) سورة يس: ٦٩ ـ ٧٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٠ / ٤٦١، وتفسير ابن كثير ٣ / ٤٩٥، وتفسير البغوي ٧ / ٢٧، والتفسير الكبير ٢٦/ ٩٣، وتفسير المراغي ٨ / ٣١، وفي ظلال القرآن ٥ / ٢٩٧٥ .

كتابًا مُتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[١] .

فالحياة القلبية حياة المؤمنين الذين جعل الله الإيمان والقرآن في قلوبهم، فهم يخشون ربهم ويتقونه، ويعيشون في حذر وخشية، وفي تطلع ورجاء، ويتلقون هذا القرآن العظيم في وجل وارتعاش، وفي تأثر شديد تقشعر منه الجلود؛ ثم تهدأ نفوسهم، وتأنس قلوبهم بهذا القرآن؛ فتلين جلودهم وقلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله[٢] .

قال تعالى: **﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾**[٣] .

والحياة القلبية من الموضوعات التي يهتم بها القرآن الكريم، فقد حوى القرآن على مائة وعشرين آية من آيات القلب[٤][٥] . ثم إننا نجد آيات القرآن الكريم تذكر وتكرر كلمة الفؤاد، ونجد (١٥) آية فيها لفظ الفؤاد[٦] ، وهي[٧] كلمة مرادفة

---

(١) سورة الزمر: ٢٢-٢٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٩، وفي ظلال القرآن ٥/ ٣٠٤٨.

(٣) سورة الرعد: ٢٨.

(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص: ٥٤٩ - ٥٥١.

(٥) سمي قلب الإنسان قلبًا، لكثر تقلبه، ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعقل والعلم والشجاعة وغير ذلك (انظر: المفردات في غريب القرآن ص: ٤١١، وبصائر ذوي التمييز ٤/ ٢٨٨).

(٦) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص: ٥١٠.

(٧) الفؤاد كالقلب، وقيل: القلب أخص من الفؤاد (انظر: المفردات في غريب القرآن ص: ٣٨٦، وبصائر ذوي التمييز ٤/ ٢٨٨، والنهاية في غريب الحديث ٣/ ٤٠٥).

لمعنى القلب .

والحياة القلبية شرط لصلاح الإنسان في هذه الحياة ، ففي صحيح البخاري عن النعمان بن بشير يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : «(..ألا وإن في **الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)**»[١] .

وخص القلب بذلك لأنه أمير البدن ، وبصلاح الأمير تصلح الرعية ، وبفساده تفسد . وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب ، والحث على صلاحه ، والإشارة إلى أن لطيب الكسب أثرًا فيه[٢] .

والذي يتدبر القرآن الكريم يجد أن الحياة القلبية لها أهميتها الكبيرة في حياة الإنسان ، فمن تلك الأهمية :

١ - إنها حاجة روحية كما أن الحياة المادية حاجة جسمية ، وكما أن الجسم إذا حرم من حاجته فلا بد من أن يصاب بأضرار أو أمراض . كذلك إذا حرمت الروح من حاجتها يصاب الإنسان بأمراض روحية وإن كان هناك فرق بين هذين النوعين من الأمراض وطريقة الإصابة بهما .

ولهذا يبين الله أن من أهمل الحياة القلبية أو أعرض عنها ، فإنه يعيش حينئذ حياة شقية فقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** ﴾[٣] . أي : خالف أمري وما أنزلته على رسولي أعرض عنه

---

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ، رقم الحديث : ٥٢ ، فتح الباري ١ / ١٥٣ .

(٢) فتح الباري ١ / ١٥٦ .

(٣) سورة طه : ١٢٤ .

وتناساه وأخذ من غيره هداه في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد؛ فهذا من ضنك المعيشة[1].

ثم يبين الله أن بذكر الله - وهو من مظاهر الحياة القلبية - تطمئن قلوب المؤمنين، ويزول القلق والاضطراب من خشيته، بما يفيضه عليها من نور الإيمان الذي يذهب الهلع والوحشة فقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[2].

ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتصلت بالله. يعرفونها، ولايملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها، لأنها لا تنقل بالكلمات، إنما تسري في القلب فيستروحها ويهش لها ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام، ويحس أنه في هذا الوجود ليس مفرداً بلا أنيس. فكل ما حوله صديق، إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه[3].

٢ - ومن النماذج التي تتجلى فيها أهمية الحياة القلبية أن القرآن الكريم يرتفع بالقلب فيجعله موطنًا للوحي، ومهبطًا للتنزيل وبه يحتل أعلى مراتب

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٤٧، وانظر: تفسير البغوي ٥/ ٣٠١.
(٢) سورة الرعد: ٢٨.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٦.

المعرفة الإلهية.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[٢].

فالقلب هو وعاء الرسالة الإلهية، ولذا دعاه ليتذكر وليتأمل وليتفكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٣].

قال قتادة: يعني بذلك القلب: القلب الحي"[٤].

وهذا لا يعني أن كل قلب موصوف بما سبق ينزل عليه الوحي، فالوحي اختيار إلهي، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

٣ ـ إن الحياة القلبية إشراق وهدى ووسيلة لفلاح الإنسان وسعادته في هذه الحياة.

قال تعالى: ﴿الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا

---

(١) سورة البقرة: ٩٧.

(٢) سورة الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤.

(٣) سورة ق: ٣٧.

(٤) تفسير الطبري ١١١ / ٤٣٣.

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(١) .

كما بين الله سبحانه أن من اتبع هداه في هذه الحياة فلا يضل ولا يشقى فقال تعالى : ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ** ﴾(٢) .

إن الحياة القلبية عنصر من العناصر الضرورية لتحقيق السعادة المنشودة، ذلك أنه إذا كانت هذه الحياة حاجة إنسانية بحكم تركيبها كحاجتها إلى الحياة المادية فإنه من المستحيل تحقيق سعادة الإنسان بحرمانه من حاجته الأساسية أو من بعض حاجاته الأساسية، هذا إلى أن الحياة القلبية تجعل الإنسان في عالم أوسع من عالم المادة، إذ تجعله يعيش في السماء كما يعيش في الأرض وكلما كانت آفاق الحياة أعم وأشمل كان ذلك أكثر انتعاشًا وأكبر بهجة وأعمق شعوراً وأكثر تنوعًا بتنوع الحياة(٣) .

٤ ـ ضرورة الحياة القلبية كعامل من عوامل التسامي والتكامل والتقدم، ذلك أن الحياة القلبية تهدف أولاً إلى صعود الإنسان بقلبه واتصاله بالله ، لكن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بتسامي الإنسان على الرذائل وتخليه عنها ثم تكامله بالفضائل للناس خالصًا لوجه الله .

فإذا تسابق الناس وتسارعوا في عمل الخيرات المختلفة للناس، وسارعوا

---

(١) سورة البقرة: ١ ـ ٥ .

(٢) سورة طه: ١٢٣ .

(٣) انظر: فلسفة الحياة الروحية لمقداد يالجن ص: ٥٧ .

في الوقت نفسه لإزالة الشرور والرذائل والمنكرات من الحياة الاجتماعية، وتسابقوا في ذلك للاقتراب من الله ـ كان أقربهم إليه أسبقهم في ذلك كما قال تعالى معبراً عن عمل الذين يحيون حياة قلبية: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[2] .

هذه صورة اليقظة والحذر في القلوب الحية التي يبدو من هنا أثر الإيمان فيها، من الحساسية والتطلع إلى الكمال، وحساب العواقب مهما ينهض بالواجبات والتكاليف.

إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه. ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة. ومن ثم يستصغر كل عباداته. ويستقل كل طاعاته إلى جانب آلاء الله ونعمائه. كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته، ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء من حوله.. ومن ثم يشعر بالهيبة ويشعر

---

(١) سورة آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤.

(٢) سورة المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١.

بالوجل، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه، لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفةً وشكرًا.

وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات وهم الذين يسبقون لها فينالونها في الطليعة بهذه القلوب الحية التي تدفع أصحابها إلى التطلع والعمل والطاعة(١).

وعلى ذلك فإن بحث الناس بمقتضى هذه الحياة القلبية عن وسائل تقديم الخيرات والمشروعات المختلفة الخيرة في حق الناس، وسارعوا إلى ذلك واستبقوا فيها، فما من شك أن الحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية تتقدم بسرعة مذهلة، لأن هذه القلوب الحية سوف تدفعهم إلى العمل في الميادين المختلفة ليتقدموا فيها، ليعملوا الخيرات الكثيرة، فإنهم عندئذ سوف يهتمون بالتقدم العلمي مثلاً ليقدموا إلى الناس خدمات عن طريق العلم وإيجاد اختراعات علمية، وسوف يهتمون أيضًا بالزراعة لأن كل من يستفيد من زرع الإنسان يكون للزارع ثواب عند الله(٢)، كما ورد في الحديث الذي رواه أنس ابن مالك - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «**(ما من مسلم غرس غرسًا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة)**»(٣).

٥ - ومن أبرز النماذج التي تتجلى فيها أهمية الحياة القلبية أن القلب تعتريه

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٧٢.

(٢) فلسفة الحياة الروحية ص: ٦٢.

(٣) صحيح البخاري كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم الحديث: ٦٠١٢، فتح الباري ١٠ / ٤٥٢.

أمور كثيرة، ومنها المرض. ولاشك أن المرض متعدد الحالات، فمرض كبير وهو النفاق وهو أشد مرض من أمراض القلب، وجميع المنافقين يصابون بهذا المرض الخطير.

قال تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾[١].

وقال تعالى: ﴿**إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[٢].

ثم يصل هذا المرض الخطير بالمنافقين إلى الطبع والإقفال، قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[٣].

أي: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه ـ ﷺ ـ ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون، أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر[٤].

ثم نجد تفصيلاً أكثر في كون الإنسان الذي أهمل قلبه، واتخذ إلهه هواه فأضله الله على علم، وقد طبع على سمعه، فلا يتأثر بالآيات تتلى عليه ليعتبر

---

(١) سورة البقرة: ١٠.
(٢) سورة الأنفال: ٤٩.
(٣) سورة محمد: ٢٤.
(٤) تفسير الطبري ١١ / ٣٢١.

بها، ولا يتدبرها ليعقل ما فيها من النور والهدى، وختم على قلبه، فلا يعي حقاً، ولا يسترشد إلى صواب، وجعل على بصره غشاوة تمنعه أن يبصر حجج الله وآياته في الآفاق والأنفس، فيستدل بها على وحدانيته ويعلم بها أن لا إله غيره.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1]

فالإهمال المستمر لهذا الجانب الخطير في الإنسان يؤدي إلى نهاية خطيرة لا تجديه موعظة بعدها، ولا يلتفت إلى أمر أو نهي، لأنه قد وصل إلى نهاية مؤلمة وهي أن يتمكن الكفر في قلوب هؤلاء الغافلين المهملين، حتى امتنع أن يصل إليها شيء من الأمور الدينية النافعة لها في معاشها ومعادها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3].

٦ ـ ولأهمية الحياة القلبية نهى الله عز وجل المؤمنين عن اليأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلد. فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة، وأن يشرق فيه النور،

---

(١) سورة الجاثية: ٢٣.

(٢) سورة البقرة: ٦ ـ ٧.

(٣) سورة النحل: ١٠٨ ـ ١٠٩.

وأن يخشع لذكر الله . فالله يحيي الأرض بعد موتها، فتنبض بالحياة، وتزخر بالنبات والزهور، وتمنح الأكل والثمار . . ، وكذلك القلوب حين يشاء الله . ففي هذا القرآن ما يحيي القلوب كما تحيا الأرض؛ وما يمدها بالغذاء والريّ.

قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾[١] .

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾[٢] فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال»[٣] .

وبما سبق تتضح لنا أهمية الحياة القلبية في حياة الإنسان، والمحافظة عليها بالمواظبة على ذكر الله وتدبر القرآن، لأنه يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ،

---

(١) سورة الحديد: ١٦ ـ ١٧ .

(٢) سورة الحديد: ١٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٧٣، وانظر: تفسير الطبري ١١ / ٦٨٢، والتفسير الكبير ٢٩ / ٢٠١ .

ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب. وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير.

وتزيد هذه الأهمية وضوحًا عندما نعلم أن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن. . ، كما ورد في الحديث الذي رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- يقول إنه سمع رسول الله -ﷺ- يقول: «(**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرّفه حيث يشاء**)»، ثم قال رسول الله -ﷺ-: «(**اللهم يا مصرّف القلوب صرّف قلوبنا على طاعتك**)»[1].

كما أن الفتن تعرض على القلوب كالحصير عودًا عودًا، ففي صحيح مسلم عن حذيفة -رضي الله عنه- سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «(**تعرض**[2] **الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا**[3]**، فأي قلب أُشربَها**[4] **نُكتَ فيه نكتة**[5] **سوداء، وأي قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين**

---

(١) صحيح مسلم كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم الحديث: ١٧ (٢٦٥٤) بشرح النووي ١٦/ ٢٠٣.

(٢) ومعنى «تعرض» أنها تلصق بعرض القلوب، أي: جانبها كما يلصق الحصير بجنب النائم، ويؤثر فيه شدة التصاقها به (شرح النووي لصحيح مسلم ٢/ ١٧١).

(٣) ومعنى «عودًا عودًا» أي: تعاد وتكرر شيئًا بعد شيء (المصدر السابق).

(٤) ومعنى «أشربها»: دخلت فيه دخولاً تامًا وألزمها وحلت منه محل الشراب. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ -سورة البقرة: ٩٣-، أي: حب العجل (المصدر السابق).

(٥) ومعنى «نكتة»: نقطة نقطة (المصدر السابق).

على أبيض مثل الصفا[١] ، فلا تضرّه فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مُرْبادًا [٢] كالكُوز [٣] مُجخِيًا [٤] [٥] لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواه[٦] . .)»[٧] .

مظاهر الحياة القلبية:

وبعد دراسة أهمية الحياة القلبية نستطيع تحديد أهم مظاهرها وهي الآتية :

أولاً : التفكر في عظمة قدرة الله عز وجل :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ

---

(١) قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ : ليس تشبيهه بالصفا بيانًا لبياضه ، لكن صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل ، وأن الفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه كالصفا ، وهو الحجر الأملس الذي لايعلق به شيء(شرح النووي لصحيح مسلم ٢ / ١٧٢) .

(٢) المربد : الموضع الذي تحبس فيه الإبل والغنم ، ويريد اربداد القلب من حيث المعنى لا الصورة ، فإن لون القلب إلى السواد ما هو (النهاية في غريب الحديث ٢ / ١٨٣) .

(٣) الكوز : من الأواني ، معروف ، وهو مشتق من ذلك . واكتاز الماء : اغترفه (لسان العرب ٥/ ٤٠٣) .

(٤) مجخيًا : مائلاً(شرح النووي لصحيح مسلم ٢ / ١٧٣) .

(٥) ليس قوله : «كالكوز مجخيًا» تشبيهًا لما تقدم من سواده ، بل هو وصف آخر من أوصافه بأنه قلب ونكس حتى لايعلق به خير ولا حكمة (شرح النووي ٢ / ١٧٣) .

(٦) قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ : شبه القلب الذي لايعي خيراً بالكوز المنحرف الذي لايثبت الماء فيه . ومعنى الحديث : أن الرجل إذا تبع هواه وارتكب المعاصي ، دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة ، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه نور الإسلام . والقلب مثل الكوز فإذا انكب انصب ما فيه ولم يدخله شيء بعد ذلك (شرح النووي ٢ / ١٧٣) .

(٧) صحيح مسلم كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب ، رقم الحديث : ٢٣١(١٤٤) بشرح النووي ٢ / ١٧١ .

لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١].

لقد مدح الله عز وجل عباده المؤمنين الذين يستغرقون في التفكر في عظمة قدرته وأفعاله ومخلوقاته ودقة صنعه وإبداع خلقه ودقة علمه الذي يسري إلى كل جزء من أجزاء الكون.

إن آيات الله في هذا الكون، لا تتجلى على حقيقتها الموحية، إلا للقلوب الحية الذاكرة. وإن هؤلاء الذي يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، وهم يتفكرون في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار هم الذين تتفتح لبصائرهم الحقائق الكبرى المنطوية في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وهم الذين يتصلون من ورائها بالمنهج الإلهي الموصل إلى النجاة والخير والصلاح.

إن المؤمن المتفكر يتوجه إلى الله بمثل هذا الثناء والدعاء بعد أن رأى الدلائل على بديع الحكمة، وواسع العلم بدقائق الأكوان التي تربط الإنسان بربه. وقد علمنا ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ في الحديث الذي رواه ابن عباس عندما «. . . كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ**﴾[٢]، ثم قام فتوضأ واستن فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذّن بلال فصلى ركعتين، ثم

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) سورة آل عمران: ١٩٠.

خرج فصلى الصبح »[1] ، «وكان يقول في دعائه : «(اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً)»[2] .

إن المؤمن كلما زاد علمًا وزاد تفكره وتأمله في مخلوقات الله وعظمة قدرته زاد خشوعًا وإجلالاً وتقديسًا لله عز وجل، قال تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[3] .

إن العلماء هم الذين يتدبرون ويتفكرون في هذا الكون العجيب، ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية، يعرفون بآثار صنعته، ويدركون بآثار قدرته، ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه. ومن ثم يخشونه حقًا ويتقونه حقًا، ويعبدونه حقًا. لا بالشعور الغامض الذي يجده القلب أمام روعة الكون، ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر.

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ الآية، رقم الحديث : ٤٥٦٩، فتح الباري ٨ / ٨٣ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل، رقم الحديث : ٦٣١٦، فتح الباري ١ / ١٢٠ . ورواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ودعائه بالليل، رقم الحديث : ١٨١ (٧٦٣) بشرح النووي ٦ / ٤٥ .

(٣) سورة الإسراء : ١٠٧ ـ ١٠٩ .

أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[١] .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[٢] : «أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر»[٣] .

فليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية، وليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب، كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار جهلاً، فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له[٤] .

ثانيا: المراقبة والمحاسبة:

ومن مظاهر الحياة القلبية المراقبة والمحاسبة، ذلك لأن أصحاب القلوب الحية يعرفون أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الأعمال، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار

(١) سورة فاطر: ٢٧ - ٢٨ .
(٢) سورة فاطر: ٢٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٢ .
(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٢، وتفسير فتح القدير ٤/ ٣٤٨، والدر المنثور ٥/ ٤٦٩ - ٤٧٠ .

إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة.

وقد ورد القرآن الكريم بالحث على المراقبة، والمحاسبة في آيات كثيرة، فمن الآيات التي تتحدث عن المراقبة فهي:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾(١).

- وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٢).

- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٣).

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(٤).

- وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٥).

ورد في الحديث الذي رواه مسلم عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وفيه: «... **قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(٦).

وعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله - ﷺ -: «اتق الله

---

(١) سورة آل عمران: ٥.

(٢) سورة الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠.

(٣) سورة الحديد: ٤.

(٤) سورة الفجر: ١٤.

(٥) سورة النساء: ١.

(٦) صحيح مسلم كتاب الإيمان، رقم الحديث: ١(٨) بشرح النووي ١ / ١٥٧.

حيث ما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن))»[١] .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾[٢] : أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه وعبده كأنه يراه وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه[٣] .

أما الآية القرآنية التي تتحدث عن أهمية المحاسبة فهي قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾[٤] .

أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بأن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا، وأن ينظروا ماذا ادّخروا لأنفسهم من الأعمال الصالحة ليوم معادهم وعرضهم على ربهم[٥] .

وهذا الأمر الرباني بمجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة حياته، ويمد ببصره في سطوره كلها يتأملها وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته. لينظر ماذا قدم لغده في هذه الصفحة.. وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب البر، باب ما جاء في معاشرة الناس، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح (تحفة الأحوذي ٦ / ١٢٢). ورواه أحمد في مسنده ٥ / ١٥٣، ١٥٨، ١٦٩، ١٧٧، ٢٢٨، ٢٣٦، وقال الذهبي في المهذب: إسناده حسن (الفتح الرباني ١٩ / ٧٧).

(٢) سورة البينة: ٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٧٠.

(٤) سورة الحشر: ١٨.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير ٤ / ٢٩٩.

مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد. فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلاً، ونصيبه من البر ضئيلاً؟ إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبدًا، ولا يكف عن النظر والتقليب[١].

إن محاسبة النفس مظهر من مظاهر الحياة القلبية، ذلك أن المسلم - صاحب القلب الحيّ - لا يخفى عليه أن الخطأ سمة البشر، وأنه ليس عيبًا أن يخطئ، وإنما العيب كل العيب أن يصر على الخطأ، ولا يخفى عليه كذلك أن محاسبة النفس سبيل من أنجح السبل للتعرف على عيوب النفس وآفاتها، ثم علاجها والتطهر منها. لذا فهو حريص على محاسبة نفسه، لئلا تتراكم عليه الأخطاء، فتضطرب النفس من داخلها وبالتالي تفسد الحياة.

ثالثا: ذكر الله.

ومن مظاهر الحياة القلبية ذكر الله عز وجل، ذلك أن أصحاب القلوب الحية يعلمون أنه لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى، وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محبًا لله تعالى وعارفًا بالله سبحانه. وأن المحبة لا تحصل إلا من داوم ذكر المحبوب والمواظبة عليه. ولهذا حثّ القرآن الكريم كثيرًا المؤمنين على ذكر الله.

قال تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ**

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦ / ٣٥٣١.

(٢) سورة البقرة: ١٥٢.

بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾**(٢) .

وذكر الله اتصال القلب الحي به، والاشتغال بمراقبته؛ وليس هو مجرد تحريك اللسان. وإقامة الصلاة ذكراً لله. وإن كان ذكر الله أشمل من الصلاة، فهو يشمل كل صورة يتذكر فيها العبد ربه، ويتصل به قلبه. سواء جهر بلسانه بهذا الذكر أم لم يجهر. والمقصود هو الاتصال المحرك الموحي على أية حال.

وإن القلب ليظل فارغاً أو لاهياً أو حائراً حتى يتصل بالله ويذكره ويأنس به. فإذا هو مليء جاد، قار، يعرف طريقه، ويعرف منهجه، ويعرف من أين وإلى أين ينقل خطاه!

ومن هنا يحث القرآن كثيراً على ذكر الله. ويربط القرآن بين هذا الذكر وبين الأوقات والأحوال التي يمر بها الإنسان، لتكون الأوقات والأحوال مذكرة بذكر الله ومنبهة إلى الاتصال به حتى لا يغفل القلب ولا ينسى. ولهذا نجد أن الله تعالى في كثير من المواضع لما ذكر الذكر وصفه بالكثرة.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً**

---

(١) سورة الأعراف: ٢٠٥.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٥.

لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[٣] .

وإذا كان القرآن الكريم يحثّ كثيرًا على ذكر الله ، ويربط بين هذا الذكر وبين الأوقات والأحوال التي يمر بها الإنسان، فكذلك السنة النبوية، ذلك لأن السنة تطبيق عملي للقرآن الكريم.

ففي صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله عنها- قالت : «كان النبي -ﷺ- يذكر الله على كل أحيانه»[٤] .

إن المؤمن عندما يدعو الله عز وجل خوفًا من عذابه ليغفر له خطاياه ويعفو عن ذنوبه وهو واثق من عفوه والتجاوز عن سيئاته يزيده ذلك أملاً في الفوز برضائه والدخول في جناته، كما أن دعوته له بتحقيق آماله ونجاته من كل بلاء ونصره على أعدائه. وهو إذ يدعو واثق بقبول دعائه إيمانًا بقوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا**

---

(١) سورة الأنفال : ٤٥ .

(٢) سورة الأحزاب : ٤١ - ٤٢ .

(٣) سورة الجمعة : ١٠ .

(٤) صحيح مسلم كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، رقم الحديث : ١١٧ (٣٧٣) شرح النووي ٤ / ٦٨ .

بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[١] ، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[٢] .

وإن المؤمن صاحب القلب الحي ليذكر الله عند تذكر نعم الله عليه في الرزق والصحة والتوفيق والتأييد والنصر وعند التفكر في صفاته وإبداع مخلوقاته وجمال مصنوعاته، فإذا كان في مثل هذه الحالات ذكره اسم الله مقترناً بتذكر نعمة من نعمائه أو فضل من أفضاله أو فعل من أفعاله، فإن هذا الذكر هو الذي يجدد القلب ويصفيه رقيًا وارتباطًا بالله ، ومن ثم يحيا القلب في حالات الذكر ويدخل في حياة قلبية.

ولهذا نجد أن الآيات التي دعت إلى ذكر الله جاءت عند التذكير بمختلف آلائه ونعمه وصفاته وأفعاله، ليكون الذكر بمثابة الشكر، وليؤثر في الشعور ويحدد المشاعر القلبية وينميها [٣] .

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾[٤] .

ويقول تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٥] .

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦ .

(٢) سورة غافر: ٦٠ .

(٣) انظر: فلسفة الحياة الروحية ص: ٥٠ .

(٤) سورة البقرة: ٢٣٩ .

(٥) سورة البقرة: ٢٣١ .

ويقول تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾[١] .

ويقول تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[٢] .

ونكتفي بهذا القدر في ذكر مظاهر الحياة القلبية، ذكرناها من باب ذكر المثال لا الحصر، وإلا فمظاهر الحياة القلبية كثيرة، منها: أداء العبادات المختلفة، والاستغراق في الأعمال الصالحات وحب التضحية في سبيلها، وذكر الموت وقصر الأمل، والمجاهدة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد، ومعرفة مداخل الشيطان على النفس وقطع الطريق عليها، وغيرها.

* * *

(١) سورة آل عمران: ١٠٣ .

(٢) سورة المائدة: ٤ .

المبحث الثالث
الحياة في القصاص

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

لقد دعا القرآن الكريم دعوة حارة وفية إلى القصاص الذي فيه حياة، ذلك أن الله سبحانه كرّم الإنسان، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا، جعله خليفة في الأرض، وزوّده بالقوى والمواهب ليسود الأرض؛ فما أجاز لأية سلطة أن تنتهك حرمته من غير مسوغ.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(٢).

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: «أيها الناس، أي يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر. قال: أي بلد

---

(١) سورة البقرة: ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٢) سورة الإسراء: ٧٠.

هـذا؟، قالوا : بلد حرام. قال: **فإن دماءكم وأموالكـم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا**. فأعادها مرارا. ثم رفع رأسه فقال: **اللهم هل بلّغتُ ؟ اللهم هل بلّغتُ ؟** قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : فو الذي نفسي بيده، إنها لوصية إلى أمته فليبلغ الشاهد الغائب، **لاترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[1] .

وهكذا رفع القرآن الكريم والسنة النبوية من شأن النفس الإنسانية وأحاطها بسياج منيع، لئلا تكون عرضة لبطش المعتدين وفريسة سائغة للطامعين، وذهب إلى أن من يقتل نفسًا بغير حق فجزاؤه القتل، وأن العقوبة من نوع الجريمة، وبين القرآن أن في إقامة فريضة القصاص حياة، قال تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾[2] .

اتفق علماء البيان على أن هذه الآية - في الإيجاز مع جمع المعاني - بالغة إلى أعلى الدرجات.. ! وذلك لأن العرب عبروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة. وأجود الألفاظ المنقولة عنهم في هذا الباب قولهم: القتل أنفى للقتل. ومن المعلوم لكل ذي لب أن بينها وبين ما في القرآن كما بين الله وبين خلقه ! وأنى لها الوصول إلى رشاقة القرآن وعذوبته.. ![3] .

قال السيوطي: «وقوله تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾[4] ، فإن

---

(١) صحيح البخاري كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، رقم الحديث: ١٧٣٩، فتح الباري ٣ / ٦٧٠.

(٢) سورة البقرة: ١٧٩.

(٣) تفسير القاسمي ٣ / ٦٣، وانظر: البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٩٣.

(٤) سورة البقرة: ١٧٩.

معناه كثير ولفظه قليل، لأن معناه: أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل قتل كان ذلك داعيًا إلى أن لايقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، وكان ارتفاع القتل حياة لهم. وقد فضلت هذه الجملة على أوجز ما كان عند العرب في هذا المعنى وهو قولهم: القتل أنفى للقتل بعشرين وجها أو أكثر.

الأول: أن ما يناظره من كلامهم وهو قوله: ﴿**الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ أقل حروفًا، فإن حروفه عشرة وحروف القتل أنفى للقتل أربعة عشر.

الثاني: أن نفي القتل لا يستلزم الحياة، والآية ناصة على ثبوتها التي هي الفرض المطلوب منه.

الثالث: أن تنكير حياة يفيد تعظيمًا[١]، فيدل على أن في القصاص حياة متطاولة، كقوله تعالى: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ**﴾[٢] ولا كذلك المثل، فإن اللام فيه للجنس، ولذا فسروا الحياة فيها بالبقاء.

الرابع: أن الآية فيه مطردة، بخلاف المثل فإنه ليس كل قتل أنفى للقتل، بل قد يكون أدعى له وهو القتل ظلمًا، وإنما ينفيه قتل خاص وهو القصاص ففيه حياة أبدًا.

الخامس: أن الآية خالية من تكرار لفظ القتل الواقع في المثل، والخالي من

---

(١) تنكير «حياة» في الآية للتعظيم (انظر: تفسير الكشاف ١ / ٣٣٣، وتفسير أبي السعود ١ / ١٩٦، وتفسير التحرير والتنوير ٢ / ١٤٤).

(٢) سورة البقرة: ٩٦.

التكرار أفضل من المشتمل عليه، وإن لم يكن مخلاً بالفصاحة.

السادس: أن الآية مستغنية عن تقدير محذوف، بخلاف قولهم، فإن فيه حذف «من» التي بعد أفعل التفضيل وما بعدها، وحذف «قصاصًا» مع القتل الأول، و«ظلمًا» مع القتل الثاني، والتقدير: القتل قصاصًا أنفى للقتل ظلمًا من تركه.

السابع: أن الآية اشتملت على فنّ بديع، وهو جعل أحد الضدين ـ الذي هو الفناء والموت ـ محلاً ومكانًا لضده ـ الذي هو الحياة ـ، واستقرار الحياة في الموت مبالغة عظيمة.

التاسع: أن في المثل توالى أسباب كثيرة خفيفة ـ وهو السكون بعد الحركة ـ وذلك مستكره. فإن اللفظ المنطوق به إذا توالت حركاته تمكّن اللسان من النطق به وظهرت بذلك فصاحته! بخلاف ما إذا تعقّب كلَّ حركة سكونٌ، فالحركات تنقطع بالسكنات. نظيره: إذا تحركت الدابة أدنى حركة فحبست، ثم تحركت فحبست، لاتطيق إطلاقها، ولا تتمكن من حركتها على ما تختاره، فهي المقيدة.

العاشر: أن المثل كالتناقض من حيث الظاهر. لأن الشيء لا ينفي نفسه.

الحادي عشر: سلامة الآية من تكرير قلقلة القاف الموجب للضغط والشدة، وبعدها عن غنة النون.

الثاني عشر: اشتمالها على حروف متلائمة، لما فيها من الخروج من القاف

إلى الصاد؛ إذ القاف من حروف الاستعلاء، والصاد من حروف الاستعلاء والإطباق. بخلاف الخروج من القاف إلى التاء - التي هي حرف منخفض - فهو غير ملائم للقاف. وكذا الخروج من الصاد إلى الحاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة، لبعد ما دون طرف اللسان وأقصى الحلق.

الثالث عشر: في النطق بالصاد والحاء والتاء حسن الصوت، ولا كذلك تكرير القاف والتاء.

الرابع عشر: سلامتها من لفظ «القتل» المشعر بالوحشة، بخلاف لفظ «الحياة»، فإن الطباع أقبل له من لفظ «القتل».

الخامس عشر: أن لفظ القصاص مشعر بالمساواة، فهو منبئ عن العدل، بخلاف مطلق القتل.

السادس عشر: الآية مبنية على الإثبات، والمثل على النفي، والإثبات أشرف لأنه أول، والنفي ثان عنه.

السابع عشر: أن المثل لا يكاد يفهم إلا بعد فهم أن القصاص هو الحياة. وقوله: ﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ مفهوم من أول وهلة.

الثامن عشر: أن في المثل بناء «أفعل التفضيل» من فعل متعد، والآية سالمة منه.

التاسع عشر: أن «أفعل» في الغالب يقتضي «الاشتراك» فيكون ترك القصاص نافيًا للقتل، ولكن القصاص أكثر نفيًا. . ! وليس الأمر كذلك،

والآية سالمة من ذلك.

العشرون: أن الآية رادعة عن القتل والجرح معًا، لشمول القصاص لهما. والحياة أيضًا في قصاص الأعضاء. لأن قطع العضو ينغّص مصلحة الحياة، وقد يسري إلى النفس فيزيلها، ولا كذلك المثل.

في أول الآية ﴿ وَلَكُمْ ﴾ وفيها لطيفة: وهي بيان العناية بالمؤمنين على الخصوص، وأنهم المراد حياتهم لا غيرهم، لتخصيصهم بالمعنى مع وجوده فيمن سواهم. . »[١].

وهكذا بين الله سبحانه أن الغرض من مشروعية القصاص المحافظة على حياة الإنسان، فإن علم مريد القتل أنه سيقتل إذا قتل يدفعه ذلك إلى الامتناع عن القتل خوفاً من العقوبة التي ستوقع عليه، وبذلك يحفظ حياته وحياة من كان يريد قتله.

ثم إن مشاهدة إيقاع القصاص على الجاني يؤدي إلى امتناع كثير من مريدي القتل من تنفيذ ما أرادوا إدراكًا منهم أن مصيرهم لن يكون أحسن حالاً من مصير ذلك الذي اقتص منه[٢].

على أن حكمة مشروعية القصاص ليست منحصرة على المحافظة على حياة الناس فحسب، بل إن تحقيق العدالة بين الجاني والمجني عليه مراعى عند إيقاع هذه العقوبة، فكما حرم الجاني المجني عليه من التمتع بحياته، وجب أن يحرم

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢ / ١٢٠، وانظر: البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٩٣.
(٢) انظر: تفسير القرطبي ٢ / ٢٥٦.

الجاني من الحياة ليكون الجزاء من جنس العمل، وليس من المستساغ عقلاً أن يقتل شخص بغير وجه حق، ثم يرى إخوته أو أبناؤه قاتله يسير طليقًا متمتعًا بحياته دون أن يتمكنوا من الاقتصاص منه مع عدم وجود مانع شرعي يمنع من قتله[1] .

ثم ـ وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة ـ استجاشة شعور التدبر لحكمة الله، ولتقواه: ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[2] .

هذا هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء. الاعتداء بالقتل ابتداء، والاعتداء في الثأر أخيرًا. . التقوى. . حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله؛ وتحرجه من غضبه وتطلبه لرضاه، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾[3] .

إنه بغير هذا الرباط لاتقوم شريعة، ولايفلح قانون، ولا يتحرج متحرج، ولاتكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الإنسان! .

وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيه الحدود على عهد النبي ـ ﷺ ـ أو عهد الخلفاء، ومعظمها كان مصحوبًا باعتراف الجاني نفسه طائعًا مختارا. . ولقد كانت هناك التقوى. . كانت هي الحارس اليقظ في حنايا

---

(١) انظر: العقوبة في الفقه الإسلامي للشيخ محمد أبي زهرة ص: ٣٨١.

(٢) سورة البقرة: ١٧٩.

(٣) سورة النساء: ٩٣.

القلوب، تكفها عن مواضع الحدود. . إلى جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكنونات القلوب. . [١].

والقصاص على هذا الأساس ـ وهو أساس المساواة في الدماء والمساواة في العقوبة ـ هو القضاء الذي تستريح إليه الفطرة؛ والذي يذهب بحزازات النفوس، وجراحات القلوب، والذي يسكن فورات الثأر الجامحة، التي يقودها الغضب الأعمى وحمية الجاهلية. . وقد يقبل بعضهم الدية في القتل والتعويض في الجراحات، ولكن بعض النفوس لا يشفيها إلا القصاص.

وشرع الله في الإسلام يلحظ الفطرة، حتى إذا ضمن لها القصاص المريح. . راح يناشد فيها وجدان السماحة والعفو[٢].

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ١ / ١٦٦.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٢ / ٨٩٩، والعقوبة في الفقه الإسلامي ص: ٢٨٢.

(٣) سورة المائدة: ٤٥.

(٤) سورة البقرة: ١٧٨.

دعوة القرآن إلى المحافظة على حياة الإنسان:

ولاهتمام القرآن الكريم بالمحافظة على حياة الإنسان، فقد حرم على الناس قتل النفس ووضع عقوبات مشددة في الدنيا والآخرة على من يرتكب هذا العمل، وبذلك قدّم أفضل ضمانات قانونية للحفاظ على أرواح الناس.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾[١].

فقد منع القرآن الكريم في هاتين الآيتين الاعتداء على أرواح الناس، وأكل أموالهم بالباطل الذي له آثاره المدمرة في حياة الجماعة، إنها عملية قتل.. يريد الله أن يرحم المؤمنين منها حين ينهاهم عنها، وهدد القرآن المعتدي بعذاب النار.

وقال تعالى: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾[٢].

والحق الذي تزهق به النفوس هو ما فسره الرسول ـ ﷺ ـ في حديثه الشريف الذي رواه ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «(لا يحل دم امرئ

(١) سورة النساء: ٢٩ ـ ٣٠.
(٢) سورة الإسراء: ٣٣.

مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه، التارك للجماعة)»[١] .

وقد ورد في القرآن الكريم تحريم قتل الأولاد، إذ كانت عادة قتل الأولاد شائعة بين عرب الجاهلية، خاصة إذا كان المولود بنتًا، حيث تقتل لا لذنب إلا كونها أنثى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[٢]، وكانت تلك من أقسى عادات الجاهلية وأكثرها وحشية، وقد تم القضاء عليها بتوجيه القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[٣] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾[٤] .

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾[٥] .

فالحياة ـ التي يدعو القرآن إلى المحافظة عليها ـ أكبر نعمة ينالها الإنسان

---

(١) صحيح البخاري كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ.. ﴾ ـ سورة المائدة: ٤٥ ـ، رقم الحديث: ٦٨٧٨، فتح الباري ١٢ / ٢٠٩ .

(٢) سورة النحل: ٥٨ ـ ٥٩ .

(٣) سورة الأنعام: ١٥١ .

(٤) سورة الإسراء: ٣١ .

(٥) سورة التكوير: ٨ ـ ٩ .

من خالقه، والله وحده هو المتصرف بها ولا يحق للإنسان أن يتسبب في إنهائها ساعة يشاء وكيف يشاء، وإلا فجزاؤه نار جهنم، وحرمت عليه الجنة.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«(من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجّأ بها[١] في بطنه في نار جهنم خالداً مخلَّداً فيهاأبداً، ومن شرب سمًا فقتل نفسه فهو يتحسّاه في نار جهنم خالداً مخلَّدا فيها أبدًا، ومن تردّى[٢] من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدًا)»**[٣] .

وفي صحيح البخاري قال رسول الله ﷺ : **«(كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينا فحزّ[٤] بها يده، فما رقأ[٥] الدم حتى مات، قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرّمتُ عليه الجنة)»**[٦] .

فالإسلام يعدّ الانتحار جريمة، وهو بهذا يتميز عن سائر الشرائع والأنظمة والقوانين. وكما حرّم الانتحار حرّم على الإنسان أن يقطع أي عضو من أعضائه، لأن حياته وبدنه أمانة عليه، فعليه أن يصون تلك الأمانة وينأى بها عن كل ما يؤدي إلى هلاكها.

(١) يتوجأ بها: يضرب بها نفسه (انظر: النهاية في غريب الحديث ٥ / ١٥٢).
(٢) أي: أسقط نفسه متعمداً من جبل فيموت (انظر: لسان العرب ١٤ / ٣١٦).
(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم الحديث: ١٧٥ (١٠٩) شرح النووي ٢ / ١١٨ .
(٤) الحزّ: القطع بغير إبانة (فتح الباري ٦ / ٥٧٧).
(٥) أي: لم ينقطع (فتح الباري ٦ / ٥٧٧).
(٦) صحيح البخاري كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم الحديث: ٣٤٦٣، فتح الباري ٦ / ٥٧٢ .

وكما تحمي الشريعة الإسلامية كيان الإنسان المادي والمعنوي في حياته، فإنها تحميه بعد مماته، فمن حقه الترفق والتكريم في التعامل مع جثمانه.

ورد في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ يقول: «(إذا كفّن أحدكم أخاه فليحسن كفنه)»(١) .

وروى البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال النبي ﷺ: «(لاتسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا)»(٢) .

وهكذا دعا القرآن الكريم والسنة النبوية إلى المحافظة على حياة الإنسان، وأن الحياة كالوجود نعمة ربانية وأمانة إلهية أودعها الله سبحانه وتعالى لدى البشر ليختبرهم: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾(٣)، وفرصة يمنحها للبشر ليقوموا بأعمال الخير، وليس من حق أية قوة ـ غير القوة الإلهية ـ سلب هذه الوديعة الإلهية من الناس، والموت والحياة هما بيد القدرة الإلهية فقط، فهو الذي يمنح الحياة، وهو الذي يستطيع استعادتها، وعلى هذا فإن على الناس أن لا يعتدوا على أرواح الآخرين، بل إن المعتدي على حياة إنسان يعتبر معتديًا على الإنسانية جميعها، لأنه يعتبر الفرد الإنساني ممثلاً للإنسانية كلها، وكذلك استحياء الإنسان بالدفاع عنه في

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجنائز، باب في تحسين كفن الميت، رقم الحديث: ٤٩ (٩٤٣)، بشرح النووي ٧/ ١٢ .

(٢) صحيح البخاري كتاب الجنائز، باب ما ينهى من سب الأموات، رقم الحديث: ١٣٩٣، فتح الباري ٣/ ٣٠٤ .

(٣) سورة الملك: ٢ .

حالة حياته أو بالقصاص له في حالة الاعتداء عليه لمنع وقوع القتل على إنسان آخر، هو استحياء للناس جميعًا، لأنه صيانة للحياة التي يشترك فيها الناس جميعًا.

قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[1].

* * *

(١) سورة المائدة: ٣٢.

المبحث الرابع
الحياة في سبيل الله

يستعمل «سبيل الله» لكل ما يتوصل به إلى طاعة الله وجميع وجوه الخير من الجهاد والحج وبناء الحصون وعمارة المساجد وغيرها. فهو عام في الكل[1].

ونحن نريد «سبيل الله» هنا الشيء الخاص، وهو الجهاد في سبيل الله. فهو فيه الحياة؛ لأن ضعف المسلمين ووهنهم حياة لعدوهم، فأمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب الجهاد للكافرين والمنافقين. وقد جمع القرآن بين الكفار والمنافقين في الأمر بجهادهم والغلظة عليهم، لأن كلاً من الفريقين يؤدي دوراً مماثلاً في تهديد المجتمع الإسلامي. فالكفار يهاجمون المجتمع الإسلامي من خارجه، والمنافقون يهاجمونه من داخله، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[2].

ثم قيد الجهاد في الإسلام بأنه في سبيل الله، ليدل على هذا المعنى الضروري لتحقق الجهاد الشرعي، وبهذا جاءت الآيات القرآنية معلنة أن جهاد المؤمنين ومنه القتال إنما هو جهاد في سبيل الله، بخلاف الكافرين فإن قتالهم

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن ص: ٢٢٣، وبصائر ذوي التمييز ٣ / ١٨٦، وأحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٥٣٣، والتفسير الكبير ١٦ / ٩٠.

(٢) سورة التحريم: ٩.

في سبيل الشيطان، قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾(١) .

إن الجهاد سبب لحصول الشهادة، وهي توجب الحياة الدائمة الأبدية قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ** ﴾(٢) .

ولأهمية الجهاد في سبيل الله في حياة المسلمين أصبح هو والتضحية من خصائص المجتمع المسلم، وأن العمل الإسلامي في حاجة أبدًا إلى أن يضحي العاملون في مجاله بأنفسهم، وأوقاتهم وأموالهم، أو بهذا كله من أجل أن يحققوا أهدافهم في الدعوة إلى الله، والحياة في ظلال منهج الله .

وإن آفة العمل الإسلامي في أي زمان ومكان، أن يقدم العاملون له فائض جهودهم وفائض أموالهم، لأن هذا الفائض ليس تضحية حقيقية، وإنما هو فائض وحسبه هذه التسمية، والأصل أن التضحية تكون بالأساسي لا بالفائض.

ولقد ضرب الصحابة - وهم صورة حقيقية للمجتمع المثالي الذي رباه خير المربين - ﷺ - على الحياة في سبيل الله، وليكون قدوة للمجتمع المسلم الذي جاء بعده - أروع الأمثلة في التضحية من أجل الدين، فقد ضحوا بأنفسهم، وهذه أعلى أنواع التضحيات، وباعوا هذه الأنفس، فربحوا وربح

---

(١) سورة النساء: ٧٦ .

(٢) سورة البقرة: ١٥٤ .

بيعهم، وضحوا بأموالهم، فجهزوا الغزوات في سبيل الله ، وضحوا بجهودهم وأوقاتهم فرابطوا في سبيل الله ، وسدوا الثغور .

ولعل الملحظ الجدير بالتأمل في هذا المجال، أن التضحية ملازمة للجهاد في سبيل الله ، إذ لا جهاد دون تضحية .

ومن قعد عن التضحية فهو آثم، قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾[1] .

وعند التأمل العميق، والنظر الفاحص، نجد التضحية لا يحول بين الإنسان وبينها، إلا عارض من العوارض السيئة التي تلم بالإنسان، وأهم هذه العوارض أمران:

الأول: حب الدنيا، أي: حب النفس والولد والمال: والأصل أن الإيمان يلقي في نفس المسلم، الاعتقاد بأن الله أحق بالحب من النفس والمال والولد، وأن المؤمن لايكون مؤمناً إلا إن كان حب الله ورسوله يملأ عليه نفسه وحواسه، قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ** ﴾[2] .

---

(١) سورة التوبة: ٢٤ .

(٢) سورة البقرة: ١٦٥ .

كما يبصر الإيمان صاحبه، بأن الحياة الدنيا وما فيها من متاع، إنما هي إلى زوال، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[1] .

الثاني: الخوف من فقد أسباب الراحة والمتعة: وذلك أن الإنسان يتصور - مخطئًا - أن غيره من الناس ممن لديهم من الوسائل والأسباب مما يحصلون به على متاع الحياة الدنيا هم السعداء، وأن الذين حرموا هذه الوسائل والأسباب هم الأشقياء.

هذا خطأ ووهم، يلقيه الشيطان في قلوب أوليائه، فيحول بذلك بينهم وبين التضحية بأي سبب من أسباب الحصول على المتعة والراحة، وأبرز هذه الأسباب المال والجهد والوقت، فيضن بذلك ويبخل، وتلك آفة كثير من الناس.

أما الإيمان الصحيح فيدفع هذا الوهم، ويبدد تلك الظلمة التي ترين على القلب والعقل، ويعلمه أن الحياة كلها، وما فيها من وسائل وأسباب، كلها بيد الله، يعطيها من يشاء، ويمنعها من يشاء، وأن الموت والحياة بيد الله، وأن الجهاد في سبيل الله لايقدم أجلاً، وأنه ليس هناك عمل ضائع عند الله واهب الحياة وآخذ الحياة.. فإذا كانت الحياة كلها بيد الله، فما بالك بأسبابها؟

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٥.

الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١] .

فهذا هو شأن التضحية في العمل الإسلامي كأساس يقوم عليه التطبيق للإسلام، والممارسة لآدابه وأخلاقه، إذ لا ممارسة دون تضحية .

ومن تأمل وتدبر حياة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يجد أنها قد ضحوا بكل شيء من جميع طاقاته في حياتهم في سبيل الله ، سواء في خروجهم من ديارهم وتركهم لكل ما يملكون خلفهم، أو لمحاربتهم أعداء الله في الغزوات التي وقعت بين المسلمين وأعداء الإسلام، فقد كانوا يضربون المثل في التضحية في سبيل الله . من أجل ذلك فهم من أول المقصودين بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٢] .

أهداف الجهاد وغايته:

وإذا كان الجهاد ذا أهمية كبيرة في حياة المسلمين، فذلك يعود إلى أن

---

(١) سورة آل عمران: ١٥٤ .

(٢) سورة التوبة: ١١١ .

الجهاد في الإسلام ليس بجهاد لا غاية له، وإنما هو الجهاد في سبيل الله، وقد لزمه هذا الشرط لاينفك عنه أبدًا.

وهناك حكم بالغة وأهداف جليلة للجهاد، وذلك لأن الذي شرعه هو العليم الحكيم، فما دام أن الآمر به هو الحكيم، فالحكمة والمصلحة ثابتة فيه قطعًا وتلمس حكمة الجهاد لا يتوقف القيام به على معرفتها عند المسلم الصادق. فإن مقتضى العبودية أن ينفذ العبد أمر سيده، عرف حكمته أو لم يعرف.. وهذا هو شأن المؤمن أمام أي تكليف أو أي حكم في شريعة الله، ولكن معرفة الحكمة تقوي العزائم، وتيسر أمر التكاليف على المكلفين، ونحو ذلك من الفوئد والمصالح.

فمن أهداف الجهاد وحكمه ما يلي:

١ـ حماية حرية العقيدة:

قال تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾(١).

أمر الله سبحانه المؤمنين بقتال الكفار حتى لا تكون فتنة، أي: شرك، ولا يعبد إلا الله وحده لاشريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله من الأرض، ويكون الدين كله لله، وحتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله

(١) سورة الأنفال: ٣٩ ـ ٤٠.

خالصة دون غيره[١] .

ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : «(**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**)»[٢] .

فعلى المسلمين أن يجاهدوا في سبيل الله حتى يحطموا كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس في حرية ، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس عنها . وأن يظلوا يجاهدون حتى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنة لأي قوة في الأرض ، ويكون الدين كله لله . . لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان ، ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض ، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول ، ولا يخاف قوة في الأرض تصده عن دين الله أن يبلغه ، وأن يستجيب له ، وأن يبقى عليه[٣] .

٢- حماية الشعائر :

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ**

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢ / ٢٦٨ ، وتفسير الطبري ٦ / ٢٤٥ ، وتفسير البغوي ٣ / ٣٥٧ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ومحمد رسول الله ، رقم الحديث : ٣٦ (٢٢) بشرح النووي ١ / ٢١٢ .

(٣) انظر : في ظلال القرآن ١ / ١٨٧ .

اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1] .

هناك ربط بين هذه الآيات وبين ما ورد قبله من كلام حول الشعائر والمناسك[2] ، حيث إن تلك الشعائر والعبادات لابد لها من حماية تدفع عنها الذين يصدون عن سبيل الله ، وتمنعهم من الاعتداء على حرية العقيدة وحرية العبادة ، وعلى قداسة المعابد وحرية الشعائر ، ومكن المؤمنين العابدين العاملين من تحقيق منهاج الحياة القائم على العقيدة ، المتصل بالله الكفيل بتحقيق الخير للبشرية في الدنيا والآخرة .

ومن ثم أذن الله للمسلمين بعد الهجرة في قتال المشركين ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم اعتداء المعتدين ، بعد أن بلغ أقصاه ، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة وحرية العبادة في ظل دين الله ، ووعدهم النصر والتمكين ، على شرط أن ينهضوا بتكاليف عقيدتهم التي بينها لهم[3] .

ورد في تفسير النسفي : «لولا إظهاره وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم ، وعلى متعبداتهم فهدموها ، ولم يتركوا للنصارى بيعًا ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلوات أي : كنائس ، ولا للمسلمين مساجد ، أو لغلب المشركون في أمة محمد ـ ﷺ ـ على المسلمين ، وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم ، وهدموا

---

(١) سورة الحج : ٣٨ ـ ٤١ .

(٢) اقرأ سورة الحج : ٣٠ ـ ٣٧ .

(٣) انظر : في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٢٤ .

متعبدات الفريقين. وقدم غير المساجد عليها لتقدمها وجودًا، أو لقربها من التهديم»[١].

٣ ـ دفع الفساد عن الأرض:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[٢].

بين الله سبحانه في هذه الآيات أنه لولا دفع بعض الناس ببعض، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا، ولغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض[٣].

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض. ولولا أن في طبيعة الناس كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مدخورة، وتظل أبدًا يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة. . وفي النهاية

---

(١) تفسير النسفي ٣/ ١٠٤، وانظر: تفسير لكشاف ٣/ ١٦، وتفسير المراغي ٦/ ١١٩.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٠ ـ ٢٥٢.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٢٦٢، وتفسير الكشاف ١/ ٣٨٢، وتفسير أبي السعود ١/ ٢٤٥.

يكون الصلاح والخير والنماء. . يكون بقيام الجماعة الخيرة المستهدية المتجردة. . تعرف الحق الذي بينه الله لها. وتعرف طريقها إليه واضحًا. وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل، وإقرار الحق في الأرض. وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل، وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه.

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتنتصر. ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض، وتمكين الصلاح في الحياة. إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار[١].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: «إن في هذه الآية عبر كثيرة للأمة، منها: فضيلة الجهاد في سبيله وفوائده وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال. وأن المجاهدين ولو شقت عليهم الأمور فإن عواقبهم حميدة، كما أن الناكلين ولو استراحوا قليلاً فإنهم سيتعبون طويلاً»[٢].

٤ ـ الابتلاء والتربية والإصلاح:

قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ**

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ١ / ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢) تفسير السعدي ١ / ٣٠٩.

أَعْمَالَهُمْ ④ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ⑤ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾(١) .

لقد شرع الله للمؤمنين الجهاد وقتال الأعداء ليختبرهم وليبلو أخبارهم، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾(٢) .

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٣) .

إن الجهاد في سبيل الله فرض، وهو امتحان للمؤمن وطريق إلى الخير وإلى الجنة، وبالرغم من كراهة الجهاد لما فيه من المشقة فإنه سبيل العزة والغلبة والنصر، أو الشهادة، وذلك خير للمسلمين. وعندما تركوا الجهاد، وجبنوا عن القتال، وأكثروا من الفرار، وتفرقت كلمتهم، وتشتت وحدتهم، استولى العدو على بلادهم، وذلك شر لهم. فالله تعالى لا يأمر إلا بما فيه الخير والمصلحة لهم، فعليهم أن يمتثلوا وإن كرهته نفوسهم، فليشتغلوا بطاعة الله، ولايلتفتوا إلى مقتضى طباعهم وما تهواه قلوبهم.

قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾(٤) .

---

(١) سورة محمد: ٤ ـ ٦ .

(٢) سورة آل عمران: ١٤٢ .

(٣) سورة التوبة: ١٦ .

(٤) سورة البقرة: ٢١٦ .

إن الله يريد لعباده المؤمنين الخير، فيبتليهم ويربيهم ويصلحهم وييسر لهم أسباب الحسنات:

- يريد ليبتليهم، وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين ما في النفس البشرية من طاقات واتجاهات. فليس أكرم في النفس من أن يعز عليها الحق الذي يؤمن به، حتى تجاهد في سبيله، فتقتل وتقتل، ولاتستطيع الحياة بدونه، ولاتحب هذه الحياة في غير ظله.

- ويريد ليربيهم، فيظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض هذه الأرض الفانية مما يعز عليهم أن يتخلوا عنه. ويظل يقوي في نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص، وينفي كل زغل[1] ودخل، حتى تصبح رغائبهم كلها في كفة وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد، والتطلع إلى وجه الله ورضاه. فترجح هذه وتشيل[2] تلك. ويعلم الله من هذه النفوس أنها خيرت فاختارت، وأنها تربت فعرفت، وأنها لا تندفع بلا وعي، ولكنها تقدر وتختار.

- ويريد ليصلحهم. ففي معاناة الجهاد في سبيل الله، والتعرض للموت في كل جولة، ما يعود النفس الاستهانة بهذا الخطر المخوف، الذي يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازينهم وقيمهم ليتقوه. وهو هين، هين عند من يعتاد ملاقاته. سواء سلم منه أو لاقاه. والتوجه به لله في كل مرة

---

(١) الزَّغَل: الغش (تاج العروس ١٤ / ٣٠٨).

(٢) شال الميزان: ارتفعت إحدى كفتيه (لسان العرب ١١/ ٣٧٥).

يفعل في النفس في لحظات الخطر شيئاً يقربه للتصور فعل الكهرباء بالأجسام! وكأنه صياغة جديدة للقلوب والأرواح على صفاء ونقاء وصلاح[(١)] .

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾[(٢)] .

٥ ـ إرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم وتوهين كيدهم:

ويدل على ذلك آيات كثيرة، منها:

ـ قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾[(٣)] .

ـ وقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[(٤)] .

ـ وقوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦ / ٣٢٨٦ .

(٢) سورة محمد: ٤ ـ ٦ .

(٣) سورة الأنفال: ٦٠ .

(٤) سورة التوبة: ١٤ ـ ١٥ .

مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾[١] .

٦ ـ كشف المنافقين:

قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾[٢] .

قال ابن كثير: «أي لابد أن يعقد شيء من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفضح به عدوه، يعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ورسوله ـ ﷺ ـ، وهتك به أستار المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم الله ورسوله ـ ﷺ ـ»[٣] .

إن المسلمين في حال الرخاء والسعة ينضاف إليهم غيرهم ممن يطمعون في تحقيق مكاسب مادية وهم لايريدون رفع كلمة الله على كلمة الكفر، وقد يتصنعون الإخلاص فيخفى أمرهم على كثير من المسلمين، وأكبر كاشف لهم هو الجهاد، لأن في الجهاد بذلاً لأغلى ما يملك الإنسان غير عقيدته وهو روحه، والمنافق ما نافق إلا ليحفظ روحه وليوفر لنفسه ملذاتها، فإذا دعا داعي الجهاد الذي قد يعرضه لفقد روحه انكشف نفاقه للناس[٤] .

---

(١) سورة الأنفال: ١٧ ـ ١٨ .

(٢) سورة آل عمران: ١٧٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٧١ .

(٤) انظر: تفسير الطبري ١١ / ٣١٨، وأهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، لعلي بن نفيع العلياني ص: ١٨١ .

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾[١] .

وبما تقدم يتضح لنا أن لحياة الجهاد في سبيل الله أهدافًا سامية، ومصالح كريمة، وفوائد عظيمة، تتحقق للمسلمين ولغيرهم، وأن الجهاد من الدعائم التي أقامها الرسول - ﷺ - لبناء الدولة الإسلامية ولتوطيد أركان السلام، وذلك لأن الأمة بغير جيش قوي عرضة للضياع، إذ يطمع فيها أعداؤها ولايهابون قوتها، فإذا كان لها جيش قوي احترم العدو إرادتها، فلا تحدثه نفسه باعتداء عليها، فيسود عند ذلك السلام[٢] .

* * *

(١) سورة محمد: ٢٠ .

(٢) انظر: الحركات العسكرية للرسول الأعظم في كفتيّ الميزان، للعميد الركن سيف الدين آل يحيى ص: ٦٢ .

الحياة في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

احزمي سامعون جزولي

الجزء الثالث

الناشر

دار طويق للنشر والتوزيع

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحفُوظَة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

ⓒ دار طويق للنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

جزولي، احزمي سامعون

الحياة في القرآن الكريم: دراسة موضوعية - الرياض.

٠٠٠ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك ١ - ٣٥ - ٦٤٦ - ٩٩٦٠

١ - القرآن - مباحث عامة أ - العنوان

ديوي ٢٢٩ ١٧/٠٢٩٩٠

رقم الإيداع: ١٧/٢٩٩٠

ردمك: ١ - ٣٥ - ٦٤٦ - ٩٩٦٠

دار طويق للنشر والتوزيع

الرياض - الناصرية - شمال مبنى وزارة الخارجية

ص ب ٣١٩٣٤ - الرياض ١١٤١٨

هاتف: ٤٠٤٢٥٥٥ - فاكس: ٤٠٣٤٢٣٨

الباب الثالث

الغاية من الحياة وثمراتها

وفيه فصلان:

الفصل الأول : الغاية من حياة الإنسان.

الفصل الثاني : ثمرات الحياة في الدنيا والآخرة في ضوء القرآن الكريم.

الفصل الأول

الفصل الأول
الغاية من حياة الإنسان

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[١].

إن القرآن الكريم يدعو الناس ويرشدهم إلى معرفة الغاية من حياتهم، سواء كانت حياة فرد أم أسرة، حياة مجتمع أم دولة، أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها. تلك الغاية هي التي تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها أو نكل منها فقد أبطل غاية وجوده، وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل.

هذه الوظيفة التي تربط بين الإنسان بربه هي العبادة لله وحده، وذلك بأن يكون هناك عبد ورب، عبد يَعْبد، ورب يُعبد، وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار.

فالعبادة التي هي غاية الإنسان في الحياة أوسع وأشمل من مجرد الشعائر؛ وأن وظيفة الخلافة بواجباتها المختلفة داخلة في مدلول العبادة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

لا تَعْلَمُونَ﴾[1] .

الغاية من حياة الفرد:

جاء القرآن ومن بين أهدافه تربية أمة، لتحمل هذا الدين الخالد إلى البشرية كلها. فهو يربي الإنسان ليكون أهلاً للخلافة في الأرض، يربيه قلبًا وروحًا، ويربيه جسدًا وعقلاً، ويربيه أخلاقًا وسلوكًا، ويرتفع به إلى الأفق الأعلى، أفق الإنسانية، آخذًا بيده حتى يحيله في النهاية صورة حية من توجيه القرآن للإنسان الكامل.

ويصنع منه طاقة كونية فعالة، تهيمن على الكون وتسخره لتحقيق الخلافة في الأرض. ويجعل منه في النهاية قوة عزيزة، لا تذل ولا تضعف، ولا تهن ولاتجبن، بل تواجه الأحداث في إيمان وثقة بعون الله القوي العزيز. وتجاهد هذه القوة أعداء الله وأعداء دينه، وهي مطمئنة إلى نصر الله.

قال تعالى: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾[2] .

لقد وصف الله عز وجل نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب؛ ذليل لديه فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره، فهو المنصور، وعدوه هو المقهور[3] ، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾[4] . وقال تعالى: ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ**

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

(٢) سورة الحج: ٤٠.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٦، وتفسير الطبري٩/ ١٦٧.

(٤) سورة الصافات: ١٧١-١٧٣.

عَزِيزٌ﴾[١] .

ومن هنا كانت حكمة الله سبحانه وتعالى في نزول القرآن منجّمًا على رسول الله - ﷺ -، قال تعالى : ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾[٢] .

نزل القرآن منجمًا ليتدبر في عمق، وتنفذ تعاليمه على أنماط الحياة، ويكون للبشرية منهجًا ودستورًا وقائداً ودليلاً .

دستوراً للحياة الفردية، ودستوراً للحياة الجماعية، وقائدًا لها يوجهها إذا بعدت، ويبصرها إذا أخطأت، ويأخذ بيده بعيدًا عن وعورة الحياة ومزالق الطريق .

قال تعالى : ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾[٣] .

فالفرد بهداية القرآن الكريم يعرف غايته في الحياة ، وهي غاية عظيمة لا يدرك عظمتها إلا من يعرف مقدار الوظيفة الأولى للإنسان، فهو خلق عظيم ما استجاب لخالقه ولبى دعوة بارئه؛ فسار على نظام العبودية الحقة، وسبح في فلك الطاعة لا يتحول عنه، كما أن الشمس والقمر في فلك يسبحون . فيؤدي رسالته في الحياة، ويحقق غايته فيها في ظل هذه العبودية ، فيقوم بما كلف به من عمل على وجه الإتقان والكمال دون إفراط أو تفريط ، فإن حاد

(١) سورة المجادلة : ٢١ .

(٢) سورة الإسراء : ١٠٦ .

(٣) سورة الإسراء : ٩ .

عن ذلك فهو مفرط في حق نفسه وحق أمته وحق الناس أجمعين. وهو بعدُ مسؤول بين يدي الله ، لاناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء.

قال تعالى: ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾(١) .

ثم هو مجازى بما يعمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾(٢) .

فالفرد العلم غايته تتمثل في رسالته في الحياة، وهي: تهذيب النفوس، ومعالجة القلوب، وبيان سبل الخير والترغيب في سلوكها، وطرق الشر والتنفير من ولوجها، ونشر العلم، وتيسير فهمه، والرفق بالجاهل وغيرها مما يدخل في دائرة إنذار قومه عاقبة الجهل وترك العمل بما علموا، رجاء أن يخافوا الله ويحذروا عاقبة عصيانه.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾(٣) .

والفرد العالم يبلغ رسالات الله عز وجل إلى خلقه ويؤديها بأماناتها، ويخافه ولا يخاف أحدًا سواه، فلا تمنعه سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى، وكفى بالله ناصراً ومعينًا، وسيده وقدوته في هذا المقام بل وفي كل

---

(١) سورة مريم: ٩٥.

(٢) سورة الزلزلة: ٧-٨.

(٣) سورة التوبة: ١٢٢.

مقام محمد ـ ﷺ ـ، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب إلى جميع الناس.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾[1] .

والفرد العالم إذ قام بأداء تلك الرسالة العظيمة ومقتضياتها، فهو على خشية الله دائمًا وأبدًا، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[2] .

أما الفرد الحاكم فغايته في الحياة تتمثل في تحقيق رسالته، وذلك بأن يعدل في الرعية، لا يفرق بين قريب وبعيد، ويرعى شؤون الناس بالقسطاس المستقيم، ويسهر على مصالحهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن يسخر ما عنده من الحكم والسلطة والتمكين لتنفيذ شرع الله في الأرض، وإقامة العدل بين العباد، وضرب الظالمين والمفسدين في الأرض، وتشجيع المحسنين العاملين لمصلحة الأمة. فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم. والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء.

قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ

(١) سورة الأحزاب: ٣٩.
(٢) سورة فاطر: ٢٨.

إمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾(٢) .

وأما الفرد المحكوم فغايته تتمثل في تحقيق رسالته في الحياة، وذلك بأن يكون عونًا للحاكم العادل على تأدية رسالته، فيطيع أوامره، ويعينه على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، كما يعينه على اقتلاع جذور الفساد والفتنة من المجتمع وتنمية سبل الخير.

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾(٣) .

وهكذا كل من الزارع والتاجر والصانع، كل في عمله : غايتهم في الحياة تحقيق رسالتهم، وذلك بأن يقوم كل واحد بعمله ابتغاء مرضاة الله ؛ فيهتم الزارع بالغراس ويلتمس الوسائل الصحيحة للاستنبات، ويبذل جهوده في حقله لينتج إنتاجًا حسنًا ؛ كما يهتم التاجر باستجلاب البضائع، وتيسير

(١) سورة الكهف : ٨٣ـ٨٨ .

(٢) سورة النساء : ٥٨ .

(٣) سورة النساء : ٥٩ .

الحوائج للناس، متوخيًا في ذلك المصلحة العامة للناس دون أن يستغلهم أو يغشهم أو يدلس عليهم. وكذلك الصانع يتقن صنعته، ويحاول أن يكون دائمًا في تقدم مع حرصه على الصدق والأمانة والوفاء.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾(١).

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً**﴾(٣).

لو أدى كل فرد رسالته على ما ينبغي، وفكر أنه تحت مراقبة الله ينظر إليه ويراه، وأنه إن أحسن في عمله أحسن الله إليه وضاعف له، وأن كل عمل سواء كان دينيًا أو دنيويًا خاصًا أو عامًا متى أخلص الفرد فيه النية وأتقنه ابتغاء وجه ربه فسيجد من توفيق الله له وتيسيره له في الدنيا وثوابه وكرامته في دار الآخرة ما لا يقدر قدره إلا الله.

ولو أدى كل فرد رسالته في الحياة وقام بأداء الناحية التي هيأه الله لها أداء حسنًا، لتحققت السعادة للجميع، وتلك هي الغاية التي يريدها الإسلام فيما أتى به من تشريع وأحكام. وهي رسالة القرآن الذي أنزله الله على رسوله - ﷺ -، فاستجاب له المسلمون الأولون، فعزوا بعد ذل، وسعدوا بعد

---

(١) سورة التوبة: ١١٩.

(٢) سورة الأنفال: ٢٧.

(٣) سورة الإسراء: ٣٤.

شقاء، وأصبحوا المثل الأعلى للأمم الحية الناهضة؛ لأن كل واحد منهم كان يشعر بالمسؤولية في أداء الرسالة التي كلف بها، وأنه يؤمن بأن الله عز وجل يسأل الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضًا عن إبلاغ رسالته، كما أنه يؤمن ـ ويترجم في واقع حياته ـ بأن كل واحد منهم راع وأنه مسؤول عن رعيته.

قال تعالى: ﴿ **فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** ﴾[(١)] .

وقال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ** ﴾[(٢)] .

وقال تعالى: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[(٣)] .

روي الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «**(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته)**»[(٤)] .

الغاية من حياة الأسرة:

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ**

---

(١) سورة الأعراف: ٦ .

(٢) سورة القصص: ٦٥ .

(٣) سورة الحجر: ٩٢ـ٩٣ .

(٤) صحيح البخاري كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم الحديث: ٨٩٣، فتح الباري ٢ / ٤٤١ .

مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[1] .

إن الله عز وجل يأمر الناس بتقواه، وهي عبادته وحده لاشريك له، وأنها غاية حياتهم، ويؤكد الأمر بالتقوى بما يحمل على الامتثال بذكر الربوبية المضافة إلى المخاطبين التي تربيهم بنعمه وتفيض عليهم من إحسانه، ثم ذكر لفظ الجلالة في الأمر الثاني بالتقوى، لأن الله علم المهابة والجلالة.

وينبه الله عز وجل الناس لقدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة، مما يوحي بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة. فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة في الأرض بأسرة واحدة. فخلق ابتداءً نفسًا واحدة، وخلق منها زوجها. فكانت أسرة من زوجين.

وقد شاء الله سبحانه لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها أن يضاعف الوشائج، فيبدأ بها من وشيجة الربوبية - وهي أصل وأول الوشائج - ثم يثني بوشيجة الرحم، فتقوم الأسرة الأولى من ذكر وأنثى - هما من نفس واحدة وفطرة واحدة - ، ومن هذه الأسرة الأولى يبث رجالاً كثيرًا ونساء، كلهم يرجعون إلى وشيجة الربوبية، ثم يرجعون بعدها إلى وشيجة الأسرة التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني بعد قيامه على أساس العقيدة. ومن ثم هذه الرعاية للأسرة في الإسلام، وهذه العناية بتوثيق عراها، وتثبيت بنيانها، وحمايتها من جميع المؤثرات التي توهن هذا البناء، حتى تستطيع أن تحقق غاية وجودها، وهي

---

(١) سورة النساء: ١.

عبادة الله وحده لاشريك له[١] .

فالغاية من حياة الأسرة لا تتحقق في عالم الواقع إلا إذا كان أعضاء الأسرة يفهمون تلك الغاية العظيمة. ومن ثم هذه الأسرة لابد فيها من الأب المسلم الذي تطهر عقيدته ونفسه، ويسمو بدوافعه، ويتعهد بفرائض تروضه على الحياة النظيفة والخلق الكريم، فهو ترجمة حية للفرد المسلم الذي يعرف غاية حياته.

كما لابد في الأسرة من الأم المسلمة التي تؤسس بيتها على التقوى من أول يوم، وأن تشيع فيه روح الربانية العاطرة، قال تعالى: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا** ﴾[٢] . وعليها أن تطبع نفسها منذ اللحظة الأولى على المفهوم الصادق لقوله تعالى: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ **وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾[٤] ، وأن تدرك أن المساواة بين إنسانية الرجل والمرأة لاتستتبع أبدًا التكافؤ فيما يلقى على كل منهما من أعباء، فذلك ما لا تطيقه المرأة في كل حال، وهو ما يفسد عنصر الضعف فيها، أو عنصر الوداعة والرقة، الذي هو سر من أسرار جمالها الإنساني، ولعله سر السكينة

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١ / ٣٨٥، وفي ظلال القرآن ١ / ٥٧٥، والتفسير المنير ٤ / ٢٢٢.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٣ـ٣٤.

(٣) سورة النساء: ٣٤.

(٤) سوة البقرة: ٢٢٨.

التي يفيء إلى ريحانها الرجل كلما عاد مهمومًا من لفح الحياة، والويل للرجل إذا عاد إلى بيته فلم يجد فيه إلا قرينة من طراز منافسيه في الخارج، تطاوله إرادة بإرادة، وشوكة بشوكة.

فالأسرة أو الحياة الزوجية شركة، مديرها الرجل، والزوجة معه شريكة ومتعاونة، والسعادة الزوجية ليس مصدرها الماديات ـ وإن كانت من عناصرها ـ من مسكن وملبس وأثاث.

إنما السعادة الزوجية الحقةتتوفر في تقوى الله من كلا الزوجين، وقيام كل منهما بواجبه نحو الآخر، فيتبادلان الثقة والأنس والرحمة والمودة، كما يأمر الإسلام، ويقبلان على الزواج على أنه عبادة، يبتغيان من ورائه الأجر والثواب. ولهذا أقام القرآن الأسرة على أساس من الحق والعدل والإحسان، وأحاطها بفيض من البر والمواساة والحب:

ـ فالأسرة سكن ومودة ورحمة، قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[١]. ولتدوم الحياة الأسرية على أتم نظام جعل الله سبحانه بين الزوجين المودة والرحمة، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين، فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما، فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة، ولأجل ما ينطوي عليه هذا

---

(١) سورة الروم: ٢١.

الدليل ويتبعه من النعم والدلائل جعلت هذه الآية آيات عدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] [2].

ـ ولهذ المنزلة الرفيعة التي جعلت الزواج في نظام الأسرة أساسًا للبناء الاجتماعي، واعتبرته رحمة تشمل الفرد والمجتمع جاء القرآن الكريم يؤكد تلك الصلة ويربطها برباط قوي متين، فجعلها صلة ميثاق وعهد تأبى النفوس التي يناديها ربها بالإيمان أن تنقض هذا الميثاق، أنه ليس ميثاقًا سهلاً وعهدًا هينًا، بل هو ميثاق غليظ.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[3]. هو ميثاق الزواج، باسم الله، وعلى سنة الله.. وهو ميثاق غليظ لا يستهين بحرمته قلب مؤمن، وهو يخاطب الذين آمنوا، ويدعوهم بهذه الصفة أن يحترموا هذا الميثاق الغليظ. ولقوة هذا الميثاق خطب النبي ـ ﷺ ـ الناس في حجته فقال: «(... **فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله..**)»[4].

ولو رجعنا إلى هدى القرآن نرى على ضوئه مدى قوة هذا الميثاق وصلته بما بين الزوجين، لوجدنا أن القرآن لا يعبر بهذا اللفظ إلا في الأمور الجليلة

---

(١) سورة الروم: ٢١.
(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير ٢١ / ٧١.
(٣) سورة النساء: ٢١.
(٤) صحيح مسلم كتاب الحج، باب حجة النبي ـ ﷺ ـ، رقم الحديث: ١٤٧ (١٢١٨) بشرح النووي ٨ / ١٨٣.

ذات الصلة بالعقيدة أو ما اتصل بها، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[١] .

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[٢] .

وإذا كان المتتبع لكلمة «ميثاق» ومواضعها التي وردت فيها لا يكاد يجدها تأخذ مكانتها في التعبير القرآني إلا حيث يأمر الله بعبادته وتوحيده والأخذ بشرائعه وأحكامه، فإنه يستطيع ـ وقد جاءت في شأن الزواج ـ أن يدرك عن طريق قريب المكانة السامية التي وضع الله الزواج فيها وجعله في التعبير عنه صنواً للإيمان بالله وشرائعه وأحكامه[٣]، قال تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾[٤] .

ـ وإذا كانت الأسرة لها مكانتها السامية، وغايتها العظيمة في الحياة، فلا شك أن القرآن الكريم يهتم بها كثيراً. فالأسرة حقل التربية القرآنية؛ إذ يشعر الفرد الذي رباه القرآن أنه من هذا الكيان الواسع الشامل وهو لذلك مأمور بأن يتقي ربه في هذه الأسرة، ويوصيها بتقوى الله .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[٥] .

---

(١) سوة البقرة: ٨٣ .

(٢) سورة آل عمران: ١٨٧ .

(٣) الإسلام عقيدة وشريعة، للشيخ محمود شلتوت ص: ١٥٩ .

(٤) سورة النساء: ٢١ .

(٥) سورة النساء: ١ .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(١).

ومع هذا الحقل الواسع الذي تعمل فيه تربية القرآن، فهناك الشجرة النامية وسط هذا الحقل، والتي تتكون من الأصول والفروع.. فيكون مع الزوج وزوجته ثمرة هذا الزواج من الأبناء والحفدة ومعه كذلك الآباء والأجداد والأعمام والأخوال والعمات والخالات.. ولكل عضو من هؤلاء حقوق وواجبات تتفاوت مراتبها بمقدار قرب الشخص وبعده عن قريبه.. وبهذه الحقوق المتبادلة يقيم القرآن بناء المجتمع على أقوى الأسس وأعظمها شأنًا في تاريخ الإنسانية ويحيطها بنور الإيمان الذي لا يخبو ضياؤه.

فما فرضه على الأبناء من حق الطاعة والإحسان لوالديهم يصل في نظر القرآن إلى درجة قصوى من التعظيم والتقديس تلي العبودية لله سبحانه. فطاعة الله وطاعة الوالدين أمران مقترنان لايفترقان: الله سبحانه الموجد الحقيقي، والوالدان هما سبب الإيجاد الظاهري، لذلك يقول تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا..﴾(٢). ويقول تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾(٣).

ويبين القرآن هذا الإحسان للوالدين، ويخص الأم لزيادة العناية

---

(١) سورة التحريم: ٦.
(٢) سورة الإسراء: ٢٣.
(٣) سورة الأنعام: ١٥١.

والاهتمام بها، حيث حملت الإنسان في بطنها بمشقة، وولدته بمشقة، فإنها قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعبًا من ثقل وكرب، ووضعته بمشقة أيضًا من ألم الطَّلْق وشدته، ووجع الولادة ثم الرضاع والتربية، وكانت أيام الوحم تمتنع من الطعام والشراب، وتعاف كل شيء مما يستدعي البر بها والإحسان الزائد إليها.

قال تعالى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ...** ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾[2].

ويحدد في وضوح ما يجب على الأبناء أن يعاملوا به الآباء فيقول: ﴿ **إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾[3].

بهذه العبارات الندية والصور الموحية يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلب الأبناء. ذلك أن الحياة وهي مندفعة في طريقها بالأحياء توجّه اهتمامهم القوي إلى الأمام، إلى الذرية، إلى الناشئة الجديدة، إلى الجيل المقبل. وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء، إلى الأبوة، إلى الحياة المولية،

---

(١) سورة الأحقاف: ١٥.

(٢) سورة لقمان: ١٤.

(٣) سورة الإسراء: ٢٣-٢٤.

إلى الجيل الذاهب ! ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف، وتتلفت إلى الآباء والأمهات[١] .

أما الآباء فهم مدفوعون بفطرتهم إلى حماية الأبناء والبر بهم، والشفقة عليهم، والاهتمام بأمرهم. ولولا ذلك لانقرض النوع الإنساني من الأرض، ولما صبر الأبوان على رعاية أولادهما، ولما قاما بكفالتهم وتربيتهم والسهر على أمرهم والنظر في مصالحهم.

ولا عجب أن يصور القرآن الكريم هذه المشاعر الأبوية الصادقة أجمل تصوير، فيجعل من الأولاد تارة زينة الحياة، قال تعالى: ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . .** ﴾[٢] .

ويعتبرهم أخرى نعمة عظيمة تستحق شكر الواهب المنعم، قال تعالى: ﴿ **وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا** ﴾[٣] .

ويعتبرهم قرة أعين إن كانوا سالكين سبيل المتقين، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾[٤] .

لكن هذه الفطرة كثيراً ما تنحرف عن طبيعتها نتيجة اعتقاد فاسد ووهم باطل كما عرف في عرب الجاهلية من قتلهم لأولادهم . . ، فجاء القرآن الكريم يصلح هذه الفطرة الملوثة فيقول: ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا**

---

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٢٢١ .

(٢) سورة الكهف: ٤٦ .

(٣) سورة الإسراء: ٦ .

(٤) سورة الفرقان: ٧٤ .

بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾(١) .

وينهى عن هذا القتل فيقول: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾(٢) ، ويقول: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾(٣) .

وفي عهد المبايعة بين الرسول ـ ﷺ ـ والمؤمنات وصية بالابتعاد عن هذا الجرم الشنيع، يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤) .

وقد تنحرف هذه الفطرة فيجرفها تيار الحب للأولاد فتفتن بهم وتنسى ربها وخالقها، وهنا يكون تحذير القرآن:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(٥) .

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ

---

(١) سورة الأنعام: ١٤٠

(٢) سورة الإسراء: ٣١.

(٣) سورة الأنعام: ١٥١ .

(٤) سورة الممتحنة: ١٢ .

(٥) سورة المنافقون: ٩

وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(١) .

أما باقي فروع الشجرة الأسرية وأصولها فلها حق الصلة والتواد والثقة إذا احتاج القريب إليها، لأن أقارب الإنسان حمايته وعشيرته وجيرانه وأهله تتصل مصالحه بهم مباشرة، ولن تتيسر هذه المصالح والمنافع المتبادلة، والقلوب متباغضة، والنفوس متنافرة، لهذا كان للأقارب والأرحام حق الانتفاع المادي بما يتركه لهم من ميراث فيشعرون أن ما يجمعه ليس شيئًا خاصًا به وحده، إنما هو للجميع على حسب درجة قربتهم منه، قال تعالى: **﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾**(٢) . وقال تعالى: **﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾**(٣) .

وحدد القرآن الكريم من يستحق الميراث ومن لا يستحق من أقارب الشخص. وفي حياة الإنسان اتبع القرآن منهاجا خاصا في صلة القربى فجعلهم في الدرجة الأولى من الذين يستحقون الإحسان، لا لأنهم فقراء أو مساكين، ولكن لأنهم قربى.

قال تعالى: **﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾**(٤) .

---

(١) سورة التغابن: ١٤ـ١٥.

(٢) سورة الأحزاب: ٦.

(٣) سورة الأنفال: ٧٥.

(٤) سورة النساء: ٧ـ٨.

ثم حض القرآن على الإحسان إلى القرابة: وهو صلة الرحم كالأخ والأخت والعم والخال وأبنائهم، وذلك بمودتهم ومواساتهم. وذلك يؤدي إلى ترابط الأسرة وتقوية معنوياتها.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾[1].

بعد أن أمر الله الناس بعبادته وحده لا شريك له، وبالإحسان بالوالدين، أعقب ذلك بالوصية بذي القربى. فإذا أدى المرء حقوق الله فصحت عقيدته وصلحت أعماله، وقام بحقوق الوالدين، صلح البيت وحسن حال الأسرة، وإذا صلح البيت كان قوة كبيرة، فإذا عاون أهله ذوي القربى الذين ينسبون إليهم كان لكل منهم قوة أخرى تتعاون مع هذه الأسرة، وبذا تتعاون الأمة جمعاء، وتمدّ يد المعونة لمن هو في حاجة إليها ممن ذُكروا بعد.

فيفهم من هذه الآية أن التوجيه إلى الإحسان يبدأ بذوي القربى ـ قرابة خاصة أو عامة ـ ثم يمتد منها ويتسع نطاقه من محورها إلى بقية المحتاجين إلى الرعاية من الأسرة الإنسانية الكبيرة. وهذا المنهج يتفق ـ أولاً ـ مع الفطرة ويسايرها. فعاطفة الرحمة ووجدان المشاركة يبدآن أولاً في البيت، في الأسرة الصغيرة. وقلما ينبثقان في نفس لم تذق طعم هذه العاطفة ولم تجد مَسَّ هذا

---

(١) سورة النساء: ٣٦.

الوجدان في المحضن الأول . . ثم يتفق المنهج ـ ثانيًا ـ مع طريقة التنظيم الاجتماعي الإسلامية : من جعل الكافل يبدأ في محيط الأسرة ؛ ثم ينساح في محيط الجماعة ؛ كي لا يركز عمليات التكافل في يد الأجهزة الحكومية الضخمة ـ إلا عند تعجز الأجهزة الصغيرة المباشرة ـ فالوحدات المحلية الصغيرة أقدر على تحقيق هذا التكافل في وقته المناسب وفي سهولة ويسر ، وفي تراحم وود يجعل جو الحياة لائقًا ببني الإنسان ![1] .

ثم العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي أمور أربعة يقوم عليها بناء المجتمع الصالح ، ولذلك يأمر الله عز وجل بها ، فقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[2] .

ومن أراد الفلاح فعليه بصلة الأقارب ، فذلك دليل الإخلاص ، يقول تعالى : ﴿ **فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[3] .

هكذا تتحقق الغاية من حياة الأسرة ، عندما أدى كل عضو من أعضائها وظيفته ، وقام بأداء الناحية التي هيأه الله لها أداء حسنًا ، فتحققت السعادة للجميع ، وتلك الغاية التي يريدها القرآن في تكوين الأسرة ونظامها ، والتي لم تصل إليها حضارة أرضية إلى يومنا هذا . إلى يوم القيامة .

---

(١) انظر : في ظلال القرآن ٢ / ٦٦٠ ، وتفسير المراغي ٢ / ٣٥ .
(٢) سورة النحل : ٩٠ .
(٣) سورة الروم : ٣٨ .

وهذه الحياة السعيدة تحيط بالأسرة وتجمعها هناك في الآخرة، فإذا بالآباء والأبناء والزوجات قد شملتهم هذه السعادة الخالدة، وامتدت صلاتهم أبد الآبدين.

قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(١).

ويخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش بأنهم يستغفرون للذين آمنوا وينادون ربهم بأن يجمع بين المؤمنين وبين آبائهم وأزواجهم وذرياتهم في جنات عدن.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٢).

ورحمة الله تشمل كل أفراد الأسرة فترفع المقصر إلى منزلة المؤمن الكامل إكرامًا لرابطة الإيمان التي جمعتهم في الدنيا، ولا ينبغي أن يتباعدوا في الآخرة.

قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ

---

(١) سورة الرعد: ٢٣-٢٤.

(٢) سورة غافر: ٧-٩.

آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾(١) .

الغاية من حياة المجتمع:

قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٢) .

إن المجتمع القرآني يقوم على أساس الأخوة العامة بين المؤمنين . ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة والرحمة هي الأصل في المجتمع الإسلامي .

يقول تعالى في بيان المحبة بين المؤمنين في حياتهم الاجتماعية : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣) .

يقول النبي ـ ﷺ ـ في الحديث الذي رواه أنس ـ رضي الله عنه ـ : «(لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)»(٤) .

ويحث تعالى المؤمنين على التعاون على البر والتقوى فيقول : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) سورة الطور : ٢٠ ـ ٢١ .

(٢) سورة الحجرات : ١٠ .

(٣) سورة الحشر : ٩ .

(٤) صحيح البخاري كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، رقم الحديث : ١٣ ، فتح الباري ١ / ٧٣ .

شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(١) .

كما يحث سبحانه وتعالى المؤمنين على الوحدة، وهي ليست مجرد تجمع على أي تصور، ولا على أي هدف، ولا بواسطة أي حبل من حبال الجاهلية الكثيرة، ولكنها وحدة معتصمة بحبل الله، فهي نعمة يمتن الله بها على المجتمع الإسلامي، وأنها نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائمًا.

قال تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**..﴾(٢) .

ويخبر تعالى بأن المؤمنين قوم رحماء بينهم، فالرحمة والرأفة والرفق والبر بالمؤمنين، وهم بشوشون في وجوه إخوتهم المؤمنين. قال تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾(٣) .

وهكذا يكون المجتمع القرآني قائمًا على أساس الأخوة العامة بين المؤمنين، وعلى ما يترتب عليها. ولكي يحقق المجتمع القرآني غاية وجوده ـ وهي عبادة الله وحده بمعناها الواسع ـ لابد له من أسس العلاقات الاجتماعية الصالحة، وهي:

أولا: العدل والإحسان:

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ**

---

(١) سورة المائدة: ٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٣) سورة الفتح: ٢٩.

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(١) .

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، وأداء القدر الواجب من الخير. ويأمرهم بالإحسان، وهو الزيادة في الطاعة والتعظيم لأمر الله والشفقة على خلقه(٢) .

لقد جاء هذا القرآن الحكيم لينشئ أمة وينظم مجتمعًا، ثم لينشئ عالماً ويقيم نظامًا. جاء دعوة عالمية إنسانية لاتعصب فيها لقبيلة أو جنس، إنما العقيدة وحدها هي الآصرة والرابطة.

قال تعالى مخبراً عن عالمية دعوة القرآن: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾(٣) .

ومن ثم جاء بالمبادئ والأسس التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود.

جاء بالعدل الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة وأساسًا قويًا للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب، والغنى والفقر، والقوة والضعف. إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع.

وإلى جوار العدل والإحسان، يلطف من حدة العدل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحًا لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لود القلوب،

---

(١) سورة النحل: ٩٠.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢ / ٥٠٣، وتفسير المراغي ٥ / ١٣٣.

(٣) سورة الفرقان: ١.

وشفاء لغل الصدور. ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوي جرحًا أو يكسب فضلاً.

والإحسان أوسع مدلولاً، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بمجتمعه، وعلاقاته بالناس جميعًا[١].

وقد جمع القرآن الكريم العدل والإحسان بذكر صورهما ففي مواضع كثيرة، ليدل على أنهما من دعائم الحياة الإسلامية وأسس العلاقات الاجتماعية الصالحة، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾[٢].

- وقوله تعالى: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾[٣].

- وقوله تعالى: ﴿ **...وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾[٤].

ثانيًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يجب على الناس في مجتمعهم التناصح فيما بينهم، وترشيد بعضهم

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤ / ٢١٩.

(٢) سورة النحل: ١٢٦.

(٣) سورة الشورى: ٤٠.

(٤) سورة المائدة: ٤٥.

لبعض بما يتفق مع الشريعة الإسلامية حتى يستقيم الناس في أجسادهم ونفوسهم وعقولهم وعلاقاتهم بشتى صورها وأنواعها بينهم وبين بعضهم، وبينهم وبين الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.. ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[٤].

وقال تعالى في شأن بني إسرائيل وسبب لعنتهم: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[٥].

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم

(١) سورة آل عمران: ١٠٤.
(٢) سورة آل عمران: ١١٠.
(٣) سورة الأعراف: ١٩٩.
(٤) سورة التوبة: ٧١.
(٥) سورة المائدة: ٧٨ ـ ٧٩.

يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)»[١] .

فالآيات القرآنية السابقة، وهذا الحديث الشريف تدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بناء المجتمع الصالح والمحافظة عليه من الشر، ذلك أن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفًا مصطلحًا عليه؛ وأن يصبحا سهلاً يجترئ عليه كل من يهم به. . وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات، ويصبح الجزاء على الشر رادعًا وجماعيًا تقف الجماعة كلها دونه، وتوقع العقوبة الرادعة عليه. . عندئذ ينزوي الشر، وتنحسر دوافعه، وعندئذ يتماسك المجتمع فلا تنحل عراه. وعندئذ ينحصر الفساد في أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع، ولا يسمح له بالسيطرة، وعندئذ لاتشيع الفاحشة، ولا تصبح هي الطابع العام.

ثالثًا: التخلق بالأخلاق الإسلامية:

ومن أسس العلاقات الاجتماعية الصالحة التخلق بالأخلاق الإسلامية، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الأخلاق الكريمة بأسلوب الأمر والنهي.

أما الأمر فيتجلى في أمور آتية:

١ ـ أداء الأمانة:

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾[٢] .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان. . ، رقم الحديث: ٧٨ (٤٩) شرح النووي ٢ / ٢١.

(٢) سورة النساء: ٥٨ .

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾[1].

٢ـ الوفاء بالعهد:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[3].

٣ـ إصلاح ذات البين:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[5].

٤ـ دفع السيئة بالحسنة:

قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[6].

وأما أسلوب النهي في الحث على التخلق بالأخلاق الإسلامية فيتجلى في أمور محظورة آتية:

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٣.

(٢) سورة المائدة: ١.

(٣) سورة الإسراء: ٣٤.

(٤) سورة الحجرات: ١٠.

(٥) سورة الأنفال: ١.

(٦) سورة فصلت: ٣٤.

١ـ قتل الإنسان بغير الحق:

قال تعالى: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾(٢) .

٢ـ أكل الربا:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٣) .

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٤) .

٣ـ خيانة الأمانة:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٥) .

٤ـ السخرية:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ

---

(١) سورة الأنعام: ١٥١ .

(٢) سورة النساء: ٢٩ .

(٣) سورة البقرة: ٢٧٨ .

(٤) سورة آل عمران: ١٣٠ .

(٥) سورة الأنفال: ٢٧ .

الظَّالِمُونَ ﴾[١] .

٥ـ التجسس والغيبة:

قال تعالى : ﴿ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾[٢] .

ونكتفي بهذا القدر في ذكر الأخلاق الإسلامية بأسلوبيها الأمر والنهي، وذكرتها من باب الإتيان بالمثال لا الحصر، وإلا فالأخلاق الإسلامية كثيرة، مثل: العفو، ونشر العلم، و تحرير العبيد أو تيسير حريتهم، والبعد عن محظورات من السرقة والغش وأكل مال اليتيم والظلم، والتعاون على الإثم والعدوان، والدفاع عن الخائنين، وشهادة الزور، وكتمان الحق، وقول السوء.

وغيرها من الخصائص الأساسية التي يتسم بها المسلم في أخلاقه وسلوكه وعلاقاته بالآخرين، يتضح منها كيف أنها قادرة على إقامة المجتمع الفاضل الذي تحقق في واقع الحياة، وكان خير مثال في تاريخ الدنيا بأسرها للمجتمع المتعاون المتكافل المتكامل القوي، و استطاع الإسلام بهذه المبادئ أن ينتشر في كل بقاع العالم.

رابعًا: التربية الإسلامية الصحيحة:

ومن أسس العلاقات الاجتماعية الصالحة؛ التربية الإسلامية الصحيحة. تلك التربية التي تستهدف الحفاظ على الفطرة النقية السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله إلا هو.

---

(١) سورة الحجرات: ١١.
(٢) سورة الحجرات: ١٢.

قال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[١] .

ورد في الحديث أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال ذات يوم في خطبته: «(**ألا إن ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم مما علّمني يومي هذا: كلّ مال نحلته عبداً حلال**[٢] ، **وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلّهم ، وإنهم أتتهمالشياطين فاجتالتهم عن دينهم..**)»[٣] .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «(**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جَدعاء؟ ثم يقول: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾**[٤])»[٥] .

والفطرة ثابتة والدين ثابت، فلكي لا تنحرف النفوس عن الفطرة لابد من التربية الإسلامية، فإنها لم يردها إليها هذا الدين المتناسق مع الفطرة. وهناك مجموعة من الخصائص التي تميز التربية الإسلامية نوجزها فيما يلى :

---

(١) سورة الروم: ٣٠.

(٢) وفي الكلام حذف، أي: قال الله تعالى: كل مال أعطيته عبداً من عبادي فهو حلال (شرح النووي لصحيح مسلم ١٧ / ١٩٧).

(٣) صحيح مسلم كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم الحديث: ٦٣ (٢٨٦٥) شرح النووي ١٧ / ١٩٧.

(٤) سورة الروم: ٣٠.

(٥) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب ﴿ **لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾، رقم الحديث: ٤٧٧٥، فتح الباري ٨ / ٣٧٢.

١ـ التربية الإسلامية تربية شاملة:

طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الكائن البشري كله معالجة شاملة، لا تترك منه شيئًا ولا تغفل عن شيء، جسمه وعقله وروحه، حياته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الأرض.

الإسلام يؤمن من الكائن الإنساني بما تدركه الحواس، وبما يقع خارج نطاق الحواس. يؤمن بكيانها المادي المحسوس وأنه قبضة من طين الأرض، قال تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ** ﴾[١] .

يؤمن بما لهذا الكيان المحسوس من مطالب، ويؤمن بما فيه من طاقات، ويعترف بهذا الكيان اعترافًا كاملاً لا يغض شيئًا من قيمته، ولا يهدر شيئا من طاقاته. يستجيب لحاجاته ومطالبه، فيوفر له المأكل والملبس والمسكن والجنس، ونصيبه من المتاع. ويجند طاقاته لتعمل في تعمير الأرض. قال تعالى: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ** ﴾[٢] .

وفي الوقت ذاته يؤمن بالكيان الروحي للإنسان، يؤمن بأن فيه نفخة من روح الله، قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾[٣] .

ويؤمن بما لهذا الكيان الروحي من مطالب، وما يشتمل عليه من طاقات.

---

(١) سورة ص: ٧١.
(٢) سورة هود: ٦١.
(٣) سورة ص: ٧٢.

فيعطيه ما يطلبه من عقيدة وصعود وترفّع، ويجند طاقاته في إصلاح كيان النفس وإصلاح شرور المجتمع[١] .

ويعترف بأن هناك ـ إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة ـ قوة واعية مدركة موجهة هي ذات الإنسان . في التي تناط بها التبعة . فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها، وتغليبه على استعداد الشر . . فقد أفلح . ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب وخسر[٢] . قال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾[٣] .

وهكذا تكون التربية الإسلامية تربية شاملة، حيث لا تركز على أحد جوانب الإنسان، وإنما تعتني بالتنشئة الشاملة للإنسان، جسمًا وعقلاً وسلوكًا ووجداناً، وبالعلاقات بين الإنسان وغيره وبينه وبين ربه، فهي تحرر العقل من الأوهام، وتحرر النفس من العبودية لغير الله، وتحرر الجسم من الوقوع في أسر اللذات والشهوات ، وتقيم علاقات بين الناس قوامها الأخوة والعدل والحب .

٢ـ التربية الإسلامية تربية متوازنة:

حيث تحرص على تحقيق التوازن الدقيق المعجز بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة :

قال تعالى : ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ**

(١) انظر : منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ١ / ٢١ .
(٢) انظر : في ظلال القرآن ٦ / ٣٩١٧ .
(٣) سورة الشمس : ٩ ـ ١٠ .

الدُّنْيَا ﴾[١] .

التربية الإسلامية تتميز بالتوازن، فهي توازن بين الروح والجسم، بين العقل والقلب، بين المثال والواقع، بين النظر والعمل، بين الغيب والشهادة، بين الحرية والمسؤولية، بين الفردية والجماعية.

فمنهج التربية الإسلامية منهج وسط لأمة وسط، ولهذا كان رسول الله - ﷺ - إذا لمح من بعض أصحابه جنوحًا إلى الإفراط أو التفريط ردّهم إلى الوسط، وحذّرهم من مغبة الغلو والتقصير.

ولهذا أنكر على الثلاثة الذين سألوا عن عبادته - ﷺ - فكأنهم يرون أنها قليلة. فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - يقول: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي - ﷺ - يسألون عن عبادة النبي - ﷺ -، فلما أخْبِرُوا كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي - ﷺ -؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا أصلي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله - ﷺ - فقال: **(أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)**»[٢] .

ولما رأى سلمان مبالغة أبي الدرداء في الصيام والقيام ردّه إلى الوسط

---

(١) سورة القصص: ٧٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم الحديث: ٥٠٦٣، فتح الباري ٩ / ٥.

والاعتدال، وقرر ذلك رسول الله - ﷺ - . ففي صحيح البخاري أن النبي - ﷺ - آخى بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مبتذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبوالدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبوالدرداء فصنع له طعامًا فقال: كل، فإني صائم. فقال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم، فنام. ثم ذهب يقوم، فقال: نم. فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن، قال: فصليا. فقال له سلمان: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي - ﷺ - فذكر ذلك له، فقال النبي - ﷺ -: «**(صدق سلمان)**»[1] .

٣- التربية الإسلامية تربية مستمرة:

فهي تستمر مع الإنسان من المهد إلى اللحد، حيث يجب على المسلم التزود باستمرار من العلوم بكافة أنواعها، ليكون على المستوى المطلوب من خشية الله . ذلك أن العلماء هم الذين يتدبرون هذا الكون العجيب .

ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية، يعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بآثار قدرته، وويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه. ومن ثم يخشونه حقا ويتقونه حقا، ويعبدونه حقا.

قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾[2] .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب، باب صنع الطعام، رقم الحديث ٦١٣٩، فتح الباري ١٠ / ٥٥٠ .

(٢) سورة فاطر: ٢٨ .

٤ـ التربية الإسلامية تتسم بالعالمية:

ينبذ الإسلام التعصب والفروق العرقية والطبقية واللونية، ويقيم معياراً واحدًا للتمييز بين كل البشر، وهو معيار التقوى والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[١].

والمسلمون متساوون في العبودية المطلقة لله، وهم جميعًا إخوة فيما بينهم، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[٢].

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «(.. **المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولاي حقره، التقوى هاهنا** ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**)»[٣].

فالمسلمون في كل أنحاء الدنيا يجمع بينهم عقيدة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ويجمع بينهم أداء الفرائض واعتناق القيم الإسلامية وأداء السلوك الإسلامي الموحد.

وبالإضافة إلى كل ما سبق فالإسلام دين عظيم متكامل يرسم صورة مجتمع فاضل بكافة نظمه السياسية والاقتصادية والعسكرية والتربوية.. وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ**

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) سورة الحجرات: ١٠.

(٣) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم..، رقم الحديث ٣٢ (٢٥٦٤) شرح النووي ١٦ / ١٢٠.

يُحْشَرُونَ ﴾[١] .

وبما سبق يتضح لنا أن الغاية من حياة الإنسان هي العبادة لله وحده، سواء كانت حياة فرد أم أسرة أم مجتمع . فلم يخلق الله الخلق إلا للعبادة، فالمقصود من إيجاد الإنسان العبادة، فيكون التذكير بها ضروريًا، والإعلام بأن كل ما عداها تضييع للزمان، وأن العبادة أوسع وأشمل من مجرد الشعائر .

* * *

---

(١) سورة الأنعام : ٣٨ .

الفصل الثاني

ثمرات الحياة في الدنيا والآخرة

في ضوء القرآن الكريم

وفيه مباحث :

المبحث الأول : النصر من عند الله .

المبحث الثاني : التمكين في الأرض .

المبحث الثالث : إقامة العدل .

المبحث الرابع : حياة السعادة .

المبحث الخامس : حياة العزة .

المبحث السادس : تكفير السيئات والمغفرة من الله .

المبحث السابع : دخول الجنة .

المبحث الثامن : رضوان الله .

تمهيد

قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[(١)].

إن هذا القرآن الذي يجب أن نعيش في جوه كتاب عظيم شأنه، مليء بالخيرات والثمرات في الدين والدنيا، جامع لأسباب الهداية الدائمة والنجاة والفلاح. وأن الحياة في ضوء القرآن لا تعني مجرد قراءته ودراسته والاطلاع على علومه.. وإنما أن يعيش الإنسان في اتباع هدايته واجتناب نواهيه، وأن يعيش في جو وفي ظروف وفي حركة وفي معاناة، وفي صراع وفي اهتمامات.. كالتي كان يتنزل فيها هذا القرآن العظيم.

فإذا عاش الناس بهذا القرآن، وتذوقوا حلاوته، ووجدوا نوره وفرقانه، تكون رحمته وثمرات الحياة في ضوئه مرجوَّة لهم في الدنيا والآخرة. وسأذكر هذه الثمرات - بإذن الله - في المباحث الآتية:

* * *

(١) سورة الأنعام: ١٥٥.

المبحث الأول
النصر من عند الله

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[١].

إن الله سبحانه وتعالى يعد عباده المؤمنين بنصرهم على أعدائهم إذا نصروا دينه ومنهجه في الحياة، ويعدهم بتثبيت أقدامهم في القيام بحقوق الإسلام ومجاهدة الكفار، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

والمؤمنون إذ وعدهم الله عز وجل بالنصر لابد أن يكونوا على الثقة التامة بذلك الوعد الكريم، ذلك أن الله سبحانه وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدّره تقديراً، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور[٢]، قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[٤].

---

(١) سورة محمد: ٧.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٦.

(٣) سورة الحج: ٤٠.

(٤) سورة الصافات: ١٧١-١٧٣.

وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[١].

والنصر له معناه الواسع الذي يجب أن نفهمه فهمًا جيدًا، وقد تجلت أهمية معرفته وفهمه عندما رأينا بعض المظاهر الخطيرة التي تحيق ببعض المسلمين، مثل: التصور الخاطئ لمعنى حقيقة النصر، واستعجال النتائج وتحقيق الأهداف، والانحراف عن المنهج واليأس والقنوط ثم الاعتزال وغيرها.

ويتضح معنى النصر عندما نتحدث عن مفهوم النصر وحقيقته، وذلك يتمثل في الأمور الآتية:

١ـ إن النصر قد يكون بالغلبة المباشرة، والقهر للأعداء على أيدي هؤلاء الأنبياء والمرسلين والمؤمنين.

قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[٢].

إن الله قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لايخالَف ولايمانَع ولايبدَّل، بأن النصرة له ولرسله. وهذه النصرة تكون بالغلبة المباشرة، فقد أهلك كثيرا من أعدائهم بأنواع من العذاب على أيدي الأنبياء مثل: داود وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، والحرب بين نبينا وبين المشركين، وإن كانت سجالاً أحيانًا كانت العاقبة فيها له ـ ﷺ ـ، ثم تكون لأتباعه من بعده ما داموا على سننه، محافظين على الحدود التي أمِروا بها، وجاهدوا عدوهم

(١) سورة المجادلة: ٢١.
(٢) سورة المجادلة: ٢١.

جهاداً خالصاً لله على نحو جهاد الرسل[١] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[٢] .

٢ـ إن النصر قد يكون بإهلاك المكذبين ونجاة الأنبياء والمرسلين ومن آمن معهم . وذلك كما حدث لنوح عليه الصلاة والسلام ، حيث أجاب الله عز وجل دعاءه ، وأمره باتخاذ السفينة ، ثم أغرقهم بالطوفان بماء كثير منصب متدفق من السحب ، وماء نابع من الأرض فالتقى الماءان : ماء المطر وماء الأرض على حال قدرها الله وقضى بها من الأزل ، لعلمه بتكذيبهم .

ونجى الله نوحا ـ عليه السلام ـ ومن آمن معه بحملهم على سفينة ذات ألواح شدت بمسامير ، وفي حفظ الله ورعايته ، وقد جعل الله ذلك جزاءً لنوح ـ عليه السلام ـ على صبره على أذى قومه الذين جحدوا برسالته ، وعقاباً للكافرين على كفرهم بالله سبحانه وتعالى .

وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾[٣] .

---

(١) انظر : تفسير المراغي ١٠ / ٢٦ ، وتفسير ابن كثير ٤ / ٢٨٨ .

(٢) سورة غافر : ٥١ .

(٣) سورة القمر : ٩ـ١٦ .

كما حدث أيضًا في قوم هود، لما تمردوا وعتوا وأنكروا على هود ـ عليه السلام ـ، أهلكهم الله بالعذاب، ونجّى الله هودًا والذي آمنوا معه برحمة عظيمة من الله، واستأصل الكافرين وقطع دابر الذين جحدوا بآيات الله، لأنهم لم يكونوا مؤمنين بالله تعالى.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[1].

وقد ذكر القرآن الكريم في آية أخرى العذاب الذي نزل بقوم عاد، وذلك بأن يهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتثلغ رأسه حتى تبينه من بين جثته[2].

قال تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ

---

(١) سورة الأعراف: ٧٠ـ٧٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤ / ١٩٦.

(٣) سورة الذاريات: ٤١ـ٤٢.

(٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾[١] .

هكذا يكون النصر بإهلاك المكذبين جزاء لكفرهم وتكذيبهم، وبنجاة الأنبياء والذي آمنوا معهم رحمة من الله لهم. وهذا النصر لم يحدث لنوح وهود ـ عليهم السلام ـ فقط، وإنما حدث كذلك لغيرهما من الأنبياء، مثل لوط وشعيب ـ عليهم الصلاة السلام ـ.

قال تعالى مخبراً عن لوط وقومه: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾[٣] .

٣ـ قد يكون النصر بانتقام الله من أعداء الأنبياء ومكذبيهم، وذلك بعد وفاة هؤلاء الأنبياء والمرسلين.

وذلك كما حدث في الذين كفروا بآيات الله من اليهود الذين كان دأبهم قتل الأنبياء كزكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ بغير شبهة لديهم. فضرب عليهم

---

(١) سورة الحاقة: ٦ ـ ٨ .

(٢) سورة الأعراف: ٨٠ ـ ٨٤ .

(٣) سورة الأعراف: ٩٠ ـ ٩٢ .

الصَّغَار وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون. وأنهم استحقوا الغضب من الله، والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة. وأنهم يبطل الله أعمالهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأنهم لم ينالوا بها حمداً ولا ثناءً من الناس، إذ هم كانوا على ضلال وباطل، ولعنهم الله وهتك أستارهم وأبدى ما كانوا يخفون من قبائح أعمالهم على ألسن أنبيائه ورسله، وذلك هو إبطالها في الدنيا. وأما في الآخرة فلا ثواب لها، بل قد أعد لهم العذاب الأليم، والخلود في الجحيم، وما لهم من ناصرين ينصرونهم من بأس الله وعذابه[1].

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾[3].

٤ ـ إن ما يتصوره الناس هزيمة قد يكون هو النصر الحقيقي، كالقتل والسجن والطرد والأذى وغيرها.

فقتل الداعية انتصار له من عدة جوانب أهمها:

أ ـ الشهادة: وهي من أعظم أنواع الانتصار، قال تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٣/ ٢١٧، وتفسير المراغي ١/ ١٢٥.

(٢) سورة البقرة: ٦١.

(٣) سورة آل عمران: ٢١ ـ ٢٢.

الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١] .

ب ـ انتصار الحق وظهوره، وذلك كما حدث لعبد الله الغلام عندما قتله الملك : « . . فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتي الملك، فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر قد ـ والله ـ نزل بك حذرُك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود[٢] في أفواه السكك، فخُدّت وأضرم النيران، وقال : من لم يرجع عن دينه فأخمدُه فيها، أو قيل له : اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام : يا أمّه، اصبري فإنك على الحق»[٣] .

٥ ـ إن النصر قد يكون بقوة الحجة وصحة البرهان :

قال الطبري في قوله تعالى : ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾[٤] : «يعني : الأذلين حجة، وغلّبنا إبراهيم عليهم بالحجة، وأنقذناه مما أرادوا به من الكيد»[٥] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٩ ـ ١٧١ .

(٢) الأخدود : هو الشق العظيم في الأرض، وجمعه أخاديد . والسكك : الطرق، وأفواهها : أبوابها (شرح النووي لصحيح مسلم ١٨ / ١٣٣) .

(٣) صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب قصة أصحاب الأخدود . . ، رقم الحديث : ٧٣ (٣٠٠٥) شرح النووي ١٨ / ١٣٣ .

(٤) سورة الصافات : ٩٨ .

(٥) تفسير الطبري ١٠ / ٥٠٤ .

وقال أبوالسعود في قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[(١)] «أي: فغلب إبراهيمُ الكافرَ وأسكته»[(٢)].

٦ـ إن النصر قد يكون بالمنع، وذلك بحماية المؤمن الداعية ومنع أعدائه من الوصول إليه. وأدلة ذلك كثيرة، منها:

ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ معناه: يحفظك ويمنعك من الناس، فإن قيل: أليس قد شج رأسه وكسرت رباعيته وأذي بضروب من الأذى؟ قيل: معناه: يعصمك من القتل، فلا يصلون إلى قتلك[(٤)].

ـ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «أقبلنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ حتى إذا كنا بذات الرقاع قال: كنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ـ ﷺ ـ قال: فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ـ ﷺ ـ معلّق بشجرة، فأخذ سيفَ نبي الله ـ ﷺ ـ فاخترطه[(٥)]، فقال لرسول الله ـ ﷺ ـ: أتخافُني؟، قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله يمنعني منك. قال: فتهدده أصحاب

(١) سورة البقرة: ٢٥٨.
(٢) تفسير أبي السعود ١ / ٢٥٢.
(٣) سورة المائدة: ٦٧.
(٤) تفسير البغوي ٣ / ٧٩
(٥) فاخترطه أي: سله (شرح النووي ٦ / ١٢٩).

رسول الله ـ ﷺ ـ فأغمد السيف وعلقه . . . »[١] .

ـ وقوله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾[٢] .

يقول تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ: فاصدع بأمر الله، ولاتخف أحدا غير الله عز وجل، فإن الله كافيك من عاداك، كما كفاك المستهزئين، وإنه حافظك منهم .

وبما سبق يتضح لنا معنى النصر، وأنه ذو مفهوم واسع، وحقيقة عميقة، وأن النصر الذي يكون بالغلبة المباشرة والقهر للأعداء على أيدي الأنبياء والمرسلين والمؤمنين هو النصر الظاهر، وهو أول ما يتبادر إلى الأذهان عند إطلاق كلمة النصر، وذلك للأسباب الآتية:

١ـ إنه نصر ظاهر يراه الناس ويحسون به .

٢ـ إنه هو الانتصار الذي يجمع بين انتصار الدين وظهوره وانتصار الداعية .

٣ـ إنه محبّب إلى النفوس وهو النصر العاجل .

معالم النصر:

وبعد أن عرفنا مفهوم النصر ينبغي علينا أن نعرف معالم النصر، فبمقدار أن يتقيد المسلمون بهذه المعالم ويلتزموها يتحقق الانتصار، وقد رسم لنا القرآن

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الخوف، رقم الحديث: ٣١١ (٨٤٣) شرح النووي ٦ / ١٢٩ .

(٢) سورة الحجر: ٩٤ـ٩٥ .

القرآن الكريم هذه المعالم في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[1] .

هذه الآيات القرآنية تتضمن معالم النصر، وسأتناولها بشيء من التوضيح فيما يأتي:

١ـ الثبات، لقوله تعالى: ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾[2] .

والثبات شيء لابد منه لاكتساب النصر، فلم يعرف التاريخ قط جيشًا انتصر وهو فار من عدوه، لأن الذين يفرون يطلبون بفرارهم النجاة، ويخلدون إلى الحياة الدنيا، وهؤلاء لايعرفون طريق النصر، لأن النصر لا يتأتى إلا للصامدين الثابتين.

وصفحات التاريخ مملوءة بالانتصارات التي أحرزتها الجيوش التي لم توهنها ويلات الحرب، ولم تزعزعها هجمات العدو.

والثبات يدل على قوة الإرادة التي يتمتع بها الجيش، حتى ولو كان ضعيفًا، لأنه ما دام ثابتًا فهو في نظر العدو قوي قادر على المواجهة، ومهما كان الجيش قليل العدد، فإن ثباته يضمن له النصر بإذن الله .

---

(١) سورة الأنفال: ٤٥ ـ ٤٧ .

(٢) سورة الأنفال: ٤٥ .

قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(١).

ولأهمية الثبات في تحقيق النصر نهى الله عز وجل عباده المؤمنين عن الفرار من الزحف، وأنه من كبائر المعاصي.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٢).

روي البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»(٣).

٢- الإكثار من ذكر الله، لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٤).

وذكر الله هو طب القلوب مما ابتليت به من فتن الدنيا، وهو العروة الوثقى التي تشد قلب المؤمن وتربطه بالله عز وجل، وكلما كان الإنسان ذاكرًا لله

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٩.

(٢) سورة الأنفال: ١٥-١٦.

(٣) صحيح البخاري كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا ..﴾، رقم الحديث: ٢٧٦٦، فتح الباري ٥/ ٤٦٢.

(٤) سورة الأنفال: ٤٥.

كان في معية الله ، فيطمئن قلبه ، ويثبت فؤاده ، ويحس أنه في كنف الله ، وعندئذ لايخاف عدواً ، ولايرهب خصماً ، فيقاتل بشجاعة ، ويثبت عند اللقاء ، قال تعالى : ﴿ **أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾(١) .

إنه وهو يقاتل عدوه يكون على يقين من وعد الله بأن له إحدى الحسنيين ، فإن انتصر عاد بالأجر والغنيمة ، وإن استشهد فله جنة عرضها السماوات والأرض .

٣ـ طاعة الله ورسله، لقوله تعالى : ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾(٢) .

والطاعة هي الخضوع لأوامر الله واجتناب نواهيه ، والطاعة بهذا المعنى أقرب طريق إلى النصر ، لأن الله عز وجل لايتخلى عن أوليائه ، ولايسلمهم لأعدائه .

ولهذا كلما تأخر النصر على المسلمين في معركة من المعارك يأمر القائد جنوده بالتوبة والاستغفار ، فعندئذ ينزل عليهم نصر الله ، حدث ذلك في فتح المدائن كما حدث في فتح الإسكندرية ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يحذر الجيوش من الذنوب أكثر مما يحذرهم من العدو ، ويخوفهم من حب الدنيا والتعلق بها ، لأنه رأس كل خطيئة .

وكتب ـ رضي الله عنه ـ إلى عمرو بن العاص وهو يحاصر الإسكندرية :

«أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقاتلونهم منذ

---

(١) سورة الرعد : ٢٨ .

(٢) سورة الأنفال : ٤٦ .

سنتين، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لاينصر قومًا إلا بصدق نياتهم»(١) .

٤ـ عدم التنازع والاختلاف، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٢) .

إن أكثر ما تصاب به الجيوش من الهزائم يكون بسبب التنازع والاختلاف، والتنازع يورث الوهن وضياع القوة، فينكشف الجيش أمام عدوه، فتذهب نصرته وهيبته من نفسه. قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٣): «أي: نصرتكم»(٤) .

وعدم التنازع له صلة وثيقة بطاعة الله ورسوله، فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه؛ وإلا حين يكون الهوى المطاع هوالذي يوجه الآراء والأفكار. فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم ـ مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة ـ فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الذي يجعل كل صاحب وجهة يصرّ عليها مهما تبين له وجه الحق فيها! وإنما هو وضع «الذات» في كفة، والحق في كفة؛ وترجيح الذات على الحق ابتداء! . . ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة. . إنه من عمليات «الضبط» التي لابد منها في

---

(١) الفاروق عمر، لمحمد حسين هيكل، ٢/ ١٣١ .

(٢) سورة الأنفال: ٤٦ .

(٣) سورة الأنفال: ٤٦ .

(٤) انظر: تفسير البغوي ٣/ ٣٦٤، وتفسير الطبري ٦/ ٢٦١ .

المعركة.. إنها طاعة القيادة العليا فيها، التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها. وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد لله، ولاي قوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلاً.. والمسافة كبيرة كبيرة..»[١].

ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يردوا الشيء الذي يتنازعون فيه إلى الله والرسول، وذلك خير وأحسن عاقبة.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾[٢].

٥ـ الصبر، لقوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[٣].

والصبر أقوى للنفس على مواجهة العدو وأمضى سلاح ينتصر به الجيش، وهو دليل على قوة الإرادة، وزمام يسيطر به الإنسان على رغباته وشهواته، وإذا سيطر الإنسان على رغباته وأهوائه كان أقدر على الانتصار على أعدائه.

وجاء النصر في القرآن الكريم مقرونًا بالصبر:

قال تعالى: ﴿**بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾[٤].

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٢٩.
(٢) سورة النساء: ٥٩.
(٣) سورة الأنفال: ٤٦.
(٤) سورة آل عمران: ١٢٥.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ.. ﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(٢) .

فالصبر أمر ضروري في تحقيق انتصار المسلمين على أعدائهم، فقد قام رسول الله ـ ﷺ ـ في الناس فقال: «(**لا تمنّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف.** ثم قال: **اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم**)»(٣) .

٦ـ التواضع والإخلاص ونشر الدعوة، لقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾(٤) .

التواضع من الصفات المحبوبة لدى الناس جميعًا، والمتواضع عظيم في أعين الناس، وفوق ذلك فإن التواضع يجعل صاحبه يحس دائمًا بافتقاره إلى الله عز وجل، فيلجأ إليه في كل أحواله، ويستنصر به على أعدائه.

---

(١) سورة الأنفال: ٦٥ .

(٢) سورة الأنفال: ٦٦ .

(٣) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد، باب: لا تمنوا لقاء العدو، رقم الحديث: ٣٠٢٥، فتح الباري ٦ / ١٨١ .

(٤) سورة الأنفال: ٤٧ .

والإخلاص هو تمحيص العمل لله ، فلا يقصد به غيره ، ولا يتوجه به إلى سواه ، فيصبح بذلك خالياً من الرياء المحبط للعمل ، وإذا كان العمل خالصًا لله ، وصاحبه متواضعًا ، فإن ذلك يؤدي إلى رضوان الله ، ويرفع صاحبه درجات عند الناس ، فمن تواضع لله رفعه .

وليكن المقصود بالجهاد نشر الدعوة ، وإعلاء كلمة الله ، وتوضيح الحق لكل إنسان ، حتى يقبل الناس على الإسلام ، ويدخلوا في دين الله أفواجًا .

وهذه الصفات الثلاث تقرب صاحبها من الله ، وتجعله محلاً لرحمته ، وموضعًا لرضاه ، وهي كذلك من أهم عوامل النصر على الأعداء .

وقد حذّر الله سبحانه وتعالى المسلمين من الاتصاف بضد هذ الصفات حين قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾[1] .

هذه الصفات التي وصف الله بها المشركين هي معاول الهدم في صفوفهم ، فالكبرياء والرياء والصد عن سبيل الله هي التي أدت إلى هزيمة المشركين في بدر ، ولهذا حذر الله منها المؤمنين حتى لا يكون مصيرهم كمصير المشركين .

ولهذا نرى الصورة المعاكسة لذلك تمامًا في قوله تعالى : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**

(١) سورة الأنفال : ٤٧ .

وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾[١] .

فواجب المسلمين نحو نصر الله أن يتجهوا إلى الله عز وجل بالتسبيح وبالحمد والاستغفار :

ـ التسبيح والحمد على ما أنعم عليهم من منة بأن جعلهم أمناء على دعوته حراساً لدينه ، وعلى ما أنعم على البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه . فالحمد لله القوي القادر على تحقيق النصر ، وهو الحكيم الذي يجري قدره وفق حكمته ، والذي يحقق هذا النصر ليحقق من ورائه حكمة ، قال تعالى : **﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾**[٢] .

ـ والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه في فترة القتال الطويل والعناء القاسي ، والشدة الطاغية والكرب الغامر . . من ضيق بالشدة ، واستبطاء لوعد الله بالنصر ، وزلزلة كالتي قال عنها في موضع آخر : **﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾**[٣] ، فمن هذا يكون الاستغفار .

والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره . فجهد الإنسان ـ مهما كان ـ ضعيف محدود ، وآلاء الله دائمة الفيض ، قال تعالى : **﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ**

---

(١) سورة النصر : ١ ـ ٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١٢٦ .

(٣) سورة البقرة : ٢١٤ .

لا تُحْصُوهَا ﴾[١] . . فمن هذا التقصير يكون الاستغفار .

وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار . . ففيه إيحاء للنفس وإشعار في لحظة الزهو والفخر بأنها في موقف التقصير والعجز ، فأولى أن تجتنب كبرياءها ، وتطلب العفو من ربها . . وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور .

ثم إن ذلك الشعور بالنقص والعجز والتقصير والاتجاه إلى الله طلبًا للعفو والمغفرة يضمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين . ليرقب المنتصر الله فيهم ، فهو الذي سلطه عليهم ، وهو العاجز القاصر المقصر . وإنها سلطة الله عليهم تحقيقًا لأمر يريده هو . والنصر نصره ، والفتح فتحه ، والدين دينه ، وإلى الله تصير الأمور[٢] .

* * *

(١) سورة إبراهيم : ٣٤ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن ٦ / ٣٩٩٧ ، والقيادة والجندية في الإسلام ، لمحمد السيد الوكيل ٢/٢٥٦ .

المبحث الثاني
التمكين في الأرض

ومن ثمرات الحياة في ضوء القرآن الكريم: التمكين في الأرض. فالله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأنه قد وعد عباده المؤمنين بأن يمكّن لهم دينهم، فيجعله مكينًا ثابتًا في الأرض، عزيزًا قويًا منيعًا، مرهوب الجانب في نظر أعدائه، منصورًا على ملة الكفر.

والتمكين في اللغة: مصدر للفعل «مكّن».

ومعنى مكّن له في الشيء: جعل له عليه سلطانًا وقدّره[١].

فالتمكين: سلطان وقدرة.

والذي يشير إلى ذلك المعنى قوله تعالى: ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾[٢].

والمعنى: أن الله عز وجل مكّن لهذا الرجل الصالح في الأرض، فأعطاه سلطانًا قويًا، وملكًا عظيمًا، ومهّد له كل الأسباب التي تدعم هذا السلطان من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات

---

(١) انظر: لسان العرب١٣/ ٤١٤، ومعجم الأفعال المتعدية بحرف، لموسى بن محمد الأحمدي، ص: ٣٥٤.

(٢) سورة الكهف: ٨٤.

وغيرها مما يوطد السلطان ويقويه[١] .

وكذلك الشأن في حديث القرآن عن يوسف ـ عليه السلام ـ فقد قال تعالى عنه: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[٢] .

فقد مكّن الله ليوسف ـ عليه السلام ـ في أرض مصر، ينزل فيها حيث يشاء، ويقيم فيها حيث يشاء، رحمة منه سبحانه، لأنه أحسن فأحسن الله إليه.

فالتمكين الذي هو ثمرة طيبة من ثمرات الحياة في ضوء القرآن الكريم يعني: أن الله عز وجل يمكّن لدينه في الأرض عن طريق المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويوسع لهم في البلاد حتى يملكوها ويظهر دينهم على سائر الأديان[٣] ، وأن هذا التمكين يسبقه الاستخلاف ويعقبه أمن بعد خوف.

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[٤] .

وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب؛ كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٨٩، وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٤١.

(٢) سورة يوسف: ٥٦ ـ ٥٧.

(٣) انظر: تفسير البغوي ٦/ ٥٨.

(٤) سورة النور: ٥٥.

وتدبيرها. فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض. ودينهم يأمر بالإصلاح، ويأمر بالعدل، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض. ويأمر بعمارة هذه الأرض، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة ومن رصيد ومن طاقة، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله[١].

وبهذا يجعل الله عز وجل دينهم ثابتًا مقررًا، وذلك بأن يعلي سبحانه شأنه ويقوي بتأييده أركانه، ويعظم أهله في نفوس أعدائهم الذين يستغرقون النهار والليل في التدبير لإطفاء أنواره، ويستنهضون الرجل والخيل للتوصل إلى إعفاء آثاره، فيكونون بحيث ييأسون من التجمع لتفريقهم عنه ليذهب من البين، ولا تكاد تحدثهم أنفسهم بالحيلولة بينهم وبينه ليعود أثرًا بعد عين[٢].

والتمكين - كما سبق ذكره - السلطان والقدرة.

السلطان للدين الإسلامي على كل دين ونظام.

وقدرة المسلمين على الحكم بهذا الدين على البشرية كلها.

ولكن ذلك مشروطًا - كما في الآية السابقة - بثلاثة شروط: شرطين للحصول على التمكين، وشرط لاستمرار التمكين.

أما الشرطان للحصول على التمكين فهما:

١ - الإيمان بكل معانيه وبجميع أركانه ومقتضياته:

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله بخواطر نفسه، وخلجات قلبه،

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٩.

(٢) انظر: تفسير روح المعاني ١٠/ ٢٩٨.

وحركات جسمه، سلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعًا. . يتوجه بهذا كله إلى الله . . يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن: ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[1] ، والشرك مداخل وألوان، والتوجه إلى غير الله بعمل من الأعمال هو لون من ألوان الشرك بالله[2] .

٢ ـ العمل الصالح بكل أنواعه، بحيث يشمل كل أنواع الخير، وكل صنوف البر.

والتعريف في (الصالحات) للاستغراق، أي: عملوا جميع الصالحات، وهي الأعمال التي وصفها الشرع بأنها صلاح، وترك الأعمال التي وصفها الشرع بأنها فساد؛ لأن إبطال الفساد صلاح[3] .

والتمكين الذي ذكر في الآية الكريمة قد حصر بين أمرين، أحدهما كالبداية والتمهيد له، والثاني كالنتيجة له.

أما الأول الممهد للتمكين فهو: الاستخلاف، أي: الملك والحكم.

وأما الأخير فهو: تبديل الخوف أمنًا.

وأما الوسط بين الطرفين فهو التمكين للدين في الأرض. .

إذا ملك المسلمون وحكموا بمنهج الله مُكِّنوا في الأرض. وإذا مكنوا

---

(١) سورة النور: ٥٥.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٨.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ١٨/ ٢٨٣.

في الأرض ذهب عنهم كل خوف ليحل محله الأمن[١] .

وقد وفى سبحانه بوعده؛ فإنه لم يمت عليه الصلاة والسلام حتى فتح الله عليه مكة وخيبر وسائر جزيرة العرب، وأخذ الجزية من مجوس هَجَر ومن بعض أطراف الشام.

ولما قُبض -ﷺ- إلى الرفيق الأعلى قام بالأمر من بعده الخلفاء الراشدون، فنهجوا منهجه، وافتتحوا كثيراً من المشرق والمغرب، ومكنوا في الأرض، وصدق رسول الله -ﷺ- حيث يقول: «**(إن الله زوى لي الأرضَ فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكُها ما زُوِيَ لي منها...)**»[٢] .

وأما شرط الاستمرار للتمكين فهو أمور ذكرها قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[٣] .

١ ـ إقامة الصلاة:

إن الذين بوأهم الله عز وجل السلطة على الناس وأعطاهم النفوذ بين العالم إن مكّنهم من الأرض وأعطاهم السلطة، فإنهم يقيمون الصلاة، ويعبدون الله، ويوثقون صلتهم به، ويتجهون إليه طائعين خاضعين

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، لعلي عبد الحليم ٢/ ٧١٥.

(٢) الحديث رواه مسلم، في كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم الحديث: ١٩ (٢٨٨٩) بشرح النووي ١٨/ ١٣.

(٣) سورة الحج: ٤١.

مستسلمين. والصلاة حين تؤدى على الوجه القيم مريداً صاحبها بذلك وجه الله، والإنابة إليه مع الخشوع والخضوع له؛ فإنها إن كانت كذلك تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ لما تحويه من صنوف العبادات من التكبير والتسبيح، والوقوف بين يدي الله عز وجل، والركوع والسجود بغاية الخضوع والتعظيم، ففي أقوالها وأفعالها ما يشير إلى ترك الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾[١].

٢ ـ إيتاء الزكاة:

فالذين مكّنهم الله في الأرض آتوا الزكاة، فأدوا حق المال، وانتصروا على شح النفس، وتطهروا من الحرص، وغلبوا وسوسة الشيطان، وسدوا خلة الجماعة، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج، وحققوا لها صفة الجسم الحي ـ كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «(**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**)»[٢].

٣ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فيدعون الناس إلى توحيد الله وطاعته، واتباع رسوله ـ ﷺ ـ، ويدعون إلى الخير والصلاح، ويدفعون إليه

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٢) الحديث رواه البخاري كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم الحديث: ٦٠١١، فتح الباري ١٠/ ٤٥٢.

الناس . . ، وينهون عن الشرك واجتراح السيئات ، ويقاومون الشر والفساد ، ويحققون بهذا وذاك صفة الأمة التي لا تبقي على منكر وهي قادرة على تغييره ، ولاتقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه .

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة التي مكّنها الله في الأرض ؛ لتعرف حقيقتها وقيمتها ، وتعرف أنها أخرجت للناس ، لتكون طليعة ، ولتكون لها القيادة ، بما أنها هي خير أمة . والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض . قال تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** . . ﴾[١] .

والتمكين الذي هو ثمرة من ثمرات الحياة في ضوء القرآن الكريم ليس آخر كل شيء ، ولا نهايته ، فبعده عمل مستمر للمحافظة عليه ، وإن ما وراء التمكين لفي أهمية كبيرة ، بل أكثر أهمية . ذلك أن المتغيرات في الحياة وفي الناس كثيرة ومستمرة أبدا ، ومع هذا التغيير المستمر لابد أن يقوم الذين مكّنهم الله في الأرض بواجبات المحافظة على التمكين وتحديد أبعاده من ممارسة سلطة الحكم بما أنزل الله ، وطبع الحياة اليومية بالطابع الإسلامي ، وصبغ المؤسسات كلها بصبغة الإسلام ، وإعداد التخصصات العلمية في سائر المجالات ، وإعداد التخصصات القادرة على سد احتياجات العمل الإسلامي ، وغيرها مما له من صلة بالاستمرار في التمكين[٢] .

* * *

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ .

(٢) انظر : فقه الدعوة إلى الله ، لعلي عبد الحليم محمود ٢/ ٧١٩ .

المبحث الثالث
إقامة العدل

ومن ثمرات الحياة في ضوء القرآن الكريم إقامة العدل. فالقرآن كتاب الله الذي أنزله على رسوله - ﷺ - ومعه الميزان الثابت الذي يرجع إليه الناس، لتقويم الأعمال والرجال، والأشياء والأحداث، ويقيمون عليه حياتهم في مأمن من اضطراب الأهواء، وتصادم المنافع والمصالح. الميزان الذي لا يحابي أحدا لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع.

قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾[١].

ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه قد أرسل رسله إلى أممهم ومعهم البراهين الدالة على صدقهم، المؤيدة لبعثهم من عند ربهم، ومعهم الكتب التي فيها هداية البشر وصلاحهم في دينهم ودنياهم، وأنزل معهم الميزان الذي هو تبليغ الأمر بالعدل بين الناس. وهذا الميزان تبينه كتب الرسل، فذكره بخصوصه للاهتمام بأمره، لأنه وسيلة انتظام أمور البشر[٢]، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ**

(١) سورة الحديد: ٢٥.
(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير ٢٧/ ٤١٦.

قَرِيبٌ ﴾[١] .

هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من الزلازل والاضطرابات التي تحيق بها في معترك الأهواء، ومضطرب العواطف، وحب الذات. فلابد من ميزان ثابت يرجع إليه البشر، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة. . فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته لاي هتدي الناس إلى العدل، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء[٢] .

وأما وجه المناسبة بين الكتاب والميزان والحديد في الآية، فإن هناك وجوهًا سبعة أظهرها: أن الدين إما اعتقادات أو معاملات أو أصول وفروع، والاعتقادات أو الفروع لا تصلح ولا تنتظم إلا بالميزان وهو العدل، ولابد من مؤيد يحمي نظم الشرائع، وذلك المؤيد هو الحديد لتأديب من ترك الأصلين أو الطريقين، وهما الاعتقاد ونظام التعامل[٣] .

وفي هذه الآية إشارة إلى أن الكتاب يمثل سلطة التشريع، والعدل يمثل سلطة القضاء، وإنزال الحديد يمثل السلطة التنفيذية[٤] .

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «(بُعثتُ

---

(١) سورة الشورى: ١٧ .
(٢) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩٤ .
(٣) انظر: التفسير الكبير ٢٩/ ٢١٠، وغرائب القرآن للنيسابوري ٢٧/ ١٠١ .
(٤) انظر: تفسير البقاعي (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) ١٩/ ٣٠٢، والتفسير المنير ٢٧/ ٣٣١ .

بالسيف حتى يُعبد الله لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي[١] ، وجُعل الذلة والصَّغار[٢] على من خالف أمري، ومن تشبّه بقوم فهو منهم)»[٣] .

دعوة القرآن إلى العدل:

وإذا كان العدل ثمرة من ثمرات الحياة في ضوء القرآن الكريم فإننا نرى أن القرآن يدعو كثيرًا إلى إقامة العدل وإحيائه، وينهى عن الظلم، ويتوعد الظالمين، ويحرم مساندتهم، ويحض على مقاومتهم، ويدعو إلى نصرة المظلوم.

جاء الأمر بالعدل في آيات كثيرة من القرآن الكريم نذكر منها:

ـ قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[٤] .

ـ وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ..** ﴾[٥] .

---

(١) والحكمة في الاقتصار على ذكر الرمح دون غيره من آلات الحرب كالسيف؛ أن عادتهم جرت بجعل الرايات في أطراف الرمح، فلما كان ظل الرمح أسبغ، كان الرزق إليه أليق (فتح الباري ٦/ ١١٦).

(٢) والمراد بالصغار: بذل الجزية (فتح الباري ٦/ ١١٦).

(٣) مسند أحمد ٢/ ٥٠. قال أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح (تحقيق مسند أحمد ٧/ ١٢١)، والحديث ذكر البخاري بعضه في الصحيح معلقًا، قال: «باب ما قيل في الرماح، ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**جعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري**»» (فتح الباري ٦/ ١١٥).

(٤) سورة النحل: ٩٠.

(٥) سورة الأعراف: ٩٢.

ـ وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[١].

وإقامة العدل إحدى وظائف رسول الله ـ ﷺ ـ التي كلف بها، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾[٢].

وورد النهي عن الظلم والجور والبغي بشدة في آيات كثيرة من القرآن الكريم، نذكر منها:

ـ قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٤].

والظالمون مهما رأوا أن العقوبة لا تعجل لهم، فليسوا بمأمن من غضب الله ولعنته، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ

---

(١) سورة المائدة: ٤٢.

(٢) سورة الشورى: ١٥.

(٣) سورة الفرقان: ١٩.

(٤) سورة الشورى: ٤٢.

(٥) سورة إبراهيم: ٤٢ـ٤٣.

الدَّارِ﴾[١] .

هذا التقرير الكامل للعدل والإدانة الشديدة للظلم هما اللذان يفسران لنا عدل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وتخوف كبار فقهاء المسلمين من مناصب القضاء وتهربهم من توليها حتى بلغ الأمر بالولاة الاضطرار إلى سجن بعض العلماء والفقهاء لحملهم قسراً على قبول منصب القضاء[٢] .

والعدل يصون خيرات كثيرة عديدة أساسية وحيوية، كالحياة والمال والعرض وغيرها. ولعل هذا هو سبب الظن بأنه يشمل كل الفضائل[٣] .

مجالات العدل:

وللعدل مجالات متعددة، نذكر منها:

١ - العدل في الحكم:

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾[٤] .

في هذه الآية أمر من الله عز وجل بالحكم بين الناس، وهو حكم الله الذي أنزله في كتابه، وبينّه على لسان رسوله. والعدل فوق التأثر بكل ما يصدر منهم، لأنه ليس عدلاً لهم، وإنما هو لله . . وهذا هو الضمان الأكيد في

---

(١) سورة غافر: ٥٢ .

(٢) انظر: كتاب الكبائر للذهبي ص: ١٣٠، والإمام الشافعي لعبد الحليم الجندي ص: ٢٢٤ .

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص: ١٤٥ .

(٤) سورة النساء: ٥٨ .

شرع الإسلام وحكمه، في كل مكان وفي كل زمان[1].

قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[3].

والعدل في الحكم يجب أن يكون بين الناس جميعًا، من غير تفرقة بين قوي وضعيف؛ ولا بين عربي وعجمي، ولا بين مسلم وغير مسلم، ولا بين حاكم ومحكوم. فالعدالة لاتفرق بين الألوان ولا الأديان، ولا تعترف بالفوارق والفواصل بين الناس.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[4].

أي: كونوا قوامين بالحق لله عز وجل، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا شهداء بالعدل لا بالجور، ولا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقًا كان أو عدواً..[5].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٣.

(٢) سورة المائدة: ٤٢.

(٣) سورة الحجرات: ٩.

(٤) سورة المائدة: ٨.

(٥) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٩.

٢ ـ العدل في الشهادة [١] :

قال تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ .. ﴾[٢] .

أمر الله سبحانه وتعالى بضرورة العدل في الشهادة؛ لأنها من وسائل تثبيت الحقوق وضمانها، وأرشد إلى ضرورة إشهاد شهيدين اثنين ذوي عدل، في كل الأمور التي تستدعي إثبات حقوق فيها، وتستدعي ضمانها.

فهذا حل عقد الزواج قد أرشد الله فيه إلى ضرورة الإشهاد، وأن يكون الشاهدان ذوي عدل من المسلمين، ومثل ذلك الإشهاد في المداينات، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ .. ﴾[٣] ، والإشهاد في الوصايا، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾[٤] ، ونحو ذلك.

---

(١) العدل في الشهادة هو: الإنصاف في الحضور والمشاهدة، أو في الخبر الذي يخبر به صاحبه عن أمر حصل لقصد الاحتجاج به لمن يزعمه، والاحتجاج به على من ينكره (انظر: المفردات في غريب القرآن ص: ٢٦٧، وقاموس القرآن ص: ٣١٨، وتفسير التحرير والتنوير ٣/ ١٠٦).

(٢) سورة الطلاق: ٢ ـ ٣.

(٣) سورة البقرة: ٢٨٢.

(٤) سورة المائدة: ١٠٦.

٣ ـ العدل بين الزوجات:

ومن المجالات التي يدخل فيها العدل: العدل بين الزوجات، لقد أباح الله العليم الحكيم تعدّد الزوجات، وقصره على أربع، وأوجب العدل بينهن في الطعام والسكن، والكسوة، والمبيت، وسائر ما هو مادي، من غير تفرقة بين غنية وفقيرة، وجميلة وغير جميلة. قال تعالى: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا** ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا..** ﴾ معناه: في القَسْم بين الزوجات والتسوية في حقوق النكاح، وهو فرض.. فالرجل إذا لم يقدر على ذلك، فليقتصر على ما يقدر عليه، ومعلوم أن كل من كانت عنده واحدة أنه إن نالها فحسن، وإن قعد عنها هان ذلك عليها، بخلاف أن تكون عنده أخرى، فإنه إذا أمسك عنها اعتقدت أنه يتوفر للأخرى، فيقع النزاع وتذهب الألفة[٢].

ولا تعارض بين ما أوجبه الله من العدل في هذه الآية وبين مانفاه الله في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾[٣].

فإن العدل المطلوب هو العدل الظاهر المقدور عليه، وليس هو العدل في

---

(١) سورة النساء: ٣.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٤٠٩ ـ ٤١٠.
(٣) سورة النساء: ١٢٩.

المودة والمحبة؛ فإن ذلك لا يستطيعه أحد، بل العدل المنفي هو العدل في الحب والجماع، فإن ذلك لايملكه أحد، وقد ينشط للواحدة ما لا ينشط للأخرى(١).

وقد كان النبي -ﷺ- يقسم بين نسائه، فيعدل ويقول: «**(اللهم هذا قَسْمي فيما أملك فلا تلُمْني فيما تملك ولا أملك)**»(٢).

٤ ـ العدل في الكيل والميزان:

ويكون العدل في الكيل والميزان بأن يكيل ذو الكيل ويزن ذو الميزان بالقسطاس المستقيم، وبما يساوي الحق الذي تم عليه التراضي.

قال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾(٣).

أمــر الله عز وجل في هذه الآية بالقسط في الكيل والميزان، وبالعدل في القول ولو كان المقول له أو عليه ذا قربى.

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٤/ ٣١٢، وتفسير المراغي ٢/ ١٧٣.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في النكاح، باب في القسم بين النساء، ٣/ ٦٣ ـ ٦٤ عن عائشة، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر ٤/ ٢٩٤، والنسائي في عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض ٧/ ٦٣ ـ ٦٤، وابن ماجه في النكاح، باب القسم بين النساء برقم (١٩٧١) ١/ ٢٦٣٣، وصححه ابن حبان برقم: (١٣٠٥) ص: ٣١٧ من موارد الظمآن، وصححه الحاكم على شرط مسلم ٢/ ١٨٧، ووافقه الذهبي، والدارمي في النكاح، باب القسمة بين النساء ٢/ ١٤٤. وانظر: شرح السنة ٩/ ١٥١.

(٣) سورة الأنعام: ١٥٢.

ـ أما القسط في الكيل والميزان فهو أمر يوجبه الحق، والعدل في هذا المجال مرتبط بالحق كشأن ارتباط العدل بالحق في كل الأمور، فمن ثبت له حق بمقدار من الكيل أو مقدار من الوزن وجب أن يوفى له بالقسط دون نقص.

وفي قوله تعالى في الآية: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل، وذلك بجعل الكيل وافيًا بحق من يكال له، وبجعل الوزن وافيًا بحق من يوزن له، من غير نقص أي مقدار مهما قلَّ، كيلاً أو وزنًا.

ولكن قد لا يستطيع الإنسان أن يكون موفيًا على الحقيقة في كل كيل أو وزن، لدقة المكيل أو الموزون، وعندئذ يكون معذورًا لعدم استطاعته، وخروج الأمر عن دائرة التكليف، ولذلك قال تعالى في الآية عقب هذا الأمر: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾، أي: من اجتهد في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه، فإنه ليس على المكلف المبني أمره على العجز للضعف إلا الجهد[1].

٥ ـ العدل في القول:

وأما العدل في القول فهو أمر يوجبه الحق أيضًا في كل قول يدخل فيه العدل والظلم، كالعدل في الشهادة والعدل في إصدار الأحكام، والعدل في

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ١٦٥ـ١٦٦، وتفسير البقاعي ٧/ ٣١٩، والأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني ١/ ٥٨٧.

مخاطبة الجماعة؛ وذلك بإعطاء كل واحد منهم ما يستحق من خطاب وغير ذلك.

ولما كان القول مجالاً يدخل فيه العدل والظلم أمر الله بالعدل في القول في الآية، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾. ولما كانت النفوس مجبولة على الشفقة على القريب قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: المقول في حقه له أو عليه بشهادة أو غيرها ذا قربى، فلا تحابوه طمعًا في مناصرته أو خوفًا من مضارته[1].

ففي قوة القرابة سند للضعف البشري، وفي سعة رقعتها كمال لوجوده، وفي امتدادها جيلاً بعد جيل ضمان لامتداده! ومن ثم يجعله ضعيفًا تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم، أو القضاء بينهم وبين الناس.. وهنا في هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري ليقول كلمة الحق والعدل، على هدى من الاعتصام بالله وحده، اكتفاء به من مناصرة ذوي القربى، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه؛ وهو ـ سبحانه ـ أقرب إلى المرء من حبل الوريد[2].

ونكتفي بهذا القدر في بيان مجالات العدل، ذكرناها من باب ذكر المثال لا الحصر، وإلا فالمجالات التي يدخل فيها العدل كثيرة، مثل:

ـ العدل في الولاية على الناس، سواء أكانت ولاية خاصة أو ولاية عامة،

---

(١) انظر: تفسير البقاعي ٧/ ٣٢٠.
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٣٣.

فيجب أن تتبع فيها قواعد العدل التي أمرت بها شريعة الله لعباده.

ومن العدل في الولاية إسناد الأعمال إلى أهلها الأكفاء للقيام بها، أما إسنادها إلى غير أهلها الأكفياء فمجانبة لسبيل العدل.

- والعدل في معاملة الأولاد، ويكون العدل في معاملة الأولاد بالتسوية بينهم بالهبة، والتربية، وغير ذلك مما يملكه الإنسان.

قال رسول الله - ﷺ -: «(اتقوا الله واعدلوا في أولادكم..)»[1].

- والعدل في الأنساب، وذلك بأن ينسب الإنسان إلى أبيه الذي ولده، لا إلى آخر يتبناه، فنسبته إلى غير أبيه شهادة كاذبة، غير مساوية للواقع، وتفضي هذه النسبة الكاذبة إلى استيلائه على ما لا حق له به من ميراث وغيره، وهذا عدوان على أصحاب الحقوق، ومجانبة ظاهرة لمقتضى العدل.

قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝٤ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ..**﴾[2].

فنسبة الإنسان إلى أبيه الذي ولده قسط وعدل. عدل للوالد الذي نشأ هذا الولد من بضعة منه حية. وعدل للولد الذي يحمل اسم أبيه، ويرثه ويورثه، ويتعاون معه، ويكون امتداداً له بوراثاته الكامنة. وعدل للحق في ذاته الذي يضع كل شيء في مكانه[3]، إلى غير ذلك من أمور تتطلب عدلا بقدر حقوق أصحاب الحقوق منها.

---

(١) صحيح مسلم كتاب الهبات، باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة، رقم الحديث: ١٣ (..) شرح النووي ١١/ ٦٧.

(٢) سورة الأحزاب: ٤ - ٥.

(٣) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٢٥.

وجدير بالذكر في هذا الصدد أن هناك شبهة في مفهوم العدل، بحيث يمكر بعض الماكرين، ويتسرع بعض الناس، فينادون بالمساواة العامة بين الناس جميعًا في كل أمور الحياة ويرون أن ذلك من العدل.

وهذا خطأ فادح يؤدي إلى تحقيق أنواع وصور شنيعة من الظلم، تحت شعار العدل، وذلك لأن حقوق الناس في الأصل غير متساوية، فكيف تكون المساواة بينهم من العدل، مع تفاوتهم في الحقوق.

كيف يكون من العدل التسوية بين المحسن والمسيء؟ كيف يكون من العدل التسوية بين المسلم والمجرم؟ كيف يكون من العدل التسوية بين الذين يعلمون والذين لايعلمون؟ كيف يكون من العدل التسوية بين الخبيث والطيب؟ . . .

قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿**قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾(٢) .

وقال تعالى: ﴿**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ..**﴾(٣) .

وقال تعالى: ﴿**لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ**

---

(١) سورة الزمر: ٩.

(٢) سورة المائدة: ١٠٠.

(٣) سورة النساء: ٩٥.

الْفَائِزُونَ ﴾[١] .

إن ميزان العدل يزن قيم الأشياء وقيم الأعمال بالاستناد إلى قواعد الحق، فمتى تساوت كفتا الميزان استقامت إشارة العدل، والذي يريد أن يسوي بين الأمور رغم اختلاف قيمتها الذاتية، مثله كمثل من يسوي في القيمة بين الذهب والحجر، على أساس تكافئهما في الثقل المادي، فيضع ذهبًا بإحدى كفتي الميزان، ويضع في الكفة الأخرى مثل ثقله حجرًا عاديًا.

ومن أجل ذلك نبهت نصوص الشريعة الإسلامية على ارتباط ميزان العدل بمقاييس الحق.

قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ** ﴾[٢] .

فمن هذه الآية نفهم أن ميزان العدل مرتبط ارتباطًا أساسيًا بمقاييس الحق وموازينه، وعلى مقاييس الحق وموازينه تتم عملية الوزن الصحيح الذي يظهر فيه وجه العدل[٣] .

ومما سبق يتضح لنا أن العدل يكون مساواة بين المتساوين، لا المساواة مطلقًا.

* * *

(١) سورة الحشر: ٢٠ .

(٢) سورة الشورى: ١٧ .

(٣) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/ ٥٧٣، والفضائل الخلقية في الإسلام لأحمد عبد الرحمن إبراهيم ص: ١٣٤ .

المبحث الرابع
حياة السعادة

إن المؤمن الحقيقي لعلى يقين جازم بأنه لا سعادة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة إلا بالرجوع إلى كتاب الله الذي يهدي للبشرية قاطبة، ويرشدها لأقوم الطرق وأصح المناهج، وأعدل المسالك، وأفضل مناهج الحياة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾(١).

والرجوع إلى كتاب الله - الذي من ثمرات الحياة في ضوئه حياة السعادة - له صورة واحدة وطريق واحد. إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم.. إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها. والتحاكم إليه وحده في شؤونها، وإلا فهو الفساد في الأرض، والشقاوة للناس، والارتكاس في الجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة الإسراء: ٩.

(٢) سورة القصص: ٥٠.

إن القرآن الكريم سبب السعادة، والحياة في ضوئه مليئة بالخيرات؛ ذلك لأنه مصدر العلم والدين. فبالقرآن يجد الإنسان تصوراً صحيحاً عن الوجود والحياة والقيم والنظم، وبه يكون الإنسان على المستوى من النظافة والجمال، والعظمة والارتفاع والتوازن والتناسق.. وذلك خير كله.

قال تعالى: ﴿ **طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى** ﴾[١].

نفى الله سبحانه وتعالى ما زعمه المبطلون أنه ما أنزل هذا القرآن على النبي محمد لا ليشقى، بل أنزله عليه سعادة ورحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة.

فالذي نزل القرآن من الملأ الأعلى، وخلق الأرض والسماوات العلى هو الرحمن، فما نزله على عبده ليشقى، وصفة الرحمة هي التي تبرز هنا للإلمام بهذا المعنى[٢].

إن السعادة التي هي ثمرة من ثمرات الحياة في ضوء القرآن ليست في وفرة المال، ولا سطوة الجاه، ولا كثرة الولد، ولا نيل المنفعة، ولا الحصول على زخرف هذه الحياة والتمتع بمتاعها..

السعادة شيء معنوي لا يرى بالعين، ولا يقاس بالكمّ، ولا يشترى بالدينار. إنها شيء يشعر به الإنسان بين جوانحه.. صفاء نفس، وطمأنينة قلب، وانشراح صدر، وراحة ضمير.

---

(١) سورة طه: ١ ـ ٤.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ١٢٤، وفي ظلال القرآن ٤/ ٢٣٢٨.

السعادة شيء ينبع من داخل الإنسان ولا يستورد من خارجه[١]، ولهذا لما وعد الله عز وجل من عمل صالحًا بالحياة الطيبة السعيدة، اشترط تعالى أن يكون قلبه مؤمنًا بالله.

قال تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٢].

إن الحياة السعيدة في الدنيا لاتنقص من السعادة الحقيقية التي هي السعادة الأخروية، وقد وصف الإمام الغزالي هذه السعادة الأخروية فقال: «إنها بقاء بلا فناء، ولذة بلا عناء، وسرور بلا حزن، وغنى بلا فقر، وكمال بلا نقصان، وعز بلا ذل. وبالجملة كل ما يتصور أن يكون مطلوب طالب ومرغوب راغب، وذلك أبد الآباد. على وجه لا ينقصه تصرم الأحقاب والآجال»[٣].

قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾[٤].

إن القرآن الكريم سبب سعادة الدارين، ولهذا يحث المؤمنين على المسارعة إليهما، ويمدحهم حين يسألون عز وجل سعادتي الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**

---

(١) الإيمان والحياة، ليوسف القرضاوي ص: ٧٢.

(٢) سورة النحل: ٩٧.

(٣) ميزان العمل لأبي حامد الغزالي ص: ١٨٠، تحقيق السليمان دنيا.

(٤) سورة هود: ١٠٨.

(٢٠١) أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[١] .

فجمعت هذه الدعوة كل خير وسعادة في الدنيا، وصرفت كل شر وشقاوة، فإن كل الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، ودار طيبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هين، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينهما، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة والسعادة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة.

وهذه الدعوة ليست مجرد دعوة، وإنما تحتاج إلى صورة عملية، فطلب الحياة السعيدة في الدنيا يكون بالأخذ بأسبابها التي دلت التجربة على نفعها في الكسب ونظم المعيشة وحسن معاشرة الناس والتخلق بآداب الشرع، وما جرى عليه العرف من فضائل الصفات.

وطلب الحياة السعيدة في الآخرة يكون بالإيمان الخالص والعمل الصالح والتحلي بمكارم الأخلاق[٢] .

وتؤكد السنة النبوية الترغيب في هذا الدعاء، مما يدل على أن الإسلام يهتم بسعادة الدارين ـ سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ـ، وأنه لا تناقض بين

---

(١) سورة البقرة: ٢٠١ـ٢٠٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٢١٣، وفتح الباري ١١/ ١٩٥ـ١٩٦، وتفسير المراغي ١/ ١٠٥ـ ١٠٦.

هاتين السعادتين .

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : «كان أكثر دعاء النبي ـ ﷺ ـ : **(ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)**»[١] .

ولكي تكتمل الصورة أمامنا نذكر طرفًا من سيرته ـ ﷺ ـ، فيه يتبين موقفه من السعادة الدنيوية .

روى الإمام أحمد عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال : «**(حبّب إلي من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة)**»[٢] .

هذا هو موقف الرسول ـ ﷺ ـ من السعادة الدنيوية، وهو موقف واضح، وهو إذا كان يبين أنها مباحة ومشروعة، فليس لأحد من المسلمين أن يحرمها[٣] .

حقًا، إنها السعادة الأخروية يجب أن تكون الغاية النهائية للعبادة، وكل عمل يتصور أن يقوم به المسلم؛ لكن أخذ المسلم بنصيبه من السعادة الدنيوية لا يتناقض مع تلك الغاية، كما أن سعيه لتحقيقها للآخرين، لا يتناقض مع تلك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب قول النبي ـ ﷺ ـ : «ربنا آتنا في الدنيا حسنة»، رقم الحديث : ٦٣٨٩، فتح الباري ١١/ ١٩٥ . وأخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء بالله آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، رقم الحديث : ٢٦ (٢٦٩٠) بشرح النووي ١٧/ ١٦ .

(٢) مسند أحمد ٣/ ١٢٨ . قال الساعاتي : أورده الحافظ السيوطي في الجامع الصغير وعزاه للإمام أحمد و(نس ك هق) ورمز له بعلامة الحسن، وقال المناوي في شرحه فيض القدير : قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . وقال الحافظ العراقي : إسناده جيد . وقال ابن حجر : حسن (الفتح الرباني ١٧/ ٣٥٠).

(٣) إرشاد الفحول للشوكاني ص : ٣٦ .

الغاية، ولكنه شرط مهم لبلوغها. والشرط المهم الآخر هنا هو: عدم الاستغراق في العمل للسعادة الدنيوية، ثم نسيان العبادة والعمل الصالح نتيجة لذلك[١].

ولهذا جاء القرآن الكريم - في اهتمامه بسعادتي الإنسان الدنيوية والأخروية - بالمنهج القويم المعتدل. المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة. ولايحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الدنيا. بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفًا، كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها.

قال تعالى: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾[٢].

أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل، والنعمة الطائلة في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة، ﴿ **وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، ولزورك عليك حقًا، فآت كل ذي حق حقه[٣].

ونكتفي بهذا القدر في بيان حياة السعادة التي هي ثمرة من ثمرات الحياة في القرآن الكريم، ولانتوسع في ذلك، لأننا قد ذكرنا ما يتعلق بهذا الموضوع في المبحث السابق تحت عنوان: «حياة المؤمنين الطيبة وسبيلها»[٤].

---

(١) الفضائل الخلقية في الإسلام لأحمد عبد الرحمن إبراهيم ص: ٢٨١.

(٢) سورة القصص: ٧٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٢، وانظر: تفسير البقاعي ١٤/ ٣٥٢-٣٥٣.

(٤) انظر ص: ٤٨٧ وما بعدها من هذا البحث.

فالمهم في هذا الصدد أن القرآن يجزم بأنه لا مناص للإنسان حين يبتغي سعادته وراحته وطمأنينة قلبه وصلاح حاله من الرجوع إلى القرآن الكريم الذي هو منهج الله في ذات نفسه، وفي نظام حياته، وفي منهج مجتمعه، ليتناسق مع النظام الكوني كله.

فالسعادة الحقيقية لا توجد إلا في الحياة في ضوء القرآن الكريم الذي فيه شفاء للمؤمنين، يزدادون به إيمانًا، ويستصلحون به دينهم، فهو يذهب ما في القلوب من أمراض الشك والقلق والحيرة، والشرك والزيغ والإلحاد. فهو يصل القلب بالله، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن، ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة.

وفي القرآن شفاء من الأمراض الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها، فتعيش الجماعة في ظل نظامه الاجتماعي وعدالته الشاملة في سلامة وأمن وطمأنينة وسعادة.. فالقرآن يشفي من ذلك كله وهو أيضًا رحمة لمن آمن به وصدّقه واتبعه؛ لأنه يرشد إلى الإيمان والحكمة والخير، فيؤدي إلى دخول الجنة التي يحيا فيها أصحابها حياة سعيدة أبدية(١).

قال تعالى: ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** ﴾(٢).

* * *

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤، وفي ظلال القرآن ٤/ ٢٢٤٨، والتفسير المنير ١٥/ ١٤٩.

(٢) سورة الإسراء: ٨٢.

المبحث الخامس
حياة العزة

إن الذي يريد أن يكون عزيزاً في حياته الدنيا وحياته الآخرة عليه أن يلزم طاعة الله عز وجل، وذلك بأن يرجع إلى كتاب الله العزيز، وأن يعيش في ضوئه. وهو الكتاب المنيع من التحريف والتبديل.

قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾[١] .

إن العزة كلها لله، وليس شيء منها عند أحد سواه. فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره، فإنه يحصل له مطلوبه، لأن الله عز وجل مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعًا.

قال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ..** ﴾[٢] .

وهذا ردّ على الكفار الذين كانوا يطلبون العزة بعبادة الأصنام، وعدم الطاعة للرسول، وترك الاتباع له. وقد حكى القرآن الكريم طلب المشركين العزة بعبادة الأصنام، فقال تعالى: ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ**

(١) سورة فصلت: ٤١ ـ ٤٢.
(٢) سورة فاطر: ١٠.

عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾[١] .

يخبر عز وجل عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون تلك الآلهة عزاً يعتزون بها ويستنصرونها، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا[٢] .

وهذا ردّ كذلك على المنافقين الذين يطلبون العزة والقوة عند الكافرين. لقد استأثر الله عز وجل بالعزة، فلا يجدها إلا من يتولاه، ويطلبها عنده، ويرتكن إلى حماه.

قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[٣] .

فالعزة ليست للمشركين ولا للمنافقين، وإنما لله ولرسوله وللمؤمنين الذين يجعلون القرآن الكريم منهجًا لحياتهم، ويتبعون الرسول - ﷺ - ويتخذونه أسوة لحياتهم.

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[٤] .

فالعزة في الحقيقة وبالذات لله، ولرسوله بواسطة القرب من الله العزيز، وبسبب عزة الله ووعده إياه؛ وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو

---

(١) سورة مريم: ٨١-٨٢.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٢٠.
(٣) سورة النساء: ١٣٨-١٣٩.
(٤) سورة المنافقون: ٨.

الرسول، وذلك لأن عزة المؤمنين بمتابعة النبي - ﷺ -، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(١)] [(٢)].

لقد ضم الله عز وجل رسوله والمؤمنين إلى جانبه، وأسبغ عليهم عزته، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله!

وصدق الله. فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن. العزة المستمدة من عزته تعالى. العزة التي لا تهون، ولا تنحني ولا تلين. ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات إلا أن يضعف فيه الإيمان. فإذا استقر الإيمان الصحيح ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة.

والعزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس. حقيقة تستقر في القلب فيستعلي بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله. حقيقة يستعلي بها على شهواته المذلة، ورغائبه القاهرة، ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس. ومتى استعلى على هذا فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه.. وهذه هي العزة الحقيقية ذات القوة والاستعلاء والسلطان.

إن العزة ليست عنادًا جامحًا يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل. وليست طغياناً فاجرًا يضرب في عتو وتجبر وإصرار. وليست اندفاعًا باغيًا يخضع للنزوة ويذل للشهوة. وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل ولا صلاح[(٣)].

---

(١) سورة آل عمرن: ٣١.

(٢) انظر: التفسير الكبير ٢٦/ ٨، وتفسير التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٥٠.

(٣) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٣١.

والعزة بتلك الصورة الصحيحة الحقيقية لها مظاهرها في حياة المؤمنين، فمنها:

١ ـ عدم تسليط الكافرين على المؤمنين:

إن الإيمان بالله الذي هو مصدر العزة صلة بالقوى الكبرى التي لا تضعف ولاتفنى، وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها.. ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية، أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون جميعًا.

قال تعالى: ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾[١]. «أي: في الدنيا، بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمؤمنين المتقين في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾[٢]. وعلى هذا، فيكون ردًا على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفًا على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ** ﴾[٣]»[٤].

---

(١) سورة النساء: ١٤١.
(٢) سورة غافر: ٥١.
(٣) سورة المائدة: ٥٢.
(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٧.

٢ ـ الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله :

ومن مظاهر العزة في حياة المؤمنين الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن. يريد به أن يحقق العزة الصحيحة الحقيقية التي تستقر في القلب، ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾[1] .

فالجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس دليل الإيمان الذي هو مصدر العزة والقوة، والمؤمنون هم الذين صدّقوا ولم يشكّوا، وحققوا ذلك بالجهاد، وهم الذين صدقوا في إيمانهم، لا من أسلم خوف القتل.

ويجب أن يكون الجهاد من أجل نصرة دين الله، وحرية الدعوة إلى سبيله من ظلم الجاهلية التي تصدّ عن وصول دين الله إلى الناس، ذلك لأن الخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني وواقعه العملي. وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيماني الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف[2] .

فالجهاد دليل عزة المؤمن الحقيقي، ولهذا نهى القرآن الكريم المؤمنين عن الوهن والضعف والحزن ـ لما أصابهم ولما فاتهم ـ وهم الأعلون . . إيمانهم أعلى

---

(١) سورة الحجرات: ١٥.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٥٠، وتفسير المنير ٢٦/ ٢٧٣.

وأعز، فهم يسجدون لله القوي العزيز، والكافرون يسجدون لشيء من خلقه الضعيف الفقير. فإن كان المسلمون مؤمنين حقًا فهم الأعلون الأعزاء. وإن كانوا مؤمنين حقًا فلا يهنوا ولا يحزنوا. فإنما هي سنة الله أن يصابوا ويصيبوا على أن تكون لهم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص.

قال تعالى: ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾[(١)] .

٣ ـ الذلة على إخوانهم المؤمنين والعزة على الكافرين:

ومن مظاهر العزة في حياة المؤمنين أن يكونوا أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، أي: عاطفين على إخوانهم المؤمنين متواضعين لهم، أشداء متعالين على الكافرين المعادين لهم.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[(٢)] .

فمن صفات القوم الذين اختارهم الله عز وجل لهذا الدين، كونهم أذلة

(١) سورة آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤١ .

(٢) سورة المائدة: ٥٤ .

على المؤمنين . . فالمؤمن ذلول للمؤمن ، هين لين . . ميسر مستجب . . وهذه هي الذلة للمؤمنين .

وهم على الكافرين أعزة أشداء ، إنها ليست العزة للذات ، ولا الاستعلاء للنفس ، إنما هي العزة للإيمان والإسلام وللقرآن . . إنما هي العزة لدينهم الذي أظهره الله عز وجل على الدين كله . فالمؤمنون يعتزون بغلبة قوة الله على سائر القوى الزائفة ، وبغلبة حزب الله على أحزاب الشيطان .

وهكذا تكون صفة نبي هذه الأمة - ﷺ - والذين معه ، وبها عاشوا أعزاء ، وسادوا الأمم ، وامتلكوا الدول ، وقبضوا على ناصية العالم أجمع .

قال تعالى : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** . . ﴾[1] .

٤ ـ الشجاعة والإقدام:

إن الذين يعتزون بهداية القرآن الكريم لايحيون حياة الجبناء ولا الخائفين ، ولكنهم يحيون حياة الشجاعة والإقدام ، واحتقار الموت والرغبة في الاستشهاد من أجل الحق .

ذلك لأن القرآن الكريم الذي يؤمنون به يوحي - في كثير من آياته البينات - بأن واهب العمر هو الله عز وجل . وأنه لا ينقص بالإقدام ، ولا يزيد بالإحجام ، فكم من إنسان يموت وهو على فراشه ، وكم من إنسان ينجو وهو يخوض غمرات المعارك والحروب .

---

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً ﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾(٢) .

وقال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾(٣) .

والمقصود - من هذه الآيات - أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء، سواء جاهد أو لم يجاهد؛ فإن له أجلاً محتومًا، ومقامًا مقسومًا، كما قال خالد بن الوليد حين جاء الموت على فراشه: «لقد شهدت كذا وكذا موقفًا، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء»(٤) .

وبهذه اللمسة يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في الخاطر عن هذا الأمر، وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف ومن جبن، ويبعث في النفس روح الشجاعة والإقدام.

إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره، وكل ما يدخل في طوقه

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٤.

(٣) سورة النساء: ٧٨.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٤٥٢، وانظر: أسد الغابة ٢/ ١١١.

من استعداد وأهبة ووقاية، فقد أمر الله تعالى المؤمنين بأخذ الحذر، فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾[1].

* * *

(١) سورة النساء: ٧١. (٢)

المبحث السادس
تكفير السيئات والمغفرة من الله

إن ثمرات الحياة في ضوء القرآن الكريم ليست مقصورة على الحياة في الدنيا فحسب، بل تشمل الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

فمن ثمرات الحياة في ضوء القرآن الكريم في الآخرة تكفير السيئات والمغفرة من الله، وحياة المؤمن في ضوء القرآن الكريم تتحقق في التزامه وتمسكه بتعاليم القرآن وتوجيهاته، ليكون ذلك كله منهجًا لحياته.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز تلك التعاليم القرآنية والتوجيهات الربانية التي تكفّر بها السيئات ويغفر بها الذنوب، فمنها:

١ ـ الإيمان والعمل الصالح:

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ** ﴾[١].

صرّح الله عز وجل في هذه الآية بأن الذين آمنوا به وعملوا بما يرضيه من صالح الأعمال، وصدّقوا بالقرآن الذي أنزل على نبيه محمد ـ ﷺ ـ، فآمنوا بأنه هو الحق الثابت الذي لا شك فيه أنه من الله، كفّر عنهم سيئاتهم التي

(١) سورة محمد: ٢.

عملوها في الماضي، وغفرها لهم بالإيمان والعمل الصالح .

والإيمان بالله عز وجل في هذه الآية يشمل الإيمان بما نزل على محمد ـ ﷺ ـ، ولكن السياق يبرزه ويظهره ليصفه بصفته «وهو الحق من ربهم»، ويؤكد هذا المعنى ويقرره، وليدل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ـ ﷺ ـ [١] .

وقد ذكر الله عز وجل في موضع آخر أن الذين يصدقون بالقرآن الكريم ويتبعونه فإنهم يكفّر الله عنهم سيئاتهم، ويجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوئ .

قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ** ﴾[٣] .

وبما سبق يتضح لنا أن الإيمان والعمل الصالح من أسباب تكفير السيئات والمغفرة من الله ، وأنه تعالى قد وعد ـ ووعده قاطع وحاسم ـ بذلك للذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقال تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾[٤] .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/ ١٥٣ ، وفي ظلال القرآن ٦/ ٣٢٨١ .
(٢) سورة الزمر : ٣٣ـ٣٥ .
(٣) سورة يس : ١١ .
(٤) سورة المائدة : ٩ .

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[١].

٢ ـ التقوى:

ومن التوجيهات القرآنية والأوامر التي يكفّر الله بها السيئات ويغفر بها الذنوب تقوى الله، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٢].

في هذه الآية وعد من الله سبحانه للمؤمنين بأنهم إذا اتقوا الله بفعل أوامره وترك زواجره، فإنهم يكفّر الله عنهم سيئاتهم ويغفر لهم؛ لأنه صاحب الفضل العظيم، ومن كان كذلك فإنه إذا وعد بشيء وفّى به.

وقد ذكر الله عز وجل هذاالوعد الكريم في موضع آخر، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[٤].

كــرّر الله سبحانه هذا الوعد الكريم في عدة مواضع من كتابه العزيز، ليكون المؤمنون مطمئنين في أمرهم، وليجعلوا التقوى زادًا في حياتهم؛ فإنها

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.
(٢) سورة الأنفال: ٢٩.
(٣) سورة الطلاق: ٥.
(٤) سورة المائدة: ٦٥.

هي الزاد الذي يحيي القلوب ويوقظها ويحرك فيها أجهزة الحذر والتوقي . . ثم هي زاد المغفرة للخطايا والذنوب . الزاد المطمئن الذي يسكب الهدوء والقرار . وزاد الرجاء والأمل في فضل الله العظيم يوم لا تنفع الأزواد إلا هي . فالتقوى زاد المؤمنين لمعادهم ، فإنه خير زاد .

قال تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾(١) .

٣ ـ الهجرة والجهاد.

ومن أسباب تكفير السيئات والمغفرة من الله الهجرة والجهاد في سبيل الله . وقد ذكر الله ذلك في مواضع من آياته البينات ، منها :

ـ قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾(٢) .

ـ وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾(٣) .

فالذين تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران ، وضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم لهم

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

(٢) سورة آل عمران : ١٩٥ .

(٣) سورة الأنفال : ٧٤ .

ستر من الله على ذنوبهم بعفوه لهم عنها[١] .

وقد ورد عن رسول الله - ﷺ - أحاديث كثيرة في بيان أن الهجرة من أعظم الأسباب المكفرة للسيئات، وأنها سبب لمغفرة ذنوب أهلها. وفي ذلك سأذكر بعض الأحاديث الدالة على ذلك:

١ - ما رواه مسلم عن جابر أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله، هل لك في حصن حصين ومنعة؟ قال: حصنٌ كان لدوس في الجاهلية، فأبى ذلك النبي - ﷺ - للذي ذخر الله للأنصار، فلما هاجر النبي - ﷺ - إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو وهاجر معه رجل من قومه فاجتووا المدينة فمرض فجزِع فأخذ مشاقص له فقطع بها براجمه فشخبت يداه حتى مات. فرآه الطفيل بن عمرو في منامه فرآه وهيئته حسنة، ورآه مغطياً يديه، فقال له: ما صنع بك ربك؟ فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه - ﷺ -، فقال: مالي أراك مغطيا يديك؟ قال: قيل لي لن نصلح منك ما أفسدت. فقصها الطفيل على رسول الله - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ -: «**اللهم وليديه فاغفر**»[٢] .

٢ - ما رواه مسلم أيضًا في قصة عمرو بن العاص حال حضور موته، وفيه: «.. قال: **ما لك يا عمرو؟** قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: **تشترط بماذا؟** قلت: أن يُغفر لي. قال: **أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن**

(١) انظر: تفسير الطبري ٦/ ٢٩٩، وتفسير ابن كثير ١/ ٣٧٩.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قتل نفسه لا يكفر، رقم الحديث: ١٨٤ (١١٦) بشرح النووي ٢/ ١٣١.

الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ ..»[(١)] .

هذه نعمة عظيمة وعدها الله الغفور الرحيم للمهاجرين الذين فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب وغيره، ولكنهم هاجروا بعد ذلك عندما أمكنتهم الفرصة، وحسن إسلامهم، وجاهدوا في سبيل الله، صابرين على تكاليف الدعوة، فالله يبشرهم بأنه سيغفر لهم ويرحمهم.

قال تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[(٢)] .

٤ ـ الصدقة:

ومن التوجيهات القرآنية والأوامر الربانية التي يكفّر الله بها السيئات ويغفر بها الذنوب؛ الصدقة، ولاسيما إذا كانت سراً يحصل لأصحابها الخير في رفع الدرجات ويكفر عنهم السيئات.

قال تعالى: ﴿**إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[(٣)] .

في هذه الآية دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها، لأنه أبعد عن الرياء، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به،

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج، رقم الحديث: ١٩٢ (١٢١) بشرح النووي ٢/ ١٣٧ .

(٢) سورة النحل: ١١٠ .

(٣) سورة البقرة: ٢٧١ .

فيكون أفضل من هذه الحيثية[١] .

والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال: «(سبعة يُظلّهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظلُّه: الإمام العادل، وشابٌّ نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق أخفى حتى لا تعلم شمالُه ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه)»[٢] .

٥ ـ التوبة والاستغفار:

ومن الأسباب التي تكفر السيئات وتغفر الذنوب؛ التوبة الصادقة. وهي التوبة الجازمة التي تمحو ما قبلها من السيئات، وتكفّ التائب عما كان يتعاطاه من الرذائل.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..** ﴾[٣] .

فالتوبة النصوح التي تكفر السيئات هي أن يتوب الرجل من العمل

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٧٩.

(٢) صحيح البخاري كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم الحديث: ٦٦٠، فتح الباري ٢/ ١٦٨. وصحيح مسلم كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم الحديث: ٩١ (١٠٣١) بشرح النووي ٧/ ١٢٠.

(٣) سورة التحريم: ٨.

السيئ، ثم لا يعود إليه أبدًا[١] . ذلك لأن العبد إذا اعترف لله بذنبه، وندم على ما مضى، ثم تاب، تاب الله عليه.

ففي صحيح مسلم عن حديث عائشة زوج النبي -ﷺ- حين قال لها أهل الإفك. . ، وفيه: «(.. **فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه..**)»[٢] .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في موضع آخر صفات الذين يغفر الله لهم ذنوبهم، فهم الذين إذا فعلوا قبيحة خارجة عما أذن الله لهم فيه، أو ظلموا أنفسهم بأن يفعلوا ذنبًا يقتصر ضرره عليهم، ذكروا وعد الله ووعيده، وعظمته وجلاله، فرجعوا إليه تائبين مستغفرين لذنوبهم، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها.

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾[٣] .

فهذه رحمة الله الرحمن الرحيم بعباده التائبين، حيث غفر لهم ذنوبهم إذا تابوا، بل غفر لهم وتاب عليهم، وإن تكررت الذنوب والتوبة، كما ورد ذلك عن رسول الله -ﷺ-.

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١٢/ ١٥٨، وتفسير البغوي ٨/ ١٦٩.

(٢) صحيح مسلم كتاب التوبة، باب في حديث الإفك. . ، رقم الحديث: ٥٦ (٢٧٧٠) بشرح النووي ١٧/ ١١١.

(٣) سورة آل عمران: ١٣٥-١٣٦.

فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- فيما يحكي عن ربه عز وجل، قال: «(أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أيْ ربّ اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أيْ ربّ اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك)»[١] .

٦ ـ خشية الله:

ومن الأسباب التي تكفر السيئات وتغفر الذنوب خشية الله عز وجل، وذلك بأن يخاف العباد عذاب ربهم ولم يروه، فيؤمنون به خوفًا من عذابه، ويخافون الله في السر والعلن، فيخشون ربهم إذا كانوا غائبين عن الناس، بالكف عن المعاصي والقيام بالطاعات، حيث لا يراهم أحد إلا الله العليم الخبير، هؤلاء لهم مغفرة عظيمة يغفر الله بها ذنوبهم.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾[٢] .

ورد في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: «(**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظلّ إلا ظله.. منهم: ورجل طلبته امرأة ذات**

(١) صحيح مسلم كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم الحديث: ٢٩ (٢٧٥٨) شرح النووي ١٧/ ٧٥.
(٢) سورة الملك: ١٢.

منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ..)»(١) .

ونكتفي بهذا القدر في بيان التعاليم القرآنية والتوجيهات الربانية التي إذا التزم العبد وتمسك بها غفر الله له ذنوبه وكفّر عنه سيئاته، ذكرناها من باب الإتيان بالمثال لا الحصر، وإلا فإن الأسباب التي تكفر السيئات وتغفر الذنوب كثيرة، مثل: الإسلام، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدق بالمال، والصوم، والعفة وحفظ الفروج عن المحارم والمآثم، والذكر الكثير لله تعالى.

قال عز وجل: **﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾**(٢) .

* * *

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم الحديث: ٦٦٠، فتح الباري ٢/ ١٦٨ . صحيح مسلم كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم الحديث: ٩١ (١٠٣١) بشرح النووي ٧/ ١٢٠ .

(٢) سورة الأحزاب: ٣٥.

المبحث السابع
دخول الجنة

ومن ثمرات الحياة في ضوء القرآن الكريم في الآخرة دخول الجنة. ودخول المؤمنين الجنة يتعلق بمدى التزامهم وتمسكهم بالقرآن الكريم، بحيث تتفاوت منزلتهم ودرجتهم في الجنة بقدر تفاوتهم في العمل بالقرآن، فمنهم: ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[1].

ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات البينات أن القرآن الكريم هو الحق الثابت الذي لا شك فيه، وهو المصدّق للكتب السماوية السابقة في صورتها الصحيحة قبل التحريف والتبديل.

---

(١) سورة فاطر: ٣١ـ٣٥.

ثم بين تعالى أنه أورث هذا القرآن العظيم للمؤمنين، اختارهم لهذه الوراثة العظيمة، مما يوحي لهؤلاء المؤمنين بكرامتهم على الله عز وجل، كما يوحي إليهم بعظمة المسؤولية الناشئة عن هذا الاختيار الرباني وعن تلك الوراثة الإلهية. وهي مسؤولية ضخمة ذات تكاليف ثقيلة.

وقد قسم عز وجل هؤلاء المؤمنين الذين أورثهم هذا الكتاب العظيم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ الظالم لنفسه: وهو المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات[١]. وقيل إنه من أهل الذنوب والمعاصي التي هي دون النفاق والشرك[٢].

والظالم لنفسه هو الذي يجرّ نفسه إلى ارتكاب المعصية، فإن معصية المرء ربه ظلم لنفسه، لأنه يورطها في العقوبة المعينة للمعاصي على تفصيلها، وذلك ظلم للنفس؛ لأنه اعتداء عليها، إذ قصر بها عن شيء من الخيرات قليل أو كثير، وورطها فيما تجد جزاء ذميمًا عليه[٣].

قال تعالى حكاية عن آدم وحواء حين خالفا ما نُهي عنه من أكل الشجرة: ﴿ **وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا**

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٣، وانظر: تفسير فتح القدير ٤/ ٣٤٩.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٤١٣. وقال ابن جرير: وأما الظالم لنفسه فإنه لأن يكون من أهل الذنوب والمعاصي التي هي دون النفاق والشرك عندي أشبه بمعنى الآية من أن يكون المنافق أو الكافر، وذلك أن الله تعالى ذكره ثم أتبع هذه الآية قوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ فعم بدخول الجنة جميع الأصناف الثلاثة.

(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير ٢٢/ ٣١٢.

عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[١] .

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٢] .

ولعل ذكر هذا القسم أولاً، لأنه الأكثر عددًا[٣] .

٢ ـ المقتصد: هو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات[٤] . وقيل إنه غير المبالغ في طاعة ربه، وغير المجتهد فيما ألزمه من خدمة ربه، حتى يكون عمله في ذلك قصدًا[٥] .

فهو غير الظالم لنفسه كما تقتضيه المقابلة، فهم الذين اتقوا الكبائر ولم يحرموا أنفسهم من الخيرات المأمور بها، وقد يلمون باللمم المعفو عنه من الله، ولم يأتوا بمنتهى القربات الرافعة للدرجات، فالاقتصاد افتعال من القصد وهو ارتكاب، وهو الوسط بين طرفين بينه المقام، فلما ذكر هنا في مقابلة الظالم والسابق عُلم أنه مرتكب حالة بين تينك الحالتين فهو ليس بظالم وليس بسابق[٦] .

---

(١) سورة الأعراف: ٢٢ـ٢٣ .
(٢) سورة النساء: ١١٠ .
(٣) انظر: تفسير البقاعي ١٦/ ٥٥، وفي ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٤ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٣ .
(٥) تفسير الطبري ١٠/ ٤١٤ .
(٦) تفسير التحرير والتنوير ٢٢/ ٣١٢ .

٣ـ السابق بالخيرات : وهو المبرز الذي قد تقدّم المجتهدين في خدمة ربه، وأداء ما لزمه من فرائضه، فسبقهم بصالح الأعمال[١] .

فهو الذي لم يخالف بتوفيق الله وإذنه، وأنه سابق بالخير يقع في قلبه فيسبق إليه قبل تسويل النفس[٢] .

وقوله: ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ راجع إلى السابق إلى الخيرات، لئلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى، على ما أنعم به عليه[٣] .

فهؤلاء الثلاثة شملهم فضل الله العلي العظيم، وكلهم انتهى إلى الجنة وإلى النعيم على تفاوت في الدرجات .

عن أبي ثابت أن رجلاً دخل المسجد فقال: الله ارحم غربتي، وآنس وحشتي، وسُقْ إليّ جليسًا صالحًا، فقال أبوالدرداء: لئن كنت صادقًا لأنا أسعد بك منك، سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ قرأ هذه الآية: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ فقال: «**أما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حسابًا يسيرًا، وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله الهم، ثم يدخل الجنة.** ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٤١٤ .
(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٣ .
(٣) تفسير السعدي ٦/ ٣٢٠ .

لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾»[١] .

ثم ذكر الله عز وجل جزاء المؤمنين الذين أورثهم كتابه العظيم، فقال تعالى: ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**﴾ أي: يَدْخُلُ هؤلاء المصطفون جميعًا جنات مشتملات على الأشجار والظل والظليل والحدائق الحسنة والأنهار المتدفقة والقصور العالية والمنازل المزخرفة. فهي جنات الإقامة الدائمة يوم المعاد التي يحلون فيها أساور من ذهب ولؤلؤا، ويكون لباسهم حريرًا، وقد أباحه الله تعالى لهم في الآخرة بعد أن كان محظورا عليهم في الدنيا.

ثبت في صحيح البخاري عن حذيفة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**((الذهب والفضة والحرير والديباج هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة))**»[٢] .

وفيه أيضا عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «((من

(١) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٩٥) : «رواه الطبراني وأحمد باختصار، إلا أنه قال: عن الأعمش عن ثابت أو أبي ثابت أن رجلاً. . وثابت بن عبيد ومن قبله من رجال الصحيح، وفي إسناد الطبراني غير مسمى». وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٢٦) وقال: «وقد اختلفت الروايات عن الأعمش في إسناد هذا الحديث، فروي عن الثوري عن الأعمش عن أبي ثابت عن أبي الدرداء - رضي الله عنه -، وقيل عن شعبة عن الأعمش عن رجل من ثقيف عن أبي الدرداء، وقيل عن الثوري أيضًا عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت عن أبي الدرداء، وإذا كثرت الروايات في الحديث ظهر أن للحديث أصلاً. وتفسير الطبري ١٠/ ٤١٤.

(٢) صحيح البخاري كتاب اللباس، باب لبس الحرير للرجال وقد يجوز منه، رقم الحديث: ٥٨٣١، فتح الباري ١٠/ ٢٩٦.

لبس الحرير في الدنيا فلن يلبسه في الآخرة))[١] .

وقد ذكر الله عز وجل في موضع آخر أن أهل الجنة يلبسون ثيابًا خُضْرًا من سندس، وهو ثياب رفاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها، وإستبرق، وهو غليظ الديباج[٢] .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[٣] .

ولما تم نعيم هؤلاء المؤمنين الذين أورثهم الله القرآن العظيم، وكملت لذتهم، واستقروا في مأواهم جنات عدن، حمدوا وشكروا وأثنوا على الله الذي أزال عنهم الخوف من سوء العاقبة وأراحهم من هموم الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ . وهذا يشمل كل حزن، من حزن النار، وحزن الموت، وحزن الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات، وحزن زوال النعم وتقليب القلب، وخوف العاقبة، وحزن أهوال يوم القيامة، وما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة، وغير ذلك من جميع أحزان الدنيا والآخرة[٤] .

(١) صحيح البخاري كتاب اللباس، باب لبس الحرير للرجال وقد يجوز منه، رقم الحديث: ٥٨٣٢، فتح الباري ١٠/ ٢٩٦.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٧٣.

(٣) سورة الكهف: ٣٠-٣١.

(٤) انظر: تفسير البغوي ٦/ ٤٢٣.

ولما كانوا عالمين بما اجترحوه من الزلات أو الهفوات أو الغفلات التي لولا الكرم لأدتهم إلى النار، عللوا ما صاروا إليه معها بقولهم، مؤكدين إعلامًا بما عندهم من السرور بالعفو عن ذنوبهم، وأن ما أكدوه حقيق بأن يتغالى في تأكيده لما رأوا من صحته وجنوا من حلو ثمرته: ﴿ **إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾ أي: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات[١] .

ثم وصفوه بما هو شكر له فقالوا: ﴿ **الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِه** ﴾ أي: الذي أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنّه ورحمته، وليست من عمل منا، فإن حسناتنا إنما كانت رحمة ومنًّا وتوفيقًا منه سبحانه، لو لم يبعثنا عليها وييسرها لنا لما كانت، وأن حسناتنا لم تساو ذلك، كما ثبت في صحيح البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «(**سدّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لايدخل أحدًا الجنة عملُه**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: **ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة**)»[٢] .

فهم في الجنات لا يتعرضون لتعب ولا إعياء، لا في الأبدان ولا في الأرواح: ﴿ **لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ** ﴾؛ إذ إنهم دأبوا على العبادة في الدنيا، فصاروا في راحة دائمة مستمرة، كما قال تعالى: ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ** ﴾[٣] .

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٥، وتفسير البقاعي ١٦/ ٦٠.

(٢) صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم الحديث: ٦٤٦٧، فتح الباري ١١/ ٣٠٠.

(٣) سورة الحاقة: ٢٤.

وهذا يدل على أن الله عز وجل يجعل أبدانهم في نشأة كاملة قوية، ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام، وأنه تعالى رزقهم في الجنة أكلاً وشربًا ونكاحًا حقيقة، ولا قذر فيها ولا نقص، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- يقول: قال رسول الله -ﷺ-: «(**يأكل أهل الجنة فيها ويشربون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، ولا يبولون، ولكن طعامهم ذلك جشاءٌ كرشح المسك، يُلهمون التسبيح والحمد، كما تُلهمون النَفَس**)»[1].

وفي سنن الترمذي عن أنس -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: «(**يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع**، قيل: يا رسول الله أوَ يطيق ذلك؟ قال: **يُعطى قوة مائة**)». وفي الباب عن زيد بن أرقم[2]. قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح غريب، لا نعرفه من حديث قتادة عن أنس إلا من حديث عمران القطان[3].

* * *

(١) صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة...، رقم الحديث: ١٩ (...) شرح النووي ١٧/ ١٧٤.

(٢) قوله: (وفي الباب عن زيد بن أرقم) قال: جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: نعم، والذي نفس محمد بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع. قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة أذى، قال: تكون حاجة أحدهم رشحًا يفيض من جلودهم كرشح المسك فيضمر بطنه. أخرجه أحمد والنسائي. قال المنذري: ورواته محتج بهم في الصحيح. قال: ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم ثم ذكر لفظهما (تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٧/ ٢٤٢).

(٣) جامع الترمذي، باب ما جاء في صفات جماع أهل الجنة، رقم الحديث: ٢٦٥٩ (تحفة الأحوذي ٧/ ٢٤١).

المبحث الثامن
رضوان الله

لقد وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين المتقين الذين عاشوا في ضوء القرآن الكريم الثمرات الكثيرة في الدنيا والآخرة كما ذكرنا من قبل، ولكن هناك ثمرة أغلى وأعظم من تلك الثمرات، وهي رضوان الله عليهم.

ورضوان الله عليهم أكبر وأجلّ وأعظم مما هم فيه من النعيم، وهو نهاية الإحسان، وهو أعلى النعيم وأكمل الجزاء، كما يدل على ذلك قوله تعالى: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[1].

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال النبي - ﷺ -: «**إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل**

(١) سورة التوبة: ٧٢.

عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا))»[١] .

ورضوان الله عليهم أكبر مما هم فيه من نعيم الجنة، فإن نعيمهم لم يطب إلا برضوان ربهم ورؤيته جل جلاله، ولأنه أصل لجميع الخيرات، وأنه مبدأ لحلول دار الإقامة ووصول كل سعادة وكرامة، وهو الغاية التي ابتغاها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون[٢] .

فلقد سعى نحو رضوان الله السابقون الأولون من المهاجرين الذين اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم وترك أموالهم وإخوانهم وعشيرتهم طلبًا لمرضاة ربهم، وكذلك السابقون الأولون من الأنصار وهم الذين نصروا رسول الله - ﷺ - على أعدائه من أهل المدينة وآووا أصحابه، وسعى نحو رضوان الله أيضا الذين اتبعوهم بإحسان، و هم بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين، أو الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة والنصرة إلى يوم القيامة[٣] .

قال تعالى: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾[٤] .

وقال تعالى: ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**

(١) صحيح البخاري كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة، رقم الحديث: ٧٥١٨، فتح الباري ١٣/ ٤٩٦ .

(٢) انظر: تفسير الآلوسي ٦/ ١٩٩، وتفسير السعدي ٣/ ٢٦٦ .

(٣) انظر: تفسير البغوي ٤/ ٨٨ .

(٤) سورة التوبة: ١٠٠ .

يبتغون فضلاً مّن اللّه ورضوانًا وينصرون اللّه ورسوله أولئك هم الصادقون﴾[(١)] .

كما سعى نحو رضوان الله أيضًا المجاهدون في سبيل الله ، فخرجوا للقاء عدوهم بأموالهم وأنفسهم ، واتبعوا في كل ما أتوا من قول أو فعل رضا الله الذي هو أصل للنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ولا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون (١٦٩) فرحين بما آتاهم اللّه من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم مّن خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون . .﴾ إلى قوله تعالى : ﴿فانقلبوا بنعمة مّن اللّه وفضل لّم يمسسهم سوء واتّبعوا رضوان اللّه واللّه ذو فضل عظيم﴾[(٢)] .

والإنسان لا يكون راضيًا عن الله سبحانه إلا إذا كانت النعمة والبلية تستويان عنده في الرضا بهما ، وذلك لوجوه :

الأول : أنه مفوض ، والمفوض راض بكل ما اختاره له من فوض إليه ، ولاسيما إذا علم كمال حكمته ورحمته ولطفه وحسن اختياره له .

الثاني : أنه جازم بأنه لاتبديل لكلمات الله ، ولا راد لحكمه . وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . فهو يعلم أن كلاً من البلية والنعمة بقضاء سابق وقدر حتم .

الثالث : أنه عبد محض ، والعبد المحض لا يسخط جريان أحكام سيده

---

(١) سورة الحشر : ٨ .

(٢) سورة آل عمران : ١٦٩ ـ ١٧٤ .

المشفق البار الناصح المحسن، بل يتلقاها كلها بالرضى به وعنه.

الرابع: أنه محب، والمحب الصادق: من رضي بما يعامله به حبيبه.

الخامس: أنه جاهل بعواقب الأمور، وسيده أعلم بمصلحته وبما ينفعه.

السادس: أنه لا يريد مصلحة نفسه من كل وجه، ولو عرف أسبابها، فهو جاهل ظالم. وربه تعالى يريد مصلحته، ويسوق إليه أسبابها. ومن أعظم أسبابها: ما يكرهه العبد، فإن مصلحته فيما يكره أضعاف مصلحته فيما يحب. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] . وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2] .

السابع: أنه مسلم، والمسلم من قد سلم نفسه لله، ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه، ولم يسخط ذلك.

الثامن: أنه عارف بربه، حسن الظن به، لا يتهمه فيما يجريه عليه من أقضيته وأقداره. فحسن ظنه به يوجب له استواء الحالات عنده، ورضاه بما يختاره له سيده سبحانه.

التاسع: أنه يعلم أن حظه من المقدور ما يتلقاه به من رضى وسخط،

---

(١) سورة البقرة: ٢١٦.

(٢) سورة النساء: ١٩.

فلابد له منه، فإن رضي فله الرضى، وإن سخط فله السخط[١].

فرضى الله عن المؤمنين هو بسبب صدقهم وإيمانهم، وأعمالهم الصالحة، ومجاهدة أعدائه، وعدم ولايتهم، وبدون ذلك لا يتحقق رضى الله.

قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[٤].

وبعد الحديث عن رضوان الله على المؤمنين أخبر تعالى في موضع آخر أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة

---

(١) وبلغت تلك الوجوه اثنين وستين وجهًا، كما ذكرها ابن قيم الجوزية في كتابه «مدارج السالكين» ص: ٢٠٥ ـ ٢٣٠.

(٢) سورة المائدة: ١١٩.

(٣) سورة المجادلة: ٢٢.

(٤) سورة البينة: ٧ ـ ٨.

وزيادة، وهي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضًا، ويشمل ما يعطيهم في الجنات من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته(١).

قال تعالى: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾(٢).

وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم. ففي صحيح مسلم عن صهيب عن النبي - ﷺ - قال: «(**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل. ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾**»(٣).

وروي عن ابن عباس: «أن الحسنى هي: أن الحسنة بمثلها، والزيادة هي التضعيف عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف». وقال مجاهد: الحسنى: «حسنة مثل حسنة، والزيادة: المغفرة والرضوان»(٤).

والزيادة يتعين أنها زيادة لهم ليست داخلة في نوع الحسنى بالمعنى الذي

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥٧.

(٢) سورة يونس: ٢٦.

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم، رقم الحديث: ٢٩٧ (١٨١) بشرح النووي ٣/ ١٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٦/ ٥٥٢، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٠.

صار علمًا بالغلبة، فلا ينبغي أن تفسر بنوع مما في الجنة، لأنها تكون حينئذ مما يستغرقه لفظ الحسنى، فتعين أنها أمر يرجع إلى رفعة الأقدار، فقيل: هي رضى الله تعالى، وقيل: هي رؤيتهم الله تعالى(١).

وقال أبو جعفر الطبري ـ عند ذكر أقوال المفسرين في ذلك ـ: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وعد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة، وأن تبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادة عليها. ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يعطيهم غُرَفًا من لآلئ، وأن يزيدهم غفرانًا ورضواناً، كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته. وعم ربنا جل ثناؤه بقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، الزيادات على ﴿الْحُسْنَىٰ﴾، فلم يخصص منها شيئًا دون شيء. وغير مستنكَر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله. فأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يعم، كما عمّه عز ذكره»(٢).

وبما سبق يتضح لنا أن كمال النعيم في الدار الآخرة برؤية الله سبحانه وسماع كلامه وقربه ورضوانه، لا كما يزعم من يزعم أنه لا لذّة في الآخرة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح، بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق تعالى أعظم مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال. وأن هذا هو البرهان على أن السعادات الروحانية أشرف وأعلى وأعظم من السعادات

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١١/ ١٤٦.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٥٥٣.

الجسمانية[١] .

وقد ورد في دعاء النبي - ﷺ - الذي رواه الإمام أحمد عن عمار بن ياسر : «**أسألك خشيتك في الغيب والشهادة...، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرة ، ومن فتنة مضلة، اللهم زيّنّا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهديين**»[٢] .

ولهذا قال تعالى في حق الكفار : ﴿**كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ**﴾[٣] .

فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يعذب به أعداءه ، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم أعظم أنواع اللذات التي ينعم بها أولياءه ، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم من رؤيته وسماع كلامه ورضوانه .

* * *

(١) انظر : التفسير الكبير ١٦/ ١٠٦ ، وطريق الهجرتين وباب السعادتين ص : ٥٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٦٤ . وقال أحمد عبد الرحمن البنا : وسنده جيد (الفتح الرباني ٤/ ٣٦).

(٣) سورة المطففين : ١٥ - ١٦ .

الخاتمة

وفيها أهم نتائج البحث وثمراته

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً، و الصلاة والسلام على رسوله محمد الذي أرسله للناس بشيراً ونذيراً، وأشكره سبحانه وتعالى على أن يسر لي إنجاز هذا البحث المتواضع. وبما أنني قد انتهيت ـ بتوفيق الله ـ من دراسة «الحياة في القرآن الكريم، دراسة موضوعية»، فإني أبين فيما يلي بعض النتائج والثمرات المستخلصة منها:

١ـ المؤمن العاقل في حياته يتقيد بسنن الله في الكون، فلا يعاندها، ويطيع أحكام الله في شريعته فلا يعصيها، ويتوكل مع ذلك على الله عز وجل في تحقيق ما يرجو من نتائج يحبها في الحياة الدنيا.

٢ـ إن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الإنسان لأمر عظيم، خلقه ليكون خليفة في الأرض، فاعلاً مؤثراً فيها. إنه السيد الأول في هذا الميراث الواسع. ودوره في الأرض إذن وفي أحداثها وتطوراتها هو الدور الأول. إنه سيد الأرض وسيد الآلة. إنه ليس عبداً للآلة كما هو في العالم المادي اليوم.

٣ـ إن تمكين الله للإنسان في الحياة الدنيا يتعلق بارتباط مع الأرض والجبال والرياح والأمطار والظواهر الجوية، ومع البحار والأنعام. . وكلها ملحوظ في تصميمها وهندستها التمكين للإنسان في الحياة الدنيا، كما أن ذلك كله يدعو الإنسان إلى شكر الله عز وجل، وعدم اتباع خطوات الشيطان.

٤ ـ القيمة الحقيقية للحياة الدنيا وما فيها من الكائنات مصيرها الزوال، وأن هذه الحياة على هذا الكوكب حياة مؤقتة، وأن الحكمة من وجودها الابتلاء والاختبار، وأن هذه الحياة مزرعة الآخرة، فما زرعه الإنسان في هذه الحياة سيحصد ثماره في الحياة الآخرة. وأن المقصد من متع هذه الحياة جعلها وسيلة للحياة الباقية، وأنها إن لم ترتبط بالقيم الصحيحة الباقية زالت واندثرت باندثار ما على الأرض، وكانت وبالاً على أصحابها.

٥ ـ إن الذي يقرأ القرآن الكريم ويتدبر معانيه، يستقر على قرار أن الابتلاء في الحياة الدنيا سنة من سنن الله، وأن الدنيا من أولها إلى آخرها دار الابتلاء. ومن هنا تتجلى أهمية الحديث عن الابتلاءات والمحن في العمل الإسلامي، حتى يبصر أفراد هذه الأمة بطبيعة الطريق، ويهيئهم لتوطين نفوسهم على ما يعترضهم من عقبات وتحديات وصعوبات، ويخفف على المبتلين ما يقاسونه من تعب ونصب وعنت.

٦ ـ وقد تجلى لنا من خلال التتابع أن ما ورد في القرآن الكريم من مشاهد الحياة الآخرة هو الحق، وأنه قد ورد بأسلوب متوافق مع مفهومات السامعين وأحوالهم، ومتناول إدراكهم وحسّهم، وخاصة العرب الذين كانوا أول المخاطبين به، وأنه ورد على سبيل التقريب، واستهدف ـ فيما استهدفه ـ تربية الخوف والرهبة في نفوس المكذبين الضالين حتى يرهبوا، وبث الطمأنينة في نفوس المؤمنين الصالحين حتى يثبتوا على الطريق القويم الذي هدوا إليه.

٧ ـ إن الحياة ـ نشأة وحركة وإعادة ـ آية من آيات الله ، تدل على قدرته الإلهية على الخلق والإبداع والتدبير والتسخير . . وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها ، وبعدما درست من خصائصها وأطوارها . . تقف أمام السر المغيب كما وقف الإنسان الأول ، تدرك الوظيفة والمظهر ، وتجهل السر والجوهر ، والحياة ماضية في طريقها .

ومن تلك الآيات الإلهية أن جعل الله من الماء كل شيء حي ، بمعنى أن الماء أصل الحياة ، فلا توجد في شيء إلا إذا كان فيه نسبة مخصوصة من الماء تختلف بحسب أجزاء الأجسام ، ولكثرة الماء فيها كأنها كلها من الماء .

٨ ـ تختلف حياة الناس باختلاف نظرتهم إلى الحياة ، وتختلف باختلاف موقفهم من منهج حياتهم . لقد زين للناس حب الشهوات في هذه الحياة الدنيا من النساء والأولاد والأموال وغيرها ، ليكون ذلك ابتلاء من الله عز وجل لعباده .

٩ ـ إن المؤمنين ـ الذين يجعلون القرآن الكريم منهج حياتهم ـ يعلمون أن هناك خيراً من ذلك المتاع الدنيوي كله . . جنات ورضوانا من الله ، فيرتفعون عن ذلك المستوى إلى الأعلى ، فهم قوم فضلوا جوار الله على كل جوار ، بعد أن استيقنت قلوبهم حقيقة العبودية لله ، فعاشوها ليلهم ونهارهم . إنهم قوم رأوا حقيقة الحياة ، وعرفوا أن الدنيا زائلة فانية ، وأن الآخرة هي الباقية الخالدة ، ومن ثم اتخذوا دنياهم مجرد معبر إلى هذه الآخرة الدائمة ، فعاشوا فيها بروح المرتحل ، آملين في جنة الخلد التي وعدها الله عباده المتقين .

ولهذا يسعى المؤمنون في حياة الدنيا لآخرتهم التي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار. يسعون لآخرتهم؛ لأنهم يعلمون ـ علم اليقين ـ أن الآخرة خير للمؤمنين، ففيها جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، وفيها سعة وجمال وارتفاع وحيوية، وفيها من أنواع النعم الأبدية الخالدة مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

١٠ ـ الكافرون قوم لاينتفعون بشيء من الجوارح التي جعلها الله عز وجل سببًا للهداية، فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا، ولم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية، ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة. وهم بذلك آمنوا بالباطل، وكفروا بالحق واتبعوا الأهواء والشهوات والظنون الزائفة التي هي من الأسباب المضلة المبعدة عن الصراط المستقيم. وهم كذلك جعلوا الحياة الدنيا هي غايتهم ومستقرهم ومصيرهم ليضعوا أنفسهم في مكان ضيق، يقضون فيه مدة حياتهم المحدودة، ويأكلون كما تأكل الأنعام، ويتمتعون كما تتمتع الأنعام، بل هم أضل منها في الحياة سبيلاً.

فانطلاقًا من هذا التصور الخاطئ والغاية الدنيوية فلا يسعى الكافرون في الحياة الدنيا لآخرتهم، بل هم لا يرجون لقاء الله، لأنهم لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم غافلون عن أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة.

ولهذا تكون الدار الآخرة بالنسبة للكافرين دار عذاب، ففيها نار وقودها الناس والحجارة، ولهم في هذه النار زفير وشهيق من الحر والضيق، وفيها من أنواع العقوبات الأبدية الخالدة مما لايعلم حدودها إلا الله عز وجل، جزاء بما

كانوا يعملون في الحياة الدنيا .

١١ ـ إن المنافقين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، فهم قوم خداعون ، يلبّسون على الناس أمورهم ، ويسخرون من المؤمنين ويستهزئون بهم ، فهم من ألدّ أعداء الحق ، والمعركة معهم مستمرة إلى قيام الساعة .

والنفاق مرض خطير في حياة الفرد ، وفي حياة المجتمع ، وتبدو خطورته الكبيرة حينما نلاحظ أنه سلوك مركّب يرجع إلى عدة عناصر خلقية ذميمة خبيثة ، يدخل فيها الجبن ، وجحود الحق ، والطمع الشديد في المنافع الدنيوية ، والقدرة على الحيلة ولبس الأقنعة المتنوعة .

لذلك كان الواجب التحذير من النفاق والمنافقين ، وبيان مواقع النفاق ، وصفات المنافقين ، وكشف أعمالهم في هدم المسلمين وإفسادهم ، وخدمة أعدائهم المجاهرين بعداوتهم ، ذلك لأن العدو المخالط المداخل المساكن أخطر وأشد كيدًا من العدو البعيد .

لذلك شدد الله عز وجل في القرآن الكريم على المؤمنين ، لكي يحذروا من النفاق والمنافقين أبلغ التحذير ، ونهاهم جازمًا عن أن يتخذوا منهم بطانة مداخلة عالمة بالأسرار .

والمنافقون بهذه الخطورة ، وبتلك العداوة يستحقون العذاب الشديد في الآخرة ، بل هم أشد عذابًا من الكافرين ، لأنهم مثلهم في الكفر ، وضم إليهم نوع آخر من الكفر ، وهو الاستهزاء بالإسلام وبأهله ، وبسبب أنهم لما كانوا يظهرون الإسلام يمكنهم الاطلاع على أسرار المسلمين ثم يخبرون الكفار

بذلك، فكانت تتضاعف المحنة والمصائب من هؤلاء المنافقين، فلهذه الأسباب جعل الله عز وجل عذابهم أشد وأشق من عذاب الكافرين، فهم في الدرك الأسفل من النار.

١٢ ـ إن الحياة في ضوء القرآن مليئة بالحيوية، ففيها الإيمان الذي فيه الحياة؛ لأن الإيمان حياة القلب والكفر موته. وفيها الجهاد الذي فيه الحياة؛ لأن ضعف المسلمين ووهنهم حياة لعدوهم، فأمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب حياتهم الجهادية للكافرين، وأن الجهاد سبب لحصول الشهادة، وهي توجب الحياة الخالدة السعيدة. وفيها تطبيق فريضة القصاص الذي فيه حياة على معناها الأوسع. . وهكذا تكون الحياة في ضوء القرآن مليئة بأنواع الحياة وصورها ومعانيها.

١٣ ـ إن غاية الإنسان في الحياة غاية عظيمة، لا يدرك عظمتها إلا من يعرف مقدار النعمة التي أنعم الله بها عليه، فهو خلق عظيم مكرم ما استجاب لخالقه ولبى دعوة بارئه؛ فسار على نظام العبودية الحقة، وسبح في فلك الطاعة لا يريم عنه ولا يتحول، كما أن الشمس والقمر كل في فلك يسبحون. فيؤدي رسالته ويحقق غايته في الحياة في ظل هذه العبودية، فيقوم بما كلف به من عمل على وجه الإتقان والكمال دون إفراط أو تفريط، فإن حاد عن ذلك فهو مفرط في حق نفسه وحق أمته وحق الناس أجمعين. وإن قصر في تحقيق الغاية من حياته فقد أبطل غاية وجوده، وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد والغرض، خاوية من معناها الأصيل. وهو بعدُ مسؤول بين

يـدي الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم.

١٤ ـ إن الذي عاش بالقرآن الكريم وأدى رسالته في الحياة تحت ظلاله، وقام بأداء الناحية التي هيأه الله لها أداء حسنا، لَيحقق ـ بتوفيق الله ـ ويجني ثمرات الحياة في الدنيا والآخرة.

ومن تلك الثمرات: النصر من عند الله، الذي وصف نفسه بالقوة والعزة، وبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرًا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور.

ومنها: التمكين في الأرض، حيث وعد الله سبحانه عباده المؤمنين بأن يمكّن لهم دينهم، فيجعله مكينًا ثابتًا في الأرض، عزيزًا قويًا منيعًا، مرهوب الجانب في نظر أعدائه، منصورا على ملة الكفر.

ومنها: إقامة العدل، فلا عدل إلا في الحياة في ضوء القرآن الكريم، ذلك أن القرآن الكريم فيه الميزان الإلهي الثابت، وبغيره لا يهتدي الناس إلى العدل، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهب الأهواء والشهوات.

ومنها: حياة السعادة، فلا سعادة في هذه الحياة إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم الذي أنزله الله على رسوله ـ ﷺ ـ لسعادة البشرية. والرجوع إلى القرآن الكريم معناه: أن يرجع الإنسان في حياته كلها إلى منهج الله

الذي رسمه للبشرية في هذا الكتاب العظيم .

ومنها : حياة العزة ، فلا عزة إلا في الحياة في ضوء القرآن الكريم ، ذلك لأن العزة كلها لله ، وليس شيء منها عند أحد سواه . فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره ، فإنه يحصل له مطلوبه ؛ لأن الله عز وجل مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعا .

تلك هي ثمرات الحياة في ضوء القرآن الكريم في الدنيا ، أما ثمراتها في الآخرة فهي تكفير السيئات والمغفرة من الله ، ودخول الجنة التي عرضها كعرض السماوات والأرض ، ورضوان الله الذي هو أكبر النعيم وأكمل الجزاء ، ذلك أن رضوان الله أصل لجميع الخيرات ، وأنه مبدأ لحلول دار الإقامة ووصول كل سعادة وكرامة .

هذا ما ظهر لي من بعض النتائج المستخلصة من هذا البحث المتواضع .

ونؤكد في ختام هذه الرسالة المتواضعة أن هذه الدراسة مجرد محاولة من طويلب علم ، بذل جهده مع قلة بضاعته في هذا الشأن ، راجيا من الله عز وجل التوفيق والسداد والمغفرة .

ما أصابني من صواب فمن الله ، وما أصابني من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان ، والله أسأل أن يتجاوز عما وقع من تقصير أو نسيان أو خطأ .

وصلى الله على نبينا وأسوتنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

الفهارس

الفهرس الأول: فهرس الآيات القرآنية
الفهرس الثاني: فهرس الأحاديث والآثار
الفهرس الثالث: فهرس الأعلام
الفهرس الرابع: فهرس المراجع
الفهرس الخامس: فهرس الموضوعات

الفهرس الأول

فهرس الآيات القرآنية

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

سورة الفاتحة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤	﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾	٢٤٥

سورة البقرة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١ ـ ٥	﴿ الٓمٓ ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ . . . . ﴾	٩١١
٦ ـ ٧	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ . . . ﴾	٦٧٣ ، ٦٩٨
٨ ـ ١٠	﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ . . . ﴾	٤١١ ، ٨١٢ ، ٩١٤
١١ ـ ١٢	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ . . . ﴾	٧٠٢ ، ٨٢١
١٤	﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا . . . ﴾	٨١٧ ، ٨٤٨ ، ٨٦٤
٢١ ـ ٢٢	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ . . . ﴾	١١٢ ، ٣٩١
٢٥	﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . . . ﴾	٢٥٥ ، ٢٦٠
٢٦ ـ ٢٧	﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ . . . ﴾	٦٨٨ ، ٧٠٢
٢٨	﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا . . . ﴾	٢٧ ، ٣٢٧
٢٩	﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ . . . ﴾	١٥٥
٣٠	﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي . . ﴾	١٢ ، ٨٦ ، ٨٢٢ ، ٩٦٢
٣١ ـ ٣٤	﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ . . . . ﴾	٨٨ ، ١٠٧
٣٦	﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا . . . ﴾	١٢١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٩	﴿والَّذين كفرُوا وكذَّبوا بآياتنا أُوْلَئك ...﴾	٢٦٤، ٧٩٣
٤٩	﴿وإِذْ نجَّيناكم مِّنْ آلِ فرْعوْن يسومونكمْ...﴾	٢٩
٥٧	﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهمْ ...﴾	٦٥
٦١	﴿وضُرِبتْ عليهم الذِّلَّة والْمسْكنة ...﴾	١٠٠٧
٧٦ـ٧٧	﴿وإذا لقوا الَّذين آمنوا قالُوا آمنَّا...﴾	٨٦٤
٧٨	﴿ومنْهمْ أُمِّيُّون لا يعلمون الْكتاب إلا ...﴾	٦٨١
٧٩	﴿فويْلٌ لِّلَّذين يكْتبُون الْكتاب بأيْديهمْ...﴾	٧١٣
٨٣	﴿وإِذْ أخذْنا ميثاق بني إسْرائيل لا تعْبُدُون إلاَّ اللَّه ...﴾	٩٧٣
٨٥	﴿ثُمَّ أنتمْ هؤُلاءِ تقْتُلُون أنفُسكُمْ وتُخْرِجُون فريقًا مِّنكُم ...﴾	٢٧٣، ٥٥٠
٨٦	﴿أُوْلَئك الَّذين اشْترُوُا الْحياة الدُّنْيا بالآخرة ...﴾	٧٢٦
٩٠	﴿بئْسما اشْتروْا بِهِ أنفُسهُمْ أن يكْفُرُوا بما أنزل اللَّه بغْيًا ...﴾	٢٧٥
٩٦	﴿ولتجدنَّهُمْ أحْرص النَّاسِ علىٰ حياةٍ ...﴾	٣٠، ٧١٦، ٩٣١
٩٧	﴿قُلْ من كان عدُوًّا لِّجِبْرِيل فإِنَّهُ نزَّلهُ علىٰ قلْبك ...﴾	٩١٠
١٠٥	﴿ما يودُّ الَّذين كفرُوا منْ أهْلِ الْكتاب ولا	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	الْمُشْرِكِينَ ...﴾	٧٣٥
١٠٩	﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ...﴾	٤٧٣، ٧٤٣
١١١ـ١١٢	﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ...﴾	٥٣١، ٦٨١
١١٤	﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ...﴾	٢٧٩، ٧٠٩
١٢٠	﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ...﴾	٦٥٦
١٢٤	﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ...﴾	٢٠٧
١٢٦	﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ...﴾	١٩٦
١٤٢ـ١٤٣	﴿لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ...﴾	٨٣٣
١٥٢	﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ...﴾	٥٠٢، ٩٢٤
١٥٣	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ...﴾	١٧٦
١٥٤	﴿وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ...﴾	٥٧٢، ٩٤٣
١٥٥ـ١٥٧	﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ ...﴾	٢١٢
١٦١ـ١٦٢	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	لَعْنَةُ اللَّه ... ﴾	٢٦٤، ٧٩٣
١٦٤	﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ... ﴾	١٣١، ٣٦٠، ٣٩٧
١٦٥	﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّه أَندَادًا ... ﴾	٩٤٤
١٦٦ ـ ١٦٧	﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ... ﴾	٧٨١
١٧٠	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا ... ﴾	٦٧٥
١٧١	﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً ... ﴾	٤٠٩، ٦٧٧
١٧٧	﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ... ﴾	١٦٧
١٧٨	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ... ﴾	٩٣٦
١٧٩	﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾	٢٨، ٨٩٢، ٩٣٠
١٨٠	﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ ... ﴾	١٧٠
١٨٦	﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ... ﴾	٩٢٧
١٨٩	﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ... ﴾	٤٠
١٩٥	﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	التَّهْلُكَة ﴾	٥١٠
١٩٧	﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ... ﴾	١٠٦٠
١٩٨	﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ... ﴾	٥٠٣
٢٠٠	﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ... ﴾	٥٠٤
٢٠١	﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً... ﴾	٥٢٩، ١٠٤٤
٢٠٥	﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ... ﴾	٧٠٣، ٨٥١، ٨٧٠
٢١٢	﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾	١٦١، ٦٥٦
٢١٣	﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ... ﴾	٤٤، ٧٤٥
٢١٤	﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ... ﴾	٨٥، ١٠٨
٢١٥	﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ ... ﴾	١٧٢
٢١٦	﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ... ﴾	٤٩٨، ٩٠١، ١٠٧٨
٢١٧	﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ... ﴾	٤٧٣، ٧٤٣، ٧٤٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٢٠	﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ ... ﴾	١٧٢
٢٢٣	﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ... ﴾	٧٠٤
٢٢٨	﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ... ﴾	٩٧٠
٢٣٩	﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ... ﴾	٩٢٧
٢٤٩	﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ ... ﴾	١٧٦، ١٠١٢
٢٥٠ـ٢٥٢	﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ ... ﴾	٩٥٠
٢٥٣	﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... ﴾	٦٣٣
٢٥٥	﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ... ﴾	٦٢١
٢٥٧	﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ... ﴾	٨٩٩
٢٥٨	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ... ﴾	٥٢٥، ١٠٠٩
٢٥٩	﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ... ﴾	٣٣٩
٢٧١	﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ... ﴾	١٠٦٢
٢٧٨	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ... ﴾	٩٨٩
٢٨٠	﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ... ﴾	٤٢٠
٢٨٢	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	مُّسَمًّى ...﴾	١٠٣٣
٢٨٣	﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ...﴾	٤٣٩، ٩٨٨
٢٨٤	﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ...﴾	٦٠٣

سورة آل عمران

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢	﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾	٣١
٥	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ ...﴾	٩٢٢
١٠ـ١١	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ ...﴾	٦٢
١٢	﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ...﴾	٦٢
١٤	﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ...﴾	١٥٢، ٢٩٧، ٤٠٧
١٥	﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ ...﴾	٣٠١
١٩	﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ...﴾	٤٥
٢١ـ٢٢	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ ...﴾	١٠٠٧
٢٣ـ٢٤	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ ... ﴾	٦٨٤
٢٧	﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ... ﴾	٣٣٣
٣٠	﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ... ﴾	١٨١
٣١	﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... ﴾	١٠٥٠
٣٢	﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾	٢١١
٤٧	﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾	٦٤٩
٤٩	﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴾	٣٠
٧٢	﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ ... ﴾	٧٤٤
٧٥ـ٧٦	﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ... ﴾	٧١٣
٧٩	﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ... ﴾	٤٠٨
٨٥	﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ... ﴾	٤٥
٩١	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم ... ﴾	٨٠٢
١٠٣	﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً ... ﴾	٩٢٨، ٩٨٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٠٤	﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ... ﴾	٧٧، ٩٨٦
١٠٦	﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ... ﴾	٢٨٦
١١٠	﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴾	٩٨٦، ١٠٢٦
١١٣ ـ ١١٤	﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ... ﴾	٩١٢
١١٧	﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾	٦٥
١١٨ ـ ١٢٠	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ... ﴾	٧٣٦، ٨٤٦، ٨٦٤
١٢٥ ـ ١٢٦	﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ ... ﴾	٧٥٤، ١٠١٥
١٢٦ ـ ١٢٨	﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ... ﴾	٨٠، ٧٥٢
١٣٠	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا ... ﴾	٩٨٩
١٣٢	﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾	١١٢
١٣٤	﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ... ﴾	٥١١
١٣٥ ـ ١٣٦	﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ... ﴾	١٠٦٤
١٣٧ ـ ١٣٨	﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا ... ﴾	٦٢
١٣٩ ـ ١٤١	﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ... ﴾	١٠٥٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٤٢	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا ...﴾	٨٤، ٩٥٢
١٤٥	﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ...﴾	١٠٥٥
١٤٦	﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ...﴾	١٧٦
١٤٩	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾	٧٤٣
١٥١	﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا ...﴾	٧٥٣
١٥٤	﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً ...﴾	٩٤٦، ١٠٥٥
١٥٦ـ١٥٨	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾	٤٨٥ ، ٧٣٣
١٦٢ـ١٦٣	﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ ...﴾	٥٣١، ٥٠٥
١٦٥ـ١٦٨	﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ...﴾	٧٨، ٥٨٨، ٨٧٤
١٦٩ـ١٧٠	﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ ...﴾	٥٥٣ ، ٥٧٢، ١٠٠٨
١٧٣ـ١٧٤	﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ...﴾	٤٩٩
١٧٦	﴿وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ...﴾	٢٧٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٧٩	﴿ما كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ...﴾	٥٦، ٩٥٥
١٨٠	﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ...﴾	٧٢٩
١٨٥	﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...﴾	١٦٢، ٥١٧، ٩٤٥
١٨٦	﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ ...﴾	٤٢٠
١٨٧	﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ...﴾	٧٢٧، ٩٧٣
١٩٠ ـ ١٩٢	﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ ...﴾	٢٧٧، ٥٠٣، ٩١٩
١٩٥	﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ...﴾	١٠٦٠
١٩٦ ـ ١٩٧	﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ...﴾	١٨٣، ٢٩٨
٢٠٠	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ...﴾	٩٠٠

سورة النساء

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١	﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ...﴾	٩٢٢، ٩٦٩
٢	﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	بالطَّيِّب ... ﴾	١٧٢
٣	﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم ... ﴾	١٠٣٤
٥	﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ... ﴾	١٧٠، ٢٠٢
٧ـ٨	﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ ... ﴾	٩٧٨
١٩	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ... ﴾	١٠٧٨
٢١	﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ... ﴾	٩٧٢
٢٧	﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ ... ﴾	٦٥٤
٢٩ـ٣٠	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ... ﴾	٩٣٧، ٩٨٩
٣٤	﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... ﴾	٩٧٠
٣٦	﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... ﴾	٩٨٩
٣٧	﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ... ﴾	٢٧٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤٢	﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ ... ﴾	٧٨٢
٥٦	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ... ﴾	٢٧٠
٥٨	﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ... ﴾	٩٧، ٤٣٨، ٩٨٧
٥٩	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ... ﴾	١٠١٥
٦٠ ـ ٦١	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ... ﴾	٨٧٦
٦٢ ـ ٦٣	﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ... ﴾	٤٧٤، ٨٦٥
٦٥	﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ... ﴾	١١٤، ٨٧٧
٦٩ ـ ٧٠	﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم ... ﴾	٥٥١، ٦٣٣
٧١	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ... ﴾	٥٨٦، ١٠٥٦
٧٢	﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ ... ﴾	٨٥٥
٧٤	﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ... ﴾	٧٢٧
٧٦	﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾	٩٤٣
٧٧	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	الصَّلاةَ ... ﴾	١٨٣ ، ٦٥٣، ٨٤١
٧٨	﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... ﴾	٧٢٦، ٨٥٤، ١٠٥٥
٨١	﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ ... ﴾	٨٢٧
٨٨ـ٨٩	﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم ... ﴾	٤٨٢ ، ٧٤٤، ٨٤٦
٩٠	﴿ إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ... ﴾	٤٦١
٩٣	﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ... ﴾	٩٣٥
٩٤	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ... ﴾	١٦٤
٩٥ـ٩٦	﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾	٥٧٩، ٦٣٦، ١٠٣٩
٩٧	﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ... ﴾	٩٠٢
١٠٠	﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا ... ﴾	٩٠٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٠٧ـ١٠٨	﴿ وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ... ﴾	٨٢٤
١١٠	﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ... ﴾	١٠٦٩
١١٤	﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ... ﴾	٥٠٧
١١٧ـ١٢١	﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا ... ﴾	٦٨٢
١٢٢	﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ ... ﴾	٦٤٩
١٢٣	﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ... ﴾	٨٥، ٥٣١، ٦٨١
١٢٤	﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ... ﴾	١٧٠
١٢٩	﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ... ﴾	١٠٣٤
١٣٧ـ١٣٨	﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ... ﴾	٨١٦، ٨٣٠
١٣٩	﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾	١٠٤٩
١٤١	﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا ... ﴾	٨٥٥، ١٠٥١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٤٢	﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ...﴾	٨٦٨
١٤٣	﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ ...﴾	٤١٠، ٨١٨، ٨٧٨
١٤٥	﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ...﴾	٤١١، ٨١٢، ٨٨٦
١٥٠ ـ ١٥١	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ...﴾	٦٨٥
١٥٥	﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاءَ ...﴾	٥٣٩
١٦١	﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ...﴾	٧١١
١٦٧	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾	٦٩٣
١٧٤	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾	١٥٧

سورة المائدة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ...﴾	١٥٠، ٩٨٨
٣	﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ...﴾	٧٨٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤	﴿... فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ...﴾	٩٢٨
٥	﴿...وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ...﴾	١٦٩
٨	﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ...﴾	١٨٧، ١٠٣٢
٩	﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ...﴾	١٧٩، ١٠٥٨
١٣	﴿وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ...﴾	٥١١، ٦٩٠
١٤	﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ...﴾	٧٦٠
٣٢	﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ...﴾	٢٩، ٨٩٢، ٩٤١
٣٣	﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا ...﴾	٢٧٩
٣٦	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ ...﴾	٨٠٢
٣٧	﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ...﴾	٨٠٥
٤٢	﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ...﴾	٧١١، ١٠٣٠
٤٥	﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ...﴾	٩٣٦، ٩٨٥
٥٢	﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ...﴾	٨٥٧، ١٠٥١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥٤	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ... ﴾	٨٤، ١٠٥٣
٥٥	﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾	٤٦٠
٥٧	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ... ﴾	٤٧١
٦٢	﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ... ﴾	٧١١
٦٤	﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا ... ﴾	٦٧٧، ٧٠٢
٦٥-٦٦	﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ ... ﴾	٤٢٣، ١٠٥٩
٧٨-٧٩	﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ ... ﴾	٩٨٦
٨٢-٨٣	﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ... ﴾	٤٦٩، ٧٣٨
٩١	﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ ... ﴾	٥١٢
٩٦	﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ ... ﴾	١٣١، ١٩٤
١٠٠	﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ... ﴾	١٠٣٩
١٠٤	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا ... ﴾	٦٧٥
١٠٥	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ... ﴾	٧٧
١٠٦	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ... ﴾	١٠٣٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١١٩	﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ...﴾	١٠٧٩

سورة الأنعام

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦	﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ ...﴾	٦٠
١١	﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾	٦٣
٢٦	﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ...﴾	٦٩١
٢٧	﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا ...﴾	٧٩٢
٢٩	﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾	٤٠٩
٣٢	﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ ...﴾	١٥٨، ٢٤٨
٣٨	﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ...﴾	٩٩٧
٤٢ـ٤٥	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ...﴾	٧٠، ٦٦٩
٤٧	﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً ...﴾	٦٥
٦٥	﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ...﴾	٧٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧٠	﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ...﴾	١٦٣، ٦٨٠
٨٢	﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ...﴾	٥٩٧
٩٢	﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ...﴾	٧٢
٩٥	﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ...﴾	٣٢٥، ٣٢٨، ٣٣٣
٩٦	﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ...﴾	١٤٠
٩٨	﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ...﴾	١٢٢
٩٩	﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ...﴾	٣٩٨
١١٢	﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ...﴾	٦٩٧
١٢٢	﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ...﴾	٢٨، ٦٥٨، ٨٩١، ٨٩٤، ٨٩٩
١٢٣ ـ ١٢٤	﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ...﴾	٦٩٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٢٥	﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ...﴾	٥٠٦، ٧٥٠
١٣٠	﴿يا معْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ...﴾	١٦٣، ٦٨٠
١٣٢	﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾	٦٣٢
١٣٣ ـ ١٣٤	﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ...﴾	٩٣
١٣٧	﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ ...﴾	٦٦٠
١٤٠	﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا ...﴾	٩٧٧
١٤٢ ـ ١٤٤	﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ...﴾	١٥٠، ١٥٥
١٤٦	﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ...﴾	٧١٤
١٥١	﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ...﴾	٩٣٨، ٩٧٤، ٩٧٧، ٩٨٩
١٥٢	﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ...﴾	١٧٥، ١٠٣٥
١٥٥	﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ ...﴾	١٠٠١
١٥٧	﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ ...﴾	٢٧٩
١٦٥	﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ ...﴾	٨٧، ٨٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

سورة الأعراف

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤ـ٥	﴿ وَكَم مِّن قَـرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَـجَـاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا ... ﴾	٦٥
٦	﴿ فَلَنَسْـئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْـهِمْ وَلَنَسْـئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾	٦٠٣، ٩٦٨
٨ـ٩	﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ... ﴾	٦٠٧
١٠	﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ... ﴾	١١٩، ١٥٣، ١٥٥
٢٢ـ٢٣	﴿ وَنَادَاهُمَـا رَبُّهُـمَـا أَلَمْ أَنْهَكُمَـا عَن تِلْكُمَـا الشَّجَرَةِ ... ﴾	١٠٦٩
٢٤	﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... ﴾	١٩٤، ٣٦٩
٣١	﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... ﴾	٦٦١
٣٢	﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ... ﴾	٣٠٣، ٦٦١
٣٤	﴿ وَلِكُلِّ أُمَّـةٍ أَجَلٌ فَـإِذَا جَـاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ... ﴾	٥٢٦
٣٦	﴿ وَالَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْـتَكْبَـرُوا عَنْهَـا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ... ﴾	٢٦٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤٣	﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾	٢٦٣، ٦١٩
٤٦	﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ... ﴾	٦١٩
٥١	﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... ﴾	١٦٣
٥٦	﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ... ﴾	٤٣
٥٧	﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ... ﴾	١٢٨، ١٢٩، ٣٧٧، ٣٩٧، ٥٩٣
٥٨	﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ... ﴾	٤٩٠
٦٩	﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ... ﴾	٩٢
٧٠ ـ ٧٢	﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ... ﴾	١٠٠٥
٧٤	﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ... ﴾	٩٢
٨٠ ـ ٨٤	﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ... ﴾	١٠٠٦
٨٦	﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾	٧٠٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٨٨	﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ ...﴾	٧٤٠
٩٠ـ٩٢	﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا ...﴾	١٠٠٦
٩٦	﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم ...﴾	٣٦٧
١٠١	﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ...﴾	٦٧٤
١٠٣	﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ...﴾	٧٠٨
١٢٠ـ١٢٦	﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾	٢٢٤
١٢٩	﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ...﴾	٨٧
١٥٧	﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ ...﴾	١٥٧
١٦٩	﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ ...﴾	١٦٤، ٢٤٧
١٧٠	﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ...﴾	٨٣
١٧٢	﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	ذُرِّيَّتَهُمْ ...﴾	٤٣٨، ٦٨٩
١٧٥	﴿واتْلُ عليْهِمْ نبَأَ الَّذي آتيْنَاهُ آياتنا ...﴾	٤٧
١٧٦ـ١٧٧	﴿ولَوْ شِئْنا لرَفَعْنَاهُ بِهَا ولَكنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ ...﴾	٦٧١، ٧٢٠
١٧٩	﴿ولَقَدْ ذَرَأْنَا لجَهَنَّمَ كَثيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ...﴾	٤١٠، ٦٦٥، ٩٠٤
١٨٢ـ١٨٣	﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾	٦٦٨
١٩٩	﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾	٩٨٦
٢٠١	﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ...﴾	٥٠٤
٢٠٥	﴿واذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا ...﴾	٩٢٥

سورة الأنفال

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١	﴿...فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ...﴾	٩٨٨
٢ـ٤	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾	١١٧، ٤٥٥، ٦٣٢
١٠	﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	قُلُوبُكُمْ . . . ﴾	٧٩، ٧٥٤
١٢ ـ ١٣	﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ . . . ﴾	٧٥٣
١٥ ـ ١٦	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا . . . ﴾	١٧٨، ١٠١٢
١٧	﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ . . . ﴾	٧٩
١٨	﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾	٧٥٤
٢١ ـ ٢٣	﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾	٦٧٤
٢٤	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ . . . ﴾	١١٢، ٤١٥، ٨٩١
٢٥	﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً . . . ﴾	٦٧، ٧٥
٢٧	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ . . . ﴾	٩٧، ٩٦٧
٢٨	﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ . . . ﴾	١٨٩، ٤١٤، ٤٢٠
٢٩	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا . . . ﴾	١٠٥٩
٣٠	﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ . . . ﴾	٦٩٤، ٧٤٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٣	﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ...﴾	٧٤٢
٣٤	﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾	٧٠٩
٣٦	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾	٦٩٢
٣٩	﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ...﴾	٩٠٢، ٩٤٧
٤٥ـ٤٧	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ...﴾	٦٠، ٥٠٤، ١٠١١
٤٩	﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ...﴾	٨١٩، ٩١٤
٥٢ـ٥٣	﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ...﴾	٤٢
٥٤	﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ...﴾	٤٧
٥٥ـ٥٧	﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾	٦٩٠
٥٩	﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ...﴾	٧٥٦
٦٠	﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ...﴾	٥٣، ٧٨، ٦١١، ٩٥٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦٦	﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ...﴾	١٧٦
٦٧	﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ...﴾	١٦٥
٧٣	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...﴾	٦٨٧
٧٤	﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾	١٠٦٠
٧٥	﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ...﴾	٩٧٨

سورة التوبة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢	﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ...﴾	٧٥٦
٣	﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ...﴾	٧٥٦
٤	﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا ...﴾	١٧٥
١٣ ـ ١٥	﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ...﴾	٤٧٢، ٧٥٢، ٩٥٤
١٦	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا ...﴾	٩٥٢

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٧	﴿ما كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ...﴾	٢٦٤
٢٠ـ٢٢	﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾	٥١٧، ٦٣٧
٢٤	﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ ...﴾	٤١٧، ٩٤٤
٢٥ـ٢٦	﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ...﴾	٧٥٨
٣٤	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ...﴾	٥٩٠
٣٨	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا ...﴾	١٨٤، ٣٠٠
٤٠	﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ...﴾	٧٥٧
٤١	﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا ...﴾	٩٠١
٤٢ـ٤٣	﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ...﴾	٤٧٣، ٨٦٦
٤٤	﴿لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ...﴾	٨٧٦
٤٥ـ٤٦	﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ...﴾	٨٧٥
٤٧ـ٤٨	﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ...﴾	٨٥٠
٥٠ـ٥١	﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	مُصيبَةٌ... ﴾	٨٥٣
٥٢	﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ... ﴾	٨٥٨
٥٥	﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا ... ﴾	٧٦١
٥٦	﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ... ﴾	٨٦٧ ، ٤٧٤
٦٠	﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ... ﴾	٨٨٣
٦٢ ـ ٦٣	﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ... ﴾	٨٨٣
٦٤ ـ ٦٥	﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ... ﴾	٨٤٩
٦٧	﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾	٨٢٩ ، ٨٢٣
٦٨	﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ... ﴾	٨٨٢ ، ٢٦٨
٧١	﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ... ﴾	٤٦٠ ، ٨٢٩ ، ٩٨٦
٧٢	﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي ... ﴾	٣١٩ ، ٦٤١ ، ١٠٧٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧٣	﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِد الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ . . . ﴾	٤٧٦
٧٤	﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّه مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ . . . ﴾	٢٧٨، ٤٧٨
٧٥-٧٧	﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِه . . . ﴾	٧٢٨، ٨١٥، ٨٧١
٧٩	﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾	٨٤٩
٨١	﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّه . . . ﴾	٢٧٤، ٨٣٢، ٨٧٣
٨٣	﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ . . . ﴾	٤٧٨
٨٤	﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا . . . ﴾	٤٧٩
٨٥	﴿ وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا . . . ﴾	٤٨٠
٨٦-٨٧	﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّه . . . ﴾	٨٧٥
٩٣	﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ . . . ﴾	٨٧٥
١٠٠	﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ . . . ﴾	١٠٧٦
١٠١	﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ . . . ﴾	٨٨٣
١٠٧	﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا . . . ﴾	٤٨٤، ٨٣٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١١٠	﴿ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ . . . ﴾	٨٣٦
١١١	﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ . . . ﴾	١٧٨، ٥٢٨، ٥٧١، ٩٤٦
١١٩	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾	٩٠٢، ٩٦٧
١٢٢	﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً . . . ﴾	٩٦٤
١٢٤ ـ ١٢٥	﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا . . . ﴾	٤٥٦

سورة يونس

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤	﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا . . . ﴾	٢٧٨
٥	﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا . . . ﴾	٤١، ١٤٠
٧ ـ ٨	﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . ﴾	٧١٨، ٧٢٢
١١	﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ . . . ﴾	٧٢٢

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٢	﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا . . . ﴾	٦٦٠
١٣	﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا . . . ﴾	٦٥، ٩١
٢٤	﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ . . . ﴾	٤١٢، ٦٦٢
٢٦	﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ . . ﴾	١٠٨٠
٢٨ ـ ٣٠	﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا . . . ﴾	٧٨٣
٣١ ـ ٣٢	﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ . . . ﴾	٣٣٣
٦٧	﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ . . . ﴾	٣٧٤
٧٠	﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ . . . ﴾	١٩٦
٧٣	﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ . . . ﴾	٩٢
٩٨	﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ . . . ﴾	٢٠١

سورة هود

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١ ـ ٣	﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ . . . ﴾	٢٠٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧	﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . . ﴾	٢٠٤، ٣٨٥
٨	﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ . . . ﴾	٧٩٢
٩ ـ ١١	﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ . . . ﴾	٦٧٨
١٥ ـ ١٦	﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ . . . ﴾	٤٩
١٨	﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ . . . ﴾	٦٤
٢٤	﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ . . . ﴾	٨٩٦
٥٧	﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ . . . ﴾	٩٣
٦١	﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . . . ﴾	١١٧، ٥٣٦، ٩٩٢
٦٥	﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ . . . ﴾	١٩٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٠٣	﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾	٥٩٦
١٠٨	﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ ... ﴾	٥١٧، ٦٢٥، ١٠٤٣
١١٢	﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ... ﴾	٤٣
١١٧	﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ... ﴾	٧٦

سورة يوسف

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧ـ١٠	﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ... ﴾	٢١٨
٢٢ـ٣٥	﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ... ﴾	٢٢١
٣٢ـ٣٥	﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ... ﴾	٢٢٣
٤٠	﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ... ﴾	١٠٤
٥٦ـ٥٧	﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا ... ﴾	٢٢٤، ١٠٢١
٦٧	﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾	١٠٤
٨٧	﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾	٦٧٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٠٩	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم ...﴾	٢٤٨

سورة الرعد

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣ـ٤	﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ...﴾	١٢٢ ، ٣٧٣ ، ٣٩٨
٥	﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا ...﴾	٢٦٦
١١	﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ...﴾	٤٨
١٦	﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾	١٠٤
١٨	﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ ...﴾	٨٠٢
٢٣ـ٢٤	﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ ...﴾	٩٨١
٢٥	﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ...﴾	٦٩١ ، ٧٠٢
٢٦	﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ...﴾	٣٠ ، ١٩٦ ، ٧١٨
٢٨ـ٢٩	﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ...﴾	٥٠٢ ، ٩٠٧ ، ١٠١٣
٣١	﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ...﴾	٧٥٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٢	﴿ وَلَقد استُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلكَ ... ﴾	٧٦٣
٣٣	﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ... ﴾	٦٦٠
٣٤	﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ... ﴾	٢٧٢، ٦٩٥، ٧٥٠
٣٥	﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ... ﴾	٢٥٧، ٣٠٩، ٦٤٥

سورة إبراهيم

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢ـ٣	﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ... ﴾	٧١٩
٧	﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ... ﴾	٥٧
١٣	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا ... ﴾	٧٤٠
١٥ـ١٧	﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ... ﴾	٢٩٢
٢١	﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ... ﴾	٧٨٤
٢٢	﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ ... ﴾	٧٨٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٤ـ٢٥	﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً ... ﴾	٤٩٣
٢٧	﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ... ﴾	٥٥٤، ٥٥٦
٢٨ـ٢٩	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ... ﴾	٢٤٤، ٧٩٣
٣٠	﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ... ﴾	١٩٧
٣٢	﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... ﴾	١٠٨
٣٤	﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ... ﴾	١٠١٩
٤٢ـ٤٣	﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ... ﴾	٧٧٩، ١٠٣٠
٤٩ـ٥٠	﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم ... ﴾	٢٨٦، ٧٨٠

سورة الحجر

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦ـ٨	﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ... ﴾	٢٣٢
١٦	﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾	٦٦٢
١٩ـ٢٠	﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا ... ﴾	١٢٢، ١٥٣، ٣٧٩
٢١	﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾	٤٠٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٢	﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. ﴾	١٢٧، ٣٣١
٢٦ـ٢٩	﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ... ﴾	١٠٨
٣٩ـ٤٠	﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ... ﴾	٦٥٩
٤٥ـ٤٧	﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ... ﴾	٣٠٢
٩١ـ٩٢	﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... ﴾	٦٠٣، ٩٦٨
٩٤ـ٩٥	﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ... ﴾	١٠١٠

سورة النحل

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥ـ٧	﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ... ﴾	١٤٤، ١٤٧
٨	﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ... ﴾	١٩١، ٦٦٢
١٤	﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ... ﴾	١٠٩، ١٣٢، ٣٨٣
١٥	﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ... ﴾	١٢٤
١٦	﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾	٤١
٣٠	﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ... ﴾	٢٤٧، ٥١٠، ٥٤٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٦	﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ... ﴾	٦٣
٣٨ـ٣٩	﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ... ﴾	٣٥٩
٥٣ـ٥٥	﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ... ﴾	١٩٨
٥٨	﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ... ﴾	١١٨، ٩٣٨
٦٦	﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ... ﴾	١٤٥، ٣٣٠
٧٧	﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ ... ﴾	٣٥٥
٧٩	﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ... ﴾	٣٥٥
٨٠	﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ... ﴾	١٤٨، ١٩٣
٨١	﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً ... ﴾	١٢٥
٩٠	﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ... ﴾	٩٨٠، ٩٨٤
٩١	﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ... ﴾	١٧٥
٩٦	﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ... ﴾	٣٠٢، ٤٨٩
٩٧	﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ... ﴾	١٧٩، ٤٨٧، ٤٩٢، ٦٢٥، ١٠٤٣
١٠٦	﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ... ﴾	٤٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٠٧-١٠٨	﴿ذَلكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ...﴾	٦٦٥، ٧١٩، ٩١٥
١١٠	﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ...﴾	١٠٦٢
١١٢	﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ...﴾	٤٧
١١٦-١١٧	﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ ...﴾	١٨٤
١١٨	﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ...﴾	٧١٤
١٢٦	﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ...﴾	٩٨٥
١٢٧	﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ...﴾	٦٩٧

سورة الإسراء

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦	﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ...﴾	٩٧٦
٧	﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ ...﴾	٥١٠
٩	﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ...﴾	٥٥، ٩٦٣، ١٠٤١
١٢	﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ...﴾	٣٩، ٣٧٤
١٥	﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ...﴾	٦٩
١٦	﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ...﴾	٦٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٧	﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾	٦١، ٦٩
١٨	﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ ... ﴾	٦٩٩
٢٠	﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ... ﴾	٤٩، ٥٣٢، ٤٢٥
٢١	﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... ﴾	٥٨١، ٦٣٢
٢٢	﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ... ﴾	٤٥١
٢٣	﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ... ﴾	٥٠٨، ٩٧٤
٢٦	﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ... ﴾	١٧١، ٤٤٧
٣١ـ٣٣	﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ... ﴾	٤٥٢، ٩٣٧، ٩٧٧
٣٤	﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾	٩٦٧
٣٦	﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ... ﴾	١٠٠، ٣٢١، ٦٠٣
٥٥	﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... ﴾	٦٣٣
٦٦	﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ... ﴾	١٣٣
٧٠	﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾	١٠٩، ٩٢٩
٧١ـ٧٢	﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ... ﴾	١٠٩
٧٦	﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ ... ﴾	٧٤٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧٧	﴿سُنَّةَ من قدْ أَرسَلْنا قَبْلَكَ من رُّسُلنا ...﴾	٧٤١
٧٩	﴿ومنَ اللَّيْلِ فتهجَّدْ به نَافلَةً لَّكَ ...﴾	٦٢٠
٨٢	﴿ونُنَزِّلُ من الْقُرْآن ما هُوَ شفاءٌ ورحْمَةٌ لِّلْمُؤْمنين ...﴾	٥٥ ، ١٠٤٧
٩٧	﴿ومَن يهْد اللَّهُ فهُوَ الْمُهْتَد ...﴾	٢٨٣ ، ٧٨٧
٩٨-٩٩	﴿ذلك جزاؤُهُم بأَنَّهُمْ كفَرُوا بآيَاتنَا ...﴾	٢٧٢
١٠٦	﴿وقُرْآنًا فرَقْنَاهُ لتقْرَأَهُ علَى النَّاسِ ...﴾	٩٦٣
١٠٧-١٠٩	﴿إنَّ الَّذين أُوتُوا الْعِلْمَ من قَبْله ...﴾	٩٢٠

سورة الكهف

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧	﴿إنَّا جعَلْنَا ما علَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ...﴾	١٦١ ، ٤٠٧ ، ٤١٤
٢١	﴿وكَذَلك أَعْثَرْنَا علَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ...﴾	٣٤٢
٢٨	﴿واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذين يدْعُونَ ربَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ...﴾	١٦٢
٢٩	﴿إنَّا أَعْتَدْنَا للظَّالمينَ نارًا أَحاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ...﴾	٧٩٩
٣٠	﴿إنَّ الَّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحَات إنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عمَلاً﴾	١٨٠ ، ١٠٧٢
٣٢-٤٤	﴿واضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جعَلْنَا لأَحَدِهِمَا	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	جنّتَيْن ... ﴾	٦٦٧
٤٥	﴿ واضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَياة الدُّنْيا كَماءٍ أَنزَلْنَاهُ ... ﴾	٤١٢
٤٦	﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴾	١٥٧، ١٦٢، ٩٧٦
٤٧ ـ ٤٨	﴿ وحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ... ﴾	٥٩٦
٤٩	﴿ ووُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِين ... ﴾	٧٨٧
٥٣	﴿ ورَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ... ﴾	٧٩٢
٥٩	﴿ وتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ... ﴾	٦٦
٨٣ ـ ٨٨	﴿ ويَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ... ﴾	٩٦٦، ١٠٢٠
١٠٣ـ١٠٤	﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ... ﴾	١٧٠، ٧١٥
١٠٧ـ١٠٨	﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ ... ﴾	٦٤٩
١١٠	﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ... ﴾	١٧٩

سورة مريم

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٩	﴿ وأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ ... ﴾	٢٥٢، ٧٨١
٤١	﴿ واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ... ﴾	٦٣٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥٤ـ٥٥	﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ... ﴾	٢١٦
٥٦	﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ... ﴾	٦٣٥
٧١ـ٧٢	﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا... ﴾	٦١٦
٧٦	﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا... ﴾	١٨٠
٨١ـ٨٢	﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ... ﴾	٧٨٣، ١٠٤٩
٨٥	﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾	٥٩٧
٩٦	﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾	٥١٢
٩٧	﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾	٧٣

سورة طه

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١ـ٤	﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ... ﴾	١٠٤٢
١٤	﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾	٤٢٩
٢٥	﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي... ﴾	٥٠٥
٥٠	﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ... ﴾	٤٩٨
٥٣ـ٥٤	﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا... ﴾	١٢٢، ٣٧٩
٧٠ـ٧٣	﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا... ﴾	٢٢٥
٧٥ـ٧٦	﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ... ﴾	٦٣٢
١٠٩	﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	الرَّحْمَنُ . . .﴾	٦٢١
١٢٣	﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ﴾	٩١١
١٢٤	﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا . . .﴾	٦٦٩، ٧٧٢، ٩٠٨
١٢٧	﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ . . .﴾	٢٧٣، ٧٧٥
١٣٠	﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ . . .﴾	٤٩٦

سورة الأنبياء

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥ـ٨	﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ . . .﴾	٢٣٢
١٦	﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾	٣٦٢
٣٠	﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا . . .﴾	٣٣٣، ٣٦١، ٣٨٦
٣١	﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ . . .﴾	١٢٥
٤٤	﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا . . .﴾	٧٦٠
٤٧	﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . . .﴾	٦٠٦، ٦٠٧، ٧٨٨
٧٣	﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا . . .﴾	٤٥٧
٩٨ـ٩٩	﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ . . .﴾	٧٩٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٠٤	﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا ...﴾	٥٩٧
١٠٥	﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ...﴾	٥٤٣

سورة الحج

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥ـ٧	﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ...﴾	٣٤٩، ٤٠١، ٥٩٣
١٩ـ٢٢	﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم ...﴾	٢٧١، ٨٠٠، ٨٠٦
٢٣	﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...﴾	٣١٥
٢٥	﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ...﴾	٦٩٣
٢٨	﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله ...﴾	١٥١
٣٠	﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له ...﴾	١٥١، ٤٥٥، ٩٤٩
٣٤	﴿ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله ...﴾	١١٣
٣٧	﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ...﴾	١٠٩، ٤٣٠
٣٨ـ٤١	﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا ...﴾	٨١، ٩٠٠، ١٠٢٤
٤٥	﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ...﴾	٦٦
٥١	﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين ...﴾	٧٠١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦٣	﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . . . ﴾	٣٩٧
٦٥	﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ . . . ﴾	١٣٤ ، ٣٦٥
٦٦	﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ . . . ﴾	٢٨
٧٢	﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ . . . ﴾	٦٧٢ ، ٧٣٧ ، ٨٧١

سورة المؤمنون

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١ ـ ١١	﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . . . ﴾	١١٧ ، ٤٢٧
١٢ ـ ١٤	﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ . . . ﴾	١٠٨
١٨ ـ ٢٠	﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ . . . ﴾	٣٨١ ، ٤٠٠
٢١	﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً . . . ﴾	١٤٧ ، ١٤٩
٥٤ ـ ٥٥	﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . . . ﴾	١٩٦ ، ٦٦٦ ، ٥٥٧
٥٧ ـ ٦١	﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . . . ﴾	٩١٢
٧٩ ـ ٨٣	﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ . . . ﴾	٣٥٦ ، ٥٢٥
١٠٠	﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . . . ﴾	٥٥٠
١٠١ ـ ١٠٢	﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ . . . ﴾	٦٠٩
١٠٣ ـ ١٠٤	﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ . . . ﴾	٢٨٥ ، ٤٠٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١١٥	﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ...﴾	٥٤٠

سورة النور

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١١	﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾	٨٣٧، ٨٣٨
٢٤	﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ ...﴾	٧٨٦
٢٥	﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ...﴾	٢٤٥
٣٠ـ٣١	﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ...﴾	٤٣٥
٣٣	﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ ...﴾	١٦٥
٤٥	﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ...﴾	٣٨٩، ٣٩٤
٥١	﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ...﴾	١١٦
٥٥	﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ...﴾	١١٤، ٥٤٣، ١٠٢١
٥٧	﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ...﴾	٦٧٢، ٧٥٥
٦٢	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...﴾	٨٧٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	سورة الفرقان	
١	﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ... ﴾	٩٨٤
٧-١٠	﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ... ﴾	٢٣٣
١٢	﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ... ﴾	٧٩١
١٣	﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ ... ﴾	٧٨٠
١٥-١٦	﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ... ﴾	٤٠٨
١٧-١٨	﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ... ﴾	١٩٩
١٩	﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ... ﴾	١٠٣٠
٢١	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ... ﴾	٧٢٣
٣٤	﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ... ﴾	٨٩٧
٣٥-٤٠	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ... ﴾	٧٢١، ٧٥٤
٤٤	﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ... ﴾	٤١٠، ٥٢٣
٤٥-٤٦	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ... ﴾	١٤٠
٤٨-٤٩	﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ... ﴾	٣٦٣، ٣٩٥
٥٣	﴿ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ... ﴾	١٣٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥٥	﴿ ويَعْبُدُونَ من دُونِ اللّه ما لا ينفعُهُمْ ... ﴾	٤٦٨
٦١	﴿ تبارَكَ الَّذي جعَلَ في السَّماءِ بُرُوجًا وجعَلَ فيها سراجًا ... ﴾	١٤٢
٦٢	﴿ وهُوَ الَّذي جعَلَ اللَّيْلَ والنَّهارَ خلْفَةً ... ﴾	٣٧٤
٦٣	﴿ وعِبادُ الرَّحمنِ الَّذين يمْشُونَ علَى الأَرْضِ هَوْنًا ... ﴾	٢٢٢، ٤٤٢
٦٥ـ٦٦	﴿ والَّذين يقُولُونَ ربَّنا اصْرِفْ عنَّا عذابَ جهَنَّم ... ﴾	٢٤٥، ٢٧٤
٧٢	﴿ وإذَا مرُّوا باللَّغوِ مرُّوا كرامًا ... ﴾	٤٣٠
٧٤	﴿ والَّذين يقولُونَ ربَّنا هبْ لنَا من أَزْواجنا ... ﴾	٥١٥
٧٥ـ٧٦	﴿ أولَئك يُجزَوْنَ الْغُرْفَةَ بما صبرُوا ... ﴾	٢٤٤، ٦٤٢

سورة الشعراء

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤٦ـ٥١	﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجدِينَ ... ﴾	٢٢٥
٧٨ـ٨٢	﴿ الَّذي خلَقَني فهُوَ يهْدِينِ (٧٨) والَّذي هُوَ يُطْعِمُني ويَسْقِين ... ﴾	٤٩٧
١٢٨ـ١٣١	﴿ أَتبْنُونَ بكُلِّ رِيعٍ آيَةً تعْبَثُونَ ... ﴾	٥٤١، ٧٢٥
١٣٩	﴿ فكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ في ذَلكَ لآيَةً ... ﴾	٦٨
١٥١ـ١٥٢	﴿ ولاَ تُطيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ... ﴾	٧٠٢، ٧٠٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٩٢ـ١٩٥	﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . . . ﴾	١٦٨، ٩١٠
٢٠٨ـ٢٠٩	﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ . . . ﴾	٧٠
٢١٣ـ٢٢٠	﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ . . . ﴾	٧٠، ٩٢٢

سورة النمل

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥٦	﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ . . . ﴾	٧٤٠
٦١	﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا . . . ﴾	١٢٢، ١٣٩
٧٠	﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . . . ﴾	٦٩٧
٨٠ـ٨١	﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ . . . ﴾	٨٩٦
٨٨	﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ . . . ﴾	٤٩٨
٩٠	﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ . . . ﴾	٢٨٤

سورة القصص

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤١	﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ ﴾	٤٥٧
٤٣	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	الْقُرُونَ ...﴾	٦٨
٥٠	﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ...﴾	٦٥٤، ١٠٤١
٥٩	﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً ...﴾	٦٦، ٧٤
٦٠	﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...﴾	٣٠٢، ٣٦٩
٦١	﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...﴾	١٩٧
٦٥	﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ...﴾	٩٦٨
٧١-٧٣	﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ...﴾	٤١
٧٦	﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ...﴾	٥٥
٧٧	﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ...﴾	٣٢٢، ٧٠٨، ٩٩٤
٧٨-٨٣	﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي...﴾	١٨٢
٨٣	﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ ...﴾	٤٤٣

سورة العنكبوت

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢-٣	﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	يُفْتَنُونَ . . . ﴾	٨٤، ٢٠٨
٧	﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ . . . ﴾	١٨٠
١٠	﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ . . . ﴾	٨٨٥
١٣	﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ . . . ﴾	٦٩١، ٥٩٨
٢٣	﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي . . . ﴾	٦٦٩، ٦٧٨
٤٥	﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ . . . ﴾	١٧٤، ٩٢٥، ١٠٢٥
٦٣	﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . . . ﴾	٣٩٢
٦٤	﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ . . . ﴾	٣١، ١٥٩، ٧٠٠، ٨٩٢
٦٧ـ٦٨	﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا . . . ﴾	٦٥٤
٦٩	﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . . ﴾	٥٤

سورة الروم

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧	﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . ﴾	٥١، ٤٠٩، ٦٦٣، ٧٦٩
١٢ـ١٣	﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ . . . ﴾	٧٨٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٩	﴿يُخْـرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَـيِّتِ وَيُخْـرِجُ الْمَـيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ...﴾	٣٣٣
٢١	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ...﴾	١٨٥، ٩٧١
٢٤	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ...﴾	٢٩
٣٠	﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ ...﴾	٤٣٧، ٩٩١
٣٣ـ٣٤	﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ...﴾	١٩٨
٣٨	﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ...﴾	٩٨٠
٤٦	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ...﴾	١٣٠، ١٣٤
٤٨	﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ...﴾	١٢٨، ٣٧٧
٥٠	﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ ...﴾	٣٤٩، ٣٧٩

سورة لقمان

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٠	﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ...﴾	١٢٥
١٣	﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾	٦٤
١٤	﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ...﴾	٥٠٩، ٦٧٩
١٧	﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّـلَاةَ وَأْمُـرْ بِالْمَـعْـرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ...﴾	٢٢٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٠	﴿ أَلَمْ ترَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ... ﴾	١٠٨، ٣٦٥
٣١	﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ... ﴾	١٣٤
٣٣	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا ... ﴾	١٦٣، ٥٥٤

سورة السجدة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧ـ٩	﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ... ﴾	١٠٨
١٤	﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ... ﴾	٢٧١
١٥ـ١٦	﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ... ﴾	٤٤٥
١٧	﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ... ﴾	٣٠٤، ٥٣٠، ٦٣٩
١٨ـ٢٠	﴿ فَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ ... ﴾	٢٤٦
٢٣ـ٢٤	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ... ﴾	١٧٧
٢٦	﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ ... ﴾	٦٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

سورة الأحزاب

٤ـ٥	﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم ... ﴾	١٠٣٨
٦	﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ... ﴾	٩٧٨
٩	﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ... ﴾	٧٥٤
١١ـ١٢	﴿ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ... ﴾	٢١٣، ٢٣٣
١٣ـ١٦	﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب ... ﴾	٨٧٣
١٩	﴿ أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك ... ﴾	٨٤٤
٢٢ـ٢٤	﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ... ﴾	٢١٤، ٩٠٢
٢٥	﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ... ﴾	٧٩
٢٦ـ٢٧	﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب ... ﴾	٧٥٨
٣٣ـ٣٤	﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ... ﴾	٩٧٠
٣٥	﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ... ﴾	١٠٦٦
٣٦	﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ... ﴾	١١٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٩	﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ ... ﴾	٨٤، ٩٦٥
٤١-٤٢	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ... ﴾	٥٠٣، ٩٢٦
٥٧	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ... ﴾	٢٧٦
٦٠-٦١	﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ... ﴾	٨١٩، ٨٥٩
٦٢	﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ... ﴾	٣٧، ٤٧٥، ٨٦٠
٦٤	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ... ﴾	٢٦٧
٦٦	﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ ... ﴾	٢٨٥
٧٢-٧٣	﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... ﴾	١١٠

سورة سبأ

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥	﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ... ﴾	٧٠١
١٣	﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ... ﴾	٥٧
١٥-١٩	﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ... ﴾	٧٦٣
٣٣	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ... ﴾	٧٤٦، ٧٨٤، ٧٩٨
٣٥	﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا ... ﴾	٦٦٨
٣٧	﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ ... ﴾	٦٤٢

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٨	﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ . . . ﴾	٧٠١

سورة فاطر

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ . . . ﴾	١٦٣، ٤١٤، ٦٨٠
٧ـ٨	﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ . . . ﴾	٦٥٨
٩	﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا . . . ﴾	٢٩، ١٢٨، ٥٩٣
١٠	﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا . . . ﴾	١٠٤٨
١٢	﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ . . . ﴾	١٣٢، ١٣٤
٢٢	﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ . . . ﴾	٢٨، ٨٩٦
٢٨	﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ . . . ﴾	٥٢، ٩٢١، ٩٦٥
٣٢	﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا . . . ﴾	٦٥، ١٠٦٧
٣٩	﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ . . . ﴾	٩١، ٧٥٠
٤٠	﴿ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا ﴾	٦٨٣
٤٣	﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً . . . ﴾	٣٧، ٦٩٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

سورة يس

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١١	﴿إنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ...﴾	١٠٥٨
١٢	﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ...﴾	٥٢٣
٣١	﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ ...﴾	٦٨
٣٣ـ٣٥	﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ...﴾	٣٨٢
٤١	﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ...﴾	١٣٤، ٣٨٣
٥١ـ٥٢	﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ...﴾	٧٧٨
٥٤ـ٥٩	﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ...﴾	٢٤٦
٦٥	﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ...﴾	٧٨٦
٧٠	﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ...﴾	٢٨، ٩٠٦
٧١ـ٧٢	﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ...﴾	١٤٥، ١٩٣
٧٣	﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ...﴾	١٤٧
٧٨ـ٨٣	﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ...﴾	٣٤٦، ٣٥١

سورة الصافات

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦	﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ...﴾	٦٦٢

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٢	﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ...﴾	٧٨٠، ٧٩١، ٨٩٧
٢٤	﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ...﴾	٤٧٩
٤٥ـ٤٧	﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ...﴾	٣٠٠
٤٨	﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ...﴾	٣١٤
٦٢ـ٦٨	﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ...﴾	٢٨٩
٩٨	﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ...﴾	١٠٠٨
٩٩ـ١١٣	﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ...﴾	٢١٥
١٣٩ـ١٤٨	﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ...﴾	٢٠١
١٧١ـ١٧٣	﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ...﴾	٧٤١، ٩٦٢، ١٠٠٢

سورة ص

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣ـ٤	﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ...﴾	٧٤
٢٦	﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ...﴾	٨٩
٢٧ـ٢٨	﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ...﴾	١٦٨
٢٩	﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ...﴾	٥٥
٣٧ـ٣٨	﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ...﴾	٧٨٠
٥١	﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ ...﴾	٦٤٥
٥٢	﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ...﴾	٣١١، ٣١٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥٥ـ٥٨	﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ...﴾	٢٩٠
٦٠	﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ ...﴾	٢٤٥
٧١	﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾	٩٩٢
٧٢	﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ...﴾	٩٩٢

سورة الزمر

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٩	﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ...﴾	٥٢، ١٠٣٩
١٠	﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ...﴾	١٧٦، ٥١٠
٢٠	﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا ...﴾	٦٤٢
٢١	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ...﴾	٣٨٢
٢٢	﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ...﴾	٥٠٦، ٩٠٧
٢٤	﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ ...﴾	٢٧٩
٢٥	﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ ...﴾	٢٨٠
٢٩	﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ ...﴾	١٦٧
٣٣ـ٣٥	﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ...﴾	١٠٥٨
٤٢	﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ...﴾	٥٢٦
٤٧	﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ...﴾	٢٨٠
٥٤	﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ...﴾	١١٣
٦٢	﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ...﴾	١٠٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦٩	﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم... ﴾	٥٦٩
٧١	﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ... ﴾	٧٩٠
٧٢	﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ ... ﴾	٢٦٩

سورة غافر

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧ـ٩	﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ... ﴾	٩٨١
١٧	﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ... ﴾	٢٤٦
٣٨ـ٤٠	﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ ... ﴾	٢٤٣
٤٥ـ٤٦	﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ... ﴾	٧٧١
٥١ـ٥٢	﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾	٧٧، ٧٥٩، ١٠٠٤، ١٠٣١
٦٠	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ... ﴾	٢٧٥، ٩٢٧
٦٤	﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ... ﴾	١٢٣، ٢٦٩
٦٩ـ٧٢	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ... ﴾	٢٦٥، ٢٨٦، ٧٩٩
٧٩	﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا ... ﴾	١٤٧، ١٥١
٨٠	﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً ... ﴾	١٣٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

سورة فصلت

١٠	﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا . . . ﴾	١٢٥
١٦	﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ . . . ﴾	٢٧٦
١٩ـ٢١	﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ . . . ﴾	٧٨٦
٢٥	﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم . . . ﴾	٦٩٥
٢٨	﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ . . . ﴾	٢٦٣
٣٠	﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا . . . ﴾	٤٤
٣٣	﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ . . . ﴾	٥٦
٣٤	﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ . . . ﴾	٩٨٨
٣٩	﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً . . . ﴾	٣٢٥، ٣٩٦، ٤٠١
٤١ـ٤٢	﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . . . ﴾	١٠٤٨
٤٦	﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ . . . ﴾	٥١٠
٥٣	﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ . . . ﴾	٥٢

سورة الشورى

١٥	﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ . . . ﴾	١٠٣٠
١٧	﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ . . . ﴾	١٠٢٨، ١٠٤٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٧	﴿ ولَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ ... ﴾	٥٥
٣٦	﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴾	٣٠٢
٤٠	﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ... ﴾	٦٤، ٩٨٥
٤٢	﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ ... ﴾	١٠٣٠
٤٧	﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ ... ﴾	١١٣

سورة الزخرف

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٨	﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ... ﴾	٦٨
١٢	﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ ... ﴾	١٣٤، ١٤٧
٢١-٢٤	﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ... ﴾	٦٧٦
٢٥	﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ... ﴾	٦٤
٣١	﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ... ﴾	١٣٨
٣٢	﴿ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ... ﴾	١٥٣
٤٣-٤٤	﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ... ﴾	٨٢
٦٧	﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ... ﴾	٧٨٢
٧٢	﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾	٥٣٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

سورة الدخان

٤٣-٤٩	﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ ...﴾	٢٨٩، ٢٩٤
٥٤	﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ...﴾	٢٥٩، ٦٤٩
٥٦-٥٧	﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ ...﴾	٥٢٧، ٦٤٩

سورة الجاثية

١٢	﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ ...﴾	١٣٥
١٣	﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ...﴾	٣٦٦
١٤-١٥	﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ...﴾	٤٦٥
٢١-٢٢	﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ...﴾	١٦٨، ٣٥٩
٢٣-٢٤	﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ...﴾	٤٠٩، ٦٧٤، ٩١٥
٢٦	﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ ...﴾	٢٨

سورة الأحقاف

٦	﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ...﴾	٧٨٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٥	﴿ ووصَّينا الإنسان بوالديه إحسانًا . . . ﴾	٩٧٥
١٦	﴿ أُولئك الَّذين نتقبَّلُ عنهُمْ أحسن ما عملوا . . . ﴾	٦٠٠
١٩	﴿ ولكلٍّ درجاتٌ ممَّا عملوا وليوفِّيهم أعمالهم . . . ﴾	٥٣١
٢٦	﴿ ولقدْ مكَّنَّاهُمْ فيما إن مكَّنَّاكُمْ فيه . . . ﴾	١٠٠
٢٧	﴿ ولقدْ أهلكْنا ما حولكُم مِّن القُرىٰ . . . ﴾	٦٩، ٧٦٠
٣٣	﴿ أو لمْ يروْا أنَّ اللَّه الَّذي خلق السَّموات والأرض . . . ﴾	٣٤٧
٣٥	﴿ فاصبرْ كما صبر أُولُوا الْعزْمِ من الرُّسُلِ . . . ﴾	٦٧، ٢١٤

سورة محمد

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١	﴿ الَّذين كفرُوا وصدُّوا عن سبيلِ اللَّه أضلَّ أعْمالَهُمْ . . . ﴾	٦٩٣
٢	﴿ والَّذين آمنوا وعمِلُوا الصَّالحات وآمنُوا بما نُزِّل علىٰ مُحمَّد . . . ﴾	١٠٥٧
٤ـ٦	﴿ فإذا لقيتُمُ الَّذين كفرُوا فضرْب الرِّقاب . . . ﴾	٩٥٢، ٩٥٤
٧ـ٨	﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا إن تنصرُوا اللَّه ينصرْكُمْ . . . ﴾	٨٥٨، ١٠٠٢
١٠ـ١١	﴿ أفلمْ يسيرُوا في الأرْضِ فينظرُوا كيْف كان عاقبةُ الَّذين من قبْلهِمْ . . . ﴾	٦٨٥، ٧٠٧
١٢	﴿ إنَّ اللَّه يُدْخلُ الَّذين آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ . . . ﴾	٤١٠، ٦٥٥، ٩٠٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٤	﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله ...﴾	٦٥٨
١٥	﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار ...﴾	٢٥٤، ٢٩٢
٢٤	﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ...﴾	٤٢٩، ٩١٤
٣١	﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ...﴾	٢٠٦
٣٤	﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا ...﴾	٦٩٤

سورة الفتح

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦	﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ...﴾	٢٦٨
	﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون ...﴾	٦٦٠، ٨٧٥
١٢	﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ...﴾	٧٥٥
٢٢	﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء	
٢٩	بينهم ...﴾	٥٤، ٩٨٣، ٩٨٣

سورة الحجرات

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧-٨	﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير ...﴾	٥٠٧، ٦٦١
٩	﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ...﴾	١٠٣٢
١٠	﴿إنما المؤمنون إخوة ...﴾	٩٨٢، ٩٨٨، ٧٩٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١١	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ...﴾	٩٩٠
١٢	﴿وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ...﴾	٩٩٠
١٣	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ...﴾	٩٩٦
١٥	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ...﴾	١١٦، ١٠٥٢

سورة ق

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧ـ٨	﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ...﴾	١٢٣، ١٢٥
١١	﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ...﴾	٢٩
٣٠	﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ ...﴾	٧٩٥
٣٦ـ٣٧	﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ...﴾	٦٩، ٩١٠
٣٨	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ...﴾	٣٤٨

سورة الذاريات

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٧ـ١٨	﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ...﴾	٤٤٥
٢٠ـ٢١	﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ...﴾	٥٢، ٣٧١
٤١ـ٤٢	﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ ...﴾	١٠٠٥
٤٨	﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ...﴾	٣٦١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥٢-٥٣	﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا ... ﴾	٨٤٨
٥٦	﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾	٩٥، ١١١، ٩٦١

سورة الطور

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٣	﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ... ﴾	٧٩٠
٢١	﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ... ﴾	٥٤٨، ٩٨٢
٢٢	﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ... ﴾	٣٠٩
٤٥	﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ... ﴾	٧٧٢
٤٧	﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ... ﴾	٧٧٢

سورة النجم

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٣-١٨	﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ... ﴾	٦٤٧
٢٣	﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ ... ﴾	٦٥٤
٢٦	﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ... ﴾	٦٢١
٣١	﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	أَسَاؤُوا ...﴾	١٦٨
٣٩ـ٤١	﴿وأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ...﴾	٥٢٢

سورة القمر

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦ـ٨	﴿فتولَّ عَنْهُمْ يوم يدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ...﴾	٧٧٨
٩ـ١٦	﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نوحٍ فَكَذَّبُوا عبْدَنَا ...﴾	٧٦٤
٤٧ـ٤٨	﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ...﴾	٢٨٦

سورة الرحمن

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١ـ٤	﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ ...﴾	٥١
٥	﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾	١٤٤
١٩ـ٢١	﴿مرَجَ الْبَحْرَيْنِ يلْتقيان ...﴾	١٣٩
٢٢ـ٢٣	﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ...﴾	١٣٧
٤٣ـ٤٤	﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ...﴾	٧٩٩
٤٦ـ٥١	﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ...﴾	٢٥٦، ٦٤٦
٥٤	﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ...﴾	٣١٧، ٦٤٦
٥٦	﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ...﴾	٣١٢، ٣١٤
٦٤ـ٦٧	﴿مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ...﴾	٢٥٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦٨	﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾	٦٤٤
٧٠ـ٧١	﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ... ﴾	٣١٣
٧٢	﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ... ﴾	٦٤٢

سورة الواقعة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٠ـ١٢	﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ... ﴾	٦٢٦
١٧ـ١٨	﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ... ﴾	٢٦١
٢٠	﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾	٦٤٥
٢٢ـ٢٤	﴿ وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ... ﴾	٢٥٩، ٣١٢
٢٥ـ٢٦	﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ... ﴾	٣٠١
٢٧ـ٣٢	﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ... ﴾	٢٥٧، ٦٢٦، ٦٤٥
٣٢ـ٣٤	﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾	٢٥٧، ٦٤٥
٣٥ـ٣٦	﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ... ﴾	٣١١
٤١ـ٤٨	﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ... ﴾	٢٨١
٤٩ـ٥٠	﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾	٥٩٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥١_٥٦	﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ...﴾	٢٨٩
٥٨_٦٢	﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ...﴾	٣٤٥
٦٨_٧٠	﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾	٣٩٥

سورة الحديد

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤	﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ...﴾	٩٢٢
١٢_١٥	﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ...﴾	٦١٨، ٦٨٢، ٨٨٤
١٦_١٧	﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ...﴾	٩١٦
١٩	﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ...﴾	٦٣٥
٢٠	﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ...﴾	١٥٩، ١٦٢، ٦٧٩
٢١	﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾	٥١٧
٢٣_٢٤	﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ...﴾	٧٣٠
٢٥	﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ...﴾	١٠٠، ٥٣٩، ١٠٢٧

سورة المجادلة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١١	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	فَافْسَحُوا ... ﴾	٥٢
١٤	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ... ﴾	٨٧٩
٢١	﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ... ﴾	٩٦٣، ١٠٠٣
٢٢	﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... ﴾	١٠٧٩

سورة الحشر

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧	﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ... ﴾	٤٢١
٨ ـ ١٠	﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ... ﴾	٤٤، ٤٢٠، ٥١١، ٩٠٠
١١ ـ ١٢	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ ... ﴾	٨٤٠
١٣	﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ... ﴾	٨٤١
١٤	﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ... ﴾	٨٤٣
١٦ ـ ١٧	﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ... ﴾	٨٤٢
١٨	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ... ﴾	٨٢٣
٢٠	﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ... ﴾	١٠٤٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

سورة الممتحنة

١	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ... ﴾	٤٧٠، ٧٣٩
٧ـ٨	﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم ... ﴾	٤٦١
٩	﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ... ﴾	٤٧١
١٢	﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ... ﴾	٩٧٧

سورة الصف

٢ـ٣	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ... ﴾	٨٢٦

سورة الجمعة

١٠	﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ ... ﴾	٩٩، ١١٨، ٥٠٤، ٩٢٦

سورة المنافقون

٣	﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ... ﴾	٨١٥
٤	﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ... ﴾	٨٢١، ٨٤٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٧	﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ... ﴾	٨٣١
٨	﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾	٩٠٠، ١٠٤٩
٩	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ ... ﴾	١٩٠، ٩٧٧
١٠-١١	﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ... ﴾	٥٢٦

سورة التغابن

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٨	﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ... ﴾	١٥٧
١٤	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ ... ﴾	١٨٥، ٤١٥
١٥	﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ... ﴾	١٩٠، ٤١٥، ٩٧٨

سورة الطلاق

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣	﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ... ﴾	٤٩٩، ١٠٣٣
٥	﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ... ﴾	١٠٥٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

سورة التحريم

٦	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ...﴾	٧٩٥، ٩٧٤
٨	﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ...﴾	٦١٨، ١٠٦٣
٩	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ...﴾	٨٢١، ٩٤٢

سورة الملك

١ـ٢	﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ...﴾	٢٠٤، ٣٢٧، ٩٤٠
٧ـ٨	﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ...﴾	٧٩١
١٢	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ...﴾	١٠٦٥
١٥	﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً ...﴾	٩٨، ٥٣٣
٢٠	﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ...﴾	٦٧٨
٢٢	﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ ...﴾	٨٩٧
٣٠	﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ...﴾	٣٨٢

سورة القلم

١	﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾	٥١

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٣	﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ ...﴾	٢٨٠

سورة الحاقة

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦ـ٨	﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ...﴾	١٠٠٦
١٩ـ٢٤	﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ...﴾	٣٠٩، ٦٠٦، ٦٤٦، ١٠٧٣
٢٥ـ٣٢	﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ ...﴾	٧٨٩

سورة المعارج

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١١ـ١٨	﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ ...﴾	٨٠٣
١٩ـ٢٣	﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ...﴾	١٧٤
٤٣ـ٤٤	﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا ...﴾	٧٧٧

سورة نوح

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٦	﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ...﴾	١٤٢

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	سورة المزمل	
٤	﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾	٤٢٩
٥	﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾	٥٠٥
٦	﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا ...﴾	٤٤٦
١٢ـ١٣	﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا ...﴾	٢٧٨
	سورة المدثر	
١١ـ١٧	﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ...﴾	٦٦٧
٣٠	﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾	٢٣٠، ٧٩٧
٣١	﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً ...﴾	٢٣١
٤٨	﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾	٦٢٣
	سورة القيامة	
٢٢ـ٢٣	﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ...﴾	٣٢٠، ٨٠١
٢٤ـ٢٥	﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ...﴾	٢٨٧
٣٦	﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾	٥٤٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

سورة الإنسان

٢	﴿ إنَّا خلقْنا الإِنسانَ من نُّطْفَة أَمْشَاجٍ ... ﴾	٢٣٥
٤	﴿ إنَّا أَعْتَدْنَا للْكافرين سَلاسِلَ ... ﴾	٧٩٨
٦	﴿ عيْنًا يَشْرَبُ بها عبادُ اللَّه... ﴾	٢٥٦
٩	﴿ إنَّما نُطْعمُكُمْ لوجْه اللَّه لا نُريدُ منكُمْ جزاءً ... ﴾	٥١٣
١٣	﴿ مُتَّكئِينَ فيها على الأَرائك ... ﴾	٢٩١
١٤	﴿ ودانيَةً عليْهِمْ ظلالُها ... ﴾	٦٤٦
١٥ـ١٨	﴿ ويُطَافُ عليْهِم بآنيَة مِّن فضَّةٍ ... ﴾	٣٠٥
١٩	﴿ ويطُوفُ عليْهِمْ ولْدانٌ مُّخلَّدُونَ ﴾	٢٦١

سورة المرسلات

٢٧	﴿ رواسِيَ شامخاتٍ ﴾	١٢٣، ١٢٦
٢٩ـ٣٤	﴿ انطلقُوا إلَىٰ ما كُنتُم به تُكذِّبُونَ ... ﴾	٢٨١
٤١ـ٤٤	﴿ إنَّ الْمُتَّقينَ في ظلالٍ وعُيُونٍ ... ﴾	٣٠٩، ٦٤٥

سورة النبأ

٧	﴿ والْجِبالَ أَوْتادًا ﴾	١٢٣، ١٢٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٠ـ١١	﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا...﴾	١٥٣
١٣	﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾	١٤١
٢١ـ٢٦	﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ...﴾	٢٩٠، ٧٢٢
٣١ـ٣٢	﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا...﴾	٢٥٧، ٣١١، ٦٤٤
٣٥	﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا﴾	٣٠١
٤٠	﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾	٧٨١

سورة النازعات

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٠	﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾	٣٦٢
٣٢	﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾	١٢٣
٣٧ـ٣٩	﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ...﴾	٧١٩

سورة عبس

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤٠ـ٤٢	﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ...﴾	٢٨٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

سورة التكوير

٧	﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾	٧٨٠
٨ـ٩	﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ... ﴾	٩٣٨

سورة المطففين

١٤	﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ... ﴾	٨٠٠، ١٠٨٢
١٥	﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾	٣٢١
١٩ـ٢١	﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ... ﴾	٥٥٥
٢٢	﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ... ﴾	٦٢٥
٢٦	﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ... ﴾	٥١٧

سورة الانشقاق

٦	﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ ... ﴾	٥٤٧
٧ـ٨	﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ... ﴾	٦٠٠، ٦٠٥
١٠ـ١٢	﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ... ﴾	٧٨٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	سورة البروج	
١ـ١١	﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ...﴾	٢٢٧
	سورة الأعلى	
٣	﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾	٥٣٧
٩	﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾	٣٣٧
١٦ـ١٧	﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ...﴾	٧١٩
	سورة الغاشية	
٢ـ٧	﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ...﴾	٢٩٣
٨ـ١٢	﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ...﴾	٢٥٦
١٣ـ١٦	﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ...﴾	٣١٦
٢١ـ٢٤	﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ...﴾	٢٨٠
	سورة الفجر	
٦ـ١٤	﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ...﴾	٥٢٥، ٩٢٢

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٧ـ٢٠	﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ... ﴾	٧٢٤
٢٤	﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ... ﴾	٣١
٢٥ـ٢٦	﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ... ﴾	٢٧٣

سورة البلد

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤	﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾	٥٤٧
١١	﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾	٥٥٠

سورة الضحى

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥	﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾	٤٩٦

سورة الشرح

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١ـ٣	﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾	٥٠٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

سورة التين

٤	﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾	١٠٧ ، ٥٣٦

سورة العلق

١ـ٥	﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ...﴾	٥١

سورة القدر

٤	﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ...﴾	١٦٩

سورة البينة

٨	﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ...﴾	٩٢٣، ١٠٧٩

سورة الزلزلة

٦ـ٧	﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ...﴾	٥٣١، ٩٦٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	سورة العاديات	
٨	﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾	١٧٠، ٤١٨
	سورة القارعة	
٦ـ٧	﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ... ﴾	٦٠٩
	سورة التكاثر	
٨	﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾	٦٠٣
	سورة العصر	
١ـ٣	﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ... ﴾	١٨٠، ٤٩٣، ٥٣٦
	سورة الهمزة	
١ـ٤	﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾	٦٦٩، ٧٢٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	سورة الكوثر	
١	﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾	٣٠٥، ٦١٢
	سورة النصر	
١ـ٣	﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ...﴾	١٠١٨

* * *

الفهرس الثاني

فهرس الأحاديث والآثار

طرف الحديث والأثر — رقم الصفحة

- أ -

طرف الحديث والأثر	رقم الصفحة
«آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح...»	٦٢٨
«آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة...»	٦٣٠
«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب...»	٤٣٦، ٨١٢
«أتدرون ما هذه الريح، هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين»	٥٦٠
«اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة...»	٧٣٠
«اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»	١٠٣٨
«أتى النبي ﷺ الصفا، فصعد عليه ثم نادى: «يا صباحاه...»	٧٠
«أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، هذه خديجة...»	٦٤٣
«أثقل الصلاة على المنافقين العشاء والفجر...»	٨٧٠
«اجتنبوا السبع الموبقات...»	١٧٨، ١٠١٢
«إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر...»	١٧١
«إذا أقعد المؤمن في قبره أُتي، ثم شهد أن لا إله إلا الله ...»	٥٥٤
«إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع...»	٥٦٨
«إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمنًا أحفّ به عمله...»	٥٦٦
«إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئًا...»	٣٢٠، ١٠٨٠
«إذا رأيتم أمتي تهاب الظالم أن تقول له إنك ظالم...»	٨٣
«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول...»	٦٢٠، ٦٣٤
«إذا صليتم عليّ فاسألوا الله لي الوسيلة...»	٦٣٤

طرف الحديث والأثر	رقم الصفحة
«إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة...»	٤٣٨
«إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب...»	٧٦
«إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع...»	٥٥٨
«إذا كفّن أحدكم أخاه...»	٩٤٠
«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...»	٤٥٨، ٥٢٢
«إذا نظر أحدكم إلى من فضّل عليه في المال...»	٥١٦
«أذنب عبد ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي...»	١٠٦٥
«أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل...»	٥٧٢
«أسألك خشيتك في الغيب والشهادة...»	١٠٨٢
«أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي...»	٤٥
«أعوذ بك من البخل والكسل...»	٧٣٠
«أعوذ بوجهك...»	٧٤
«أف لك، أف لك...»	٥٦٠
«أقبلنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ حتى إذا كنا بذات الرقاع...»	١٠٠٩
«ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعّف...»	٢٦٩
«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثًا: الإشراك بالله ...»	٤٥٤
«ألا إن ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم...»	١٩١
«ألا وإن في الجسد مضغة...»	٩٠٨
«أليس كلكم ينظر إلى القمر مخليًا به؟...»	٣٥٠
«اللهم اجعل في قلبي نوراً...»	٩٢٠

طرف الحديث والأثر	رقم الصفحة
«اللهم أنت الصاحب في السفر...»	١٠٥
«اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن...»	٥١٣
«اللهم هذا قسمي فيما أملك...»	١٠٣٥
«اللهم يا مصرف القلوب صرّف قلوبنا على طاعتك...»	٩١٧
«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا...»	٨١٧
«أمرت بقرية تأكل القرى يقولون ...»	٨٦٠
«أمرنا رسول الله ـ ﷺ ـ أن نتصدق...»	٤٢١
«انطلق نبي الله ـ ﷺ ـ إلى رضمة من جبل...»	٧٢
«انظروا إلى من هو أسفل منكم...»	٥١٦
«إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده...»	٧٧٣
«إن أخاك محبوس بدينه...»	٥٦٣
«إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق...»	٨٢٨
«أن أعرابيًا أتى النبي ـ ﷺ ـ فقال: إن لي مالاً ووالدًا...»	٥٢٣
«إن أفضل شيء في الميزان يوم القيامة الخلق الحسن»	٦٠٩
«أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة...»	٦٢٨
«أنا أول شفيع في الجنة»	٦٢٤
«إن أول ما يحاسب به الناس يوم القيامة من الصلاة...»	٦٠٤
«إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم...»	٥٢١، ٦٣٨
«إن حوضي لأبعد من أيلة من عدن...»	٦١٣
«إن رسول الله ـ ﷺ ـ خطب الناس يوم النحر...»	٩٢٩

طرف الحديث والأثر	رقم الصفحة
«إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة...»	٢٨٢
«إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة...»	٢٧٣
«إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه...»	٧٧٣
«إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل...»	٣٠٨
«إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين ـ أو قال: مائة ـ سنة...»	٢٥٩
«إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد...»	٢٥٨، ٦٤٦
«إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها»	٢٥٨
«إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرؤوا...»	٢٥٨
«إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة...»	٤٤٤
«أن قومًا خرجوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أحد فرجعوا...»	٨٤٧
«إن الله عز وجل قد أوقع أجره على قدر نيته...»	٥٨٩
«إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها...»	٧٥، ١٠٢٤
«إن الله لايظلم مؤمنًا...»	٧٨٨
«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد...»	٤٦
«إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنَفَه...»	٦٠١
«إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة...»	٣١٩، ١٠٧٥
«إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر...»	٢٢٨

طرف الحديث والأثر	رقم الصفحة
«أن النبي - ﷺ - آخى بين سلمان وأبي الدرداء...»	٩٩٥
«أنها سألت رسول الله - ﷺ - عن الطاعون...»	٢١٠
«أنها سألت رسول الله - ﷺ - عن عذاب القبر...»	٥٥٨
«إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة...»	٧١٥
«إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار...»	٦٣١
«إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها...»	٦٢٩
«أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر...»	٣١٣
«أول ما يقضى بين الناس في الدماء...»	٦٠٤

- الباء -

«بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم»	٥٠
«بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له...»	١٠٢٨
«بينما أنا أسير في الجنة إذ أنا بنهر...»	٣٠٥
«بينما رجل واقف مع رسول الله ...»	٥٩٥
«بينما رجل يمشي بطريق وجد غُصن شوك على الطريق...»	٥٨٧

- التاء -

«تحاجت الجنة والنار...»	٧٩٦
«ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم...»	١٠٢٥
«تزوجوا الودود الولود...»	١٨٦

طرف الحديث والأثر	رقم الصفحة
«تضمن الله لمن خرج في سبيله...»	٥٨٣
«تعس عبد الدينار والدرهم...»	١٩٠
«توضع الموازين يوم القيامة...»	٦٠٨
- ث -	
«ثلاث من السعادة، وثلاث من الشقاوة...»	٥١٥
- ج -	
«جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي - ﷺ -...»	٩٩٤
- ح -	
«حبِّبَ إليّ من الدنيا النساء والطيب»	١٠٤٥
«الحميم الحار الذي يحرق...»	٢٩١
«حوضي مسيرة شهر...»	٦١٥
- خ -	
«الخيل الثلاثة، لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر»	١٩٢
«الخيمة درة مجوّفة طولها في السماء...»	٦٤٣
- د -	
«دخلتُ الجنة فرأيت فيها دارًا أو قصرًا...»	٦٤٣

طرف الحديث والأثر	رقم الصفحة

«دعا رسول الله ـ ﷺ ـ قريشًا فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ...» ٧١
«الدنيا سجن المؤمن...» ٥١٨
«الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة...» ١٨٦

ـ ذ ـ

«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا...» ٤٩٧
«الذهب والفضة والحرير والديباج هي لهم...» ١٠٧١

ـ ر ـ

«رأيت الليلة رجلين أتياني فصعدا بي الشجرة...» ٥٨٢
«رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه...» ٥٦٤
«الرجل على دين خليله...» ٢٦٧

ـ س ـ

«سبعة يظلهم الله في ظله...» ٥٩٨، ١٠٦٣
«سددوا وقاربوا وأبشروا...» ١٠٧٣
«سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة...» ٣٠٤

ـ ض ـ

«ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد...» ٢٨٨

طرف الحديث والأثر	رقم الصفحة

- ط -

«طوبى لمن رآني وآمن بي...»	٦٤٨
«الطهور شطر الإيمان...»	٤٣٢، ٦١٠

- ع -

«عبث رسول الله - ﷺ - في منامه...»	٥٩٤
«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير...»	٤٩٨
«عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط...»	٦٠٢

- ف -

«فاستغفري الله وتوبي إليه...»	١٠٦٤

- ق -

«قد أفلح من أسلم ورُزق كفافًا...»	٤٨٩
«قال الله : أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت...»	٦٣٩
«قام رسول الله - ﷺ - فقال: يا فاطمة بنت محمد...»	٧١
«قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟...»	٤٦٢
«قلت: يا رسول الله ، إني إذا رأيتك طابت نفسي...»	٣٨٩
«قلت: يا رسول الله ، أي الأنبياء كان أول..؟»	٨٩

طرف الحديث والأثر	رقم الصفحة

- ك -

«الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين...»	٨٦٦
«كان أكثر دعاء النبي - ﷺ - ربنا آتنا في الدنيا حسنة...»	١٠٤٥
«كان رسول الله - ﷺ - إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه...»	٥٨٥
«كان عثمان إذا وقف على قبر بكى...»	٥٩٢
«كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح...»	٩٣٩
«كان النبي - ﷺ - يذكر الله على كل أحيانه...»	٩٢٦
«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...»	٩٦٨
«كلمتان خفيفتان على اللسان...»	٦١٠
«كل مسكر حرام، إن على الله عز وجل عهدًا...»	٢٩٢
«كنا عند رسول الله - ﷺ - فضحك...»	٧٨٦

- ل -

«للشهيد عند الله خصال...»	٥٦٥
«لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير...»	٥٧٧
«لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أفضل من هذا...»	٣١٦
«لو أن دلوًا من غساق يهراق في الدنيا...»	٢٩١
«لو أن رصاصة مثل هذه...»	٧٩٨
«لو أن قطرة من الزقوم قطرت...»	٢٩٥

طرف الحديث والأثر	رقم الصفحة
«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم...»	٩٨
«لو دنا مني لاختطفته الملائكة...»	٢٣٠
«ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك...»	٦٠٠
«ليس الغنى عن كثرة العرض...»	١٦٥
- لا -	
«لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد...»	٣٠١
«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا...»	٤٦١
«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع...»	٦٠٤
«لا تمنوا لقاء العدو...»	١٠١٦
«لا حسد إلا في اثنتين...»	٥١٢
«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه...»	٩٨٢
«لا يحل دم امرئ مسلم...»	٩٣٧
«لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة...»	٥٠٣
- م -	
«ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء...»	١٨٦، ٢١٩
«ما تعدّون الشهيد فيكم؟ قالوا: يا رسول الله ...»	٥٨٧
«ما تعدّون الشهيد ؟ قالوا: الذي يقاتل في سبيل الله ...»	٥٨٨
«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء	

طرف الحديث والأثر	رقم الصفحة
على المال...»	١٩١
«ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب»	٦٤٨
«ما لك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن أشترط...»	١٠٦١
«ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة...»	٤٢٨
«ما من عبد يموت له...»	٥٤٨
«ما من مسلم غرس غرسًا فأكل منه إنسان...»	٩١٣
«ما من نبي يمرض إلا خيّر بين الدنيا والآخرة...»	٥٨٥
«ما يصيب المؤمن من وصب...»	٢١٠
«مثل المنافق كمثل الشاة العائرة...»	٨٧٨
«مثلي ومثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم...»	٤٩٠
«مرّ النبي ـ ﷺ ـ على قبرين...»	٥٥٩
«مستريح ومستريح منه...»	٥٤٨
«من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته...»	٧٢٩
«من آمن بالله وبرسوله...»	٤٦٥
«من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة...»	٢٥٤
«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه...»	٧٦٩
«من احتبس فرسًا في سبيل الله إيمانًا بالله ...»	٦١١
«من أنظر معسرًا أو وضع عنه...»	٥٩٩
«من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة...»	٦٤٠
«من توضأ نحو وضوئي هذا...»	٤٢٩

طرف الحديث والأثر	رقم الصفحة
«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده...»	٩٨٦
«من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها...»	٣٧
«من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة...»	١٨٨
«من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده...»	٦٤٠
«من قال حين يسمع النداء...»	٦٢٠
«من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ : بسم الله ...»	٥٠٢
«من قتل دون ماله فهو شهيد...»	٥٨٧
«من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد...»	٥٨٨
«من قتل عصفوراً عبثًا عجّ إلى الله يوم القيامة...»	٥٤٢
«من لبس الحرير في الدنيا فلن يلبسه في الآخرة»	١٠٧١
«من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة...»	٥٦٥
«من يدخل الجنة ينعم لا ييأس...»	٣١٦

- ن -

«نارنا جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم...»	٢٨١
«نحن الآخرون الأولون يوم القيامة...»	٦٢٨

- هـ -

«هو الطهورماؤه والحلال ميتته»	١٣٦

طرف الحديث والأثر — رقم الصفحة

- و -

«والذي نفسي بيده، إنه ليسمع خفق نعالهم...» ٥٦٧
«ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار...» ٨٦٠
«والله ما الدنـيا في الآخرة إلا مـثل ما يجـعل أحدكم إصبـعه هذه...» ٢٩٩
«ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت...» ٣١٤

- ي -

«يأتي قوم يوم القيامة نورهم كنور الشمس...» ٥٩٨
«يأكل أهل الجنة فيها ويشربون...» ١٠٧٤
«يبعث كل عبد على ما مات عليه» ٥٩٤
«يبعث المؤمنون يوم القيامة جردًا...» ٤٩٥
«يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر...» ٢٧٥
«يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ـ ﷺ ـ ...» ٦٢٢
«يخلص المؤمنون من النار...» ٦١٩
«يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار...» ٢٦٥، ٧٩٣
«يردّ عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي...» ٦١٤
«يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا...» ١٠٧٤
«يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين...» ٥٨٣

طرف الحديث والأثر	رقم الصفحة
«يقال لأهل الجنة: يا أهل الجنة...»	٧٩٤
«يقول ابن آدم: ما لي...»	١٩٠
«يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق...»	٤٩
«يوضع الميزان يوم القيامة...»	٦٠٦
«يا أبا ذر، إنك ضعيف...»	٤٣٨
«يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم؟...»	٢٨٣
«يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج...»	٤٣٥
«يا نبي الله يحشر الكافر على وجهه؟...»	٧٨٧

* * *

الفهرس الثالث

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

الاسم	الصفحة
- أ -	
آدم ـ عليه السلام ـ	٨٨
ابن أبي مليكة	٨٨٠
ابن إسحاق	٢١٨، ٤٦٣
ابن الأعرابي	٢٠٤
ابن الأنباري	٥٧٠
ابن جريج	٤٠
ابن جرير الطبري	٤٠، ٢٤١، ٢٦١، ٢٧٠، ٤١٣، ٤٤٧
ابن حزم	٢٦٣
ابن عاشور	١٩٤، ٥٧٤
ابن عباس	٤٠، ٥٨، ٧٠، ٢٩٤، ٣١٠، ٣١١، ٣١٤، ٤٣٣، ٤٥٧، ٤٨٨
ابن العربي	٥٣٨
ابن عمر	٢٨٨
ابن القيم	١٢٩، ٣١٣، ٤٩٩
ابن كثير	٨١، ١٠٧، ١١٠، ١١٩، ١٢٧، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٨، ٢٤٣، ٣٢٧، ٣٦٧، ٦٣٣، ٦٥٧، ٧٨٠
ابن مسعود	٨٨، ١٢٧، ٣١٠
ابن المنظور	١٣٨
أبو إسحاق السبيعي	٢٠٢
أبو حيان	٢٢١
أبو السعود	٢٨٥، ٤٣٢، ٥٢٨
أبو عبيدة	٢٤١
أحمد بن حنبل	٧٦، ٧٧، ٨٩، ١٣٦، ١٧١، ٢٧٥، ٢٩٠، ٢٩٢، ٣٨٩
الآلوسي	٢١٦
- ب -	
البخاري	٧٤، ٢٣١، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٦٤، ٣٠٥

الاسم	الصفحة
- ج -	
الجاحظ	٢٩٥
الجصاص	٥٣٨
- ح -	
حامد صادق	٣٠٦
الحجاج	٥٨
الحسن البصري	٤٤٣
- ر -	
الراغب الأصفهاني	١٣٨، ١٩٧، ٢٥٢، ٦٣٥
- ز -	
الزمخشري	٣١٥، ٣٤٩، ٣٩٩
- س -	
السدي	٤٢
سعيد بن المسيب	٢٠٢
سفيان الثوري	٢٠٣
سيد قطب	١٣٠، ٢١٢، ٣٣٥، ٣٥٠، ٣٦٥، ٤٨٣، ٤٩٦، ٥١٣
- ش -	
الشوكاني	١٣٨، ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٢٨، ٣٤٢، ٣٥١
- ض -	
الضحاك	٤٠، ٣٠٧
- ط -	
الطبرسي	٣٥١
الطحاوي	٢٦٣
- ع -	
عبد بن حميد	٢٤٤
عبد الرحمن السعدي	٢٤٢، ٣١٨، ٢٤٨
عبد الكريم الخطيب	٢٠٠، ٢٤٢، ١٩٨
علي	٢٦٠
عمر بن الخطاب	٤٢١

الاسم	الصفحة
العوفي	٤٠
- غ -	
الغزالي	١٤٥، ٣٣١، ٣٦٢، ٣٨٦، ٨١٣
- ف -	
الفيروز آبادي	٢٠٦
- ق -	
القاسمي	٥٧٣
قتادة	٢٨٦
القرطبي	٢٠٧، ٢٢٧، ٣٦٦، ٥٥٨، ٥٥٨، ٦٥٤
- م -	
مجاهد	٢٤١، ٢٦١، ٤١٥، ٨٦٢
محمد إسماعيل إبراهيم	٣٨
محمد بن كعب	٢٧٤
المراغي	١٣٦، ١٢٧، ٣٣٤، ٣٤٣، ٣٨٠، ٣٦٩
مسلم بن الحجاج	٧١، ٧٢، ٧٥، ١٧٨، ١٨١، ١٩٠، ٢٢٩، ٣١٩، ٣٤٠، ٤٥١، ٩٣٩
المقريزي	٢٣٤
- ن -	
النسفي	٣٥٣، ٣٩٥
نوح	٩١
النووي	٣٤١، ٥١٨، ٥٢٢، ٥٦٤، ٥٩٠، ٦٠١، ٧٧٤، ٧٨٩
- و -	
وهب بن جرير	٥٦٢
- ي -	
يزيد بن هارون	٥٦١

الفهرس الرابع

فهرس المراجع

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
١-	القرآن الكريم		
	- أ -		
٢-	الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين	عبد الله ميرغني محمد صالح	دار الاعتصام
٣-	الابتلاء والمحن في الدعوات	د. محمد عبد القادر أبو فارس	دار الفرقان - الأردن
٤-	الإتقان في علوم القرآن	جلال الدين عبد الرحمن السيوطي	دار الكتاب العلمية - بيروت
٥-	أحكام الجنائز وبدعها	ناصر الدين الألباني	المكتب الإسلامي - بيروت
٦-	الأحكام السلطانية	أبو الحسن على بن محمد الماوردي	دار الكتاب العربي
٧-	الأحكام السلطانية	أبو يعلى الحنبلي	
٨-	أحكام القرآن	أبوبكر محمد بن عبد الله ابن العربي	دار الكتب العلمية بيروت

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
٩ ـ	إحياء علوم الدين	أبو حامد محمد بن محمد الغزالي	لجنة نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٣٥٦
١٠ ـ	الأخلاق الإسلامية وأسسها	عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني	دار القلم ـ بيروت
١١ ـ	إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول	محمد بن علي الشوكاني	الحلبي ـ مصر
١٢ ـ	الأساس في التفسير	سعيد حوى	دار السلام
١٣ ـ	الأساس في السنة وفقهها ـ العقائد الإسلامية ـ	سعيد حوى	دار السلام
١٤ ـ	أسباب نزول القرآن	أبو حسن علي الواحدي	دار الكتب العلمية بيروت
١٥ ـ	استخلاف الإنسان في الأرض	د. فاروق أحمد دسوقي	دار الدعوة
١٦ ـ	الإسلام شريعة الحياة	توفيق علي وهبة	دار اللواء
١٧ ـ	الإسلام عقيدة وشريعة	محمود شلتوت	دار القلم ـ القاهرة
١٨ ـ	أسلوب السخرية في القرآن الكريم	د. عبد الحليم حفني	الهيئة المصرية العامة

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
			للكتاب ١٩٨٧
١٩ ـ	أصول الدعوة	د. عبد الكريم زيدان	دار الوفاء
٢٠ ـ	إطلالة على عقيدة البعث في الإسلام	د. عبد الحميد علي عز العرب	دار المنار
٢١ ـ	الإعجاز العلمي في الإسلام	محمد كامل عبد الصمد	الدار المصرية اللبنانية، ط: ٢
٢٢ ـ	إعلام الموقعين عن رب العالمين	محمد بن قيم الجوزية	ط: بيروت
٢٣ ـ	الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول	عبد الحليم الجندي	دار الكتاب العربي ـ القاهرة
٢٤ ـ	أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع	عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني	دار القلم ـ دمشق
٢٥ ـ	الإنسان في القرآن الكريم	محمد الشيخ عايد طبيشان	الدار الوطنية ـ الرياض
٢٦ ـ	الإنسان في القرآن	عبد الكريم الخطيب	دار الفكر العربي

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
٢٧ـ	الإنسان في الكون بين القرآن والعلم	د. عبد العليم عبد الرحمن خضر	عالم المعرفة
٢٨ـ	الإنسان وجوده وخلافته	د. عبد الرحمن المطرودي	مكتبة وهبة
٢٩ـ	أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل	محمد بن أبي بكر الرازي	دار الفكر
٣٠ـ	أنوار التنزيل وأسرار التأويل	ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي	مكتبة الجمهورية
٣١ـ	أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية	د. علي بن نفيع العلباني	دار طيبة ـ الرياض
٣٢ـ	الإيمان والحياة	د. يوسف القرضاوي	مؤسسة الرسالة
	ـ ب ـ		
٣٣ـ	البحر المحيط	أبو حيان	ـ مطبعة السعادة ـ مطبعة النصر الحديثة بالرياض
٣٤ـ	البداية والنهاية	ابن كثير	دار الفكر
٣٥ـ	البرهان في علوم القرآن	بدر الدين محمد بن عبد السلام الزركشي	دار المعرفة ـ بيروت

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
٣٦ـ	بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز	مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي	ـ الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ المكتبة العلمية ـ بيروت
٣٧ـ	تأويل مشكل القرآن	ابن قتيبة	دار التراث ـ القاهرة
٣٨ـ	تاريخ الإسلام السياسي	د. حسن إبراهيم	
٣٩ـ	تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي	أبو العلي محمد المباركفوري	مكتبة ابن تيمية
٤٠ـ	تحقيق تفسير مجاهد	عبد الرحمن الطاهر السورتي	المنشورات العلمية ـ بيروت
٤١ـ	تحقيق المسند للإمام أحمد	أحمد محمد شاكر	دار المعراج الدولية الرياض

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
٤٢ ـ	التخويف من النار والتعريف بدار البوار	ابن الجوزي	المكتبة العلمية ـ بيروت
٤٣ ـ	التخويف من النار والتعريف بدار البوار	ابن رجب الحنبلي	مكتبة دار البيان، ط: ١
٤٤ ـ	التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة	شمس الدين أبو عبد الله القرطبي	المكتبة القيمة
٤٥ ـ	تربية الأولاد في الإسلام	عبد الله ناصح علوان	دار السلام
٤٦ ـ	التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي	عبد القادر عودة	مؤسسة الرسالة
٤٧ ـ	التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان	عثمان جمعة	دار الكلمة الطيبة
٤٨ ـ	تفسير أبي السعود	أبو سعود محمد العمادي	دار إحياء التراث العربي
٤٩ ـ	تفسير أحكام القرآن	الجصاص	
٥٠ ـ	تفسير الآيات الكونية	د. عبد الله شحاتة	دار الاعتصام
٥١ ـ	تفسير البغوي		

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
	(معالم التنزيل)	البغوي	دار الطيبة
٥٢ـ	تفسير التحرير والتنوير	محمد طاهر بن عاشور	الدار التونسية
٥٣ـ	التفسير الحديث	محمد عزة دروزة	عيسى البابي الحلبي
٥٤ـ	تفسير الرازي المسمى بـ «أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غريب آي التنزيل»	محمد بن أبي بكر الرازي	دار الفكر
٥٥ـ	تفسير روح المعاني	الآلوسي	دار الفكر
٥٦ـ	تفسير سورة فصلت	د. محمد صالح مصطفى	دار النفائس
٥٧ـ	تفسير غريب القرآن	أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة	دار الكتب العلمية ـ بيروت
٥٨ـ	تفسير فتح القدير	الشوكاني	دار الفكر
٥٩ـ	تفسير القاسمي	محمد جمال الدين القاسمي	عيسى البابي الحلبي ـ دار الفكر
٦٠ـ	تفسير القرآن الجليل	أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي	ـ المكتبة الأموية ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
٦١ـ	تفسير القرآن العظيم	ابن كثير	دار القلم
٦٢ـ	التفسير القرآني للقرآن	عبد الكريم الخطيب	دار الفكر العربي
٦٣ـ	التفسير القيم	ابن القيم	مطبعة السنة المحمدية
٦٤ـ	التفسير الكاشف	محمد جواد مغنيّة	دار العلم للملايين ـ بيروت
٦٥ـ	التفسير الكبير	الفخر الرازي	دار الكتب العلمية ـ طهران دار الكتب العلمية بيروت
٦٦ـ	تفسير الكشاف	أبو القاسم جار الله الزمخشري	دار الفكر
٦٧ـ	تفسير مجاهد	أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي	مجمع البحوث الإسلامية (باكستان)
٦٨ـ	تفسير المراغي	أحمد مصطفى المراغي	دار الفكر
٦٩ـ	التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج	د. وهبة الزحيلي	دار الفكر
٧٠ـ	تفسير النووي مراح لبيد	محمد نووي الجاوي	دار الفكر
٧١ـ	التفسير الواضح	محمد محمود مجازي	مطبعة الاستقلال الكبرى القاهرة
٧٢ـ	تقريب التهذيب	ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الوهاب عبد الطيف	دار المعرفة ـ بيروت

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
٧٣ـ	تلبيس إبليس	ابن الجوزي	
٧٤ـ	التلخيص في القراءات الثمن	أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري، دراسة وتحقيق محمد حسن موسى	الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن جدة
٧٥ـ	تنزيه القرآن عن المطاعن	عماد الدين أبو الحسن عبد الجبار	المطبعة الجمالية القاهرة
٧٦ـ	تنوير المقباس من تفسير ابن عباس	الفيروز آبادي	مطبعة الاستقامة
٧٧ـ	تهذيب سيرة ابن هشام	عبد السلام هارون	دار الفكر ـ دمشق
٧٨ـ	تهذيب التهذيب	أحمد بن علي بن حجر العسقلاني	دار المعارف النظامية
٧٩ـ	تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان	عبد الرحمن السعدي	الرئاسة العامة لإدارة البحوث
	ـ ث ـ		
٨٠ـ	الثروة في ظل الإسلام	البهي الخولي	ط: ٣ (١٣٩١هـ)، بدون ذكر اسم المطبعة

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
	- ج -		
٨١ـ	جامع الأصول في أحاديث الرسول	ابن الأثير الجزري	مكتبات الحلواني والملاح ـ دمشق
٨٢ـ	جامع البيان عن تأويل آي القرآن	ابن جرير الطبري	ـ دار المعارف بمصر
٨٣ـ	جامع البيان عن تأويل آي القرآن	ابن جرير الطبري، تحقيق أحمد شاكر	ـ مكتبة الباز مصطفى البابي الحلبي
٨٤ـ	الجامع الصحيح (صحيح مسلم)	الإمام مسلم	دار الكتب العلمية
٨٥ـ	الجامع لأحكام القرآن	القرطبي	الشعب
	- ح -		
٨٦ـ	حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح	ابن قيم الجوزية	مكتبة محمد علي صبيح ـ القاهرة
٨٧ـ	حاشية الاستذكار لابن عبد البر	د. عبد المعطي أمين قلعجي	ـ دار قتيبة ـ دمشق

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
			ـ دار الوعي ـ القاهرة
٨٨ ـ	الحركة العسكرية للرسول الأعظم في كفتي الميزان	العميد الركن سيف الدين آل يحيى	الدار العربية للموسوعة
٨٩ ـ	الحكمة في مخلوقات الله	أبو حامد الغزالي	دار إحياء العلوم ـ بيروت
	ـ د ـ		
٩٠ ـ	الدار القرار في البيان القرآني	د. حامد صادق قنيني	دار الاعتصام
٩١ ـ	الدر المنثور في التفسير بالمأثور	جلال الدين السيوطي	دار الكتب العلمية بيروت
٩٢ ـ	الدعوة والإنسان	د. عبد الله يوسف الشاذلي	المكتبة القومية الحديثة
٩٣ ـ	ديوان الأعشى الكبير	ميمون بن قيس الأعشى	المكتب الشرقي ـ بيروت
٩٤ ـ	الذريعة إلى مكارم الشريعة	الراغب الأصفهاني	دار الوفاء ـ المنصورة
٩٥ ـ	الذيل على طبقات		

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
	الحنابلة لابن رجب	أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين	دار المعارف ـ بيروت
	ـ ر ـ		
٩٦ ـ	رحلة الخلود	حسن أيوب	دار الندوة الجديدة ـ بيروت
٩٧ ـ	الروح	ابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق عادل عبد المنعم	مكتبة القرآن القاهرة
٩٨ ـ	الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام	عبد الرحمن السهيلي	دار الكتب الحديثة
	ـ س ـ		
٩٩ ـ	سلسلة الأحاديث الصحيحة	محمد ناصر الدين الألباني	المكتب الإسلامي
١٠٠ ـ	سنن أبي داود	الإمام أبو داود السجستاني	دار الحديث ـ بيروت
١٠١ ـ	سيرة ابن هشام	أبو محمد عبد الملك بن هشام	ـ مطبعة الحلبي، ط: ٢ ـ مطبعة الحاج عبد السلام
١٠٢ ـ	سير أعلام النبلاء	شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي	مؤسسة الرسالة

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
١٠٣-	السيرة النبوية	ابن كثير	مطبعة عيسى الحلبي
١٠٤-	السيرة النبوية دروس وعبر	د. مصطفى السباعي	المكتب الإسلامي
	- ش -		
١٠٥-	شذرات الذهب في أخبار من ذهب	ابن العماد الحنبلي	دار إحياء التراث العربي
١٠٦-	شرح الأربعين حديثا النووية	ابن دقيق العيد	طبع على نفقة السيد حسن شربتلي
١٠٧-	شرح السنة	الإمام البغوي، تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط	المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية
١٠٨-	شرح العقيدة الطحاوية	محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي	نشر المكتب الإسلامي بيروت
	- ص -		
١٠٩-	صحيح البخاري	الإمام البخاري	المكتبة الإسلامية - إستانبول

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
١١٠-	صحيح سنن ابن ماجه	ناصر الدين الألباني	مكتب التربية العربي
١١١-	صراع المذهب والعقيدة في القرآن	عبد الكريم غلاب	الدار العربية للكتاب
١١٢-	صراع مع الملاحدة حتى العظم	عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني	دار القلم - دمشق، ط: ٥
١١٣-	صوار الكواكب الثمانية والأربعين	أبو الحسن عبد الرحمن الرازي	مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط: ١
	- ط -		
١١٤-	طبقات المفسرين	شمس الدين محمد بن علي الداوودي	دار الكتب العلمية - بيروت
١١٥-	الطبيعة في القرآن الكريم	د. كاصد ياسر الزيدي	دار الرشيد
١١٦-	طريق الدعوة في ظلال القرآن	أحمد فائز	مؤسسة الرسالة
١١٧-	طريق الهجرتين وباب السعادتين	ابن قيم الجوزية	دار الوطن

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
	- ظ -		
١١٨-	الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم	نذير حمدان	دار المنارة - جدة، ط: ١
١١٩-	ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ	عد الرحمن حسن حبنكة الميداني	دار القلم - دمشق
	- ع -		
١٢٠-	العقوبة في الفقه الإسلامي في القرآن الكريم	محمد أبو زهرة	دار الفكر العربي
١٢١-	عقيدة التوحيد في القرآن الكريم	د. محمد أحمد ملكاوي	دار ابن تيمية
١٢٢-	على طريق الهجرة	حسن فتح الباب	منشورات المكتبة العصرية - بيروت
١٢٣-	العلاقات العامة والخاصة في الإسلام	د. يوسف محمود عبد المقصود، ود. فريد واصل، ود. محمد عبد اللطيف	دار المعارف - دار الكتاب الجامعي

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
١٢٤ـ	العلم يدعو للإيمان	اكرسي موريسون، ترجمة محمود صالح الفلكي	مكتبة النهضة المصرية
١٢٥ـ	العمدة في غريب القرآن	مكي بن أبي طالب، شرح وتعليق يوسف عبد الرحمن	مؤسسة الرسالة
١٢٦ـ	عون المعبود شرح سنن أبي داود	أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي	مكتبة ابن تيمية
١٢٧ـ	عيون الأخبار	ابن قتيبة	ــــ
	ـ غ ـ		
١٢٨ـ	غرائب القرآن ورغائب الفرقان	نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري	مطبعة مصطفى الحلبي
١٢٩ـ	غزوة الأحزاب	محمد أحمد باشميل	دار الكتاب ـ بيروت
١٣٠ـ	الغيبيات في ضوء السنة	د. محمد أحمد همام	مطبعة دبي
	ـ ف ـ		
١٣١ـ	فتح الباري بشرح		

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
	صحيح البخاري	ابن حجر العسقلاني	دار المعرفة
١٣٢ـ	الفتح الرباني	أحمد عبد الرحمن البنا	دار إحياء التراث
١٣٣ـ	الفضائل الخلقية في الإسلام	د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم	دار العلوم
١٣٤ـ	فقه السيرة	د. محمد سعيد رمضان البوطي	دار الفكر ـ بيروت
١٣٥ـ	الفكر المادي في ميزان الإسلام	د. صابر طعيمة	مكتبة المعارف ـ الرياض
١٣٦ـ	فلسفة الحياة الروحية	د. مقداد يالجن	دار علم الكتب، ط: ٢
١٣٧ـ	في ظلال القرآن	سيد قطب	دار الشروق
	ـ ق ـ		
١٣٨ـ	قاموس القرآن	الفقيه الدامغاني	دار العلم ـ بيروت
١٣٩ـ	قاموس المحيط	الفيروز آبادي	مكتبة مصطفى البابي الحلبي
١٤٠ـ	القرآن والكون	د. محمد عبد الله الشرقاوي	مكتبة الزهراء ـ القاهرة
١٤١ـ	القرآن يتحدى	أحمد عز الدين عبد الله	

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
		خلف الله	مطبعة السعادة
١٤٢ـ	القيادة والجندية	د. محمد السيد الوكيل	دار الوفاء
	ـ ك ـ		
١٤٣ـ	كبرى اليقينات الكونية	د. محمد سعيد بوطي	دار الفكر بيروت
١٤٤ـ	كتاب الكبائر	شمس الدين الذهبي	المكتبة الثقافية بيروت
	ـ ل ـ		
١٤٥ـ	لسان العرب	ابن منظور المصري	دار صادر
١٤٦ـ	لفتات علمية	يعقوب صروف	الدار السعودية
١٤٧ـ	لوامع الأنوار البهية	السفاريني	طبعة دولة قطر
	ـ م ـ		
١٤٨ـ	الماء والحياة بين العلم والقرآن	د. عبد العليم عبد الرحمن خضر	الدار السعودية
١٤٩ـ	مباحث في إعجاز القرآن	د. مصطفى مسلم	دار المنارة ـ جدة
١٥٠ـ	مباحث في علوم		

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
	القرآن	مناع القطان	مكتبة المعارف
١٥١-	مجلة أم القرى	ـــــ	ـــــ
١٥٢-	مجمع البيان في تفسير القرآن	أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي	دار الحياة - بيروت
١٥٣-	مجموعة التوحيد	جمع من أئمة أهل العلم	دار الإفتاء بالمملكة العربية السعودية
١٥٤-	مجموعة الفتاوى	ابن تيمية، جمع عبد الرحمن الحنبلي	دار عالم الكتب
١٥٥-	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز	ابن عطية، تحقيق وتعليق عبد الله الأنصاري والسيد عبد العال، ومحمد الشافعي	طبع أمير دولة قطر
١٥٦-	مختار الصحاح	الرازي	دار الكتاب العربي
١٥٧-	مختصر منهاج القاصدين	ابن قدامة المقدسي	دار المعرفة بيروت - لبنان
١٥٨-	مدارج السالكين	ابن قيم الجوزية	ـــــ
١٥٩-	المزهر	السيوطي	دار إحياء الكتب العربية
١٦٠-	المستدرك على		

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
	الصحيحين	الإمام الحاكم أبو عبد الله محمد	حيدر آبار ـ الهند
١٦١ـ	مسند الإمام أحمد	الإمام أحمد بن حنبل	دار الفكر
١٦٢ـ	مشاهد القيامة في الحديث النبوي	د. أحمد محمد عبد الله العلي	دار الوفاء ـ المنصورة
١٦٣ـ	مشاهد القيامة في القرآن	سيد قطب	دار الشروق
١٦٤ـ	مشكاة المصابيح	الخطيب التبريزي	المكتب الإسلامي ـ دمشق
١٦٥ـ	المصباح المنير	أحمد بن علي المقري	المطبعة العثمانية ـ القاهرة
١٦٦ـ	معالم الخلافة	القلقشندي	ــــ
١٦٧ـ	معالم سطح الأرض	د. جودة حسنين جودة	بيروت
١٦٨ـ	معالم القرآن في عوالم الأكوان	أحمد محيي الدين العجوز	دار الندوة الجديدة
١٦٩ـ	مصادر أسماك العالم	ويلبرت ماكلويد، ترجمة ميشيل تكلا	القاهرة
١٧٠ـ	معجم الأفعال المتعدية بحرف	موسى بن محمد الأحمدي	دار العلم للملايين

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
١٧١-	المعجم الأوسط	الطبراني، تحقيق د. محمود الطحان	مكتبة المعارف
١٧٢-	معجم البلدان	ياقوت الحموي	دار الكتب العلمية-بيروت
١٧٣-	معجم الصحاح، تاج اللغة العربية	إسماعيل الجوهري	دار العلم للملايين
١٧٤-	معجم المؤلفين	عمر رضا كحالة	مؤسسة الرسالة
١٧٥-	معجم متن اللغة	أحمد رضا	——
١٧٦-	المعجم المفهرس لألفاظ الحديث	د أي. ونسنك	مطبعة بريل
١٧٧-	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن	محمد فؤاد عبد الباقي	المكتبة الإسلامية-تركيا
١٧٨-	معجم مقاييس اللغة	ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون	دار الكتب العلمية طهران
١٧٩-	المعجم الموضوعي لآيات القرآن	صبحي عبد الرؤوف	دار الفضيلة
١٨٠-	المعجم الوسيط	أحمد الزيات وآخرون	المكتبة العلمية
١٨١-	مفتاح دار السعادة	ابن القيم	دار الكتب العلمية

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
١٨٢-	مفتاح كنوز السنة	محمد فؤد عبد الباقي	لاهور
١٨٣-	المفردات في غريب القرآن	الراغب الأصفهاني	دار المعرفة
١٨٤-	مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون	مكتبة بيروت
١٨٥-	مقدمة في ظاهرة التغيير	د. إبراهيم عباس	مكتبة الصفدي
١٨٦-	الملل والنحل	الشهرستاني، تحقيق عبد العزيز الوكيل	طبعة الحلبي
١٨٧-	المنافقون في القرآن الكريم	د. محمد يوسف عبد بن حسن	دار التوزيع والنشر الإسلامية
١٨٨-	المنافقون في القرآن الكريم	د. عبد العزيز عبد الله الحميدي	دار المجتمع
١٨٩-	المنهج الأسعد في ترتيب أحاديث مسند الإمام أحمد	عبد الله ناصر رحماني	دار طيبة
١٩٠-	المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم	د. عبد العليم عبد	

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
		الرحمن خضر	الدار السعودية
١٩١ـ	منهج التربية الإسلامية	محمد قطب	دار الشروق
١٩٢ـ	منهاج السنة النبوية	ابن تيمية	مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة
١٩٣ـ	الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية	محماس بن عبد الله الجلعود	دار اليقين ـ المنصورة
١٩٤ـ	موسوعة أطراف الحديث النبوي	أبو هاجر محمد السعيد زغلول	عالم التراث بيروت
١٩٥ـ	موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية	د. أحمد شلبي	مكتبة النهضة المصرية
١٩٦ـ	الموسوعة في علوم الطبيعة	إدوار غالب	دار المشرق ـ بيروت
١٩٧ـ	ميزان العمل	الغزالي، تحقيق سليمان دنيا	دار المعارف
	ـ ن ـ		
١٩٨ـ	نظم الدرر في تناسب الآيات والسور	برهان الدين أبي الحسن	

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
		إبراهيم البقاعي	دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة، ط: ٢
١٩٩ـ	النهاية في غريب الحديث والأثر	مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير	ـ المكتبة الإسلامية ـ دار الفكر
	ـ هـ ـ		
٢٠٠ـ	الهجرة النبوية	د. محمد عبد القادر أبو فارس	دار الفرقان
	ـ و ـ		
٢٠١ـ	الوسائل المفيدة للحياة السعيدة	عبد الرحمن بن ناصر السعدي	مطبعة جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية
	ـ ي ـ		
٢٠٢ـ	اليوم الآخر في ظلال القرآن	أحمد فائز	الشركة المتحدة ـ بيروت
٢٠٣ـ	يوم الفزع الأكبر، مشاهد يوم القيامة		

رقم	الكتاب	المؤلف	المطبعة
	وأهوالها	القرطبي، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم	مكتبة القرآن ـ القاهرة

❁ ❁ ❁

الفهرس الخامس

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع **رقم الصفحة**

المقدمة ٧

تمهيد في معنى الحياة ٢٧

الباب الأول : حقيقة الحياة ٣٣

الفصل الأول : حقيقة الحياة الدنيا ٣٥

المبحث الأول: سنن الله تعالى في الحياة الدنيا ٣٧

المبحث الثاني: استخلاف الله للإنسان في الحياة الدنيا ٨٦

المبحث الثالث: تمكين الله للإنسان في الحياة الدنيا ١١٩

المبحث الرابع: قيمة الحياة الدنيا وما فيها ١٥٦

المبحث الخامس: متاع الحياة الدنيا ١٨٣

المبحث السادس: الابتلاء في الحياة الدنيا ٢٠٤

الفصل الثاني : حقيقة الحياة الآخرة ٢٣٧

المبحث الأول: وصف الحياة الآخرة في القرآن الكريم ٢٤١

المبحث الثاني: خلود الحياة الآخرة ٢٥٢

المبحث الثالث: عذاب الحياة الآخرة ٢٧٢

المبحث الرابع: نعيم الحياة الآخرة ٢٩٧

الفصل الثالث : الحياة دليل القدرة الإلهية ٣٢٣

المبحث الأول: في أن الله تعالى مبدع الحياة ٣٢٧

المبحث الثاني: في البرهان الحسي على إعادة الحياة ٣٣٨

الموضوع	رقم الصفحة

المبحث الثالث: حياة الأرض ٣٦٠
المبحث الرابع: نشأة الحياة ٣٨٥
الباب الثاني: أنواع الحياة ٤٠٣
الفصل الأول: حياة المؤمنين في الدنيا ٤٠٥
المبحث الأول: نظرة المؤمنين إلى الحياة الدنيا ٤١٢
المبحث الثاني: صفات المؤمنين في الحياة الدنيا ٤٢٧
المبحث الثالث: موقف المؤمنين من الكافرين والمنافقين في الحياة الدنيا ٤٦٠
المبحث الرابع: حياة المؤمنين الطيبة وسبيلها ٤٨٧
المبحث الخامس: سعي المؤمنين في الحياة الدنيا للآخرة ومقتضياته ٥١٩
الفصل الثاني: حياة المؤمنين في الآخرة ٥٤٥
المبحث الأول: حياة المؤمنين في البرزخ ٥٥٠
المبحث الثاني: حياة الشهداء ٥٦٩
المبحث الثالث: حياة المؤمنين في منازل يوم القيامة ٥٩٢
المبحث الرابع: حياة المؤمنين في الجنات ٦٢٥
الفصل الثالث: حياة الكافرين في الدنيا ٦٥١
المبحث الأول: نظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا ٦٥٦
المبحث الثاني: صفات الكافرين في الحياة الدنيا ٦٧٣
المبحث الثالث: سعي الكافرين في الحياة الدنيا ومقتضياته ٦٩٩

الموضوع	رقم الصفحة
المبحث الرابع: حرص الكافرين على الحياة الدنيا ووسائلهم في ذلك	٧١٦
المبحث الخامس: عداوة الكافرين للمسلمين في الحياة الدنيا ووسائلهم في ذلك	٧٣٥
المبحث السادس: تعذيب الكافرين في الحياة الدنيا	٧٤٩
الفصل الرابع: حياة الكافرين في الآخرة	٧٦٧
المبحث الأول: حياة الكافرين في البرزخ	٧٧١
المبحث الثاني: حياة الكافرين في منازل يوم القيامة	٧٧٧
المبحث الثالث: حياة الكافرين في النار	٧٩٣
الفصل الخامس: حياة المنافقين في الدنيا والآخرة	٨٠٧
المبحث الأول: النفاق وخطورته في الحياة	٨١١
المبحث الثاني: ولاء المنافقين بعضهم لبعض في الحياة الدنيا	٨٢٩
المبحث الثالث: عداوة المنافقين للمؤمنين في الحياة الدنيا	٨٤٤
المبحث الرابع: نماذج من حياة المنافقين الدنيوية	٨٦٢
المبحث الخامس: حياة المنافقين في النار	٨٨٢
الفصل السادس: أنواع أخرى للحياة	٨٨٩
المبحث الأول: الحياة الإيمانية	٨٩٤
المبحث الثاني: الحياة القلبية	٩٠٦
المبحث الثالث: الحياة في القصاص	٩٢٩

الموضوع	رقم الصفحة
المبحث الرابع: الحياة في سبيل الله	٩٤٢
الباب الثالث : الغاية من الحياة وثمراتها	٩٥٧
الفصل الأول : الغاية من حياة الإنسان	٩٦١
الفصل الثاني : ثمرات الحياة في الدنيا والآخرة في ضوء القرآن الكريم	٩٩٩
المبحث الأول: النصر من الله	١٠٠٢
المبحث الثاني: التمكين في الأرض	١٠٢٠
المبحث الثالث: إقامة العدل	١٠٢٧
المبحث الرابع: حياة السعادة	١٠٤١
المبحث الخامس: حياة العزة	١٠٤٨
المبحث السادس: تكفير السيئات والمغفرة من الله	١٠٥٧
المبحث السابع: دخول الجنة	١٠٦٧
المبحث الثامن: رضوان الله	١٠٧٥
الخاتمة	١٠٨٥
الفهارس	١٠٩٥
الآيات القرآنية	١٠٩٧
الأحاديث والآثار	١١٨٥
الأعلام	١٢٠١
المراجع	١٢٠٧
الموضوعات	١٢٣٥

* * *